« خروشوف يتذكر » ، تاريخ فريد من نوعه . لم يسبق طيلة السنين الخمسين الاخيرة ان نقل الينا أحد من زعماء الاتحاد السوفياتي هذه الصورة الواضحة عن حياة روسيا السياسية منذ قيام الثورة سنة ١٩١٧ . وقلما تسنى لاحد حتى الآن دخول حلقة السلطة في الكرملين ونقل للعالم الخارجي كل ما جرى هناك ، بصدق وامانة ، كما يفعل خروشوف في هذا الكتاب .

في هذه الصفحات يعطينا خروشوف نظرات واضحة عما جال في عقول قادة السوفيات وعن مكامن الضعف والقوة لدى اقرانه الذين قادوا الاتحاد السوفياتي والعالم الشيوعي في السنوات الخمسين الاخيرة : من ستالين إلى بولغانين وبيريا وفوروشيلوف ومالنكوف وجوكوف ومولوتوف وميكويان وكاغانوفتش وغيرهم .

« خروشوف يتذكر » ، هو عمل ضخم للانسان الذي فتح الاتحاد السوفياتي على العالم ونقل روسيا إلى القرن العشرين .

ادوار كرانشكو ، الذي وضع مقدمة الكتاب والتعليقات والملاحظات ، يعتبر من اكثر الغربيين اطلاعاً ومعرفة بالحياة الروسية . فقد عاش في روسيا واوروبا الشرقية مدة طويلة كمراسل للاوبزرفر . وقد سبق له ان كتب قصة حياة خروشوف، سنة ١٩٦٦ ، وله ثلاثة مؤلفات عن الحياة في الاتحاد السوفياتي .

أما ستروب تالبوت الذي نقل الكتاب عن الاصل الروسي ، فهو اختصاصي في ادب القرنين التاسع عشر والعشرين الغربيين (بما في ذلك الأدب الروسي) .

خروشوف يتذكّر

مقدمة وتعليق وملاحظات

ادوار كرانكشو

دار النهار للنشر ش.م.ل
بيروت لبنان

نقله عن الاصل الروسي وجمعه وحرره بالانكليزية

ستروب تالبوت

نقل عن الانكليزية

دار النهار للنشر ش.م.ل.

بيروت ١٩٧١

المحتويات

المقدمة ١٣

ملاحظات المحرر ٢٧

تمهيد ٣١

القسم الاول : من مناجم الفحم الى الكرملين

١ — السنوات الأولى ٣٩

سنوات الصعوبات ٣٩

صعود الدرجات الأولى في سلم الحزب ٤٥

٢ — العمل الحزبي في موسكو ٥٩

من الاكاديمية الصناعية إلى المكتب السياسي ٥٩

اب المدينة ٧٤

٣ — الارهاب ٨٦

تشريك الارض ٨٦

سنوات التطهير ٩٠

بيريا يرتفع إلى سدة السلطان ١٠٥

٤ — العودة إلى اوكرانيا ١١٧

الجسم الحزبي يعود إلى الالتئام ١١٧

الاكاديمي باتون ١٢٧

البحث عن المتاعب في صناعة دواليب المطاط ١٣١

٥ — مقدمة إلى الحرب ١٣٦

العلاقات السوفياتية — الالمانية ١٣٦

التقدم إلى داخل بولونيا ١٤٦

ضم اوكرانيا الغربية ١٥٤

حرب الشتاء مع فنلندا ١٦١

الجيش الاحمر عشية بربروسا ١٦٨

٦ — الحرب الوطنية الكبرى ١٧٧

اشد الساعات حلكاً ١٧٧

كارثة خاركوف ١٩٢

ستالينغراد ١٩٩

الجنرال مالينوفسكي ٢١٠

زيارة من الرفيق اولبرخت ٢١٤

كورسك ٢١٧

النصر ٢٢٠

ستالين والحلفاء ٢٢٦

٧ — مجاعة في اوكرانيا ٢٣٥

٨ — سنوات ستالين الاخيرة ٢٥٢

قضية لينينغراد ٢٥٢

عداوة ستالين للسامية ٢٦٣

مؤلفات ستالين النظرية ٢٧٣

المؤتمر الحزبي التاسع عشر ٢٧٩

مؤامرة الاطباء ٢٨٥

سفتلانا ٢٩١

المآدب والنزهات مع ستالين ٢٩٨

الخوف والمكائد في دائرة ستالين الداخلية ٣٠٨

موت ستالين ٣١٦

٩ — الخلافة ٣٢١

التآمر على اسقاط بيريا ٣٢١

مؤتمر الحزب العشرون ٣٣٩

القسم الثاني : العالم الخارجي

١٠ — البلدان الشقيقة ٣٥٣

١١ — الحرب الكورية ٣٦٢

١٢ — حسم النزاع مع تيتو ٣٦٨

١٣ — مؤتمر القمة في جنيف ٣٨٥

١٤ — زيارة لندن ٣٩٣

١٥ — اعادة النظام في المجر ٤٠٨

١٦ — عبد الناصر والسويس وسد اسوان ٤٢٢

١٧ — ازمة برلين ٤٤٣

١٨ — ماوتسي تونغ والانشقاق ٤٥٢

١٩ — هوشي منه وحرب فيتنام ٤٦٨

٢٠ — فيدل كاسترو وازمة الكاريبي ٤٧٦

٢١ — دفاعاً عن الفردوس الاشتراكي ٤٩٠

الملاحق

١ — التتابع التاريخي لسيرة خروشوف ٥٠٧

٢ — المؤسسات والمصطلحات السوفياتية ٥١٣

٣ — زملاء خروشوف في الكرملين ٥١٧

٤ — خطبة خروشوف السرية في المؤتمر العشرين ٥٢٧

هذا الكتاب يتألف من مواد تنبع من مصادر مختلفة ، وفي أوقات وظروف مختلفة . ان الناشر مقتنع اقتناعاً لا يرقى اليه شك بصحتها، وقد بذل جهداً للتثبت من ذلك. ان هذا سجّل حقيقي لكلمات نيكيتا خروشوف . أمّا اذا كان المؤلف قد شاء او توقع أن تدفع كلماته إلى النشر أم لا ، سواء في بلاده أم في الغرب ، فأمر يخضع للتكهّن والتقدير . ان الناشر يتحمّل المسؤولية كاملة عن الطريقة التي قدم فيها نيكيتا خروشوف في هذه الذكريات . وبالاضافة ، فانه يفعل ذلك انطلاقاً من ان اصالة هذه الذكريات وأهميّتها تشهدان على قيمتها .

المقدمة

كانت الخاطرة الأولى التي راودتني عندما أخبرت بوجود ذكريات نيكيتا خروشوف انه سيثبت ، لا محالة ، كونها مزيّفة . ذلك ان وثائق كثيرة سبق تلفيقها في الغرب لاهداف سياسية او تجاريّة .

ولكنني لم امض في قراءتها طويلاً حتى أحسست بما لا يقبل الريب بانني ازاء ذكريات خروشوف الحقيقيّة ، وما ان أتيت على آخرها حتى تحوّل احساسي ذاك الى يقين راسخ . هوذا صوت خروشوف ذاته ، لا لبس فيه . وهو اذ يتحدّث من عالم النسيان البعيد ، يبدو نابضاً بالحياة ، قوياً . ولم يكن ليخامر الذين استمعوا اليه ، وهو في اوجه ، او قرأوا خطبه بالروسيّة ، ادنى شك في صدق النبرة . انني قرأت كل كلمة نشرت لخروشوف منذ اواخر العشرينات ، وفي عدد من المناسبات التقيته وجهاً لوجه ، واستمعت اليه في احاديثه الخاصة والعامة داخل الاتحاد السوفياتي وخارجه . ذلك انني ندبت نفسي بصورة مستديمة لمهمّة درس شخصيته ، وتقصّي دوافعه ، والتعمّق في طباعه وخصاله على مدى خمسة عشر عاماً ، اي منذ استدعاه ستالين من كييف في شتاء ١٩٤٩ ، حتى افول نجمه في ١٩٦٤ .

وانني واثق ، على قدر امكان المرء في الثقة بشيء لا يمكنه اثباته علمياً ، ان الرجل الذي يتحدث عبر هذا الصفحات هو عينه الذي عرفته في جميع نواحي حياته العامة ، وفي المساعي الخفية التي بذلها (والتي مع الاسف ، ستظلّ خفية بالنسبة الى هذه الذكريات) في صراع الاستيلاء على السلطة والمحافظة عليها .

وهو الان ، اذ تتقدم به السنون ، ويرهقه المرض وينال منه التعب ، ويفتقد حيويّته التي لم تعد كسابق عهدها ، يبدو ، ربما بسبب ذلك كلّه ، أكثر بوحاً بمكنوناته .

وهكذا ، فان بين ايدينا الان سفراً تاريخياً لسيرة شخصية فريدة وغير عادية . وهذه السيرة برغم محدوديتها ، وبالرغم مما يشوبها من تهرّب وتستر على خفايا وخداع وحذف (منه ما حصل عمداً ، ومنه كما هو واضح ، قد سقط سهواً بسبب ضعف الذاكرة وتقدّم السن) الاّ انها تبقى الأثر الأول من نوعه يصدر عن زعيم

سياسي سوفياتي من الحقبة الستالينية وما بعدها . انه ينقلنا مباشرة الى ما كان ، من قبل ، ارضاً حراماً على العقل .

ان ما يستأثر باهتمامي في هذه الذكريات ويعطيها ، في نظري ، قيمتها الكبرى هو هذا البوح غير الواعي بالموقف الضمني : الافتراضات والجهل والاراء المشوّهة والتي لا بد انها متقاسمة ، بنسب متفاوتة بين جميع اولئك القادة السوفيات الذين بلغوا النضج في ظل ستالين ، واهلتهم لنيل حظوة لديه قدرتهم المذهلة على الجمع بين القسوة المطلقة والطاعة التي تكاد تكون كاملة .

ولكن كيف اتفق وجمعت هذه الوثيقة الممتازة ، ولماذا ؟ هنا عليّ ان ابادر فوراً الى القول أنني لا ادري . لقد استند قراري الشخصيّ بتبني صحتها على دليل وحيد هو النسخة الروسيّة المطبوعة على الالة الكاتبة دون اي شيء اخر . وهذه حالة ، تبدو ، لأول وهلة ، غير كافية على الاطلاق الا انها ليست مستهجنة عندي (رغم غرابتها الوافية) كما قد تكون بالنسبة للذين يعملون في مجتمعات منفتحة او يتعاطون معها اذ تعوز هؤلاء خبرة العمل في جو من الممنوعات والاجراءات التآمرية التي تحيط بمعظم النشاطات البشريّة البديهيّة في الاتحاد السوفياتي .

وغالباً ما كنت في الماضي اجد نفسي مضطراً الى قصر اعتمادي على تقديري وتجربتي الشخصيتين في تقرير صدق او بطلان هذه الوثيقة المكتوبة بالروسية او تلك . كما ان العكس قد حدث لي ، اذ دفعت في مناسبات عديدة ، وثائق معيّنة الى النشر كنت اعرف مصادرها الا انني تعهّدت بعدم كشفها لاي شخص آخر . من هنا انني لم افاجأ او اصدم عندما اكتشفت ان اياً من الاسئلة التي خطرت لي حول هذه الذكريات ستبقى دون جواب .

الا ان سؤالاً واحداً بقي منتصباً امامي : اترى هؤلاء المسؤولون عن نقل هذه المادة الى الغرب ، يستغلونها في حرب سياسية ؟ وبصورة خاصة ، هل هي سلاحهم لتدمير مؤلفها نهائياً ؟ وهنا ايضاً ، تبادر اليّ للوهلة الاولى ، ان ثمة جناحاً في الكرملين او حوله ، يهمه تعريض خروشوف نفسه للشبهة او التعريض بافراد او جماعة في القيادة السوفياتية الحالية . الا ان قراءة مدققة لهذه الذكريات بمجموعها كانت كافية لدحض مثل هذه الفكرة .

ان هذه الصفحات لا تبرز خروشوف على احسن حال . لكنّه ايضاً ، وبالمقاييس الحكوميّة السوفياتية ، لا يخرج منها بشكل سيء اطلاقاً : فيها الكثير من التبرير الذاتي . امّا الاعترافات المضرّة فعلاً ، فهي التي صدرت منه عن غير وعي ، فضلاً عما تم اغفاله او تحوشي قوله .

الا ان الاهم من هذا كلّه ، ان ليس في هذه الذكريات هجوم مباشر على أحد

من العاملين الان او الذين يحتلون مناصب في الاتحاد السوفياتي . ان الهدف الرئيسي للانتقاد هو ستالين نفسه ، ومن ثم بيريا ويليه في المرتبة الثالثة ، كاغانوفيتش ومالنكوف . وجميع هؤلاء اما طواهم الموت او تقاعدوا .

بامكان المرء الافتراض ان الغرض الرئيسي الذي دفع الشخص او الاشخاص المسؤولين الى كشف هذه الذكريات في الغرب — ويبدو بالتأكيد ان هذا من الاغراض الرئيسية — كان مواجهة المحاولات الراهنة لرد الاعتبار الى ستالين .

امّا الكتاب نفسه فسجل متقطّع سيشتمل على افكار وذكريات أحسن انتقاءها رجل عجوز يحاول تبرير ذاته . وقد حوّل السيد تالبوت هذا السجلّ الحافل احياناً بالتناقض وعدم الدقة والتكرار والفجوات ، الى سرد متسلسل منتظم .

ولا بد في هذا المجال من كلمة حول المواضيع التي يتناولها الكتاب وتلك التي لا يتناولها — ثمّة فئتان بالطبع من القراء : القارئ العادي الذي سمع الكثير وقرأ القليل عن روسيا في ظل ستالين وعن خروشوف ، لكن الفرصة لم تسنح له كي يتعمّق في ذلك . والقارئ الاختصاصي الذي يعرف القصة كلّها ، والذي سيبحث في هذه الصفحات عن تأكيد ، او تصحيح ، وقبل كل شيء ، عن اسهاب حول ما يعرفه سلفاً .

ان الكثير من الاحداث في هذا السرد ، وربما النبرة العامة فيه ، تتسم ، بالنسبة للقارئ العادي ، على ما أعتقد ، بطابع المفاجأة . ولهذا القارئ بالذات كتبت مقدمة صغيرة لكل فصل من فصول الكتاب واضفت ملاحظات ، مشيراً الى ما أغفل ، ومصحّحاً الافادات او التلميحات الخاطئة ، معترفاً باصحاب الاسماء الواردة ، ومحاولاً بصورة عامة وضع الأمور في نصابها .

امّا القارئ المختصّ ، فلا تواجهه في هذا السرد مفاجآت كبرى . انه يعرف القصة كلّها ، وهو ليس بحاجة اليّ ولا لايّ كان ، لتوضيح الامور الواردة في الذكريات والتعليق عليها نقطة فنقطة . غير انه سيجد تأكيداً قيماً لعدد من الحقائق سبق الاشتباه بها او التوصّل اليها بالاستقراء ، فضلاً عن تفاصيل جديدة لا تحصى وصوراً حية من حياة خروشوف ستضيء صورته الراهنة . وقبل هذا كلّه ، فسيلقى محاولة لاعادة رسم الجو والمزاج اللذين سيطرا على بلاط ستالين . اما صورة ستالين نفسه في هذا السرد ، فتؤكّد وتوسّع اطار الصورة التي اعطانا اياها اول الأمر ميلوفان دجيلاس في كتابه الرائع «محادثاتي مع ستالين» ثم في كتاب سفيتلانا الليلوييفا «عشرون رسالة الى صديق» . وهي صورة مختلفة كثيراً عن الصورة التقليديّة التي سيطرت على المسرح السياسي قرابة ٣٠ عاماً ، اي منذ قبض ستالين على زمام السلطة الى مرور سنوات قليلة من وفاته ، والتي كان يصعب ان تفيدنا في

التعرف الى حقيقة الرجل .

ويضيء خروشوف في هذا الكتاب ذاته ايضاً . وهو يمكّننا من تعقّب تطوره كانسان وكزعيم للحزب ، منذ اوائل ايامه حتى وفاة ستالين . وهو يكشف امامنا الكثير من بواطن تفكيره ونشاطه كرجل دولة عالمي ، منذ ١٩٥٥ ، عندما بدأ يمارس السلطة العليا الى حين سقوطه في ١٩٦٤ . على ان ما يبقى غائباً عن الصورة هو ايّ ذكر لقصة الصراع على السلطة داخل الكرملين الذي انتهى بانتصاره ثم هزيمته .

في الكتاب رواية توقف شعر الرأس عن اعتقال بيريا بعد ثلاثة اشهر من وفاة ستالين . لكن بعد ذلك وباستثناء رواية شخصية جداً عن المؤتمر العشرين للحزب وباستثناء بذور من الخطبة السريّة التي هاجم فيها ستالين في اوائل ١٩٥٦ ، فانه لا يطلعنا على شيء من عناصر المشهد الداخلي خلال الحقبة الخروشوفية : لا النزاعات الكبرى حول المناهج والسياسات الخاصة بالزراعة والصناعة وهيكل الحكومة ، ولا لعبة السلطة التي كان خروشوف ضالعاً فيها بعمق ، كما كان ماهراً بها .

ومن الضروري توضيح هذا الأمر ، منذ البداية . ان القارئ العادي الذي لا يشدّه اي اهتمام خاص لتفاصيل المناورات التي جرت على المستويات العليا في الحزب الشيوعي السوفياتي ، نادراً ما يهزّه هذا الفراغ . اما القارئ الاختصاصي ، فليس له الاّ ان يأمل ان هذا الفراغ سيملأ في يوم من الايام ، ولو جزئياً .

وفي الوقت نفسه علينا الافادة مما لدينا ، وهو ليس بالقليل.وهذا السرد يقوم على امرين رئيسيين اولا : التقديم الذاتي لرجل عادي ارتفع من وسط قروي متواضع حتى أصبح سيداً على احدى أكبر دولتين في العالم، وثانياً تعرية ستالين بصورة تدعم ما ورد عنه في الخطبة السرّية والتوسع فيها . ويبدو خروشوف قلقاً جداً من المحاولات التي جرت في السنوات القليلة الماضية لرد الاعتبار الى ستالين . وهو يبذل جهده لكي يجعل رد الاعتبار في منتهى الصعوبة.وليس لدى خروشوف الاّ القليل يضيفه الى ما باح به في خطبته السريّة عن جرائم ستالين الفعليّة . وهو في تلك الخطبة قد ذهب في نواحٍ معيّنة الى أقصى حدّ من التفصيل . لكن لا يغيب عن بالنا ان الخطبة السريّة لم تنشر داخل الاتحاد السوفياتي وانما وزعت على سكرتيريي الحزب في كل انحاء البلاد فقط ، وقرئت بصوت عالٍ ، مجتزأة او بكاملها ، في ندوات عقدت للقواعد الحزبية .

فلم يكن لهؤلاء الذين استمعوا اليها الا ان يحفظوا منها ما وسعت ذاكرتهم . لكن ابناء الشعب السوفياتي لم يتح لهم ان يقرأوها لانفسهم . ثم ان رواية خروشوف عن كيف قرّر القاء خطبته الشهيرة فانها ، رغم ما يكتنفها من شكوك ، تمثّل في

الواقع اول إقرار علني بان الخطبة القيت فعلاً .

وفي ضوء هذه المعطيات كلّها ، من الطبيعي ان توفر هذه الذكريات ، كما خطر للاذهان منذ الوهلة الاولى ، حقائق يعرفها العالم الخارجي منذ مدة طويلة . وان الغرب ، كما هو الأمر بالنسبة الى عدد من القضايا وعلى مدى سنوات عدّة ، لم يزل أكثر اطلاعاً على تفاصيل جرائم ستالين من الروس انفسهم .

لكن التوكيد هنا على جرائم ستالين، رغم توفره بصدد بعضها ، اقل من التوكيد على مواقفه العامة وسلوك حلقته الخاصة ، وعلى علاقته بمعاونيه المباشرين وعلاقة هؤلاء به .

وفي هذه الناحية بالذات يجد خروشوف نفسه إزاء مأزق . اذ انه في ادانته لستالين انما يدين نفسه . وفي الخطبة السريّة اصاب بعض النجاح في تفادي الاصطدام بهذه المشكلة ، لأنه لم يكن يعرض فيها سيرة حياته ، وانما ينتقي ما يفضح افراط ستالين في عدد من الحقول . ولكنه في هذا السرد الشخصي يرى نفسه مضطراً بالفعل الى السير على الجليد . فهو رغم تدبّره أمر طمس دوره الخاص في الارهاب الذي ساد ذاك الزمان (على سبيل المثال تأييده العلني لستالين في ذروة اعمال التطهير وفي المحاكمات بتهمة الخيانة في ١٩٣٦ — ١٩٣٧ ، واعمال التطهير التي قام بها هو نفسه في اوكرانيا في ١٩٣٨) ، فان ما يقوله كاف في الواقع لأن يشكّل أكثر الاعترافات ادانة لنفسه اذ يؤكد تواطؤه مع ستالين على مدى حقبة طويلة من اشد الايام سوءاً .

وهو يعرف ذلك بوضوح ، رغم انه ، وهو يستعيد في هدوء مضطرب وحشية الماضي وآثامه ، يبدو غير واعٍ حتّى الان ، والى حد بعيد ، عمق الفساد الذي تردّى فيه هو وجميع رفاقه ، بمجرّد استمرارهم في مناصب السلطة في ظل ستالين . ان خروشوف بادانته ستالين في الخطبة السريّة ، وبالتالي ادانته نفسه ضمناً ، كان يدين ايضاً نظام الحكم كلّه الذي جعل من الممكن قيام ستالين . وقد خلت الخطبة السرية ، بالطبع ، من ادنى تلميح الى أن ستالين هو الذي انحرف بالنظام منذ اواسط الثلاثينات .

وانّ اي شيوعي أجنبي ، والامين العام للحزب الايطالي الشيوعي تولياتي هو ابرز هؤلاء، لم يجد اذناً صاغية عند اقتراحه وجوب اعادة النظر الجذريّة في النظام الذي اتاح لستالين التصرّف كما فعل . وهو أمر يبدو مفهوماً ، اذ ان خروشوف قد ورث النظام من ستالين وحوّله الى نظامه ، دون ان يستطيع تخيّل نظام آخر . غير انه يذكر الان وهو في شيخوخته لمعات هنا وهناك توحي بانه تردّد كثيراً في عدد من الأمور .

التعرف الى حقيقة الرجل .

ويضيء خروشوف في هذا الكتاب ذاته ايضاً . وهو يمكّننا من تعقّب تطوره كانسان وكزعيم للحزب ، منذ اوائل ايامه حتّى وفاة ستالين . وهو يكشف امامنا الكثير من بواطن تفكيره ونشاطه كرجل دولة عالمي ، منذ ١٩٥٥ ، عندما بدأ يمارس السلطة العليا الى حين سقوطه في ١٩٦٤ . على ان ما يبقى غائباً عن الصورة هو ايّ ذكر لقصة الصراع على السلطة داخل الكرملين الذي انتهى بانتصاره ثم هزيمته .

في الكتاب رواية توقف شعر الرأس عن اعتقال بيريا بعد ثلاثة اشهر من وفاة ستالين . لكن بعد ذلك وباستثناء رواية شخصية جداً عن المؤتمر العشرين للحزب وباستثناء بذور من الخطبة السريّة التي هاجم فيها ستالين في اوائل ١٩٥٦ ، فانه لا يطلعنا على شيء من عناصر المشهد الداخلي خلال الحقبة الخروشوفية : لا النزاعات الكبرى حول المناهج والسياسات الخاصة بالزراعة والصناعة وهيكل الحكومة ، ولا لعبة السلطة التي كان خروشوف ضالعاً فيها بعمق ، كما كان ماهراً بها .

ومن الضروري توضيح هذا الأمر ، منذ البداية . ان القارئ العادي الذي لا يشدّه اي اهتمام خاص لتفاصيل المناورات التي جرت على المستويات العليا في الحزب الشيوعي السوفياتي ، نادراً ما يهزّه هذا الفراغ . اما القارئ الاختصاصي ، فليس له الاّ ان يأمل ان هذا الفراغ سيملأ في يوم من الايام ، ولو جزئياً .

وفي الوقت نفسه علينا الافادة مما لدينا ، وهو ليس بالقليل.وهذا السرد يقوم على امرين رئيسيين اولا : التقديم الذاتي لرجل عادي ارتفع من وسط قروي متواضع حتى أصبح سيداً على احدى أكبر دولتين في العالم، وثانياً تعرية ستالين بصورة تدعم ما ورد عنه في الخطبة السرّية والتوسع فيها . ويبدو خروشوف قلقاً جداً من المحاولات التي جرت في السنوات القليلة الماضية لرد الاعتبار الى ستالين . وهو يبذل جهده لكي يجعل رد الاعتبار في منتهى الصعوبة.وليس لدى خروشوف الاّ القليل يضيفه الى ما باح به في خطبته السريّة عن جرائم ستالين الفعليّة . وهو في تلك الخطبة قد ذهب في نواحٍ معيّنة الى أقصى حدّ من التفصيل . لكن لا يغيب عن بالنا ان الخطبة السريّة لم تنشر داخل الاتحاد السوفياتي وانما وزعت على سكرتيريي الحزب في كل انحاء البلاد فقط ، وقرئت بصوت عالٍ ، مجتزأة او بكاملها ، في ندوات عقدت للقواعد الحزبية .

فلم يكن لهؤلاء الذين استمعوا اليها الا ان يحفظوا منها ما وسعت ذاكرتهم . لكن ابناء الشعب السوفياتي لم يتح لهم ان يقرأوها لانفسهم . ثم ان رواية خروشوف عن كيف قرّر القاء خطبته الشهيرة فانها ، رغم ما يكتنفها من شكوك ، تمثّل في

الواقع اول إقرار علني بان الخطبة القيت فعلاً .

وفي ضوء هذه المعطيات كلّها ، من الطبيعي ان توفر هذه الذكريات ، كما خطر للاذهان منذ الوهلة الاولى ، حقائق يعرفها العالم الخارجي منذ مدة طويلة . وان الغرب ، كما هو الأمر بالنسبة الى عدد من القضايا وعلى مدى سنوات عدّة ، لم يزل أكثر اطلاعاً على تفاصيل جرائم ستالين من الروس انفسهم .

لكن التوكيد هنا على جرائم ستالين، رغم توفره بصدد بعضها ، اقل من التوكيد على مواقفه العامة وسلوك حلقته الخاصة ، وعلى علاقته بمعاونيه المباشرين وعلاقة هؤلاء به .

وفي هذه الناحية بالذات يجد خروشوف نفسه إزاء مأزق . اذ انه في ادانته لستالين انما يدين نفسه . وفي الخطبة السريّة اصاب بعض النجاح في تفادي الاصطدام بهذه المشكلة ، لأنه لم يكن يعرض فيها سيرة حياته ، وانما ينتقي ما يفضح افراط ستالين في عدد من الحقول . ولكنه في هذا السرد الشخصي يرى نفسه مضطراً بالفعل الى السير على الجليد . فهو رغم تدبّره أمر طمس دوره الخاص في الارهاب الذي ساد ذاك الزمان (على سبيل المثال تأييده العلني لستالين في ذروة اعمال التطهير وفي المحاكمات بتهمة الخيانة في ١٩٣٦ — ١٩٣٧ ، واعمال التطهير التي قام بها هو نفسه في اوكرانيا في ١٩٣٨) ، فان ما يقوله كاف في الواقع لأن يشكّل أكثر الاعترافات ادانة لنفسه اذ يؤكد تواطوءه مع ستالين على مدى حقبة طويلة من اشد الايام سوءاً .

وهو يعرف ذلك بوضوح ، رغم انه ، وهو يستعيد في هدوء مضطرب وحشية الماضي وآثامه ، يبدو غير واعٍ حتّى الان ، والى حد بعيد ، عمق الفساد الذي تردّى فيه هو وجميع رفاقه ، بمجرّد استمرارهم في مناصب السلطة في ظل ستالين . ان خروشوف بادانته ستالين في الخطبة السريّة ، وبالتالي ادانته نفسه ضمناً ، كان يدين ايضاً نظام الحكم كلّه الذي جعل من الممكن قيام ستالين . وقد خلت الخطبة السرية ، بالطبع ، من ادنى تلميح الى أن ستالين هو الذي انحرف بالنظام منذ اواسط الثلاثينات .

وانّ اي شيوعي أجنبي ، والامين العام للحزب الايطالي الشيوعي تولياتي هو ابرز هؤلاء، لم يجد اذناً صاغية عند اقتراحه وجوب اعادة النظر الجذريّة في النظام الذي اتاح لستالين التصرّف كما فعل . وهو أمر يبدو مفهوماً ، اذ ان خروشوف قد ورث النظام من ستالين وحوّله الى نظامه ، دون ان يستطيع تخيّل نظام آخر . غير انه يذكر الان وهو في شيخوخته لمعات هنا وهناك توحي بانه تردّد كثيراً في عدد من الأمور .

ولعل أكثر المعالم اثارة للاهتمام ، في هذا المجال ، الفصل القصير عن انشاء التعاونيات الزراعية وما ورد فيه من ان «نمط تعاونيات ستالين لم تعد علينا الا بالبؤس». وهو يتحدث بذلك عن الكارثة التي ادت الى موت الملايين ، وخفضت الانتاج الزراعي في الاتحاد السوفياتي الى النصف ، واسهمت أكثر مما اسهم اي عامل منفرد آخر في اخضاع الشعب السوفياتي الى ضرب من ضروب العبودية ، وفي التسبب باختلال في التوازن الاقتصادي لا يزال يهدد القيادة حتى الان.

ولو كان خروشوف قادراً على الادلاء بهذا الاعتراف وهو بعد في السلطة ، لكانت السماء وحدها تعرف الى ما يمكن ان يؤدي ذلك . وفي هذا السرد ايضاً ملاحظات أخرى ، هنا وهناك ، لا يقل ما تضمره تفجراً عن غيره .

واود أن اقول هنا انني لم أر من المرغوب فيه دحض كل الادعاءات والافادات والذرائع التي اعارضها . ان وجهات نظري الخاصة في خروشوف وانجازاته واخفاقاته مسجلة كلها . اما هنا ، فانه يتحدث باسمه . واني لم افعل ، في التعليق الخاص (ضمن الكتاب) سوى الاشارة الى ما اغفل في سرده ، والى التناقضات بين الحقائق كما يقدمها هو ، وبين هذه الحقائق كما هي مقبولة بصورة عامة في الغرب .

ثم انه ليس هنا المكان الصالح لاعادة كتابة حياة خروشوف السياسية بالتفصيل . وفي امكان القارئ ان يجد سجلاً للاحداث الرئيسية ، ومعظمها لا يتطرق اليه هو على الاطلاق ، في الفهرس رقم ١ (من الكتاب) . وقد وضعنا في مقدمة كل فصل ايضاحاً او توضيحاً لما يتبع ، واشارة الى ما تجاوزه خروشوف بصمت . وتستأنف عملية التوضيح هذه بمزيد من التفصيل في الحواشي التي اشتملت كذلك على تسمية الاشخاص الرئيسيين المشار اليهم ، باستثناء قلة من المعروفين دولياً . وفي الفهرس رقم ٣ قدم السيد تالبوت سير حياة أشمل لابرز زملاء خروشوف ممن لا يزالون على قيد الحياة . ونستطيع القول بصورة عامة ان خروشوف لا يعدل تجاه نفسه في هذا السرد . الا انه من ناحية أخرى ، اذ يغفل جزءاً كبيراً من ماضيه ليقدم صعوده السريع في ظل ستالين باضواء وردية ، يضفي على نفسه ما يتخطى حدود الانصاف . على ان ما لا يفعله ، او ربما ما لا يستطيع فعله ، هو تقديم السبب الرئيسي لتحوله المذهل من أحد أكثر المقربين الى ستالين الى تلك الشخصية الدولية التي أخذت ، رغم مزاجها واحكامها المسبقة ، تظهر في اواخر عملها السياسي دلائل حكمة من نوع متفوق .

لقد بقي ، بالطبع ، اسير ماضيه حتى النهاية . وفي بعض المجالات تجاوز النظام الذي صنعه والذي ساعد هو في صنعه . لكنه لم يستطع الفرار كلياً من هذا النظام الذي عاد فدمره في النهاية .

ومع هذا فان الانجازات التي حققها كانت استثنائية ، والمزايا التي بدأ باظهارها قبيل نهاية عمله السياسي لم تضف اليه فجأة : لا بد أنها كانت كامنة ، طول الوقت في نفسه ، وذلك عندما كان ، كمحترف حزبي طموح ، يبدو حسب كل المظاهر متملقاً تجاه سيده مستأسداً على من هم دونه ، مناوراً حول منافسيه بمكر قروي متأصل. لقد كان آنذاك ببساطة ، سفاحاً بين السفاحين ، متميزاً عن سواه فقط بنوع من حيوية المخيلة ودفء الشعور ، واعتماد ثابت على النفس ، وفي بعض الاحيان ، بتهور المقامرين . ومن المفارقات ان يكون لدى شخص مشدود الى الستالينية الى هذا الحد ، نوع من التفرد عنها منذ ايامه الاولى . وقد اختلط بالاخرين من كل الانواع أكثر مما فعل اي زعيم سوفياتي قبله او بعده . وخلافاً لاي موظف حزبي اعرفه (او حتى مدير مصنع سوفياتي او مزرعة جماعية) لم يكن يخشى ان يتلطخ حذاؤه بالوحل . وكان منذ ايامه الاولى أكثر ما يكون سعيداً بتنفيذ القوانين وابلاغ الناس ما عليهم فعله او الامتناع عن فعله واين هم على خطأ . وحتى في ذروة مجده كان يقف وسط حقل موحل ، شارحاً لمجموعة من الفلاحين المشككين ، الطريقة المثلى لزرع البطاطا .

لكنه كان ايضاً من كبار المستمعين الذين يتمتعون بفضيلة الاصغاء المستوعب بدقة للامور . وظل حتى نهاية عمله السياسي يتعلم مما يسمع بسرعة فائقة .

رأيته ذات مرة يصغي الى مجموعة من مديري المصانع وقد استحوذ عليه صمت وجمود كليان ، حتى خيل الي انه يحاول ان يسحب الطاقة منهم ليخزنها في نفسه ويحولها الى طاقة خاصة به . ورأيته ، وبصورة خاصة في رحلاته الاولى خارج الاتحاد السوفياتي ، يرتكب الخطأ تلو الخطأ في تتابع سريع — لكنه لم يرتكب الخطأ نفسه مرتين. وفي كل الحالات عندما لم يكن هو نفسه يبدي رأياً ، كان احياناً بفظاظة واحياناً بطيبة ابوية ، يستشهد باقوال الكتاب المقدس التي يبدو ان شعلتها كانت لم تزل متوهجة في اعماقه منذ طفولته ، فتلتمع في عينيه الصغيرتين الغاضبتين تلك النظرة التي توحي ان ثمة رؤى تجول في عينيه . وكان ، بالتأكيد ، يشاهد رؤى .

ومن أكثر الجوانب اثارة للارتباك في هذه السيرة — سيرة رجل سعى الى السلطة لأن اغراءها لا يقاوم ، لكنه حلم ايضاً بعالم افضل للشعب السوفياتي — هو قبوله غير المتردد ، ظاهرياً على الاقل ، ببعض أحقر الفاسدين .

ان اسماء هؤلاء تتردد باستمرار في هذه الصفحات. ويبدو انه كان له ود لرئيس الشرطة ياغودا ويزهوف الكريه الذي تعافه النفس : لقد كانا «شخصين صادقين» قبل ان يسلكا طريق الزلل . وهكذا كان ايضاً ، موقفه من كبير رجال شرطته ايفان سروف الذي كان لطيفاً مع الاطفال وفاتنا ساحراً بالنسبة لاصدقائه ، وذلك

في فترات الاستراحة ، عندما لا يكون يقوم بعملية تطويق مجموعات بشريّة ضخمة وشعوب بكاملها ليرسلها الى سيبيريا او الى الموت .

وتفسير هذا السلوك ، على ما اعتقد هو ان خروشوف نفسه كان عنيفاً بطبعه (وقد كان عنفه هذا ينفجر احياناً حتى عندما اصبح رجل دولة عالمياً) ، والعنف كان المزاج المسيطر تلك الايام . كان هو ورفاقه منهمكين في المهمة اليائسة ، مهمة حمل الشعب السوفياتي على بناء روسيا الجديدة ، وهو أمر لا يمكن تحقيقه من دون دموع . ان اي انسان (وفي الواقع ، الاكثرية الساحقة من الشعب) قاوم هذا التحوّل كان معرضاً للاكراه . واساليب الاكراه كانت وحشية وحاسمة . على ان الأمر الذي عارضه ، كان اعتقال شخص ما من دون، ما يبدو بالنسبة اليه، سبباً كافياً . ولقد اعترض قبل كل شيء على تدمير ستالين «للشيوعيين الشرفاء» . وهو هنا يشدّد ، كما شدّد في الخطبة السريّة عام ١٩٥٦ ، على جرائم ستالين ضد الحزب ، بحيث يبدو صمته تجاه جرائم ستالين ضد الناس العاديين منطقياً تماماً. ذلك انه كان يعتقد فعلا ان الحزب يؤلّف شكلاً اسمى من اشكال الحياة .

ثمة اعتبار آخر . من الواضح ان خروشوف كان كامل الثقة بقدراته بحيث لم يكن يقيم حساباً للاخرين . وهؤلاء كانوا ينقسمون عنده الى فئتين : الاولى تضم الرفاق والمعاونين الذين يخوضون معه المهمة الكبرى ، والثانية تضمّ اطفالاً يصير إطراؤهم والابتسام لهم والاستشاد عليهم ... ومعاقبتهم .

هذا لا يعني ان خروشوف شخص بابصاره ، منذ ايامه الاولى ، الى اعلى الذروات . كان طموحاً ، دون ريب ، الاّ انه كان يملك كذلك حاسة حادة من الشعور بمحدوديته (كان يعي بشدة مثلاً افتقاره الى الدراسة الرسميّة) . ومن المحتمل انه حتى في اوائل الثلاثينات ، عندما وجد نفسه يطأ حدود دائرة ستالين لم يخطر له انه قد يصبح بعد فترة قريبة ضمن تلك الدائرة نفسها . كان من ذلك الصنف من الرجال الذي يبدأ بالصعود في منظمة كبرى ، ويستمر في الصعود مدفوعاً بحب السيطرة على جميع اقرانه ، ثم يأخذ بالتطلع الى فوق .

وفي كل مرحلة من رحلة الصعود الى فوق ، كان يفاجأ بان امكاناته في النجاح تفوق الرجال الذين كانوا يشغلون مناصب أعلى منه . وبهذه الطريقة نفسها ارتقى خروشوف من منصبه الثانوي جداً كمسؤول اقليمي في الحزب في يوزوفكا عام ١٩٢٦ ليصبح بعد ذلك بعشر سنين فقط رئيس فرع الحزب في موسكو كلّها . وفي هذه المرحلة ثبت لديه ان بامكانه ممارسة اي عمل افضل من غيره ، وان بامكانه التفوق في اية مناورة على منافسيه . وهي حقيقة كان صعباً عليه اخفاؤها .

وبرغم ذلك فان الطريق الى المزيد من الترقي كان يسدها جمع من الشخصيات

الكبيرة . وهؤلاء لم يكونوا من المعارضين القدماء الذين انتهوا عملياً ولو لم يقتلوا بل كانوا رجال ستالين انفسهم الذين ايدوه ضد تروتسكي وزينوفيف وكامينيف ، وضد ريكوف وبوخارين . هؤلاء كانوا يشغلون ارفع مناصب الحزب في موسكو وكل انحاء الاتحاد السوفياتي . وكان ستالين ، المدين لهم بالكثير ، قد بدأ ينظر الى البعض منهم بعين الغيرة .

وفي ١٩٣٥ لا بد ان يكون بدا لخروشوف ان تقدمه السريع صعداً ستوقفه ، ربما الى أجل غير مسمّى ، كتلة من الترقيات الأخرى المتراكمة . لكن مفاجأة حدثت في السنوات الثلاث التالية ومهّدت الطريق بتدمير الرجال (من بين ٧ ملايين أخرين على الاقل) الذين وقفوا بينه وبين الدائرة الداخليّة للسلطة . ففي ١٩٣٨ وجد نفسه عضواً مرشحاً للمكتب السياسي ، وبعد ذلك بسنة عضواً كاملاً . والمكتب السياسي (الذي اعيدت تسميته بالبريزيديوم «مجلس الرئاسة» في ١٩٥٢) قدّم نفسه للعالم الخارجي على انه لجنة مطلقة السلطان مؤلفة من رجال قساة الوجوه استطاعوا الخروج صامدين من التطهيرات وتوصّلوا الى القرارات السياسيّة الكبرى بعد مداولات مطوّلة . لكنه اتضح منذ بعض الوقت — وبصورة خاصة عبر مذكرات ميلوفان دجيلاس وسفيتلانا الليلويفا — ان الأمر لم يكن كذلك . كان ستالين وحده يتخذ القرارات وكان يأمر الذين حوله بتنفيذها . وكان خروشوف دون ريب يتعمّق أكثر في عقل واعصاب الرجل الشرير الذي جعل من كلمته قانوناً ، ووقف في وجه تشرشل وأربك روزفلت ، ثم جعل واحدهما يقف ضد الآخر (رغم ان اياً منهما لم يكن يخشى في اية حال ان يسجن او يعدم) ، ناهيك بصدق الصورة التي تبعث الرعدة في النفوس عن كيف كان يقضي اعماله في سنواته الاخيرة .

كان في امكان ستالين دائماً ان يظهر صفات كاسحة من التبصّر وبرود الاعصاب كما حصل مثلاً بالنسبة الى قراره بابقاء روسيا خارج الحرب في كوريا الشمالية . فلم تكن هناك اجتماعات رسمية بل كان ستالين في معظم الاوقات يترك عالمه منفلتاً ويجلس في منتصف الليل يشاهد فيلماً غبياً . وكان يسكر مرعوباً ، من ان يبقى وحده ، ولكنه في الوقت نفسه جاعلاً الحياة صعبة بالنسبة للرجال الذين يبقيهم ، ملقياً التعليمات والتهديدات بلهجته الجيورجية العفوية (كل تعليماته كانت تهديدات) لجماعة مستزلمة ، هي اسوأ ما يحيط برجل يسرف في معاقرة الخمرة ويفتقر الى النوم .

وكانوا بمجرد ان يتفوّه بكلمة واحدة ، ينهضون ليحرّكوا الالة نفسها من أجل اعتقال فرد لم يسمع به واحد منهم من قبل ، او تطويق وترحيل شعب كامل (الشينيون وتتر القرم) او اعدام واحد من أقرب رفاقه ، او اعادة كتابة تاريخ

الحزب الشيوعي السوفياتي كاملاً ، او تقديم نمط جديد من الزراعة مكفول ان ينتج محصولاً مصيره التلف في منطقة بحجم اوروبا الغربيّة .

كان تعيين خروشوف نائباً لستالين في اوكرانيا عام ١٩٣٨ انقاذاً له . اذ انه بذلك ، ظلّ ١٢ عاماً بعيداً عن موسكو ، عن المناورات اليوميّة للوصول الى المناصب ، عن الدسائس ، عن التزلّف والاغتياب ، وكل ما كان يجري في ظل ستالين ويوهن حتى الرجال القديرين امثال مالينكوف . ولثلاث سنوات قبل الحرب ، ولخمس سنوات بعد ١٩٤٤ كان خروشوف سيداً على اربعين مليون نفس بشرية من الروس البسطاء (الصغار) النشيطين ، والأكثر واقعية وعملاً من روس موسكو المسيطرين (الكبار) ، وهم يسكنون ارض الحدود التي كانت آنذاك اهراء الاتحاد السوفياتي وقاعدته الصناعيّة .

هنا ، بقدر ما أمكن ذلك في ظلّ ستالين ، كان خروشوف سيد نفسه ، قادراً على تنمية مواهبه وطباعه ، التي كان يمكن في غير هذه الحال ان تفسد بحيث يتعذّر انقاذها . وقد مارس الحكم في البداية بعجرفة هي اسوأ ما يمكن ان يمارسه حاكم استعماري . ثم جاءت الحرب . والآن ، وهو في البزة العسكريّة ، وكمستشار سياسي لبعض اقدر الجنرالات ، انفتح امامه للمرة الاولى مدخل الى عالم بعيد عن دائرة الكرملين المغلقة . وقد وجد نفسه يقف الى جانب الجنود ضد رفاقه في الحزب كما انه عرف عن كثب الكراهية المريرة للنظام — النظام الذي ينتمي هو اليه — تلك الكراهية التي أظهرها أهل أوكرانيا في الايام الاولى من الحرب . واخيراً عاين ايضاً عن كثب ، العذاب المرعب الذي كان على الاوكرانيين مواجهته، وكيف انهم تحولوا ضد الالمان بعد ان كانوا قبلوهم في البداية كمحررين ، فحاربوهم حتى الموت — وقد جعلوا بذلك من ستالين الذي كان غير جدير بثقتهم ، نصف إله .

ان احداً من قادة الحزب، باستثناء أ. أ. كوزنتسوف الذي شهد حصار لينينغراد ثم اعدمه لينين بعد ذلك بفترة قصيرة ، لم يختبر لمدة طويلة وبحيوية مفعمة ، وقائع الحياة في روسيا السوفياتيّة الستالينيّة ، كما فعل خروشوف . اعتقد ان ذلك قد بدّله تبديلا . واعتقد ان الاعتماد على النفس الذي نمّاه وهو سيد اوكرانيا ، والمكر الصبور الذي عمل على صقله بمواجهة ستالين ، قد افاده كثيراً عندما استدعي الى موسكو في نهاية ١٩٤٩ ، ثم لدى وفاة ستالين في ١٩٥٣ ، اذ سنحت له فرصة تسلّق الذروة .

وقد تصرف في البداية بحذر شديد . وبعدما تآمر مع سائر الورثة على قتل بيريا (روايته عن مقتل بيريا — لا عن الاجراءات التي آلت الى ذلك — ستظلّ على الارجح هي المعتمدة) دخل لبعض الوقت مسرحية الحكومة الجماعية . لكنه كان دائماً يعمل

من أجل تقويض مالنكوف ، منافسه الاقوى والأكثر مقدرة ، والذي كان يحاول تركيز قوته ليس على جهاز الحزب الرجعي بل على الجيل الجديد من التكنوقراطيين الاداريين .

وكان خروشوف ، باديء ذي بدء ، يراقب مالينكوف بصمت وهو يضع المشاريع على انواعها من أجل الاصلاح الداخلي والتعاون الدولي . ثم ضرب ضربته ، مثيراً قوى الرجعية ، باسم لينين ، من أجل اسقاط منافسه . ومن ثم ، ومن دون ان يرف له جفن ، انتقل الى تبنّي افكار التعايش والاصلاح على انها افكاره . وهكذا فانّه ، حتى في صراعه من أجل الاستيلاء على السلطة التي ستمكنه من الانشقاق على الستالينية ، استخدم الاساليب التي تعلّمها من ستالين .

كانت تلك مسرحية رائعة جداً وصلت الى ذروتها في المؤتمر العشرين للحزب وفي الحملة الستالينية في ١٩٥٦ . وبرغم أن خروشوف وجد نفسه في وضع خطير دقيق عندما ادّت حملة نزع الستالينيّة مباشرة الى حركتي التمرد في بولونيا والمجر (والى تثبيط معنويات الشعب السوفياتي الذي لم يشف من اثارها حتى الان) الا انه استطاع ان يبقى . وقد رفض الخضوع لتصويت الأكثرية في البريزيديوم التي طالبت باستقالته ، وطلب ان تستمع اليه اللجنة المركزيّة بأكملها وفقاً لنظام حزبي لم يكن أحد قد التفت اليه طول سنوات ، واستحضر مؤيديه في اللجنة المركزية من كل انحاء الاتحاد السوفياتي الذين سهّل طيرانهم الى موسكو المارشال جوكوف باقامة جسر جوي ضخم . ثم عرض خروشوف قضيته وطرحها على التصويت ففاز وتم تجريد مالينكوف ومولوتوف وكاغانوفيتش وآخرين من مراكزهم وارسلوا لأكل الفطائر في الاقاليم البعيدة . لكنهم لم يسجنوا ولم يعدموا . كان خروشوف عند ذاك، في ١٩٥٧، في الثالثة والستين من العمر ، وعلى الطريق لأن يصبح رجل دولة . لكنه كان لا يزال ذا شخصيّة مزدوجة تعاني انفصاماً ذاتياً .

فقد كان يحلم باشياء عظيمة او يسعى بصدق الى سلام عالمي والى رخاء الشعب السوفياتي كجزء من عالم مسالم . لكنه في الوقت نفسه ، كان يلجأ عندما يُستفزّ الى العنف العشوائي والخداع . فقد رأى من الضروري قيام انفراج دائم بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على الأقل من اجل تجنيب العالم الدمار الذري ، الا انه كان يعتقد في الوقت نفسه انه من المنطقي ان يعمل من أجل انهيار العالم الرأسمالي بينما يقف هذا العالم موقف الحياد تجاه الامبراطورية السوفياتية . وكما انّه لم يستطع الخلاص من ماضيه الستاليني ، فهو لم يستطع كذلك تجاوز انصاف الحقائق الخانقة في روضة اطفاله الماركسيّة .

ثم ان قوته المتزايدة وتجربته مع العالم لم توسّعا فحسب افاق عقله المتسائل وتبصره

العميق، ولو على غير انتظام في الحقائق، بل انهما ايضاً ، ومع الاسف ، وسّعتا قلة صبره على ضبط النفس وميله الجامح نحو الخطط الشاملة والسيئة الاعداد في الوقت نفسه ، لاصلاح هذا او ذاك من مظاهر المرض في النظام .

وربما كان خروشوف ، في ذلك كلّه غير مختلف جداً عن عدد من السياسيين الغربيين الذين يعملون في هذا الجانب من العالم ، سوى بعنفه ولجوئه الى اساليب غير قانونية ، وقد كانا متأصلين في طبعه . وما كان محزناً بالفعل هو انه كانت لديه الكثير من ميزات رجال الدولة العظام ، غير ان المدهش انه لم يكن في روسيا بعد الستالينيّة مجال لتحسّس مثل هذه الميزات على الاطلاق . وبرغم ان ليس لدى خروشوف الا القليل مما يقوله عن سياساته الداخليّة،عن كفاحه من اجل التفوّق وعن سقوطه ، فان القسم الاخير من الكتاب الذي يعالج احياناً بطريقة ميكانيكية واحياناً أخرى بتفصيل حماسي ، اتصالاته مع العالم خارج الاتحاد السوفياتي ، يدلنا الى حد بعيد على نظرته الناضجة وحالة عقله العامة . اننا نرى هنا النزاع الدائم ، الذي لا يعرف حلاً ، بين تفكيره وبين اعماله خلال اربعين عاماً ، كما نرى الامثولة التي تعلّمها من حقيقة ادركها حديثاً . والواقع ان التناقضات عنده كبيرة بحيث لا يكفي القول ان شخصيته كانت مصابة بالازدواجية: لقد كانت شخصيته مجزّأة. وهذه التناقضات تبدو بوضوح ، أكثر ما تبدو ، في الفصل الذي يتحدث فيه عن الصراع مع الصين وقفزتها نحو الشوفينيّة المتعالية ، وفي الفصل الخاص بعبد الناصر ومصر ، حيث يظهر كل دفء عطفه ، لكن هذا العطف يجد نفسه على تباين مع عين خروشوف الحاسة ، الساعية الى الاولويات الشخصيّة والوطنيّة .

وبعد،فعلى كل قارئ،اذ نأخذ القصة هذه بمجملها، ان يقرّر لنفسه عبر الكتاب اين يقوم التوازن بين المغالطات المتعمدة والمخادعات الذاتيّة . وهذه المشكلة تبدو حادة بصورة خاصة في الفصول التي تعالج استيلاء السوفيات على بولونيا الشرقية ودول البلطيق . فالى اي مدى كان خروشوف يعي حقيقة افعاله عندما تزعّم اعتقال وسجن وترحيل كل الطبقة المتوسّطة في ما يعرف الان باوكرانيا الغربيّة الى سيبيريا ؟ والى اي مدى كان يعتقد فعلاً ، في جهله للحياة خارج الاتحاد السوفياتي ، انه كان يسبغ امتيازات وفوائد لا تحدّ على الجماهير الكادحة في مجتمع غريب ؟ ولا يبسّط من أمر الحكم على هذه الافعال انه تارة يتحدّث عن هذه الجريمة على انها فعل تحرير، وطوراً على انها عملية ضمّ والحاق .

ثم انه في ايامه الاولى آمن مع ملايين آخرين أنه بوقوفه الى جانب ستالين انما يساعد على مهمة التحويل المجيدة ، برغم صعوبتها وقساوتها ، للمجتمع الروسي القديم الى مجتمع أكثر عدلاً ومساواة من اي مجتمع آخر على الأرض . على انه بعد

ذلك بوقت قصير اصبح مهتمّاً بالوصول الى السلطة من أجل السلطة، ثم بالتعلّق بها.

لكن كم بقي ، بعد هذا كلّه ، من الحلم القديم ؟ والى اي مدى لوّن هذا الحلم وجهات نظره حول المهمة السوفياتية في اوروبا الغربية وغيرها ؟ ليس من الممكن بالطبع ايجاد اجوبة ثابتة على هذه الاسئلة ، الاّ انها اسئلة مهمة في اية حال . واذ يأخذ المرء هذه الاسئلة بعين الاعتبار ، يجب ان يتذكر ايضاً الى اي مدى قد تلوّن وجهات نظرنا الخاصة بالخيبات الذاتية والتحامل والجهل .

كان من اعظم انجازات خروشوف انه برغم صليل السيوف التي حركها ، وبرغم التهديدات والخيبات ومظاهر العنف ، استطاع خرق الجدار الستاليني وجعل من الممكن للعالم الغربي ان يأمل في ان مقياساً من التعايش ، ربما أكثر إكتمالاً مما توقّع هو نفسه ، قد يتحقّق ذات يوم .

ادوارد كرانشكو

ملاحظات المحرر

حاولت هنا أن اسكب ذكريات نيكيتا خروشوف في سرد متناسق ولو غير رسمي. وكانت المواد الاصلية قد وصلتني مفتقرة الى اي قدر من الانسجام. وكان ان سمحت لنفسي، وانا اسعي لتحويلها الى كتاب مقروء بالانكليزية، ان ادخل بعض التغييرات على تركيبها، ولكنني بذلت أقصى الجهود، من جهة ثانية، حتى لا اسيء إلى أسلوب خروشوف الحقيقي، حتى عندما كنت اضطر إلى جمع أجزاء مختلفة في فصول متناسقة. ان خروشوف هو الذي قال كل ما نسب اليه في هذا الكتاب، عدا بعض تفسيرات اضطررت إلى اضافتها أو جمل معترضة تضيء بعض المعاني. وقد جهدت في الحفاظ على أقواله نصاً وروحاً، فضلاً عن اقتراحي، عبر حواجز اللغة، لكيفية التعبير عما ادلى به.

ان احاديث خروشوف تتميز بتفاوت غريب، وغالباً ما يكون متعمداً، بين التلميح الحذر والبوح الجريء، بين تخلٍ عن الرصانة باد، وتحاشٍ لبق، بين ابتذال مسف وتكلّف باختيار ألطف التعابير. وهو تارّة يبدو سياسياً متقاعداً يكرّر على وتيرة واحدة أخبار لحظاته العظيمة حتى يدخل الملل على المستمع اليه، وطوراً يبدو واعياً سريع الانفعال، يتدفّق في سرد الخطّ الحزبي، وتارة أخرى هو مثل ريفيّ شديد الارتباك يتحدث بصخب واستمتاع، اذ يصف بتنميق شجاراً دار في خمارة. ومراراً يبدو كأشد المطلعين على خفايا ومجاري التاريخ الحديث.

ان اللغة التي كتبت بها مواد هذا الكتاب تعجّ بالعاميّة اللعوب، وجمل التدليل، والصياغات المنطقية الماركسية، والاستشهاد التاريخي، ومقتبسات من التوراة مستهجن ورودها هنا وكلها تطبع اسلوب خروشوف الخطابي المميّز خلال السنوات التي تبوّأ فيها مركز الزعامة في الحزب.

انها ذكريات رجل عجوز عنده الكثير مما يتذكّر، وموارد لا تفنى ينهل منها، ملية بالكلام الطنّان والذكاء المتوقد وقساوة قطاع الطرق والعاطفة الانسانية الاصيلة.

وتشكل هذه الذكريات وثيقة انسانية خطيرة ، لاسيما ما يقدمه خروشوف للتاريخ من اتهام لستالين . فذكريات خروشوف تقدّم أشد القضايا اسناداً إلى مرجع ثقة في اتهامها المدمر للستالينيّة ، وهي تكتسب قدرتها على الاقناع من كونها صادرة عن مواطن سوفياتي موال وماركسي لينيني مخلص . كما ان الكتاب وثيقة شخصيّة هامة أيضاً تحمل صورة ذاتية نابضة بالحيوية لرجل برز في ظل ستالين ليتحدّى شبح ستالين . وبالامكان ، على ما اعتقد ، اعتباره تمرساً متعمّداً في صدد إعادة الاعتبار للنفس . انها الوصية الأخيرة لفلاح ماهر نهض من حضيض مناجم الفحم في حوض دونتس إلى أن يصير أحد أقوى الرجال في العالم .

ستروب تالبوت

خروشوفْ يتذكّر

وتشكل هذه الذكريات وثيقة انسانية خطيرة ، لاسيما ما يقدمه خروشوف للتاريخ من اتّهام لستالين . فذكريات خروشوف تقدّم أشد القضايا اسناداً إلى مرجع ثقة في اتّهامها المدمر للستالينيّة ، وهي تكتسب قدرتّها على الاقناع من كونها صادرة عن مواطن سوفياتي موال وماركسي لينيني مخلص . كما ان الكتاب وثيقة شخصيّة هامة أيضاً تحمل صورة ذاتية نابضة بالحيوية لرجل برز في ظل ستالين ليتحدّى شبح ستالين . وبالامكان ، على ما اعتقد ، اعتباره تمرساً متعمّداً في صدد إعادة الاعتبار للنفس . انها الوصية الأخيرة لفلاح ماهر نهض من حضيض مناجم الفحم في حوض دونتس إلى أن يصير أحد أقوى الرجال في العالم .

ستروب تالبوت

خروشوفْ يتذكّر

تمهيد

اعيش الآن مثل ناسك ، في ضواحي موسكو ، لا صلة لي الا باولئك الذين يتولون حراستي من الآخرين ، وحراسة الآخرين مني . اعتقد انهم يقضون معظم اوقاتهم وهم يحرسون الآخرين مني (١) .

واذ استعيد احداث السنين الماضية اشدد على ابرز ما حفل به حكم ستالين من ضرر لحق بتكوين مجتمعنا السوفياتي . اذ ليس هناك فائدة ترجى من التركيز على الناحية الايجابية من زعامة ستالين التي اسهبت اجتماعات الحكومة والصحافة وكل ادبنا باطرائها . بل بالامكان القول ان صورة ستالين قد صقلت وزينت حتى اننا لو خفضنا ثمانين بالمئة من كل شيء ايجابي قيل عنه لبقي لدينا ما يكفي لمديح الف رجل عظيم . وفضلا عن هذا ، فان تاريخ دولتنا السوفياتية وانتصار حزبنا الشيوعي لشهادة كافية على فضائلنا وانجازاتنا . اننا لو رجعنا بالذاكرة خمسين سنة إلى الوراء نستطيع ان نتبين اين بدأنا وكم قطعنا من اشواط . لقد اذهلنا حتى اعداءنا .

ولا يزال حتى الآن ثمة من يعتقد ان علينا شكر ستالين على كل التقدم الذي حققناه ، وحتى بعد فضح جرائمه الجماعية واقامة الدليل الذي لا يرقى اليه شك ، في المؤتمر العشرين للحزب (٢) ، على ذنوبه . فلم يزل البعض يرتعد امام ثياب

---

(١) يبدو ان خروشوف يبالغ في عزلته الحالية . فعائلته في الواقع تعتني به عن كثب ويزوره غالباً الأصدقاء ، بما فيهم الأجانب من مختلف الجنسيات حتى الأميركيون منهم . كما انه بين الحين والآخر يزور موسكو ، ولو «مرافقاً» (من قبل حارسه) حيث له مسكنه الخاص .

(٢) القيت خطبة خروشوف عن عهد ستالين امام المؤتمر العشرين ليلة ٢٤ — ٢٥ شباط ١٩٥٦ . وان النص الذي اذاعته وزارة الخارجية الاميركية لم يلق اعتراضاً جدياً . وقد نشر في السنة التالية بعنوان «خروشوف وشبح ستالين» مع تعليق وتحليل مطولين بقلم برترام د . ولف .

ستالين الداخلية القذرة ويقفون متأهبين ليؤدوا لها التحية ، ولا يسمحون لانفسهم بالتساؤل ما اذا كانت المذابح التي تسبب بها ستالين امراً لا مناص منه . فكأنما ذلك كله يبدو امراً طفيفاً ازاء عظمة زعيمنا : « أب الشعب السوفياتي الحنون » و « العبقري والمعلم » . وحتى الآن لم يزل يطلق تعبير « الستالينية » على من يعمل باقوال ستالين — ويعتبر ذلك صفة جيدة . اما انا فاعتبر الستالينية صفة رديئة .

إلى أي مدى كان ستالين عبقرياً ؟ اي نوع من « الأب الحنون » كان بالنسبة الينا ؟ كم من الدماء التي بذلها وطننا كان ستالين مسؤولا عنها ؟ الان الاقنعة التي تغلف الأجوبة عن هذه الاسئلة وغيرها ، يجب ان تمزق وترمى بعيداً . فقد آن الأوان لاظهار ستالين عارياً ، على حقيقته ، امام الشعب السوفياتي ، حتى يحتل موقعه الصحيح في التاريخ .

يعود لستالين ، دون ريب فضل عميم . الا ان نجاحنا الأشمل يعود الفضل الاوفى فيه للشعب . ان القوة التي نرتكز اليها انما نبعت من تعاليم لينين . لقد كان لينين مؤسس حزبنا ومنشىء نظامنا . وهو الذي طور النظرية التي ارسيت عليها دولتنا . ان افكاره هي حجر الاساس الذي ارتفع عليه كل ما انجزنا . وفضلا عن هذا ، فقد حذرنا لينين بوضوح من ستالين . فباكراً منذ بدأ ستالين يصعد إلى مراكز السلطان أعلمنا لينين باخطائه . وقد جاءت الاحداث ، فيما بعد ، مصداقاً لرأي لينين . فطالما كنا نطبق افكار لينين تطبيقاً حسناً ، كنا نحصد النتائج الطيبة . وان الماركسية — اللينينية ، رغم تحريفات ستالين لمواقف لينين وتوجيهاته ، تبقى العقيدة الأكثر تقدمية في العالم . لقد اغنت شعبنا وكانت حصنه الحصين وسلاحه القوي ، واعطتنا القوة لتحقيق ما انجزنا .

بات شائعاً ومعروفاً كل شيء عن روح ستالين الثورية وفضائله الأخرى التي كرر الحزب تعدادها .

ان ادعاءات ستالين حول قيامه بدور خاص جداً في تاريخنا تقوم على اساس متين . ذلك انه في الواقع كان رجلا ذكياً وذا مقدرة خارقة . وقد تفوق فعلا على كل من حوله . وبرغم اداني لوسائله ولاستغلاله السلطة ، فانني اعترفت دائماً بقواه . الا ان قوى ستالين يجب تقييمها من زوايا متعددة ومختلفة . فقد كانت شيئاً جميلا عندما كرست لتعزيز مكاسب الثورة ، وكانت شيئاً آخر عندما تذرعت بشعارات الدفاع عن الحزب ضد اعدائه لتبطش بالثورة . لقد كلفنا انتقام ستالين من اعدائه الذين زعم انهم اعداء الثورة خسائر لا تقدر . وان ضيق صدره ، الذي حذرنا منه لينين العظيم بنفسه ، ادى إلى افناء الوف الناس ممن وقفوا النفس حتى اعمق اعماقهم ، على القضية الماركسية — اللينينية .

اني اسجل لستالين حسنة واحدة هي انه لم يأت بالسيف ليفتح عقولنا واجسادنا . كلا ، بل انه اظهر مهارته المتفوقة باخضاع الناس والتلاعب بهم بشتى المؤثرات — وهي ميزة ضرورية من مزايا الزعيم العظيم . وفي كل ناحية من شخصية ستالين كان هناك شيء يثير الاعجاب وشيء قويم ولكن في الوقت نفسه كان هناك ايضاً شيء من الوحشية ، يصعب جداً درسه من خارج اطاره . فكل شيء يجب ان يعاين في ضوء شخصيته البالغة التعقيد .

ومع ذلك فلو كان حياً اليوم لصوتت بوجوب تقديمه إلى المحاكمة ومعاقبته على ما ارتكب من جرائم .

ولقد سئلت مراراً «ماذا عن ستالين؟كيف ان رجلا ذكياً مثله استطاع ارتكاب كل هذه الافعال الرهيبة ؟ » ولطالما طرحت على نفسي السؤال نفسه . انني اعتقد ان لينين كان يملك الجواب . فقد رأى لينين ، في ١٩٢٣ ، في ذلك الوقت المبكر ، وهو يكتب وصيته ، إلى اين عساه ان يقود الحزب اذا بقي في منصب الأمين العام.

لقد فهم لينين الاسباب الاساسية لطغيان ستالين قبل ارتكابه التصفيات والجرائم الاخرى ، بزمن طويل . فكتب ان ستالين يمتلك الميزات الضرورية للقيادة ، لكن لديه ميلا اساسياً للتوحش ولا يترفع عن استغلال سلطته . واقترح نقل ستالين وترفيع سواه إلى منصبه،ممن يمكن ان يكونوا أكثر اعتدالا ووجدانية منه ، وأرحب صدراً في العلاقات مع الرفاق ، واسمى من ان يستغل هذا المنصب الخطير (١) . غير ان اللجنة المركزية لم تأبه لكلام لينين ، وكانت النتيجة ان الحزب باجمعه تعرض للعقاب .

ولا شك انه كانت ثمة ناحية مرضية في ستالين . واعتقد ان حالة مرضية

---

(١) الوثيقة التي سيشار اليها بوصية لينين كانت واحدة من رسائل عديدة كتبها لينين في ١٩٢٣ عندما كان يحاول تجنيب الحزب حالة انشقاق كان يتوقعها بعد موته : « بعدما أصبح الرفيق ستالين سكرتيراً عاماً ، حصر سلطات هائلة بين يديه . ولست مطمئناً إلى حسن تصرفه بهذا السلطان مقروناً بالحذر الكافي . ان ستالين مفرط في الصلف ، ومثل هذه النقيصة اذ يمكن احتمالها ومداراتها في وسطنا او في العلاقات مع شيوعيين آخرين ، فانها تصبح أمراً لا يطاق عندما يكون صاحبها في مركز السكرتير العام . لذلك اقترح على الرفاق تدارس طريقة ازاحة ستالين من هذه المسؤولية وتعيين شخص آخر لها يتفوق على ستالين ولو بأفضلية واحدة ، هي ان يكون أرحب صدراً ، وأكثر ولاء ، وأكثر تهذيباً ، وأكثر تفهماً للرفاق ، واقل نزوعاً إلى الاجراءات الكيفية » . (ان النص الكامل لهذه ولغيرها من الوثائق متوفر في كتاب برترام ولف « خروشوف وشبح ستالين ») .

مشابهة هي التي نعاصرها ويجب ذكرها . فالذين من جيلي يذكرون كيف كان تمجيد ستالين ينمو وينمو ، والجميع يعرفون إلى اين ادى ذلك .

انني اشاهد غالباً افلاماً عن الصين على التلفزيون ، فيبدو لي ان ماو تسي تونغ ينسخ عبادة الشخصية التي مارسها ستالين . واذا اغمضت عينيك ، واستمعت إلى ما يقوله الصينيون عن ماو ، وابدلت « الرفيق ستالين » « بالرفيق ماو » ، تكونت لديك فكرة عما كان عليه الأمر في زمننا . كانت تظاهرات ضخمة تنظم في موسكو بالطريقة نفسها التي تنظم الآن في بكين . والظاهر ان الرجال امثال ستالين وماو يتشابهون في امر واحد : فمن اجل الاستمرار في السلطة يعتبرون ان لا مفر من اظهار سلطتهم بشدة ، ليس فقط للاستئثار بطاعة الشعب ، بل لتخويفه ايضاً .

انني ، اذ اشدد على الجانب السلبي من سنوات ستالين ، فلكي أظهر انه لو لم يرتكب ستالين اخطاءه الرهيبة ، لكنّا انجزنا أكثر مما تم انجازه . وانني اذ اقدّم وصفاً لجرائمه فقصدي هو الحيلولة دون تكرار الضرر الذي انزله بالطبقة العاملة ، وبالفلاحين ، وبالانتليجنسيا — اي بجميع الشعب العامل في الاتحاد السوفياتي وغيره من البلدان الاشتراكية على حد سواء .

وانه لمن سوء الحظ ان يبقى الكثير في طي الكتمان . فكثيرة هي الاسرار التي لم تزل مجهولة او غير مكشوفة وبعضها مضغوط تحت ثقل قمع رهيب . غير انها جميعا ستكشف في الاخير . حتى الأسرار المتشدّد في حفظها ستخرج يوماً الى العراء . ولعلّ بعض رفاقي الذين عملوا معي في ظل قيادة ستالين سيتركون هم ايضاً مذكراتهم . واذا فعلوا فسيكونون موضوعيين لا يخشون ان يسجلوا في التاريخ ما يعرفونه من اخطاء ستالين . لقد شاهدوا الاشياء نفسها التي شاهدت . فنادراً ما كنت وحدي مع ستالين . اذ غالباً ما كان هناك خمسة او ستة واحياناً عشرة اشخاص آخرين معنا .

على كل من يبغي فعلاً اعادة الاعتبار لمعايير لينين في الحزب ان يفعل كل ما في وسعه لفضح ستالين وادانة الاساليب الستالينية . ليس لدينا خيار ، اذا شئنا ان نحول دون انتفاض اشباح تلك السنوات من قبورها لتطاردنا ، الاّ ان نعيد الاعتبار الى جميع ضحايا ستالين (الموتى والاحياء) . لقد اعاد المؤتمر العشرون للحزب (١٩٥٦) الكثيرين منهم الى مكانهم الصحيح في التاريخ ، لكن الكثيرين ايضاً ما زالوا ينتظرون رد الاعتبار اليهم . والاسباب التي ادّت الى وفاتهم لا تزال مخبأة . ان هذا معيب ، ومعيب حقاً .

والان يبدأون من جديد بالسعي لتغطية الرجل المذنب المسؤول عن كل تلك

الجرائم . وانني اعجب بصورة خاصة من بعض قادتنا العسكريين النافذين الذين يحاولون في خطبهم ومذكراتهم ، تبييض صفحة ستالين واعادته الى مكانه فوق قاعدة النصب : كأب للشعب . فهم يحاولون ان يثبتوا انه لولا ستالين لما انتصرنا في الحرب ضد المانيا الهتلريّة . والمنطق الذي يدعم هذا الادعاء منطق ابله فعلاً . اذ هل يعني ان مجرد عدم وجود ستالين بيننا كان سيؤدي بنا الى الخضوع للنفوذ الالماني او الانكليزي او الاميركي؟ قطعاً، لا . ان الشعب السوفياتي سيكون قادراً في كل الاحوال على انجاب الزعماء والدفاع عن وطننا ضد الغزاة ، تماماً كما كنّا ندافع دوماً عن انفسنا في الماضي .

آمل ان لا احتاج الى تبيان سخف هؤلاء القادة العسكريين الذين يحاولون اعادة الاعتبار لستالين ولضحاياه في الوقت نفسه . فذات مرة ، عندما كنت ازور بلغاريا، القيت خطاباً استشهدت فيه من مسرحية بوشكين الشعرية «موزار وساليري» بمقطع يقول فيه موزار ، وهو خالي الذهن من ان ساليري على وشك دسّ السم له : «العبقرية والجريمة لا ينسجمان» (١) وهذا ينطبق على ستالين . ذلك ان المرء لا يستطيع ان يكون عبقرياً ومجرماً في الوقت نفسه . فاياً كانت حوافز ستالين الاّ ان ذلك لا يعفيه من وزر جرائم مريعة اقترفها بارساله الالوف الى الاعدام . ثمة من يجادل بان حافز ستالين كان خير الشعب لا أي دافع اناني. ان هذا الزعم على قسط وافر من العته . اذ كيف نوفّق بين اهتمام ستالين بخير الشعب ، واستئصاله أفضل بنيه ! ان المنطق في هذا يبدو مرتبكاً . وانه لأمر معقّد الدفاع عن براءة مجرم يرتكب جرائمه بالجملة .

حتى الآن يقول لي الناس : «ايها الرفيق خروشوف ، ربما كان من الافضل الا تروي كل هذه القصص عن ستالين» . ان الناس الذين يقولون هذا النوع من الكلام ليسوا بالضرورة شركاء سابقين في جرائم ستالين ونذالته . انهم مجرد رفاق بسطاء متقدمين في السن ، تعوّدوا عبادة ستالين وليس في امكانهم التخلّي عن مفاهيم الحقبة الستالينية القديمة . انهم نتاج الوسائل الخاطئة التي تدرب عليها اعضاء الحزب وتكيّفوا بها عندما كان ستالين لا يزال حيّاً . لقد اعتمد ستالين مختلف الوان التلقين واساليبه تحقيقاً لاغراضه . كان يطلب الطاعة دون تفكير ، والايمان دون سؤال .

ان يذهب المرء الى حتفه دون اية خاطرة من الشك تراوده حول الغرض من

---

(١) ترتكز مسرحية بوشكين الشعرية على اسطورة تقول ان ساليري دس السم لموزار بدافع الحسد .

موته ، لأمر مستحسن في زمن الحرب . الا ان لقطعة النقد وجهها الآخر كما يقولون . فالولاء المطلق يتحوّل الى كره مرير عندما يكتشف الانسان ان من وضع ثقته بهم كانوا يطعنون هذه الثقة ويخونونه . وهذا قد يغدو حلقة مفرغة .

اذا افترض زعماء البلاد ان الشعب قد اغمض عينيه ولم يعد يدرك ما يحل به يكونون قد قوّضوا — وهم في مراكز المسؤولية — ثقة الشعب بالحزب والحكم . من هنا انني وقفت دوماً مع قول الحقيقة كاملة امام الحزب ، وامام عصبة شباب لينين الشيوعي (الكومسومول) وامام الشعب ، وانني اقف الان بضراوة أكثر مع قول الحقيقة . فبالصدق وحده نستطيع ربح ثقة الشعب . لقد كان الحق دوماً ينبوعاً من القوة لا ينضب للحزب ، ويجب ان يستمرّ كذلك .

قد يتساءل البعض عمّا يجعلني اذكر احداثاً ، نتجت عنها اذيّة كبرى للحزب ولماذا اغوص في تحليل الحوافز التي دفعت بستالين الى ارتكاب ما تسبب بمصرع عشرات الالوف من خيرة ابنائنا ، خيرة ابناء الحزب وابناء البلاد . ان جوابي هو التالي : انا اروي هذه القصص لأنها ، مهما تكن غير سارّة ، فانها ستسهم في التنقية الذاتية . ليس عاراً ان يطرح الحزب الاسئلة على نفسه ويتفحّص تاريخه . فضلاً عن ان مزيداً من الناس يقبلون على الحزب عندما يتحققون من ان مساوئ حكم ستالين لم يرتكبها الحزب بل ارتكبت ضد الحزب .

ان الحزب قد شرع في تصويب اخطائه وضمان ان ما حصل في ظل ستالين لن يتكرر ثانية . من هنا انني لا اخشى من اعلام الجميع . وما اقوله ليس تشهيراً ولا ثرثرة حاقدة . ان القصد منه خدمة المهمة الرئيسية البناءة ، وهي تنقية الحزب الذاتية .

اني اتكلّم كرجل امضى حياته كلها على اتصال وثيق بالشعب السوفياتي وبالذين وقفوا ايضاً الى جانب ستالين لسنوات عدة خلال وجوده في القيادة . انني كشاهد على تلك السنوات اتوجه الان الى اجيال المستقبل ، آملاً في انها ستتجنّب اخطاء الماضي .

القسم الاول

من مناجم الفحم الى الكرملين

١

السنوات الاولى

سنوات الصعوبات

كان خروشوف في الرابعة والعشرين عندما انتسب إلى الحزب البلشفي في ١٩١٨ ، وذلك بعد مضي اشهر قليلة على ثورة اكتوبر . وكان حتى ذلك الحين ، يعمل في الريف حيث كان من اسرة قروية ، كميكانيكي في المناجم ببلدة يوزوفكا (التي اعيد تسميتها بستالينو ، والآن بدونتسك) في اقليم دونباس من اوكرانيا . وباعتباره كان يعمل في حرفة لها طابع الاحتياط ، فقد اعفي من الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى . الا انه في مطلع ١٩١٩ انضم إلى الجيش الأحمر وادى دوره في الحرب الاهلية . ولم يعد إلى يوزوفكا الا في ١٩٢٢ ، وقد اصبح حزبياً نشيطاً متحمساً ، فأخذ يساعد في اعادة المناجم إلى العمل وسط الخراب والمجاعة المخيمين على البلاد . هنا يتجلى عنده نفاذ البصيرة في تحليل اجواء تلك الأيام العسيرة عندما وضع فلاحون وعمال غير مثقفين في مراكز المسؤولية ، حصراً ، لأنهم اظهروا ولاءهم للقضية البلشفية .

وفي هذا الوقت بالذات ، اي منذ ١٩٢١ ، اضطر لينين إلى التراجع عن الاشتراكية وتطوير سياسته الاقتصادية الجديدة ، التي شجعت المشاريع الخاصة واسبغت الامتيازات على البورجوازيين من تجار وحرفيين واختصاصيين في كل الحقول ، كطريقة وحيدة لاعادة بناء اقتصاد متهدم . وقد اثارت السياسة الاقتصادية الجديدة ، دون ريب ، مرارة كبرى بين الحزبيين المخلصين . واستمر العمل بها حتى وضع لها ستالين حداً في ١٩٢٦ ، اي بعد مرور سنتين على موت لينين .

من زمن ليس بالبعيد دعاني العديد من رفاقي القدامى لتبادل التهاني في ذكرى انشاء الجيش السوفياتي . لقد كانت مناسبة عظيمة ، ويوماً احتفالياً ، مخصصاً

لتكريم قواتنا المسلحة . ان جيشنا الذي انشأه لينين سجل في السنوات الأولى من الثورة عدة انتصارات ضد اعدائنا الطبقيين من رجال الحرس الابيض ، وبعد ذلك في الحرب الوطنية الكبرى صددنا الغزو الذي شنه الفاشيون ضد طريقة حياتنا الماركسية – اللينينية. ولجيشنا يعود الفضل في مجابهة التهديد الهتلري لبلاد السوفيات والشعب الروسي . لقد سحقنا اعداءنا . ان قواتنا المسلحة اعلت دوماً راية الكفاح ، راية الطبقة العاملة الحمراء مخضبة بدماء الشعب السوفياتي في معركته ضد اعدائنا الطبقيين .

ان قواتنا المسلحة قد اجتازت مسيرة طويلة . واني اعتز بالقول انه اتيحت لي الخدمة في قواتنا المسلحة المجيدة (مع الجيش الاحمر ضد البيض) من كانون الثاني ١٩١٩ حتى نهاية الحرب الاهلية . وكان ذلك في السنوات الخطرة ، فقيض لي معاناة خبرات قاسية في صفوف الجيش الاحمر . وصدف ان خدمتي كانت في فرقة الرماية التاسعة . وكنا قد اضطررنا إلى التراجع من اوريل إلى متسينك في بدء المعارك ثم كررنا بهجوم مضاد وسط زخات من رصاص العدو حتى وصلنا إلى تغانروك في عيد ميلاد ١٩١٩ . في ذلك الحين الحقت فرقتنا للرماية بالجيش الأول من الفرسان بقيادة سيمون ميخايلوفتش بوديوني (١) . فلحقنا بالبيض المنهزمين . وفي نيسان ١٩٢٠ انجزنا مسيرة طويلة حتى البحر الاسود ، واستولينا على انابا وطردنا عصابات الحرس الابيض إلى البحر. واستولت فرقتنا على انابا واستراحت خمسة او ستة ايام ، ثم زحفت على شبه جزيرة تامان . واذكر اننا احتفلنا بالعيد البروليتاري العظيم ، اول ايار ، في تامان .

وعندما عدت من الجبهة إلى دونباس في اوائل ١٩٢٢ ، كانت الاوقات العصيبة قد سبقتني . كان لينين يكافح ليستخدم فترة الانفراج ،في نهاية الحرب الاهلية لبناء صناعتنا ، واقتصادنا ، ومستوى المعيشة لشعبنا . وانطلقنا ، مسلحين بولائنا الذي لا يتزعزع لافكار لينين ،لنحقق خلال سنوات قليلة ما اخذت البلدان الرأسمالية عقوداً كاملة لتحقيقه .

---

(١) كان خروشوف مستشاراً سياسياً صغيراً الحق بالقوات المحاربة . س. م. بديوني ، هو رقيب سابق في الجيش القيصري ، وأصبح فيما بعد من اتباع ستالين المقربين ، وكان في الحرب الاهلية يحارب ضد جيش الجنرال دنيكين الذي شكل في مرحلة ما خطراً على النظام البلشفي . وقد كان بديوني هذا ، الذي أصبح اليوم مارشالا متخلفاً عن صناعة الحرب الحديثة ، هو الذي قاد جيشه ابان الغزو الهتلري لاوكرانيا في ١٩٤١ إلى كارثة .

وكان علينا ان نشد الحزام ونعاني من البرد والجوع والحرمان . ولم ندخر تضحية لنبني صناعتنا الثقيلة وجيشنا حتى لا يتسنى لاي عدو المجال لتهديد حدودنا ثانية .

كانت المجاعة منتشرة في المناجم في دونباس في ١٩٢٢ . وحصلت بعض الحوادث الافرادية أكل فيها البعض لحوم البشر . وكانت القرى تعاني من الخراب أكثر من المناجم . وماتت زوجتي الأولى ، غالينا ، خلال المجاعة في ١٩٢١ وتركتني مع طفلين ، ابني ليونيد وابنتي جوليا . وفي ١٩٢٤ تزوجت ثانية من نينا بتروفنا . كانت تلك السنوات الأولى من السلطة السوفياتية سنوات كفاح وصعوبات وتضحيات ذاتية . لكن الناس كانوا ما زالوا على ايمانهم بالحزب . حتى اكثر المواطنين امية فهموا شعارات الحزب التي ألبت الجماهير من حوله . وكان الناس يعلمون ان هذه الصعوبات قد فرضها علينا البورجوازيون — سواء الداخليون منهم او بورجوازيو العالم كله . وكنا نقول لانفسنا ان الاحوال مهما ساءت فانها تبقى أقل سوءاً مما كانت عليه قبل الثورة .

الا ان ذلك ، في الواقع ، لم يكن حال كل الناس . فقد كان امهر عمال المناجم ، حيث كنت اعمل في دونباس ، أحسن حالا قبل الثورة مما اضحوا مباشرة بعدها . واستطيع القول ، بصدد احوالي المادية ، انني عشت في حالة اسوأ بعد الثورة وانا نائب مدير عمليات التعدين مما كنت عليه يوم لم أكن الا عاملا بسيطاً في منجم .

لقد خضع معظمنا للحرمان ، لانه وفق اجتهادنا ، كان علينا عصر أخر طاقة من انتاجنا ومن مواردنا حتى نصنع البلاد باسرع ما يمكن . ذلك انه اذا كان علينا البقاء ، كان علينا اللحاق بالرأسماليين . ويتطلب احياناً تحقيق هذا الهدف التضحية بالمبادىء الاخلاقية فضلا عن الرفاه المادي .

الا ان الشعب بصورة عامة ، قبل هذه التضحيات بسرور من أجل الحزب . وهكذا ، ففي مدى سنوات قليلة انشأنا مجتمعاً صناعياً حديثاً .

في تلك السنوات ، لم يكن المنتسب للشيوعية يأمل بثواب عاجل على تضحياته . ولم يعد الأمر كذلك اليوم . بالتأكيد لم يزل بين الشيوعيين قوم من أصحاب المبادىء ، ولكن بينهم ايضاً رجالا موظفين متملقين ، ومحترفين صغاراً لا مبادىء لهم .

اليوم باتت بطاقة الحزب في اغلب الاحيان تمثل لحاملها الأمل في الحصول على مكان مريح وملائم لكفاءاته في مجتمعنا الاشتراكي . والناس الدهاة في هذه الأيام يدبرون أمرهم بحيث يأخذون من المجتمع أكثر بكثير مما يعطونه . ان

موقفهم هو خرق للمبدأ القائل بالتعويض على المواطن حسب كمية العمل ونوعيته الذي يقدمه لبناء الشيوعية . هذا محزن ولكنه حقيقي . ان هذه الحالة هي بلاء زماننا .

انا لا اقصد القول انه لم يكن ثمة قدر من الانتهازية بين المرشحين للدخول في الحزب الشيوعي في السنوات الأولى من الثورة . لقد وجد ذلك ولكن في نطاق اضيق كثيراً مما هو قائم الآن . لم أزل أذكر انه ابان الحرب الاهلية عندما شننا هجومنا على مدينة مالوارخانجيسلك ، سألني معلم مدرسة بليد الذهن ، عن المنصب الذي سيقبض له شغله اذا ما انضم إلى الحزب الشيوعي . لقد اثار هذا السؤال غضبي المباشر الا انني مارست ضبط النفس وقلت : « سيعطى لك المنصب الأكثر مسؤولية والأكثر هيبة » .

فسأل : « أي منصب ؟ »

فأجبت : « ستعطى بندقية وترسل إلى الحرب ضد الحرس الابيض ، فيتاح لكحظ الاسهام في تقرير ما اذا كانت السلطة السوفياتيةستبقى وتنتصر في بلادنا . وهل من مسؤولية اعظم من هذه ؟ »

فقال : « ولكن ماذا إذا لم انضم إلى الحزب ؟ »

فقلت : « هذا هو الاحسن . لأن الحزب يكون أفضل بدونك » .

في هذه الفترة من الحرب الاهلية وسنوات المصاعب اللاحقة ، استحق ستالين لقبه « ملتهم الاخصائيين » . وكان « ملتهم الاخصائيين » يعني من يرفض الثقة بالاخصائيين البورجوازيين الذين كان لينين قد اعتمد على مساعدتهم لاسيما في انشاء الجيش الاحمر (١).وفي تلك الايام كان تروتسكي على رأس مفوضية الشعب للدفاع . ومن الطبيعي ان تروتسكي اتبع التوجيهات التي تلقاها من لينين بالسعي الى ان يتطوع في الجيش الاحمر ضباط بورجوازيون ممن تدربوا في الاكاديميات العسكرية القيصرية .

ولكن ستالين في السنوات التالية ، كان يتغنى بانه رفض التعاطي مع الضباط البورجوازيين الذين ارسلهم تروتسكي إلى تسارتسين ، وان هؤلاء ظهرت خيانتهم فيما بعد .

---

(١) كان تروتسكي بوصفه وزير الدفاع عند لينين هو منشيء الجيش الأحمر ، وانه من المثير ان خروشوف بعد اربعين سنة ينصفه . لقد نشأ الخلاف الأول بين تروتسكي وستالين في ستالينغراد (بطرسبورغ قبل ذلك) ابان الحرب الأهلية حول استخدام الضباط البورجوازيين .

لا بد من الاعتراف بانه كان في هذه المرحلة ، ما يبرر بعض الحذر من الانتليجنسيا البورجوازية . ذلك ان معظم المثقفين فشلوا ، في ايام الثورة الأولى ، من ان يحددوا مواقعهم . وبعضهم هجر البلاد فور اندلاع الثورة ، وبعضهم الآخر حاول التخريب ضدها . وما تبقى منهم انضم بنشاط إلى الكفاح ضد السلطة السوفياتية ، فنظم المقاومة المسلحة المضادة . من هنا كان الموقف المضاد القوي ضد الاخصائيين بين الشعب . وكانت منظمات الحزب العاملة بتوجيهات لينين تجهد لضبط هذا الاتجاه وكبحه .

وبالاضافة إلى انعدام الثقة ، كانت الامتيازات الخاصة التي تمنح للاخصائيين تثير النفور منهم . ان ثمة تطورات محرجة ، لا مناص منها ، حدثت في مجتمعنا وضاعفت في عداء الشعب للمثقفين البورجوازيين الذين عبأهم لينين . كانت البلاد في حالة خراب وتلف ، واصبحت احوال العديد من العمال اسوأ مما كانت عليه في ظل الرأسمالية . كانوا يموتون جوعاً . ورغم ان العمال كانوا يقدمون تضحيات كبرى بارادة طيبة تحقيقاً للتصنيع وتحصين البلاد ، الا ان انطباعهم العام كان ان احوالهم سيطرأ عليها تحسن مادي . لذلك ساءهم ان لا يشاركهم الاخصائيون البورجوازيون حالة الشدة والضيق التي كانوا يعانونها . وفي المجال الاخير ، هل بالامكان ان يكون الناس متساوين امام القانون دون ان يكونوا متساوين في الضمانات المادية ايضاً ؟ لقد تعلمنا في الحزب انه عندما نشرع في بناء الشيوعية فستوزع وسائل الاستهلاك بالتساوي على جميع الذين يكدحون . لكن هنا نحن ازاء اخصائيين بورجوازيين اسبغت عليهم امتيازات خاصة واجور عالية بينما كان يدفع للعمال اقل مما كانوا يتقاضون قبل الثورة .

اما السبب الداعي لذلك فيلخص بما يلي : كان للاخصائيين في ظل الرأسمالية مساكن خاصة مزودة بكل وسائل الراحة الضرورية ، بينما لم يكن للعمال شيء من هذا . وكانت « الخدمات الجماعية » للعمال تعني آباراً وبراميل ماء على مسافات بعيدة من مساكنهم ومعاملهم . وكان على العمال ان يجتازوا مجهدين المسافة إلى السوق ذهاباً واياباً وسط الأوحال بينما يمتطي الاخصائيون الاحصنة . فاضمر الشعب كرهاً رهيباً للاخصائيين وزوجاتهم وخدمهم بصورة خاصة .

ولكن رغم هذه المظالم الجلية فقد أدرك لينين والحزب الأهمية القصوى من وراء تعبئة الاخصائيين البورجوازيين للقضية نظراً لأنه دون اختصاصهم العلمي كان يتعذر بناء مجتمعنا على دعائم تكنولوجية . ان بناء المجتمع الشيوعي يتطلب معرفة علمية واسعة وعميقة . وادرك لينين والحزب ان الطريقة الوحيدة لتعبئة الاخصائيين للقضية كان في التوجه إلى مصالحهم المادية ، وكان هذا يعني منحهم

امتيازات معينة تكون على الأقل موازية جزئياً للامتيازات التي تمتعوا بها في ظل الرأسماليين . من هذه منحهم مساكن مقبولة ووسائل نقل كافية . فكان يعطى للمهندس الماهر زوج احصنة وسائق ، ويعطى للمهندس العادي حصان واحد فقط وسائق . ولم يكن ذلك ترفاً على الاطلاق ، الا انه كان يتراءى لاذهان العمال انه كذلك .

وادرك لينين ان تطويع الضباط البورجوازيين في الجيش الاحمر يستدعي منحهم حرية اتخاذ القرارات على مسؤوليتهم . وكان على المفوضين مراقبة الضباط البورجوازيين دون التدخل في شؤونهم . تصوروا ان تعطى فجأة قيادة الجيش الأحمر لكولونيل سابق من الجيش القيصري القديم ! في خلال الحرب الاهلية شهدت العديد من سوء التفاهم ينشأ بين الضباط وبين المفوضين الأعلى منهم . وكما كان يذكرنا ستالين فيما بعد ، حدثت خيانات عديدة في اوساط الضباط البورجوازيين . ولكن قدراً من الخيانة كان متوقعاً حصوله ، ذلك ان هوؤلاء قد نشأوا في ظل النظام الرأسمالي القديم . وبعضهم كان قد جاء الينا مدفوعاً بالخوف ، وبعضهم جذبهم التغير الجديد ، وآخرون لانه لم يكن امامهم اي بديل آخر . كانوا يريدون الارتزاق . وغيرهم جاء مدفوعاً بعامل الخيانة .

ولكن لم يكن لدى الحزب مجال الخيار . كنا بحاجة إلى ربح أكبر عدد ممكن من الاخصائيين لقضيتنا . لقد كان جزءاً من عبقرية لينين انه استطاع في لحظة حرجة كهذه تعلم بعض الدروس من الرأسماليين والافادة من خبرتهم واختصاصهم.

اما ستالين فقد بقي « ملتهم اخصائيين » طيلة حياته . كانت السياسة الاقتصادية الجديدة هي التدبير الآخر الذي اتخذه لينين وكان موضع مشادة كبرى . وكانت هذه الخطوة التي اتخذها تتسم بالجرأة والحسم والخطورة ، غير ان ضرورات ملحة فرضتها . كانت مثلا آخر على حكمة لينين واستشرافه البعيد . وهي تلك التي عنت جوهرياً اعادة الملكية الخاصة وبعث الطبقة الوسطى بما فيها الكولاك. فأعيدت الطبقة التجارية في مجتمعنا إلى الحياة . وكان ذلك ، إلى حد ما ، تراجعاً على الجبهة الايديولوجية الا انه ساعدنا على الابلال من آثار الحرب الأهلية . فما أن بوشر بالسياسة الاقتصادية الجديدة حتى أخذت الفوضى والمجاعة بالتقلص والانكفاء وعادت الحياة إلى المدن . كما عادت المحاصيل إلى الظهور مجدداً في الاسواق وتدنت الاسعار .

وكان شعار الحزب في ذلك الزمن « تعلموا التجارة » ! كان مفروضاً ان نهزم التجار الخصوصيين ورجال السياسة الاقتصادية الجديدة لا باتخاذ التدابير الادارية ضدهم بل بالانتصار عليهم في لعبتهم بالذات . لقد حاولنا ان نأخذ القدر

الذي نستطيعه من التجارة لنضعها في ايدي الدولة . وحاولنا جاهدين ان نقدم في تعاونيات الدولة اسعاراً ادنى من تلك التي كان يقدمها رجال السياسة الاقتصادية الجديدة، ونوعية أعلى ، وخدمات أفضل . غير اننا لم نصب نجاحاً كافياً . ذلك انه كان بامكان التجار الذين يعملون لحسابهم الخاص ، عرض محاصيلهم بصورة أفضل ، واحاطة زبائنهم بعناية شخصية أكثر ، فالمخازن الخاصة كانت مدعاة تسلية لربات المنازل اللواتي يرغبن في استعراض السلع قبل شرائها وتفحص كل شيء بدقة .

اذكر انني عندما كنت اعمل في يوزوفكا كنت اذهب إلى السوق كل يوم تقريباً . وكنت اذهب رأساً إلى تعاونية العمال . وما ان تطأ قدماي مدخل المخزن حتى يبادرني صديقي القديم فانيا (ايفان) كوزفنسكي الذي كان رئيس التعاونية قائلا : « حسناً ، أعتقد أنك جئت لتعنيفي ثانية ، اليس كذلك ؟ اننا نبذل اقصى ما نستطيع لمنافسة رجال السياسة الاقتصادية الجديدة ، الا ان الزبائن ما زالوا ، كما يبدو ، يحبذون التجار الخصوصيين » .

وفي الزاوية الجنوبية من قطاع يوزوفكا الصناعي ، في نهاية طرف حقول التعدين ، كان المستوطنون اليونانيون يربون الدواجن . وكانوا يبيعون اللحوم في نطاق التعامل الخاص ، باسعار بخسة . وما ان جاء خريف ١٩٢٥ حتى كانت في الاسواق وفرة من الخضار ، والبطيخ ، والدجاج ، واضحى سعر اللحم بخساً . لقد عدنا إلى مستويات ما قبل الحرب . ومن حسن الحظ ان الحالة السياسية في ذلك الزمن كانت ملائمة . فقد كان العمال يفهمون خطوط الحزب المرشدة ويتبعونها. غير اننا بقينا نلاقي صعوبات بل نعاني آلاماً من عملية تكييف انفسنا على السياسة الاقتصادية الجديدة .

صعود الدرجات الاولى في سلم الحزب

ان صعود خروشوف في الجهاز الحزبي كان سريعاً . ورغم اصراره في امكنة متعددة من هذه الذكريات على انه كان يقبل الترفيع على مضض ، فالواقع انه بعد عودته إلى يوزوفكا بمدة قصيرة ، قرر ان مستقبله هو في الاحتراف الحزبي الكامل لا في الادارة الصناعية . ورغم انه في البدء لم يفهم المعاني الحقيقية لحملة ستالين الشديدة والناجحة ضد تروتسكي ، الا انه كان مديناً في مراحل عمله الأولى لكاغانوفيتش (انظر الملحق رقم ٣) ، الذي كان مقرباً جداً من ستالين . وبصورة مباشرة أكثر ، كان مديناً لسكرتير الحزب في يوزوفكا ، ك. ف . موزيينكو الذي كان ستالينياً ملتزماً . هنا ،

كما فيما بعد ، يظهر جلياً انه لم يكن لدى خروشوف ادنى فكرة واضحة عن الخلافات السياسية بين مختلف فئات المعارضة الشيوعية . وكانت ماركسيته عقيدة ذات منشأ بدائي جداً – يمكن تسميتها عن حق – بماركسية الشعار او الهتاف . وكان هرطوقي وعدو كل من يشكك بستالين . فمزاجياً كان خروشوف إلى جانب سفاحي ستالين واتباعه من قساة القلوب الذين بيدهم آلة التنفيذ ولا يسألون لقاء عملهم عن الثمن . وكان ضد المثقفين الذين أكثرهم تحدروا من خلفية بورجوازية ، والذين لم يلبث ستالين ان دمرهم . بعد موت لينين في ١٩٢٤ تآمر ستالين مع ج.أ. زينوفيف (رئيس الكومنترن ورئيس فرع لينينغراد) و ل. ب. كامنيف (رئيس الجهاز الحزبي في موسكو) على تروتسكي فهزموه ، واحتفلوا بانتصارهم في المؤتمر الرابع عشر في كانون الأول ١٩٢٥ والذي حضره خروشوف كمندوب محلي . وفي هذا المؤتمر اعلن شعار « الاشتراكية في بلد واحد » . وقد شهد هذا المؤتمر ، كذلك القمع النهائي للحوار الحر ضمن الحزب . ثم تآمر ستالين مع ريكوف وبوخارين لاسقاط زينوفيف وكامنيف . وفي ١٩٢٧ عندما كان خروشوف يسيطر على يوزوفكا لمصلحة ستالين ، طرد تروتسكي من الحزب . وعندما وصل خروشوف إلى موسكو في ١٩٢٩ ، كان قد بوشر بالخطة الخمسية الأولى ووقفت البلاد على شفير احداث رهيبة نتجت عن التشريك الزراعي الاكراهي (المزارع الجماعية).

بامكاني القول انني بدأت ثقافتي السياسية عندما كنت لا ازال فتى في قرية كالينوفكا الصغيرة في دوبناس حيث ولدت . وكانت معلمتي آنذاك امرأة تدعى ليديا تشفشنكو . كانت ثورية وملحدة ايضاً . وهي التي غرست في نفسي بذور الوعي السياسي الأولى ، وأخذت تزيل مني آثار تربيتي الدينية المتزمتة . كانت والدتي متدينة جداً ، وكذلك كان والدها – جدي – الذي كان من الفلاحين الارقاء ، ولهذا الاعتبار جندوه في الجيش القيصري لمدة خمس وعشرين سنة .

وعندما اعود بالذاكرة إلى طفولتي استطيع ان اتذكر تماماً القديسين على الايقونات المعلقة في جدار كوخنا الخشبي ، وقد اسودت وجوههم من دخان المصابيح الزيتية . واذكر انني تعلمت الركوع والصلاة امام الايقونات . وعندما علمونا ان نقرأ ، كان ذلك كي نقرأ الانجيل . الا ان ليديا وضعتني في طريق بعيد عن ذلك كله .

وقبل الثورة بسنوات كنت اصبحت قارئاً نهماً . وكنت في الغالب اقرأ الصحف البروليتارية والديمقراطية الاشتراكية . وبدأت اقرأ « البرافدا » فور

صدورها بانتظام في ١٩١٥ ، وكنت يومها في قسم المولدات في منجم باستوخوف قرب يوزوفكا . وكان عملي في باستوخوف واحداً من مجموعة اعمال التحقت بها بعد طردي لاشتراكي في اضراب جرى في ١٩١٥ . وكان يعمل معنا العديد من اسرى الحرب من الجيش النمساوي المجري ، أكثرهم من النمساويين ولكن بعضهم كان من التشيكيين ايضاً. وكنت على صلة طيبة مع التشيكوسلوفاكيين . كانوا يقولون لنا اننا معشر الروس اخوتهم في الرابطة السلافية ، وانهم لا يريدون الاشتباك في الحرب معنا بل يريدون العيش بسلام وصداقة . وانني اذكر اثنين منهم بصورة خاصة . كنت ادعوهما إلى مسكني فنتناول الشاي والمربيات ، وبادلاني بتدريسي الرسم الميكانيكي الذي كان مفيداً لي جداً في مهنتي . كان التشيكيون يخبرونني عن الحركة السلافية وعن روابط القربى والدم التي تشدنا اليهم . وكانت تلك هي المرة الأولى التي اسمع فيها بهذه الحركة وقد تركت في نفسي انطباعاً حسناً ، وإن واقع انبهاري بما اخبرني التشيكيون عن الاخوة السلافية يظهر كم كنت بعيداً عن ادراك المفهوم الماركسي – اللينيني للتضامن الطبقي .

وعندما قرأت « جيرمينال » لاميل زولا ، شعرت انه لم يكن يكتب عن فرنسا ، بل عن المنجم الذي نعمل فيه ، والدي وانا . كان وضع العمال واحداً في فرنسا وفي روسيا . وعندما استمعت ، فيما بعد ، إلى محاضرات عن الاقتصاد السياسي تعرض فيها المحاضر إلى نظام الاجور في ظل الرأسمالية ، وإلى استغلال العمال ، بدا لي وكأن كارل ماركس كان في المنجم حيث كنت اكدح . وتراءى لي كأنما استنبط قوانينه من مراقبة حياتنا ، نحن معشر العمال . فدلل علمياً كيف ولماذا على العمال ان يحرروا انفسهم من العبودية الرأسمالية ويبنوا المجتمع الاشتراكي .

واصبحت بلشفياً وعضواً في الحزب الشيوعي بعد الثورة . وبعد مدة قصيرة التحقت بالجيش الأحمر كعامل سياسي وكمسؤول دعائي . وما ان عدت من الجبهة بعد الحرب الاهلية حتى عينتني منظمة الحزب في يوزوفكا نائب مدير مناجم روشينكوف . وكنت قد عملت عشر سنوات هنا من قبل ، عندما كانت المناجم لم تزل ملكاً لشركة فرنسية . وكان مديرها في ١٩٢٢ صديقي الحميم يغور (جورجي) تروفيموفيتش اباكوموف . واصبح اباكوموف هذا وزيراً لصناعة الفحم فيما بعد وهو غير الذي اصبح وزيراً للشؤون الداخلية في ظل ستالين .

وعرضت علي ادارة مناجم باستوخوف الا انني طلبت اعفائي من الواجبات الحزبية حتى يتسنى لي الدرس في كلية العمال في يوزوفكا . وبعد اصرار في الطلب نجحت في الاخير بحمل ابرام بافلوفيش زافنياجين، سكرتير اللجنة المحلية للحزب

كما فيما بعد ، يظهر جلياً انه لم يكن لدى خروشوف ادنى فكرة واضحة عن الخلافات السياسية بين مختلف فئات المعارضة الشيوعية . وكانت ماركسيته عقيدة ذات منشأ بدائي جداً – يمكن تسميتها عن حق – بماركسية الشعار او الهتاف . وكان هرطوقي وعدو كل من يشكك بستالين . فمزاجياً كان خروشوف إلى جانب سفاحي ستالين واتباعه من قساة القلوب الذين بيدهم آلة التنفيذ ولا يسألون لقاء عملهم عن الثمن . وكان ضد المثقفين الذين أكثرهم تحدروا من خلفية بورجوازية ، والذين لم يلبث ستالين ان دمرهم . بعد موت لينين في ١٩٢٤ تآمر ستالين مع ج. أ. زينوفيف (رئيس الكومنترن ورئيس فرع لينينغراد) و ل. ب. كامنيف (رئيس الجهاز الحزبي في موسكو) على تروتسكي فهزموه ، واحتفلوا بانتصارهم في المؤتمر الرابع عشر في كانون الأول ١٩٢٥ والذي حضره خروشوف كمندوب محلي . وفي هذا المؤتمر اعلن شعار « الاشتراكية في بلد واحد » . وقد شهد هذا المؤتمر ، كذلك القمع النهائي للحوار الحر ضمن الحزب . ثم تآمر ستالين مع ريكوف وبوخارين لاسقاط زينوفيف وكامنيف . وفي ١٩٢٧ عندما كان خروشوف يسيطر على يوزوفكا لمصلحة ستالين ، طرد تروتسكي من الحزب . وعندما وصل خروشوف إلى موسكو في ١٩٢٩ ، كان قد بوشر بالخطة الخمسية الأولى ووقفت البلاد على شفير احداث رهيبة نتجت عن التشريك الزراعي الاكراهي (المزارع الجماعية).

بامكاني القول انني بدأت ثقافتي السياسية عندما كنت لا ازال فتى في قرية كالينوفكا الصغيرة في دوبناس حيث ولدت . وكانت معلمتي آنذاك امرأة تدعى ليديا تشفشنكو . كانت ثورية وملحدة ايضاً . وهي التي غرست في نفسي بذور الوعي السياسي الأولى ، وأخذت تزيل مني آثار تربيتي الدينية المتزمتة . كانت والدتي متدينة جداً ، وكذلك كان والدها – جدي – الذي كان من الفلاحين الارقاء ، ولهذا الاعتبار جندوه في الجيش القيصري لمدة خمس وعشرين سنة .

وعندما اعود بالذاكرة إلى طفولتي استطيع ان اتذكر تماماً القديسين على الايقونات المعلقة في جدار كوخنا الخشبي ، وقد اسودت وجوههم من دخان المصابيح الزيتية . واذكر انني تعلمت الركوع والصلاة امام الايقونات . وعندما علمونا ان نقرأ ، كان ذلك كي نقرأ الانجيل . الا ان ليديا وضعتني في طريق بعيد عن ذلك كله .

وقبل الثورة بسنوات كنت اصبحت قارئاً نهماً . وكنت في الغالب اقرأ الصحف البروليتارية والديمقراطية الاشتراكية . وبدأت اقرأ « البرافدا » فور

صدورها بانتظام في ١٩١٥ ، وكنت يومها في قسم المولدات في منجم باستوخوف قرب يوزوفكا . وكان عملي في باستوخوف واحداً من مجموعة اعمال التحقت بها بعد طردي لاشتراكي في اضراب جرى في ١٩١٥ . وكان يعمل معنا العديد من اسرى الحرب من الجيش النمساوي المجري ، أكثرهم من النمساويين ولكن بعضهم كان من التشيكيين ايضاً. وكنت على صلة طيبة مع التشيكوسلوفاكيين . كانوا يقولون لنا اننا معشر الروس اخوتهم في الرابطة السلافية ، وانهم لا يريدون الاشتباك في الحرب معنا بل يريدون العيش بسلام وصداقة . وانني اذكر اثنين منهم بصورة خاصة . كنت ادعوهما إلى مسكني فنتناول الشاي والمربيات ، وبادلاني بتدريسي الرسم الميكانيكي الذي كان مفيداً لي جداً في مهنتي . كان التشيكيون يخبرونني عن الحركة السلافية وعن روابط القربى والدم التي تشدنا اليهم . وكانت تلك هي المرة الأولى التي اسمع فيها بهذه الحركة وقد تركت في نفسي انطباعاً حسناً ، وإن واقع انبهاري بما اخبرني التشيكيون عن الاخوة السلافية يظهر كم كنت بعيداً عن ادراك المفهوم الماركسي – اللينيني للتضامن الطبقي .

وعندما قرأت « جيرمينال » لاميل زولا ، شعرت انه لم يكن يكتب عن فرنسا ، بل عن المنجم الذي نعمل فيه ، والدي وانا . كان وضع العمال واحداً في فرنسا وفي روسيا . وعندما استمعت ، فيما بعد ، إلى محاضرات عن الاقتصاد السياسي تعرض فيها المحاضر إلى نظام الاجور في ظل الرأسمالية ، وإلى استغلال العمال ، بدا لي وكأن كارل ماركس كان في المنجم حيث كنت اكدح . وتراءى لي كأنما استنبط قوانينه من مراقبة حياتنا ، نحن معشر العمال . فدلل علمياً كيف ولماذا على العمال ان يحرروا انفسهم من العبودية الرأسمالية ويبنوا المجتمع الاشتراكي .

واصبحت بلشفياً وعضواً في الحزب الشيوعي بعد الثورة . وبعد مدة قصيرة التحقت بالجيش الأحمر كعامل سياسي وكمسؤول دعائي . وما ان عدت من الجبهة بعد الحرب الاهلية حتى عينتني منظمة الحزب في يوزوفكا نائب مدير مناجم روشينكوف . وكنت قد عملت عشر سنوات هنا من قبل ، عندما كانت المناجم لم تزل ملكاً لشركة فرنسية . وكان مديرها في ١٩٢٢ صديقي الحميم يغور (جورجي) تروفيموفيتش اباكوموف . واصبح اباكوموف هذا وزيراً لصناعة الفحم فيما بعد وهو غير الذي اصبح وزيراً للشؤون الداخلية في ظل ستالين .

وعرضت علي ادارة مناجم باستوخوف الا انني طلبت اعفائي من الواجبات الحزبية حتى يتسنى لي الدرس في كلية العمال في يوزوفكا . وبعد اصرار في الطلب نجحت في الاخير بحمل ابرام بافلوفيش زافنياجين ، سكرتير اللجنة المحلية للحزب

كما فيما بعد ، يظهر جلياً انه لم يكن لدى خروشوف ادنى فكرة واضحة عن الخلافات السياسية بين مختلف فئات المعارضة الشيوعية . وكانت ماركسيته عقيدة ذات منشأ بدائي جداً – يمكن تسميتها عن حق – بماركسية الشعار او الهتاف . وكان هرطوقي وعدو كل من يشكك بستالين . فمزاجياً كان خروشوف إلى جانب سفاحي ستالين واتباعه من قساة القلوب الذين بيدهم آلة التنفيذ ولا يسألون لقاء عملهم عن الثمن . وكان ضد المثقفين الذين أكثرهم تحدروا من خلفية بورجوازية ، والذين لم يلبث ستالين ان دمرهم . بعد موت لينين في ١٩٢٤ تآمر ستالين مع ج.أ.زينوفيف (رئيس الكومنترن ورئيس فرع ليننغراد) و ل. ب. كامنيف (رئيس الجهاز الحزبي في موسكو) على تروتسكي فهزموه ، واحتفلوا بانتصارهم في المؤتمر الرابع عشر في كانون الأول ١٩٢٥ والذي حضره خروشوف كمندوب محلي . وفي هذا المؤتمر اعلن شعار « الاشتراكية في بلد واحد » . وقد شهد هذا المؤتمر ، كذلك القمع النهائي للحوار الحر ضمن الحزب . ثم تآمر ستالين مع ريكوف وبوخارين لاسقاط زينوفيف وكامنيف . وفي ١٩٢٧ عندما كان خروشوف يسيطر على يوزوفكا لمصلحة ستالين ، طرد تروتسكي من الحزب . وعندما وصل خروشوف إلى موسكو في ١٩٢٩ ، كان قد بوشر بالخطة الخمسية الأولى ووقفت البلاد على شفير احداث رهيبة نتجت عن التشريك الزراعي الاكراهي (المزارع الجماعية).

بامكاني القول انني بدأت ثقافتي السياسية عندما كنت لا ازال فتى في قرية كالينوفكا الصغيرة في دوبناس حيث ولدت . وكانت معلمتي آنذاك امرأة تدعى ليديا تشفشنكو . كانت ثورية وملحدة ايضاً . وهي التي غرست في نفسي بذور الوعي السياسي الأولى ، وأخذت تزيل مني آثار تربيتي الدينية المتزمتة . كانت والدتي متدينة جداً ، وكذلك كان والدها – جدي – الذي كان من الفلاحين الارقاء ، ولهذا الاعتبار جندوه في الجيش القيصري لمدة خمس وعشرين سنة .

وعندما اعود بالذاكرة إلى طفولتي استطيع ان اتذكر تماماً القديسين على الايقونات المعلقة في جدار كوخنا الخشبي ، وقد اسودت وجوههم من دخان المصابيح الزيتية . واذكر انني تعلمت الركوع والصلاة امام الايقونات . وعندما علمونا ان نقرأ ، كان ذلك كي نقرأ الانجيل . الا ان ليديا وضعتني في طريق بعيد عن ذلك كله .

وقبل الثورة بسنوات كنت اصبحت قارئاً نهماً . وكنت في الغالب اقرأ الصحف البروليتارية والديمقراطية الاشتراكية . وبدأت اقرأ « البرافدا » فور

صدورها بانتظام في ١٩١٥ ، وكنت يومها في قسم المولدات في منجم باستوخوف قرب يوزوفكا . وكان عملي في باستوخوف واحداً من مجموعة اعمال التحقت بها بعد طردي لاشتراكي في اضراب جرى في ١٩١٥ . وكان يعمل معنا العديد من اسرى الحرب من الجيش النمساوي المجري ، أكثرهم من النمساويين ولكن بعضهم كان من التشيكيين ايضاً. وكنت على صلة طيبة مع التشيكوسلوفاكيين . كانوا يقولون لنا اننا معشر الروس اخوتهم في الرابطة السلافية ، وانهم لا يريدون الاشتباك في الحرب معنا بل يريدون العيش بسلام وصداقة . وانني اذكر اثنين منهم بصورة خاصة . كنت ادعوهما إلى مسكني فنتناول الشاي والمربيات ، وبادلاني بتدريسي الرسم الميكانيكي الذي كان مفيداً لي جداً في مهنتي . كان التشيكيون يخبرونني عن الحركة السلافية وعن روابط القربى والدم التي تشدنا اليهم . وكانت تلك هي المرة الأولى التي اسمع فيها بهذه الحركة وقد تركت في نفسي انطباعاً حسناً ، وإن واقع انبهاري بما اخبرني التشيكيون عن الاخوة السلافية يظهر كم كنت بعيداً عن ادراك المفهوم الماركسي – اللينيني للتضامن الطبقي .

وعندما قرأت « جيرمينال » لاميل زولا ، شعرت انه لم يكن يكتب عن فرنسا ، بل عن المنجم الذي نعمل فيه ، والدي وانا . كان وضع العمال واحداً في فرنسا وفي روسيا . وعندما استمعت ، فيما بعد ، إلى محاضرات عن الاقتصاد السياسي تعرض فيها المحاضر إلى نظام الاجور في ظل الرأسمالية ، وإلى استغلال العمال ، بدا لي وكأن كارل ماركس كان في المنجم حيث كنت اكدح . وتراءى لي كأنما استنبط قوانينه من مراقبة حياتنا ، نحن معشر العمال . فدلل علمياً كيف ولماذا على العمال ان يحرروا انفسهم من العبودية الرأسمالية ويبنوا المجتمع الاشتراكي .

واصبحت بلشفياً وعضواً في الحزب الشيوعي بعد الثورة . وبعد مدة قصيرة التحقت بالجيش الأحمر كعامل سياسي وكمسؤول دعائي . وما ان عدت من الجبهة بعد الحرب الاهلية حتى عينتني منظمة الحزب في يوزوفكا نائب مدير مناجم روشينكوف . وكنت قد عملت عشر سنوات هنا من قبل ، عندما كانت المناجم لم تزل ملكاً لشركة فرنسية . وكان مديرها في ١٩٢٢ صديقي الحميم يغور (جورجي) تروفيموفيتش اباكوموف . واصبح اباكوموف هذا وزيراً لصناعة الفحم فيما بعد وهو غير الذي اصبح وزيراً للشؤون الداخلية في ظل ستالين .

وعرضت علي ادارة مناجم باستوخوف الا انني طلبت اعفائي من الواجبات الحزبية حتى يتسنى لي الدرس في كلية العمال في يوزوفكا . وبعد اصرار في الطلب نجحت في الاخير بحمل ابرام بافلوفيش زافنياجين، سكرتير اللجنة المحلية للحزب

على ارسالي إلى كلية العمال .

بعد ذلك احتللت مناصب مختلفة في منظمة الحزب في يوزوفكا . وفي كانون الأول ١٩٢٥ انتخبت مندوباً للمؤتمر الرابع عشر للحزب في موسكو . وكان رئيس منظمة يوزوفكا في ذلك الوقت طالب طب يدعى كوستيان موزيينكو . كان يحمل اثراً بورجوازياً في نفسه ، ويقيم علاقات مع اشخاص افضل قليلا من رجال السياسة الاقتصادية الجديدة . وعندما نقلناه فيما بعد من سكرتيرية منظمتنا ، تسببنا بضجة وصلت إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاوكراني التي ارسلت بعثة إلى يوزوفكا للتحقيق في نقله . وفي النهاية ايدتنا البعثة ضده .

كان موزيينكو خطيباً رائعاً ومنظماً ممتازاً . ولم يكن بالامكان تجريده من ذلك . وعند انعقاد المؤتمر الرابع عشر كان لم يزل اثره قوياً في عقول الشيوعيين في قطاعنا . كان لا يدانيه أحد في الفرع المحلي .(١)

ومن بين الاربعة مندوبين والاربعة مندوبين استشاريين الذين اختيروا للذهاب إلى المؤتمر عن منطقتنا ، كنت مندوباً استشارياً . لقد جرى اختيارنا ديمقراطياً على اساس حجم دوائرنا الحزبية . ولما كنت أرئس منطقة بتروفسكو — مارينسك التي جاء ترتيبها السادسة او السابعة في الحجم الحزبي بين مناطق قطاعنا ، كان مناسباً اختياري عضواً استشارياً بدل اختياري عضواً مقترعاً .

كان سروري بالغاً في ان تتاح لي فرصة مشاهدة موسكو وحضور مؤتمر الاتحاد كله . فنزلنا في بيت السوفيات الرقم ٣ في كاريتني . وكان مقرنا بسيطاً ومزدحماً . نمنا على اسرة مصنوعة من الواح خشبية واحدنا إلى جوار الآخر كالحطب . اذكر ان بوستشيف ، سكرتير منظمة خاركوف كان ينام وزوجته في الصف مع آخرين منا (٢) ولقد اثار هذا الترتيب بعض الفكاهات على حساب بوستشيف ولكنها كانت كلها مرحة وبروح رياضية . كنا جميعنا شباناً وكان بوستشيف رجلا محترماً في الحزب .

وصباح اول يوم وصولنا إلى موسكو حاولت ان اركب الحافلة الكهربائية إلى الكرملين ، لكنني لم أعرف اي خط انتقي فكان ان ضللت الطريق . ومنذ ذلك الوقت بدأت استفيق باكراً واتوجه إلى الكرملين مشياً على القدمين ، حتى انني كنت أعدل عن طعام الفطور لكي أؤمن لنفسي مقعداً في مكان جيد .

(١) في المؤتمر الرابع عشر ميز موزيينكو نفسه بالهتاف ضد المعارضة والانتصار لستالين. ولكنه طهر فيما بعد مع آخرين بتهمة الفساد .

(٢) بافيل بوستشيف ستاليني مخلص صعد إلى القمة في اوكرانيا ثم جرفته التطهيرات فأعدم .

وكان لكل وفد مجموعة من المقاعد . الا انه ضمن المجموعة هذه كان يحظى بأفضل المقاعد من يأتي مبكراً . وحاولت دوماً ان اجد مقعداً لي في المقدمة المواجهة للمنصة . وكان المؤتمر يعقد في القاعة التي ينعقد فيها الآن مجلس السوفيات الاعلى . وفي ذلك الزمن لم يكن بعد قد تم اعادة بنائه وكان المكان يعرف بقاعة فلاديمير . كانت الوفود الاوكرانية تجلس في وسط القاعة ووفد يوزوفكا كان يحتل الصفوف الامامية من الوسط . واعطي للمنظمة البروليتارية في دونباس افضل المقاعد نظراً لموقعها الاستراتيجي في منظمة الحزب في اوكرانيا .

وكان يرئس المنظمة الاوكرانية لازار موسيفتش كاغانوفيتش ، وكان مكتبه السياسي مؤلفاً من بتروفسكي ، وشوبار ، وشيختير ، وسكربنك ، وكان كاغانوفيتش السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الاوكراني وشوبار رئيساً لمجلس وزراء اوكرانيا (١) .

لقد ترك المؤتمر الرابع عشر انطباعاً باقياً في نفسي . فهنا ، كنت على قيد اقدام قليلة من قادة الدولة والحزب ! وسنحت لي آنذاك اول فرصة لان ارى ستالين شخصياً ، واعجبت به كثيراً . اعتقد ان بامكاني تعليل ذلك بذكر حادثة وقعت خلال انعقاد المؤتمر . فذات مرة طلب رئيس منظمة حزبنا الاقليمية الرفيق موزينكو ان يسمح الرفيق ستالين بالتقاط صور له مع وفدنا . فاعلمنا انه يرغب في الانضمام إلى تجمعنا عند التقاط الصور وسيبلغنا عن وقت فراغه المناسب . وانتظرنا طويلا . واخيراً اخبرنا بان نجتمع في قاعة كاترين خلال استراحة المؤتمر . ووصل ستالين وجلس ، وتحلقنا حوله .

وذهب المصور ، واسمه بيتروف ، إلى آلة التصوير وأخذ بترتيب الجماعة وتهيئتها للصورة . وكان بيتروف اخصائياً مرموقاً في حرفته . وقد عمل لمدة سنوات قرب الكرملين ، وهو معروف جيداً من العاملين في الحزب . وبدأ بيتروف باعطائنا التعليمات حول كيف يجب ان نقف وإلى اية جهة يجب ان ندير وجوهنا . وفجأة صاح ستالين بصوت استطاع الجميع سماعه : « ان الرفيق بيتروف يحب ان يعطي الأوامر للناس الذين حوله . لكن هذا أصبح ممنوعاً هنا الآن . ليس مسموحاً لاحد بأن يأمر أحداً بعد الآن » . ورغم ان ستالين قال ذلك بلهجة مازحة ،

(١) الاسماء المهمة هنا عدا كاغانوفيتش هي شوبار وسكربنك . شوبار كان رئيس وزراء اوكرانيا وسكربنك وزير التربية . وقد قاوم سكربنك بشجاعة حملة التطهير الأولى في اوكرانيا التي شنها بوستشيف ضد الوطنيين الاوكرانيين ثم انتحر في ١٩٣٣ . ان مصير هؤلاء جميعاً وسواهم موصوف في الفصل الثالث .

٤

الا اننا جميعاً حملنا قوله على محمل الجد ، وتأثرنا بالروح الديمقراطية التي أظهرها .

ووقع حادث مشابه بعد سنوات قليلة عندما أخذ صديقي ليف ابراموفتش ريمسكي جماعة من الطلبة إلى موسكو لمشاهدة معالمها . وقرر ريمسكي ان يسأل ستالين اذا كان يسمح باستقبال وفد الطلبة هؤلاء . واخبرني ليف ابراموفتش فقال : « اتصلت بالكرملين فوصلوني رأساً بستالين . يا لسهولة الوصول اليه ! » فوافق ستالين على استقبالنا . وعندما وصلنا إلى مكتبه ، قلت : « ايها الرفيق ستالين ، لقد جئنا من المدينة المعروفة سابقاً بيوزوفكا التي تحمل اليوم اسمكم . انها تدعى « ستالينو » . لذلك نرغب في الطلب اليكم ان تزودونا برسالة تحية نحملها معنا منكم إلى عمال ستالينو » . واليك كيف اجاب ستالين طلبي : « من تعتقد انني أكون ؟ ، أقطاعي كبير انا ؟ ان العمال في المصانع ليسوا أرقاء مقطوعين عندي . من المهانة ان أكتب اليهم رسالة تحية ..انا لن افعل ذلك ولا أحب هذا الأمر عندما يفعله غيري » . وكان ان فوجيء ليف ابراموفتش مفاجأة سارة بهذا الجواب . فما ان عاد إلى بلدته حتى نشر هذه القصة ليبين روح ستالين الديمقراطية ، وسهولة الوصول اليه ، وفهمه السليم لمكانته .

كان معظم ما شاهدت او سمعت عن ستالين خلال هذه السنوات المبكرة يسرني كثيراً . في العشرينات وزعت على منظمات الحزب في كل البلاد نسخ عن محاضر جلسات المكتب السياسي . وكانت تقرأ وتدرس من قبل اعضاء الحزب الناشطين . اذكر انني قرأت في احدى هذه النسخ جدلا بين ستالين وواحد من اثنين ، اما تروتسكي او زينوفيف . وقد انطبعت في ذاكرتي جملة من اقوال ستالين تلك « سأبذل كل ما في طاقتي للحفاظ على وحدة الحزب وتوطيد وحدة اتجاه حركتنا . الا ترى ماذا تفعل ؟ يا الله ، (١) ايها الرجل الا ترى ما تقول ؟ ولكن ليكن الله معك ، ليكن الله في عونك ! » والان ، رغم ان ستالين قد درس في مدرسة اكليريكية الا انه لم يكن رجلا متديناً ، وان مثل هذه العبارة لا تعبر عن طابعه . ولكنني فهمت قوله « ليكن الله في عونك » ، على انه يعني « ليس عندي من مزيد ابذله لمساعدتك . انني لا اتمنى لك شراً . فليكن الله معك وليبصّرك باخطاء اتجاهاتك . » ولما كنت انا ايضاً غير متدين ولم أكن كذلك على الاطلاق ، الا انني سررت بهذا الدليل على رحابة صدر ستالين وسماحته ازاء خصومه .

في ١٩٢٥ لم يكن الناس يعرفون شيئاً بعد عن حقيقة الصراع الشرس الدائر داخل الحزب . فقد برز ستالين كسكرتير عام للحزب بينما كان لينين لم يزل

(١) الالحاد صفة ملازمة للماركسية وخروشوف يكتب الله بحروف صغيرة .

على قيد الحياة ، وتروتسكي لما يزل ناشطاً . وهكذا كرت سنوات عديدة قبل ان يعرف دور ستالين على حقيقته في اوساط الحزب فضلا عن الجماهير .

في ١٩٢٧ حضرت — كمندوب للمرة الثانية على التوالي عن منظمة الحزب في يوزوفكا — المؤتمر الخامس عشر الذي اتخذ فيه ستالين ومؤيدوه موقف المقاتل ضد الزينوفيفيين او ما عرف «بالمعارضة اللينينغرادية» . واذكر اننا كنا نقول حتى طير الدوري كان يزقزق الاخبار إلى رجل الشارع ، وأن انشقاقاً قد وقع في حزبنا .

واستقر وفدنا ثانية في بيت السوفيات في الرقم ٣ من شارع كارتني . وما ان وصلنا إلى موسكو حتى قيل لنا ان ياكوف اركاديفتش ياكوفليف سيأتي ليحدثنا حول بعض التطورات في الحزب وليحذرنا من الحالة المحتمل نشوبها في المؤتمر .(١) واعتقد ان ياكوفليف كان واحداً من نواب سيرجو أردزونيكيدز (٢) . وعرفنا ان ياكوفليف آت ليحدثنا على اساس تكتلي ، اذ طلب الينا ان لا نسمح لاحد من خارج بحضور اجتماع الوفود الاوكرانية (٣) . وادركنا كذلك ان ياكوفليف سيبلغنا معلومات وتوجيهات سرية صادرة مباشرة من ستالين بالذات . ولقد اوضح لنا ياكوفليف اين نفترق عن الزينوفيفيين واخبرنا ما هو مطلوب منا القيام به . وبكلام آخر ، هيأنا للقيام بعمل تكتلي ضد المعارضة الزينوفيفية — الكامينفية التي كانت تزداد قوة . وكان زينوفيف رئيس الكومنترن ، المنظمة الشيوعية الدولية التي تدير دفة الثورة الاممية . من هنا ، كان زينوفيف ، باعتباره الشخص الرئيسي في الحركة الشيوعية الدولية ، ذا سلطة ومكانة مرموقتين . واوضح ياكوفليف لنا ان زينوفيف سيكون الخطيب المشارك مع ستالين في المؤتمر . (وكان زينوفيف قد القى هو التقرير العام بعد وفاة لينين كما كان خطيباً مشاركاً مع ستالين في المؤتمر الرابع عشر المنعقد في ١٩٢٥) .

(١) ب. أ. ياكوفليف الذي شغل مسؤولية مفوض الشعب للزراعة تورط كثيراً في التفريط الذي صاحب التجمع الزراعي ورغم ولائه لستالين وثقة ستالين السابقة به فهذا لم ينجه من الاعدام في ١٩٣٨ كانتهازي يميني . والذي يبعث على السخرية ان الانتهازيين «اليمينيين» كانوا يعارضون التجمع الزراعي !

(٢) كان سيرجوار دزونيكيدز مثل ستالين ، جورجياً . وكان لسنوات مقرباً من ستالين .

(٣) هذا العزل بين الوفود الشيوعية من مختلف جمهوريات الاتحاد اسلوب ستاليني مارسه ستالين منذ ١٩٢٧ مانعاً الوفود من الحوار فيما بينها . وقد شكت الوفود الشيوعية من احزاب مختلف البلدان في مؤتمر ١٩٦٠ في موسكو من ان الرفاق السوفيات (هذه المرة بقيادة خروشوف نفسه) قد رفضوا السماح لهم بالاجتماع والحوار .

واخبرنا ياكوفليف ايضاً ان وفد لينينغراد إلى المؤتمر الخامس عشر قد وجه رسالة
إلى رئاسة المؤتمر يطلب فيها ، اعتماداً على قوانين الحزب ، ان يعطى زينوفيف
وقتاً مساوياً للوقت المخصص لستالين .

وعندما بدأ المؤتمر وجدنا انفسنا ثانية نحتل المكان الاوسط من القاعة . وإلى
يسارنا كان وفد لينغراد ، وإلى يميننا كان وفد موسكو . وكنا على اتصال مع
الوفد الموسكوفي ننسق نشاطاتنا معه ضد معارضة لينينغراد. وكانت الابحاث وكان الجدل
يجريان على قدم وساق في كل مكان ، بصورة رسمية وبصورة غير رسمية ، في
حلقات كبرى وفي حلقات صغرى ، خلال جلسات المؤتمر وابان فترات
الاستراحة ، داخل قاعة القديس جرجس وخارجها في الممرات .

وكم كان حزني بالغاً عندما وجدت رفيقي القديم ابرامسون في معسكر العدو .
فقد كان محرراً لجريدة «ديكتاتورية العمل» في يوزوفكا عند رجوعي من الجبهة
في ١٩٢٢ ، والآن كان يعمل في لينغراد كسكرتير في احدى لجان المنطقة . كان
شيوعياً طيباً ، ولكنه كسائر أفراد فرع لينغراد ، كان من الزينوفيفيين . وكان
الزينوفيفيون قد اضافوا بادايف ونيقولاييفا (١) إلى وفدهم بحيث يكون
للمعارضة ثقل أكثر في المؤتمر . وكان هؤلاء اعضاء حزبيين ناشطين ، وقد ماتوا
جميعاً الآن .

وتكلم ستالين ، وريكوف ، وبوخارين ممثلين خط اللجنة المركزية — اي خط
ستالين . وكان هناك خط اللجنة المركزية من جهة وخط المعارضة من جهة أخرى .
ولم يكن بينهما مجال للوقوف في الوسط .

اود ان اقول كلمة في بوخارين ، كان وافر الاحتدام وكثير الشعبية . لقد
شاهدته وسمعته يخطب في ١٩١٩ عندما كنت أؤدي خدمتي في الجيش الأحمر .
فقد دعيت بوصفي سكرتيراً لخليتنا الحزبية إلى اجتماع لاعضاء الحزب الناشطين في
مقاطعة كورسك خطب فيه بوخارين . وقد حاز على اعجاب الجميع ووجدت
نفسي مجذوباً اليه باندهاش . كان يملك شخصية جذابة وروحاً ديمقراطية قوية .
وقابلت فيما بعد رفاقاً عملوا معه ، وكانوا شيوعيين بسطاء وتقدميين من موسكو
قريبين إلى مستويي الحزبي والسياسي . فأخبروني كيف كان بوخارين
يعايشهم في مهاجعهم ويجالسهم في ردهة الطعام إلى موائدهم ، وقد ترك ذلك في

(١) كانت نيقولا ييفا ، عدا نادزا كروبيسكايا زوجة لينين المرأة الوحيدة العضو في
للجنة المركزية عشية التطهير الكبير . ورغم تأييدها لزينوفيف الا انها نجت
من موجة التطهير واحتفظت بمركزها .

نفسي انطباعاً شديداً . وكان بوخارين كذلك رئيس تحرير البرافدا ، ومفكر
الحزب الرئيسي . وقد تكلم لينين دوماً عنه بعطف ولفظ اسمه بتحبب . ووضع
بوخارين كتابه « الف باء الشيوعية » بناء على توجيهات لينين . وكان كل من
ينضوي إلى الحزب يتثقف بالماركسية–اللينينية عن طريق درس كتاب بوخارين هذا.
وبكلمة مختصرة ، نستطيع القول ان بوخارين كان محبوباً كثيراً في الحزب .

خلال المؤتمر الخامس عشر للحزب قدم وفد من الوفود إلى بريزيديوم المؤتمر
مكنسة فولاذية . وقد القى ريكوف ، الذي كان يرئس البريزيديوم ، خطبة قال
فيها : « انني اقدم هنا هذه المكنسة الفولاذية للرفيق ستالين ليتمكن من تكنيس
اعدائنا » . وقوبلت كلمته هذه بموجة من التصفيق التقديري مصحوبة بالضحك .
وارتسمت على شفتي ريكوف نفسه ابتسامة ثم انفجر ضاحكاً هو الآخر ايضاً .
كان واضحاً انه كان يثق بان ستالين سيستخدم المكنسة بحكمة ولمصلحة الحزب
ضد اعداء الحزب ومعارضي الخط العام. وكان من الصعب على ريكوف ان يتكهن
بانه هو ايضاً سيكون في ١٩٢٧ بين الذين ستمر عليهم المكنسة ذاتها التي قدمت
إلى ستالين (١) .

في زمن انعقاد المؤتمر الخامس عشر لم يكن مجال للشك في ان يتسرب إلى
اذهاننا ان ستالين ومعاونيه كانوا على حق وان المعارضة كانت على باطل . ولم ازل
اعتقد ان موقف ستالين الايديولوجي كان في الاساس صحيحاً . وادركنا ان
كفاحاً لا هوادة فيه ضد المعارضة هو أمر محتوم . لقد بررنا الاحداث بمنطق حمالة
الخشب : عندما تحطب غابة تتطاير شظايا الخشب .

على اي حال ، لم يكن في باب الصدف ان ستالين تربع في المركز القيادي في
الحزب ، ولا ان الحزب ايده ضد خصوم اقوياء من امثال التروتسكيين والزينوفيفيين
وفيما بعد كتلة اليمين — اليسار ، اي كتلة سيرتسوف ولوميناذز (٢) . فقد كان

(١) أ. ريكوف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي بعد لينين ، و ن. بوخارين المفكر
الحزبي الكبير وصديق لينين المحبوب ساعدا ستالين على هزيمة زينوفيف وكامنيف .
ولكن سرعان ما حكما بتهمة الانتهازية اليمينية . وقد حوكما في أكبر محاكمات
التطهير ، المحاكمة الثالثة ، بتهمة الخيانة واعدما في ١٩٣٨ .

(٢) س. سيرتسوف الذي اصبح عضواً مرشحاً للمكتب السياسي ورئيس جمهورية
روسيا الفدرالية ، و ف. ف. لوميناذز أحد أقرب أصدقاء ستالين ،
ساعدا ستالين ، ضد تروتسكي اولا ثم بوخارين . ولكنهما انقلبا عليه في
مطلع الثلاثينات وطالبا علناً بوجوب اقالته من سكرتيرية الحزب العامة . فسجنا
واعتبرا متآمرين مع بوخارين فيما بعد. ولم يعرف مصيرهما . وان اشارة=

ستالين ذا شخصية قوية واسهم اسهاماً كبيراً في تعبئة قوى الحزب لاعادة بناء صناعتنا وزراعتنا وتقوية جيشنا . ولا يجوز لنا اغفال حقيقة ان اسم ستالين لم يكن معروفاً وشائعاً بين الجماهير في السنوات الأولى بعد الثورة. لكنه في برهة قصيرة اجتاز مسيرة طويلة وقاد حزبنا وشعبنا معه .

في ١٩٢٨ استدعاني كاغانوفيتش إلى خاركوف (وكانت حينئذ عاصمة اوكرانيا) وعرض علي منصب نائب رئيس الفرع التنظيمي للجنة المركزية في الحزب الاوكراني . وكما اوضح لي كاغانوفيتش ان عدد العمال في اللجنة المركزية الاوكرانية ، ومركزها يومها في خاركوف ، كان قليلا وانه اراد استحضاري من ستالينو (يوزوفكا) لاقامة المساواة في تمثيل العمال في جهاز الحزب . كنت غير راغب في قبول العرض . فقد علمتني تجاربي السابقة مع منظمة خاركوف انها تزخر بالاشخاص الذين لا يركن اليهم . وكنت واثقاً من وقوعي في متاعب اذا قبلت المسؤولية المعروضة . فالناس في خاركوف كانوا يميلون إلى الحسد من منظمة يوزوفكا ، ولم يكن ذلك دون سبب : فقد كنا عمال مناجم وصناع ادوات معدنية . كنا نحن البروليتاريا الحقيقية ، ملح الأرض وصخرة الاساس للحزب . لذلك قلت لكاغانوفيتش : « اعتقد انكم مصيبون كلياً في جلب عمال أكثر إلى جهاز اللجنة المركزية ولكنني لا ارغب في ترك ستالينو . انني مطلع اطلاعاً وثيقاً على الاحوال هناك : اعرف الاجراءات والملاك كله في منظمة ستالينو . بينما انا غريب هنا في خاركوف واشك في قدرتي على تكييف نفسي بحيث اصلح للعمل في الفرع التنظيمي في اللجنة المركزية » .

فقال كاغانوفيتش : « حسناً اذا كنت ترى الأمر هكذا ، فانني اعتقد ان اللجنة المركزية تستطيع الاستغناء عنك . فلا داعي لنقلك من ستالينو ، اذا كان لديك هذا الاحساس القوي ضده » .

ولكن لدى عودتي اخذت اعيد النظر في عرض كاغانوفيتش. فاسترجعت في ذهني علاقتي الماضية معه وامكانات العمل معه في المستقبل . كان كاغانوفيتش يحبني كثيراً ، وقد التقينا للمرة الأولى في ايام ثورة شباط في اجتماع في يوزوفكا مثلت فيه العمال في مناجم روشينكوف . ثم التقينا ثانية بعد اسبوع او اسبوعين . وفي تلك الايام لم أكن اعرفه باسم كاغانوفيتش بل باسم زيروفيتش . وكنت اثق به وأحبه مئة بالمئة . وعرفت ان كاغانوفيتش يحتاج إلى كل المساعدة التي يستطيع

= خروشوف المستهجنة إلى « الكتلة اليسارية — اليمينية » مصدرها ان محاكمات بوخارين رسمياً عرفت « بقضية الكتلة المعادية للسوفيات من اليمينيين والتروتسكيين » .

الحصول عليها في خاركوف . فهو لم يكن يعتبر ادارياً حقيقياً . حتى لا نذكر افتقاره لصفات الزعامة الحقيقية ايضاً .وكان مركزه في القيادة الجماعية في اوكرانيا مهزوزاً ، وكانت علاقاته مع سائر اعضاء اللجنة المركزية ، في افضل الحالات ، يشوبها التعقيد . كان النفر القديم في القيادة الجماعية يعملون باستمرار لتقويض سلطته . ولم يكن يدعمه بتروفسكي ولا شوبار ، وبصورة عامة كانت الجماعة من دينبروبتروفسك ضده . من هنا ان كاغانوفيتش كان يعتمد كثيراً على دونباس ولاسيما على تأييد منظمة يوزوفكا .

وكان هناك شيء آخر دفعني إلى التفكير بالذهاب إلى خاركوف.ذلك ان الناس كانوا اخذوا يفقدون الثقة بستروغانوف ، سكرتير لجنة يوزوفكا ، وبدأوا يتجهون نحوي . ويعود ذلك جزئياً إلى كوني قد عشت في يوزوفكا منذ طفولتي . لقد عملت وابي في الحفر في يوسبنسك على بعد ميلين ونصف الميل جنوبي يوزوفكا . وفي مصنع بوس تعلمت حرفتي وكانت لي دائرة متسعة من الاصدقاء الذين عرفتهم منذ صباي .

واذ أخذ الناس يتجاوزون ستروغانوف ويتجهون نحوي أخذت علاقاتي به تسوء لاسيما واني كنت اسمياً نائبه . وبالمناسبة ، لقد اعدم هو فيما بعد (مسكين لم يكن يستحق ان يرمى بالرصاص) . على اية حال ، فتجنباً للعراك مع ستروغانوف ، ظننت ان من الانسب لي الانسحاب من يوزوفكا قبل ان تزداد علاقاتي معه سوءاً .

بعد درس كل هذه الاعتبارات بدقة، قررت ، في مطلق الاحوال ، قبول عرض كاغانوفيتش . فأخبرته بانني بدلت رأيي ووافقت على نقلي إلى خاركوف انما بشرط واحد : ان ارسل إلى مكان آخر حالما تسنح الفرصة . ولم يكن يهمني إلى أين طالما انني انقل إلى منطقة صناعية . ذلك ان خبرتي في الشؤون الزراعية كانت قليلة بحيث أصبح خارج اطار عملي لو نقلت إلى منطقة زراعية .

ذهبت إلى خاركوف كنائب رئيس الفرع التنظيمي الذي كان يرئسه نيقولاي نيستيروفيتش ديمشنكو (١) . وكان رجلا طيباً وشيوعياً نشيطاً ، وكان ولاؤه للخط الحزبي العام ، وللجنة المركزية ، ولستالين . ولكنه هو الآخر ، قتل فيما بعد، بأمر من ستالين .

وكما توقعت وجدت عملي في خاركوف غير ملائم على الاطلاق . فلم يكن

(١) ديمشنكو هو أحد ثلاثة (ستروغانوف وبتروفسكي) من رجال الحزب السوفياتي الذين اعدمهم ستالين ويجهلهم الغرب .

يخرج عن الامور المكتبية . وانا رجل الأرض ، رجل عمل ، عامل في المناجم . لقد اعتدت العمل في المعادن والمواد الكيمائية . ان في تكويني ما يرفض العمل المكتبي : انه عمل غريب عن طبعي كلياً . انني امقت مشاهدة العالم الحي من خلال كومة من الاوراق والملفات . كان عملي في خاركوف نهاية مميتة . احسست كأنني سقطت في فخ او انني اختنق . وذهبت إلى كاغانوفيتش مرتين او ثلاث مرات وذكرته انه قد وعدني بارسالي خارج خاركوف حالما تسنح الفرصة بذلك .

وفي ذات يوم استدعاني ليقول لي : « لقد وجدت لك عملا في كييف . فديمشنكو عين هناك سكرتيراً للجنة المنطقة وقد طلب ارسالك كرئيس للفرع التنظيمي في كييف . اذا وافقت على النقل تستطيع ان تحصل لنفسك على بطاقة سفر وترحل اليوم » .

وافقت دون تردد . كان ذلك يوم الاحد . وفي المساء كنت في القطار المنطلق فبلغت كييف في صباح اليوم التالي . ولم أكن قد زرت كييف من قبل . فما ان وصلت حتى ذهبت إلى ضفاف الدنيبر وشخصت ببصري إلى ذلك النهر العظيم ، بينما لم تزل حقيبتي في يدي .

لم تكن منظمة كييف تعتبر مركزاً حزبياً اميناً . فقد ذاع صيت المنطقة كحصن للعناصر القومية الاوكرانية ، وقد كانت تستحق هذا الصيت عن جدارة ، وكانت البروليتاريا المحلية هزيلة وغير مستقرة ؛ اما الانتيليجنسيا التي كانت تتمركز في الاكاديمية الاوكرانية للعلوم فيقودها غروشيتسكي ، وهو قومي ومن اتباع بيتلورا (١) . وكان هناك عدد كبير من انصار تروتسكي في المنطقة .

كنت اعرف ان القوميين الاوكرانيين في كييف كانوا يعتبرونني « روساك » ميؤوساً منه . وهذا التعبير اوكراني يطلق على الروس .

الا انني رغم توقعي السوء ، لا بد لي من الاعتراف ان السنة التي قضيتها في كييف اسفرت عن نتائج مرضية جداً . وانني احتفظ بذكريات مفرحة عديدة عن تلك المرحلة . فقد وجدت عملي سهلا هناك . ويبدو ان الناس كانوا يحبونني ويثقون بي ، بل اقول انهم كانوا يحترمونني .

انا لا انفي وجود الصعوبات . هذا أبعد ما يكون عن قصدي . فقد حاول المنشفيك والاشتراكيون الثوريون، والقوميون الاوكرانيون، والتروتسكيون جميعاً

(١) س. ف. بيتلورا كان أشهر الزعماء القوميين الاوكرانيين وقد وقف نفسه على النضال في سبيل اوكرانيا المستقلة وضد اندماجها في الاتحاد السوفياتي .

الافادة من المتاعب التي كانت تواجهنا في كييف . وكان العديد من الناس عاطلين عن العمل ، فأخذوا يتظاهرون في الشوارع حاملين الاعلام الحمر . وعقدنا اجتماعاً كبيراً في البناية القديمة لمجلس السوفيات في مدينة كييف لبحث الموضوع . وقلت للجمهور الذي جاء إلى هذا الاجتماع : « انني اعرف اين يوجد طلب كبير على العمال واستطيع بسهولة تدبير أعمال لكم . »

وبدا عليهم الانشراح فسألوا : « أين ؟ »

قلت : « في دونباس » .

ولكنهم قالوا : « نفضل ان نبقى عاطلين عن العمل هنا ، على الذهاب إلى دونباس » .

لقد اثارني هذا الجواب لأن جذوري كانت في دونباس وكنت افتقد كثيراً عمال المناجم الذين كبرت معهم . اما بالنسبة لسكان كييف هؤلاء فقد كانت دونباس تعني الريف المتخلف . فضلا عن ان حرفة التعدين والعمل في المناجم كانت سائدة فيها ، ولم يكن اهل كييف مدربين على هذا النمط من العمل (١).

في ١٩٢٩ بلغت الخامسة والثلاثين . وادركت ان هذه كانت فرصتي الاخيرة في التفكير الجدي حول الذهاب إلى مؤسسة من مؤسسات التعليم العالي . ذلك انني لم أكن قد ذهبت إلى أبعد من كلية عمال يوزوفكا ، وكان الوقت يلقي بثقله علي . فقررت السعي لاخذ اجازة غياب لأكمل دراستي . في البداية واجهت صعوبات من رؤسائي . فكاغانوفيتش كان قد نقل آنذاك إلى اللجنة المركزية في موسكو والرفيق كوسيور كان قد ارسل ليحل محله (٢) . وكانت النظرة العامة إلي انني من المقربين إلى كاغانوفيتش ، وكان هذا صحيحاً . ولكن الناس افترضوا ان السبب الحقيقي لطلب المأذونية في الذهاب إلى المدرسة هو عدم رغبتي في العمل مع كوسيور ، وهذا لم يكن صحيحاً . لم أكن اعرف كوسيور جيداً ولكنني كنت احترمه. كان معتدل الاطباع ، محبباً ، وذكياً . كنت اضعه في مرتبة اعلى من كاغانوفيتش لقدرته على التعامل مع الناس، ولكنه لم يكن يستطيع منافسة كاغانوفيتش كمنظم . كانت عند كاغانوفيتش القدرة

(١) هنا وفي فصول لاحقة لا يجزم خروشوف ما اذا كانت القومية الاوكرانية عاملا مهماً او انه يتظاهر بالتقليل من شأنها .

(٢) س. ف. كوسيور عضو في المكتب السياسي الستاليني بقي السكرتير الأول للحزب الشيوعي الاوكراني حتى اعتقل في ١٩٣٨ فحل محله خروشوف في اوكرانيا .

على تنفيذ الاعمال . فلو وضعت اللجنة المركزية في يديه فأساً لشق العاصفة . ولكن لسوء الحظ كان غالباً ما يقطع بفأسه الاشجار الصحيحة كما يقطع الاشجار الفاسدة . غير ان رقاقات الخشب تطايرت حقاً — ولم يكن بالامكان ابعادها عنه .

على اي حال ، ذهبت إلى خاركوف فأوضحت موقفي لكوسيور في جلسة حميمة : « انظر ، انا قد بلغت الخامسة والثلاثين . اريد انهاء دراستي . هل تكتب لي توصية ؟ اود أن اتقدم بطلب لقبولي في الاكاديمية الصناعية في موسكو واود ان اطلب دعم اللجنة المركزية . اريد ان اصبح مختصاً بالتعدين . »

وكان كوسيور متفهماً جداً ، فاصغى إلي ثم اعطاني موافقته الشخصية . على ان ديمشنكو استاء جداً وحاول اقناعي بالبقاء رغم انه ، هو ايضاً ، استطاع ان يفهم كيف يرغب المرء في متابعة دروسه . واجتمع المكتب ليقرر اذا كان يمنحني فرصة للغياب . فظن بعضهم انني احاول الهرب من ديمشنكو ، واشاروا الي بانهم على استعداد لدعمي اذا كان ذلك سببطلب اعفائي من عملي في خاركوف.

فكان علي اقناعهم بان طلب اعفائي لا صلة له بمسألة علاقاتي مع ديمشنكو وان كل ما في الامر هو رغبتي في إكمال علومي . واخيراً ، بعد عدد من الجلسات ، قرر المكتب اعفائي من مسؤولياتي الحزبية في اوكرانيا حتى يتسنى لي دخول الاكاديمية الصناعية . فاسرعت في الذهاب إلى موسكو .

٢

العمل الحزبي في موسكو

من الاكاديمية الصناعية الى المكتب السياسي

في ضوء التطورات اللاحقة بالامكان الترجيح ان ذلك الموظف الحزبي البالغ من العمر الخامسة والثلاثين والذي استحضر من اوكرانيا إلى الاكاديمية الصناعية في موسكو لم يكن دافعه الأول التحصيل العلمي بل اختبار نفسه في العمل السياسي ، وفي الوقت نفسه ، قلب الاكاديمية إلى حصن ستاليني . ذلك ان هذا المركز المخصص اصلا لتنشئة النخبة الشيوعية تحول في ١٩٢٩ و ١٩٣٠ إلى بؤرة معادية للستالينية . وسرعان ما استطاع خروشوف السيطرة على خلية الحزب وهزم المعارضة مستخدماً اساليب جمعت القسوة إلى المراوغة . وبلغ من النجاح ما أهله إلى ان يترك الاكاديمية وراءه ، ويبدأ في ظل كاغانوفيتش صعوده العاجل نحو احتلال منصب رئيس فرع موسكو كله . ان الخلفية الكبرى لهذا الفصل كانت الحملة المسعورة التي استخدمت العنف لتصنيع الاتحاد السوفياتي تصنيعاً سريعاً والتي تمثلت بمشروع الخمس سنوات الأولى والنظام الزراعي الجماعي والتي لخروشوف رأي يقوله فيها لا حقاً .

واجهتني بعض الصعوبات في سنتي الأولى في الاكاديمية الصناعية . فقد قيل لي انني افتقر إلى الخبرة الكافية في الادارة التنفيذية التي تؤهلني لأن اكون طالباً هناك . « هذه مدرسة للمديرين الاداريين » ، قال الرفاق ، « وانت لست مهيأ للدروس المقررة هنا . لعل الأفضل لك ان تنتقل إلى دورة الدروس عن الماركسية — اللينينية المخصصة للجنة المركزية » . وكان علي في الاخير ان استنجد بكاغانوفيتش . وكان لازار موسييفتش (الاسماء الأولى لكاغانوفيتش) سكرتيراً للجنة المركزية ، واليه يعود الفضل في بقائي في الاكاديمية . وكانت الاكاديمية تعج بمختلف فئات البشر . وقد جاء الطلاب من بيئات سياسية وثقافية متباينة .

على تنفيذ الاعمال . فلو وضعت اللجنة المركزية في يديه فأساً لشق العاصفة .
ولكن لسوء الحظ كان غالباً ما يقطع بفأسه الاشجار الصحيحة كما يقطع
الاشجار الفاسدة . غير ان رقاقات الخشب تطايرت حقاً — ولم يكن بالامكان
ابعادها عنه .

على اي حال ، ذهبت إلى خاركوف فأوضحت موقفي لكوسيور في جلسة
حميمة : « انظر ، انا قد بلغت الخامسة والثلاثين . اريد انهاء دراستي . هل تكتب
لي توصية ؟ اود أن اتقدم بطلب لقبولي في الاكاديمية الصناعية في موسكو واود ان
اطلب دعم اللجنة المركزية . اريد ان اصبح مختصاً بالتعدين . »

وكان كوسيور متفهماً جداً ، فاصغى إلي ثم اعطاني موافقته الشخصية . على
ان ديمشنكو استاء جداً وحاول اقناعي بالبقاء رغم انه ، هو ايضاً ، استطاع ان
يفهم كيف يرغب المرء في متابعة دروسه . واجتمع المكتب ليقرر اذا كان
يمنحني فرصة للغياب . فظن بعضهم انني احاول الهرب من ديمشنكو ، واشاروا
الي بأنهم على استعداد لدعمي اذا كان ذلك سبب طلب اعفائي من عملي في خاركوف.

فكان علي اقناعهم بان طلب اعفائي لا صلة له بمسألة علاقاتي مع ديمشنكو
وان كل ما في الامر هو رغبتي في إكمال علومي . واخيراً ، بعد عدد من
الجلسات ، قرر المكتب اعفائي من مسؤولياتي الحزبية في اوكرانيا حتى يتسنى لي
دخول الاكاديمية الصناعية . فاسرعت في الذهاب إلى موسكو .

٢

العمل الحزبي في موسكو

من الاكاديمية الصناعية الى المكتب السياسي

في ضوء التطورات اللاحقة بالامكان الترجيح ان ذلك الموظف الحزبي
البالغ من العمر الخامسة والثلاثين والذي استحضر من اوكرانيا إلى الاكاديمية
الصناعية في موسكو لم يكن دافعه الأول التحصيل العلمي بل اختبار نفسه في
العمل السياسي ، وفي الوقت نفسه ، قلب الاكاديمية إلى حصن ستاليني .
ذلك ان هذا المركز المخصص اصلا لتنشئة النخبة الشيوعية تحول في ١٩٢٩
و ١٩٣٠ إلى بؤرة معادية للستالينية . وسرعان ما استطاع خروشوف السيطرة
على خلية الحزب وهزم المعارضة مستخدماً اساليب جمعت القسوة إلى المراوغة .
وبلغ من النجاح ما أهله إلى ان يترك الاكاديمية وراءه ، ويبدأ في ظل
كاغانوفيتش صعوده العاجل نحو احتلال منصب رئيس فرع موسكو كله .
ان الخلفية الكبرى لهذا الفصل كانت الحملة المسعورة التي استخدمت العنف
لتصنيع الاتحاد السوفياتي تصنيعاً سريعاً والتي تمثلت بمشروع الخمس سنوات
الأولى والنظام الزراعي الجماعي والتي لخروشوف رأي يقوله فيها لا حقاً .

واجهتني بعض الصعوبات في سنتي الأولى في الاكاديمية الصناعية . فقد قيل لي
انني افتقر إلى الخبرة الكافية في الادارة التنفيذية التي تؤهلني لأن اكون طالباً هناك .
« هذه مدرسة للمديرين الاداريين » ، قال الرفاق ، « وانت لست مهيأ للدروس
المقررة هنا . لعل الأفضل لك ان تنتقل إلى دورة الدروس عن الماركسية — اللينينية
المخصصة للجنة المركزية » . وكان علي في الاخير ان استنجد بكاغانوفيتش .
وكان لازار موسييفتش (الاسماء الأولى لكاغانوفيتش) سكرتيراً للجنة المركزية ،
واليه يعود الفضل في بقائي في الاكاديمية . وكانت الاكاديمية تعج بمختلف
فئات البشر . وقد جاء الطلاب من بيئات سياسية وثقافية متباينة .

فبعضهم لم يكن قد تخطى بعد حدود القرية ولم يعرف شيئاً ما عدا عمليات الحساب الاربع الاساسية . ثم كان هناك الذين ذهبوا إلى المدرسة الثانوية . وباعتباري انهيت دورة دروس كلية العمال في يوزوفكا فقد صنفت في هذه الفئة .

كانت بناية الصفوف في الاكاديمية تقع في نوفوباسمانايا ، ولا تبعد كثيراً عن المهجع الذي كنت اسكنه في بوكروفكا رقم ٤٠ . وكان لي غرفة خاصة بي في بناء مثالي . وكنت اقطع المسافة يومياً مشياً على الأقدام إلى الاكاديمية .ولم أكن اركب الحافلة الكهربائية على الاطلاق .

وكان الناظر العام الرفيق كويبيشف،رئيس لجنة تخطيط الدولة(١). ومن يمكن ان يكون افضل منه ؟ كان شخصية محترمة وذات نفوذ ، فدعم الاكاديمية بكل قواه . وكان مديرنا ج . م . كامينسسكي، وهو بلشفي قديم ورفيق صالح (٢) .

اذكر اننا طلبنا اليه مقابلة الرفيق ستالين ليقف منه على ما اذا كان راغباً في استقبال ممثلين عن الصف المتخرج الأول . وكنا نهيء لاحتفال اختتام السنة في قاعة العواميد (٣) ، ورغبنا في ان يلقي الرفيق ستالين خطبة الوداع في تلك المناسبة العظيمة . وأعلمنا ان ستالين سيستقبل وفداً مؤلفاً من ستة او سبعة اشخاص منا . ورغم عدم انتسابي للصف المتخرج الا انني ضممت إلى الوفد نظراً لكوني سكرتير منظمة الحزب في الاكاديمية . وفي اثناء لقائنا مع ستالين اسدى الينا بالنصيحة التالية : ارادنا ان نتقن دروسنا ، وان نصبح خبراء في حقول اختصاصنا ، قال بانه من الطبيعي ان نعنى بالحصول على معرفة شاملة في نطاق الادارة العام الا ان المفروض ان نكون كذلك ذوي اختصاص . كانت نصيحته في موضعها رغم اننا سمعناها من قبل ، في كلية العمال في يوزوفكا . ولكن بينما كان ستالين يتكلم اخذت افكر لنفسي ، « هنا رجل يعرف كيف يوجه عقولنا وطاقاتنا نحو اولويات اهداف تصنيع بلادنا وتأمين مناعة حدود وطننا فلا يخرقها

---

(١) ف. ف. كويبشيف بلشفي متقدم ورئيس لجنة تخطيط الدولة ، انحاز باكراً إلى ستالين ولكنه كان معتدلا نسبياً . مات فجأة في كانون الثاني ١٩٣٥ ولعله قتل بناء على أوامر ستالين . وفي محاكمة بوخارين الكبرى في ١٩٣٨ ، اتهم الطبيبان لفين وبلا نيف ، فضلا عن اتهامها الاساسي بقتل الكاتب مكسيم غوركي وسواه ، بقتل كويبشيف .

(٢) ج .م. كامينسكي كان مفوضاً للصحة لفترة ووقع شهادة وفاة كويبشيف وكذلك شهادة وفاة اردزونيكيدز اما مصيره فموصوف في الفصل الثالث .

(٣) كانت تلك هي قاعة نادي النبلاء في العهد القيصري في موسكو .

العالم الرأسمالي . ان خير شعبنا ، كما هو واضح ، لفي ايد سليمة ! » .

ثم قال ستالين : « أخشى ان لا أستطيع حضور احتفالكم هذا المساء بنفسي ، الا ان الرفيق كالينين سيكون هنا » . استغرقت مقابلتنا لستالين أكثر مما توقعنا . فكان علينا الاسراع إلى قاعة العواميد . وعند وصولنا إلى هناك كان كامينسكي قد انهى كلمته ، ولكن لم تفتنا خطبة مخائيل ايفانوفيش كالينين . وكنا جميعاً نحترمه كثيراً ونصغي اليه بانتباه .

وعلي الآن ايضاح كيفية اختياري سكرتيراً لمنظمة الحزب في الاكاديمية . انها لقصة طويلة نسبياً ، ولكنها تستحق السرد :

عند مجيئي إلى موسكو في ١٩٢٩ كان الجسم الطلابي في الاكاديمية مليئاً بالعناصر غير المرغوب فيها وغير المستقرة . وكان هناك العديد من الاشخاص الذين لسبب او لآخر ، كانوا تركوا الحزب ، او النقابة ، او واجباتهم الادارية واستقروا في مكان ملائم مريح يناسبهم شخصياً.وكانوا لا يفعلون شيئاً سوى التسكع . وكان لنا في الاسبوع يوما عطلة : يوم الاحد ويوم آخر كان من المفروض تخصيصهما « لهضم » ما درسناه خلال الاسبوع . الا انني كنت الاحظ كيف كان يغادر هؤلاء العديمو الفائدة مهاجعهم باكراً في الصباح ولا يعودون الا متاخرين في الليل ، ولم اكن اعرف ماذا كانوا يفعلون طيلة اليوم . الا ان الثابت انهم لم يكونوا يقومون بعملية « هضم » دروسهم ، فمعظمهم لم يأت إلى الاكاديمية ليدرس على الاطلاق ، بل جاؤوا لأنها كانت مكاناً صالحاً للجوء وانتظار العاصفة السياسية حتى تنفخ رياحها . فأقاموا اعشاشهم الدافئة في الاكاديمية وتجنبوا التورط السياسي كلياً . وادى هذا السلوك إلى حالة تبعث على السخرية ، وهي ان اعداء اللجنة المركزية السياسيين كانوا الاشخاص الوحيدين في البلاد الذين تيسرت لهم الافادة من مؤسساتنا للتعليم العالي . اذكر ان مولوتوف سألني مرة : « رفيق خروشوف ، هل لديك متسع من الوقت للقراءة ؟ » فأجبت : « قليل جداً » فقال : « الأمر كذلك بالنسبة لي . فعملي لا يرحم . رغبتي عظيمة في الاستمتاع بقراءة كتاب ، غير انني لا أجد متسعاً من الوقت لذلك » .

وكان باستطاعتي فهم ما يقول . فانا منذ عودتي من الجيش في ١٩٢٢ كانت اشغالي لا تتيح لي وقتاً للقراءة . كنت عضواً حزبياً نشيطاً ، فأخذ الكفاح لانتصار خط اللجنة المركزية العام كل اوقاتي . ولم تكن حياتي ملكي . فاذا قيض لواحدنا ان يكون شغوفاً بالأدب ، كان يؤنب على اهمال واجباته المدنية والحزبية . اذكر ان ستالين عبر مرة عن هذه الحالة تعبيراً موفقاً : « هكذا اذن جرت الأمور ! لقد كوفيء التروتسكيون واليمينيون على نشاطاتهم بمنحهم

امتياز التعليم العالي! ولما كانت اللجنة المركزية لا تثق بهم، فقد أبعدتهم عن المسؤوليات الحزبية، فهرعوا رأساً إلى معاهدنا العلمية والتكنولوجية، بينما لم يتسنّ للاشخاص الذين وقفوا بثبات يكافحون على الخط العام ويحملون اعباء الاعمال اليومية الحزبية، اتمام دراستهم وتدريبهم المهني».

لهذه الاسباب، كانت الاكاديمية الصناعية تعج باليمينيين الذين سيطروا على الخلية الحزبية فيها. وعند وصولي إلى الاكاديمية في ١٩٢٩ كان سكرتير منظمة الحزب خاخاريف. وكان ذا نفوذ مرموق وذا خبرة تعود إلى ما قبل زمن الثورة، ربما إلى سنة ١٩٠٦، وكان محاطاً بما يعرف «بالحرس القديم» اي بانصار يؤيدون اليمينيين ريكوف وبوخارين ويوغلانوف (١) ضد ستالين والخط العام للحزب. كان «الحرس القديم» (وهو تعبير يطلق على قدامى الحزبيين) مؤلفاً في الاكاديمية من البلاشفة القدماء، ومديري المصانع السابقين، وقادة النقابات. وبكلمة اخرى، كانوا رجالا محترمين يحضرون الاكاديمية تحت ستار تعزيز مهاراتهم التقنية.

وكانت فئة منا في الاكاديمية تقف إلى جانب الخط الحزبي العام وتعارض اليمينيين: ريكوف، بوخارين، ويوغلانوف، والزينوفيفيين، والتروتسكيين وكتلة اليمين — اليسار من امثال سيرتسوف ولوميناذز. انني في الحقيقة، لا اذكر على وجه التحديد وجهات الخلاف بين بوخارين وريكوف من جهة، وسيرتسوف ولوميناذز من جهة اخرى. فاليمينيون والانتهازيون، وكتلة اليمين — اليسار، والانحرافيون كانوا جميعاً يتحركون جوهرياً في الاتجاه نفسه وكانت فئتنا ضدهم. وكانت فئتنا بجميع افرادها من الجنوب، من دونباس، من دنيبروبتروفسك ومن خاركوف، يضاف إلى ذلك اننا جميعاً انضممنا إلى الحزب بعد الثورة. فعندما كان يقترح ترشيح أحدنا لمركز في منظمة الاكاديمية كان يطرح ذلك في اجتماع، وكان على المرشح الذهاب إلى المنصة، والتصريح بمسقط رأسه وبمكان انتسابه للحزب.

وقد يسر هذا للحرس القديم (قدامى الحزبيين) في الخلية الحزبية معرفة منبت

(١) ن. أ. يوغلا نوف كان سكرتيراً أول للجنة الحزب في موسكو وعلى هذا الأساس مسؤولا عن الاكاديمية الصناعية. وعندما طاله التطهير في ١٩٢٨ خلفه ك. ي. بومان الذي لم يبق طويلا في منصبه، فخلفه مولوتوف ثم كاغانوفيتش واخيراً خروشوف نفسه.

الشخص والاقتراع ضد كل من يحتمل ان يعارضهم (١).

لقد حيل بيني وبين انتخابي إلى بريزيديوم الاكاديمية مرتين او ثلاث مرات حتى انني لم اسم مرشحاً للمؤتمر الحزبي السادس عشر. على اي حال، رغم انني كنت حديث الاقامة في موسكو، الا ان اسمي كان قد أخذ بالبروز كعضو حزبي نشيط ملتزم بالخط العام، وعلى هذا الاساس اعطتني اللجنة المركزية بطاقة دعوة دائمة إلى المؤتمر. وهكذا اتيح لي الاستماع إلى تقرير ستالين العام. لكنني لم أحضر كل جلسات المؤتمر، اذ على الرغم من انه لم يكن مسموحاً انتقال بطاقتي للاخرين، فقد جعلت بعض رفاقي يستخدمها متيحاً لهم بذلك الوصول هم ايضاً إلى المؤتمر. وما اشد سروري الآن من ان لعبتي لم تكتشف وانا اقوم باشراك غيري في بطاقتي لان ذلك كان سيعرضني للعقوبة.

في زمن انعقاد المؤتمر السادس عشر أخذ المد يتجه لصالحنا في كفاحنا ضد اليمينيين في الاكاديمية، واتخذت مركز القيادة في الحملة من أجل جعل الاكاديمية حصناً حصيناً للجنة المركزية. ولم يكن دوري في الكفاح من أجل الخط الحزبي يسيراً. فلولا التواضع في السرد، لكان علي القول بان دوري كان هو الدور القيادي الطليعي.

لقد عرف مكتب الخلية الحزبية في الاكاديمية ذلك فحاول ارسالي إلى خارج البلدة حتى لا أتدخل ضد خطته في انتخاب وفد يميني إلى مؤتمر مقاطعة بومان المنعقد في ١٩٣٠.

عندما عدت إلى موسكو كان مؤتمر بومان في اوج انعقاده. وكانت الاكاديمية ممثلة بصورة رئيسية باليمينيين. وجاءني الرفيق تاباكوف وأخبرني بكل ما حصل في غيابي. كان تاباكوف يهودي الجنسية ومن أشد مؤيدي في الاكاديمية، وشيوعياً ممتازاً ورفيقاً واسع الاطلاع السياسي وقد أعدم فيما بعد.

اخبرني تاباكوف ان الخليّة الحزبيّة قدّمت لائحة تضم بين العشرة والثلاثة عشر مندوباً الى المؤتمر، بما فيهم ستالين وريكوف وبوخارين، ويوغلانوف ايضاً على ما اظن. رهذا التكتيك كان قد وضع تصميمه اليمينيون ليجعلوا من المحال تأييد ستالين دون تأييد ريكوف وبوخارين ايضاً.

استدعيت في ذلك المساء الى الهاتف. ولم يكن لديّ معارف كثيرون في موسكو،

(١) يبرز هنا خروشوف نقطة مثيرة للاهتمام: كيف أن مثقفي الحزب والمعتدلين فيه وأغلبهم من البلاشفة القدماء واجههم ستالين بمجموعات من الاجلاف العتاة، لاسيما زملاء خروشوف من المراكز الصناعية في اوكرانيا من حديثي الانتماء للحزب.

فلم يخطر لي من عساه يكون على الطرف الآخر من الخط . وما ان رفعت السماعة حتى قال صوت : «هنا مخليس ، رئيس تحرير البرافدا ، يتكلّم (١) . هل بامكانك المجيء فوراً الى مكتبي — سأرسل سيارتي في طلبك . ان لديّ امراً ملحاً اود بحثه معك ».

ولم تمض الا دقائق معدودة حتى كانت سيارته خارج المهجع الذي انام فيه . صعدت اليها واتجهنا نحو مكاتب تحرير البرافدا . ولم أكن قد قابلت مخليس من قبل . فقرأ علي رسالة من الاكاديمية تشكو من استخدام المكائد السياسيّة والاجراءات غير القانونية في اختيار الوفد اليميني الى مؤتمر مقاطعة بومان . وسألني :

— هل توافق على مضمون هذه الرسالة ؟

— نعم ، كلياً اوافق . انها تعكس بدقة الحالة التي واجهتنا في الاكاديمية .

— هل انت مستعد لمهرها بتوقيعك ؟

— كيف يمكنني القيام بذلك ؟ لم تكن لي علاقة بوضع هذه الرسالة اصلاً . بل انني لا اعرف كاتبها ، فمن عساه يكون ؟

— هذا ليس مهماً . لا شأن لأسم واضع الرسالة ولا لأسمك في هذه القضية على الاطلاق . انني اطلب اليك توقيعها لأنني اثق بك . لقد سمعت الكثير عنك وعن الدور الذي تؤديه ،وان توقيعك يطمئنني الى ان الرسالة تقدم صورة عادلة وحقيقيّة عمّا يحدث هناك .

— حسناً ، سأوقّع .

وفعلت ذلك ثم ارجعتني سيارة مخليس الى مهجعي .

في اليوم التالي نشرت البرافدا الرسالة في بابها المخصص للمراسلات . (٢) وكان لنشر الرسالة وقع كقصف الرعد . وهبت العاصفة على الاكاديميّة . فتوقفت الصفوف ودعا منظمو الجماعات الحزبيّة الى اجتماع تقرر فيه استدعاء جميع مندوبي الاكاديميّة الى مؤتمر مقاطعة بومان عدا ستالين . ولعلنا تلقينا اوامر من فوق

(١) ل. ز. مخليس كان أحد رجال ناتور من المباحث وقد سلم مسؤولية تحرير البرافدا ليؤمن ستالين اشرافه عليها . وقد برهن انه من جنرالات المباحث الممقوتين جداً وحصل على ترقياته العسكرية اثر تطهير الجيش الاحمر كما كلف بلاده غالياً في المعارك . خرج سالماً من كل التطهيرات واصبح وزيراً ، ومات ميتة طبيعية ، حسب كل التقارير ، في ١٩٥٣ .

(٢) ظهرت هذه الرسالة في ٣٠ ايار ١٩٣٠ . وكان معروفاً ان خروشوف وراءها. وانه هنا يعترف بذلك . ولعل قصته هنا عن الرسالة فيها الكثير من التبسيط .

ان نستدعي بوخارين ، ولكنني لا اذكر . على اي حال ، فقد استدعي ايكوف ويوغلانوف رسواهما من ممثلي اليمين عن الاكاديمية واختير بدلاً منهم مندوبون جدد ، وجعلت رئيساً للاجتماع ، فمندوباً في الوفد (١) .

وقد حصلت هذه التبديلات بسرعة مذهلة حتى انها لم تدع مجالاً من الوقت لطبع اوراق اعتماد جديدة للمندوبين ، فاعطوا اوراق المندوبين السابقين . واثار هذا قدراً من الفضول والاستهجان في المؤتمر حتى انني مرة تعرضت للتحدي نظراً لوجود اسم مندوب غيري على اوراقي . فاوضحت الامر قائلا : «انا اعرف ان هذه الاوراق صدرت اصلاً للشخص الذي تحمل اسمه ، ولكنّها اصبحت الان لي» . هذا كل ما قلته ، ويبدو ان معظم المندوبين في المؤتمر قد فهموا .

وقرّر وفدنا ان اتولّى انا تقديم تقرير الى المؤتمر عن موقفنا . وما ان بدأت بالقاء كلمتي حتى ارتفعت اصوات الاستنكار : «نعرف كل شيء عنكم وعن اكاديميتكم الصناعية ! » ، ذلك ان الاكاديمية كانت شهيرة باحتضانها اليميني . من هنا كانت مهمتي اثبات اننا نتخذ موقفاً مختلفاً عن موقف الوفد السابق . ولكن عندما اوضحت باننا نقف بثبات مع الخطّ الحزبي بدأ المندوبون الآخرون في المؤتمر يمحضوننا ثقتهم .

بعد أن أصبحت سكرتيراً لمنظمة الحزب في الاكاديمية ، بدأنا نطارد المتسكعين والعديمي الفائدة الذين كانوا يتخذون من الاكاديميّة ملجأهم من الكفاح السياسي المندلع داخل الحزب . فذكرنا الطلاّب انهم لم يأتوا الى هنا ليتفرّجوا على معالم موسكو ومناظرها ؛ بل جاؤوا ليدرسوا ويزوّدوا انفسهم بالمعرفة النظريّة والعمليّة حتى يكون انتاجهم اوفى ،في عملية بناء الاشتراكيّة . وسرعان ما أخذت الاكاديمية تؤدي دوراً قيادياً في الكفاح ضد المعارضة . فالقرارات التي كنا نتخذها في اجتماعاتنا غالباً ما كانت تنشر في اليوم التالي في البرافدا ، على سبيل ارشاد منظمات الحزب الأخرى .

هكذا انطلق نشاطي الحزبي في موسكو . فقد أصبح اسمي ، نتيجة قيادتي لمنظمة الحزب في الاكاديمية ، معروفاً أكثر في منظمة الحزب في موسكو ولدى اللجنة المركزيّة . وفي تلك السنوات كان يعقد مؤتمر حزبي للمقاطعة كلّ ستة اشهر او كل سنة . وكان ان عقد مؤتمر آخر لمقاطعة بومان في كانون الثاني ١٩٣١ وانتخبت سكرتيراً للجنة الحزب فحللت محلّ شيرين — الذي كان بدوره قد عارض

(١) واقع الحال أكثر تعقيداً مما هومذكور هنا. فقد حارب البوخاريون بضراوة ولكن قضيتهم كانت خاسرة سلفاً .

قبل سنة فقط ترشيحي الى المؤتمر السادس عشر للحزب . لقد كان شيرين غير ناضج سياسياً . اعتقد انه كانت له اسبابه في الاقتراع ضدي في ١٩٣٠ ، ولكن ذلك كلّه كان قد انتهى وطويت صفحته . وبدا ان مستقبلي كعامل في الحزب سيكون لامعاً جداً (١) .

في البدء اعتقدت ان عليّ شكر كاغانوفيتش على الترقية التي اصبتها في جهاز موسكو الحزبي ، لكنني سرعان ما ايقنت انني لست مديناً في ذلك لكاغانوفيتش بقدر ما كنت مديناً لستالين نفسه . اذ يبدو ان ستالين كان يعطف عليّ بسبب زوجته نادزدا سيرجيفنا الليوييفا . فقد كانت تمتدحني امام ستالين ، وبناء على اطرائها طلب ستالين من كاغانوفيتش ان يساعدني .

لقد كنت ونادزدا سيرجيفنا طالبين معاً في الاكاديمية الصناعية . كانت هي تدرس الكيمياء وتتخصص في النسيج الصناعي ، وكنت انا في الجهاز التنظيمي للجماعات الحزبيّة. كنت اجتمع اليها بانتظام، وبوصفي سكرتيراً لمنظمة الحزب (٢) في الاكاديمية كنت اعطيها التعليمات، وعرفت انها كانت تذهب الى المنزل وتتحدث الى ستالين عن صنيعي . واحسست كأنني «بينيا» ، بطل قصة فنشينكو . (٣) .

وكانت نادزدا سيرجيفنا حريصة على ان لا تستغل صلتها بستالين . حتى ان فئة محدودة من الناس عرفت بانها زوجة ستالين . كانت الليوييفا ، وهذا كل ما في الامر . وكان في الاكاديمية معنا الليوييفا آخر ، مهندس تعدين من الشرق الاقصى . وكان في مكتب الخليّة الحزبيّة . وكانت نادزدا سيرجيفنا تحاول ان يفترض الناس انها زوجه او شقيقته . ولم تسمح لنفسها ان تستفيد من الامتيازات المتوفّرة لها كزوجة ستالين . فلم تكن تقطع المسافة بين الاكاديمية والكرملين بالسيارة ، بل كانت دوماً تذهب وتؤوب بالحافلة الكهربائية . ولم تسمح لنفسها ان تنفرد عن مجموع الطلبة حولها باي شيء . كان عدم اظهار صلتها الحميمة بستالين دليلا على فطنتها رذكائها .

---

(١) كانت تلك اللحظة التي أخذ نجم خروشوف فيها يصعد وأخذت صفحة البوخاريين في الاكاديمية تطوى . وقد خلف سنتيرين الذي هوى، وبدأ خروشوف بالصعود .

(٢) ان نادزدا سيرجيفنا ، زوجة ستالين الثانية البائسة وأم سفيتلانا ، عرفت دون ريب ، خروشوف جيداً في الاكاديمية الصناعية ولكن المستغرب ان انساناً رقيق المشاعر مثلها قد اعجب بفلاح نصف امي بهذه الفظاظة كما كان خروشوف في تلك الأيام .

(٣) شبه خروشوف نفسه أكثر من مرة ببطل قصة فنشينكو .

في تلك الايام كنت اناديها ناديا. ثم أخذت فيما بعد اناديها نادزدا سيرجيفنا . وعندما اصبحت اميناً للجنة الحزب في مدينة موسكو وبدأت اذهب بانتظام الى المآدب العائلية عند ستالين ، اصبحت اعرف مدى ما روت ناديا لستالين عن نشاطاتي وكفاحي في الاكاديمية الصناعية من أجل الخط العام . وكان ستالين ، احياناً ، يذكّرني بحوادث أكون أنا قد نسيتها .

في السنوات التي اعقبت ذلك بقيت على قيد الحياة ، فيما كان جميع معاصريّ ، وزملاء صفّي في الاكاديمية ، واصدقائي من رفاق المنظمة الحزبيّة ، يفقدون رؤوسهم كأعداء للشعب . وغالباً ما سألت نفسي : «كيف أبقوا علي؟» فلو أن الاخلاص للحزب كان المقياس ، فان رفاقي الذين قضوا كانوا هم ايضاً مخلصين للحزب ، واسهموا هم كذلك في الكفاح من أجل خطّ ستالين العام . لماذا اذن انقذت من المصير الذي انتهوا اليه ؟ اني اعتقد ان جزءاً من الجواب هو أن تقارير ناديا ساعدت على تحديد موقف ستالين مني . انني اسمي ذلك «ورقة يانصيبي» . لقد سحبت ورقة رابحة عندما حدث وراقب ستالين نشاطاتي عبر نادزدا سيرجيفنا . اذ بسببها وثق ستالين بي . وحتى في السنوات الاخيرة ، عندما كان يهاجمني ويوجّه اليّ الاهانات ، ظلّ يحبني حتى آخر يوم في حياته . وقد يكون من الغباء ان نقول ان هذا الرجل أحب أحداً ، لكن ليس هنالك ادنى شك في انه كان يكنّ لي احتراما كبيراً .

كان ستالين قليل الاحترام لنادزدا كونستنتينوفنا كروبسكايا أرملة لينين ، ولشقيقته ماريا الينيشنا يوليانوفا . وكان يقول ان اية من هاتين السيدتين لا تقوم باسهام ايجابي في كفاح الحزب . وبعد وفاة ستالين عثرنا على ظرف في شقة سريّة ، وداخله رسالة مكتوبة بخط لينين ، يتهم فيها ستالين بانه اهان نادزدا كونستنتينوفنا ويطلب منه ان يعتذر والاّ فانه لن يعتبره رفيقه. وادهشني ان تكون هذه الرسالة قد حفظت . والارجح ان ستالين قد نسيها تماماً (١) .

---

(١) ان محتوى هذه الرسالة كشفها خروشوف لأول مرة في خطبته السرية . كان لينين قد أصيب بأكثر من نوبة قاتلة وكان يبدي محاولات يائسة لتحذير زملائه ضد مطامح ستالين التي لا تحد . ويعتقد البحاثة الممتاز بوريس نيقولا يفسكي أن ستالين تعمد الحاق الاهانة بكروبسكايا وهو على يقين ان ذلك سيصل اسماع لينين فيعجل بوفاته . وينص كتاب لينين (الذي ارسل نسخاً منه إلى زينوفيف وكامنيف) على ما يلي : « ايها الرفيق العزيز ستالين ، لقد سمحت لنفسك بمخاطبة زوجتي على الهاتف بوقاحة وصلافة ... لا انوي ان اتناسى بسهولة ما قد الحقته بي من اذى=

كان مدعاة للألم الدائم ان يعاين المرء الازدراء الذي يظهره ستالين نحو نادزدا كونستنتينوفنا عندما كانت لا تزال على قيد الحياة. لقد عارضت ستالين ابّان الكفاح ضد اليمينيين رالقت خطبة في الدفاع عن بوخارين وريكوف في مؤتمر مقاطعة بومان الحزبي المنعقد في ١٩٣٠. وكان ان جلبت عليها غضب معظم المندوبين المؤتمرين واستثارت هجومهم . ومن يومها صدرت الاوامر الخفيّة الى خلايا الحزب بالتنديد بها . اما بالنسبة لماريا الينيشنا يوليانوفا فكان المعروف لدى الجميع انها وثيقة الصداقة ببوخارين فقد كانت تعمل سكرتيرة في البرافدا عندما كان رئيس تحريرها .

اما بالنسبة لي ، كشيوعي شاب يعود سجل خبرته الى ما بعد ثورة اكتوبر ، فقد كنت احترم دوماً لينين ، زعيمنا العظيم ، ولذلك كنت أكنّ احتراماً فائقاً لنادزدا كونستنتينوفنا . ألم تكن رفيقة فلاديمير اليتش التي لم تفترق عنه يوماً ؟ وكم كان مريراً ومؤلماً ان اراقبها في جلسات مؤتمر مقاطعة بومان عندما كان الجميع ينهالون عليها بهجومهم . اذكرها امرأة متقدمة في السن كسيرة . وقد أخذ الناس يتجنّبونها كتجنّبهم الطاعون.وبناء على تعليمات ستالين فقد وضعت تحت الرقابة باعتبارها شردت عن خطّ الحزب .

وعندما أعود اليوم الى تحليل ما حدث في تلك الفترة ، اعتقد ان نادزدا كونستنتينوفنا كانت على حق في وقفتها . ولكنني اقول هذا بادراك متأخر للاحداث. ففي ذلك الزمن كانت الامور مشوشة ، وكان الجميع يرشقون نادزدا وماريا بالوحول .

كانت نادزدا كونستنتينوفنا مسؤولة عن معالجة شكاوى المواطنين ، عندما عملت في لجنة الحزب لمدينة موسكو . وكان كل من وقع عليه من سوفيات المدينة ظلم يذهب اليها شاكياً . ومما لا ريب فيه ان أخطاء عديدة صاحبت الافعال التي كان يقوم بها سوفيات المدينة . وكانت الاحوال صعبة بصورة خاصة بالنسبة للعمّال ومستخدمي المكاتب والمثقفين . فكلما اصطدم المواطن بجدار البيروقراطية توجه الى نادزدا كونستنتينوفنا كمرجع أخير . وكان قدر مساعدتها محدوداً . اذ لم يكن لها النفوذ الكافي حتى لرفع الظلم الصارخ ، فكانت غالباً ما ترفع القضايا إلي لجنة في مدينة موسكو. ولسوء الحظ ، لم اكن رغم احتلالي منصباً مرموقاً املك كذلك القدرة على بذل الكثير لمساعدتها . عانت موسكو نقصاً واسعاً

= اعتبره موجهاً إلي شخصياً . لذلك اطلب منك ان توازن بعناية بين موافقتك على سحب كلامك الذي تفوهت به ضد زوجتي والاعتذار اليها وبين تفضيلك قطع العلاقات بيننا . المخلص لينين » (٥ آذار ١٩٢٣) – انظر الملحق رقم ٤ .

في دور السكن في تلك الفترة . وكانت حالة السكن كلّها اشبه بالكابوس . كنّا نصنع البلاد ونبني المصانع الجديدة في كل مكان ، دونما اعتبار لتوسّع القاعدة العمّالية في موسكو . فلم يكن يبنى سوى الحد الادنى من التسهيلات السكنيّة . ولم تكن هذه الابنية للسكن لتعوّض عن المنازل العديدة التي هدمت لتقام على انقاضها مصانع جديدة .

كنت ابذل اقصى جهدي عندما كانت نادزدا كونستنتينوفنا ترسل لي احداً لارفع الظلم عنه . وكنت ابلّغها ما حقّقت او ما فشلت في تحقيقه . واحياناً كنت التقيها بالصدفة . كان تقديرها لموقعي صحيحاً كلياً . كانت تعرف انني اقف في الخط الحزبي العام وانني حصيلة جيل ستالين . فتعاملت معي على هذا الاساس . وكانت نادزدا كونستنتينوفنا على حق . لقد كنت موالياً لستالين كزعيم ومرشد ولاء مطلقاً . كنت اعتقد ان كل ما يفعله ستالين باسم الحزب هو من وحي عبقريته ران ليس عليّ الا تطبيقه على حياتي .

ولكن رغم ذلك كلّه ، شعرت باضطراب داخلي عندما لم تعد نادزدا كونستنتينوفنا تحظى بعطف الحزب؛ واحسست بعاطفة انسانية عميقة نحوها .

كان ستالين يقول للمقربين اليه ان ثمة شكاً حتى في ما اذا كانت نادزدا كونستنتينوفنا ارملة لينين في الأصل ، وانه اذا استمرت الحالة طويلاً فاننا نشرع في ابداء شكوكنا علناً . وقال انه اذا اقتضى الامر فان بامكاننا ان نعلن ان امرأة أخرى كانت ارملة لينين. وسمّى عند ذلك احدى العضوات المحترمات في الحزب وهذه المرأة لا تزال على قيد الحياة . لا ارغب في التعليق على هذه المسائل (١) .

اعتقد ان موقف ستالين هذا كان دليلاً آخر على عدم احترامه للينين نفسه . لم يكن شيء مقدساً بالنسبة لستالين ، حتى ولا ذكر لينين العاطر . ولم يكن ستالين يسمح لنفسه بالتعرض لكروبسكايا بكلمة امام الجمهور الا انه في حلقته الخاصة كان يطلق للسانه العنان فينال منها ويصمها بابشع الافتراءات . لكأنّه اراد ان يؤثر فينا بسيكولوجياً وان يقوّض حبّنا المتناهي للينين ليقيم على انقاض ذلك كلّه مكانته الشخصيّة كزعيم لا ينازع ومفكر كبير لعصرنا . وبلوغاً لهذا الهدف أخذ يزرع

(١) يقول الكسندر ارلوف ، وهو ضابط مباحث سوفياتية عالي الرتبة هرب إلى الغرب بان « الارملة البديل » التي كان يقترحها ستالين هي الينا ستاسوفا التي قضت فيما بعد سنوات في معسكرات العمل ثم اعيد اعتبارها بعد موت ستالين . الا ان شائعة سرت في موسكو حول «الارملة الرسمية » المقترحة تقول بانها كانت ستكون ر. س. زملا ياشكا وهي بلشفية قديمة وزميلة بيلاكون في القرم .

بحذر ، انما بتعمّد ، في اذهان المحيطين به ان رأيه الخاص في لينين هو غير ما يعلن امام الجمهور .

عليّ ان اذكر كاغانوفيتش في هذا المجال . ان سلوكه اثار اشمئزازي . لم يكن اكثر من متذلّل خنوع . ولم يكن يحتاج ستالين الى أكثر من حك كاغانوفيتش خلف اذنيه حتى ينطلق هذا مزمجراً في وجه الحزب .

كان يرجع كرسيه الى خلف ويرتفع بجسده الى أعلى قامته ثم يبدأ بالحوار : « يا رفاق ، لقد حان الوقت حتى نعلن على الناس الحقيقة . جميع من في الحزب يستمر في الكلام عن لينين واللينينية . علينا ان نكون صادقين مع انفسنا . لينين مات في ١٩٢٤ . كم سنة عمل في الحزب ؟ ماذا تحقّق بقيادته ؟ لنقارن ذلك بما انجز في ظلّ ستالين ! لقد حان الوقت لكي نبدّل شعار «عاشت اللينينية» بشعار «عاشت الستالينيّة» .

وبينما هو ماض في صخبه ولغوه على هذا النمط ، كنا جميعاً نمرّ في لحظات صمت مطبق ونخفض ابصارنا . وكان ستالين دوماً هو الأول بيننا والاوحد الذي يجادل كاغانوفيتش .

«عمّ تتكلّم ؟» كان يقول له . «كيف تجسر ان تتفوه بهذا ؟» الاّ انه كان واضحاً من نبرة صوت ستالين ، كم كان يتمنّى لو يهرع احدنا لمناقضته . وهذه حيلة معروفة في القرى : أن تعمد الأمّ عندما تريد الذهاب مع أحد الاصدقاء الى زيارة في قرية أخرى وهي راغبة في اصطحاب طفلها الى توبيخه قائلة «الان ، انتَ ابق هنا . اياك ان تجسر على اللحاق بي ، ايها الشيطان الصغير !» وتلوّح باصبعها مهدّدة الطفل ، ثم انها ، اذا ما اشاح الصديق ببصره ، تشير الامّ الى ولدها هامسة «تعال اتبعني !» وهكذا يأخذ الطفل بالعدو خلفها . ولكم شاهدت هذا المنظر بنفسي ، وهو تماماً ما كان يفعله ستالين عندما يشرع بتوبيخ كاغانوفيتش .

كان ستالين يهوى ان يوبّخ كاغانوفيتش بالمقارنة الاتية «من هو لينين ؟ ان لينين برج عملاق ! ومن هو ستالين؟ ان ستالين اصبع صغيرة!» واحياناً يتفوّه بعبارات لا تليق بالتسجيل هنا . وكان كاغانوفيتش يزداد اصراراً فيكرّر مزاعمه عن ستالين . اذ كان كاغانوفيتش لا يبارى في معرفة متى يكون حنق ستالين زائفاً .

وهذا «الشجار» بين كاغانوفيتش وستالين أصبح مألوفاً الى ان مات ستالين . ولم يكن أحد منّا يتدخّل . وكان ستالين دوماً يحسم المسألة اذ يكون له القول الفصل والكلمة الاخيرة .

وهذا الجدل الرتيب أصبح نموذجاً خاصاً بستالين وكاغانوفيتش . وليس في وسع احد ان يتفوق على كاغانوفيتش في رداءته . كان ستالين يعتبره مثال الرجل

الذي «لا يتراخى في وعيه الطبقي» والذي «لا يهاود اعداء طبقته». ولكننا اكتشفنا فيما بعد كم كان كاغانوفيتش رجلاً «لا يعرف التراخي» ولا «يعرف المهاودة» .
كان من الناس الذين لا يقولون كلمة خير راحدة حتى في اقرب الناس اليهم ، وهو الرجل الذي أتهم بانه جاسوس الماني كان يعد العدة لتشكيل حكومة روسية صورية بعدما يستولي الالمان على موسكو .

اي شيء يمكن ان يكون أكثر سخفاً من ان يعين هتلر مخائيل كاغانوفيتش اليهوديّ في حكومة روسية فاشية! من وجهة نظر النازيين كان مثل هذا التدبير يعتبر جريمة ! ولكن رغم ذلك كلّه ، فقد كانت هذه هي التهمة التي الصقت بمخائيل كاغانوفيتش ، ولما لم يجد له مهرباً منها انتحر ! ولم أعد اسمع أحداً يذكر هذه الحادثة بعد وقوعها. وتجاهل لازار موزييفتش مأساة شقيقه ولاذ بالصمت المطبق . فبالنسبة اليه ، كان الأمر في منتهى البساطة : كان هناك رجل اسمه مخائيل كاغانوفيتش ، مفوض الشعب لصناعة الطيران ، ثم زال من الوجود . وكان بالامكان ان لا يوجد اصلاً ! وخلال ذلك كلّه ما انفكّ لازار موزييفتش عن الزحف في حفرة ستالين (١) .

بعد ان عملت مدة ستة اشهر كسكرتير للحزب في مقاطعة بومان أصبحت سكرتيراً للحزب لمقاطعة برسنيا الحمراء في ١٩٣١ . كان ذلك دون ريب خطوة صاعدة في سلّم التسلسل الحزبي . وكانت هذه المنطقة ، نظراً لاهميتها التاريخيّة في انتفاضة ١٩٠٥ اهم سياسياً من منطقة بومان . في الواقع كانت المنطقة الأهم حزبياً في موسكو . وبعد مضي ستة اشهر انتخبت سكرتيراً ثانياً في لجنة الحزب في مدينة موسكو . وتم ذلك في مؤتمر حزبي . وبقدر ما كان امتناني للشرف والمسؤولية التي اوليتها بموجب هذه الترقية ، كان أسفي لاضطراري الى مغادرة الاكاديمية الصناعيّة دون ان انهي دراستي . كان تسلمي المسؤولية في لجنة مدينة موسكو يعني التخلّي عن كل آمالي في انهاء تعليمي العالي . وفضلاً عن هذا كنت كما اسررت لكاغانوفيتش ، متهيباً الصعوبات التي لا بد ان تواجهني في جهاز المدينة . الا انني أثبتُ جدارتي في مواجهة التحدي ، وبعد انقضاء سنة أصبحت سكرتيراً ثانياً للجنة موسكو الاقليميّة .

(١) من الواضح ان لازار كاغانوفيتش قابل العار الذي لحق بشقيقه ثم انتحاره بلا مبالاة بادية . وان خروشوف يعاني في هذا الكتاب من عقدة ترتيب افكاره عن حاميه ومشجعه القديم والذي انقلب عليه فحطمه في ١٩٥٧ (انظر الملحق ٣) .

وانتخبت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لعموم الاتحاد في المؤتمر السابع عشر للحزب عام ١٩٣٤ . وتركت اجراءات الانتخاب في نفسي انطباعاً ، هو أنها كانت في منتهى الديمقراطية . وقد تمّت على النحو التالي : كانت تجري تسمية المرشحين وتوضع اسماؤهم للاقتراع ثم تدار على جميع المندوبين . ولا بد من الاعتراف ان مجال الخيار كان ضيقاً نظراً لأن عدد الاسماء المعروضة للاقتراع كانت تكاد لا تكفي لملء هيئة اللجنة المركزيّة ، بما في ذلك الاعضاء والاعضاء المرشحون ، فضلاً عن ملء جهاز هيئة التفتيش . الاّ انه كان يتاح لكل مندوب مجال التعبير عن رأيه حول كلّ مرشح، إما بترك اسمه على لائحة الاقتراع او شطبه. ثم يقوم بجمع نتائج الاقتراع وهو يشخص الى عيني كل مندوب حتى لا يرى ورقة اقتراعه . ولم أكتشف الاّ بعد وقت غير قصير انه لم يطرح اي أسم على الاقتراع من دون موافقة ستالين المسبقة . ثم تحصى اوراق الاقتراع ويعلن كم نال كل مرشح من اصوات اقترعت له او ضده .

اذكر ان ستالين في مؤتمر الحزب السابع عشر لم ينتخب بالاجماع . فقد اقترع ستة مندوبين ضده.لماذا اذكر ذلك جيداً؟ذلك لأنه عندما اعلن اسمي، كنت قد نلت انا ايضاً اقلّ من الأجماع بستة اصوات . هذا يعني انني كنت في وضع مشابه لستالين . وكان مندوبون آخرون ينالون عشرين او ثلاثين او حتى مئة صوت اقل من ذلك ، وكان على المرشح ان يحصل على أكثرية اصوات المقترعين حتى يعلن فوزه .

في ١٩٣٥ عيّن كاغانوفيتش مفوض الشعب للمواصلات واعفي من مسؤولياته في منظمة موسكو . ورفّعت لاحلّ محله ، كسكرتير اول للجنتي موسكو في الاقليم والمدينة (١) .

وفي الاجتماع الموسّع التالي للجنة المركزية انتخبت عضواً مرشحاً للمكتب السياسي . وهنا ايضاً كان سروري واعتزازي كبيرين الا ان تهيّبي المسؤولية كان كبيراً.وعلى الرغم من انني اصبحت عاملاً حزبياً محترفاً،الاّ انني احتفظت بادوات حرفتي : بالمسماك وبالواصم وبالمعداد وبالمسطرة التي يستخدمها عامل التعدين . لم أكن ارغب في قطع صلاتي بحرفتي القديمة . فقد كنت اقدّر ان العمل الحزبي هو شأن يخضع للانتخاب فاذا لم يعد انتخابي فقد اضطر في اي يوم ان اعود الى مهنتي الاصليّة .

(١) هذا يعني ان خروشوف كان السيد المطلق في ظل ستالين على مدينة موسكو والمناطق المحيطة بها .

وبدأت أحضر جلسات المكتب السياسي بانتظام . وفي تلك الايام كان ستالين لم يزل يحافظ ، في حدود معيّنة ، على تقاليد لينينية . فكان يسمح لاعضاء اللجنة المركزيّة الذين يصدف وجودهم في موسكو بحضور جلسات المكتب السياسي شرط ان يجلسوا بهدوء ولا يشوّشوا . وقد افادني كثيراً حضور هذه الجلسات لأنه اتاح لي الاطلاع على كيف تتخذ قيادة الحزب قراراتها .

كان التمكن من الجلوس مع اعضاء المكتب السياسي ، وان أكون قريباً من ستالين ، بمثابة فرصة اتوّج بها احترافي الحزبي . فلسنوات مضت كنت اقف نفسي كلياً للجنة المركزيّة ولستالين . ومنذ ان جئت موسكو لأول مرة واصغيت اليه يتكلّم في اجتماعات جماهيريّة ، اعجبت بوضوح تفكيره وايجاز عباراته . كما انني اعجبت كذلك باسلوبه الموجز البليغ وما كان يبديه من جلاء في مخاطبة جماعة أصغر ، كالاجتماع المغلق للمديرين الصناعيين في ١٩٣٢ ، عندما كان يعدّد شروطه العظيمة الستة .

والان ، فقد اتيح لي بوصفي عضواً مرشحاً للمكتب السياسي ، ان اراقب ستالين عن كثب في اثناء العمل واستمر تزايد اعجابي به . وكان يدهشني منه هذا الصبر والشعور مع الآخرين الذي كان يبديه في جلسات المكتب السياسي في اواسط الثلاثينات . وتبدو امامي الآن امثلة مختلفة عمّا اعنيه ، الاّ انني أستطيع اختيار واحد منها هي لقضية غير اعتيادية عن ديبلوماسي سوفياتي شاب ذهب الى بلد من بلدان اميركا اللاتينيةبرفقة احدى بعثاتنا التجاريّة وتورّط هناك مع الصحافة المحليّة فعرّض نفسه للشبهات . واستدعي للشهادة امام جلسة للمكتب السياسي وبدا مضطرباً ، مرتبكاً . وافتتح ستالين المناقشة ، فقال : «اخبرني ، ارجوك ، ما حدث ، ولا تخف شيئاً » .

فأخذ الديبلوماسي الشاب ، يشرح كيف انه بعد وصوله الى ذلك البلد في اميركا اللاتينيّة ، ذهب الى مطعم ليتناول بعض الطعام ، فاوصلوه الى مائدة وطلب الطعام . ثم جاءه رجل وجلس الى مائدته وسأله اذا كان من روسيا. فاجابه بالايجاب . فأخذ يسأله كل انواع الاسئلة : ماذا جئت تشتري، هل خدمت في الجيش ، هل تجيد الرماية . فأعلمه انه كان في سلاح الخيّالة ، وانه لم يكن يسيء الرماية، واموراً اخرى . ولكنه في صباح اليوم التالي ، فوجئ بشيء مرعب ، بظهور مقال في الصحف مليء بكل انواع السخافات ، كالقول بأنه من رعاة البقر القوقاسيين . وكان المقال كذلك مليئاً بالاكاذيب عن غرض رحلته وما سيشتريه ، والاسعار التي نسب اليه عرضها وهكذا دواليك . وبعد ذلك بقليل طلبت منه السفارة الرجوع الى الوطن ورفع الأمر الى المسؤولين . واضاف الديبلوماسي الشاب قائلا: «ارجوكم

ان تأخذوا بعين الاعتبار أنني ما ارتكبت هذا الخطأ الا لانعدام خبرتي ودون اي قصد مبيت شرير»

وشعرت انا شخصياً بالعطف على هذا الشاب . من الواضح انه كان ضحية سذاجته . وأخذ كل واحد من الحضور يتلوّى في مقعده ويهمس الى جاره — كنا جميعاً ننتظر ما سيحدث .

وفجأة قال ستالين : «حسناً ان ما استطعت ان افهمه هو ان شخصاً واثقاً من نفسه استغلّه نفر من الملاعين . هل هناك ما يضاف ؟»

الجواب : «كلا» .

«اذن ، القضية طويت» وحدق ستالين في عيني الديبلوماسي الشاب وقال : «انتبه كن اشد حذراً في المستقبل». وكان ان الدهشة عقلت لسان الرجل المسكين ففغر فاه ، بينما كانت الجلسة تختتم . ثم جمع حقيبته وخرج لا يلوي على شيء . وقد ترك في نفسي اسلوب ستالين البسيط والرحيم في معالجة القضية انطباعاً كبيراً . وهكذا أحسّ الجميع ايضاً .

اب المدينة

انصبت عناية خروشوف بصورة رئيسية على ادارة موسكو وذلك منذ تعيينه في ١٩٣٢ سكرتيراً ثانياً (في ظل كاغانوفيتش) للجنة الحزب في مدينة موسكو إلى١٩٣٨ عند تعيينه سكرتيراً أول لاوكرانيا . أصبح في ١٩٣٥ يسيطر سيطرة مطلقة على منظمات الحزب في المدينة واقليمها . وفي هذه السنوات استحق صيته كقائد صلب عديم الشفقة . وانه خلافاً للعديد من الروس في المناصب العليا لم يكن يخشى من ان تطال الاوحال حذاءه. وكانت العملية الأكثر جذباً للانظار التي قام بها هي بناؤه خطوط المترو في موسكو ، تحفة النظام السوفياتي المجيدة ، بقاعاتها الرخامية المزخرفة تحت الأرض ، والتي أصبحت من اعاجيب العالم . وسمي المترو باسم كاغانوفيتش الذي دشنه بمساعدة خروشوف . ولكن سرعان ما استلم خروشوف القيادة في موسكو ووصل بالمشروع إلى نهايته الناجحة . ويقدم خروشوف وصفاً لتلك الايام المحمومة : كان يعمل دون توقف ، في أمرته فضلا عن الشباب الشيوعي المتحمس الذي تطوع للعمل في المشروع ، جيش لجب ممن فرض عليهم العمل الا جباري بتصرف رئيس المباحث ج . ج . ياغودا . وبدءاً من ١٩٣٦ كان على خروشوف كذلك جعل موسكو ، طول سنوات التطهير الرهيبة ، موالية لستالين . وفي هذه الفترة سطع نجمه رغم انه لا يذكر ذلك ، بالخطابة في

الاجتماعات الجماهيرية مادحاً ستالين بعبارات من التفخيم فاقت كل اقرانه وطالباً انزال عقوبة الموت بضحايا محاكمات الخيانة .

منذ شرعت في نشاطي الحزبي في منظمة موسكو وجدت ان علي انجاز الكثير في وقت قصير . ولعبت دوراً رئيسياً في ادارة واعادة بناء عاصمتنا السوفياتية في اوائل الثلاثينات واواسطها . وكنت ورفاقي نعمل بحماسة وتضحية ذاتية ، واستنزف عملنا كل اوقاتنا . فلم نكن نركن إلى الراحة . وغالباً ما كنا نعقد الاجتماعات الجماهيرية ، او نتشاور فيما بيننا في ايام العطلة ، ونعمل ساعات طويلة تمتد في أكثر الاحيان إلى اوقات متأخرة من الليل . وكنا ننظر إلى مهامنا التي تنجز وقد امتزجت بها مسحة رومانسية من الحلم بان يأتي اليوم الذي تتحقق فيه كلمات لينين : بعد عشر سنوات من قيام السلطة السوفياتية ستكون قوة لا تقهر ! اما اليوم ، فيا للاسف، قد اضمحل الكثير من روح المثالية والتضحية الذاتية من الحزب ، وحلت محلها روح ذات نفحة بورجوازية صغيرة باتت هي المسيطرة . والآن اذ اعود إلى تلك الايام لاذكر كيف كنت اساعد في ادارة مدينة موسكو ، اذكر ان واحدنا منا لم يكن يخطر له ببال كيف يتم الحصول على بيت ريفي . ألم نكن شيوعيين ؟ كنا نجوب المدينة بثياب عمل بسيطة . لم يكن اي منا يلبس بزة رسمية . كان لباسنا الرسمي قميص العمل ذا القبة المفتوحة او السمق الذي يلبسه الفلاحون . وكان ستالين قدوتنا في ذلك .

كان كاغانوفيتش يشغل إلى جانب مسؤوليته كسكرتير اول للجان مدينة موسكو واقليمها ، وظيفة السكرتير الثاني للجنة المركزية . هذا جعله نائب ستالين . لذلك كان عليه ان يخصص معظم اوقاته للجنة المركزية ، فوقعت علي أكثر اعباء مسؤولية العمل في موسكو ، نظراً لكوني السكرتير الثاني للمدينة واقليمها . وقد تطلب مني هذا العمل الجهد والاجتهاد والعناية الفائقة . ذلك انه كان علي التعويض بالمثابرة والاجتهاد عما فاتني بالتجربة والاختبار . كانت علاقاتي طيبة مع رفاقي في منظمة الحزب بموسكو . وفي الظاهر برر انجازي العملي الثقة والمسؤولية التي وضعت في عندما رفعت من مستوى مسؤول اقليمي .

مررت ، دون ريب ، في لحظات حرجة ، وانني اذكر الحادثة التالية التي وقعت في ١٩٣٢ : كان الناس يتضورون جوعاً في موسكو ، وباعتباري السكرتير الثاني كان علي وقف الكثير من طاقتي على تأمين وسائل التغذية

للمواطنين — او « الطبقة العامة » كما كنا نقول (١) .

كان ستالين قد اقترح تربية الارانب للتغذية . وكنت متحمساً للفكرة وعملت جهدي لتنفيذ تعليماته بهذا الصدد . فقامت المصانع والمحترفات كلّها بتربية ارانبها لتلبي حاجات مطابخها . ثم أخذنا بخطة زرع الفطر حول موسكو . وبعض المؤسسات اسهمت بنصيبها الا انه كان في كل حركة جماهيرية عناصر شرّ ، وبعض مدراء المصانع لم يدعموا القضية . وواجهنا صعوبات أكثر عندما بدأنا بتوزيع بطاقات الاعاشة ، فلم تكن تتوفر كميات كافية من البطاقات ، ولم يكن مناص من وقوع بعض عمليات الابتزاز في اثناء التطبيق . ذلك ان النقص في البطاقات دفع ببعض الافراد الى المداورة في تطبيق القانون وبعضهم الاخر الى السرقة . فبطاقات الاعاشة كانت مختلفة الانواع ، بعضها للذين يعملون وبعضها للعاطلين عن العمل ، واختلفت كذلك البطاقات في القيمة بين العمّال انفسهم . وادّت هذه الحالة الى قيام مختلف انواع الشذوذ والاستغلال ، بل حتى اللصوصية .

واستدعاني كاغانوفيتش ذات يوم قائلاً : «من الافضل لك ان ترفع تقريراً الى المكتب السياسي عن التدابير التي تتخذها لمنع الناس من الحصول على بطاقات الاعاشة بصورة غير مشروعة » .

فتهيبت هذه المهمة ، بل اقول ان حالة من الجزع تملكتني ، اذ سأمثل امام أكثر هيئاتنا هيبة ووقاراً لالقي خطبتي ، وسيكون ستالين هناك وهو الذي سيحكم على تقريري ويقيّمه . و الواقع ان ستالين في تلك الايام لم يرئس المكتب السياسي بنفسه . فقد ترك هذه المهمة دائماً لمولوتوف الذي كان أقدم اصدقائه . اذ عرف أحدهما الآخر منذ ايام النشاط السري قبل الثورة . وكان مولوتوف دوماً يعرّف بانه اخلص رفاق ستالين في السلاح الذين لم يتزعزعوا في كل الحالات . ويقال انه هو الذي أعلن ذلك عندما سمّي رئيساً لمجلس مفوضي الشعب (للوزراء) في اجتماع اللجنة المركزية الكامل في اواخر ١٩٣٠ . وبعد أن بدأت عملي كسكرتير لجنتي مدينة موسكو واقليمها كنت اتردد كثيراً على مكتب ستالين وكان مولوتوف دوماً هناك. وغالباً ما كانا يذهبان الى العطلة معاً.وكان مولوتوف ساعد ستالين الأيمن في المعركة ضد المعارضة . لذلك وصفه المعارضون بهراوة ستالين . اذ كان يستخدمه

(١) كانت موسكو تتحسس الآن آثار المجاعة الناتجة عن التجميع الاشتراكي . ورغم ان الادارة السياسية الرئيسية والجيش قد ارغما الفلاحين على تسليم محاصيلهم لمصلحة عمال المدن الا ان المتوفر من ذلك لم يكن يكفي . وان حالة الفلاحين في تلك المرحلة يجري وصفها في الفصل التالي .

ليضرب اي عضو في المكتب السياسي يعارضه . لكن مولوتوف ، في تلك الايام ، ترك في نفسي انطباعاً انه رجل قوي الارادة ومستقلّ الرأي والتفكير(١) .

قدّمت نفسي في اجتماع للمكتب السياسي والقيت خطاباً عدّدت فيه كل التدابير التي اتخذناها لتصفية سوء استخدام نظام بطاقات الاعاشة ، وزعمت اننا اصبنا نجاحاً كبيراً . فقال ستالين : «كفى تباهياً ، ايها الرفيق خروشوف . ان لصوصاً عديدين ما زالوا طلقاء — نعم انهم عديدون — ولا تظن انك القيت القبض عليهم جميعاً » .

ابدى ستالين ملاحظته هذه بنبرة ابويّة لم تزعجني على الاطلاق . كنت قد اقنعت نفسي باننا قد قبضنا على جميع المتلاعبين ببطاقات الاعاشة ، ولكنني دهشت من ان ستالين — الذي لم يكن يترك الاّ نادراً حدود قصر الكرملين — كان مطلعاً الى هذا الحد ، حتى لتحسب انه يعرف عدد اللصوص الذين لم يقبض عليهم بعد ! ان هذا التصرف من ستالين رفعه كثيراً في عينيّ .

بعد حين علمت ان وفداً من لينينغراد سيقدّم تقريراً الى المكتب السياسي عن الموضوع نفسه . فرغبت في الاطلاع على كيف يعالج فرع لينينغراد المشكلة ، لا سيما واننا كنّا على تنافس معه في كل حقل وبصورة خاصة في القضايا السريّة . وكان سيرجي ميرونوفيتش كيروف هو السكرتير الأول لمنظمة لينينغراد . وقد اوكل أمر التقريرين التقنين والاعاشة لاحد السكرتيريين الآخرين . واستطعت ان أفهم من التقرير ان منظمة لينينغراد افادت بانها قطعت شوطاً كبيراً في بناء اقتصاد المدينة بحيث استطاعت تخفيض التقنين .

وعندما انهى فرع لينينغراد تقديم تقريره رفعت الجلسة لفترة استراحة وتوزع الناس في القاعة ليذهبوا الى قاعة الجلوس حيث كانت تقدّم المرطّبات. كانت البلاد في مجاعة وكان حتى ذوو المناصب العليا من امثالي يعيشون عيشة متضعة،بل أكثر. فقد كنا احياناً نفتقر الى الطعام الكافي . لذلك كنّا نقتحم البوفيه (المقصف) في الكرملين ونلتهم الساندويشات واللحوم الباردة والشاي خلال فترات الاستراحة بين جلسات العمل.ومرة بينما كان الجميع يقومون باقتحام البوفيه في الغرفة المحاذية ، تخلّفت عنهم برهة منتظراً أن يغادر غرفة الاجتماع آخر من بقي فيها . وهكذا ، وبدون قصد ، شهدت تبادل كلام قارس بين ستالين وسيرجي ميرونوفيتش كيروف . كان سيرجي ميرونوفيتش يتحدّث باطراء عن تقرير وفدهم عن التقنين

(١) انظر سيرة حياة مولوتوف في الملحق رقم ٣ .

والاعاشة ، فرد ستالين متفوهاً بعبارات مهينة بحق السكرتير الذي القى التقرير (١) . لقد هزّني ذلك وصدمني . ففي تلك الايام كنت مثالياً جداً حول المناقب الحزبيّة . لم اصدق ان ستالين زعيم الحزب ، يمكن ان يتصرّف بقلة احترام ازاء اي عضو آخر في الحزب . كنت أنظر الى الأمر من هذه الزاوية : ان كل من حمل بطاقة الحزب وكان شيوعياً صادقاً فهو أخي — بل هو أكثر من أخ لي. كانت تجمعنا ، كاعضاء ، خيوطاً غير منظورة من معتقدنا المشترك في الكفاح المجيد . ان بناء الشيوعية كاد يكون عملاً مقدساً بالنسبة لي ولو جاز لي استعارة تعابير المؤمنين المتديّنين لكنت اقول بان كل مشترك في الحركة الشيوعية هو بالنسبة لي رسول مستعد ان يضحي بنفسه باسم قضيتنا المشتّركة (٢) .

لقد صدمني يومها ، ما سمعت من حديث ستالين الى كيروف واعتبرته انحرافاً لا استطيع تفسيره ، عن سلوك ستالين المعادي . وبعدما أصبحت السكرتير الاول للجنة مدينة موسكو أخذت اجتمع الى ستالين أكثر فأكثر في مناسبات غير رسميّة . وكنت ادعى بانتظام ، مع بولغانين الذي كان رئيساً لسوفيات موسكو (واقعياً يعني محافظ المدينة) ، الى مآدب العشاء العائليّة في شقة ستالين . ودائماً كان ستالين ونادزدا سيرجيفنا هما المضيف والمضيفة. وكان ابوا سيرجيفنا يحضران غالباً. وكذلك شقيقها وزوجته وشقيقتها انّا سيرجيفنا وزوجها ريدنز . وكان ريدنز رئيس مكتب موسكو الاقليمي في المباحث . وكان ستالين يجلسنا ، انا وبولغانين الى جانبه ويعيرنا الانتباه الشديد خلال تناول الطعام . وكان يهوى ان يقول : «حسناً كيف تجري الامور يا ابويّ المدينة ؟»

كان مستغرباً بالنسبة لي ان استمع إلى ستالين وهو يتحدث بخفة على المائدة . ولما كنت اعبده آنذاك ، فلم استطع اعتياد البقاء معه في أمكنة يكون فيها على سجيته : فهنا رجل ليس من هذا العالم ، ومع ذلك فهو يضحك ويمزح كباقي الناس ! واحياناً ، عندما كان ستالين يريد ان يتحدث معنا حول شؤون تختص بادارة المدينة ، كان يستدعينا للانضمام اليه في المسرح . وكنا نركز انتباهنا جيداً على ما يقول ، ثم نحاول تنفيذ ارشاداته .

---

(١) في اواخر العشرينات ومطلع الثلاثينات كان س. م. كيروف مقرباً جداً إلى ستالين . رغم اننا نجد هنا العلائم الأولى لهذا الاستقلال الفكري عنده الذي ادى إلى اغتياله والبدء بالتطهير الكبير (انظر الفصل الثالث) .

(٢) ان اشخاصاً مثل خروشوف في تلك الايام كانوا رغم قساوتهم ، يعتقدون انهم يبنون عالماً جديداً .

ذات مرة — اعتقد ان ذلك كان قبل المؤتمر السابع عشر للحزب — تلقيت رسالة تأمرني بان اطلب رقماً هاتفياً ، فعرفت على الفور انه رقم شقة ستالين . ورد ستالين بنفسه عندما طلبت الرقم ، وقال « ايها الرفيق خروشوف ، وصلتني شائعات تقول بانك تركت وضعاً غير مرض ينشأ بخصوص بيوت الخلاء في موسكو . والظاهر ان الناس لا تجد مكاناً تقضي فيه حاجتها . هذا أمر لا يجوز . ناقش هذه المسألة مع بولغانين وافعلا شيئاً لتحسين هذه الاوضاع . »

لعل هذا الامر كان تافهاً ليهتم به ستالين ويلفت انتباهنا اليه . ولكنني أعجبت بحسن التفاته على أية حال ، وبدأنا، انا وبولغانين ، العمل بحيوية . فتفقدنا بانفسنا المباني والفناءات . ورفسنا رجال المليشيا على اقفيتهم وحملناهم على المساعدة . وبعد ذلك كلفنا ستالين مهمة انشاء بيوت خلاء نظيفة ، حديثة ، يصير دفع رسم في مقابل دخولها .

واذكر انني مرة كنت مجتمعاً في مؤتمر مع رفاق من المقاطعات ، فسألني ايخ ، سكرتير الحزب في نوفو سيبيرسك ، بلهجته البسيطة : « ايها الرفيقخروشوف ، هل حقاً ما يقوله الناس من انكم تشغلون انفسكم ببيوت الخلاء في موسكو ، وهل صحيح ان ذلك تم بناء على تعليمات ستالين نفسه ؟ » (١) .

اجبت « نعم هذا صحيح تماماً ، وهذا يبرهن على اهتمامنا بالمواطنين . ففي مدينة كبرى مثل موسكو لا تستقيم الامور بدون بيوت خلاء كافية ونظيفة » .

ان هذه الحادثة ، مهما بدت مبتذلة ، تظهر كيف ان ستالين ، قائد الطبقة العاملة في العالم ، لم تكن مشاغله الكثيرة لتصرفه عن الاهتمام بتفصيل في مستوى بيوت الخلاء العامة في المدينة .

في ١٩٣٤ عملنا ، انا وكاغانوفيتش وبولغانين ، على اعادة بناء موسكو واشرفنا على اشادة العديد من الابنية الجديدة . واذكر انه ذات مرة ، بينما كنا نقف وسط جماعة ونشرف على تفتيش مجموعة جديدة من الابنية حول مبنى سوفيات موسكو ، اشار كاغانوفيتش إلى معهد ماركس — انجلز وقال « تباً لذاك الذي صمم هذه الهولة ! » .

وأخذ المهندسون الذين كانوا معنا يتطلعون بعصبية . واسقط في يد مهندس

---

(١) ر. أ. ايخ . شدد خروشوف كثيراً في خطبته السرية على المصير الذي لاقاه ايخ في التصفيات . كان عضواً مرشحاً للمكتب السياسي ، اعتقل في نيسان ١٩٣٨ وارغم تحت التعذيب على توقيع اعترافات ثم عاد فانكرها وطلب إلى ستالين تكليف اللجنة المركزية بفتح تحقيق في قضيته . اعدم رمياً بالرصاص في شباط ١٩٤٠ .

المدينة الرئيسي شرنيشيف ، ولكنه قال : « يا لازار موزيبيفتش ، انا الذي وضعت تصميم البناء . » فابتسم كاغانوفيتش واعتذر ولطف ملاحظته . وقد كان مبنى معهد ماركس انجلز ، حقاً ، ذا شكل تنقبض النفس لدى مشاهدته .

كانت الفترة تلك تشهد نشاطاً محموماً . وقد تمت انجازات كثيرة في وقت قصير . وبدا ان ثمة مشاريع مهمة كانت قيد التنفيذ في الوقت نفسه : بناء مصنع لحمل الكريات ، وتوسيع مصنع دوكس رقم واحد للطيران ، واشادة مصانع للزيت والغاز والكهرباء ، وشق قناة موسكو – الفولغا ، واعادة بناء جسور على نهر موسكو . وهذا غيض من فيض . وقد القيت المهمة الضخمة للاشراف على كل ذلك على كاهلي نظراً لان كاغانوفيتش كان غارقاً حتى اذنيه في العمل خارج منظمة موسكو الحزبية .

وبالاضافة إلى تشيد الابنية الجديدة كان هناك الكثير في مجالات تحديث أكثر خدمات المدينة الكبرى العالمية . كان انتظام مياه البواليع ودورة المجارير في موسكو في حالة سيئة ، لان زمناً طويلا مر عليها . وكان معظم الشوارع مكسواً بالحصى ، وبعضها لم يكن مرصوفاً . وكان الاعتماد لا يزال شديداً على الخيول لجر العربات او لاغراض أخرى . حتى انه من الصعب تصديق ان تلك كانت الحال يومها وبمثل هذه البدائية .

وابان عملية اعادة بناء موسكو كان لي شرف مد خطوط اول اتوبيس كهربائي في الاتحاد السوفياتي . وقد اقتضاني جهداً وافراً لاقناع الناس بجدوى اعتماد الاتوبيس الكهربائي ، وكان معارضو وسائل النقل هذه عديدين . مثال على هؤلاء ، صديقي الكسي ايفانوفيش ليخاشيف الذي كان يفضل المحرك ذا الاحتراق الداخلي ، فكافح بكل ضراوة ضد مد تجهيزات الاتوبيس الكهربائي . بل انني واجهت بعض المعارضة من ستالين نفسه . فبعد مد الاسلاك والاستعداد لامتحان الجهاز تلقيت مكالمة من كاغانوفيتش يطلب مني التوقف ، اذ قد نصرف النظر عن المشروع كلياً ، ثم بدا لي ان ستالين كاد يقتنع بأن الاوتوبيس سينقلب على المنحدر امام مبنى البرق والبريد المركزي . ولكن الوقت كان متأخراً جداً لالغاء التجربة . ولحسن الحظ جرت على ما يرام . ورفعنا إلى ستالين تقريراً بالامر، لافتين إلى ان الاوتوبيس الكهربائي لا يثير قرقعة، ولا يلوث الهواء،وهو احدث وسائل المواصلات وسيسهم حتماً في تقدم المدينة .

وايد ستالين توصيتي . ولكن عندما جلبنا ، فيما بعد ، الاوتوبيس ذا الطبقتين ، رفض رفضاً مطلقاً السماح لنا باستخدامه . كان يخشى ان ينقلب ، ولم تنفع اية حجة في نزع هذه الفكرة من ذهنه . الا ان ستالين ، بصورة عامة ،

كان يؤيد التحسينات الحديثة والتطويرات التقدمية من كل الانواع .

وعندما شرعنا نبني مترو موسكو ، كان عندنا فكرة غامضة جداً عما سيترتب على هذا العمل . لم نكن ذا دراية ولا اطلاع على احدث ما في العالم . كنا نتخيل القطار الكهربائي النفقي كشيء فوق الطبيعة ، واني اعتقد اليوم انه من الاسهل ان نؤمل بالسفر في الفضاء من ان نؤمل (ونحن في الثلاثينات) بناء قطار المترو في موسكو .

جرت التوصية باسناد مسؤولية الاشراف على المشروع لبافل بافلوفيش روتر . وكانت شهرته قد ذاعت كأفضل مهندس في موسكو ، وهو روسي من أصل الماني ، وقد اشرف على احد اعظم مشاريع البناء الحكومية : مبنى الحكومة في ساحة دزرزنسكي في خاركوف .

في البداية لم تكن لي ادنى علاقة بموضوع المترو . ولكن بعد انقضاء بعض الوقت ، قال لي كاغانوفيتش : « ان الأمور لا تسير على ما يرام وانه من الخير نظراً لخبرتي في التعدين ، ان اتولى مسؤولية الاشراف على بناء شبكة المترو.» واقترح ان اترك جانباً كل مسؤولياتي في لجنة المدينة . واشار علي بالذهاب إلى رأس النفق حتى ارى ما هو جار هناك . وقال ان على بولغانين ان يفعل الأمر ذاته . كان اقتراح كاغانوفيتش في موضعه . وفي ذلك الوقت كان لازار موزيبيفش لم يزل يحتل مكانة مرموقة في نفسي . ولم يكن عندي ادنى شك في ولائه للحزب والقضية . كان يمكن وصف حاله بالمثل السائد ، وهو انه عندما يحطب تتطاير رقاقات كثيرة من الخشب في الجو . ولكنه لم يكن يغتر ابداً، لا في القوة ولا في الطاقة . كان عنيداً على قدر ما كان مخلصاً .

وبعد ان قضيت بعض الوقت،تكونت عندي فكرة أفضل عما ينبغي ان يكونه بالفعل . وادركت ان الامور تجري هنا بصورة مشابهة جداً لما كان يجري في المعادن ، حيث كنت اعمل في شبابي . اما بولغانين فقد سبب له المشروع ألماً في العصب الوركي (عرق النسا) ألزمه الفراش وقتاً طويلا . وهكذا وقعت مسؤولية الاشراف التام على مشروع المترو على كاهلي .

وأخذت ارفع تقارير منتظمة عن تقدم العمل إلى كاغانوفيتش ، أشدد فيها على انه ليس لدينا الاشخاص القادرون على اتمام العمل بسرعة واتقان .

وبناء على الحاحي أخذنا بالبحث عن مهندسي معادن من ذوي الخبرة للاشراف على العمل في المكان المخصص للنفق .

وفي هذه الاثناء كان العمل يتعثر في صناعة الفحم في دونباس . ولم يكن الانتاج في مستوى الطلب المتزايد في البلاد . فارسل مولوتوف إلى هناك لتفحص الحال .

ولكنه لم يصب نجاحاً لأنه لم يكن مطلعاً حتى على بديهيات صناعة التعدين .

وكان اغور تروفيموفيتش اباكوموف يرئس اشغال الفحم في دونباس . وكنا صديقين منذ عملنا معاً في حفر المناجم في ١٩١٢ . وبعد الحرب الاهلية عملت نائباً له . فكان ادارياً جيداً ومن ذوي الخبرة في صناعة التعدين . ورفع مولوتوف في تقريره إلى المكتب السياسي اقتراحاً باعفاء اباكوموف من منصبه في دونباس . واستدعاني كاغانوفيتش وأخبرني بالأمر ، قائلا :

ـ هل تعرف اباكوموف هذا ؟

ـ نعم ، اعرفه جيداً .

ـ ما رأيك اذا عينا اباكوموف نائب مدير عمليات بناء المترو تحت ادارة روتر ؟

ـ لن نجد نائب مدير أفضل منه ، بل انه يصلح لان يكون مديراً ممتازاً .

ـ انا لم اسألك عن هذا . عندنا مدير هو روتر ! .

وهكذا عين اباكوموف عندنا ، فهان عملي بعد وصوله . وكانت تجمعنا معرفة وثقة متبادلتان .

وبدأنا فوراً بتعبئة المهندسين من ذوي الخبرة في شؤون التعدين . وفي أحد الايام سألني كاغانوفيتش : « ماذا لو عيناك رئيس عمليات بناء المترو ؟ » فأجبت : « أنا لا اريد ذلك » . فقال : « لماذا ترفض ؟ لقد أظهرت انك تملك القدرة والخبرة الضروريتين . وبصراحة فقد شرعنا نعتبرك مدير العمليات اليومية الجارية فما هو الفارق بالنسبة اليك اذا جعلنا الأمر رسمياً ؟ » .

فقلت : « اذا كان هذا ما قررتم ، فأنا مستعد ان ابذل جهدي حتى اؤكد لكم ان ثقتكم بي في محلها . ولست اطلب الا اعفائي من واجباتي كسكرتير لجنة المدينة . لأنه يتعذر علي ، القيام بالمسؤوليتين في وقت واحد . » غير ان كاغانوفيتش رفض طلبي .

وعرفت فيما بعد ان ستالين هو صاحب فكرة اسناد ادارة بناء خطوط المترو إلي . ولكن كاغانوفيتش لم يخبرني بذلك قط ، ولكن الذي وضح لي ان ستالين هو الذي وجهه كي يسألني اذا كان بامكاني أخذ مسؤولية الاشراف على موضوع المترو بالاضافة إلى واجبات لجنة مدينة موسكو . غير ان الاقتراح صرف النظر عنه عندما اعتذرت عن تحمل المسؤوليتين في الوقت نفسه .

ولكن الأمر حدث عملياً على هذا النحو : رغم احتفاظي رسمياً بمسؤولياتي في لجنة المدينة الا انني أخذت اعطي ثمانين بالمئة من وقتي للمترو . وأخذت اتنقل ذهاباً واياباً من لجنة موسكو عبر الممر الرأسي . ففي الصباح كنت ابدأ بالممر

الرأسي قرب مكان سكني ثم أصعد منه قرب مبنى مكتب الحزب . وكان يصعب علي وصف العياء الذي كان يحل بي في آخر اليوم .

كنا ننام اقل ما يمكن من الوقت حتى نستطيع اعطاء كامل وقتنا للقضية .

وجاءني في احد الايام مهندس شاب يعمل في قسم التخطيط حاملا فكرة حول كيف نستطيع تحسين المترو . كان اسمه ماكوفسكي . لقد احببته بصورة عفوية عند لقائه . كان ذكياً ووسيماً : واحداً من جيل الاخصائيين الشباب في عصرنا الاشتراكي . وهاكم ما قال :

« ايها الرفيق خروشوف ، إننا نبني المترو وفق ما يسمى بالاسلوب الالماني ، او اسلوب الخندق المفتوح . ان مثل هذا الاسلوب لا يلائم المدينة اطلاقاً . اقترح ان ننتقل إلى اعتماد الاسلوب الانكليزي ، او اسلوب النفق المغلق . وهذا يوجب علينا بناء المترو بعمق أكثر ، وبنفقات أكثر قليلا . ولكن اذا لم تسقط من حسابك امكانية نشوب الحرب ، تجد ان الانفاق المعززة التحصين وجدرانها المدعمة ، تشكل ملاجىء ممتازة من القنابل .

« ثم هناك افضلية أخرى للاسلوب الانكليزي ، اذ لسنا مضطرين ان نبني على محاذاة خطوط المواصلات الرئيسية ، بل بامكاننا ان نقيم النفق تحت الابنية . ثم هناك مسألة كيفية انزال الركاب إلى المترو واصعادهم او اخراجهم منه . كان بافل بافلوفيتش روتر قد اعطانا تعليمات لبناء مصاعد . هذا ايضاً من الاسلوب الالماني . اما انا فأقترح الاستعاضة عن ذلك بالسلم الميكانيكي الدوار » . والحقيقة انها المرة الأولى التي سمعت فيها بهذا النوع من السلالم . فسألته عما يعني ، فأوضح لي . وتابعت شرحه بافضل ما استطيع من الاستيعاب . وبدا لي الأمر بالغ التعقيد . وانهى ماكوفسكي كلامه بالقول : « ارجوك ان تعيد النظر باقتراحاتي ، اذا شئت . وبامكاني رفع تقرير اشرح فيه بدقة ما يجول في خاطري . على اي حال ارجوك ان لا تخبر بافل بافلوفيتش انني جئت لمقابلتك . انه حسود جداً وصارم جداً . لقد جئتك بهذه الفكرة دون اذن منه . ذلك انني لو حدثته بالأمر من قبل ، وهو المفرط في التعصب لآرائه ، لرفض اقتراحي دون الاستماع إلى ما اقول . »

فقلت له : « حسناً ، سأبحث الأمر مع الرفيق كاغانوفيتش ونعلمك بما يتم عليه قرارنا » .

ورفعت الأمر إلى كاغانوفيتش فأجاب باقتضاب : « لماذا لا تطلب من ماكوفسكي ان يخبرك بتفصيل اوفى عن هذا السلم الدوار ، وعندها ترى لماذا علينا بناء المصاعد بدلا منه . ذلك ان السلم الدوار سيستورد من انكلترا او المانيا . وليس بامكاننا انفاق احتياطينا من الذهب على مشتريات من الخارج حتى ولا

من أجل المترو » .

فقررت ان ادعو إلى اجتماع يحضره ماكوفسكي وبافل بافلوفيش روتر ودعوت كذلك بعض الاشخاص الآخرين ، اذ أردت ان اصل إلى قرار حاسم ونهائي في الموضوع . ولنتصور المشهد كيف ارتسم : ماكوفسكي ، فتي وسيم وذو ملامح دقيقة ، بينما روتر مسن وسمين وهو يعبس في وجه ماكوفسكي من تحت حواجبه المتحدرة ، لكأنه تمساح يرمق ارنباً . وكان ماكوفسكي بادي العصبية الا انه سيطر على نفسه وعرض وجهة نظره عرضاً جيداً . وناقش باسلوب مقنع مبيناً اننا كنا نستخدم جهازاً عفا عليه الزمن ، وانه يقترح بديلا احدث منه . واستمر يذكر انكلترا كمثل : محطة بيكاديللي هي افضل محطة في لندن ، في قلب أكثر اقسام المدينة ارستقراطية ، وقد بنيت تحت الارض وهي موصولة بسلالم دوارة بدل المصاعد . واستمر روتر يتطلع بازدراء نحو ماكوفسكي ، ودعاه بالفتى المدعي غير المسؤول . الا ان ماكوفسكي كان قد نجح في عرض رأيه . وقد دافعت عن وجهة نظره عندما قدمت تقريري إلى اللجنة المركزية .

واستمر روتر بمكابرته وعناده ، مصمماً على المضي بذلك حتى النهاية . وارتبك كاغانوفيتش الذي أصبح معي نصيراً لماكوفسكي ، لأنه بات يتحتم علينا عرض الخلاف على المكتب السياسي . فروتر سيعرض قضيته ضدنا وثمة امكان ان يؤيده ستالين . ولكن لم يكن امامنا خيار .

وقدم روتر تقريره في اجتماع للمكتب السياسي ثم جاء دورنا للكلام . ونشأ جدل . وعند نقطة من البحث قال روتر « ان ما تقترحونه يكبد اكلافاً باهظة ... » . غير ان ستالين قاطعه بحدة « ايها الرفيق روتر ، ان مسألة الاكلاف تترك للحكومة فهي التي تبت فيها . ان مهمتك ان تعلمنا ما هو المشروع المعقول تقنياً ، لا ما هو معقول مالياً . الان اخبرنا ، هل اقتراح هذا المهندس الشاب ماكوفسكي معقول تقنياً ؟ » فأجابه : « نعم ولكنه بالغ الأكلاف » . فقال ستالين : « قلت لك للتو ، ايها الرفيق روتر ، ان الحكومة هي التي تقرر ذلك . اننا سنمضي في قبول خطة الرفيق ماكوفسكي لحفر الانفاق العميقة » .

كم سرني ذلك . لقد أظهر ستالين حكمة فائقة وجرأة نادرة ، آخذاً بعين الاعتبار عاملا بعيد المدى هو عامل الدفاع المدني ، وقرر على ذلك الاساس ان الانفاق تستحق الاكلاف الاضافية. وبات من المؤكد ان تتمركز في الفترة الاولى من الحرب قيادة المدينة في محطة بوابات ميازنتسكي للمترو ، وان تستخدم الأنفاق بمثابة ملاجىء من القنابل .

وفي ١٩٣٥ احتفل مواطنو موسكو بانهاء المرحلة الأولى من مد شبكات

المترو . ونال عدد وافر من الناس ارسمة حكومية . ومنحت انا وسام لينين ، فكان ذلك اول شرف احظى به . ومنح بولغانين وسام النجم الأحمر . وسمي مشروع المترو باسم كاغانوفيتش . وكان تنافس قد بدأ بين اعضاء المكتب السياسي على من يطلق اسمه على اكبر عدد من المصانع والمزارع الجماعية . ومما يؤسف له ان هذا الاتجاه برز إلى حيز الوجود في ظل ستالين . وكان كاغانوفيتش قد بات خبيراً مجرباً في هذا المضمار .

٣

الارهاب

تشريك الارض

لم يشرع بما عرف بالا رهاب الكبير الا في ١٩٣٥ ، غير ان استخدام الا رهاب ، من ناحية مبدئية ، لتحطيم المعارضة كان في اساس الحكم البلشفي منذ تكريسه رسمياً على يد لينين في ١٩١٨ . كان التشريك (١٩٢٨–١٩٣٣) هو عملية تطبيق الارهاب بالجملة على الريف . ولم يعرف ، ولا يستطيع أحد ان يعرف ، عدد الملا يين التي فنيت في تلك العملية المجنونة التي وصفها ستالين بعد سنوات في حديث له مع ونستون تشرشل على انها كانت أزمة أكثر حرجاً للاتحاد السوفياتي من سائر ازمات الحرب العالمية الثانية.وفي ١٩٣٣ عند انتهاء عملية التشريك (المزارع الجماعية) كان الانتاج الزراعي ومجموع البهائم قد نقص إلى ما يزيد على النصف قليلا . وعشية الغزو الالماني في ١٩٤١ لم يكن الانتاج الزراعي ولا عدد البهائم قد استعاد مستوياته السابقة لقيام التشريك . ان ما يضفي على هذا القسم أهمية خاصة هو أن خروشوف لأول مرة يقر بان «نمط خروشوف في التشريك لم يجلب لنا سوى البؤس» . وكانت القيادة السوفياتية ، بما فيها خروشوف ، طوال أربعين سنة قد زعمت أن التشريك الذي عارضه بمرارة بوخارين آنذاك ، كان عملية ضرورية واصابت نجاحاً باهراً . في الحقيقة كانت مذبحة على نطاق ضخم وتركت آثارها المدمرة على الاقتصاد السوفياتي .

بدأ التجمع الزراعي قبل نقلي من اوكرانيا بسنة واحدة . ولكني لم أبدأ بتلمس آثاره على سكان الريف الا بعد ان شرعت بالعمل في موسكو . ومضت سنوات قبل ان اتيقن من مدى المجاعة والاضطهاد اللذين رافقا نظام التجمع الزراعي كما طبق في ظل ستالين .

ان اول تلمسي للحقيقة كان في ١٩٣٠ عندما حاول مكتب الخلية الحزبية في الاكاديمية الصناعية التخلص مني بارسالي إلى الريف في رحلة عمل . وكانت الاكاديمية ترعى مزرعة ستالين الجماعية في اقليم سامارا (الذي دعي فيما بعد بكوبيشيف) . وكان مفروضاً ان اسلم المزرعة المشار اليها مبلغاً من المال جمعناه لشراء ادوات زراعية . وقد رافقني في تلك الرحلة تلميذ آخر من الاكاديمية ، هو ساشا سدوبنوف الذي كان رفيقاً طيباً من الاورال والذي ذهب ضحية مذبحة ١٩٣٧ . وقضينا بضعة ايام فقط في المزرعة الجماعية روعتنا خلالها ظروف المعيشة فيها . كان المزارعون يموتون جوعاً . ودعونا إلى عقد اجتماع لنسلمهم المال الذي استحضرناه معنا . وكان معظم العمال في المزرعة الجماعية من الشعب الشوفاشي (الشوفاش) مما اضطرنا إلى مخاطبتهم بواسطة ترجمان . وعندما أخبرناهم بان المال خصص لشراء أدوات زراعية قالوا لنا ان الادوات لا تعني لهم شيئاً ، وانهم لا يريدون الا الخبز . واخذوا يتوسلون الينا ان نعطيهم طعاماً . وكنت انا وسدوبنوف قد اقمنا عند ارملة معدمة لا تملك شيئاً ، فتقاسمنا معها طعامنا الذي كان بحوزتنا للرحلة .

لم أكن اتصور ان الامور بمثل هذا التردي . فقد كنا نعيش في الاكاديمية الصناعية على وهم مبالغات « البرافدا » حول ان حركة التجمع الزراعي تتقدم بيسر وان كل شيء على ما يرام في الريف .

ولكن فجأة ، ودون سابق انذار ، القى ستالين خطبته الشهيرة « دوار النجاح » ملقياً تبعة الافراط الحاصلة من حركة التشريك (١) على عاتق الاعضاء المحليين . وفجأة وجد الاشخاص الذين كانوا يقودون عملية التشريك بحماسة متوحشة انفسهم هدفاً لحملة عنيفة تشنها عليهم « البرافدا » . وفي ذلك الزمن كنا نعتبر خطبة ستالين طرفة رائعة وضربة قاضية وجهتها زعامة الحزب ضد الرجال المسؤولين عن الافراط (٢) . الا انني اذكر ان فكرة اقلقتني : لو كان كل شيء يجري على ما يرام في المزارع الجماعية كما كان ستالين يخبرنا طول الوقت حتى الآن ، فما هو السبب الداعي لهذه الخطبة المفاجئة ؟

---

(١) القيت الخطبة في ٢ آذار ١٩٣٠ وأصر ستالين على ان تعليماته المستقيمة قد اسيء فهمها . هنا كان المعلم يدين ادواته بالذات لتنفيذها اوامره .

(٢) « في ذلك الزمن اعتبرنا خطبة ستالين طرفة رائعة » . ولكن « من نحن » ؟ وقد القى خطبتة دون ان يخبر المكتب السياسي واللجنة المركزية بالأمر . الا ان اللجنة المركزية وجدت الشجاعة الكافية لتحتج على تحميلها اللوم على جريمة ستالين .

وقد ادت المشادة حول التجمع الزراعي إلى الحث على اعادة تنظيم سريع في قيادة الحزب بموسكو. فاستبدل يوغلانوف الذي كان معارضاً للتجميع ببومان (١) . ثم جرفت بومان الحملة على الافراط ، فاستبدل بمولوتوف الذي استبدل بدوره بكاغانوفيتش . وعندما كان كاغانوفيتش رئيساً لمنظمة موسكو راجت اخبار مفادها ان متاعب وقعت في المزارع الجماعية رغم انه لم يكن لدي ادنى فكرة عن ان المتاعب المذكورة يمكن ان تعني التمرد من جانب الفلاحين ، وان قوات ترسل من موسكو لاخمادها .

اذكر انني عندما كنت اعمل في لجنة مدينة موسكو في ١٩٣٢ أعلن كاغانوفيتش فجأة ان عليه الذهاب في رحلة عمل إلى كراسنودار . وغاب اسبوعاً او اثنين . ولم يخبرنا يومها بغرض رحلته ولكننا عرفنا فيما بعد انه ذهب لاحباط اضراب – او « عمل تخريبي » كما كان يدعي – قام به القوقاسيون الذين رفضوا حرث اراضيهم . وكانت حصيلة رحلة كاغانوفيتش ان مستوطنات قوقاسية برمتها اقتلعت من ارضها وارغمت على الانتقال إلى سيبيريا .

واخبرني فكليشيف أحد اصدقائي ، ورئيس الادارة السياسية («أمن » القوات المسلحة) في مقاطعة موسكو العسكرية ، ان اوكرانيا حافلة بالاضرابات والتخريب ، وان جنود الجيش الأحمر قد عبئوا لقطف محصول الشمندر .

وقد افزعني هذا الخبر ، اذ كنت اعرف من خبرتي الشخصية ان جذور الشمندر مرهفة دقيقة بحيث ان اقتلاعها يجب ان يحصل بعناية فائقة وفي الوقت المناسب ، ولم يكن متوقعاً من جنود الجيش الأحمر الذين لم ير معظمهم في حياته الشمندر ان يعرفوا كيف ينجزون هذا العمل جيداً . فكان من الطبيعي ان نخسر محصول الشمندر في ذلك الموسم .

وانتشر الخبر على الاثر ان المجاعة قد بدأت في اوكرانيا ، فلم أصدق ذلك . اذ كنت قد تركت اوكرانيا في ١٩٢٩ ، قبل ثلاث سنوات فقط ، حين كانت قد استعادت مستوى المعيشة الذي كان سائداً فيها قبل الحرب . وكانت المواد الغذائية متوفرة بكثرة وباثمان بخسة . ولكن ها نحن نعلم الآن بان الناس يموتون جوعاً .

---

(١) وقف « اليمينيون » ، وبوخارين في مقدمتهم ، وقفتهم الاخيرة ضد هذه الاندفاعة في التشريك الجماعي . ومن سخرية القدر ان تروتسكي « واليساريين» هم اول من دعا إلى هذا التشريك الذي عارضه ستالين آنذاك . وكان مولوتوف رئيس فرع موسكو بين ١٩٢٨ و ١٩٣٠ عندما أصبح رئيساً للوزارة .

ومرت سنوات عديدة قبل ان اعرف الحقيقة المرة التي سادت اوكرانيا في الثلاثينات . وقد عرفت ذلك كله عندما أخبرني انستاس ايفانوفييش ميكويان القصة التالية : جاءه مرة إلى موسكو ديمشنكو الذي كان سكرتيراً للحزب في اقليم كييف وقال له : « يا انستاس ايفانوفيتش ، هل يعلم الرفيق ستالين– وبالمناسبة هل يعلم اي عضو في المكتب السياسي – حقيقة ما يجري في اوكرانيا ؟ حسناً ، اذا لم تكونوا على بينة من الامر فدعني اعطك فكرة عن ذلك . لقد وصل إلى كييف مؤخراً قطار محمل بجثث الذين ماتوا جوعاً . كان القطار يجمع الجثث على طول الطريق الممتد من بولتافا إلى كييف . اعتقد انه من الانسب ان يعلم أحد منكم ستالين بهذه الحال » .

وهذه القصة تظهر كيف ان حالة غير طبيعية قد نشأت في الحزب عندما يخشى شخص مثل ديمشنكو ، وهو عضو في المكتب السياسي الاوكراني ، مقابلة ستالين بنفسه . ها قد دخلنا مرحلة يصبح فيها رجل واحد يضع القيادة الجماعية كلها تحت ابهامه ، بينما يرتعد جميع الاخرين جزعاً امامه. وقرر ديمشنكو اعلام ميكويان عما يحدث في اوكرانيا لأنه عرف ان ميكويان مقرب إلى ستالين وبامكانه حمله على القيام بشيء ما . وكان الاعضاء الحزبيون العاملون في تلك الايام غالباً ما يشيرون إلى الثلاثي القوقازي : ستالين واوردزونيكيدز وميكويان . كنت دوماً أكن لانستاس ميكويان احتراماً فائقاً . ان لكل منا اخطاءه ، ولانستاس ايفانوفيتش بالتأكيد اخطاؤه كباقي البشر ، الا انه رفيق صادق وذكي ومقتدر ، وقد قدم خدمات جلى للحزب والدولة .

لقد وصف شولوكوف الاحوال التي سادت ايام التجميع الاشتراكي في كتابه « الارض العذراء مقلوبة » . الا ان شولوكوف وضع كتابه في حياة ستالين ، لذلك لم يكن لديه خيار الا ان يصف التجميع من زاوية نظر ستالينية.وعندما بات فشل التجميع حقيقة شائعة ، علمونا ان ننحي باللائمة لما حدث على مؤامرات الكولاك واليمينيين والتروتسكيين والزينوفيفيين .

كان التذرع بـ « الثورة المضادة » هو التفسير السهل الذي نملكه لكل فشل .

اما الآن ، بعد ان انفضح امر استغلال ستالين للسلطان فان المطلوب اعتماد تحليل أكثر موضوعية وتدقيقاً لعملية التجميع ، اذا اردنا ان نفهم حقيقة ما حدث . لعلنا لن نعرف على الاطلاق عدد الذين قضوا مباشرة نتيجة التجميع او بصورة غير مباشرة نتيجة توق ستالين إلى وضع وزر الفشل على الآخرين . الا ان ثمة حقيقتين أكيدتين : اولا ، ان نمط التجميع الستاليني لم يعد علينا الا بالبؤس والوحشية وثانياً ان ستالين كان الآمر الناهي في قيادة بلادنا في ذلك الزمن . فريكوف

وبوخارين وزينوفيف وكامنيف كانوا قد اقيلوا من مناصبهم وتروتسكي كان في المنفى . لذلك ، اذا كنا نبحث عن المسؤول فبامكاننا وضع المسؤولية كاملة على عاتق ستالين بالذات . غير ان ذلك كله هو ادراك متأخر للحقائق . ففي ذلك الزمن لم نكن نعرف الحقائق ، اذ كنا لم نزل نؤمن بستالين ونثق به .

سنوات التطهير

في هذا الفصل نجد وصفاً مشوهاً ومختاراً لارهب فترات تاريخ الاتحاد السوفياتي . ولم يكن خروشوف ، خلافاً لمولوتوف ومالنكوف ، متورطاً تورطاً فعلياً في الافراط الذي شهدته سنوات التطهير إلى ان ارسل إلى اوكرانيا في ١٩٣٨ لينهي الطور الاخير من التطهير الكبير هناك ، قبل اعادة بناء جهاز الحزب المتصدع . الا انه كان يعرف الكثير مما كان حاصلا ؛ وقد استفاد بصورة مباشرة من مقتل زملائه المتقدمين عليه . وهو يقول ما فيه الكفاية (كما في حادث ياروسلافسكي) ليبين أنه ، كأي مسؤول حزبي كبير في ذلك الزمن ، قام بدوره بارتكاب بعض الأفعال الشريرة حتى قبل وصوله إلى كييف . وانه من المفيد مقارنة هذا الفصل بمقاطع من الخطبة السرية التي تعالج مواضيع الاعتقال والتعذيب واعدام اشخاص ابرياء كلياً من الاتهامات الموجهة اليهم — رغم انهم ابعد ما يكونون عن البراءة الكلية في مجالات اخرى . ان القصة المرعبة كلها كانت معروفة بتفاصيلها الوافية في الغرب ، الا ان الخطبة السرية كانت تأكيداً من مصدر سوفياتي رسمي على حدوث الافعال المروعة. وحتى في هذه، يحسن التذكر ان خروشوف لا يعطي اية فكرة عن مدى المذبحة . فهو يحصر التشهير بالجرائم التي ارتكبها ستالين ضد الحزب والجيش ، ولا يقول كلمة واحدة عن نتائج الارهاب على ملايين الاعضاء العاديين في الحزب والمواطنين غير المتسيسين . وبكلمة مختصرة ، انه يتكلم هنا عن جرائم ستالين ضد الحزب ، وليس عن جرائمه ضد الشعب السوفياتي بكليته . ان التقدير العادي المعتمد لعدد اعضاء الحزب الذين اعتقلوا يقرب من المليون ، بينما يقدر عدد المواطنين غير الحزبيين من المعتقلين بسبعة اضعاف هذا الرقم ، على الأقل .

ومن الجدير ذكره ان تعذيب السجناء المتعمد (عدا الركل والضرب العفويين) كان محظوراً بموجب الانظمة حتى ١٩٣٧ . الا انه في مطلع ١٩٣٧ او في اواخر ١٩٣٦ صدرت تعليمات سرية تسمح بالتعذيب . و اصبحت هذه التعليمات «قانونية» في ١٩٣٩ . وفي كتاب « الارهاب الكبير» لروبرت كونكوست ، وهو دراسة عن التطهيرات ككل، وصف لا يضاهى في الشمول والجودة لحركة التطهير هذه . ولعل اوضح وصف للحالة التي

كان يجد عضو الحزب نفسه فيها ابان التطهيرات هي التي يحتويها كتاب يفجينيا جنزبرغ وعنوانه «في الزوبعة».

اني ، حين اقدم عرضاً موضوعياً مكثفاً عن جوانب ستالين السلبية ، علي ان اقول شيئاً عن عادة جرى عليها ستالين ، هي اتهام اعضاء الحزب ، دون رحمة ، بانهم اعداء الشعب ثم تقديمهم إلى المحاكمات وتصفيتهم . ان حزبنا لم يزل مرعوباً من الأذى الذي لحق به في التطهيرات . وان المواقف التي غرسها ستالين في اذهان العديد من اعضاء الحزب تركت نوعاً من الغشاوة على وعي الكثير من الناس لاسيما المحدودين والبسطاء منهم . وحتى اليوم لم نزل نجد من يعتقد ان طريقة ستالين كانت وحدها الطريقة السليمة في بناء الاشتراكية وانجاز الاعمال في بلادنا . اما بالنسبة لي فاجد ان هذا التفكير يعكس عقلية بدائية تعود إلى زمن الرق تزعم ان الناس لا يعملون الا وهم تحت وطأة التهديد بالسوط . فاذا كنت ممن يؤمنون ببسيكولوجية مجتمع الرق — اي ان الناس يبقون في الصف جبراً والا ثاروا — عندها لعلك تكون أحد الذين يعتقدون ان القمع الذي مارسه ستالين على الشعب السوفياتي كان بمثابة الحتمية التاريخية . غير انني اعتقد ان مثل هذا الزعم سخيف ، فضلا عن مناقضته لأحد التعاليم الاساسية في العقيدة الماركسية — اللينينية التي تقول بان الشعب هو الذي يصنع التاريخ ، لا اية شخصية قوية مفردة . ان ثورة اكتوبر تحققت بفضل الاستجابة لزعامة لينين التي فرضت نفسها عقلياً ، ولم تنجز تحت وطأة السوط . والناس تبعوا لينين لأنهم آمنوا به ، وليس لأنهم رهبوه . ان لينين قد رفع اماني الشعب وحدها. اما ستالين فقد حاول بالاستئساد على من هم أضعف منه ان يحمل الشعب والحزب على الطاعة .

وقد بدأ ذلك كله ذات مساء في ١٩٣٤ عندما رن جرس الهاتف ، فالتقطته واذا كاغانوفيتش على الطرف الآخر من الخط : « انا اتكلم من المكتب السياسي . تعال إلى هنا فوراً . ان الامر ملح » .

فذهبت رأساً إلى الكرملين . وقابلني كاغانوفيتش وكان الجزع بادياً على وجهه ، فتحفزت مستعداً لكل طارىء . « ما الذي جرى ؟ » سألت نفسي .

وقال كاغانوفيتش : « وقعت مأساة رهيبة. اغتيل كيروف في لينينغراد . سأخبرك كل شيء بالتفصيل فيما بعد . المكتب السياسي يبحث في الأمر الآن . نحن نهيء وفداً للذهاب إلى لينينغراد يقوده ستالين وفورشيلوف ومولوتوف، بالاضافة إلى ستين شخصاً من منظمة الحزب والطبقة العاملة في موسكو . وعليك ان تكون على رأس هؤلاء. وتكون هناك في حرس الشرف ثم ترافق جثة كيروف إلى موسكو » .

فقلت : « حسناً . »

وذهبت فوراً إلى لجنة موسكو فألفت وفداً وغادرت العاصمة إلى لينينغراد في تلك الليلة نفسها . لم اشاهد ستالين وفورشيلوف ومولوتوف . كانوا يسافرون على انفراد في قطار خاص ، وبدا لي ان مدينة لينينغراد كلها في مناحة ، وربما لأنني كنت انقل مشاعري لتتلبس مشاعر الاخرين .

كنا في ظلام دامس عن حقيقة ما جرى . كل ما عرفناه ان قاتل كيروف كان شخصاً يدعى نيقولاييف وهو مطرود من الحزب لاشتراكه في المعارضة التروتسكية – مما يدل على ان التروتسكيين كانوا وراء الأمر كله . شعرنا جميعاً بغضب واستنكار صادقين ضد ما حدث (١) .

لا اذكر كم مكثنا في لينينغراد – يومين او ثلاثة كما اذكر . وتناوبنا حراسة الشرف على الجثمان بينما كان أهل لينينغراد يودعون جثة سيرجي ميرونوفيتش الوداع الاخير . وكنت الاحظ ان كاغانوفيتش كان مضطرباً جداً ، بل كان مذعوراً . ولا استطيع ان اقول كيف كان باقي الزعماء يشعرون ازاء موت كيروف . الا انني راقبت ستالين عن كثب عندما وقفنا في حرس الشرف . كان بادي السيطرة على نفسه ، وكانت تعابير وجهه لا تنم عن شيء . ولم يخطر

---

(١) كان س. م. كيروف ، الذي سبق ذكره في الفصل الثاني ، ستالينياً مخلصاً إلى وقت طويل . وقد بنى لنفسه مركزاً قوياً كرئيس فرع الحزب في لينينغراد ، وهي المسؤولية التي خلف فيها زينوفيف . وبعد ان عاون ستالين على هزم المعارضة تحدى الفكرة القائلة بضرورة اتباع سياسة انتقامية ضدها ، لاسيما اذا نتج عن ذلك تصفيات جسدية . وكان مقرباً جداً إلى ستالين إلى حد انه كان في موسكومركز قوة يؤهله لأن يعبر عما يعتقد . وكان ينظر اليه كزعيم بديل عن ستالين . وقد قتل في مكتبه في لينينغراد في اول كانون الأول ١٩٣٤ على يدي بلشفي سابق ساخط يدعى نيقولاييف طرد من الحزب ، لا كما يقول خروشوف ، لتروتسكيته بل لخلافه مع بيروقراطية الحزب . اقيم لكيروف مأتم رسمي جليل وظهر ستالين عميق التأثر على وفاته . الا ان العديدين اعتقدوا ان ستالين نفسه كان وراء الاغتيال : فالثابت ان نيقولاييف لم يتصرف بتحريض من اي فريق معارض . وفيما بعد ، في ١٩٣٨ ، حوكم رئيس الشرطة ياغودا بتهمة تسهيل اغتيال كيروف ، وفي الخطبة السرية ، ولاحقاً ، لمح خروشوف نفسه إلى ان ستالين هو الذي اوحى بالاغتيال ، وتعهد بفتح تحقيق قضائي كامل . واذا كان ذلك قد حصل ، فلم يعلن عنه . وقد كان مقتل كيروف الشرارة التي اندلع بها التطهير الكبير الذي بدأ في لينينغراد ثم انتشر في ظل عدد من رؤساء المباحث الذين توالوا على هذا المنصب حتى شمل البلاد كلها فسادها الرعب والذعر .

لي ان في ذهنه شيئاً آخر غير موت كيروف .

ان جزءاً من مهمتي كسكرتير لجنة موسكو كان الاشراف على نشاط مكتب المباحث في موسكو . وكان رئيس هذا المكتب الرفيق ريدنز (١) الذي هو شقيق زوجة ستالين ، وبولوني الجنسية . وكان عضواً صالحاً في الحزب منذ ١٩١٤ ، وقد اعدمه ستالين فيما بعد . وعلمت من الرفيق ريدنز ان طريقة عمل المباحث تبدلت جذرياً بعد مصرع كيروف .

قبل جريمة الاغتيال ، كانت « ألتشيكا » نادراً ما تلجأ إلى الاساليب الادارية في التعامل مع الناس ، واعني بالاساليب الادارية ، الاعتقال والمحاكمة . فهذه الاساليب كانت مقتصرة على القضايا الخاصة بنشاطات ذات طابع معاد عداء مفضوحاً للسوفيات (٢) . فكنا نبذل مثلا اقصى الجهود في مواجهة اضرابات العمل في موسكو لا بالقهر والقسر بل بالذهاب إلى المصانع او مهاجع العمال فنشرح لهم اضطرارنا لزيادة كوتا الانتاج حتى نستطيع اللحاق باعدائنا . وكان العمال الذين جرت تعبئتهم من القرى يعيشون في احوال لا تطاق من القذارة يسرح البق في فراشهم ، وتمرح الصراصير في غرفهم ، ويعيشون على اسوأ الطعام ويفتقرون إلى كساء مناسب . وبدا ان تذمرهم تضاعف عندما اعيد النظر ، لمصلحة الدولة ، في اتفاقاتهم الجماعية. فكنا نذهب اليهم ونتحلق معهم شارحين كيف انه احيانا تتقدم مصالح الدولة على مصالح الافراد . وغالباً ما كان العمال يتفهمون الوضع ، ويظهرون استعدادهم لمتابعة العمل حتى ولو زادت معايير الانتاج عشرة او خمسة عشر بالمئة دون اي زيادة في اجورهم .

اما اذا رفض بعض الافراد تكييف انفسهم مع ضرورات الظروف فعندئذ يلجأ الحزب إلى التنديد العلني بهم . الا اننا كنا في معظم الاحيان لا نضطر إلى اتخاذ اجراءات ادارية ضدهم .

---

(١) ريدنز كان خال سفيتلانا بالزواج . وبذل نشاطاً وفيراً في سنوات التطهير ثم اختفى عندما تسلم بيريا مقدرات المباحث في ١٩٣٩ .

(٢) كانت تجري اعتقالات عديدة بمحاكمة او بدون محاكمة ، قبل مصرع كيروف . وكان النشاط «المعادي للسوفيات » هو التعبير العريض المستعمل . الا ان وحدة الحزب كان مفهوماً مقدساً . وبقيت الحال على هذا المنوال حتى مصرع كيروف عندما بات الانحراف في الماضي و الحاضر عن الستالينية المستقيمة يعتبر جرماً ضد الحزب . ان مستشارية الشعب للشؤون الداخلية انشئت في تموز ١٩٣٤ لتحل محل مؤسسة G P U التي انشأها لينين في ١٩٢١ لتحل بدورها محل التشيكا التي انشأها كذلك لينين (انظر الملحق رقم ٢) .

كل هذا تغير فجأة بعد مصرع كيروف . واعلمني ريدنتر انه تلقى تعليمات تقضي « بتطهير » موسكو . وكانت موسكو ، دون ريب ، تحتاج إلى مطهر للامعاء لانها كانت تعاني من حالة عسر هضم سببتها عناصر غير مرغوب فيها وغير ناشطة وطفيلية تعمل على تصيد الارباح . ووضعنا لائحة بالاشخاص الواجب نفيهم من المدينة . ولا اعرف إلى اين ارسل هؤلاء الناس . لم اسأل اطلاقاً عنهم . كنا نتبع دائماً القاعدة التي تقول بان عدم اعلامك بأمر ما يعني انه لا يعنيك : فهو من اختصاص الدولة ، وهكذا يصبح المطلوب ان تعرف اقل ما يمكن . على اي حال كان ترحيل العناصر المجرمة من موسكو المرحلة الاولى من عمليات القمع التي بدأت بعد مصرع كيروف (١) . وسرعان ما بدأ الارهاب السياسي . وكنت اقع احياناً بالصدفة على لمحات من طريقة سيره الداخلي .

وابان محاكمات المعارضة في لينينغراد كان كاغانوفيتش وسيرجو اوردزونيكيدز يحلان في المسؤوليات محل ستالين ومولوتوف اذ تغيبا عن موسكو . وذات مرة ذهبت إلى مكتب اللجنة المركزية لاقابل كاغانوفيتش حول بعض الشؤون الخاصة بادارة المدينة . وعندما علم كاغانوفيتش اني في الخارج طلب مني الدخول إلى مكتبه ، وكان معه سيرجو اوردزونيكيدز ودميان بدني . وكانوا مجتمعين لبحث محاكمة المعارضة وكيفية عرضها على الصحافة . وكانت سلسلة من المقالات تنشر لتهيء الرأي العام للاحكام القاسية المقررة مسبقاً .

واني لم ازل اذكر المشهد جيداً . فقد سأل سيرجو وكاغانوفيتش دميان بدني :

« حسناً ايها الرفيق دميان ، هل كتبت القصيدة التي بامكاننا استخدامها ؟ »

« نعم » قال دميان وأخذ يتلو قصيدته .

وبعد ان انتهى من التلاوة خيم سكون مرتبك . وتكلم كاغانوفيتش اولا : «هذا ليس تماماً ما كان يجول في افكارنا ، ايها الرفيق دميان ». اما سيرجو ذو الطبع الناري فلم يكن يدور حول الموضوع ، بل اخذ يعنف دميان كي ينظم قصيدة أفضل . وكان دميان رجلا سميناً ذا صلعة كاملة . وكان رأسه يبدو مثل خلقين نحاسي كبير . ونظر اليهما بعينيه اللتين تنمان عن طبيعة صالحة وقال : « اخشى انني لا استطيع ان اكتب قصيدة أفضل . حاولت كثيراً . انني لا استطيع ان ارفع يدي ضد المعارضة . لا استطيع ! اشعر بالعقم ازاءها ! »

---

(١) المرحلة الأولى من القمع الذي بدأ بعد مصرع كيروف تتمثل في الواقع بموجة من الاعتقالات السياسية جرت في لينينغراد بالذات ، ولم تكن « للعناصر المجرمة » في موسكو ، حسب تعبير خروشوف ، ادنى علاقة بالقضية .

لا اعرف اذا كان ما كتبه دميان قد نشر على الاطلاق . الا ان الواضح انه لم يكن مقتنعاً بان المعارضين كانوا مجرمين . ولذلك خانه الالهام وعجز عن استيحاء روح الحزب ليطلقها في قصيدته .

أما انا فكان موقفي طبعاً إلى جانب كاغانوفيتش — اي إلى جانب ستالين . لذلك حدقت آنذاك في دميان ممتعضاً . ولكنني الان افهم لماذا كانت لدى دميان شكوكه (١) .

وكان ان سحقت زهرة شباب الحزب في العنف الوحشي الذي انفجرت براكينه بعد ذلك المشهد الذي حضرته في مكتب كاغانوفيتش بقليل . فقضي على العديد من زعماء حزبنا وبلادنا الاصيلين . فأين كان امثال مولوتوف او كاغانوفيتش او فورشيلوف او ماكويان عندما كان زينوفيف وكامنيف وتروتسكي وبوخارين وريكوف يقودون البلاد .

ان التطهير قد شمل تقريباً جميع اعضاء المكتب السياسي ايام لينين . ولنأخذ مثلا زينوفيف وكامنيف اللذين استئصلا كزعيمين للمعارضة : لقد ارتكبا اخطاء إبان الثورة . هذا أمر معروف لدى الجميع . ولكننا جميعاً نعلم ايضاً انهما بعد ان ادركا خطأ اساليبهما ، دعاهما لينين نفسه للعمل في القيادة . وعندما انتقلت الحكومة من لينينغراد إلى موسكو بقي زينوفيف في لينينغراد للاشراف على عاصمتنا الاصلية ، عاصمتنا الثورية التي رفعت راية الانتفاضة في ثورة اكتوبر . اما موسكو فعهد بأمرها لكامنيف . اما الآن ، فها هما في قفص الاتهام كمجرمين ، وعما قريب سنسمع بانهما أعدما كعدوين للشعب !

لقد جرفت تطهيرات ستالين وتصفياته المعارضين في ١٩٣٦ ثم اليمينيين في ١٩٣٨ عندما جيء بريكوف وبوخارين وغيرهما من زعماء الشعب والحزب إلى المحاكمة . ولو أخذنا ريكوف مثلا على هؤلاء القادة ، لوجدناه رجلا يتحلى بالكفاءة في نظر الحزب . فقد رئس مجلس مفوضي الشعب (الوزراء) بعد موت لينين . ومع ذلك اعدم بالرصاص . أما بوخارين ، محبوب لينين المدلل ، فقد وضع « ألف باء الشيوعية » كمدخل إلى الحكمة الماركسية — اللينينية

---

(١) د.بدني شاعر مأجور ، ربما كانت عنده شكوكه في تلك البرهة الا انه عاد فدبج مجموعة من القصائد تقدح بالمتهمين (بما فيهم ضحايا التطهير في الجيش) وتطالب بالعقاب الوحشي .

افاد منه افراد الجيل الاقدم. ومع ذلك، فقد جيء به إلى المحاكمة وجرت تصفيته(١).
وفي تلك المرحلة أخذ الحزب يفقد سلطته ويخضع للمباحث . انني اذكر هذه الحالة في مؤتمر الحزب بموسكو في ١٩٣٧ : فقد كان على جميع المرشحين الذين سموا لعضوية لجان مدينة موسكو واقليمها ان يخضعوا لموافقة المباحث . ولم يعد للجنة المركزية ولا حتى للحزب ككل ان يرفع اعضاءه إلى مناصب اعلى ، بل اصبح للمباحث وحدها الكلمة الحاسمة في تقييم نشاطات اي عضو حزبي وان تقرر هي ما اذا كان بالامكان انتخابه للمراكز العليا ، مما جعلنا نعتقد ان مثل هذا الاجراء يساعد منظمات الحزب المحلية على فضح الاعداء الذين تغلغلوا في منظمات الحزب الحاكم . وانني اذكر بصورة خاصة حادثة حصلت في ١٩٣٧

---

(١) كان ستالين يعد لأول محاكمة استعراضية كبرى وهي التي يشير اليها خروشوف هنا على انها محاكمة معارضي لينينغراد ، وكانت اداته ج . ج . ياغودا ، رئيس المباحث الذي كان اول من دشن نظام العمل الأكراهي السوفياتي . وعرفت رسمياً هذه المحاكمة التي عقدت في آب ١٩٣٦ بمحاكمة مركز الارهاب التروتسكي — الزينوفيفي ، وانتهت باعدام أقرب زملاء لينين ، اي ج . أ. زينوفيف و ل. ب. كامنيف ، مع اربعة عشر آخرين .
وبعد هذه المحاكمة مباشرة اقيل ياغودا على اساس افتقاره للحماسة المطلوبة واستبدل بيزهوف الذي كان في الحقيقة يشكو من مرض نفساني ، والذي سبق لخروشوف انعمل معه في لجنة الحزب بموسكو . وفي عهد يزهوف انعتق التطهير من كل قيد وغدا الارهاب شاملا . وقد قامت المحاكمة الاستعراضية الثانية التي هيأ لها يزهوف في كانون الثاني ١٩٣٧ وعرفت بمحاكمة المركز التروتسكي المضاد للسوفيات . ويكاد خروشوف لا يذكر هذه المحاكمة . وقد كان بين الضحايا الرئيسية ج .ل. بياتاكوف (من الذين كان يرعاهم لينين) الذي طالب ، تحت الضغط ، بعقوبة الموت لزينوفيف ؛ و ج . سوكولنكوف ، عضو مكتب لينين السياسي الأول ، و ك . راديك الصحافي الالمعي ، واربعة عشر آخرين .
أما محاكمة الخيانة الثالثة وأكثرها استعراضية ، فقد حدثت في آذار ١٩٣٨ وهيأ لها ايضاً يزهوف . وكانت هذه محاكمة الكتلة المضادة للسوفيات من اليمينيين والتروتسكيين . وكان هنالك واحد وعشرون متهماً يرئسهم هذه المرة بوخارين نفسه ، وريكوف خليفة لينين في رئاسة وزراء الاتحاد السوفياتي ، وياغودا ، سلف يزهوف كرئيس المباحث . وفي كل هذه المحاكمات وجهت إلى المتهمين تهم التآمر لاغتيال ستالين ، والعمالة للاستخبارات الأجنبية ، وأشياء أخرى غيرها .
وفي صيف ١٩٣٧ ، بين محاكمات ١٩٣٧ و ١٩٣٨ الاستعراضية ، حدثت المحاكمة السرية واعدم زهرة قيادة الجيش الأحمر العليا وعلى رأسها الماريشال توخاشيسكي. وكان قد سبقه الى الاعدام نصف ضباط الجيش . واستمر التطهير في تصاعده =

خلال انعقاد مؤتمر الحزب بموسكو وهي ان مستشاراً من اكاديمية فرونز العسكرية كان في نظر لجنة الحزب في موسكو شيوعياً صالحاً ورفيقاً طيباً . فعندما طرح اسمه على الاقتراع ، كان من الواضح ان اعضاء المؤتمر متحمسون لتأييده ، حتى انهم صفقوا عند ذكر اسمه . ولكن فجأة تلقيت من المباحث رسالة تقول : « ابذلوا كل ما في وسعكم لاسقاط هذا الرجل . انه غير موثوق به وله صلات مع اعداء الشعب وسيعتقل . » وقد اطعنا الأمر وابطلنا ترشيحه ، ولكنها كانت تجربة محزنة لجميع المندوبين . وفي الليلة التالية كان ذلك الرفيق قد اعتقل .
وكانت قضية اميليان ياروسلافسكي شبيهة بها (١) . كان بلشفياً قديماً ووافر الاحترام في الحزب . وكان سكرتير الحزب في لجنة الرقابة المركزية ، مما يعني انه كان يعتبر فوق الشبهات من زاوية حزبية . وسمي مرشحاً في انتخابات لجنة موسكو الاقليمية . وفجأة تلقيت هاتفاً يقول ان ياروسلافسكي يجب اسقاطه . وكان هذا الأمر شديد الوطأة علي شخصياً ، ولكن كان علي ان اطيع . واصدرت الأمر إلى سائر سكرتيريي لجنة الاقليم بشن حملة تحريض بين المندوبين ضد ياروسلافسكي دون ان يسمحوا بوصولها إلى ياروسلافسكي نفسه . ولكن الأمر كان متأخراً . فرغم النشاط الذي بذلناه انتخب باكثرية صوت واحد ، على ما أظن . وبعد المؤتمر كتبت الرفيقة زمليا شكا التي احترمها كثيراً ، رسالة إلى اللجنة المركزية تنحي علي باللائمة ، بوصفي سكرتيراً للجنة مدينة موسكو ، على ما ظهر من قلة احترام اثناء المؤتمر للرفيق ياروسلافسكي .
ومن الطبيعي انني لم اكن استطيع يومها ايضاح حقيقة الأمر لها وانني كنت أنفذ أوامر صدرت لي . ومن الطبيعي ايضاً ان رسالتها لم تترك اي مفعول .

= الجنوني حتى آخر ١٩٣٨ عندما حان وقت تصفية يزهوف نفسه . وقد خلفه لافرينتي بافلوفيش بيريا رئيس المباحث الجورجية الذي كانت مهمته الأولى تصفية القيمين على التطهير . وكان أكبر مجموعة من الضحايا تشتمل على أكثر الستالينيين حماسة في المراكز العليا الذين سبق لهم ان ادلوا بدلوهم في التطهيرات السابقة وكان مصيرهم في التطهير الأخير الاعتقال والتعذيب والرمي بالرصاص دون محاكمة ولا اعلان . وهكذا اختفوا عن المسرح بكل بساطة . وكان خروشوف رئيس منظمة الحزب في موسكو طوال التصفيات الدموية حتى كانون الثاني ١٩٣٨ عندما ذهب إلى اوكرانيا . وقد اختير عضواً في المكتب السياسي والموجة اليزهوفية المحمومة في أوجها .

(١) أ. ياروسلافسكي ذاع صيته السيء كرئيس عصبة متحمسة لانكار وجود الله ، وهم رأس حربة الهجوم البلشفي على الدين .

والنقطة المحورية في هذه الامثلة هي انه طالما لم يعد يحصل ترفيع او نقل في ملاك الحزب الاداري الا وفق توجيهات المباحث ، فان الحزب فقد دوره المرشد . وهذا كان بحد ذاته مشيناً (١) .

كنت اعرف عدداً من ضحايا الارهاب السياسي . وبعضهم أعرفه من ايامي في دونباس . اذكر منهم على سبيل المثال ايفان تراسوفيتش كيرلكن الذي كان مديراً لمناجم روشينكوف في ١٩٢٥ — ١٩٢٦ ، ثم اصبح فيما بعد مديراً لاعمال كيف المعدنية التي كان يتولى ادارتها بجدارة . ثم كان هناك فاسيلي بازولين الذي قام خير قيام بمسؤولية الاشراف على مصنع قرب يوزوفكا . وقد اختفى اثرهما في ١٩٣٧ . وليس بامكان أحد ان يخبرني ماذا حل بأي منهما . ولست اعرف عدد مدراء المصانع والمهندسين الذين قضوا بالطريقة نفسها . ففي تلك الايام كان من السهل التخلص من كل من لا تحب ، والأمر لا يكلف أكثر من تقديم تقرير تشي به انه عدو الشعب ، ويمر تقريرك على منظمة الحزب المحلية التي تلقي نظرة عليه ثم تدق صدرها بغضب اصحاب الفضيلة والتقوى وتأمر بتدبير أمر الرجل .

وعرفت ايضاً تريفاس (٢) وكان اسمه شائعاً جداً في العشرينات كشخصية بارزة في عصبة لينين من الشباب الشيوعي (كومسومول) . كان شخصاً ذكياً ، مقتدراً ، لائقاً . وقد عرفته عبر منظمة الحزب عندما عملنا ، تريفاس وانا معاً ، لمدة ستة اشهر في مقاطعة بومان . وذات مرة انتحى بي كاغانوفيتش جانباً وحذرني من ان على سجل تريفاس السياسي لطخة سوداء . والظاهر انه كان بين ما عرف بعصبة الشباب الثلاثة والتسعين الذين وقعوا مرة بياناً بتأييد تروتسكي . وقد لاقى مصيراً فاجعاً . وعندما اقترح ستالين ان يقوم سكرتيرو اللجان الاقليمية بجولة تفتيشية على سجون التشيكا (البوليس السري) في مناطقهم وجدت خلال جولتي تريفاس في السجن . ولم ينج من مذبحة ١٩٣٧ .

وأحياناً كنتم تسمعون اسم لوموف يذكر على الراديو ، ويقولون لكم كيف ان لينين وجه لوموف أن يعمل كذا وكيت . لكن اين لوموف اليوم ؟ لقد عرفته

(١) ان الحزب البلشفي الاصلي كان في ١٩٣٧ قد تحطم نهائياً ، والذي بقي كان ستالين ورئيس بوليسه في تلك اللحظة ، واقرب المقربين من زملائه ، وكان خروشوف أحدهم .

(٢) كيرلكن ، وبازولين ، وتريفاس كانوا من الضحايا العاديين الذين شاركوا مصير عشرات الألوف من امثالهم .

جيداً . كنت اقابله في اغلب الاحيان عندما كنت أعمل في دونباس بعد الحرب الاهلية . كان مسؤولا عن انتاج الفحم في (اوكرانيا) وكنت اقابله مراراً في مكتبه في خاركوف . وكان احترامه الوافر في الحزب يعود إلى أن له سجلا حزبياً مستمراً منذ ايام العمل السري قبل الثورة . ولكن لا ريب انكم تريدون معرفة مكان لوموف اليوم ؟ الجواب هو انه : اعدم بالرصاص ! ولم يعد لوموف في الوجود (١) . حتى أقرب المقربين إلى ستالين جرفتهم المجزرة . وهاكم مصير اردزونيكيدز (٢) .

كان الرفيق سيرجو ، كما كنا ندعوه ، شخصية شعبية محببة تتمتع باحترام جزيل استحقه عن جدارة من كل الحزب . ان الثلاثي القوقاسي — ستالين وميكويان وسيرجو — كان لا يفترق واحدهم عن الآخر على مدى سنوات . غير انه رغم كون ستالين وسيرجو جورجيين ومن البلاشفة القدماء الا انهما كانا مختلفين تماماً . فسيرجو ، بالرغم من مزاجه البركاني ، كان ذا طبائع فروسية ، ووافر الاحترام لقربه من الناس ، ولانسانيته ، ولحسه المرهف بالعدالة . ولم يكن سيرجو موافقاً ، على الاطلاق ، على المذبحة التي بوشر بها في الحزب . اذكر ، على سبيل المثال ، انه كان يكن للوميناذز (٣) الاحترام الوفير والمحبة ، حتى انه استدعاني ذات مرة وطلب مني بنبرته الجورجية الجلية اذا كان بامكاني التدخل لمصلحة لوميناذز . فقلت له ان ليس بوسعي ان افعل اي شيء لان هذا الاخير كان ناشطاً في معارضته بحيث أعطى للحزب السبب الكافي للتنديد به . الا ان سيرجو ألح علي ببذل كل ما بوسعي لانقاذ لوميناذز . ولكن جهود سيرجو كلها لم تحل دون استمرار اعتقال الناس واتهامهم بعداوة الشعب . ولم يستطع سيرجو احتمال هذا الأمر فاقدم في مطلع ١٩٣٧ على الانتحار . ولم اعرف الحقيقة عن كيفية موته الا بعد انقضاء سنين عديدة . لقد أخفى ستالين

(١) ج . أ . لوموف (اسمه الحقيقي ، ابوكوف) كان عضواً في لجنة الرقابة المنبثقة عن مجلس مفوضي الشعب في الاتحاد السوفياتي . اعتقل واعدم رمياً بالرصاص بناء على اوامر مولوتوف .

(٢) «سيرجو» اوردزونيكيدز كان مقرباً إلى ستالين وتشاجر شخصياً مع سيده . وبعد ذلك مباشرة مات في ظروف لم تزل غامضة . فلم يجر اعدامه بصورة رسمية ، وقد كرم بعد الوفاة . وقال خروشوف في خطبته السرية انه ارغم على الانتحار الا ان احداً لا يدري حتى اليوم تماماً حقيقة ما حدث .

(٣) ف . ف . لوميناذز ، كان من مؤيدي ستالين الأوائل ، ولكنه نظراً لاستقلالية تفكيره اعتبر متآمراً في المحاكمتين الاستعراضيتين الأولى والثانية .

بمهارة كل معالم القضية . والمرة الأولى التي سمعت فيها بموت سيرجو كان عندما استدعاني ابيل سوفرينوفيتش ينوكيدز في يوم عطلتي إلى مكتبه قائلا « ايها الرفيق خروشوف ، احضر حالا إلى مكتبي فالأمر خطير » (١) .

وذهبت رأساً إلى الكرملين وقلت : « ما الحكاية يا ابيل سوفرينوفيتش ؟

فقال : « مات سيرجو » .

— ماذا ؟ لقد رأيته قبل حين !

— مات بصورة مفاجئة جداً . يبدو انك لم تكن تعرف انه كان مريضاً للغاية . ان الحكومة اقامت لجنة لترتيب مأتمه وانت احد اعضائها .

واتخذت كل الاجراءات لاقامة مأتم رسمي مهيب . والقيت باسم لجنة موسكو خطبة الرثاء في المأتم على ضريح لينين . وقد رثيت سيرجو مخلصاً . فقد كان لطيفاً جداً معي وافدت كثيراً من رعايته الابوية لي. لكن لم اعرف انه انتحر الا في الحرب العالمية الثانية . وحصل ذلك وانا على العشاء مع ستالين وبعض الرفاق الآخرين ، وصدف ان اتيت على موضوع سيرجو :

« سيرجو ! كان رجلا بكل معنى الكلمة . ياللخسارة ، كيف مات قبل اوانه » .

وخيم صمت يشوبه ارتباك وأحسست انني قد نطقت بما هو غير مرغوب فيه . فسألت مالنكوف ونحن نغادر العشاء : « ماذا قلت مما لم يجب ان اقوله ؟ »

فقال : «ألا تعرف ؟ » فأجبت : « كلا ؟ » . فقال : « هل تعني انك كنت تظن ان سيرجو مات ميتة طبيعية ؟ ألم تعرف انه قتل نفسه ؟ ان ستالين لن يغفر لك ذلك . ألم تر الارتباك الذي حصل عند ذكرك اسم سيرجو . كانت هفوة فاضحة من قبلك » .

انني واثق بان مالنكوف نفسه لم يكن يعرف ، عند موت سيرجو ، انه مات منتحراً ، اذ لم يكن مقرباً من ستالين بقدر ما كنت انا . الا انه عرف بالأمر بطريقة غير مباشرة .

بعد موت ستالين اخبرني انستاس ايفانوفيتش ماكويان الذي كان مقرباً جداً من سيرجو أن حديثاً جرى بينهما في عشية انتحاره بالذات . وكانا قد خرجا للنزهة معاً حول الكرملين . وهناك اعلم سيرجو رفيقه ماكويان انه لم يعد يطيق

(١) أ. س. ينوكيدز ، جورجي آخر وستاليني ، شأنه شأن كيروف واردزونيكيدز ، اعترض على تفاقم وحشية ستالين . ونظراً لانه جرد من وظائفه واعتبر خارجاً على القانون في ١٩٣٥ ، فانه يصعب التثبت من ان هذه المحادثة قد حصلت على الإطلاق .

الحياة ، وقال انه لا يستطيع احتمال ما يفعله ستالين للحزب وليس في يده من القدرة ما يمكنه من محاربته. وفي اليوم التالي، يوم الاحد ، قتل نفسه . كان الرفيق سيرجو رجلا من انبل الرجال .

ولم يمض وقت طويل على موت سيرجو حتى انزل ستالين ضربته بـ « الحرس القديم » في الجيش الاحمر . لا اذكر كل الجنرالات الذين قتلوا ، الا انني ارغب في ذكر القلائل منهم .

لقد كان لاعتقال توخاشفسكي وقع الصاعقة في سماء زرقاء صافية . كان نائب مفوض الشعب للدفاع وكان شخصية باهرة . ففي سن السادسة والعشرين قاد الجبهة الغربية في الحرب الاهلية ، وقد عهد لينين اليه بعملية الكرنستادت ، فضلا عن العمليات ضد انتونوف وكولشاك . وعندما اعدم توخاشفسكي تعالى نقيق الكثيرين ممن كانوا معه في الحرب الاهلية — من رجال لم يكونوا يرتفعون إلى أعلى من ركبتيه . ثم أخذوا يركلون جثته ، بان ينحوا عليه باللائمة لقصورهم هم في الحرب الاهلية بينما ان الواقع في نظر الخبراء هو ان ما حدث لم يكن ليحدث لو عين توخاشفسكي في أعلى مراكز القيادة . وتبقى الحقيقة وهي ان لينين عهد إلى توخاشفسكي بمهام كان مصير البلاد متوقفاً على انجازها .

لقد عرفت توخاشفسكي معرفة قليلة وكنت اجتمع به عندما كنت أعمل سكرتيراً اول في لجان مدينة موسكو واقليمها ، وكان احياناً يأخذني إلى العراء ليريني سلاحاً جديداً او قطعة جديدة من الادوات الهندسية . كان ذا فهم عميق وتقدير واف للاختراعات العسكرية وانني مقتنع انه لو لم يعدم ، لكان جيشنا أفضل تدريباً وتجهيزاً منه يوم شن هتلر هجومه .

والآن انتقل إلى غامارنيك ، رئيس المديرية السياسية للجيش الأحمر . كان شخصية سياسية خطيرة وجندياً ممتازاً . وكان ان ادى دوراً مهماً في انشاء الجيش الأحمر . يقولون لكم ان غامارنيك لم يعدم . هذا صحيح . لكنه انتحر . لقد توقع اعتقاله . وعندما جاءوا يقرعون بابه وضع المسدس على صدغه واطلق النار . جاء الجلادون ليقتادوه إلى السجن ولكنه قرر تفويت الفرصة عليهم بان انتزع بيديه حياته . كان غامارنيك رجلا نبيلا جداً .

ومن الضحايا يغوروف (١) أحد أعظم قادتنا العسكريين ، قائد الجبهة

(١) المارشال أ. يغوروف اعتقل واعدم رمياً بالرصاص في اواخر فترة تطهير الجيش ، وبعد ان مضت عليه فترة قليلة في خلافة توخاشفسكي في نيابة مفوضية الشعب للدفاع .

الجنوبية في الحرب الاهلية ، وياكير (١) الذي كان صغير السن نسبياً .
ولم يكن قد اشترك لا في الحرب العالمية الاولى ولا في الثورة . لقد دخل
الجندية في الحرب الاهلية عندما انضم إلى كتيبة مؤلفة حديثاً . وفي تلك الايام كنا
مسلحين بكل ما كان يقع تحت ايدينا ، الا ان سلاحنا الاساسي كان كرهنا للنظام
الرأسمالي البورجوازي القديم وولاءنا لطريقة الحياة الاشتراكية الجديدة التي كانت
الحرب الاهلية تخاض في سبيلها . والكتيبة نمت حتى أصبحت فرقة ، ووضع هو
على رأسها . وقد عزل ياكير وقواته عن الجيش الأحمر في الجنوب الا انه تمكن
من كسر الطوق وقيادة فرقته عبر خطوط الحرس الابيض حتى التحق بقواتنا
الرئيسية . وبعد الحرب الاهلية قاد ياكير القوات في اوكرانيا والقرم ثم فجأة
اعتقل واعدم.وكذلك اعدم ايدمن ـ الشاعر والجندي وأحد ابرز قادتنا العسكريين(٢)

والآن اروي لكم عن بلوخر (٣) . ان الصحف غالباً تذكره : منح وسام
الراية الحمراء وكان بروليتارياً ، عاملا ، عسكرياً عصامياً . اكتسب خبرته
الاولى في الحرب العالمية الأولى ثم قاد تشكيلات باكملها في الحرب الاهلية .
وارسل بعد ذلك إلى الصين كقنصلنا لدى تشان كاي شاك . كما انه قاد قواتنا في
المنطقة العسكرية في الشرق الاقصى . وكان موضع ثقتنا كقائد عسكري وكشخصية
سياسية ، سواء بسواء . ولكن اين كان بلوخر عندما كنا بمسيس الحاجة اليه في
الحرب ضد هتلر ؟ كان قد أصبح في عداد الموتى . هل مات ميتة طبيعية ؟ كلا ،
بل اعدم رمياً بالرصاص كعدو للشعب .

اما الآن فهم يرفعون نصباً لبلوخر ، كما هو جدير بهم ان يفعلوا . ولكن
النصب سيروي الحقيقة كاملة عنه ، وان اولئك الناس الذين لا يرغبون في الحقيقة
كلها فسيخجلون . ان اي نصب يرتفع لبلوخر لدليل للشعب على ان الذي حرمنا من
مواهبه في الحرب ضد الالمان لم يمت الموت الطبيعي : بل قتل باليد التي طالما حذر
لينين من الثقة بها .

(١) كان الجنرال ياكير القائد العسكري المسؤول عن مقاطعة كييف العسكرية . وهو والد المؤرخ بيتر ياكير احد قادة الا نتليجنسيا السوفياتية الرافضة اليوم .

(٢) الجنرال ر.ب. ايدمان كان قائداً عسكرياً في الحرب الاهلية . وكان رئيس منظمة الدفاع المدني عندما اعتقل واعدم .

(٣) الماريشال بلوخر كان قائداً لجبهة الشرق الأقصى وربما أكثر قادة الجيش الأحمر اقتداراً . اعتقل في آب ١٩٣٨ واستجوبه بيريا شخصياً وكان قد خلف يزهوف .

في السنوات الاخيرة شاهدت فيلم « السيل الحديدي » مراراً . وكان
كل مرة يترك في نفسي اثراً عميقاً . ان « السيل الحديدي » وضع ككتاب ايضاً .
انه الكتاب الاول الذي قرأته عن الحرب الاهلية . وقد وضعه المؤلف الموهوب
سيرافيموفيتش ثم اخرج على الشاشة اخيراً . وكلما شاهدت هذا الفيلم تطاردني
فكرة : « اين شاهدت هذا الجنرال الشجاع المقتدر الذي يقود جيش تامان ؟ »
في الفيلم وفي الكتاب يدعى كوزوخ ولكن اسمه الحقيقي هو كوفتيوخ (١) .
انه الرجل الذي اظهر تألقاً ومهارة وشجاعة عندما فك حصار البيض وقاد
جيش تامان عبر خطوط الاعداء . وكل من شاهد هذا الجنرال اثناء العمل لم
يتمالك من امتداحه . لعلكم ستسألون اين هو الآن ؟ ماذا دهاه ؟ ماذا فعل ابان
الحرب ضد هتلر ؟ كوفتيوخ كان قد مات عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية .
لقد اعتقل مع اعداء الشعب وأعدم .

كنت على صلة حميمة مع ايفان نوموفيتش ديبوفوى(٢) الذي تحدر من عائلة
بروليتارية . وكان والده عاملا في منجم في الدون . وقد انهى ديبوفوى دورة
مدرسة الضباط خلال الحرب العالمية الأولى . وعندما اندلعت الحرب الاهلية
عين نائب قائد فرقة كان يقودها شكورز . وكنت التقي فيما بعد بديبوفوى في
مؤتمرات الحزب الشيوعي الاوكراني . وبت على معرفة وثيقة به في ١٩٢٨ ــ ١٩٢٩
عندما كنت ادير الفرع التنظيمي من لجنة كييف الاقليمية .

وكان ديبوفوى يقود مقاطعة كييف العسكرية . وكنا نذهب معاً لتفتيش
القوات . وكم كان سروري كبيراً ان يكون عندنا قادة من امثاله في الجيش
الأحمر : رجال وقفوا انفسهم روحاً وجسداً على الثورة ، وعلى السلطة السوفياتية ،
وعلى الاشتراكية .

وعندما تم التشهير باعداء الشعب ، وزع ستالين شهادات توخاشفسكي وياكير
والباقين على اعضاء المكتب السياسي . وبين هذه الشهادات كان اعتراف مكتوب
بخط يد ايفان نوموفيتش ديبوفوى ، جاء فيه أنه هو الذي قتل القائد شكورز ابان
الحرب الاهلية . وهاكم ما قاله في اعترافه المزعوم : « شكورز وانا كنا نلتحف
الثرى ونحن نرقب المعركة . وفجأة فتح رشاش العدو ناره باتجاهنا . وانتشر
الرصاص حولنا . وكان شكورز امامي . فادار رأسه وقال لي : « فانيا ، فانيا ،
ن لدى البيض رشاشاً صالحاً . انظر كم تصويبه دقيق. » وبعد دقائق قلائل استدار

(١) الجنرال كوفتيوخ ، اعدم رمياً بالرصاص في تموز ١٩٣٨ .

(٢) ا.ن. ديبو فوي ، قائد عسكري آخر اعدم رمياً بالرصاص في تموز ١٩٣٨ .

ثانية وأخذ يقول شيئاً آخر . عندها قتلته . اطلقت النار على رأسه. قتلته لاحل محله كقائد للفرقة » .

انكم تستطيعون تقدير مدى اشمئزازي عندما قرأت هذا الاعتراف لأول مرة . كنت دوماً أكن الاحترام لديبوفوى وفجأة اكتشفت انه قد ارتكب جرماً بهذه البشاعة . وأخذت اعنف نفسي على اغضائي طوال هذه المدة عن طبائع هذا الشخص وكيف انني لم اعرف انه قاتل شكورز .

ولكن عند انعقاد المؤتمر العشرين في ١٩٥٦ — حين فتحنا المحفوظات وبحثنا في ملفات جميع من اتهموا بانهم اعداء الشعب وقتلوا رمياً بالرصاص او شنقاً ، وجدت ان شهادة ديبوفوى كانت عبارة عن اكذوبة ملفقة . وهكذا خدعت للمرة الثانية . كانت الأولى عندما بدد اعترافه المزعوم احترامي له كرجل شريف والثانية عندما خدعني قاتله الحقيقي : ستالين نفسه .

في الثلاثينات كان هتلر يهيء هجومه ويبذل جهوده لتقويض قيادتنا العسكرية . وقمنا نحن بتقديم اجزل عون له اذ حطمنا زهرة جهازنا التنفيذي وقيادة حزبنا والانتليجنسيا العلمية . ووصل حمام الدم إلى نوبة مسعورة حمراء في ١٩٣٦ . ولم تكن محض صدفة ان ١٩٣٧ كانت السنة الأولى التي لم ننجز فيها خطتنا الصناعية . وكان لا بد من أخذ هذا كله بعين الاعتبار عند قيامنا بتحليل موضوعي لبداية الحرب . ولكن سنوات مضت قبل ان يرفع احد الحجب عن هذه الحقائق . وقد اعتبر لأمد طويل ان استئصال المحاربين القدماء في الجيش مكرمة تسجل للمسؤولين عنها ، بدل ان تكون جريمة من المفروض معاقبتهم عليها . ومن دفع ثمن هذه الجريمة ؟ الجيش ، الشعب ، البلاد باجمعها دفعت ثمن ذلك .

بالامكان وضع كتاب كامل يشتمل على اسماء القادة الرئيسيين في الجيش والحزب والادارة والديبلوماسية، وجميعهم رجال المدرسة اللينينية الذين كانوا ضحايا ستالين الاوائل. لينينيون مخلصون، شرفاء وقفوا انفسهم على قضية الثورة . كانوا الأوائل الذين ذهبوا عندما فرض ستالين حكمه التعسفي على الحزب .

ان معظم الجنرالات الذين قضوا على يدي ستالين قد استعادوا اعتبارهم في المؤتمر العشرين للحزب . غير ان ذكرهم اخذ يخمد في الآونة الاخيرة . ان جميع الذين قضوا لا يجوز الاقتصار على اعادة اعتبارهم ، بل يجب تقديمهم للشعب كشهداء الارهاب الذي شنه ستالين تحت شعار الكفاح ضد اعداء الشعب .

لماذا ارتكب ستالين هذه الجرائم ؟ هل خدع ؟ واذا كان قد خدع فبواسطة من ؟ وكم دفعنا من الارواح ثمن خديعته تلك ؟

بيريا يرتفع الى سدة السلطان

في هذا القسم ينتقل خروشوف من الايام الأولى لتعيينه في اوكرانيا في مطلع ١٩٣٨ ، إلى موسكو في ظل التطهير الكبير ، ويعود ثانية إلى كييف .

عند تعيين خروشوف سكرتيراً اول في اوكرانيا كان التفكير السائد ان التطهير في اوكرانيا ربما قد انجز . وليس هذا بعيداً عن الطريقة التي يرغب خروشوف ان يرى الأمور بمنظارها وهو يستعيد الماضي . اما الحقيقة فهي ان من اول اعماله في كييف كان قيادة حملة تطهير من صنع يديه . ولم يأت صيف ١٩٣٨ الا وكان الباقون من اللجنة المركزية ثلاثة فقط من اصل ٦ كانوا في العام الذي سبق . وكان خروشوف يبني جهازاً حزبياً جديداً ، وحكومة جديدة ، على صورته ومثاله . « انني اتعهد بان لا اوفر جهداً لاعتقال وافناء جميع عملاء الفاشية والتروتسكيين والبوخارنيين وجميع الا خساء من القوميين البورجوازيين على الأرض الاوكرانية» . هذا ما اعلنه في ايار ١٩٣٨ .

وفي وقت لاحق من ذلك الصيف حملت صحيفة الحزب الاوكراني الاطراء التالي : « ان عملية الاستئصال التي لا ترحم ضد اعداء الشعب — ضد التروتسكيين والبوخارنيين والبورجوازيين القوميين وجميع القاذورات والجواسيس — لم تبدأ الا بعد ان ارسلت قيادة الحزب الشيوعي للاتحاد كله ، الرجل البلشفي والستاليني الحازم نيكيتا سيرجيفيتش خروشوف إلى اوكرانيا لقيادة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاوكراني » . كان هذا مبالغة مفضوحة . ولكن هكذا كان خروشوف يرغب في ان يعتبر في ذلك الزمن . وعلينا ان نذكر ذلك عندما نتأمل في نقده القاسي لستالين بصورة عامة ، وبصورة خاصة الآن عندما يعمد إلى سرد صعود نجم لا فرنيتي بافلوفيتش بيريا ، رئيس الأمن العام ، الجورجي السيء الصيت الذي كانت له سيطرة شديدة في كنف ستالين .

عرض علي ستالين ، في وقت مبكر من سنة ١٩٣٨ وظيفة السكرتير الأول للجنة المركزية الاوكرانية . وقال بان كوسيور لا يقوم بالعمل على ما يرام. ذهبت إلى كييف واستلمت من كوسيور(١) الذي استدعي إلى موسكو وعين نائب

---

(١) س. ف. كوسيور كان سكرتيراً اول للحزب في اوكرانيا منذ ١٩٢٨. ورغم انه في الأصل ستاليني الا انه لم يكن بعيداً ، كالعديد سواه من قادة الحزب الاوكراني ، عن المشاعر القومية الاوكرانية الرافضة سيطرة موسكو المطلقة والجاهدة لمقاومتها . واشتمل ذلك على محاولة يائسة لتخفيف آثار التطهير الكبير. وفي ١٩٣٧ اعتقل =

رئيس مجلس مفوضي الشعب (الوزراء) الذي كان يرئسه مولوتوف . وكان مولوتوف بنفسه قد عرض اول الامر هذا المركز علي ، ثم ابان احدى زياراتي إلى موسكو للمشاورات ، انتحى ستالين بي جانباً وقال : « يلح مولوتوف على ان تكون نائبه واعتقد انه يجب تلبية طلبه ، ما رأيك ؟ » فاعترضت بشدة نظراً لانني لم اكن قد استقريت في كييف من زمن بعيد . وكان الناس قد ارتضوا بي وشرعت ببناء تنظيم حزبي قوي في اوكرانيا . وأهم من هذا كله ، كان جلياً باننا متجهون نحو الحرب ، فلو جيء بمسؤول جديد إلى اوكرانيا في ذلك الوقت المتأخر فقد يتورط بمتاعب عندما يندلع القتال . واقنعت ستالين انه لن يكون في مصلحة القضية نقلي من كييف بعد ان توطد مركزي هناك ، بينما بالامكان وبيسر ايجاد نائب آخر لمولوتوف في موسكو . ووافق ستالين قائلا : «هذا ينهي البحث ، خروشوف يبقى في اوكرانيا .» (١) .

احياناً كان ستالين اذا اقتنع بوجهة نظر مخالفة لرأيه يتراجع عن موقفه . وان يتحلى الزعيم بالمرونة والتعقل لميزة ، دون ريب ، ايجابية . غير ان ذلك كان ، لسوء الحظ فضيلة نادرة عند ستالين .

فعندما كان ستالين يقرر ان عليك القيام بعمل ما ، سواء اكان ذلك العمل طابعه الذكاء او البلاهة او غايته الاعانة او الايذاء ، كان يرغمك على القيام به . وعلى اي حال ، هكذا تم بقائي في اوكرانيا .

الا انني قبل ان اسرد قصة السنوات التي قضيتها كسكرتير اول للحزب الشيوعي الاوكراني ، لا بد لي من التحدث عن بعض التطورات المهمة في موسكو والتي بدأت قبل نقلي إلى كييف واستمرت بعد مغادرتي للعاصمة . اني ارغب في ايضاح قصة نمو دور لافرنتي بيريا في الحزب .

ورغبة مني في تحليل كيفية استلام بيريا مركز نفوذ كهذا لا بد لي من العودة إلى تلك الفترة التي كانت فيها حملة التصفيات في أوجها . فقبل التشهير بجماعة توخاشفسكي بستة اشهر اعلن ستالين ان مفوض الشعب للشؤون الداخلية ، ياغودا ، لم يكن يقوم بمهام عمله خير قيام ولا بد من استبداله . وكنا في تلك الايام

= سكرتيره الثاني بوستيشيف الذي كان يتأثر بتفكيره . وفي مطلع ١٩٣٨ نقل كوسيور من السكرتيرية الأولى واستدعي إلى موسكو حيث عين نائباً اول لمولوتوف رئيس الوزراء . الا انه سرعان ما اعتقل (حسب خطبة خروشوف السرية) ، وفي شباط ١٩٣٩ حكم عليه بالاعدام .

(١) ان قصة عرض نيابة رئاسة مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي على خروشوف لجديدة .

لم نزل نحتفظ بثقة مطلقة بستالين . فأخذنا نلوم انفسنا لعماوة غشيت ابصارنا ، فما تبينا وجود الاعداء من حولنا . وظننا اننا نفتقر إلى فهم ستالين العميق للصراع السياسي . وكنا على هذا الاساس غير قادرين على كشف الاعداء في وسطنا بالطريقة التي اظهر ستالين قدرته فيها .

وسمي ستالين يزهوف ليخلف ياغودا(١).وكان يزهوف مسؤولا عن الجهاز الشخصي في اللجنة المركزية . وكان مالنكوف نائبه الأول ، وحل محله عندما نقل يزهوف إلى المباحث. الا ان يزهوف احتفظ باقدميته على مالنكوف بحيث يفسر لنا ذلك كيف وقعت مسؤولية الاشراف على الجهاز الشخصي للجنة المركزية تحت سيطرة المباحث . لقد احببت دوماً ياغودا ولم اكن اجد فيه شخصياً ، اي تصرف مضاد للحزب . ولم استطع فهم تعليل ستالين الظاهري لاستبدال ياغودا ولا دوافعه الخفية. ومن ناحية ثانية لم تكن لدي اية اعتراضات على يزهوف (٢). فقد كان مجتهداً واهلا لتحمل المسؤولية ، وقد عرفت انه كان عاملا في بطرسبرج وعضواً حزبياً منذ ١٩١٨ ، وكان هذا لمصلحته دون ريب . ثم كان مشرفاً علي بعد انتخابي سكرتيراً لمنظمة الحزب في الاكاديمية الصناعية نظراً لوقوع الاكاديمية تحت سلطة قسم الجهاز الشخصي للجنة المركزية . فكان هذا الجهاز يعينني على تعبئة الطلاب للعمل في مشروع او حملة سياسية. وكنت غالباً ارفع تقاريري إلى يزهوف .

واضحت عمليات القمع اسوأ من قبل بعد ان استلم يزهوف في ١٩٣٦ المسؤولية الأولى في المباحث . بدأ ما يمكن وصفه حرفياً بالمجزرة، وسقطت جماعات كبيرة من الشعب تحت سكين المسلخ .

وبعد حين قال ستالين ان يزهوف بحاجة إلى مساعدة ولا بد من تعيين نائب له . وسأل يزهوف من عساه يكون نائبه ؟ فاقترح يزهوف مالنكوف نظراً لان هذا

---

(١) هذه كانت المناسبة التي ارسل فيها ستالين وجدانوف برقيتهما المشهورة في ٢٥ ايلول ١٩٣٦ وهما في عطلة في سوشي على البحر الاسود موجهة إلى كاغانوفيتش ومولوتوف و « الاعضاء الآخرين في المكتب السياسي » وفيها يقترحون استبدال ياغودا بيزهوف لأنه تخلف اربع سنوات عن « فضح الكتلة التروتسكية الزينوفيفية» وكانت تلك هي الاشارة بمضاعفة الارهاب .

(٢) من المفيد ان نلاحظ كيف ان خروشوف قد وجد في رؤساء المباحث رجالا ودودين وشرفاء . وان شهرة ياغودا الرئيسية بدأت ، فضلا عن تدبيره محاكمات الخيانة الأولى الكبرى (زينوفيف وكامنيف وصحبهم) بادخاله نظام العمل الاكراهي المنظم في بناء قناة البحر الابيض .

الاخير سبق له ان كان نائبه في الجهاز الشخصي في اللجنة المركزية . واعتقد ان مشاورات عديدة دارت حول هذا الموضوع ، الا انه لم يقرر بصورة نهائية الا عندما قال ستالين ذات يوم : « كلا ، يبدو انه من الافضل عدم تعيين مالنكوف ثانية نائباً لك . من الافضل تركه وشأنه حيث هو في سكرتيرية اللجنة المركزية » (١)

واقترح ستالين بالنتيجة ان يعين يزهوف بيريا نائباً له . وكان عدم رضى ستالين على يزهوف في ذلك الحين قد اصبح ظاهراً للعيان . فقد انطوت تلك الايام التي كانت ترفع فيها اللافتات في المظاهرات وقد رسم عليها القفاز الواقي ؛ ولم يعد ستالين يسمي يزهوف « قبضتنا الحديدية » و « شوك عليقنا » .

وعندما عين ستالين بيريا نائباً ليزهوف كان واضحاً ان نقل يزهوف بات وشيكاً . وقد فهم يزهوف نفسه الأمر على حقيقته . ولعله احس ان ، لا عمله فحسب ، بل حياته كانت على وشك التصفية . وقال لستالين : « ان الرفيق بيريا لشخص جدير ، دون ريب ، بكل ثقة . وفي الواقع بامكانه ان يحتل لا منصب نائب مفوض بل منصب مفوض الشعب بكل اهلية » .

« اشك في هذا » ، قال ستالين « ولكنه يستطيع ان يكون نائباً صالحاً لمفوض » .

وهكذا اصبح بيريا نائباً ليزهوف (٢) . ونظراً لأنني كنت يومها على علاقات طيبة مع بيريا فقد ذهبت اليه بعد الاجتماع وبادرته بين مازح وجاد بالتهنئة على منصبه الجديد .

« انني لا أقبل تهانيك » قال لي .

« لماذا لا ؟ »

« انت لم تقبل بتعيينك نائباً لمولوتوف، فلماذا علي ان اكون فرحاً بتعييني انا نائباً ليزهوف ؟ كان الأفضل لي البقاء في جورجيا » .

واعتقد ان بيريا كان على الارجح ، صادقاً في قوله هذا . ولكن على اي حال ، فقد تم نقله من جورجيا إلى مكاتب المباحث المركزية في موسكو .

في البدء ظهرت نشاطاته وكأنها تبشر بالامل . فلطالما قال لي بيريا خلال زياراتي إلى موسكو : « ماذا يجري هنا ؟ اننا نعتقل الناس شمالا ويميناً ، حتى

(١) ان قرن اسمي مالنكوف ويزهوف متعمد لتلطيخ اسم مالنكوف . لقد كان الرجلان على صلة حميمة في الواقع . فمالنكوف كان في الجهاز الشخصي في اللجنة المركزية ، وكان يسلم رفاقه في الحزب إلى يزهوف للتصفية .

(٢) عين بيريا نائباً ليزهوف في تموز ١٩٣٨ .

سكريتيريي اللجان الاقليمية . ان هذه القضية برمتها قد جاوزت الحد . وعلينا ايقافها قبل فوات الأوان » .

وخلال ذلك كان مركز يزهوف يزداد حرجاً . وحصلت حادثة تتعلق بيوسبنسكي (١) مفوض الداخلية في اوكرانيا كانت بمثابة الانذار بسقوط يزهوف .

فقد اتصل بي ستالين هاتفياً إلى كييف وقال : « تجمعت دلائل ضد يوسبنسكي لا تدع مجالا للشك في جرمه . فهل تتولون اعتقاله ؟ » .

« بكل تأكيد اذا كانت هذه هي اوامركم » .

« اذن اعتقلوه » .

وبدا للوهلة الأولى وكأنما ستالين يتحدث على الهاتف عن يوسنكو وليس عن يوسبنسكي . اذ كان في كييف فعلا رجل اسمه يوسنكو من عصبة الشباب ، صدف ان دلائل قد تجمعت ضده هو الآخر . ولكن عندما بدأ ستالين يسرد تفاصيل القضية ، ادركت انه يتكلم عن يوسبنسكي المفوض الاوكراني للشؤون الداخلية . وبعد لحظات على انتهاء المخابرة عاد ستالين فطلبني ثانية وقال : « انس كل ما قلته لك عن يوسبنسكي. نحن سندبر الامر. سنستدعيه إلى موسكو ونعتقله في الطريق » .

وكان قد سبق لي ان عزمت على القيـــام برحلة إلى دنيبروبترفسك ، فرحلت قبل ان يستدعى يوسبنسكي إلى موسكو . ولكن حساً داخلياً ساورني ان يوسبنسكي لن يذهب إلى موسكو . فقد يكون فطن إلى ان استدعاءه ينذر بخطر يتهدده ، لذلك ، وبينما انا على وشك مغادرة كييف قلت لكوروتشنكو (٢)،

(١) كان أ. ل. يوسبنسكي رئيس المباحث الاوكرانية ، رجل يزهوف الذي قام بالتصفيات في اوكرانيا برعاية خروشوف . وقال في حزيران ١٩٣٨ « انا اعتبر نفسي تلميذ نيقولاي ايفانوفيتش يزهوف » . وقال ايضاً « ان تمزيق اعداء الشعب في اوكرانيا لم يبدأ الا بعد وصول الستاليني المخلص نيكيتا سيرجيفيتش خروشوف ». وبعد هذا الاعلان باسابيع اختفى كل اثر ليوسبنسكي . وان ما يرويه خروشوف هنا عن نهايته هو بمثابة الخبر الذي يروى لأول مرة .

(٢) د. س. كوروتشنكو لم يكن اوكرانياً على الاطلاق . كان من مواليد كروتشينكوف وعمل في لجنة الحزب بموسكو بقيادة خروشوف وارسل إلى سمولنسك في روسيا البيضاء في اوج التطهير حيث تميز بالافراط في قسوته . وقد اصطحبه خروشوف معه إلى اوكرانيا في ١٩٣٨ وأخذ يصعد إلى قمم عالية في ظل سيده الجديد حتى وصل إلى عضوية سكرتيرية اللجنة المركزية .

الذي كان رئيس مجلس مفوضي الشعب في اوكرانيا : « راقب يوسبنسكي جيداً في فترة غيابي » .

وفي الصباح التالي ، عند وصولي إلى دنيبروتبرفسك ، تلقيت مخـــابرة من بيريا — لاحظ انها كان من بيريا لا من يزهوف — يقول : « بينما كنت انت مسافراً في الريف ، هرب يوسبنسكي . »

« ماذا ؟ »

« هذا ما حصل ، لقد هرب » .

فعدت إلى كييف ، فوجدت ان يوسبنسكي قد رحل مخلفاً رسالة يقول فيها انه سينتحر بالقاء نفسه في الدنيبر . ولكننا بحثنا عنه بشبكات صيد الاسماك وبواسطة الغواصين ، ولكن عبثاً ، اذ لم يكن من اثر له في النهر . فكأنه اختفى في الفضاء . ولكن فيما بعد اعتقل في فورونيز على ما اعتقد ، وقتل رمياً بالرصاص .

وعندما ذهبت إلى موسكو بعد ذلك بقليل أخبرني ستالين بان الظاهر ان يزهوف قد حذر يوسبنسكي مما ينتظره : « لقد استرق يزهوف السمع بينما كنا نتحادث ». وبدل ان يأمر يوسبنسكي بالتوجه إلى موسكو كما كان مطلوباً منه ، حذره من انه سيعتقل في الطريق » .

وهكذا كان ستالين قد توصل إلى تكوين اقتناعه عن ان يزهوف هو عدو الشعب ولا يمكن الركون اليه . وسرعان ما اعتقل يزهوف وحل بيريا محله ، وبدأ بيريا فوراً بتثبيت قدميه . وكان ان ارسل كابولوف إلى اوكرانيا مفوضاً للشؤون الداخلية ليخلف يوسبنسكي الذي سقط . وكان المفوض الجديد في اوكرانيا شقيق كابولوف نائب بيريا في المباحث والذي سبق له ان عمل معه في جورجيا (١) .

وجرت حملة اعتقالات واسعة شملت جميع الذين كانوا على صلة بيزهوف . وانعقدت غيمة دكناء حول رأس مالنكوف باعتبار ان يزهوف كان قد اقترحه ليكون نائبه ، فضلا عن ان الشائع ان مالنكوف كان صديق يزهوف . وكنت انا بدوري صديق مالنكوف وعملت معه سنوات عديدة في لجنة موسكو . وقد وصلت إلى استنتاجاتي الخاصة بهذا الصدد بعد حصول الحادثة التالية : ذات يوم وصلت إلى موسكو من كييف فدعاني بيريا إلى مسكنه الريفي الخاص . فذهبنا إلى هناك ثم تمشينا في الغابات . وبدأ بيريا الحديث :

« اسمع ، ما رأيك بمالنكوف ؟ »

---

(١) ليس من معلومات وافية عن كابولوف هذا الذي لم يستمر طويلا في عمله . وسرعان ما خلفه أ.أ. سيروف صاحب الصيت السيء (انظر الفصل الربع) .

« ما عسى ان يكون رأيي ؟ »

« اعني بعد اعتقال يزهوف » .

« ما علاقة هذا بالامر . فاذا كان مالنكوف ويزهوف صديقين فانت كذلك كنت صديق مالنكوف وانا بدوري صديقه . اعتقد ان مالنكوف شخص صادق وفوق الشبهات » .

« هذا خارج الموضوع . انت لم تزل صديقاً لمالنكوف . اسمع ، فكر بالموضوع أكثر . ادعوك فقط للتفكير به » .

وبعد التفكير بالأمر ثانية وجدت ان لا غضاضة في استمرار صداقتي مع مالنكوف . فكنت حين اعود إلى موسكو ، غالباً ما اقضي في مسكنه الريفي ايام عطلتي . اعتقد ان ستالين هو الذي اراد تحذيري عبر بيريا من مالنكوف . غير ان الكأس عبرت عن مالنكوف وأصبح فيما بعد هو وبيريا صديقين حميمين .

في مطلع ١٩٣٩ ، في شباط ، دعيت اللجنة المركزية إلى اجتماع موسع لبحث قرار يدين الافراط واستغلال السلطة الذي مارسته المباحث . وكان ان عزي تباطؤ الارهاب وانفراجه بعد ان سيطر ثلاث سنوات إلى نفوذ بيريا بصورة رئيسية . واخذ الناس يستنتجون بان بيريا قام بتحقيقات حول تصرفات المباحث بعد ان استلم المفوضية ثم اقنع ستالين بالموافقة على مجموعة من التوصيات . على اي حال ، فقد حصلت حوادث في اجتماع اللجنة المركزية في شباط ١٩٣٩ اشارت إلى ان الارهاب لم تنطو صفحته باية صورة من الصور — كل ما في الامر انه اصبح اكثر فطنة وتمييزاً .

وتميز اجتماع شباط بالنقد الذاتي . فقد كان لدى كل عضو ما يقوله عن العضو الآخر . وكان الشخص الوحيد من بين افراد قيادة الحزب الذي بدا انه نجا من النقد هو شخصي انا : خروشوف . ولكن فجأة وجه ياكوفليف (الذي كان اسمه الحقيقي ياكوف اركاديفيتش أبستين) اتهاماً غير اعتيادي ومبتكراً ضدي . فقد انتقدني لان كل فرد من افراد منظمة موسكو الحزبية يدعوني بنيكيتا سيرجيفتش . هذا كل ما قاله . فطلبت الكلام واجبته بان ما يقوله صحيح فرفاقي يدعونني باسمي الاول واسم ابي ، ثم لمحت إلى ان اسمه هو ليس ياكوفليف بل ابستين . وبعد الجلسة انتحى بي جانباً مخليس الذي كان لم يزل يدير « البرافدا » وابدى استياءه من خطبة ياكوفليف . ورغم ان مخليس كان يهودياً فقد قال لي ان ياكوفليف يهودي ولا يفهم ان بين الروس من لا يجد

غرابة في ان يدعى الناس باسمائهم واسماء ابائهم » (١) .

وبعد جلسة استغرقت سحابة النهار انصرف الجميع إلى تناول العشاء ، وتخلفت لحظة عن المنصرفين . وما ان نهضت لانصرف حتى ناداني ستالين قائلا :

« خروشوف إلى اين تذهب » ؟

« انني ذاهب للعشاء » .

« تعال ، فسنأكل معاً » .

وتساءلت لنفسي : « لماذا يدعوني إلى تناول العشاء معه ؟ » وبينما كنا نغادر المكان ، تبع ياكوف اركاديفيتش ياكوفليف ستالين إلى شقته دون دعوة . فجلسنا ثلاثتنا نتناول الطعام معاً . وكان ستالين يتولى معظم الحديث . اما ابستين — ياكوفليف فكان بادي الاضطراب كأنه يعاني تمزقاً داخلياً . كان يعيش في قلق الاعتقاد. ولم يكن مخطئاً في حدسه ، فبعد حديث ستالين الودي معه على العشاء بوقت قليل اعتقل وجرت تصفيته . انني اروي هذه القصة لابين كيف ان أحد المقربين من ستالين كياكوفليف الذي كانمدير القسم الزراعي للجنة المركزية واحد اوثق مؤيديه ابان الصراع ضد المعارضة — وجد نفسه فجأة يسير على خيط متأرجح في الهواء . ان الحادثة نموذج صارخ على طبيعة الخيانة والغدر عند ستالين .

ودلت حادثة ثانية وقعت في اجتماع شباط ان بيريا رغم مبادرته إلى التحقيق في اساءة استعمال المباحث للسلطة وافراطاتها الا انه كان ذا قدرة فائقة هو شخصياً على ارتكاب الخيانة . فابان انعقاد الاجتماع الموسع للجنة المركزية القى غريشة (غريغوري) كامنسكي خطبة . وكان كامنسكي مفوضاً للصحة في روسيا الاتحادية ورفيقاً وافر الاحترام وذا خبرة حزبية تعود إلى ما قبل الثورة . وكنت قد تعرفت اليه في بداية عملي في منظمة موسكو . وكان رجلا مستقيماً ، بالغ الاخلاص والاستقامة . واني استطيع القول ان مسلكيته الحزبية كانت دوماً فوق الشبهات والمطاعن . وهاكم ما قاله في خطبته امام اللجنة المركزية :

« ايها الرفاق ، ان كلا منكم يلقي كلمة يقول فيها ما يعرفه عن الآخرين . وانا ايضاً عندي ما اقوله لمعلومات الحزب . عندما كنت اعمل في باكو ، انتشرت شائعات مفادها انه ابان احتلال القوات الانكليزية لباكو عمل بيريا لمصلحة الاستخبارات المضادة في خدمة حكومة موسافات. وبما ان هذه الاستخبارات كانت تحت سيطرة الانكليز ، فقد قيل بان بيريا لا بد ان يكون عميلا للاستخبارات

(١) ي. أ. ياكوفليف شغل مسؤولية مستشارية الشعب للزراعة (انظر الفصل الثاني) .

الانكليزية بواسطة الموسفاطيين » (١) .

وانهى كامنسكي خطبته وجلس . ولم ينهض احد للرد عليه او للايضاح ، حتى بيريا نفسه لم يدل بأي تعليق ، ولكن بعد الجلسة مباشرة اعتقل كامنسكي واختفى دون اثر . وقد كانت هذه القضية مصدر عذاب دائم لي ، لانني كنت اثق بكامنسكي وكنت اعرف انه لا يلفق خبراً كهذا ، اذ انه معروف بقول الحق دوماً (٢) . واني اذكر ايضاً خطبة مالنكوف . فقد انتقد كلا من سكرتير مكتب آسيا الوسطى وبيريا بسبب الاعتداد بالنفس والتمجيد الذاتي . وقال مالنكوف ان بعض متسلقي الجبال غزوا إحدى أعلى قمم آسيا الوسطى ثم اطلقوا عليها اسم سكرتير الحزب . وقد اعتقل الرجل فيما بعد . وبيريا كذلك اتهم بالتمجيد الذاتي . وكانت ثمة اسباب عديدة لانتقاده في هذا الصدد .

في ختام الاجتماع الموسع اصدرت اللجنة المركزية قراراً ادان افراطات المباحث . وقد اعطانا هذا بعض الرجاء بانه سيوضع حد للحكم التعسفي الذي سيطر على الحزب . فلمدة تزيد على الثلاث سنوات لم يكن المرء ليطمئن ، بين اللحظة والاخرى، الى ما اذا كان سيستمر على قيد الحياة ام سيتلاشى كالغبار المنثور في الهواء . وقد قوض هذا الخوف المصحوب بالقلق معنويات الحزب . فبعد اجتماع شباط الموسع اخضع التطهير لضوابط ولكن القمع لم يتوقف كلياً ، اذ استمر اختفاء الناس وضياع آثارهم إلى الابد ، كأنما انشق الجليد من تحتهم وابتلعهم .

وكنا انا وبيريا ، غالباً ما نلتقي عند ستالين (٣) . في البداية اعجبني . وكانت تجري بيننا احاديث ودية بل كنا نتمازح مراراً . غير انني بدأت تدريجياً تبين ملامحه السياسية . وهزني فيه رياء شرير متعمد يلبس لكل حالة لبوسها . وسرعان ما اتخذ الجو في القيادة الجماعية وفي حلقة ستالين الداخلية ، بعد انتقال بيريا إلى

(١) الموسفاطيون كانوا قوميين قوقاسيين (مسلمين) حاربوا البلاشفة في باكو في زمن التدخل البريطاني .

(٢) ج . م. كامنسكي مفوض الشعب للصحة . مهر بتوقيعه شهادة موت سيرجو اوردزونيكيدز لأسباب صحية .

(٣) سبق الاشارة إلى ان بيريا لم يتسلم مهام وظيفته الجديدة كنائب يزهوف في موسكو حتى تموز ١٩٣٨ عندما كان خروشوف قد غادرها إلى اوكرانيا ، الا ان الرجلين التقيا ، ربما قبل ذلك في زيارات بيريا المتكررة إلى موسكو واستمرا في اللقاء عندما كان يأتي خروشوف إلى موسكو من كييف .

موسكو ، طابعاً مختلفاً كلياً عن الذي كان يسود من قبل . فقد تغير الجو إلى اسوأ . كان ان اسر لي ستالين مرة عنعدم رضاه عن نفوذ بيريا : «قبل مجيء بيريا كانت لقاءات العشاء تتسم بالانفراج والانتاج . اما الان فهو دائماً يتحدى الناس بالشراب ، وبات المكان مليئاً بالسكارى » (١) .

ورغم موافقتي على ما قاله ستالين كلياً ، الا انني ادركت ضرورة الحذر في جوابي اذ ان من الاعيب ستالين المفضلة استفزاز الآخرين للادلاء به أي — او الموافقة على رأي — ينم عن مشاعره الحقيقية ازاء احد الناس . وكان جلياً بالنسبة لي ان ستالين وبيريا كانا صديقين حميمين . غير انني لم أكن اعرف مدى الاخلاص في هذه الصداقة . ولكن لم تكن محض صدفة ان يختار ستالين بيريا للحلول محل يزهوف . فبالاضافة إلى احتلاله منصب مفوضية خطيرة ، كان لبيريا وزن كبير في القيادة الجماعية . وكان على كل من يرغب في التأكد من انه يحظى برضى ستالين التزلف لبيريا . وكان كاغانوفيتش خبيراً في تلمس الرضا بالتملق والزلفى . ولا بد لي من القول انني لم الحظ مثل هذا التصرف المنحط من قبل مولوتوف ، كما انني لم ازحف متملقاً بيريا ، ولذلك كنت اقدر ان بيريا يعمل ضدي نتيجة هذا الموقف . كنت اعمل للحزب والدولة في عدد من المراكز الهامة ، وكان المجال متسعاً امامي لرفع توصيات باستحداث تحسينات متقدمة . وكنت عادة ، احصل على دعم ستالين ، وعندما كنت افشل في ذلك كان السبب يعود إلى تأثير بيريا ومالنكوف على ستالين . وكنت مقتنعاً بأن معارضتهما لي انما ارتكزت على الحسد .

وكان بيريا بصورة خاصة ، عنيفاً في غيرته على مكانته في القيادة الجماعية ونفوذه عند ستالين . والقصة التالية تبين ما كان قادراً على فعله :
كان صهر ستالين ، ريدنزر ، في فترة ما ، نائب بيريا في مفوضية أمن الدولة

(١) هنا وفيما بعد ، يتكلم خروشوف باستياء ، عن عادات الادمان على الشرب عند بعض زملائه ، لاسيما جدانوف وشيرباكوف . ان السكر كان عادة مألوفة ليس في حلقة ستالين فحسب ولكن في قيادة الجيش كذلك . وكان خروشوف بالذات يتمتع بالسكر حتى امام الجمهور على الاقل ، وكانت هذه عادته حتى ١٩٥٦ . وان موقف السوفيات من السكر هو بالتأكيد شبيه بموقف البريطانيين قبل مئة وخمسين سنة . وانصافاً لخروشوف استطيع ان اذكر ان بيريا كان أكثرهم سكراً . وفي المناسبات القليلة التي رأيته فيها كان في حالة من السكر المستمرة .

في جورجيا (١) ، وقبل انتقال بيريا إلى موسكو قرر ترحيل ريدنزر من جورجيا . لماذا ؟ حتى لا يكون لستالين اي مخبر في جورجيا عدا بيريا نفسه . وكان بيريا دوماً معادياً لسيرجو اوردزونيكيدز للسبب نفسه ، فماذا فعل بيريا للتخلص من ريدنزر ؟ وجه بعض رجاله لاغراء ريدنزر بالذهاب إلى مقهى حيث استغلوا ضعفه في معاقرة الخمرة فاسكروه ورموا به في القاذورة . وجاءت الشرطة فوجدته في حالة يرثى لها . ورتب بيريا الامر بحيث يطلع ستالين عليه فيعرف ان ريدنزر قد حط من قدر نفسه . وهذا كان سبب طرد ريدنزر من مركزه في جورجيا ، بحيث انتهى في مكتب اقليمي في موسكو تابع للمباحث . وهنا نرى اي نوع من المحرض المستفز هو بيريا ؟ وبعد انقضاء العديد من السنين ، وبعد سقوط بيريا ، تلقت اللجنة المركزية رسالة مطولة من محكوم سابق من جورجيا يعدد جميع الاشخاص في جورجيا الذين كانوا ضحايا استفزازات مماثلة دبرها بيريا .

كان بيريا يعتز برواية القصص عن جميل اسداه إلى من كانوا في ضيق . ولكن حتى هذه القصص ، واغلبها أكاذيب ، كانت تصحبها غالباً غاية شريرة . اذكر مرة أخبرني كيف انهار المارشال ميريتسكوف وأرغم على توقيع اعتراف يقر فيه بانه كان عميلا بريطانيا ، وعدواً للشعب ، وما إلى ذلك (٢) . ولم يصدف ان قرأت شهادته بنفسي . فستالين لم يوزعها . وقد حدث ذلك ابان الحرب ، حين كان ستالين القاضي الاوحد في المحكمة الوحيدة في البلاد . وكان يقرر من سيزيل من الوجود دون حاجة إلى رأي أحد .

وتابع بيريا روايته قائلا : « ذهبت إلى الرفيق ستالين وقلت : ما هذا عن وجود ميريتسكوف في السجن كعميل انكليزي ؟ كيف يمكن ان يكون جاسوساً انكليزياً ؟ انه رجل شريف . ان الحرب مستعرة ونحن بحاجة اليه في الجبهة . بالامكان اعطاؤه قيادة في الجبهة . فقال ستالين : من المرجح ان تكون على صواب . اذهب وكلمه . وهكذا استدعيت ميريتسكوف وقلت : ان هذا الذي كتبته

(١) كان ريدنزر خال سفتلانا الليليويفا وقد روت عنه الكثير في كتابها « عشرون رسالة إلى صديق » .

(٢) الجنرال ميريتسكوف كان واحداً من قادة الجيش الأحمر الرفيعي الرتب الذين نجوا بأعجوبة وبقوا على قيد الحياة حتى أخرجوا من السجن وأرسلوا لمحاربة هتلر . وكان اشهر هؤلاء المارشال روكوسوفسكي . والآخر كان الجنرال غورباتوف الذي اصبح بالنتيجة القائد السوفياتي لبرلين ونشر كتاباً عن تجاربه في السجن بعنوان « سنوات من حياتي » .

في اعترافك كلام سخيف . انت لست جاسوساً . انت رجل شريف ، وروسي صالح . كيف يمكن ان تكون جاسوساً انكليزياً ؟ فشخص إلي ميريتسكوف بيأس واستغراب وقال : ليس عندي ما اضيفه . لديك اعتراف مكتوب بخطي . لا اعرف لماذا تحقق معي . فقلت له : انا لا احقق معك ايها الرفيق ميريتسكوف . كل ما في الأمر اود ان تعلم بانك لست جاسوساً . اذهب إلى زنزانتك وفكر في الأمر هذه الليلة وسأكلمك ثانية في الصباح . وفي اليوم التالي استدعيته ثانية وسألته قائلا : حسناً ، هل فكرت في الأمر ؟

« فأخذ يبكي ويشكرني قائلا: كيف بامكاني ان اكون جاسوساً ؟ أنا روسي صالح . احب شعبي ، واومن به . وهكذا اخرجوه من السجن والبسوه بزة الجنرال ، وارسل لتولي قيادة في الجبهة » .

انني اعرف ان القصة لم تكن بهذه البساطة . ذلك ان ميريتسكوف كان قبل اعتقاله جنرالا شاباً ، وافر القوة ، قوي البنية ، مهيباً . اما بعد الافراج عنه فكان كالشبح ، اذ فقد الكثير من وزنه إلى حد الهزال الكلي . ورواية بيريا احدثت لدي ارتباكاً من جوانب أخرى . فانا لم استطع ان اعرف من اعتقل ميريتسكوف. فبيريا يضع اللوم على ف . س. اباكوموف ، ولكن من كان اباكوموف ؟ الم يكن احد رجال بيريا ؟ الم يكن يرفع له مباشرة تقاريره حتى قبل رفعها إلى ستالين ؟ ويستدل من هذا ان اباكوموف لم يكن يستطيع اعتقال ميريتسكوف الا بناء على اوامر بيريا (1) .

وبينما كان بيريا يخبرني قصة اخراجه ميريتسكوف من السجن ، أخذت ملاحظة ثانية عن جميل اسداه، تدور في رأسي . كان اعتاد ترداد جملة ، كلما وقعت الشبهة على احد : « اسمع ، دعه يبيت عندي ليلة وانا اتعهد بجعله يعترف بأنه ملك انكلترا » .

(1) ف . س. اباكوموف أحد رجال التشيكا السيء السمعة الذي أصبح مفوضاً لأمن الدولة في ١٩٤٦ . صرف من منصبه في ١٩٥١ . وفي ١٩٥٤ اعدم رمياً بالرصاص على اساس انه لفق قضية لينينغراد في ١٩٤٩ .

٤

العودة الى اوكرانيا

الجسم الحزبي يعود الى الالتئام

كانت مهمة خروشوف الأولى كسكرتير اول للحزب الشيوعي الاوكراني في ١٩٣٨ ان يبني من العدم جهازاً حزبياً ذا طابع جديد ليخلف الجهاز الذي كان يرئسه كوسيور منذ ١٩٢٩ حتى وقوعه ضحية التصفيات . وفي اثناء انصراف خروشوف إلى عمله ظل التطهير مستمراً . والقسم التالي يقدم لمحة مضيئة عن طبيعة هذه العملية . اما ما لا يذكره خروشوف هنا ، هو ان مهمته الثانية كانت « ترويس » (جعلها روسية) اوكرانيا باستئصال جميع الاوكرانيين الذين يظن بانهم من دعاة الوطنية المحلية (ما يدعى « بالقومية البورجوازية ») من مواقع السلطة والثقة ، وبالغاء اللغة الاوكرانية من المدارس وفي كل مكان . وكانت هذه عملية ذات خطورة بالغة في نظر ستالين . فالقومية الاوكرانية كانت قوية جداً في هذه الارض الغنية التي لم تكن مخبز الاتحاد السوفياتي واهراءه فحسب بل أقوى قواعده الصناعية . وكان العذر الرسمي المقدم لهذه السياسة التي نفذت دون رحمة – على حد قول خروشوف نفسه في صيف ١٩٣٨ – استئصال جميع « الذين يرغبون في تشريع الأبواب امام الفاشيست الألمان ، ومالكي الأرض ، والبورجوازيين ، وجعل العمال والفلاحين الاوكرانيين عبيد الفاشيست ، وتحويل اوكرانيا إلى مستعمرة للفاشيست البولونيين – الألمان » .

« نريد أن نرسالك إلى اوكرانيا لترؤس المنظمة الحزبية هناك . يبدو ان كوسيور ليس مقتدراً على تدبير الأمور ، وسننقله إلى موسكو كنائب اول لمجلس مفوضي الشعب ورئيساً للجنة الرقابة في اللجنة المركزية » . هذا ما قاله لي ستالين عندما عرض علي الذهاب إلى اوكرانيا في ١٩٣٨ . وكنت متردداً في قبوله استناداً إلى اسباب

ثلاثة : اولا ، لانني احببت كوسيور ولم اكن ارتاح للحلول محله . لقد عرفته عندما خلف كاغانوفيتش كسكرتير اول للجنة المركزية الاوكرانية في ١٩٢٩ . وتلك كانت السنة التي قدمت فيها طلباً لدخول الاكاديمية الصناعية وكان كوسيور هو الذي وافق على طلبي. وثانياً ، لانني كنت اشك في ان تكون قدرتي ومؤهلاتي في مستوى يخولني خلافة كوسير في مركز السكرتير الاول للحزب الاوكراني .

اما السبب الثالث فيختص بالمسألة القومية الاوكرانية ، ذلك انه رغم خدمتي في اوكرانيا لأمد كانت فيه علاقاتي على احسن ما يرام مع الشيوعيين الاوكرانيين فضلا عن غيرهم من المواطنين غير الحزبيين ، الا انني كنت كروسي اشعر ببعض الارتباك بين الاوكرانيين . وقد استطعت ان افهم الاوكرانية كلغة ، ولكنني لم أكن اجيد الخطابة فيها . وقد اوضحت هذه الاسباب جميعها لستالين واعربت له عن خشيتي من ان اقابل من الاوكرانيين عامة ومن الانتليجنسيا بينهم بصورة خاصة ، بموقف يتسم بالبرود ، وقلت له : « انني لا ارى حكمة في ارسالي انا الروسي إلى اوكرانيا » .

واجاب ستالين : « ولكن كوسيور ليس روسيا ، هو بولوني. فلماذا تفترض ان على الروسي مواجهة صعوبات مع الاوكرانيين اكثر من البولوني » .

قلت لستالين : « قد يكون كوسيور بولونياً ولكنه اجاد الاوكرانية الى حد الخطابة فيها ، فضلا عن انه اوسع خبرة مني » .

فقال ستالين : « كفى جدلا انك ذاهب إلى اوكرانيا » .

فاجبت : « حسناً ، فسأبذل قصارى جهدي حتى أكون عند ثقتكم بي ، وسأعيد الحزب الاوكراني إلى حيويته السابقة » .

وهكذا ، فرغم تهيبي الأمر ، كنت اشعر بالزهو لان اللجنة المركزية انتدبتني لمثل هذا المركز السامي .

كنت على بينة من ان المنظمة الاوكرانية الحزبية تمر في عملية غربلة شاملة من رأسها حتى قاعدتها . ولم يكن نقل كوسيور الا دليلا على المدى الذي وصلت اليه هذه العملية . وكان لدي كذلك لمحة عن مصير شوبار الرئيس السابق لمجلس مفوضي الشعب الاوكراني ، والذي كنت غالباً التقيه في العشرينات في المؤتمرات الحزبية في اوكرانيا وفي مؤتمرات عمال المناجم (١) . وكان لمدة هو المسؤول عن

(١) ف . شوبار كان زميلا لخروشوف في ايامه الأولى في اوكرانيا . وعين رئيساً لوزراء اوكرانيا في ١٩٢٣ وانضم إلى المكتب السياسي هو وميكويان في الوقت نفسه في ١٩٣٥ بدلا عن كيروف الذي اغتيل . وكان ان غاب عن الانظار في صيف ١٩٣٨ واعدم في شباط ١٩٣٩ .

عمل المناجم في دونباس . وكان سلوكه الحزبي دوماً ممتازاً . الا انني ذات ، يوم بينما كنت في مكتب ستالين في الكرملين ، تلقى ستالين هاتفاً ، وسمعته يتكلم إلى أحد الاشخاص لبضع دقائق ثم ينهي المكالمة ، والتفت ستالين قائلا ان شوبار هو الذي كان يخاطبه ، وانه كان يتكلم وصوته يتهدج بالبكاء ، محاولا التأكيد على نظافة كفه وصدق ولائه . وكانت نبرة ستالين ، وهو يتحدث عن شوبار ، تتصف بشيء من العطف . كان يظهر ، على الأقل ، تفهماً لاسباب اضطراب شوبار . غير ان هذا الاخير اعتقل في اليوم التالي وازيل من الوجود .

وقد اصيب الحزب الشيوعي في اوكرانيا بالتصدع الحزبي نتيجة التصفيات البولونية والاوكرانية . فقد سهل على ستالين تصفية قادة الحزب البولوني نظراً لان معظمهم كان يسكن في موسكو ويعمل في الكومنترن (١) . وكان السبب الوحيد لنجاة بيروت وغومولكا من هذا المصير هو انهما في ذلك الوقت كانا غير معروفين نسبياً في الاوساط الحزبية . وكان الحزب الشيوعي في اوكرانيا الغربية يعج بالعناصر غير المستقرة ، بل المخربة . وكان كل من تقع ايدينا عليهم من الملاك الشخصي الاداري يصرف بتهمة التحريض والعمالة لبلسودسكي . ونظراً لأن اللجنة المركزية الاوكرانية كانت مسؤولة ، من ناحية تقنية ، عن الحزب الاوكراني الغربي ، فقد جرف التطهير عدداً من قادة الحزب الاوكراني ضمن من عرفتهم منذ العشرينات ، وكان بينهم الرفيق ديمشنكو الذي كان سكرتيراً اول للجنة كييف الاقليمية عندما كنت رئيساً لفرعها التنظيمي هناك في ١٩٢٨ — ١٩٢٩ (٢) .

وعندما ارسلت إلى كييف ، أعلمني ستالين ان علي بالاضافة إلى السكرتيرية الأولى للجنة المركزية الاوكرانية ان اتولى ايضاً مسؤولية سكرتير اول للجان مدينة كييف واقليمها . واحطته علماً بتعذر قيامي بهذه المسؤوليات كلها دفعة واحدة الا انه اصر على ذلك .

وقال لي : « عليك بتدبير الأمر ، واختر من يعاونك عندما تصل إلى هناك » .

(١) هذه إشارة عارضة إلى تحطيم ستالين المتعمد للحزب الشيوعي البولوني في ١٩٣٦ — ١٩٣٩ . وكما يقول خروشوف كان التطهير سهلا لأن معظم ابرز رجال الحزب البولوني كانوا قد لجأوا إلى موسكو هرباً من الديكتاتور البولوني بيلسودسكي . وقد أعدم في هذه الفترة العديد من الشيوعيين الالمان والاسبان وغيرهم من الاجانب الذين لجأوا إلى موسكو .

(٢) كانت اوكرانيا الغربية التي يشير اليها خروشوف هنا جزءاً من بولونيا . وقد استولى عليها الاتحاد السوفياتي عندما غزت المانيا بولونيا في ١٩٣٩ (انظر الفصل الخامس).

فطلبت من مالنكوف ان يعين بعض الاوكرانيين لمعاونتي . فعين مالنكوف احد نوابه ، بورميستنكو سكرتيراً ثانياً معي . وقد اعجبني بورميستنكو منذ لحظة لقائنا الأولى . كنا من جبلة واحدة (١) . وطلبت منه ان يختار عشرة اشخاص آخرين من منظمة موسكو وجهاز اللجنة المركزية .

عند وصولنا إلى اوكرانيا لخص لنا الرفيق كوسيور المتاعب التي كانوا يواجهونها ، وقدم لنا القادة الحزبيين القلائل الذين نجوا من التطهير . وكان قد قدم لنا بصورة رسمية الحزب الاوكراني في جلسة خاصة موسعة لجميع اعضاء اللجنة المركزية . كان التطهير في الحزب الاوكراني شاملا . وبدا كأنما لم ينج من التطهير سكرتير لجنة اقليمية او تنفيذية ، او سكرتير مجلس مفوضي الشعب ، ولا حتى نائب واحد . وكانت قيادة الحزب كلها تقريباً قد اصابها التهشيم . وكان علينا اعادة البناء من الاساس . (٢)

واستأذنت ستالين باستحضار لوكاشوف من موسكو . ولوكاشوف لا يزال اليوم على قيد الحياة ، ولكنه تقاعد من زمان طويل . كان مسؤولا عن الحصول على الخضار والفواكه لتعاونيات العمال في موسكو . وكنت معجباً به لفعاليته وقدرته على العمل الشاق . واعلمت ستالين برغبتي في تعيين لوكاشوف مفوضاً للشعب لشؤون التجارة الداخلية في اوكرانيا فاعطاني ستالين موافقته .

ولكن لوكاشوف اعتقل فجأة (٣) . وكان هذا امراً في منتهى السوء بالنسبة لي ، اولا لانني كنت احب لوكاشوف شخصياً ، وثانياً لانني كنت طلبت تعيينه لمركز مسؤول . وكنت اعرف ان الأمر سيترك انعكاساً سيئاً علي باعتبار وكاشوف قد اعتقل كعدو للشعب . وبعد مرور وقت طويل افرج عنه

(١) م. و. بورميستنكو امتاز بانضمامه إلى التشيكا في ١٩١٩ عندما كان في السابعة عشرة . وكان سيء السمعة لوحشيته في تحطيم المقاومة ضد التجمع الزراعي . وقد لعب دوراً فعالا وشريراً في التصفيات . وان مجرد تعيينه نائباً لخروشوف في اوكرانيا كان دليلا كافياً على ان الرؤوس ستبدأ بالتدحرج قريباً .

(٢) في ضوء ما حدث في اوكرانيا قبل وصول خروشوف فضلا عما حدث تحت قيادته ، يبدو واضحاً انه ، على الأقل في ١٩٣٨ ، كان قد كون فكرة عن الدمار الذي تسبب به ستالين . ان ما يقوله هنا وفي القسم السابق لكاف لدحض اصراره في اماكن مختلفة من هذا السرد ، على انه لم يعرف معنى افعال ستالين الاجرامية الا بعد وفاته .

(٣) ان الافراد المشار اليهم هنا هم رجال من المرتبة الثانوية ، وان مصائرهم مثال لمصير عشرات الألوف غيرهم .

فعاد إلى اوكرانيا محطماً ، يشكو من الشلل في جسده وروحه على حد سواء ، واخبرني بأنه عذب وأمر باتهامي كعضو في مؤامرة . والقصة تعود إلى يوم كنت اعمل في موسكو عندما طلبت ارسال لوكاشوف إلى بولونيا وليتوانيا لشراء بذار البصل والخضار . وارادوا بعد اعتقاله ان يشهد بان مهمته التجارية تلك إلى بولونيا كانت في الواقع مهمة سياسية سرية بقصد انشاء اتصالات مع منظمات مضادة للسوفيات في الخارج . ولكنه رفض الاعتراف ، فافرج عنه ، وهذا امر نادر الحدوث . وأخبرت ستالين بالحادثة . فقال : « أعرف ماذا تقصد ... ان انحرافات كثيرة تحصل . انهم يجمعون الادلة ضدي ايضاً » .

ازداد عدم ارتياحي من نشاط المباحث بعد الحادثة التالية : كان مفوض الشعب للشؤون الداخلية في اوكرانيا ، عند وصولي ، هو أوسبنسكي الذي لم اعرفه الا لماماً وقد اعجبني . وكان روسياً رغم انه يحمل اسماً بولونياً . وكان يعمل اولا ، في جهاز ياغودا المركزي للمباحث ، ثم عمل كممثل للمباحث في اقليم موسكو ، ثم كضابط مباحث في الكرملين . ومن هناك ارسل إلى اوكرانيا . ويبدو ان اللجنة المركزية كانت قد محضته ثقتها ، وكنت اعتقد ، مما بدا لي عند وصولي ، ان تلك الثقة كانت في موضعها . الا انه سرعان ما ساورتني الشكوك .

كان السكرتير الثاني للجنة مدينة كييف رجلا يدعى كوستنكو . لم أكن اعرفه جيداً ولكنه بدا نشيطاً وجديراً بالثقة . وكان صادقاً وبسيطاً . ولا اذكر ، اذا كان يتحدر من اصل فلاحي او عمالي . ولكن فجأة اصبح موضع شك ثم اعتقل . وارسلت الي شهادة طويلة عن علاقاته باعداء الشعب ، الا ان الامر حيرني .

وقلت لاوسبنسكي « اريد ان اتحدث إلى هذا الرجل ، كوستنكو ، الذي اعتقلته » . فقال : « هذا أمر بالامكان ترتيبه ، ايها الرفيق خروشوف ! » فذهبت إلى مفوضية الشؤون الداخلية فجاؤوني بكوستنكو فأكد كل ما ورد في اعترافه . وقال لي : « نعم ، قمت بكل ما هو منسوب إلي . كنت ضالعاً في مؤامرة ، وقد بحت بكل شيء وعن كل شخص عرفت ، ولم اكتم شيئاً » .

ولكنني لم اشعر بارتياح كلي . فاعترافات كوستنكو اثارت من الاسئلة اكثر مما اجابت . وبينما انا اغادر مكاتب المباحث حذرت اوسبنسكي قائلا : « ايها الرفيق اوسبنسكي ، اذا ما حكمت على كوستنكو كعدو للشعب فقد يتهم اشخاصاً آخرين وهو يلفظ انفاسه الاخيرة . فاذا صح ذلك فانا اشدد على ارجاء تنفيذ الاعدام حتى يتسنى لنا التثبت من اتهاماته ، وهكذا نأمن انه لا يرسل الاتهامات جزافاً دون براهين » .

وبعد مضي بعض الوقت جاءني اوسبنسكي بوثيقة ورد فيها ان كوستنكو ،

قبل اعدامه ، زعم بان بديله في لجنة كييف الاقليمية ، شربين مذنب مثله بالجرائم نفسها ، وكنت معجباً بشربين واحبه . كان فلاحاً بسيطاً من بولتافا ورجلا مقتدراً ، وكنت واثقاً من نزاهته . وعندما علمت بأن كوستنكو حاول توريطه انفجرت غضباً وصحت : « كيف تسمح بحصول ذلك ايها الرفيق اوسبنسكي ؟ لقد طلبت منك بوضوح وجوب التثبت من اية اتهامات يطلقها كوستنكو ضد اي كان قبل ان يرمى بالرصاص ! »

وبادرت فوراً إلى الاتصال هاتفياً بمالنكوف في اللجنة المركزية ، نظراً لأنه كان مسؤولا عن الجهاز الشخصي هناك وبامكانه المساعدة . واخبرته بما حصل . وسألني مالنكوف : « هل تثق بشربين ؟ » فأجبته : « نعم » فقال : « اذن دعه يحتفظ بمركزه » .

ولكن لم يمضي كثيراً على تلك المكالمة الهاتفية حتى اتصل بي مالنكوف ثانية وقال : «يبدو الآن انه من الافضل الاستغناء عن شربين من جهاز السكرتيرية . اعرف انك تثق به ، الا ان ادلة خطيرة تجمعت ضده » . فقلت : « اية ادلة ؟ هل تعني اتهامات كوستنكو ؟ انها ليست ادلة بل تشهير » .

ولكن مالنكوف لم يستسلم . فحاولت جاهداً ترتيب عودة شربين إلى وضع حسن في الحزب . وكان قد سبق ان عيناه نائب مفوض الشعب للزراعة . وظللت اطرح الموضوع على اللجنة المركزية مطالباً بالافادة منه في العمل الحزبي . كنت اعاني وجدانياً من اجله .

واستمر اصراري على انه فوق الشبهات وان اتهامه لم يكن محقاً . واخيراً استسلم مالنكوف ورفع شربين إلى مسؤولية سكرتير اول للجنة سومسكي الاقليمية . وعندما اندلعت الحرب سميته لعضوية المجلس العسكري لجيش الساحل . وقد قتل ابان الغزو الالماني . وهكذا اعطى حياته بكل نبل وشرف في سبيل بلاده وشعبه ، في سبيل الاتحاد السوفياتي .

كان ستالين عندما ارسلني إلى اوكرانيا قد قال لي : « اعرف انك ذو ميل إلى المدن والصناعة ، لذلك فمن الافضل ان يكون تركيزك على الادارة الصناعية والبلدية في المدن على حساب مسؤولياتك الزراعية . وكن حذراً بصورة خاصة من انفاق كل وقتك في دونباس . انك لن تجد في الصناعة ما ستجده في الزراعة من مشاكل متعددة . ثم تذكر ان الزراعة في اوكرانيا لبالغة الأهمية بالنسبة للاتحاد السوفياتي ، فحاول جهدك ان تفعل شيئاً لتنظيم زراعتنا لتصبح اكثر فعالية » .

وكان ان التزمت بتحذيره رغم انه لم يكن من السهل الصمود في وجه اغراءات حبي الأول للتعدين والصناعة . كنت اشعر بميل مستمر يشدني إلى التعدين والمصانع

والمناجم . الا انني بذلت قصارى جهدي لتكون لي احاطة بموضوع الزراعة ، وصرفت وقتاً طويلا في التطواف في اوكرانيا ازور المزارع والقرى واحادث المهندسين الزراعيين والاداريين .

ووصلت انا وبورميستنكو إلى اوكرانيا في كانون الثاني او شباط من ١٩٤٩ ، وكان ذلك بالضبط هو وقت الاستعداد لبذار الربيع . وكان ان واجهتنا على الفور مشكلة خطيرة . كانت الخيول تتساقط في كل المزارع في غربي اوكرانيا على الحدود البولونية . ولم يستطع احد ان يعرف سبب مرضها . فخلال زيارة قمت بها إلى مزرعة جماعية في اقليم فينيتسا ، سألت سائساً اذا كان لديه ادنى فكرة عن سبب موت الخيول وكأنها ذباب يتساقط ، فقال لي ان السم يدس للاحصنة . وقال : « شاهدت ذلك الرجل يدس السم للاحصنة » ، ثم اردف : « فالقينا القبض عليه . هل تعرف ماذا تكشف لنا ؟ انه بيطري » .

كان ذلك معقولا ، فمن صالح الالمان الذين كانوا يعدون للحرب ضدنا ان يحاولوا تخريب اقتصادنا وقدراتنا العسكرية . ذلك ان الخيول لم تكن في تلك الأيام مجرد دواب من الماشية ، بل كانت كذلك تنوب مناب الدبابات والطائرات وسيارات الجيب اليوم (١) .

وقررت ان اتعمق في هذه المسألة . فطلبت من أوسبنسكي ان يسرد لي اسماء الذين قبض عليهم يدسون السم للخيول . فسمى لي بروفسوراً من معهد البيطرة في خاركوف ، وهو يهودي ؛ ومدير معهد خاركوف للعناية بالدواجن ، وهو اوكراني . فقلت له : « اود ان اتحدث اليهما ولكنني افضل ان لا اذهب إلى السجن لهذا الغرض . فاستدعهما إلى مكتبك » . فقال : « ولكن ما الفائدة ؟ فقد اعترفوا للمباحث بانهم مخربون وعملاء عند الالمان . وسيرددون امامك الاعتراف ذاته » .

فقلت : « ربما ولكن هنالك ما يقلقني . ذلك انهم في اعترافاتهم اعطوا المعادلة الكيميائية للسم الذي افترض انهم استخدموه . وقد سألت علماءنا ان يركبوا نموذجاً منه ويجربوه ، وعلفنا بعض الاحصنة به فلم يحدث لها شيء ، وانني لمتحير كيف ان السم الذي زعموا استخدامه لم يكن له مفعول ! لذلك اريد محادثة السجناء بنفسي » .

(١) لعل هذا يبدو مستغرباً ولكنه حقيقي . فحتى وصول الشاحنات الاميركية التي أخذت طريقها بالألوف عبر طريق الخليج العربي في فترة اندلاع معركة ستالينغراد ، كانت نقليات الجيش الأحمر تكاد باكملها تعتمد الخيول .

وذهبت إلى المباحث فاستحضروا البروفسور اليهودي ، وكان رجلا خط الشيب شعره ، وهو في الخمسين من عمره .

— « حسناً ما لديك تقوله دفاعاً عن نفسك ؟ »

— « سبق ان اعطيت افادتي . نعم ، نحن عملاء المان وقد كلفنا بمهمة تسميم الخيول » .

— « ولكن كيف تفسر ان السم الذي تقول بانكم استخدمتموه لا مفعول له؟ »

— « هذا ممكن ، ذلك اننا تلقينا جرعات مهيأة في المانيا ، فاضفناها إلى مركبنا . ولم نكن نعرف ماهية المواد التي تلقيناها من المانيا » .

ولم يقنعني هذا الجواب . فبقيت القضية بالنسبة لي مفتوحة والافادة مفتقرة إلى دليل . ثم اعطيته فرصة كاملة ليعلن براءته ، ، الا انه تمسك بقصته الاصلية .

وكان ثمة شيء آخر يقلقني . كيف ان يهودياً يصبح عميلا لاعدى اعدائه الفاشيست الالمان المعادين للسامية ؟ بدا الأمر غير معقول . الا ان بالامكان تفسيره من زاوية الصراع الطبقي وإلى ما هنالك ، غير انني بقيت مشككاً في حقيقة الأمر .

ثم استدعيت الطبيب الثاني ، مدير معهد خاركوف للعناية بالدواجن ، فكرر ايضاً افادته . وزعم ان التهمة ، تهمة التخريب ، لم تكن مزاحاً حتى يتقبلها متهم بهذه السهولة . فلعل المتهمين كانوا يأملون بتخفيف الجرم اذا هم اظهروا ندمهم وتوبتهم واعترفوا بجرمهم .

وقررت ان اشكل لجنة للتحقيق . فاصطدمت بمشكلة وهي ان عدة لجان اشكلت في الماضي ، ولكن ما ان يستمر موت الخيول حتى تحل اللجان ويعتقل افرادها وتجري تصفيتهم . لذلك كان الاعتقاد السائد ، وله بعض المبررات ، ن التعيين في احدى هذه اللجان يعود بالموت. واستدعيت الرفيق بوغوموليتس ، رئيس اكاديمية العلوم ، ولم يكن منتسباً للحزب . الا ان عدم الانتساب للحزب كان في نظري مسألة شكلية لم أكن اعيرها ادنى اهتمام او استخدمها ضد اي مواطن سوفياتي صالح وتقدمي .

وقلت له : « من رأيي تشكيل لجنة تحقيق . ولكنني اعرف ان زملاءكم يخشون من تعيينهم في هذه اللجان نظراً لأن اعضاء اللجان السابقة كانوا يعتقلون. ولكنك لو ترأست هذه اللجنة الجديدة،فان الآخرين يقدمون على التطوع بالدخول في عضويتها . ومن جهتي ، اعدكم بحضور اجتماعات لجنتكم العامة الموسعة واستمع إلى تقارير علمائكم . ثم ان الرفيق أوسبنسكي مفوض الشؤون الداخلية ، سيحضر كذلك حتى نتجنب تعرض لجنتكم لاي اتهام . واقترح اتخاذ تدبير احتياطي آخر كذلك ، فنقيم لجنتين تعملان جنباً إلى جنب . وهكذا نضاعف

حظ الوصول إلى جواب . »

وفي الحقيقة عندي سبب آخر لاقتراح لجنتين متوازيتين، ذلك انني لم اكن انفي امكان وجود مخربين ، وكنت آمل انه في حال وصول احدهم إلى لجنة من اللجنتين ، تكون اللجنة الاخرى مؤلفة من اشخاص شرفاء .

وكان ان وافق بوغوموليتس ولكن بفتور . واقرت مفوضية الشعب للزراعة في الاتحاد السوفياتي تعيين الهيئتين . وزيادة في الاحتياط والسلامة ، اضفنا لجنة ثالثة مؤلفة من علماء روس من موسكو برئاسة البروفسور فرتنسكي . وتوجهت اللجان الثلاث إلى المزارع المنكوبة وأخذت تعمل . بعد حين توصل البروفسور دوبروتكو العضو في احدى اللجنتين الاوكرانيتين إلى نتيجة هي ان الخيول مصابة بمرض الفطر الذي ينمو في التبن المبلول .

ولكن البروفسور فرتنسكي لم يكن مستعداً لقبول استنتاجات دوبروتكو ، فقد كان الاول موسكوبياً والآخر اوكرانياً ، وكانت الفوارق بين الاقليمين يومها لم تزل على اشدها . وتجنباً للتصادم بينهما اقترحت ان يستمر التحقيق لفترة أخرى حتى نتأكد بصورة مطلقة من الجواب الصحيح .

ومضى وقت طويل قبل ان يعلمني البروفسور فرتنسكي بموافقته على اكتشاف دوبروتكو . ووصل البحث العيني إلى آخره ، ورفع تقرير إلى اللجنة المركزية المنعقدة في اجتماعها الشامل في كييف . وكانت التوصية لوقف امتداد الوباء في غاية البساطة ! حافظوا على التبن في حالة جفاف .

وكان ستالين يتتبع القضية بأكملها وبدقة . وكان مكتئباً عندما سمع بان الخيول يدس لها السم في اوكرانيا . فعندما عدت إلى موسكو ورفعت له تقريري حول نتائج عمل لجاننا اقترحت ان يمنح رؤساء اللجان الاوسمة . فمنح البروفسور دوبروتكو وسام الراية الحمراء للعمال . وفي رأيي كان يستحق وسام لينين . واقترحت منح البروفسور فرتنسكي وسام الشرف مع ان دوره لم يزد عن ان ما ربحناه تخطى مجرد انتصار في حقل الزراعة . فقد كان انتصاراً مناقبياً وسياسياً كذلك ، ولكن كم فقدنا من رؤساء المزارع الجماعية ومربي المواشي ، واخصائيي العناية بالدواجن ، والعلماء ممن جرفتهم التصفية باعتبارهم مخربين قبل ان اتمكن من التدخل والامساك بزمام الموضوع ؟

استغرق تبديد مناخ التشكيك والخيانة وقتاً طويلا . وكان علي ان اصطدم باستمرار بآثار المواقف التي سادت ابان التطهير . ومن هذه قصة طبيب اوكراني يدعى مدفيد (وهو اسم عامي يعني كذلك الدب) وقد أصبح بعد سنوات عضواً في الوفد الاوكراني إلى الدورة التأسيسية للامم المتحدة في سان فرانسيسكو . وكان

سبب ازعاج بالغ لاعدائنا الذين كانوا يقولون « ان الدب الاوكراني عاد إلى الدمدمة ثانية ! » وكان هو بالفعل ذا صوت شبيه بصوت الدببة وذا طبع غضوب يصعب التعامل معه . وفي عهد تسلمي المسؤولية في اوكرانيا كان لهذا الطبيب قصة نموذجية للتطرف المجنون الذي بلغته الحالة في اوج التطهير :

ذلك انه عندما كان مدفيد نائب رئيس دائرة الصحة الاقليمية في كييف او في خاركوف ، نهضت امرأة في اجتماع حزبي واشارت باصبعها نحوه قائلة : « انني لا اعرف هذا الرجل الواقف هناك الا انني استطيع ان اتبين من نظرة عينيه أنه عدو الشعب » (١) ، تصوروا هذا التصرف !

ولكن لحسن الحظ ان مدفيد لم يفقد السيطرة على نفسه فرد فوراً : « انا لا اعرف هذه المرأة التي شهرت بي ، ولكنني استطيع ان اتبين من نظرتها انها عاهرة » . واستعمل كلمة اقذع . ولعل رد مدفيد الفوري هو الذي انقذه . ولو انه وقف موقف المدافع وأخذ يحتج معترضاً على انه ليس عدو الشعب لكان وضع نفسه موضع الشك ، وكانت المرأة التي شهرت به تشجعت لتدفع باتهامها ضده إلى آخر الشوط ، وهي تدرك انها لن تتحمل اية مسؤولية عما يحدث . ان مثل هذهالتصرفات أخذت تتضاءل بعد استقراري في اوكرانيا وبعد نقل أوسبنسكي من مفوضية الشعب للشؤون الداخلية .

ولا بد من ان اذكر شيئاً عن خليفة أوسبنسكي ، اعني سيروف . لقد عوقب سيروف في عهدي ، لأنه كان مهملا كما اعتقد . الا انه كان مستقيماً ، وصادقاً ، ورفيقاً يعتمد عليه رغم اخطائه . وقد احترمته ووثقت به .

وكان سيروف (٢) رجلا طيباً إلى حد السذاجة. وعندما قابلته لأول مرة كان لم يزل فتياً وعديم الخبرة . وكان قد تخرج لتوه من اكاديمية المدفعية ، فكان من بين الذين عبئوا عندما اخذنا نجند العسكريين للخدمة في المباحث . وكان من الطبيعي ان

(١) ان هذا مثل نموذجي على التشهير الهستيري الذي اودى بالملايين إلى الموت او معسكرات الاعتقال .

(٢) أ. س. سيروف كان ضابطاً في الجيش الأحمر نقل من اكاديمية فرونز العسكرية إلى المباحث في ١٩٣٨ . وقد كان صعوده سريعاً وارسل ليخلف اوسبنسكي كرئيس للمباحث الاوكرانية وليعمل مع خروشوف في ١٩٣٩ . ولفهم طبيعة نشاطاته في اوكرانيا انظر الفصل التالي . وهو لم يكن قاتلا متحمساً ، بل كان في الاساس ، رجل تنظيم ، واداريا موهوبا ، منطويا على نفسه ، عيابا ، عديم الشفقة ، يقتل دون ان يرف له جفن عندما يطلب اليه ذلك . وكان ينظم التهجير الجماعي بصورة رتيبة، ثم يذهب من مكتبه إلى بيته ويبرز في المناسبات الاجتماعية=

لا يكون ذا خبرة في عمليات الأمن . وهذا النقص في الاختبار كانت له ميزاته كما كانت له محاذيره . وكان الناس قبل تعيين سيروف للأمن ، يعانون من اختبار مؤذ لهم وللبلاد والحزب . وقد الف الناس حملات التحريض والتشهير واعتقال الابرياء وانتزاع الاعترافات بالتعذيب المتقن . ولم يكن سلف سيروف من رجال المباحث بالضرورة ، ولكنهم استسلموا للتلقائية اللاإرادية في اعمالهم . وكان يقود اعمالهم فكر واحد : « اذا لم افعل هذا للاخرين ، فالآخرون سيفعلونه لي . » وانه لأمر رهيب مخيف انه في زمننا ، في عصر الاشتراكية ، نجد شيوعيين وقفوا انفسهم على الحزب بالامكان تسييرهم بحافز آخر ، ليس هو حافز الوجدان او العقل بل خوف غريزي حيواني للهرب من المصير بهدر حياة اشخاص ابرياء . ولم يكن سيروف من نتاج تلك الحقبة ولا تلك العقلية . وبمعونته ، استطعت ان اعيد اوكرانيا إلى وضعها الطبيعي . وأخذت الصناعة تنتج الكوتا لها كما اخذت الحالة الزراعية تميل إلى الاستقرار ، وتضاءلت اعمال القمع ، وأخذت كوادر الحزب والعمال الاداريين تعوض عما اصابها من نقص حتى عادت إلى حجمها الطبيعي .

الاكاديمي باتون

هنا نتأمل خروشوف رجل التنفيذ العملي . ونجد كم هي سليمة ملاحظاته عن الوقت المهدور نتيجة اجتماعات التلقين العقائدي المتواصلة التي يرغم رجال الاعمال على الاشتراك بها . ولكن هذه الاجتماعات لم تزل معتمدة حتى اليوم .

وحين يرفض خروشوف بغضب ان يحمل الجسر الجديد في كييف اسمه ، لعله نسي انه في ايام حكمه لاوكرانيا عزي اليه تشجيع « عبادة الشخصية » لذاته ، الأمر الذي اثار بعض اقرانه ممن كانوا يعيشون في ظل ستالين المباشر في موسكو .

= عشيراً محبوباً ، قريباً للقلب ، لطيفاً ، مسلياً . وعندما نقلت وزارة أمن الدولة إلى لجنة أمن الدولة بعد موت ستالين عين خروشوف سيروف رئيساً اول لها . وكان الآن يتصرف باعتدال نسبي حيث كان في السابق يتصرف بسلطة مطلقة . ولكنه في ١٩٥٦ عاد يتصرف بعنف وقسوة لا ترحم . وفي ١٩٥٨ صرف من الخدمة لاسباب غير معروفة .

بعد فترة قصيرة على استلامي مسؤولياتي في اوكرانيا ، زار مكتبي مهندس ميكانيكي معروف يدعى يفنجي اوسكاروفيتش باتون وطلب تحديد موعد لمقابلتي . وعندما جاء لزيارتي وجدته رجلا غليظ البنية ، له شعر اشيب ، وقد تقدمت به السنون . وكان له وجه اسد وعيون براقة حادة . فحياني ثم سحب من جيبه فوراً كتلة من المعدن وطرحها امامي على مكتبي قائلا : « انظر إلى هذه ايها الرفيق خروشوف ، انظر إلى ما يستطيع صنعه معهدنا ! هذه قطعة من سبيكة حديد كثافتها عشرة ميليمترات ، وانظر باية جودة استطعنا لحمها ».

وتفحصت المفصل عن كثب . وكان قد اتاح لي عملي السابق في التعدين المجال لتفحص المفاصل الملتحمة مراراً . هنا كانت لحمة ملساء كأنما السبيكة قد صبت في قطعة واحدة .

وقال الاكاديمي باتون : « هذا مثل على التحام النوى » ولم أكن قد سمعت بعد بهذا التعبير من قبل فسألته عما يعني . واوضح لي باتون ، وهو الذي سبق له تسجيل عدة اختراعات ، انه وضع تصميماً لتقنية جديدة للحام ، ورسم لي نموذجاً لكيفية صنع ذلك في السفن والجسور . وشعرت بانني اخذت فعلا بالاكاديمي باتون . وقد كنت طول عمري ميالا إلى التعدين . وكان ابي قد ارادني ان اصبح اسكافياً الا انني اخترت التدرب على الميكانيك بدلا من ذلك . ومرة وانا صبي صنعت من قطع خردة محركاً لدراجة . ومنذ التقينا احسست ان للاكاديمي باتون منزلة كريمة في نفسي وصممت ان ابذل اقصى جهودي حتى يحظى اختراعه بالاهتمام الذي يستحق .

وعندما ذهبت إلى موسكو اخبرت ستالين عن باتون وقد ترك الأمر في نفس ستالين انطباعاً بالغاً وسألني اذا كنت اعتقد ان باتون في مستوى تسلم مفوضية في مجلس مفوضي الشعب وقال : « هل بامكانه ان يتدبر كل هؤلاء البيروقراطيين ويجعلهم يفعلون ما يقول ، اذا ما اعطيناه سلطاناً لا يحد لادخال اسلوبه الجديد في اللحام إلى مصانعنا ومراكز البناء عندنا ؟ » فاجبت : « ان ما رأيته من باتون يجعلني اقول ان البيروقراطيين لا حظ لهم في مقاومته » .

وهكذا اعطيت لباتون السلطة لادخال اختراعه في صناعتنا . وذات يوم تدارست معه فكرة استخدام التحام النوى في بناء اجسام الدبابات على اساس نظام التجميع .

فأرسلت باتون إلى مصنع خاركوف للدبابات وسألت منظم الحزب هناك ، الرفيق يبيشف (وهو الان رئيس المديرية السياسية للجيش السوفياتي) أن يعرفه إلى المصممين والمشرفين هناك . وكانت تلك بداية مرحلة هامة في عمل الاكاديمي

باتون . فقد لعب دوراً خطيراً في الحرب . وانه بفضل تحسيناته التي ادخلها على انتاج دباباتنا ، أخذت الدبابات تخرج من المصانع وكأنها فطائر محلاة تخرج من الصاج . وقد انتقل مع مصانع دروعنا إلى الاورال عندما اضطررنا إلى اجلاء صناعتنا من خاركوف في مطلع الحرب .

وفي ١٩٤٣ صدف وجود باتون في موسكو عندما كان ستالين قد استدعاني من الجبهة للمشاورات . وطلب باتون مقابلتي واتاني برسالة كتبها إلى اللجنة المركزية . واليكم ما ورد في رسالته تلك : « في ١٩١٧ لم تتح لي ظروفي اخذ الثورة على محمل الجد . فقد كان ابي قنصلا قيصرياً في ايطاليا وكنت وليد النظام القديم ، وكانت نشأتي قيصرية متخلفة . لم أكن اعطف على ثورة اكتوبر الا انني في الوقت نفسه لم اشترك في نشاطات معادية للسوفيات من اي نوع كان . ولكنني كلما مرت الاعوام اشعر بتزايد انحيازي إلى جانب السلطة السوفياتية . حتى الساعة لم أكن اعتقد انني استحق اية ثقة خاصة او اعتراف من الحزب . انني لم انس قط قصر نظري في ايام الثورة الأولى . غير انني الآن ومنذ زمن بعيد وانا إلى جانب السلطة السوفياتية واعتقد انني مؤخراً قد قدمت انجازاً مرموقاً للدفاع عن بلادنا في زمن الحرب ، وذلك باسهامي في انتاج الدبابات . لذلك اشعر بانني استحق معنوياً ان اتقدم إلى الحزب بطلب قبولي في صفوفه . وتجدون مرفقاً بهذه الرسالة طلب انتسابي لعضوية الحزب ، سائلا اللجنة المركزية ان تزكيه » .

ولست بحاجة إلى القول بان كتابه هذا لم يفرحني فحسب بل هزني بعمق . وقلت له انني متأكد من انه سيقبل . وأخذت رسالته تواً إلى ستالين الذي بدا بالغ التأثير بعد قراءتها رغم انه نادراً ما كان يظهر عواطفه . وقال ببساطة « اذن ، قرر باتون الانتساب للحزب . انني لا ادري سبباً يحول دون ذلك . اقترح ان نصدر مرسوماً خاصاً بقبوله فوراً ونعفيه من فترة التجربة العادية » . ففي ذلك الوقت كانت مدة التجربة الاجبارية « للترشيح » سنتين ، وهي تفرض على جميع طالبي الانتساب للحزب من الاوساط البورجوازية والانتليجنسيا .

وبعد الحرب عاد باتون إلى عمله كعالم في الاكاديمية الاوكرانية للعلوم . وبعدها اصبح نائب رئيس الاكاديمية . ولم يمض الا وقت قصير على ذلك حتى حلت باوكرانيا وبالجسم العلمي الاوكراني بصورة خاصة ، مصيبة كبرى : فقد توفي الرفيق بوغومولیتس رئيس الاكاديمية . وأخذ العديد من الناس الذين يعرفون مقدار تقديري انا ، خروشوف ، للاكاديمي باتون ، يؤكدون بانني سأسميه ليكون خلف بوغومولیتس .

ولكن علي ان اوضح بان باتون كان موضع جدل في الاكاديمية . فقد تباينت

الآراء حوله . واذكر مرة ان رئيس دائرة الدعاوة في اللجنة المركزية الاوكرانية شكاه إلي قائلا بان باتون يظهر قلة احترام للجنة المركزية عندما ينسحب من اجتماعات الحزب التي يدعى اليها .

وسألته : « اي نوع من المواضيع كانت مطروحة للبحث في اجتماعكم هذا ؟ » فاجاب : « اه ، مواضيع مختلفة ذات صلة بالعمل الايديولوجي » . فعقبت قائلا : « لا عجب اذا ما انسحب. فالرفيق باتون لا يمكنه اضاعة وقته في اجتماعات كهذه. من المرجح انه ارتأى رجوب الرجوع إلى عمله العلمي » . وكانت الحادثة نموذجية عن سلوك باتون . فقد كان يضيق ذرعاً بتلك الابحاث المجردة العقيمة التي يتبارى فيها العديد من مدعي العلم الثقلاء .

كان بامكاننا ترتيب امر انتخابه رئيساً للاكاديمية لو اننا اردنا ممارسة الضغط ، ولكننا قررنا ان لا نلجأ لهذا الاسلوب . وفضلا عن ذلك فلم تكن لدى باتون مطامح في ان يصير رئيساً . كان مستغرقاً في عمله العلمي وفي ادارة معهده .

وعندما توفي باتون ، كان قد انجز بناء جسر عبر الدنيبر في كييف ، وكان اكبر جسور المدينة . وكان برمته على طريقته في لحم النوى وصهرها في البناء . وكان الاوكرانيون يفكرون باطلاق اسمي عليه . فاثار ذلك غضبي ، نظراً لأنه كان قد سبق لنا اصدار مرسوم يحظر اطلاق اسماء اعضاء في قيادة الحكم او الحزب ما زالوا يتمتعون بصحة جيدة على المصانع والتسهيلات الصحية والمزارع الجماعية وسواها من المشاريع . بل اننا ذهبنا إلى تغيير بعض اسماء وجدناها غير مناسبة . باختصار كنا نعمل على تصفية تلك المنافسة غير السليمة التي بدأت في ظل ستالين ، والتي اتخذت طابع التباري في اي اسم يطلق على اكبر عدد من المصانع والمدن والمزارع الجماعية .

قلت للاوكرانيين : « اذا ما اطلقتم اسمي على هذا الجسر يكون ذلك خرقاً مباشراً لمرسوم اللجنة المركزية . وعلاوة على ذلك فانني ضد هذه الفكرة ، لانني كنت أحد الذين اقترحوا المرسوم الذي أبطلها . اعتقد انكم تدركون في اي موقف تكونون قد وضعتموني اذا ما اصررتم على اقتراحكم . لماذا لا تطلقون اسم الاكاديمي باتون على هذا الجسر ؟ » .

وهذا ما فعلوه . واليوم ، فان الجسر ، على حد التعبير المعروف ، هو حي . والناس اذ يجتازونه يذكرون باجلال وعرفان جميل ذلك الرجل الذي بفضله قام مثل هذا الجسر . ان الاكاديمي يفنجي اوسكاروفيتش باتون هو اب صناعة الصهر في الاتحاد السوفياتي .

البحث عن المتاعب في صناعة دواليب المطاط

ان القصة المطولة التالية تظهر خروشوف سعيداً وهو في حلبة العمل، صناعياً متمرساً يقود الناس من حوله ويصدر الأوامر، بل يعلم مدير مصنع كيفية العمل في اختصاصه . وان هذه القصة تضيء امامنا معرفة الهدر الذي لازم عملية الكفاح « لتجاوز الخطة » ، دونما اعتبار للنوعية ثم الحالة الترقيعية المفرطة التي كانت تتسم بها الصناعة السوفياتية في ١٩٣٩ ، وذلك بعد انتهاء المشروعين الخمسين الاولين اللذين شهدا انصباب كل موارد البلاد الرئيسية على اقامة الصناعة الثقيلة . كما انها تتبنى طريقة ستالين التي كان يستخدم فيها اقوى اعضائه في مهمات صغيرة لسد الثغرات كلما تنبه لوجودها . وكان خروشوف وقتها عضواً كاملا في المكتب السياسي ، فضلا عن توليه نيابة ستالين في حكم اربعين مليوناً من البشر في اوكرانيا ، ولكن رغم ذلك استحضره من مملكته وارسله إلى ياروسلافل لرفع تقرير عن نقائص صناعة دواليب المطاط . فكم كان ستالين من جهة قليل الثقة بالناس ، وكم كان مقدار القحط ، في تلك الأيام بالاداريين الاكفاء .

خلال فترة سبقت الحرب ، منع اعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية من ركوب الطائرات . واتخذت هذه الخطوة بعد ان اتاح ميكويان لأحد الطيارين أخذه في نزهة متهورة بالطائرة فوق روسيا البيضاء . وقد ظهرت الحادثة في الصحف . فعندما قرأ ستالين ان احد رجاله كان في رحلة طيران تخللتها كل انواع البهلوانيات الجوية أنب ميكويان بعنف وسن قاعدة منع بموجبها اعضاء اللجنة المركزية والسكرتيرين الاول في الجمهوريات من السفر بالطائرات . وكان هذا التدبير مخيباً لي ، اذ انني كنت احب الطيران . ولفترة كان علي اما ركوب القطار بين كييف وموسكو او السيارة . وكان الكسندر جورجيفيتش زورافليف سائق سيارتي لمدة تقرب الثلاثة والثلاثين عاماً . وكان اولادي ينادرنه بالعم ساشا . وكان مشكوراً في عمله ويحب هذا العمل ، وكنت احترمه واثق به .

وخلال رحلة من كييف إلى موسكو اخبرني الكسندر جورجيفيتش بان دواليب المطاط التي تصنع لسياراتنا تتمزق بسرعة فائقة . وفي الواقع ، كانت تنفجر من جوانبها بينما لم تزل جديدة الصنع . فعند وصولنا إلى موسكو اخبرت ستالين بان هذه العلة الصناعية تكبدنا الكثير من الوقت والمال .

ولم يكن ستالين يحب الاستماع إلى احد ينتقد الانتاج السوفياتي . وكان يصغي إلى اقوالي بتبرم ظاهر . ثم طلب مني بغضب ان اعمل على تصفية هذه الحالة وان اجد المذنبين الذين تسببوا بها . وقال : « انت اذن تنتقد صناعة عجلات المطاط

عندنا ايضاً ؟ ، الجميع ينتقدونها . سنوجه اليك تعليماتنا بمعالجة هذا الأمر شخصياً ، ستذهب وتفتش هذه الصناعة وترفع توصياتك بالتدابير الضرورية لاستئصال هذه النقائص ولتأمين اصدار مصانعنا عجلات من نوعية جيدة » . واجبته « ايها الرفيق ستالين ، انني كنت أقبل هذا التعيين بسرور لو انني مطلع على صناعة المطاط والعجلات ، ولكنني لا املك ادنى معرفة بها . لقد كانت لي بعض العلاقة بصناعة الفحم والتعدين والبناء بينما أجد نفسي غريباً كلياً عن صناعة عجلات المطاط » . فقال : « حسناً تعرف إلى هذه الصناعة ، تحمل المسؤولية المعهود بها اليك فوراً . ولن تعود إلى اوكرانيا قبل ان تعالج هذه المسألة » .

وصدر قرار بانشاء لجنة برئاستي . وانتابني بعض القلق ، اذ لم اعرف كم من الوقت سيستغرق انجاز المهمة وما اذا كنت استطيع انجازها بنجاح . وكان ان دعوت اللجنة إلى الانعقاد واستدعيت اخصائيين من مصنع ياروسلافل لصناعة العجلات ومن مصانع لينينغراد وموسكو ، ومن مختلف الوزارات . واستعنت بجهاز اللجنة المركزية حتى اجمع كل من كان ملماً بشيء عن صناعة عجلات المطاط . وكانت مشاوراتنا تعقد في مبنى اللجنة المركزية . واتيح للجميع ابداء آرائهم . واذكر ان مدير مصنع ياروسلافل ترك انطباعاً حسناً في نفسي منذ البداية .

وبعد انتهاء دورة المشاورات الاولى رفعت إلى ستالين تقريري المشتمل على اقوال الجميع والمشفوع بمطالعتي . فقال ستالين : « ارى ان تذهب إلى ياروسلافل وتعالج الموضوع مباشرة هناك . ان مصنع عجلات المطاط في ياروسلافل هو أفضل مصانعنا » .

وهكذا ذهبت إلى ياروسلافل مصطحباً معي بعض الاخصائيين من موسكو . وكان سكرتير لجنة الحزب الاقليمية هو الرفيق باتوليشف الذي أصبح بعد عدة سنوات وزير التجارة الخارجية . اما رئيس اللجنة التنفيذية الاقليمية فقد كان ارمنياً شاباً ، وكان مثل باتوليشف مهندساً معدنياً . وقد ترك كلاهما انطباعاً حسناً في نفسي .

وفور وصولي اعلمتهما بسبب مجيئي إلى ياروسلافل وطلبت منهما مساعدتي .

وكان اهتمامي الاول هو ان اعاين كيفية صنع الغلاف المطاطي الخارجي للدولاب ، وقلت لمدير المصنع : « لا تصف لي التفاصيل الكاملة لعمليتك الآن . ان ذلك مضيعة للوقت . كل ما اطلبه هو ان تأخذني لاعاين نظام التجميع الذي تعتمده . اريد ان ابدأ من البداية » . وأخذت اراقب نظام التجميع متنقلا من مرحلة إلى مرحلة ، معايناً العمال كلما بدا لي شيء يهمني . لم يكن لدي متسع من الوقت لمشاهدة عملية تقسية المطاط بمعالجته بالكبريت . فاعتمدت على الاخصائيين الذين

كانوا يزودونني بالمعلومات التي تتيح لي الاطلاع الوافي .

كان اكثر اهتمامي ينصب على التقنية التي يستخدمها العمال في ربط العجلات بالاسلاك المعدنية . راقبت هذه العملية وقتاً طويلا . وكان العمال ينجزون هذا الأمر برشاقة وسرعة ، فلا ينظرون حتى إلى ايديهم وهم يعملون . وكانت ايديهم تتحرك مثل ايدي موسيقي عازف . لقد اعجبت بهم ، وسألت فيما بعد عن خطط الانتاج التي يعملون بموجبها . فاعلمت بعدد طبقات الاسلاك التي تنشر على العجلة ، وبالغرض الذي تؤديه هذه الاسلاك . وعلى اساس ما اعلمت اعتبرت انني قد وجدت نقطة الضعف . فقد شاهدت بأية سرعة ينشرون الاسلاك ، وعلمت بان نشرها ومدها مفروض ان يجري بتوازن ، بحيث ان كل الاسلاك المجدولة في كل طبقة تعمل معاً وكأنها جديلة واحدة . فاذا ما نشرت الاسلاك بتوازن تستطيع مضاعفة متانة الجديلة الواحدة على مجموع عدد الجدائل ، وهذا يؤدي إلى مقاومة الطبقة كلها للفتق . ولكن اذا نشرت طبقة من الاسلاك بصورة غير متوازية ، عندها تعمل كل جديلة على حدة ، فيبدأ تمزق الاسلاك الواحدة تلو الاخرى . هذا هو سبب انفجار الدواليب . كانت ثمة مسائل اخرى ولكن هذه هي المسألة الرئيسية .

واستدعيت مدير المصنع وقلت له : « ايها الرفيق ميتروخين ، دعني ارى كتيب التعليمات الذي تعتمدونه لانتاج العجلات . اريد ان اطلع على نوع عملية الانتاج الموصى بها . وبما اننا اشترينا ادوات هذا المصنع من اميركا ، لا بد ان الاميركيين قد اوصوا بتعليمات لاستخدامها في عملية الانتاج » .

— نعم ، لدينا جميع التعليمات .

— اذن ، قارن هذه التعليمات بالعملية المستخدمة الآن وارفع لي تقريراً عن التبدلات التي طرأت على العملية الموصى بها .

وحسب تقدير ميتروخين ، كان ثمة تعديلات افترقت عن التوجيهات الموصى بها من قبل المصنع الاميركي . فقد استغنى عن طبقة او طبقتين من الاسلاك على اعتبار ان العدد الباقي يكون كافياً لضمان المتانة . كما اعلمت بان كمية الاسلاك المدعمة قد انقصت على الاطراف . وسحبت حلقة او حلقتان . وكل هذه التعديلات بوشر بها على اساس التوفير في الانتاج . وعرفت فوراً اننا وجدنا المخبول الذي فعل ذلك .

فسألت : « متى حدثت هذه التعديلات ؟ » فقال : « جاءنا الرفيق كاغانوفيتش في جولة تفتيشية إلى هنا ودرس اساليبنا الانتاجية . واوصى بهذه التعديلات » . حدث ذلك عندما كان كاغانوفيتش رئيساً لمفوضية النقل . ويبدو انه اصطحب

معه سيرجو اوردزونيكيدز إلى ياروسلافل .

فقلت : « حسناً اعطني محضر اجتماعكم الرسمي مع كاغانوفيتش حتى يمكنني رفع الامر إلى الرفيق ستالين واللجنة المركزية . والانعليكم باتباع الطريقة المستخدمة في اميركا بكل دقة » . وخلال جولتي في المصنع لاحظت ان هناك ، كما في كل المصانع ، لوحة شرف عليها رسوم أفضل المنتجين ، او كما كانوا يدعونهم « عمال العاصفة » . فسألت مدير المصنع :

« كيف تقارن انتاجية عمالك بانتاجية العمال في اميركا الذين ينشرون الاسلاك على العجلات ؟ » فقال لي اننا قطعنا خطوة جبارة إلى الامام وتجاوزنا العمال الاميركيين .

وكان ان هيأت مسودة قرار مبني على نتائج تفتيشنا وعدت إلى موسكو . وعندما رفعت الأمر إلى ستالين شددت على اننا ننتج عجلات من نوعية متدنية ، اذ اننا في استهدافنا التوفير خرقنا اجراءات الانتاج التي اوصت بها شركة الانتاج التي اشترينا منها الادوات . لقد « صححنا » اساليب الصناعيين الاميركيين ، و « حسنّا » اساليب الانتاج ، ولكن النتيجة كانت ان عجلاتهم هي امتن عشرة اضعاف من عجلاتنا .

ثم اعلمت ستالين برأيي انه من الخطأ الفادح محاولة رفع كمية الانتاج والمحصول إلى حدود تفوق التصور . علينا ان نتجنب محاولات التوفير في الانتاج ورفع الانتاجية على حساب النوعية . فعمال العجلات ربما تجاوزوا الكوتا المخصصة لهم ولكنهم افرطوا فيها وارهقوها . وكان الافضل توجيه عمالنا إلى وجوب اعطاء اهتمام أكثر للنوعية عند نشرهم الاسلاك على العجلات . وهكذا تعلمنا انه اذا استهدفنا مستوى من الانتاجية يحرم العامل من صنع نوعية حسنة ، فان المنتوج يفسد . فعمال العاصفة الذين تربعت صورهم على لائحة الشرف في المصنع كانوا في الحقيقة يدمرون ما ينتجون ، ويخفضون انتاجية سائقي السيارات عندنا ، ويحولون دون افادتنا بفعالية من طاقتنا السيارة .

واصغى ستالين إلي بانتباه . ولاحظت انه كان جد منفعل. وكنت اعلم السبب. ذلك ان اي رجل تهمه مصلحة الدولة وخيرها ــ لاسيما الرجل الذي يتبوأ المنصب الأول في الدولة ــ لا بد ان ينزعج من مثل هذه الاخبار . وقال ستالين : « ارافقك ؟ اعطنا توصياتك وسنوافق عليها » .

وفي تقريري ادخلت توصيات مفادها : خفض كمية الانتاج ورفع نسب اجور العمال ، واتخاذ مجموعة من التدابير وفق مقترحات الاخصائيين في المصنع ومعاهد البحوث العلمية ، فضلا عن مفوضي الشعب .

ثم قال ستالين : « علينا اصدار قرار بعدم تشجيع الافراط في التنافس على الكمية دون النوعية بين العمال وذلك بمنع وضع الاسماء والصور على لوحات الشرف في مصنع العجلات » .

انني ، بصورة مبدئية عامة ، ضد هذا التدبير لان اللينينية كانت تعتبر التنافس مظهر عافية في الانتاجية ، والانتاجية هي قاعدة النمو الصناعي . الا انني وافقت على موقف ستالين في هذه الحالة الخاصة .

وكم كان سروري كبيراً انني بمعونة الاخصائيين ، استطعت اكتشاف نقطة الضعف في صنع الدواليب ومعالجتها . كنا نشعر ، يومها ، اننا متجهون نحو الحرب . وفي زمن الحرب يعتمد الجيش على التحرك ، ومن هنا اهمية نوعية صناعة النقل .

وبعد فترة قصيرة أصبح ميتروخين مدير مصنع ياروسلافل مفوضاً للصناعة الكيميائية . وسررت ان ستالين لم ينس تقديري البالغ لهذا الرجل فعينه في مركز على هذا القدر من المسؤولية .

هذه الحادثة في ميزان مجموع صناعاتنا المنتجة ، تشكل مسألة صغرى ، الا انها كانت ذات دلالة مهمة بالنسبة لي. ولقد رويت هذه القصة لابين كيف ان ستالين كان قادراً احياناً على مواجهة المشاكل بوجدانية وبسوية رجل دولة . كان سيداً للدولة، جسوراً، حارب البيروقراطية والفساد والنقائص على اختلاف انواعها ، كان رجلا عظيماً ، ومنظماً عظيماً ، وزعيماً ، ولكنه كان ايضاً طاغية . حارب احياناً بضراوة وباساليب وحشية ضد بدائية كانت لم تزل تفتك بصناعاتنا . وفي حرصه على خير الدولة ، كان عديم الرحمة في مواجهة اي نقص يواجهه . ولكن لا يجوز ان ننسى انه ، كطاغية، الحق اذى بالغاً لاسيما في قيادة الحزب والجيش . وكان ذلك كله حصيلة شكه المريض بالآخرين .

اننا لم نزل نعاني من مشاكل الانتاجية والمحصول . لعلكم شاهدتم في أكثر من مناسبة كيف ينهمك النساء والرجال في تقطيع الجليد على الارصفة بمخل . ان هذا العمل غير منتج . فكم تحقق في هذه البلاد من انجازات في حقل الانتاج الآلي الذي شمل عمليات كبرى من الانتاج المركب ، وكم انشئت آلات جديدة لجعل العمل ايسر . والاقمار الاصطناعية الأولى قامت من ارضنا. ولكننا لم نتمكن بعد احلال الآلة محل المخل والرفش . وما ذلك الا لاننا لا نعير هذا الامر اهمية كافية، ونعتبره تافهاً . ولكن هل هو تافه حقاً؟ كلا ان « الشؤون التافهة » من هذا النوع هي مصدر العمل للعديد من البشر .

٥
مقدمة الى الحرب

العلاقات السوفياتية – الالمانية

كان المعروف بصورة واضحة ان خروشوف لا يعير الشؤون الخارجية اهتماماً يذكر . في سني الخطر السابقة للحرب ، كان منصرفاً بكليته إلى الاشراف على الحالة في موسكو اولا ثم في اوكرانيا . لذلك لم يكن لديه ما يقوله عن صعود نجم هتلر وعن حملة « الأمن الجماعي » التي كان يتولى قيادتها لتفنوف. وهذ الامن هوميثاق مولوتوف – روبنتروب المعقود في ١٩٣٩ الذي اوقع الارتباك والفوضى في اوروبا واعطى هتلر الضوء الأخضر لغزو بولونيا . وقد وقع هذا الغزو فعلا في اول ايلول ١٩٣٩ واعلنت انكلترا وفرنسا الحرب على المانيا في ١٧ ايلول . ويعكس خروشوف في تعليقاته على دوافع وتصرفات الاتحاد السوفياتي والمانيا وبريطانيا وفرنسا وجهة النظر المقبولة في الاتحاد السوفياتي .

كانت حتمية وقوع الحرب معروفة بداهة قبل شروع هتلر واعدائنا بالاستعداد الفعلي لمهاجمتنا بزمن طويل ، فمنذ تولي الفاشيست مقاليد الحكم لاول مرة في المانيا كنا ندرك بأنهم سوف يثيرون الحرب ضدنا عاجلا او آجلا . وفي كتابه « كفاحي » الذي اقرفني إلى درجة لم استطع معها ابداً اتمام قراءته ، اوضح هتلر بشكل لا لبس فيه خططه العدوانية على العالم وفلسفة كرهه للبشر. وقد اقسم ان واجبه هو القضاء على الشيوعية ، واقتحام حصنها المنيع الاتحاد السوفياتي . وعند توليه الحكم بدأ حالا في اعداد جيشه ووضعه في حالة تأهب للحرب . ولم يكن ذلك سراً ، فان المانيا من اقصاها إلى اقصاها كانت تضج بالاستعراضات العسكرية ، وبالخطب النارية المتوعدة للاتحاد السوفياتي . ولم يقل كتاب « كفاحي » شيئاً عن التعايش السلمي معنا بل تحدث عن سحقنا . من هنا ان

الذي حمل هتلر على ارسال روبنتروب إلى موسكو في ٢٣ آب ١٩٣٩ لم يكن تبدلا في النوايا القلبية . فقد كان هتلر هو هو وتخيلاته ذاتها تصور له نفسه محارباً وفاتحاً مصمماً تصميماً كاملا على تحرير الشعب الروسي من البلشفية .

وقد سمعت لاول مرة بزيارة روبنتروب في اليوم السابق لوصوله . كنت في زيارة ستالين في مقره الريفي يوم السبت فاخبرني ان روبنتروب سيصل في اليوم التالي . وقد ابتسم ستالين وراقبني بدقة ليرى اي اثر سيتركه ذلك النبأ عندي. اما انا فقد صعقت في البداية وحدقت بدوري به ظاناً انه يمزح ثم قلت : « لماذا يريد روبنتروب ان يرانا ؟ هل سيبدل عقيدته ويتحول إلى جانبنا او ماذا ؟» .

فقال ستالين : « كلا . ان هتلر قد ارسله الينا حاملا رسالة يقول لي فيها ان استقبل وزيره روبنتروب الذي يحمل معه بعض الاقتراحات الواقعية. وعلى ذلك فقد وافقنا على ان نجتمع به غداً». فقلت لستالين انني خططت للذهاب إلى الصيد مع بولغانين ومالنكوف في محمية فوروشيلوف في اليوم التالي . فقال ستالين : « نفذ خطتك واذهب فلن يكون هنا غداً شيء يقتضي وجودك. فانا ومولوتوف سوف نجتمع مع روبنتروب ونستمع اليه . ومتى رجعت من رحلة الصيد فسوف اخبرك ماذا يجول بفكر هتلر ، وماذا اسفر عنه حديثنا مع روبنتروب » .

وفي ذلك الليل توجه كل من بولغانين ومالنكوف وانا إلى محمية الصيد في زافيدوفا . وعند وصولنا وجدنا ان فوروشيلوف قد سبقنا اليها . وعلى ذلك فلا يمكن ان يكون قد اشترك مع ستالين ومولوتوف في الاجتماع مع روبنتروب(١) . وكان هنالك في المحمية مارشالات وجنرالات آخرون . وخرجنا جميعاً إلى الصيد والقنص. وكان اليوم مدهشاً والطقس دافئاً ، وكان الصيد ناجحاً نجاحاً عظيماً ، وخصوصاً في ما يختص بي . وارجو ان لا يساء فهمي فاني لست من الناس الذين يفاخرون بمهاراتهم في الصيد ، غير انني في ذلك اليوم استطعت ان احمل في جعبتي بطة واحدة اكثر مما حمل فوروشيلوف . واني اذكر ذلك فقط لان

(١) عندما طار روبنتروب إلى موسكو خيل إلى المندوبين من بريطانيا وفرنسا انهم ما زالوا يتفاوضون مع الروس في محاولة اخيرة فاترة تقوم بها الحكومتان البريطانية والفرنسية لتحقيق تحالف مع الروس . وكان المارشال فوروشيلوف مفوض الشعب للدفاع هو كبير الروس المشتركين في المحادثات مع البريطانيين والفرنسيين . ومن المهم ان نعلم انه خرج لصيد البط في ذلك اليوم التاريخي العصيب عندما تم التوقيع على ميثاق مولوتوف – روبنتروب بينما البريطانيون والفرنسيون تركوا في جهل تام لما يجري حولهم .

الصحف كانت بدأت فعلا بالاشادة بفوروشيلوف بانه امهر رماتنا .

وعندما انتهينا من رحلة الصيد رجعنا رأساً إلى « داشا » مقر ستالين الريفي . وكنت اعلم ان ستالين سوف يدعونا كلنا لتناول طعام العشاء ، لذلك حملت البط الذي اصطدته معي لاقتسمه مع سائر اعضاء المكتب السياسي على العشاء . واخبرت ستالين عن يوم الصيد وفاخرت مازحاً بما لقيناه من التوفيق . وكان ستالين في حالة نفسية حسنة جداً ، وكان هو ذاته يمزح كثيراً . وكان وضع ستالين ازاء الصيد يتوقف عادة على نوع الحالة النفسية التي يكون عليها . فاذا كانت حالته النفسية حسنة فانه قد يفكر حتى هو ايضاً في الخروج للصيد . وفي اوقات اخرى كان يلزم فيها المنزل ويتذمر بمرارة من الصيد والصيادين . ولم تكن معارضته احياناً للصيد قائمة على اساس عقيدته بان الحياة كلها كانت مقدسة . كلا ، فما أبعده ذلك عن الصيد. ولكن الذي ابعده مجرد شعوره ان الصيد مضيعة للوقت. ومن المفارقات بصدد اضاعة الوقت ان ليس من زعيم في وضع مثل وضعه من المسؤولية يضيع من الوقت أكثر مما يضيعه ستالين بجلوسه الطويل حول مائدة الطعام يكثر من الأكل ويفرط في الشراب .

وعلى كل ، فقد اجتمعنا لتناول طعام العشاء في ضيافة ستالين ذلك اليوم ، الاحد من شهر آب ١٩٣٩ . وبينما كان يجري اعداد غنائم صيدنا لتقديمها على المائدة، اخبرنا ستالين ان روبنتروب جلب معه صيغة معاهدة صداقة وعدم اعتداء قبلناها ووافقنا عليها . وبدا ستالين مسروراً . وقال انه عندما يعلم اعضاء البعثتين الانكليزية والفرنسية بامر المعاهدة في اليوم التالي ، فانهم سوف يعودون إلى بلادهم حالا. واضاف ان المندوبين الانكليز والفرنسيين الذين جاءوا موسكو لاجراء محادثات مع فوروشيلوف لا يرغبون حقيقة في الانضمام الينا ضد المانيا على الاطلاق . ومباحثاتنا معهم كانت بلا جدوى . فنحن كنا نعلم انهم ليسوا مجدين في صدد التحالف معنا وان هدفهم الحقيقي كان تحريض هتلر ضدنا . ولذلك فقد كنا بدورنا مسرورين ان نراهم يغادرون البلاد . تلك هي قصة ولادة ميثاق روبنتروب — مولوتوف كما كان يسمى في الغرب. لقد كنا نعلم حق العلم ان هتلر كان يحاول ان يخدعنا بتلك المعاهدة . وقد سمعت باذني ماذا قال ستالين : « طبعاً ، ان كل ذلك مجرد لعبة لنرى من يستطيع خداع الآخر . انا اعلم ما يرمي اليه هتلر . هو يظن انه تفوق علينا بدهائه ،ولكن الواقع اني انا الذي خدعته . » وقال ستالين لفوروشيلوف وبيريا ولي ولاخرين من اعضاء المكتب السياسي ان

الحرب بفضل هذه المعاهدة سوف تتخطانا لفترة اطول من الزمن (١) فنتمكن ببقائنا على الحياد من توفير قوتنا لمواجهة ما سيحدث .

كان بالطبع ثمة من ظن في ان رغبة هتلر في التفاوض معنا دليل على شديد توجسه من ان نهاجمه . ان هذا التفسير للمعاهدة بالغ في اطرائنا . وقد انتشر هذا التفسير فسارع كثيرون في دول الاتحاد السوفياتي إلى تصديقه وهنأوا انفسهم به . ولكن نحن كبار رجال الحكومة كان عندنا الخبر اليقين ، فلم نخدع انفسنا بل كنا نعلم اننا في آخر الأمر سوف نجر إلى الحرب . هذا مع العلم ان ستالين كان يظن ان الانكليز والفرنسيين سوف يستنفدون قوى هتلر ويفسدون عليه خطته لسحق الغرب اولا ومن ثم التحول نحو الشرق . ان هذا الامل الذي كان يدغدغ ستالين كان حتماً جزءاً من الستراتيجية التي كمنت وراء موافقتنا على توقيع تلك المعاهدة .

اني اعتقد ان ميثاق روبنتروب — مولوتوف عام ١٩٣٩ كان من الناحية التاريخية ، لا مندوحة عنه في تلك الظروف . وانه في تحليلاته النهائية كان لمصلحة الاتحاد السوفياتي . فقد كان مثل بيرق في الشطرنج . فلو اننا لم نحرك ذلك البيرق لكانت الحرب بدأت ابكر من الزمن الذي نشبت فيه . اما الان فقد اتيحت لنا مهلة حسنة . واني اعتقد ان اكثرية ساحقة في الحزب قد اعتبرت توقيع المعاهدة تصرفاً حكيماً من جانبنا حتى ولو ان ما من احد كان ليستطيع ان يقول هذا علناً . ونحن لم نستطع حتى ان نناقش المعاهدة في اجتماعات الحزب . فاننا لو كنا لنوضح الاسباب التي حملتنا على توقيع المعاهدة بلغة صحافية صريحة، لكان ذلك تهجماً مكروهاً. وعدا ذلك فما من احد كان ليصدقنا . لقد كان ذلك صعباً جداً علينا — بوصفنا شيوعيين وبوصفنا ضد الفاشيين وبوصفنا جماعة معارضة دون هوادة لمواقف الفاشيست الفلسفية والسياسية — ان نقبل فكرة ضم قواتنا إلى قوة المانيا. لقد كان صعباً علينا إلى حد بعيد ان نقبل نحن انفسنا بهذه المفارقة . وكان مستحيلا ان نوضح ذلك لرجل الشارع . لذلك لم نستطع ان نعترف صراحة باننا توصلنا إلى اتفاق على التعايش السلمي مع هتلر. ان التعايش السلمي كان ممكناً مع الالمان عامة ولكن ليس مع الفاشيست الهتلريين .

اما الالمان فقد كانوا هم ايضاً يستعملون المعاهدة كمناورة لكسب الوقت . وكانت فكرتهم ترمي إلى ان يفرقوا بين البلدان التي اتحدت ضد المانيا

(١) ان الحرب التي يشير اليها خروشوف هي « الحرب الوطنية الكبرى » بين روسيا والمانيا التي لم تنشب نارها حتى حزيران ١٩٤١ .

في الحرب العالمية الأولى والتي قد تتحد ضد المانيا مرة اخرى ، ويهزموها منفردة . وقد اراد هتلر ان يسدد الضربة إلى كل من خصومه على حدة . وكان موقناً ان المانيا قد هزمت في الحرب العالمية الأولى لانها حاولت ان تقاتل على جبهتين في وقت واحد . والمعاهدة التي وقعها معنا كانت طريقة لحصر الحرب على جبهة واحدة .

وفي اثناء ذلك كله كانت الصحف الانكليزية والفرنسية وسائر الصحف البورجوازية تحاول ان تحرض هتلر على مهاجمة الاتحاد السوفياتي هاتفة بصوت مرتفع ان روسيا ليست سوى تمثال ضخم قدماه من الطحين . وكانت انكلترا وفرنسا ترغبان كثيراً في الوقوف جانباً ومراقبة المانيا والاتحاد السوفياتي يتقاتلان حتى ينهي احدهما الآخر . وكان الانكليز والفرنسيون يفركون ايديهم فرحاً عندما تخطر لهم فكرة الانتظار بينما جحافل هتلر تكتسح اراضينا وتمتص دماءنا وثروتنا . واذا نظرنا إلى الحرب كأنها لعبة فاننا نصفها على هذه الصورة « اننا كنا نراهن على امكانية الاحتماء وراء المعاهدة والنجاة من القذائف التي قد تتطاير قريباً حولنا ، وبذلك نتفادى المصير الذي تأمل الدول الغربية ان نواجهه . فاذا كان الأمر كذلك، يكون لمعاهدة روبنتروب — مولوتوف كل مبرراتها. »

لقد فاتحنا هتلر اولا باقتراحه لعقد معاهدة بواسطة شولنبرغ سفيره في موسكو . وقد برهن التاريخ ان شولنبرغ كان حقيقة راغباً في تقوية العلاقات السلمية بين المانيا والاتحاد السوفياتي (١) . ومما لا شك فيه انه عارض خطة هتلر لخوض الحرب ضدنا . وعندما دعاه مولوتوف لبحث بعض المسائل المتعلقة بالمعاهدة قال شولنبرغ « ان الله قد جاء بذاته لمساعدتنا » . وفي ذلك الوقت ظننا انه يمثل فقط ، ولكن بعد ذلك علمنا ان اغتباطه بالمعاهدة كان مخلصاً . فقد ادرك ضرورة بناء علاقات بين المانيا والاتحاد السوفياتي على اساس السلم والصداقة ومبادىء عدم الاعتداء المتبادلة التي تربط الجانبين . وينبغي ان يكون قد ابلغ وجهات نظره إلى هتلر في وقت ما ، غير ان هتلر لم يعرها الاهتمام . وقد اشترك شولنبرغ في مؤامرة ضد هتلر في ١٩٤٤ ففشلت ، وكان هو بين الذين اعدموا .

وفي اثناء المدة التي جاءت فوراً بعد توقيع المعاهدة حقق ستالين وهتلر — او على الاقل تظاهرا بانهما حققا — التزاماتهما الواحد نحو الآخر ، كما نصت عليها المعاهدة . وجرى تبادل معلومات مفصلة نوعاً : فعلى ما اذكر ان مولوتوف كثيراً

---

(١) الكونت فرنر فون درشولنبرغ عمل حقيقة كل ما استطاعه للمحافظة على السلم بين المانيا وروسيا .

ما كان يبلغ ستالين : « شولنبرغ قال ... شولنبرغ ارسل ... » وما إلى ذلك . وبالطبع كان شولنبرغ اكثر اهتماماً في التقاط المعلومات منا ، مما كان في ابلاغنا اي شيء . واني اذكر مرة عندما كنت عند ستالين ان مولوتوف ابلغه الرواية الآتية : انه استدعى شولنبرغ إلى مكتبه ، فلاحظ شولنبرغ المختزلين يدونون اذاعات الراديو فقال « لماذا تلجأون في تدوينكم إلى الاختزال ؟ » ثم توقف عن الكلام فجأة . غير ان مولوتوف احتفظ بهذا الحادث في ذاكرته . ثم ادرك مما زلق به لسان شولنبرغ ان هنالك على ما يظهر لدى الالمان نوعاً من الوسائل الآلية لتدوين اذاعات الراديو تغنيهم عن المختزلين . ولم نكتشف الا بعد الحرب وجود آلات للتسجيل مما اوضح لنا الافضلية التي كانت تتمتع بها المخابرات الالمانية في نقل اذاعات الراديو بسرعة تستحيل على المختزل. وفوق ذلك فانها ترسل بالشيفرة ، وجهاز التسجيل يستطيع تسجيلها كما وردت ثم بعد ذلك يعيدها على مهل ويحل رموزها . وعلى هذا فان كلمة شولنبرغ العارضة إلى مولوتوف اعطتنا اول اشارة بان الالمان قد اخترعوا اجهزة التسجيل .

كان المفروض ، وفقاً للمعاهدة ، ان نعطي الالمان كمية معينة من الحنطة والزيت والمنتجات الاخرى . وقد اجرينا جميع تسليماتنا بمواعيدها بدون تأخير . وكان المفروض ان يعوضنا هتلر عن ذلك بطراد حربي . وقد ارسل حتى الاخصائيين التابعين له لمساعدتنا في تسليح الطراد . ووصل ضابط الماني بحري صاحب رتبة عالية إلى لينينغراد للاشراف على عملية تجهيز تلك السفينة . وبعد ان اعدت له تسهيلات السكن ، ظهرت الفضيحة ، وهي ان استخباراتنا ، على ما يبدو ، كانت قد زرعت في شقته جميع انواع اجهزة السمع والتصوير الفوتوغرافي . ويظهر ان الاميرال المذكور كان من المعجبين بالجنس اللطيف فاكرمته استخباراتنا بفتاة حسناء ، ثم حاولت ان تلتقط صورته في وضع غير محتشم معها . وتكرر ذلك على عدد من الليالي إلى ان سمع الاميرال صوت طنين ، فشرع يبحث في الغرفة ، فازال صورة كبيرة كانت معلقة على الجدار ، فوجد ان نافذة صغيرة قد فتحت في الصورة وعثر وراءها على آلة تصوير (كاميرا) فاسرع حالا إلى تسجيل شكوى . وظن جماعتنا ان باستطاعتهم ان يتصالحوا معه ويجندوه في خدمتهم . ولكن رؤساء الاميرال الالماني ما كانوا ليأبهوا لعلاقاته مع امرأة . واثار هتلر شخصياً ضجة حول ما حدث . واني اذكر ان ستالين غضب غضباً شديداً على بيريا بسبب الطريقة التي عالج بها رجاله المسألة كلها . وعبر هذه الحادثة علمت بامر الطراد . وفي ما بعد ، عندما انتهت الحرب كان الطراد لا يزال راسياً في لينينغراد غير كامل . وظن بعض الناس ان هتلر كان قد اعطانا الطراد لانه كان على استعداد لان

يشاركنا في قوته الحربية . والواقع ان هتلر اعتقد انه قبل الانتهاء من اعداد الطرد يكون قد سحق الاتحاد السوفياتي فيستعيده (١) .

واني لاذكر مثالا آخر يدل على كيف كان هتلر يحاول ان يظهر بمظهر من يريد ان ينفذ بشرف شروط معاهدة عدم الاعتداء . فقد كان لنا عقد مع مؤسسة صنع ذخائر تشيكوسلوفاكية اسمها « سكودا » التي كان المظنون انها تصنع لنا بعض المدافع المضادة للطائرات . وقد كانت تلك المدافع مدافع جيدة قطرها ٨٨ مليمتراً وتصنع وفقاً لنماذج كان قد سبق ان ابتعناها من سكودا . وكان المفروض ايضاً ان نحصل على بعض المدافع من قطر ٢٠٥ مليمتر . وعندما غزا هتلر تشيكوسلوفاكيا اوقفت سكودا العمل بالعقد . على ان هتلر شخصياً تدخل وامر سكودا بان تستمر في العمل وتتمم ما اوصينا عليه ، فاطاعت سكودا الامر وسلمتنا عدداً معيناً — دون ان يكون كافياً — من المدافع الثقيلة قطرها ٢٠٥ مليمترت. اما المدافع المضادة للطائرات وقطرها ٨٨ مليمتراً فقد جرى اخذها لكي تنتجها مصانعنا . وقد لعبت دوراً خطيراً في الحرب بوصفها مضادة للطائرات والدبابات .

وفي غضون هذه المدة كان الالمان يقدرون مبلغ سذاجتنا التقنية ، وبشكل خاص نوع معداتنا الآلية . وقد شعروا بضعفنا فشجعهم ذلك على العدوان . وهم بالطبع كما اتضح فيما بعد قد اخطأوا كثيراً في تقديرهم مقدرتنا .

وبدءاً من ١٩٤٠ نشأ الكثير من القضايا التي كانت موضع جدل وخلاف في علاقاتنا مع هتلر . وبعد مشاورات كثيرة في ما بيننا قررنا وجوب ذهاب مولوتوف إلى برلين . وفي تشرين الأول او تشرين الثاني من عام ١٩٤٠ جئت إلى موسكو بعد ان كان مولوتوف قد عاد من رحلته . وقال ان تدابير امن مشددة كانت قد اتخذت على طريق سفره بالقطار من الحدود السوفياتية إلى برلين . في اثناء المفاوضات قام الانكليز بغارة جوية فارغموا هتلر وحاشيته على الالتجاء إلى المخابىء . وذكر مولوتوف ان مظاهر المخبأ دلت على كثرة استعماله .

وقال مولوتوف وهو قليل الكلام بطبيعته ان مما يتميز به هتلر انه رجل غير ثرثار . وهو لم يتناول قطرة من المشروب . واضاف ان هتلر في المأدبة الرسمية لم يلمس حتى كأس النبيذ الذي وضع امامه وكان يقدم له الشاي في اثناء تناول

---

(١) هذا الحادث هو من مميزات تصرفات الشرطة السرية السوفياتية في الحاضر كما في الماضي . ويبدو ان انتقاد خروشوف الوحيد هو كيفية انكشاف الأمر .

الطعام (١) .

وقد استنتجت من اجوبة مولوتوف على اسئلة ستالين ان رحلته عززت الاعتقاد السائد بيننا إلى حد اليقين وهو ان الحرب واقعة حتماً ، والارجح قريباً . على ان وجه ستالين وتصرفاته لم تنم عن علامات القلق . وهو قلما اشركنا في قلقه او حتى سألنا عما يساورنا من القلق .

واني اذكر انه عندما طار هيس إلى انكلترا واطلق الالمان تلك الاكذوبة لتضليل الناس وهي انه هرب ، قلت لستالين « ان الالمان يخفون شيئاً . فانا لا اعتقد ان طيران هيس إلى انكلترا هو بالحقيقة فرار من المانيا على الاطلاق، بل اظن انه في الواقع ذهب في مهمة سرية من قبل هتلر للتفاوض مع الانكليز حول اختصار الحرب في الغرب لاطلاق يد هتلر إلى الاندفاع شرقاً (٢)». وقد اصغى ستالين لما قلته ثم قال : « نعم . تلك هي الحقيقة وتقديرك صحيح . » ولم يتوسع في رأيه حول هذا الموضوع إلى ابعد من ذلك ، مكتفياً بالموافقة على ما قلته . وقد كنا قبل ذلك بكثير قد تعودنا منه على الاكتفاء بما يقوله لنا دون ان نسأل . وقد يكون هذا اسلوباً صحيحاً في التعامل مع الموظفين ولكنه ليس صحيحاً في التعامل مع اعضاء الحكومة . والتصرف على هذا النحو مع اعضاء الهيئة الحاكمة في الحزب وفي البلاد هو انتهاك لجميع الاصول التي ينبغي مراعاتها والتقيد بها اذا اريد ان يكون الحزب ديموقراطياً . غير ان ذلك هو الذي حدث لحزبنا ، ، حزب لينين في الثلاثينات والاربعينات . فالمعلومات كان يجري اختيارها وتحديدها ووزنها من قبل ستالين قبل نقلها إلى المكتب السياسي . انه لم يكن محقاً في عمله هذا بمقتضى دستور الحزب ومجرد اتباعه هذا الاسلوب كان على اي حال مظهراً آخر للحكم التعسفي الذي

---

(١) في ليل يوم ١٣ تشرين الثاني ١٩٤٠ عندما كان روبنتروب ومولوتوف في موقف حرج في مفاوضات حول مناطق النفوذ والأماني التوسعية ، قام سلاح الطيران البريطاني بغارة على برلين . وفي اثناء الغارة ، كما قال ستالين بعد ذلك لتشرشل في طهران ، كان الالمان يصرون على القول بان بريطانيا قد انتهت ، فرد مولوتوف قائلا : « اذا كان ذلك هو الواقع فلماذا نحن الآن في هذا المخبأ ، ولمن هي هذه القنابل التي تتساقط علينا . » وقد كانت زيارة مولوتوف لبرلين بالنسبة لهتلر القشة الأخيرة ، فلم يمض شهر على ذلك حتى اصدر أمره رقم ٢١ الذي عرف «بعملية برباروسا » والموجه إلى القادة العسكريين للاعداد لسحق روسيا قبل انتهاء الحرب مع بريطانيا .

(٢) ان كثيرين من الروس لا يزالون يعتقدون حتى اليوم ان بريطانيا دخلت في نوع من المؤامرة مع هيس .

اكتسب صفة القانون في عهد ستالين .

وقد عدت إلى موسكو مرة اخرى في الشتاء ، وذلك اما في نهاية ١٩٤٠ او في مطلع ١٩٤١ . وحال وصولي تلقيت رسالة بان ستالين يريد ان يراني حالا في « الداشا القريبة » (وهو الاسم الذي اطلق على مقر ستالين الريفي) . وعند وصولي وجدت ستالين مستلقياً على المقعد وهو يقرأ . فاخبرني بانه لا يشعر بصحة جيدة ، ثم شرع في التحدث عن الشؤون العسكرية . وتلك كانت على الارجح اول مرة يتحدث فيها عن الشؤون الحربية عندما كنا مجتمعين على حدة . ويظهر انه كان يشعر فقط بالحاجة إلى من يتحدث معه ولم يكن يهمه من يكون ذلك الشخص . فقد كان دائماً يشعر بالكآبة عندما يكون وحده ، كما لو ان الجدران كانت تطبق عليه . واني اظن ان حديثنا عن الحرب الآتية كان مجرد ذريعة ليجتمع بي لاسليه بوجودي معه . ذلك كل ما استطيع ان افسربه الأمر ، لان ستالين لم يكن عادة يشعر شعوراً ملحاً بتبادل الرأي مع الآخرين . فقد كان يغالي في تقدير مؤهلاته ووجهات نظره ويراها أكبر قيمة من اراء الآخرين ومؤهلاتهم .

وفي تلك المناسبة ، في شتاء ١٩٤٠ — ١٩٤١ ، بدأ ستالين يتذمر من عدم استطاعته المشاركة في المشاورات العسكرية التي كانت دائرة حينئذ . وفي اثناء وجودي معه تلفن إلى تيموشنكو (١) وبدأ يجادله غاضباً مشدداً على اهمية سلاح المدفعية ومنتقداً بعض القرارات التي اتخذت فعلا في تفضيل بعض الانواع الاخرى من الاسلحة عليه . وقد بدا بصورة ظاهرة شديد القلق على حالة اوضاعنا الدفاعية . وتجاوبت انسانياً مع هذه الظواهر الخارجية لمخاوف ستالين العميقة، فقد كانت تخيم في الحقيقة على بلادنا غمامة سوداء .

واني اذكر اننا كنا جميعاً معاً في الكرملين عندما سمعنا بالراديو ان الجيش الفرنسي استسلم ، وان الالمان دخلوا باريس . وتحطمت اعصاب ستالين ، فصب اللعنات على حكومتي انكلترا وفرنسا .

كان هتلر موفقاً إلى حد مدهش في غزوه اوروبا . وكان قد حرك قواته بسرعة في اتجاه حدود الاتحاد السوفياتي ، وبعد سقوط بولونيا لم تبق هناك سوى حدود صورية بين قوات هتلر والاتحاد السوفياتي . فالمانيا وايطاليا واليابان بلدان قوية وهي متحدة ضدنا . وكان الاتحاد السوفياتي يواجه اعظم الاخطار المميتة في

(١) المارشال سميون تيموشنكو كان قد حل محل فوروشيلوف بوصفه مفوض الشعب للدفاع بعد حرب فنلندا في ١٩٤٠ وكان قبل تلك الحرب في اوكرانيا قائداً لمنطقة كييف العسكرية .

في التاريخ كله . وشعرنا نحن كما لو اننا نواجه ذلك الخطر وحدنا ولا معين لنا . فاميركا ابعد كثيراً من ان يكون بوسعها مساعدتنا ، وعدا ذلك فلم يكن من المعروف حينذاك كيف سيكون رد الفعل لدى اميركا في ما اذا هوجم الاتحاد السوفياتي . أما انكلترا فقد كانت معلقة بخيط ضعيف ، ولم يكن أحد يعلم ما اذا كان الانكليز سوف يستطيعون الصمود اذا حاول الهتلريون غزو بلادهم عبر المانش .

اما هتلر فكان يعلم مبلغ الخطر المحيط بنا . وقد بذل اقصى ما يستطيعه لاذلالنا . اذكر ان ستالين قال لي مرة ان هتلر ارسل طالباً ، بطريقة سرية ، خدمة منا . وهي ان يعمد ستالين بوصفه الرجل الذي يتمتع باعظم سلطة رهيبة في العالم الشيوعي ، إلى اقناع الحزب الشيوعي الفرنسي بان لا يتزعم المقاومة ضد الاحتلال الالماني لفرنسا. وبهذا الطلب انحدر هتلر إلى ادنى درك من الخبث والنذالة . فكيف توقع من ستالين ان يدخل في مثل هذه المساومة الحقيرة المحطة من الكرامة ؟ كيف توقع منه ان يتعاون مع الفاشيست ضد الحزب الشيوعي في فرنسا ؟ (١)

واني اذكر مثالا آخر لصفاقة هتلر . فقد عرض الالمان قصة استيلائهم على دانزغ كما لو كان ذلك مشهداً سينمائياً . فاقاموا آلات التصوير السينمائي سلفاً والتقطوا فلماً للمعركة من البحر والبر ، وحاولوا ان يوزعوا هذا الفلم على جميع بلدان العالم . فقد اراد هتلر ان يعلن عن قوته وان يوقع الشلل في خصومه المقبلين عن طريق ترويعهم . وقد اراد ان يرى العالم كله اية ضربات قاضية لا يمكن مقاومتها تستطيع القوات الفاشية توجيهها ، فتزلزل الارض عن طريق الارهاب . وقد اقترح هتلر على ستالين ان يأخذ هذا الفلم ويعرضه في دور السينما عندنا . ووافق ستالين على ذلك على شرط واحد ، قائلا : « اننا نوزع فلمك اذا كنت انت توزع افلامنا » . فقد كان لدينا بعض الأفلام التي تترك انطباعاً عظيماً جداً في نفوس المشاهدين باظهارها قواتنا في المناورات وفي حالات العرض . وقد كان من الطبيعي ، كما توقع ستالين ، ان يرفض هتلر هذا التبادل . تلك كانت طريقة ستالين في الرد على محاولة هتلر اذلال ارادتنا . اما « فلم » هتلر فقد ارسل الينا على كل حال وشاهدنا عرضه في الكرملين مع ستالين ، وكان وقعه مزعجاً جداً في نفوسنا ، اذ علمنا حق العلم اننا البلاد التالية التي يخطط هتلر لتحويل جيشه ضدها .

وكانت لدينا في ذلك الزمن تمثيلية عنوانها « المفاتيح إلى برلين » معروضة على عدد من المسارح . وهي جزء من حملة لتقوية الشعب نفسانياً واعداده للحرب

(١) ان خروشوف في اشمئزازه لا يذكر خيانة ستالين قبل ذلك للشيوعيين الالمان في مواجهة هتلر . ربما لم يكن على علم بذلك .

١٠

الآتية . كان الالمان يتبجحون بانهم لا يقهرون ، وبأن كل بلاد على وجه الارض سوف تقع قريباً تحت سلطانهم . وكانت تمثيليتنا هذه للتذكير بانه سبق ان كان هنالك مناسبات في التاريخ سحقت فيها القوات الروسية المانيا واستولت على برلين ، وبذلك تسلمت مفاتيح العاصمة الالمانية . على اننا لسوء الحظ لم نوفق إلى الاستيلاء على مفاتيح برلين في نهاية الحرب العالمية الثانية ، اذ كان يجب بالحق ، ان نستولي عليها .

التقدم الى داخل بولونيا

هنا ، وفي الفصل التالي يتحدث خروشوف عن حادث من اكثر الأحداث غموضاً وفظاعة في تاريخ الاتحاد السوفياتي ، وهو استيلاء السوفيات على بولونيا الشرقية ، او اوكرانيا البولونية ، بمقتضى النصوص السرية في ميثاق مولوتوف – روبنتروب . فبينما كان الجيش البولوني المتجه غرباً يمزق ويشتت في الهجوم الالماني الصاعق الأول ، تحرك الجيش الأحمر بهدوء وفاجأ الجيش البولوني من الخلف دون ان يلقى مقاومة تذكر ، وتقدم نحو الحدود الجديدة التي كان قد اتفق مع النازيين عليها . فلم يكن ذلك اقل من التآمر على هلاك بولونيا .

وكان خروشوف بوصفه نائب الحاكم في اوكرانيا السوفياتية هو المسؤول عن اقامة ادارة مدنية عاصمتها «لغوف» ، وعن تنظيم ضم الأراضي البولونية إلى الاتحاد السوفياتي . وكان ذلك عملا تم اجراؤه بأقصى ما يمكن من النشاط وقوة العزيمة . كانت مهمة الجيش الأحمر بقيادة تيموشنكو ان يطوق تشكيلات الجيش البولوني كلها ثم يتولى تدبير أمر نقلها إلى السجون ومعسكرات العمل في داخل الاتحاد السوفياتي . فزال نهائياً عن وجه الخريطة ١٥ الفاً من الضباط البولونيين . واكتشفت في ما بعد جثث أكثر من اربعة آلاف منهم في قبور جماعية في غابة « كاتين » قرب سمولنسك ، وقد قتلوا برصاص المباحث N K V D . ونقل اكثر من مئتي الف من الاسرى البولونيين نساء ورجالا إلى المعسكرات ومات الكثيرون منهم هناك . واطلق سراح آخرين بمقتضى اتفاقية ستالين – سيكورسكي بعد الغزو الالماني لروسيا ، فاتجهوا جنوباً ومات كثيرون منهم على الطريق . ووجد الاحياء منهم ملجأ أميناً تحت اشراف البريطانيين في ايران والشرق الأوسط ، حيث الف الجنود منهم جيشاً جديداً قاتل بمنتهى البسالة مع الحلفاء في « كاسينو » وفي سواها .

وفي اثناء ذلك ، بعد ان تمت تصفية الجيش والبورجوازيين ، اقام خروشوف حكومة دمية اجرت انتخابات على الطريقة السوفياتية وطلبت دمج الأراضي

المحتلة بالاتحاد السوفياتي . ويستحيل القول إذا ما كان خروشوف على علم تام بمدى نطاق هذه الفظائع . فهو يتحدث بمرح عن الاعتقالات ويصر على القول انها كانت ضرورية ، ونظراً لأنه كان سيداً على اربعين مليوناً من البشر فمن المستبعد ان يتوفر لديه اي تفهم مفصل عما كان يجري باسمه . فقد كان محاطاً بالمتملقين والمداهنين والمارقين وبعض المتحمسين الحقيقيين لروسيا (وقد كان ستالين قد سحق الحزب الشيوعي البولوني من قبل) . وكان يطل على جماهير هاتفة له تتظاهر « بعفوية » بعد ان جرى ترتيبها في اجتماعات عامة عقدت بعناية وتكتم. ولما كان لا يملك فكرة صحيحة عن احوال المعيشة في اماكن اخرى خارج الاتحاد السوفياتي ، وهو المؤمن بالعقيدة اللينينية ، فقد سهل عليه الاعتقاد انه ، حقيقة ، يوفر النور واسباب الراحة للمظلومين . اما الاعمال القذرة فكان يتولى القيام بها رئيس مباحث اوكرانيا ايفان سيروف .

وفي اوكرانيا البولونية ، كان هنالك بالحقيقة عدد كبير من المظلومين المضطهدين . فقد كان الجناح الأيمن لحكومة الكولونيل بيك دكتاتوري النزعة إلى حد بعيد . زد على ذلك ان تاريخ اوكرانيا كان مشوشاً كثيراً (اوكرانيا معناها « اراضي الحدود ») . وكانت الدولة الروسية الأولى قائمة في « كييف ». وبعد غزو التتر في القرن الثالث عشر اكتسبت موسكو الاولوية ، وفي نهاية القرن الخامس عشر عندما طرد التتر على اعقابهم أصبح « الروس الكبار »، اي المسكوبيون ، يختلفون من نواح عديدة عن الروس الصغار المنتمين إلى اوكرانيا . فاوكرانيا منطقة متنازع عليها تارة مع البولونيين وتارة اخرى مع الليثوانيين . وحتى القرن السابع عشر لم تكن كييف ولا اوكرانيا الشرقية قد اعيدتا إلى تحت سيطرة القياصرة المسكوبيين ، وبقيت اوكرانيا الغربية جزءاً من بولونيا إلى ان اتجه قسم منها إلى روسيا ، وقسم إلى النمسا وفقاً للتقسيم الأول الذي جرى في ١٧٧٢. وكانت لفوف حينئذ تعرف باسم «لمبرغ» . وللاوكرانيين شخصيتهم الخاصة بهم ولغتهم الخاصة القريبة من الروسية .

وبالرغم من ان اراضيهم كانت قد قسمت بين الدول ، فقد حافظوا على شعور قوي بالروح الوطنية واقاموا دولة مستقلة لهم في ١٩١٨ . على ان هذه الدولة لم تدم زمناً طويلا . فجرت بعد الحرب الأولى قسمة اوكرانيا مرة اخرى بين الاتحاد السوفياتي وجمهورية بولونيا الجديدة . ثم جاء عام ١٩٣٩ فقام الجيش الاحمر بقيادة تيموشنكو والحكومة السوفياتية ، يمثلها خروشوف باسترداد القسم الغربي من بولونيا بالقوة ، فزال مرة اخرى وجود بولونيا كدولة مستقلة . وقد احتفظ الروس بمكاسبهم بعد الحرب العالمية الثانية وعوضوا على الشيوعيين البولونيين بدفع حدود الدولة الجديدة مسافة بعيدة إلى داخل المانيا : خطاودر–نيس ، طاردين السكان الألمان إلى الخارج. وهذا الفصل مفيد

وله قيمة حقيقية ، من حيث انه يكشف وجهة نظر الكرملين وموقفه من شرقي اوروبا .

كيف بدت لي العلاقات الالمانية السوفياتية من موقعي في اوكرانيا ؟

ظن الالمان ، كما يظن جميع المؤمنين بالعقيدة البورجوازية ، انه نظراً لتعدد القوميات في الاتحاد السوفياتي فسوف ينهار عند اول طعنة توجه اليه . كانوا يتوقعون ان الخلافات القومية ستنشب ومركز تماسك الشعب سينفرط . وكان ذلك الوهم مصدر عزاء لجميع طالبي السوء للاتحاد السوفياتي في جميع انحاء العالم . وهذا مما شجع الالمان على تركيز ضغطهم على اوكرانيا (١) .

وبعد سقوط بولونيا نقل هتلر قواته إلى حدودنا ووجهها إلى الشرق . ولما كنا قد وقعنا معاهدة صداقة وعدم اعتداء مع الالمان ، فان الجهود التي بذلها هتلر لتحصين الحدود بدت مثيرة للشبهات والشكوك . فابلغنا ستالين بما حدث . ويجب ان يكون ستالين قد ادرك حقيقة الخطر ، غير انه لكي يبدد مخاوفنا ، تجاهل كما كانت عادته ، تقاريرنا وعارض تأكيداتنا عما يعتزم الألمان القيام به .

وهنالك حادث لا يزال بنوع خاص لاصقاً بذاكرتي . كنا على اتصال وثيق مع الألمان عندما بدأنا في تحويل الخط الحديدي في غربي المانيا من القياس الضيق الذي كان عليه إلى قياسنا العريض . وقد ظهر الألمان في عدد من المناسبات واسدوا نصيحة لنا بعدم تبديل قياس الخط الحديدي . وعرفت ماذا جال في خاطرهم ، فبادرت حالا إلى ابلاغ ستالين بان الالمان ينبغي ان يكونوا مصممين على استعمال خطوطنا لنقل معداتهم في المستقبل القريب . فلعن غاضباً وقال : « استمر في العمل واعط الامر بتحويل باقي الخطوط الجديدة باقصى ما يمكن من السرعة » . ففعلنا ذلك دون جدوى ، لان الالمان بعد القيام بالغزو اعادوا تحويل الخطوط إلى القياس الضيق . فقد كان عمال تركيب الخطوط يسيرون وراء القوات الفاشية ، منتزعين الاوتاد والقضبان ومثبتين مكانها اوتاداً وقضباناً جديدة .

وعلى الرغم من غطرسة الالمان وتبجحاتهم الساخرة بعد سقوط بولونيا ، فانهم حرصوا كثيراً على عدم مواجهتنا عسكرياً ، إلى ان يكونوا قد استعدوا للقيام بغزو هائل ساحق . وقد اتيحت لي الفرصة لان اراقبهم عن كثب . وبصفتي

(١) لقد كان الألمان مصيبين . فعندما قاموا بالغزو عام ١٩٤١ استقبلهم عدد كبير من الاوكرانيين استقبال المحررين ، وذلك قبل انقشاع تلك الاوهام .

عضواً في المجلس الحربي لمنطقة كييف ، فقد كنت في كثير من الاحيان ارافق القائد تيموشنكو لعرض قواتنا التي كانت محتشدة على الحدود . وقد هالنا ما شهدناه من التحطيم الكامل لآلة الحرب البولونية وانهيار الحكومة البولونية ذاتها بعد الهجوم الذي قام به الالمان في اول ايلول ١٩٣٩ . وكان البولونيون مزهوين ، يتيهون خيلاء عندما رفضوا بغطرسة اقتراحنا بان نوحد قواتنا معهم. والآن صار جيشهم شراذم محقرة تخضب دماؤها الارض (١) .

كانت معاهدة روبنتروب – مولوتوف قررت حدوداً جديدة بين بولونيا واوكرانيا السوفياتية. وقد عبرنا الحدود القديمة وتحركنا غرباً دون ان نلقى اية مقاومة تذكر . فقد حركنا قواتنا اولا إلى الامام حتى ترنوبل وانطلقنا وسط القرى البولونية التي كان اكثر سكانها من الاوكرانيين.وفي اليوم الثاني او الثالث من الحرب اقتربنا من لفوف ووصلنا اليها قبل الالمان بفترة قصيرة جداً . وقد كان جل اهتمامنا ان نتجنب الاصطدام بالالمان وبالتالي التسابق على دخول لفوف . ولذلك قررنا ايفاد ياكوفليف (٢) الذي كان انذاك مارشالا للمدفعية إلى الخطوط الالمانية للمفاوضة وكانت له معرفة قليلة باللغة الالمانية . ولو تسنى للالمان ما ارادوا لكانوا دخلوا «لفوف» قبلنا ونهبوها. ولكن لما كانت قواتنا بقيادة غوليكوف (٣) قد وصلت قبلهم فقد ارادوا ان لا يظهروا اي عداء نحونا فحافظوا على حرفية المعاهدة وابلغوا ياكوفليف قائلين : « الرجاء ، كونوا ضيوفنا ، تفضلوا اولا » . لقد كان هتلر يلعب لعبة كبيرة فلم يشأ ان يكون البادئ في قتالنا لاسباب تافهة ، بل ارادنا ان نعتقد انه رجل يحافظ على كلمته . وعلى ذلك فقد انسحبت القوات الالمانية عائدة إلى الحدود التي كانت قد اقرتها المعاهدة .

وكانت هنالك مظاهر ابتهاج عظيم ، سواء بين جنودنا او بين السكان المحليين لضم اوكرانيا الغربية إلى الاتحاد السوفياتي لتعرف باسم اوكرانيا السوفياتية.

(١) سعى البولونيون بكل تأكيد إلى حتفهم برفضهم البحث في عقد اي اتفاق مع الاتحاد السوفياتي وبريطانيا وفرنسا يسمح بموجبه للقوات السوفياتية بالمرور في اراضيهم في حالة الحرب مع المانيا . لقد كان البولونيون فخورين متعجرفين على انهم لم يلبثوا ان تحطموا وتشتتوا تحت وطأة الهجوم الالماني الصاعق . غير ان خروشوف ينسى ماحل بالجيش السوفياتي نفسه في فنلندا ثم في روسيا بعد هجوم هتلر .

(٢) اللفتننانت جنرال ف. ك. ياكوفليف الذي صار بعد ذلك قائداً للجيش السوفياتي الرابع امام لينينغراد .

(٣) ب. ل. غوليكوف الذي رقي في ما بعد إلى رتبة مارشال وصار قائداً عاماً لمنطقة لغوف الحربية .

وهذه الاراضي كان يسكنها في التاريخ اوكرانيون باستثناء المدن الكبرى . فلفوف مثلا كان بين سكانها بولونيون اكثر من الاوكرانيين غير ان تلك كانت اكثرية مصطنعة . وقد كان الاوكرانيون ممنوعين من العمل في المدن ولم يكن ليسمح لهم حتى بالعمل على الطرق . وكان هذا التفريق ممارساً كخطة سياسية للتأكيد بان البولونيين يسيطرون على المدن .

واذا نظرنا إلى استيلاء الاتحاد السوفياتي على اوكرانيا الغربية من مجرد وجهة النظر الاقليمية البحتة ، يتضح اننا قد ربحنا تقريباً كل شيء ما عدا ما كان يحق ان يكون لنا قانونياً ، وهي الاراضي البيلوروسية والاوكرانية التي كان قد استولى عليها بيلسدسكي في عام ١٩٢٠ (١) . وكان من الطبيعي ان يكون هنالك بعض الاوكرانيين الذين ، لاسباب قومية ، لم يكونوا راضين بمعاهدة روبنتروب – مولوتوف. فقد كان هؤلاء يعتقدون ان الحكم السوفياتي في اوكرانيا كان موقتاً وكانوا يفضلون خط كورزون الذي كان ابعد إلى الغرب ، على الحدود الجديدة التي تقررت بمقتضى معاهدة روبنتروب – مولوتوف .

وقد سبب لنا الاوكرانيون الوطنيون من المتاعب اكثر مما سببه اي كان سواهم في المدة الواقعة بين توقيع المعاهدة ونشوب الحرب في ١٩٤١ . وقد وقعت في ايدينا براهين مؤيدة بالوثائق لا نزاع فيها ، بانهم كانوا يتلقون الأوامر والأموال من الالمان . وهذه المعلومات تكون بدورها برهاناً قاطعاً على ان هتلر كان يستعد لغزو بلادنا . فقد كان يستغل الوطنيين الاوكرانيين عملاء له في اوكرانيا الغربية . وعندما قام بالغزو ساعد الوطنيون الموجودون في المنطقة الاستخبارات الالمانية اكثر من مرة (٢) .

وقبل الغزو كان الوطنيون الاوكرانيون يتطلعون بشوق إلى الحرب المتوقعة لان

(١) لقد كانت تلك الأراضي جزءاً من روسيا الامبراطورية حتى الثورة ، ولم تكن بولونيا موجودة كدولة ذات سيادة منذ التقسيم الثلاثي الذي جرى بين روسيا والمانيا والنمسا في ١٨٦٣ واعلنت بولونيا دولة مستقلة في تشرين الثاني ١٩١٨ وصار الجنرال بيلسدسكي رئيساً لها وبادروسكي عازف البيانو رئيساً للوزراء في اول ١٩١٩ . وقد حاول البلاشفة ، ان يثبتوا الهيمنة الروسية فزحفوا على وارسو بقيادة توكاشفكي فردهم بيلسدسكي على اعقابهم . وبمقتضى معاهدة ريغا في آذار ١٩٢١ قررت كلية بولونيا كجزء من بيلوروسيا واوكرانيا .

(٢) هنا ايضاً نرى ان خروشوف يجد صعوبة في الوصول إلى قرار في ما اذا كان يقلل او يؤكد قوة الوطنيين الاوكرانيين . وتأرجحه هذا مرتبط بالمناسبة التي تلائمه للتقليل او توكيد قوتهم . والواقع انهم كانوا اقوياء جداً .

غوبلز كان قد حملهم على الاعتقاد بان هتلر سوف يطرد « المسكوبيين » من اوكرانيا ويمنح الاوكرانيين استقلالهم على طبق من الفضة . وكان الاوكرانيون عاجزين عن ان يروا ما الذي يستطيع ان يعطيهم الحكم السوفياتي القائم على الأسس الماركسية – اللينينية التي هي اكثر النظم تقدماً ورقياً في العالم كله .

وعندما دخلنا لفوف اخطأنا في اطلاق زعيم الوطنيين الاوكرانيين ستيبان بانديرا من سجنه . ومن هو ستيبان بانديرا ؟ ان الكثيرين من الناس لا يعرفون عنه شيئاً . والبعض حتى يخلطون بينه وبين اوستاب بندر ، شخصية ألف وبتروف. والواقع ان ستيبان بانديرا كان مثل والده قبله كاهناً في اقليم ستانسلاف . وقد كان طالباً في وقت ما في معهد لفوف للعلوم التقنية .

وقد اودع السجن في لفوف لانه ادين بان له علاقة باغتيال وزير الشؤون الداخلية البولوني . ونحن لم نكن نشعر بالحزن الكثير على ذهاب وزير من وزراء الدولة البولونية الرجعية . على اننا مع ذلك اظهرنا بعض النقص في حسن التقدير باطلاقنا من السجن اشخاصاً من امثال بانديرا بدون مراجعة تاريخهم والتحقق من اوضاعهم . ونحن لم نكن لنتأثر بماضي بانديرا لكونه معارضاً للحكومة البولونية ، غير انه كان يتوجب علينا ان ندخل في حسابنا ان الاشخاص الذين مثله هم ايضاً من اعداء الاتحاد السوفياتي . انهم وطنيون اوكرانيون ولذلك فانهم مصابون بمرض الكره المزمن للحكم السوفياتي . ثم ان بانديرا شخصياً كان عميلا ظاهراً للفاشيست الالمان ، وقد سبب لنا بعد ذلك متاعب كثيرة . صحيح ان بانديرا عندما ادرك ان الهتلريين لا يعتزمون البر بوعدهم في رعاية استقلال اوكرانيا تحول مع اتباعه ضدهم . ولكنه حتى عندما فعل ذلك لم يتخل عن كرهه للاتحاد السوفياتي . وفي اثناء النصف الثاني من الحرب قاتل ضدنا وضد الالمان معاً . وبعد الحرب خسرنا الالوف من رجالنا في نضال عنيف بين الوطنيين الاوكرانيين وقوات الدولة السوفياتية (١) .

واني اود هنا ان اقول شيئاً عن مأساة حدثت في اوكرانيا اثناء الفترة التي

(١) ظل ستيفان باندیرا طيلة سنين عديدة بعد الحرب ، وحتى مصرعه ، يمثل مشكلة خطيرة للسلطات السوفياتية . ولاسباب بديهية لم يعلن شيء ابداً عن حركاته غير انه اقتضى استخدام القوات العسكرية على نطاق واسع لكسر شوكة القوات الثائرة ، المؤلفة من الاوكرانيين الوطنيين والفارين من القوات السوفياتية المسلحة واسرى الحرب السابقين والاشخاص الناقمين على شتى انواعهم والكثيرين من الوطنيين الذين وحد بينهم الخوف من موسكو والكره لها .

تلت توقيع ميثاق روبنتروب – مولوتوف ولم يسمح لي الوقت ان اعالج انا شخصياً تلك التطورات . وعدا ذلك فانني في مركزي الخطير جداً بوصفي عضواً في المكتب السياسي وسكرتيراً للجنة المركزية الاوكرانية لم يكن من اللائق ان تكون لي يد مباشرة فيها . وهذه الاحداث قد اخبرني بها الرفيق سيروف ، مفوض الشعب للشؤون الداخلية في اوكرانيا .

وكانت واجبات سيروف تتطلب منه ان تكون له اتصالات مع الغستابو . وكان احد ممثلي الغستابو قد دأب على المجيء إلى لفوف في مهام رسمية . ولم اكن اعلم اي نوع من الشبكة كان للغستابو في اوكرانيا ، غير انها كانت واسعة النطاق . وكان تغطية هذه الشبكة اتفاق متبادل يقضي بان الموجودين في الاراضي التي يحتلها الالمان والراغبين في العودة إلى اوطانهم في الاراضي البولونية السابقة التي تحتلها القوات السوفياتية يسمح لهم بذلك وعلى النحو ذاته يسمح لاي من الاوكرانيين الموجودين في الاراضي السوفياتية بالعودة إلى بولونيا التي يحتلها الالمان اذا ارادوا ذلك .

وقد وصف لي سيروف المشهد الآتي :

« هنالك خطوط طويلة من الواقفين خارج المكان الذي يسجل فيه الناس طلب الاذن بالعودة إلى الاراضي البولونية . وعندما حدقت النظر اليهم عن كثب صعقت اذ رأيت ان اكثر الواقفين في الصف هم من اليهود ، وهم يقدمون الرشوة إلى عملاء الغستابو ليسمحوا لهم بالسفر باسرع ما يمكن ليعودوا إلى اوطانهم الاصلية » .

وكان عملاء الغستابو يبدون رغبة شديدة في قبول الرشوة ليحصلوا على الثروة وليشحنوا اولئك الناس حالا إلى غرف الغاز . ولم يكن هنالك شيء نستطيع ان نفعله لوقفهم . انهم يريدون الذهاب إلى وطنهم . ربما كان لهم اقرباء في بولونيا وربما يريدون مجرد العودة إلى حيث ولدوا . ولا بد انهم قد علموا كيف كان الالمان يعاملون اليهود، ومن الطبيعي انه لم تكن هنالك نهاية افضل تنتظر هؤلاء اليهود البولونيين الذين بحكم القدر قد وجدوا انفسهم على ارض سوفياتية ولكنهم ارادوا ان يعودوا إلى ارض واقعة الآن تحت حكم الفاشيست .

وقد قابل النخبة من البولونيين الموجودين في اوكرانيا الغربية وصول الجيش الاحمر بمشاعر مختلفة. كان الكثيرون منهم ما زالوا في حالة ذعر . فقد تعرضوا لمواجهة دولة هتلارية تفرض في بولونيا وشهدوا تصفية الحكومة البولونية . وكانت وارسو في حالة خراب وشهدت مدن اخرى دماراً هائلا . وشعر البولونيون الذين نشأوا على ثقافة بورجوازية وآراء بورجوازية انهم قد فقدوا هويتهم القومية .

ولما كانوا لم يفهموا ولا قبلوا التعاليم الماركسية – اللينينية ، فانهم لم يستطيعوا ان يتصوروا ان ثقافتهم ستتغير واقعياً بضم اراضيهم إلى الاتحاد السوفياتي . وبعبارة اخرى ، بينما كان السكان الاوكرانيون الذين في اوكرانيا الغربية يشعرون بان الجيش الاحمر قد حررهم ، كان السكان البولونيون يشعرون بانهم قهروا وفقدوا حريتهم .

كانت اكثرية البولونيين في الاراضي الواقعة تحت الاحتلال السوفياتي ضد النظام السوفياتي. غير انهم عندما ووجهوا بالوضع الاخر الذي جلبه هتلر للقسم الباقي من بولونيا اختاروا ما ظنوا انه اخف الشرين . وانه لمن المؤسف ان بعض النخبة من اهل الفكر البولونيين فروا من البلاد ، فهلك اكثرهم في غرف الغاز والافران المتنقلة التابعة للغستابو (١) .

واني لاذكر حادثة حيرتني واحزنتني كثيراً . فعندما دخلنا لفوف كانت هنالك مغنية اوبرا بولونية شهيرة اسمها « واندا باندروفسكا » وقد طلبت من رجالنا الذين كانوا يعالجون الشؤون الثقافية ، ان يتفاوضوا معها ويعرضوا عليها ان تغني في كييف او خاركوف او في اوبرا اوديسا . وقد خيل لي ان مثل هذه الفرصة المغرية قد تقنعها بالبقاء ، فاني لم اشأ ان تعود مغنية شهيرة مثلها إلى ارض بولونية يحتلها الان الفاشيون واذا ما هي غنت في بولونيا يكون في ذلك نوع من التحدي للشعب البولونيا وللشعب السوفياتي على السواء.غير ان باندروفسكا تفوقت علينا بدهائها فتظاهرت بانها مهتمة جداً بما عرضناه عليها بينما كانت في الوقت ذاته تقوم بمفاوضات مع الفاشيست من ورائنا فجعلتهم يختطفونها بطريقة خفية إلى المنطقة الواقعة تحت الاحتلال الالماني . وفي احد الايام جاء سيروف وقال لي: «باندروفسكا ذهبت وهي في كاركوا. وقد ظهرت فعلا على المسرح هناك وغنت لضباط الجيش الالماني » .

وعلى الرغم من النكسات المماثلة لهذه ، فاننا كنا على ثقة بان المفكرين البولونيين وكذلك العمال والفلاحين البولونيين في اوكرانيا الغربية سيفهمون بصورة صحيحة ضرورة وجود معاهدة روبنتروب– مولوتوف ، ويقبلون الحكم السوفياتي . فلم يكن خطأنا اننا اضطررنا لتوقيع تلك المعاهدة ، بل كان ذلك خطأ

(١) في ١٩٣٩ بالطبع لم يكن هنالك غرف غاز . ان القرار بافناء يهود اوروبا الذي ادى إلى انشاء « اوشوتز » و «تربلنكا» وامثالهما بغرفها الغازية لم يضعه هتلر الا في ١٩٤١ . في ١٩٣٩ كان اليهود وخصوصاً الذين من اصل بورجوازي قد شعروا ان لهم حظاً اوفى في شراء طريقهم للخروج من المانيا إلى غربي اوروبا .

حكومة بولونية تنقصها الحكمة ، حكومة البلسدسكيين الذين اعماهم كرههم للاتحاد السوفياتي وعداواتهم للعمال والفلاحين الموجودين في دولتهم بالذات . لقد خافوا من ان اي اتصال بنا قد يشجع العناصر المحبة للحرية في مجتمعهم وخافوا اكثر من اي شيء آخر من الحزب الشيوعي في بولونيا وابوا ان يفعلوا شيئاً قد يزيد في قوة ذلك الحزب . لقد كان البلسدسكيين يعلمون انهم اذا انضموا الينا فان مصيرهم قد يتوقف على ارادة الشعب البولوني . لذلك رفضوا قبول مساعدتنا لهم ونتج عن ذلك ان القسم الاكبر من بولونيا كان من نصيب هتلر بينما اوكرانيا الغربية اتحدت مع اوكرانيا الشرقية ، فاتيحت الفرصة لافراد الشعب هناك ان يصيروا مواطنين في الاتحاد السوفياتي .

ضم اوكرانيا الغربية

هنا يستمر خروشوف في روايته عن ضم اوكرانيا البولونية للاتحاد السوفياتي ، مشيراً ايضاً إلى احتلال الدول البلطيقية في ١٩٤٠ . اما ضم لتوانيا ولاتفيا واستونيا فقد جرى – اعتقالات وترحيلات بالقوة وكل ذلك – بالطريقة التي سبق اتقانها في اوكرانيا ولكن مع الفرق ان تلك الشعوب الصغيرة لم تكن روسية ، وكانت على مستوى معيشي ارقى كثيراً من الاتحاد السوفياتي .

واصلنا العمل بقيادتي ، في مهمة اقامة دولة سوفياتية في اوكرانيا الغربية وفي تسوية الحالة في الاراضي التي تم ضمها من بولونيا . وقد ركزت جهودي لمساعدة الرفيق سيروف على خلق منظمات حزبية محلية في اوكرانيا الغربية . فجرى تشكيل لجان اقليمية اكثر اعضائها من اشخاص جاؤوا من اوكرانيا السوفياتية (الشرقية) ، في حين ان لجان المناطق شكلت بالاكثر من اشخاص محليين معروفين بنشاطهم الحزبي . وبالرغم من نفوذ الوطنيين الاوكرانيين القوي ، ومن المقاومة في اوساط المفكرين البولونيين ، فقد كان لا يزال هنالك عدد كبير من الاشخاص الراغبين في الاعتراف بحقيقة الوجود السوفياتي . حتى وان يكن الحزب الشيوعي في اوكرانيا الغربية قد جرى حله في اثناء حملة التطهير في ١٩٣٦ – ١٩٣٧ ، الا انه كان هنالك كثيرون من الشيوعيين في المنطقة ممن ما زالوا يشعرون معنا ويعطفون علينا.

وكانت قلوب بعض العاملين الحزبيين المحليين في اوكرانيا الغربية في المكان الصحيح ، غير انهم كانوا على درجة متوسطة من السذاجة . واني لاذكر حادثة مسلية بنوع خاص . فقد زرت مرة لجنة الثورة في لفوف لارى كيف يسير

رئيسها في عمله ، فوجدت مكتبه مزدحماً بالذين جاؤوا لمقابلته في صدد شؤون مختلفة متعلقة بادارة المدينة : مثل حالة خطوط القطر الكهربائية والطرق المفتقرة للاصلاح ، واهم من كل ذلك التيار الكهربائي في المدينة والمياه اللازمة لها . وكان الذين تولوا ادارة هذه الخدمات في الماضي جميعهم بولونيين وجاؤوا إلى لجنة الثورة لتوافق عليهم الادارة الجديدة ، وليتلقوا تعليماتها . وهناك وسط جميع هؤلاء الناس جلس رئيس اللجنة . كان رجلا كبير الهامة محتذياً جزمة عالية من اللباد ومعطفاً هائلا فوق سترته المصنوعة من جلد الغنم . وكان ذلك في اواخر الخريف وقد بدأ البرد . وكان يحمل مسدسين بارزين بشكل ظاهر من وراء معطفه . ولعل السبب الوحيد الذي لم يتدل من فوق كتفيه مدفع هو انه اثقل مما يستطيع حمله . اما الذين كانوا جالسين حوله منتظرين مقابلته ، فكانوا في ذعر وخوف منه .

وعندما انتهت ساعات العمل في مكتبه قلت له انني ارتعدت لرؤيتي رئيس لجنة الثورة في مثل ذلك المظهر . وقلت : « اسمع ، ان هذا لا يجوز ابداً ، فانك تترك اثراً مرعباً في نفوس هؤلاء الناس وتعطي اسماً سيئاً لشخصك وللحزب . فماذا كنت تفعل لو ان ارهابياً اقتحم هذا المكان وحاول ان يقتلك ؟ انه يستطيع ان يطلق الرصاص عليك من احد مسدسيك . فمن الآن وصاعداً ، اذا اردت ان تحمل مسدساً تأكد ان لا يكون ظاهراً للخارج من وراء معطفك على هذا الشكل » .

وكان هنالك شيء آخر ادهشني في لفوف وغيرها من مدن اوكرانيا الغربية ، هو موقف السكان اليهود المحليين . كان هنالك كثيرون من اليهود في اوساط الطبقة العاملة والمفكرين وبعضهم كان يعمل ضد السوفيات . وكان البعض منهم ايضاً ينتمون مع الاوكرانيين إلى منظمات وطنية ضد بولونيا اطلق عليها اسم الحزب الشيوعي للدفاع عن اوكرانيا (١) .

واذكر اننا مرة وجهنا دعوة إلى اوكرانيين ويهود وبولونيين – وكان اكثرهم من العمال والبعض الآخر من المفكرين ايضاً – إلى اجتماع في دار الاوبرا . وخطر لي انه لشيء غريب جداً ان اسمع متكلمين من اليهود في ذلك الاجتماع يشيرون إلى انفسهم بانهم « يديش » . وقالوا شيئاً مثل « نحن اليديش » نعلن اننا من محبذي كذا وكذا .

وفي خارج الرواق بعد الاجتماع استوقفت بعض اولئك الاشخاص وسألتهم

(١) الحروف الأولى باللغة الروسية كانت مثل تلك التي للحزب الشيوعي في اوكرانيا الغربية .

«كيف تتجرؤن على استعمال كلمة « يديش » ؟ الا تعلمون انه تعبير عدواني واهانة للشعب اليهودي ؟

فاجابوا قائلين : « الأمر هنا في اركرانيا الغربية بخلاف ذلك تماماً ، فاننا نسمي انفسنا « يديش » ونعتبر كلمة يهود اهانة » .

ويبدو ان ما قالوه كان الحقيقة . فاذا عدنا إلى الادب الاوكراني ، واخذنا كلمة « غوغول » على سبيل المثال نرى ان « يديش » لا تستعمل على سبيل السخرية او الاهانة . ولكن حتى بعد ان وضحت لنا هذه العادة ، فقد ظلت مزعجة لاحساساتنا حتى صرنا متعودين عليها . (١)

وبينما كنا نحاول ان نكتسب تأييد نخبة المفكرين في اوكرانيا سمعت عن كاتبة اسمها واندا لفوفنا واسيلوسكا كان لصوتها وقع عظيم جداً بين المفكرين البولونيين . فاصبحنا ، انا وهي ، صديقين . كانت شخصية طيبة ذكية جداً وصادقة للغاية . وصارت شيوعية لا تشوب سمعتها شائبة ، وذات ولاء لا حد له . وصارت في ما بعد واحدة من القلائل الذين باستطاعتهم ان يتحدثوا إلى ستالين ويردوا على حديثه ويظلوا محتفظين بحسن نظرته اليهم . وكانت هي قد فرت مشياً على قدميها من وارسو إلى المنطقة التي تحتلها قواتنا ، مرتدية معطفاً من جلد الغنم ومحتذية حذاء اسود عادياً . وهي من اسرة بولونية عريقة ، اذ انها ابنة وزير في حكومة بلسدسكي . واشيع ان بلسدسكي كان عرابها مع انني لم اسألها ابداً اذا كان ذلك صحيحاً . والمهم فيها كان تأييدها بصورة واضحة وحزم اقامة دولة سوفياتية في الاراضي البولونية سابقاً . وقد ساعدتنا للتوصل إلى اولئك البولونيين في اوكرانيا الغربية الذين كانوا متمسكين عن غير تعقل بالرأي القائل اننا فاوضنا لعقد ميثاق روبنتروب – مولوتوف على حساب حريتهم (٢) . وقد تعرفت فيما بعد إلى « ايفا » ابنة واندا لفوفنا التي كانت تسكن الاتحاد السوفياتي وتعمل في احدى مكتبات موسكو الكبيرة .

ان عملي الرئيسي كان ان انشىء منظمات تمثل الشعب في اوكرانيا الغربية

---

(١) ان كلمة «يد» المهينة في نظرنا هي اقرب شيء إلى كلمة «زهيد» الروسية. فيهود اوكرانيا الغربية يشيرون في الواقع إلى انفسهم بانهم «زهيدون» وهذا شيء شائع حتى ان اي اوكراني او روسي كان يعرف ذلك ويعتبره امراً عادياً .

(٢) كانت واسيلوسكا مغتبطة بوطنيتها السوفياتية الجديدة وتزوجت فيما بعد كورنيشوك الكاتب الذي ليس اقل منها في اتجاهاته السياسية . على ان اكثرية البولونيين اعتبروها خائنة . ومكافأة لها على المساعدة التي قدمتها في تصفية زملائها البولونيين ، عينت نائبة لرئيس وزراء اوكرانيا .

واعطيها فرصة لان تعلن عن ذاتها : ما اذا كانت تريد ان تنضم إلى الدولة السوفياتية ام لا ؟ وجرى انتخاب مندوبين لاجتماع يعقد في لفوف لاجل اتخاذ قرار حول هذه المسألة . وعندما عقد الاجتماع جلست انا في مقصورة خاصة وراقبت مبلغ نجاح الجلسة الأولى . وكان ذلك حدثاً مشجعاً للغاية ، اذ كانت هيئة الرئاسة المحلية مؤلفة من اشخاص من اوكرانيا الغربية وكنا على معرفة باتجاهاتهم ومواقفهم السياسية لانهم كانوا قد اعلنوا عن ذلك في اجتماعات عامة وفي الصحف . ولكن مع ان هؤلاء كانوا معروفين جيداً منا ، فانهم لم يكونوا على الاطلاق ادوات في ايدينا او عملاء سياسيين لنا بل كانوا شيوعيين بعقيدتهم.

وقد استمر انعقاد الاجتماع عدداً من الايام وسط ابتهاجات عظيمة وحماسة سياسية قوية . ولم اسمع خطاباً واحداً يعبر حتى عن اقل شك بوجوب اقامة دولة سوفياتية في اوكرانيا الغربية . وكان الخطباء ، الواحد تلو الآخر ، يعلنون بحبور وباسلوب مؤثر ان من اغلى احلامهم قيام جمهورية اوكرانية سوفياتية . وكان من دواعي الغبطة والارتياح لي ان ارى الطبقة العاملة والفلاحين والمفكرين العاملين قد بدأوا جميعاً يتفهمون التعاليم الماركسية – اللينينية ، وان يرغبوا جميعاً في بناء مستقبلهم على هذه الاسس . تلك كانت قوة افكار لينين ! وبالرغم من كل الجهود التي بذلها الحكام البولونيون لتشويه عقيدتنا اللينينية ولارهاب الشعب ، فان افكار لينين كانت حية وناشطة في اوكرانيا الغربية . وفي الوقت ذاته كنا لا نزال نقوم بالاعتقالات وكان من رأينا انها ضرورية لتقوية الدولة السوفياتية وتطهير الطريق لبناء صرح الاشتراكية على المبادىء الماركسية – اللينينية (١) .

---

(١) كانت الاعتقالات في الحقيقة (من ينكر ذلك) مقصودة لتقوية الدولة السوفياتية التي اعتبرت ذاتها حينئذ (كما هي اليوم) ليست ذات قوة كافية لتسامح بوجود افراد خارج السجون او معسكرات العمل يفترض انهم يشككون بالحكم القائم . ففي بولونيا التي يحتلها السوفيات وفي دول البلطيق الواقعة تحت الاحتلال السوفياتي ، ارتفعت اعتقالات امثال هؤلاء الأفراد إلى مئات الألوف وان أشد وصف تأثيراً في النفوس عما حدث في اعتقالات المدنيين ظهر في الرواية «الجانب الأسود من القمر» التي طبعت بدون ذكر اسم واضعها وبمقدمة بقلم ت . س. اليوت عن بحث دون جدوى عن ١٥ الفاً من الضباط البولونيين الذين اسرهم الروس . اقرأ « الأرض غير الانسانية» تأليف جوزف كزابسكي مع مقدمة بقلم موريس هالي وادوارد كرانشكو . ولوصف اكتشاف جثث حوالى ٤٠٠٠ من اولئك الضباط الذين وجدوا قتلى في غابة كاتيا قرب سمولنسك انظر « قتلى حرش كاتيا» لمؤلفه جوزيف ماكيووكز .

غير ان اعداءنا البورجوازيين كانت لهم تفسيراتهم الخاصة للاعتقالات التي حاولوا ان يستعملوها لتشويه سمعتنا في جميع انحاء بولونيا . ولكن على الرغم من هذه الحملة الافترائية رحب شعب اوكرانيا الغربية بالجيش الاحمر بالاسلوب الذي ينبغي على الشعب العامل اتباعه للترحيب بمحرريه .

وواصل الاجتماع المعقود في لفوف سيره المظفر . وكان الممثلون يلقون خطبهم ودموع الفرح تنهمر من عيونهم . وقالوا انهم اخيراً قيض لهم ان يعيشوا ليروا اليوم الذي صارت فيه اوكرانيا موحدة مع اخوانهم الاوكرانيين الشرقيين . ان الاماني الغالية التي كان يصبو اليها الشعب الاوكراني قد تحققت ، وفي الوقت ذاته اصبحت حدود الدولة السوفياتية حصينة . فحدودنا دفعت غرباً ، والمظالم التي نزلت بالشعب الاوكراني وضع لها حد . ولم يسبق ابداً من قبل ان تحققت وحدة الشعب الاوكراني في ظل دولة اوكرانية واحدة ، الا الآن في العهد السوفياتي ، فصار هذا الحلم حقيقة واقعة . (١)

على ان الاجتماع الذي عقد في لفوف لم يعكس سوى شعور الذين تحرروا من نير الاضطهاد البولوني . لذلك فان توحيد اوكرانيا والموافقة رسمياً على قبول الاراضي البولونية السابقة في الاتحاد السوفياتي لم يكونا قد تحققا بعد بصورة قانونية . اذ ربما بقي هنالك اجراء شكلي واحد . فلم يكن احد يتوقع من الاوكرانيين المنتمين إلى المناطق الشرقية ان يعترضوا على اندماج اوكرانيا الغربية في دولة اوكرانية سوفياتية . وبعد الاجتماع التمثيلي او التأسيسي الذي عقد في لفوف ، نقلنا البحث في جميع هذه القضايا إلى كييف حيث طلب المندوبون إلى الاوكرانيين ، ثم إلى الحكومة السوفياتية الموافقة على قبول اوكرانيا الغربية كجزء من اوكرانيا السوفياتية . وفيما بعد طلبوا ايضاً الانضمام إلى الاتحاد السوفياتي في جلسة خاصة لمجلس السوفيات الاعلى لدول اتحاد روسيا السوفياتية الذي دعي للانعقاد في كييف .

وكانت الحالة النفسية التي سادت هذه الجلسة انتصاراً رائعاً . وكان من دواعي غبطتي العظيمة وافتخاري انني حضرت هذه الاجتماعات ، لانني منذ البداية توليت التنظيم والاشراف على عملية دمج اوكرانيا الغربية واوكرانيا الشرقية .

صحيح انه لا يزال هنالك بعض الاوكرانيين يسكنون في الجانب الآخر من جبال كرباتيا . وبعد تصفية تشيكوسلوفاكيا ، جرى ضم اوكرانيا الكرباتية إلى المجر . وكان الاوكرانيون يقولون في ما بينهم ان الوقت سوف يحين لانضمام

(١) لا شك في ان لأغلبية السكان وجهة نظر اخرى في هذا الموضوع .

الاوكرانيين الكرباتيين الينا . وهذا تماماً ما حدث بعد الحرب . فعندما انهزم هتلر انضم الاوكرانيون الكرباتيون إلى اوكرانيا السوفياتية وصار جميع الأركرانيين اخيراً موحدين في دولة واحدة .

وفي الوقت ذاته كان العمل مستمراً على توطيد وجود «بيلوروسيا» (روسيا البيضاء) في الاتحاد السوفياتي . وقد احتفل البيلوروسيون كالاوكرانيين فرحاً بانتصار الدولة السوفياتية وبالتوحيد التاريخي لجميع السكان البيلوروسيين في دولة بيلوروسية سوفياتية واحدة .

اما ضم لتوانيا ولاتفيا واستونيا فقد تم بعد ذلك . وعندما بدأ موسوليني بالهجوم على اليونان ، وقام هتلر بغزو يوغوسلافيا واحتلال نروج التي تكاد تكون على مرمى رصاصة من حدودنا الشمالية قرب مورمانسك ، افتتحنا مفاوضات مع لتوانيا ولاتفيا واستونيا (١) طالبين تأكيدات على ان هذه الجمهوريات البلطيقية لن تهاجمنا . ولا حاجة للقول ، انه جرى حالا تبديل في حكومات كل من تلك البلدان .

وقد علمت انا بما يجري هناك من حديث ، جرى لي مع ستالين ، عندما عدت إلى موسكو من كييف . وكنا جميعاً في غاية السرور من ان اللتوانيين واللاتفيانيين والاستونيانيين عادوا مرة اخرى ليكونوا جزءاً من الدولة السوفياتية . ان معنى ذلك توسيع اراضينا وزيادة عدد سكاننا وتحصين حدودنا والاستيلاء على حدود ساحلية واسعة على بحر البلطيق (٢) .

ان ضم دول البلطيق عزز ايضاً اهدافنا التقدمية في ما يتعلق بشعوب تلك المنطقة . فان شعوب البلطيق على خلاف البيلوروسيين والاوكرانيين الذين توحدهم روابط قومية مع الروسيين ، هم من طينة قومية مختلفة ومع ذلك اعطيت لهم الفرصة لان يعيشوا في احوال معادلة للاحوال التي يعيش فيها طبقة العمال والفلاحين

(١) احتل هتلر نروج في آذار ١٩٤٠ ، وهاجم موسوليني اليونان في تشرين الأول ١٩٤٠ . وغزا هتلر يوغوسلافيا في نيسان ١٩٤١ . ولكن روسيا استولت على دول البلطيق في حزيران ١٩٤٠ .

(٢) اعتراف بارد غير عادي بايمان السوفيات في ان القوة هي الحق . ان جميع هذه البلدان عادت بعد تقلبات كثيرة في تواريخ مختلفة من القرن الثامن عشر لتصير جزءاً من الامبراطورية الروسية . ففي ١٩١٨ اعلنت كل منها على حدة استقلالها . وسكان هذه الدول على خلاف الاوكرانيين ليسوا سلافيين ، وكانوا جميعاً متفوقين على الروس في تطوراتهم الزراعية والاقتصادية وكذلك في مستوى ثقافتهم العامة . فالفلاحون والعمال يخسرون كل شيء ولا يربحون شيئاً من صيرورتهم سوفياتيين .

والمفكرين البارزين في روسيا . وكنا متأكدين تأكيداً قاطعاً ان الضم كان انتصاراً عظيماً لشعوب البلطيق وكذلك للاتحاد السوفياتي . ان الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين في دول البلطيق كانوا على بينة من ان عملية تصفية الطبقات الاستغلالية التي انجزناها في روسيا سوف تنتقل اليهم كما سوف تنتقل إلى جميع الشعوب التي تنضم إلى الاتحاد السوفياتي .

ولفترة قصيرة واجه اللتوانيون واللاتفيانيون والاستونيون مشكلة فرار زعمائهم مع البورجوازيين . اما بعض الزعماء الذين لم يسمح لهم الوقت بالفرار فقد اعطيت لهم مناصب في الحكومات الجديدة .

وكان علينا ان نجد اشخاصاً جدداً ، (١) فشرعنا في عملية توطيد النظام السوفياتي على طريقة تدريجية اكثر مما كانت عليه طريقتنا في اوكرانيا وبيلوروسيا ، وذلك اولا بتشكيل حكومات هي اكثر ميلا نحو الاتحاد السوفياتي وبانشاء احزاب شيوعية محلية تمنح لها اوضاع قانونية . ثم بدأت القوى التقدمية بايجاد صداقات للاتحاد السوفياتي بين الجماهير . وبعد مدة معينة من الزمن اعلنت شعوب البلطيق رغبتها في ان تصير جزءاً من الاتحاد السوفياتي ، فتم اقامة الحكم السوفياتي باساليب ديموقراطية ومع التقيد بالاجراءات القانونية المطلوبة (٢) .

وقد رحب الشعب السوفياتي بدخول دول البلطيق في الاتحاد السوفياتي بالحماسة ذاتها التي رافقت ترحيبنا لتوحيد اوكرانيا وبيلوروسيا . وكانت هذه الانضمامات انتصاراً على العصبية القومية عند هذه الشعوب . وامنا جميعاً بدون تساؤل لحكمة ستالين ومجدناه لبعد نظره في حماية سلامة بلادنا . وكانت لنا ثقة

---

(١) كثيرون فروا حقيقة وآخرون لم يسعدهم الحظ ان يفعلوا ذلك . وقدر ان اكثر من ١٧٠,٠٠٠ اعتقلوا بين وقوع الضم السوفياتي والغزو الالماني ووضعوا في الشاحنات المعدة لنقل الحيوانات ونفوا إلى سيبيريا . وكانت اللائحة الاخيرة للفئات التي نفيت والتي شملت في الدرجة الأولى تقريباً كل من لم يكن عاملا يدوياً او فلاحاً او شيوعياً معترفاً بالشيوعية قد وضعها سيروف قبل سبعة شهور من الاحتلال وحملت بالترتيب رقم ١٢٨٣ ، تاريخ ١١ تشرين الأول ١٩٣٩ . ووضعت قيد التنفيذ الاجراءات ذاتها الخاصة بالاعتقالات والترحيلات ولكن على نطاق موسع كثيراً .

(٢) بتعبير آخر يمكن ان يقال ان الحكومات الصورية الالعوبة التي اقامها السيد السوفياتي المطاع اندريه جدانوف كانت لدول البلطيق كما كان خروشوف (لاوكرانيا البولونية) : صدرت لها الاوامر من موسكو لان تطلب اندماج دولها في الاتحاد السوفياتي ، وقد اطاعت تلك الأوامر .

بمقدرته على جعل حدودنا منيعة ضد اي اعتداء ولم يكن بالامر الصغير ان نوسع إلى الغرب حدود اوكرانيا السوفياتية ، وان نفتح طريقاً جديدة إلى بحر البلطيق . فقد كان لنا قبل ذلك منفذ ضيق فقط عبر خليج فنلندا . وكنا نعتقد انه اذا نشبت حرب على نطاق كبير وحاولت انكلترا او فرنسا او المانيا انزال جيوشها لمحاربتنا ، فقد تختار استعمال اراضي لتوانيا او لاتفيا او استونيا كنقطة انطلاق . لهذا فان ضم دول البلطيق دعم كثيراً وسائل دفاعنا . وهذا كانت له اهمية كبرى ، لان اقتصادنا في ذلك الزمن وصناعتنا كانا ضعيفين وكنا مطوقين بقوات معادية ومتفوقة علينا من المعسكر البورجوازي الامبريالي .

حرب الشتاء مع فنلندا

ان رواية خروشوف عن حرب الشتاء الشهيرة في ١٩٣٩ – ١٩٤٠ تتفق نوعاً ما مع الحقائق الثابتة . على ان افضل واكمل بيان للمفاوضات التي حاول بها ستالين اقناع الفنلنديين بالتخلي عن جزء من كاريليا لضمان سلامة لينينغراد متوفر في كتاب فاينو تانر وعنوانه « حرب الشتاء » . وبالرغم من ان تانر كان المعارض الذي لا يلين للتوسع السوفياتي ، فقد قال بكل وضوح ان ستالين كان متردداً إلى اقصى حد في استعمال القوة ، وقد دهش حقاً عندما رفض الفنلنديون تلبية طلباته . وعندما قرر ان لا مناص من استخدام القوة توقع ان الفنلنديين سوف يستسلمون حالا . وقد هيء البلشفي الفنلندي العجوز كوزينين لتسلم مقاليد حكومة المنطقة المحتلة . وكما يعلم العالم باسره لم تجر الامور على هذا الشكل اذ أبدى المارشال مانرهيم والفنلنديون مقاومة باسلة وجلبوا المذلة على الجيش الأحمر وطعنوا كبرياءه .

واقتضى الأمر استبدال فوروشيلوف بالمارشال تيموشنكو الذي استعان بكامل ثقل الجيش الاحمر حتى سلم الفنلنديون في النهاية . وكان هذا الصمود صدمة قاسية للروس وخيبة كبرى .

وبعد الغزو النازي للاتحاد السوفياتي في حزيران ١٩٤١ ارغم الفنلنديون على الرضوخ لطلبات هتلر والقتال إلى جانب الألمان . وان ما يقوله خروشوف عن انه بعد هزيمة هتلر كان باستطاعة ستالين ان يأخذ فنلندا كلها ولكنه لم يفعل ، لقول صحيح وعادل .

ففنلندا ، عدا كاريليا ، لم تكن ضرورية للاتحاد السوفياتي . زد على ذلك ان الروس لا يرتاحون إلى الفنلنديين . وكانت فنلندا قد أصبحت معزولة ، بحيث أمكن تحطيمها في حال نشوب حرب كبرى في اوروبا بمنتهى السهولة .

مع ازدياد قلقنا واهتمامنا بحماية خطوط دفاعنا ضد الهجوم من الشمال ، نشأت قضية فنلندا . فكان علينا ان نضمن سلامة لينينغراد التي تقع في مدى القصف المدفعي من حدود فنلندا . اضف إلى ذلك ان حكومة فنلندا كانت تسير على سياسة معادية للاتحاد السوفياتي . فهي بصورة علنية تداهن وتتملق المانيا الهتلرية . وكان القائد الفنلندي الاعلى كارل مانرهيم جنرالا قيصرياً في السابق ، وعدواً لدوداً للاتحاد السوفياتي (١) ، وكان فاينو تانر ديموقراطياً اشتراكياً قديماً ، غير انه بقي عدواً لدوداً لعقيدتنا الماركسية — اللينينية حتى آخر حياته (٢) . ونتيجة لذلك كانت فنلندا خطراً حقيقياً علينا لان اراضيها يمكن استعمالها من قبل حكومات اقوى منها . ولذلك كان من المعقول ، بل في الحقيقة من المحتم على الدولة السوفياتية ان تتخذ التدابير لحماية لينينغراد .

وهكذا بدأنا اولا بمفاوضات مع فنلندا بغية التوصل إلى نوع من الاتفاق الدبلوماسي. ودارت هذه المحادثات بينما كنت انا في اوكرانيا . واردنا من الفنلنديين التخلي عن قدر معين من الارض ، وبالتالي ابعاد الحدود قليلا عن لينينغراد . ولم نكن نحتاج لأكثر من ذلك لحماية سلامة المدينة . على ان الفنلنديين رفضوا الموافقة على شروطنا فلم يبق لنا سوى ان نقرر القضية عن طريق الحرب .

وكنت كلما جئت إلى موسكو من كييف يستدعيني ستالين بصورة دائمة تقريباً اليه . فكنت احياناً اجده وحده عندما اذهب لمقابلته . وكان تبادل الآراء الصريحة معه أيسر اذا نحن كنا على انفراد . ولكن غالباً ما كان مع ستالين ، عندما ازوره ، مولوتوف وفوروشيلوف وكاغانوفيتش وبعض الاحيان جدانوف . وكان جدانوف السكرتير الاول لمنطقة لينينغراد الشيوعية . وكثيراً ما كان هنالك ايضاً ميكويان وبيريا .

---

(١) كان المارشال فون مانرهيم رئيساً لمجلس الدفاع الفنلندي عندما كان التهديد بالحرب قائماً وكان هو المسؤول عن خط مانرهيم ، وهي التحصينات الشهيرة في عمقها والتي حاول الروس ، احكام الطوق عليها زمناً طويلا ، على غير جدوى .

(٢) كان فاينو تانر رئيس وزراء فنلندا من ١٩٢٦ — ١٩٢٧ . وهو الذي تولى مفاوضة الروس في ثلاث زيارات متتابعة إلى موسكو في خريف ١٩٣٩ ، في مسعى للوصول إلى اتفاق مع ستالين . وصار بعد ذلك وزيراً للخارجية في حكومة حزبه ، وبالتالي الرجل العظيم الذي يدير شؤون السياسات الفنلندية . وقد كان بعبع الزعامة السوفياتية ليس فقط لانه كان مكروهاً بوصفه ديموقراطياً اشتراكياً (والشيوعيون يكرهون جميع انواع الاشتراكيين الآخرين ويخافونهم أكثر من كرههم وخوفهم من المحافظين) ولكن ايضاً لانه كان يفهمهم تمام الفهم ويعرف قوتهم ومواضع ضعفهم .

وفي احد الايام عندما جئت موسكو ودعاني ستالين لتناول العشاء معه في منزله ، اخبرني ان مولوتوف وكوزنين سوف يحضران ايضاً .

وكان كوزنين حينئذ ملحقاً بالكومنترن . وعند وصولي إلى شقة ستالين في الكرملين خامرني شعور بان ستالين ومولوتوف وكوزنين كانوا يتحدثون عن فنلندا . والظاهر انهم كانوا قد قرروا فعلا توجيه انذار نهائي إلى فنلندا . وكان قد تم الاتفاق على ان يرئس كوزنين حكومة جمهورية كاريلو — فنلندية سوفياتية جديدة . وقد كانت كاريلا حتى ذلك التاريخ جمهورية ذات استقلال ذاتي منضمة إلى الاتحاد الروسي . والآن سوف تصبح كاريلا جمهورية اتحادية .

وكان الرأي الاجماعي الذي توصلوا اليه ، هو وجوب اعطاء فنلندا فرصة اخيرة لقبول طلباتنا الاقليمية التي سبق لها ان رفضتها اثناء المفاوضات المتعثرة ، فاذا لم ترضخ لانذارنا نأخذ إجراءات حربية . هذه كانت فكرة ستالين . وانا بالطبع لم اعارضه ، لانني في هذه الحالة كنت اعتقد ان هذا هو عين الصواب . وكل ما كان علينا ان نفعله هو ان نرفع صوتنا قليلا ليؤدي الفنلنديون الطاعة . فاذا لم ينجح ذلك ، عدنا إلى اطلاق قذيفة واحدة فيرفع الفنلنديون ايديهم مستسلمين ، او ذلك ما كنا نظنه . وعند وصولي إلى الشقة كان ستالين يقول : « دعونا نبدأ العمل اليوم » .

وجلسنا حول المائدة زمناً طويلا ، وكانت ساعة الانذار قد سبق تحديدها . وبعد انقضاء الزمن المحدد ارسل مارشال المدفعية كوليك للاشراف على قصف الحدود الفنلندية بالقنابل (١) . وانتظرنا نحن لنرى ماذا سيحدث . وبدا ستالين واثقاً ولم يكن احد منا يظن انه سوف تكون هنالك حرب . لقد كنا متأكدين ان الفنلنديين سوف يقبلون طلباتنا بدون ارغامنا إلى الدخول في حرب . واني اكرر القول ان هدفنا الوحيد كان حماية سلامتنا في الشمال . وبالمقارنة مع اراضينا ومواردنا الطبيعية الهائلة لم يكن لدى فنلندا ما تقدمه لنا الا القليل من الارض والغابات . ان الشيء الوحيد الذي كان موضع اهتمامنا هو السلامة: ان لينينغراد في خطر .

وفجأة وصلت مكالمة هاتفية تخبر بأننا اطلقنا نار مدفعيتنا فرد الفنلنديون علينا بنار مدفعيتهم . وهكذا بدأت الحرب . وكان هنالك ، بالطبع ، رواية اخرى

---

(١) مارشال كوليك كان جنرالا في قوى الأمن مشهوراً ببلادته ووحشيته ، وعدم كفاءته ، وفساده . وكما ذكر خروشوف في ما بعد ، كان تمسك ستالين به سيكلف الاتحاد السوفياتي غالياً في اوائل ايام الغزو الالماني .

للحقائق . فقد قيل ان الفنلنديين كانوا هم البادئين باطلاق النار . وهذه هي الحال دائماً عندما يبدأ الناس الحرب . انهم يقولون: «انتم اطلقتم القذيفة الأولى ، او انت ضربتني اولا وانا انما ارد ضربتك » . وهنالك تقليد نراه احياناً في الأوبرا : يلقي احد الناس قفازه تحدياً لشخص آخر كدعوة للمبارزة ، فاذا التقط القفاز يكون معنى ذلك قبول التحدي . ربما كان ذلك في الايام الغابرة ، ولكن في زمننا الحالي ليس من الواضح دائماً من يبدأ الحرب .

هنالك بعض التساؤل عما اذا كان لنا حق قانوني او ادبي في عملنا ضد فنلندا . بالطبع لم يكن لنا اي حق قانوني . اما من الناحية الادبية فان رغبتنا الوحيدة كانت في ان نحمي انفسنا ، وهي حجة كافية لتبرير هذا العمل في نظرنا .

بعد ايام قليلة من بداية الحرب ، سافرت إلى اوكرانيا وكنت مثل اي شخص آخر واثقاً ان فائدتنا ستكون اعظم من ان تقدر ، وان نزاعنا مع فنلندا سوف يحل سريعاً بدون خسائر كثيرة تلحق بنا . ذلك ما ظنناه وذلك ما املناه . غير ان الامر اسفر عما هو مخالف لذلك كثيراً .

فقد استمرت الحرب بصلابة وعناد . وظهر ان الفنلنديين محاربون اشداء . فقد نظموا خطوط دفاعهم تنظيماً بارعاً على طول خط مانرهيم على برزخ كاريلا ، فافسدوا علينا محاولتنا اقتحام الممر الستراتيجي الهام. ويبدو اننا ادركنا اننا قد قضمنا اكثر ما نستطيع مضغه . ووجدنا انفسنا امام تحصينات قوية مدعومة بالفولاذ ومدفعية موجهة توجيهاً فعالا ، فلا يمكن اختراقها . وكانت خسائرنا ترتفع ارتفاعاً مخيفاً . وتقرر في الشتاء ان نتجاوز برزخ كريلا ونوجه ضربتنا من بحيرة لادوغا إلى الشمال ، حيث ينتفي وجود التحصينات . غير اننا عندما حاولنا ذلك من الخلف وجدنا اننا في وضع اكثر صعوبة من وضعنا السابق . ذلك ان الفنلنديين ، وهم من الشعوب الشمالية ومن اقدر الرياضيين ، يتعلمون التزلج حتى قبل ان يتعلموا المشي . فصادف جيشنا قوات من المتزلجين السريعي الحركة ، المسلحين ببنادق اوتوماتيكية ذات قوة عالية . فحاولنا بدورنا ان نضع قواتنا على قباقيب التزلج مثلهم ، ولكن لم يكن من السهل على جنود الجيش الاحمر العاديين غير المدربين ان يقاتلوا وهم على قباقيب التزلج . فشرعنا نجند رياضيين محترفين ، غير انهم كانوا قليلين ، فاضطررنا ان نجلبهم من موسكو واوكرانيا ومن لينينغراد ايضاً . وكان الجميع على ثقة تامة بان رجالنا الرياضيين سوف يعودون ظافرين . وشعروا هم بروح وثابة عالية . ولكن تعساً لاولئك المساكين ، فقد مزقوا تمزيقاً ولا اعلم كم كان عدد الذين عادوا منهم احياء .

كانت اوقاتاً رهيبة — رهيبة بسبب خسائرنا بل واكثر رهبة في المجال البعيد — لان الالمان كانوا ينظرون بفرح غير مكتوم ، بينما كنا نتلقى ضربات الفنلنديين .

وكانت قواتنا البحرية مشتبكة مع الاسطول الفنلندي . ولم يكن احد ليظن ان الفنلنديين سيتفوقون في البحر . غير ان بحريتنا لم تستطع ان تفعل شيئاً ، واني اذكر انني سمعت عندما كنت عند ستالين ان واحدة من غواصاتنا لم تستطع ان تغرق سفينة سويدية تجارية واحدة كانت قد ظنت خطأ انها فنلندية . وقد راقب الالمان هذه الحادثة وهزأوا بنا بعرضهم مساعدتهم علينا قائلين : « هل حالتكم بمثل هذه الدرجة من السوء ؟ الا تستطيعون اغراق سفينة غير مسلحة . ربما تكونون في حاجة إلى مساعدة منا ؟ » وبامكان المرء ان يتصور كم كان ذلك مؤلماً لنا . لقد اراد هتلر ان يخبرنا بانه ادرك عجزنا ، فشمت بنا .

واني اذكر ان ستالين تحدث بمرارة وحزن عن مجرى الحرب فقال : « كانت الثلوج عميقة ، فيما كان جنودنا يسيرون عليها ، وكان هنالك العديد من الاوكرانيين في وحداتنا . كانوا في البداية ممتلئين حماسة ويقولون : اين هم الفنلنديون ؟ دعونا نراهم ؟ وفجأة تفجرت النيران الاوتوماتيكية ، وسقط رجالنا على الارض » .

استخدم الفنلنديون هذا التكتيك للقتال في الغابات : كانوا يتسلقون اشجار السرو ويطلقون النار على رجالنا من مسافة قريبة عند مرورهم . اما هم فكانوا يختفون تحت الاغصان وقد التحفوا عباءات بيضاء فوق ملابسهم العسكرية فلا يقوى احد على رؤيتهم . وقد اطلق الاوكرانيون على الفنلنديين اسم « كوكو » بسبب الطريقة التي يختفون بها فوق الاشجار . وقد وضعت خطة خاصة لمقاتلة هؤلاء « الكوكو » ولكنها استغرقت وقتاً طويلا كنا في اثنائه ننزف دماً كثيراً .

وكان ستالين شديد الغضب والنقمة على العسكريين وعلى فوروشيلوف . وكان لغضبه هذا ما يبرره في رأيي . ذلك ان فوروشيلوف كان قد تولى منصب مفوض الشعب للدفاع مدة سنين كثيرة وكان يوصف تبجحاً بامهر قوادنا ، وذلك لحمل الشعب على الاعتقاد ان الدفاع عن البلاد في ايد قوية قادرة . وقد استحق فوروشيلوف ان يتحمل عبء اللوم كله من اجل الطريقة التي كانت تسير عليها الحرب مع فنلندا ، غير انه لم يكن هو الفريق المذنب الوحيد . فكان هو يلقي اللوم على المعلومات الخاطئة التي كانت تزوده بها دوائر الاستخبارات .

واني اذكر مرة ، حين كنت في منزل ستالين الريفي ، فاذا بستالين يقفز واقفاً وقد امتقع لون وجهه من شدة الغضب وشرع في تقريع فوروشيلوف ووصف نقائصه . وكان فوروشيلوف ايضاً في حالة غليان جنوني ، فوثب واقفاً

وقد تورد وجهه وشرع يكيل الاتهامات إلى ستالين في وجهه قائلا : « عليك ان تلوم نفسك عن كل هذا. انك انت الذي أبدت الحرس القديم (١) وامرت باعدام افضل جنرالاتنا » . فرد ستالين عليه. فالتقط فوروشيلوف طبقاً عليه خنزير مطبوخ وحطمه على المائدة . وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي شهدت فيها مثل هذا الانفجار . وقد انتهى الامر باقالة فوروشيلوف من منصبه كمفوض للدفاع وبقي زمناً طويلا بعد ذلك يتجول وهو كبش الفداء (٢) .

وجاءني المارشال تيموشنكو الذي كان قائداً لمنطقة كييف العسكرية وقال لي : « دعيت إلى موسكو . ولعلهم سيرسلونني إلى الجبهة الفنلندية (٣) » . وقد عين فعلا لقيادة القوات على برزخ كاريلا ، بدلا من فوروشيلوف . وكان جيشنا قد تلقن درسه وتقرر ان لا يعتمد التطويق والضرب من خلف ، بل من الامام ، لتحطيم التحصينات الفنلندية على برزخ كريلا . وقد يتساءل المرء عن حق ، لماذا لم تتبع هذه الخطة من قبل وعلى اية حال فقد حشدت المدفعية اللازمة والقوات الجوية والمشاة لتنفيذ هذه الخطة ، فتهدمت المعاقل الفنلندية الصغيرة تماماً امام مدفعيتنا .

وقد لعب سلاح الطيران دوره ايضاً . واني اذكر ما قاله ستالين بالحرف الواحد : « دعيت قواتنا الجوية للاشتراك في القتال وكانت المهمة التي عهد اليها بها تحطيم خطوط تموين الفنلنديين وقطع خطوط المواصلات الحديدية وقصف الجسور ومعدات النقل . وقد تم تدمير جسور كثيرة وتعطلت قطارات كثيرة ولم يبق لدى الفنلنديين سوى معدات التزلج . ويبدو ان ما لديهم من ذلك لا ينفد ابداً » .

وطلبت فنلندا عقد هدنة . وبدأت المفاوضات فوافقنا على شروط الصلح ووقعت المعاهدة وتراجع الفنلنديون حوالي خمسة عشر كيلومتراً عن لينينغراد ، واعطونا قاعدة على شبه جزيرة هانغو .

وهكذا انتهت الحرب مع فنلندا وبدأنا بتحليل اسباب سوء استعدادنا ولماذا

(١) «الحرس القديم » عبارة ترد كثيراً بمعنى الرعيل الأول من القادة .
(٢) انظر الملحق ٣ عن فوروشيلوف . حادث الخنزير يكشف عنه هنا لاول مرة .
(٣) المارشال سميون تيموشنكو كان سيعود إلى كييف بعد سحق حصون الدفاع الفنلندية وكسب الحرب . رفقته الوثيقة مع خروشوف كانت ستستمر في الحرب وكذلك في السلم .

تكبدنا مثل تلك الخسائر الكبيرة . واني اميل إلى القول باننا فقدنا نحو مليون قتيل . وقد قال لي تيموشنكو ان اللوم لم يكن على دوائر الاستخبارات . والواقع اننا علمنا فيما بعد ان استخباراتنا كانت على علم تام بتحصينات الدفاع الفنلندية ، وقد رسمت مواقع المدفعية وتحصينات خط مانرهيم على خرائط استخباراتنا قبل الحرب .

وكان الخطأ ان احداً من ضباط الاستخبارات لم يستشر قبل التصميم على الشروع في الضرب . واني لا استطيع ان اتصور كيف امكن السماح بمثل هذه البلاهة . فمن القواعد الاساسية ان الاعمال العسكرية توضع على اساس دروس دقيقة للمنطقة التي تدور فيها رحى القتال ، وان الخبراء الفنيين في رسم الخطط الحربية يتعاونون تعاونا وثيقاً مع دوائر الاستخبارات . ولو اننا كنا وزعنا فقط قواتنا ضد الفنلنديين بالاسلوب الذي يستطيع ان يقوم حتى الاطفال به بمجرد النظر إلى الخارطة ، لكان الموقف غير ما كان عليه سواء من حيث مصلحة الاتحاد السوفياتي او اوضاع الفنلنديين .

ثم ان افتراضنا ان حكومة فنلندا لن تتورع عن شيء وانها ستضع اراضيها بتصرف اعدائنا ، قد بررته الاحداث التي وقعت في ما بعد . حتى اننا اكتشفنا ان هتلر قبل ان يغزو الاتحاد السوفياتي شرع في حشد قواته في فنلندا . وقد يقال جدلا ان فنلندا هي التي دفعته إلى ذلك لانها كانت ناقمة علينا وارادت ان تسترد ما كانت فقدته في حرب ١٩٤٠ — ١٩٤١ ، فليكن ذلك . ولكن تبقى الحقيقة الراسخة وهي ان لينينغراد كانت في خطر واننا لم نكن مخيرين في لجوئنا إلى الحرب لحل المشكلة .

انه لمن الخطأ القول ان ستالين بدأ الحرب وفي نيته الاستيلاء على فنلندا . وقد يسأل البعض لماذا لم نستول على فنلندا في اثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما سحق الجيش الفنلندي عن بكرة ابيه ؟ ان ستالين ابدى حكمة رجل الدولة هنا . فقد كان يعلم ان اراضي فنلندا ليست مناسبة للاحتياجات الاساسية التي تتطلبها الثورة البروليتارية العالمية . لذلك عندما وقعنا معاهدة مع الفنلنديين في اثناء الحرب العالمية الثانية ، كان مجرد انهاء الحرب اكثر فائدة لنا من الاحتلال . ان وقف فنلندا للاعمال الحربية وضع مثالا حسناً للدول الاخرى الدائرة في فلك المانيا الهتلرية وادى ايضاً إلى تحسين علاقاتنا مع الشعب الفنلندي (١) .

(١) لكن الروس فرضوا ايضاً ما اعتقدوا انه تعويضات ساحقة . وبدلا من الخضوع إلى استدرار الشفقة ، بادر الفنلنديون بجزم إلى دفعها في اقصر وقت ممكن .

وقد اظهرت لنا حرب الشتاء مع فنلندا ما نحن عليه من ضعف خطير وكشفت ايضاً لهتلر مواضع ضعفنا . ولا يحتاج المرء لخيال واسع حتى يدرك ما لا بد ان يكون هتلر قد استنتجه بعد ان راقب محاولتنا ادارة رحى الحرب ضد الفنلنديين : « ان الاتحاد السوفياتي كاد ان لا يقوى على التغلب على بلاد كان باستطاعتنا ان نتخلص منها في ساعات معدودة ، فماذا كان ليبقى من الروس لو اننا نحن هاجمناهم بافضل معداتنا وبحشود من خيرة جنودنا المدربين والمنظمين افضل تنظيم؟ » وبالاختصار ، كانت ادارتنا التعيسة للحرب الفنلندية خير مشجع لهتلر على خططه الحربية الصاعقة ضدنا .

كانت لنا في حربنا مع فنلندا الفرصة لان نختار الزمان والمكان . وكان عددنا يفوق عدد عدونا كثيراً . وكان لدينا كل الوقت لاعداد عملياتنا الحربية ، ومع ذلك ، وبالرغم من كل الظروف الملائمة ، لم نتمكن الا بعد شق النفس وبذل خسائر فادحة من التوصل ، في النهاية ، إلى الفوز . وان انتصاراً يكون هذا ثمنه هو في الواقع هزيمة معنوية .

ان شعبنا لم يعرف بالطبع اننا عانينا هزيمة معنوية . وذلك لان الحقيقة لم تكن تقال له قط . وعند انتهاء الحرب الفنلندية قيل للبلاد : « دقوا طبول الانتصار ليسمع دويها » (١) . غير ان بذور الشك كانت قد زرعت في الأرض . فالحرب ضد الفنلنديين نزلت كلطخة سوداء في سجل جيشنا الذي كان شعاره ينم عن انه لا يقهر : « اذا كانت الحرب ستقع غداً فنحن على استعداد تام للزحف اليوم » .

الجيش الاحمر عشية بربروسا

عند البحث في سوء استعداد الجيش الأحمر ، يبذل خروشوف جهداً كبيراً للاصرار على مفارقة كونه عضواً في المكتب السياسي ، لهيئة التخطيط العليا ، وجهله ، من ناحية ثانية ، بحقيقة اوضاع الجيش الأحمر ، رغم التبجح الكبير ، سواء لجهة قيادته الضعيفة المفتقرة إلى الكفاءة ، او لجهة النقص في تجهيزاته . مع ان كل طاقات الصناعة السوفياتية انصبت منذ اكثر من جيل على تقويته . ولكن في ضوء اسلوب ستالين في الحكم تبدو هذه المفارقة معقولة الحصول . ذلك ان خروشوف كان متخصصاً كلياً بالحكومة المدنية في اوكرانيا ، وكان من شأنه الاعتماد على قائد جبهته الخاصة لضمان حسن

(١) هذا يدل على مقدرة الزعامة السوفياتية في اخفاء الحقيقة عن الشعب .

الدفاع عن اوكرانيا . وله ان يفترض ان ستالين وفوروشيلوف (وزير الدفاع) قد نظما الجيش وجهزاه بكل ما يلزمه من اسلحة وذخائر . ولم يكن هنالك اجتماعات وزارية يستطيع فيها خروشوف مناقشة وزير الدفاع والتحقيق معه حتى ولو كان مؤهلا ليفعل ذلك ، فضلا عن انه لا يتمتع بمثل هذه الكفاءة اصلا . ان اموالا هائلة قد اغدقت على الجيش وعلى المناورات وحفلات العرض التي لها تأثير في النفوس إلى الحد الاقصى . ولكن خروشوف كان يعلم ان ستالين ويزهوف اعدما القسم الاعظم من قيادة الجيش العليا في ١٩٣٧ ، هذا فضلا عن حوالي اربعين الفاً من صفوف الضباط . وينبغي ان يكون قد ذعر ذعراً شديداً للمظهر المخيف الذي ظهر به الجيش الأحمر في حربه ضد الفنلنديين . ويبدو ان من غير المعقول ان لا يكون قد انذر قط من قبل زميليه العسكريين في كييف وهما تيموشنكو وجوكوف بان هنالك نقائص في الجيش . والحقيقة هي ان تيموشنكو ذاته وصف بانه عدو للشعب وكاد يعدم رمياً بالرصاص في ١٩٣٨ لولا تدخل خروشوف شخصياً لانقاذه .

اننا جميعاً — وستالين اولا ، وقبل الجميع — تلمسنا في انتصارنا آثار هزيمة اوقعها بنا الفنلنديون . ولقد كانت هزيمة شديدة الخطر لانها شجعت اعداءنا وزادتهم رسوخاً في ايمانهم ، وهي ان الاتحاد السوفياتي نصب هائل الحجم قدماه من الطين . ولكن لا يكفي ان نعترف بهزيمتنا وان ننتقد انفسنا لسوء ادارتنا للحرب ضد فنلندا ، ولا يكفي ايضاً ان يعزل فوروشيلوف ويعين مفوض جديد للدفاع ليحل محله ، بل كان يتوجب علينا ان نستخرج من الحدث بعض الدروس للمستقبل القريب . كان علينا ان نتعمق ونتوسع في ادراك ما وقع من اخطاء في استعدادنا للحرب الفنلندية ، كما كان علينا ان نعرف ونصفي ما هنالك من نقص وخطأ في تنظيم ادى بنا إلى الهزيمة ، وان نرفع من شأن القدرة على القتال في الجيش السوفياتي . ومعنى ذلك ، فوق كل شيء ، رفع سوية القادة الذين يتولون زمام الامور في قيادة الجيش العليا .

انني لا اعلم ما الذي زاد في اضعاف جيشنا . هل هو النقص في الاسلحة والمعدات ام عدم كفاءة قوادنا العسكريين . انه لمما لا شك فيه ان هذين العاملين لهما اهمية كبيرة جداً .

فمن الناحية الاولى نرى ان الاستعراضات العسكرية والمناورات التي تجريها القوات المسلحة ، لعبت دوراً ايجابياً في رفع معنويات الشعب ، ومن الناحية الثانية ، لعبت دوراً سلبياً في انها حجبت عيوب جيشنا وضللتنا وحملتنا على الاعتقاد اننا في مأمن من الاخطار . كان علينا ان نعيد فحص حالة جيشنا وبنوع خاص الوحدات

الآلية ، بعد الحرب الفنلندية . وكان علينا ان نبدأ قبل ذلك بوقت طويل في تحويل صناعاتنا لمواجهة متطلبات الحرب . اننا لم نكن نعلم طول الفترة التي تفصلنا عن هجوم العدو . ومع ذلك فقد كانت هنالك امور كثيرة لم تنجز حتى اليوم الذي بدأت فيه الحرب . وهي اوضاع لا يمكن ان تستمر على ما هي عليه . وقد دفعنا بسببها ثمناً غالياً من الارض والدماء .

ان الاستعداد للحرب يتطلب اكثر كثيراً من مجرد رسم الخرائط ووضع الخطط الستراتيجية . ان الاساس في الاستعدادات الحربية هو انتاج الاسلحة ، وهذا يعني الطائرات والمدافع والدبابات والبنادق والاجهزة الهندسية والاسلحة الكيميائية والبكتريولوجية . وبكلمة مختصرة : كل الوسائل الضرورية لصد الاعتداء وسحق العدو .

ان بعض المشكلة كان ان ستالين حاول ان يشرف منفرداً على صناعتنا للذخائر والمعدات الآلية . فكانت النتيجة ان احداً لم يكن يعلم حقيقة اوضاع التسلح عندنا . وعلى سبيل المثال اذكر ان ستالين امرني في ١٩٤١ ان انظر في امكانية تركيب محرك ديزل على طائرة . وكان من رأيه انه ما دام محرك ديزل يستهلك كمية اقل من الوقود ، فان ذلك يزيد في مدى القصف بالقنابل ، واخبرني ان محركات ديزل يجري الآن صنعها في مصانع خاركوف . وكنت انا طبعاً اعرف ذلك المصنع غير انها كانت المرة الأولى التي اسمع فيها ان محركات ديزل تصنع هناك . وكان يلزم الحصول على اذن خاص للدخول إلى المصنع . وكان ستالين قد اتخذ كل التدابير للتأكد من ان احداً غير الذين لهم علاقة مباشرة بالمشروع يسمح له بالدخول إلى المصنع والتدخل في شؤونه . حتى انا ، السكرتير الاول للجنة الاوكرانية المركزية ، لم اكن اعرف شيئاً عن محركات الديزل القوية التي كانت تصنع في خاركوف . ولم يكن لدي الوقت لاقرر ما اذا كانت هذه المحركات يمكن تركيبها على قاذفات القنابل ام لا . غير انها اثبتت انها فعالة جداً عندما جرى استعمالها على دبابات ت–٣٤. ولكن لسوء الحظ لم يكن لدينا عدد كاف من هذه الدبابات عندما نشبت الحرب .

لقد كنا نعاني نقصاً كبيراً في الاسلحة من جميع الانواع في شهور الحرب الأولى . لقد كنت انا عضواً في المكتب السياسي واحد رجال حكومة ستالين ولكن مع ذلك لم يكن هنالك وسيلة اتمكن بواسطتها من معرفة ما نعانيه من نقص كبير في البنادق والرشاشات ، ناهيك بما يمكن ان يقال عن الدبابات والمدفعية الثقيلة . لم استطع ان اتصور انه يمكن ان نكون في مثل هذه الحالة البدائية من عدم الاستعداد . حتى القيصر عندما دخل حرباً ضد المانيا في ١٩١٤ كانت لديه من البنادق كميات

اكبر مما كان لدينا نحن في اليوم الثاني لقيام هتلر بغزوته . في حين ان امكانياتنا الاقتصادية كانت اعلى إلى حد لا يمكن ان تقارن به اقتصاديات الحكومة القيصرية . ومن هنا لم يكن لنا عذر على الاطلاق .

اني اضع اللوم الاول على فوروشيلوف . وحتى عندما اقيل من منصبه في اثناء الحرب الفنلندية ، كانت المسؤولية عن حالة قواتنا المسلحة تقع في الدرجة الأولى على عاتقه . لقد كنا رصدنا اعتمادات مالية كبيرة جداً للاسلحة ولم اسمع قط عن حادث واحد رفض فيه ستالين طلباً لاموال ترصد لهذا الغرض .

ولكن فوروشيلوف لم يتقدم بالطلبات الضرورية، واهماله هذا كان جريمة . ولا بد ان معاونيه قد رفعوا اليه التقارير عن سوء الحالة ولكن تقاريرهم كانت تمر في ذهنه كما ينزلق الماء عن ظهر البطة . لم يكن عابئاً بمسؤولياته بل كان يكتفي بالابتسام امام المصورين ويتبختر امام آلات التصوير السينمائي . وكان الناس يقولون ان فوروشيلوف يمضي من الوقت في الوقوف امام آلات التصوير في استديو جيراسيموف اكثر مما يمضي في الاهتمام بعمله في مفوضية الدفاع (١) . وكان ايضاً يمضي اوقاتاً طويلة في عالم المسارح واكتسب شهرة كبيرة كخبير وناقد في شؤون الاوبرا . واني اذكر انه مرة في حضوري ورد اسم احدى مغنيات الاوبرا فخفضت زوجة فوروشيلوف عينيها وقالت « ان كليمنت فريموفيش ليس معجباً بها كثيراً . » وكان فوروشيلوف يتخيل نفسه بانه مطرب فنان ، وكان في صباه في جوقة احدى الكنائس .

وخلاصة القول ان فوروشيلوف كان اكثر اهتماماً في اظهار شخصيته في الاحتفالات العامة من اهتمامه في الاشراف على احتياجات الجيش وتنظيمه . ويوم كان غامارنيك وتوخاشيفسكي وآخرون من اعضاء الحرس القديم على قيد الحياة ، قبل القضاء عليهم في ١٩٣٧ ، كانت الشؤون الادارية والسياسية المطلوبة من مفوضية الدفاع تدار بدون فوروشيلوف (٢) .

اما ستالين فقد كان يغالي كثيراً في تقديره لاستعدادات جيشنا . فكان مثل الكثيرين سواه واقعاً تحت سحر الافلام التي تظهر الجيش في حفلات العرض وفي المناورات ولم يكن يرى الاشياء على حقيقتها . وكان نادراً ما يغادر موسكو . وفي

(١) جيراسيموف كان رئيس اكاديمي الفنون السوفياتي ورسام بلاط ستالين . وكان اكاديمياً من اسوأ الانواع واتفهها .

(٢) هذا تعليق صحيح ، فان فوروشيلوف كان يستحق كل ما وجهه اليه خروشوف من نقد قاس .

الواقع نادراً ما يغادر الكرملين الا للذهاب إلى (مقره الريفي) او إلى حيث يمضي اوقات اجازاته في « سوشي » . وكان يتلقى سائر معلوماته من فوروشيلوف الذي كان هو ذاته بعيد الصلة بالحقائق .

ان اسباب ضعف قيادتنا العسكرية معروفة تماماً . فان افضل قوادنا كانوا قد ابيدوا (في حملة التطهير ١٩٣٧) بوصفهم اعداء الشعب . ومن هذه الناحية اقول ان ستالين كان ملوماً اكثر من فوروشيلوف الذي كان بعض الاحيان يدافع عن الجنرالات المتهمين ويتجادل مع ستالين ، غير انه في احيان اخرى كان يحرض ستالين عليهم . وليس هنالك الكثير مما يمكن قوله عن الآخرين من اعضاء المكتب السياسي . لقد كان مولوتوف اقرب الجميع إلى ستالين في اتخاذ القرارات، ومع ان الاشراف على القيادة العسكرية لم يكن جزءاً من واجبات مولوتوف غير انه كان ايضاً بعض الاحيان يحرض ستالين ويحاول اضرام نار نقمته على رجال الحرس القديم . على ان مولوتوف لم يكن مسؤولا عن شؤون الاسلحة والتسليح .

ومما لا ريب فيه اننا كنا نستطيع ان نصد الغزو الفاشيستي بسهولة اكثر كثيراً لو انه لم يكن تم افناء كبار قادة الجيش الاحمر . كانوا رجالا مجربين اصحاب خبرة واسعة . والكثيرون منهم كانوا من خريجي المدارس الحربية ، وممن اشتركوا في الحرب الاهلية . وكانوا على استعداد لاداء واجباتهم العسكرية في سبيل الوطن ، ولكن لم تتح لهم الفرصة لان يفعلوا ذلك . وبعد القضاء عليهم اضطررنا إلى تعيين سواهم لمناصب القيادة . والواقع ان هيئة اركان الحرب تعرضت لتغييرين أو ثلاثة بل اربعة تغييرات في صفوف القيادة . وكان ان رقي الذين كانوا يتولون مناصب الدرجة الثالثة والرابعة إلى المناصب العليا بعد ان تم اعدام الذين كانوا يتولون المناصب الأولى والثانية .

كان معظم الذين جرت ترقيتهم مخلصين شرفاء ولكن كانت تنقصهم الخبرة والتجربة . وكان عليهم ان يكتسبوا ذلك في الحرب مع المانيا الهتلرية . فكان ان كلفت مبادراتهم البلاد خسائر فادحة في الأرواح والاموال والممتلكات .

وفي ١٩٤٠ عندما عين تيموشنكو مفوضاً للدفاع خلفه جوكوف في قيادة منطقة كييف العسكرية (١) . وكان جوكوف خير خالف لسلفه تيموشنكو ،

(١) كان جوكوف في الواقع بعد العمليات الباهرة ضد اليابانيين في الشرق الأقصى قد عين رئيساً لهيئة اركان حرب تيموشنكو الذي كان قائداً لمنطقة كييف العسكرية ، قبل الحرب الفنلندية. وعندما استدعى تيموشنكو ليكون قائداً اعلى لسحق المقاومة =

اذ كان منظماً موهوباً وقائداً قوياً . وبرهن على كفاءته في الحرب . ولا ازال احفظ له كل احترام ، بالرغم من خلافاتنا فيما بعد . فهو لم يفهم بصورة صحيحة دوره كوزير للدفاع مما حملنا على اتخاذ اجراءات ضده لمنعه من السير في تنفيذ بعض الخطط التي كان قد وضعها . ولكن حتى ذلك الحين كنت اقدر مواهبه العالية كجندي ، واني لا اتراجع خطوة واحدة اليوم عن تقديري العالي له كما انني لم اخف اعجابي بجوكوف بعد الحرب ، عندما خسر رضا ستالين عنه . (١)

وفي نهاية ١٩٤٠ او اوائل ١٩٤١ نقل الرفيق جوكوف من كييف إلى موسكو حيث عمل في دائرة العمليات في مقر القيادة العامة ، فحل محله في كييف كيربونوس . وكان كيربونوس من نوع القادة الحسني النية ولكن العديمي الخبرة الذين رقوا لاملاء المناصب التي خلت من جراء عملية التطهير التي تناولت القيادة العليا في الجيش الاحمر . وقد عين كيربونوس قائداً لمنطقة كييف العسكرية لمجرد انه لم يكن هنالك شخص آخر يمكن اسناد هذا المنصب اليه . وقد اسندت اليه قيادة فرقة في اثناء الحرب الفنلندية التي تميز فيها واكتسب لقب بطل الاتحاد السوفياتي ولكن لم يكن معداً لتحمل مسؤولية قيادة منطقة كييف (٢) .

كانت منطقة كييف العسكرية واقعة مباشرة في طريق الغزو الهتلري . وكانت تتوفر فيها افضل الشروط التبوغرافية للهجوم الآلي . فالطرق كانت جيدة ولم تكن هناك مستنقعات تذكر . وكانت الصحف البورجوازية الاجنبية ، بقصد تحريض هتلر على مهاجمتنا ، قد دأبت على القول بان المنطقة بين بولونيا وكييف كانت مؤهلة طبيعياً لاجتياز الدبابات بحيث يتاح لهتلر استخدام دباباته فيها على

=الفنلندية رافقه جوكوف كرئيس اركان حربه. وعاد بعد انتهاء الحرب ليخلف تيموشنكو في كييف ورقي إلى رتبة جنرال في الجيش في حزيران ١٩٤٠ وصار نائباً لوزير الدفاع ورئيساً لهيئة اركان الحرب العامة في شباط ١٩٤١ وذلك قبل اربعة اشهر من الغزو الالماني .

(١) انظر الملحق رقم ٣ عن خدمات جوكوف الاخرى .

(٢) الكولونيل جنرال كيربونوس وهو قائد فرقة ، مقتدر ، رقي إلى اعلى من رتبته نتيجة للتطهيرات وتسلم قيادة منطقة كييف العسكرية من جوكوف عندما عين هذا الاخير وزيراً للدفاع . وهكذا وجد نفسه بعد اربعة شهور في منطقة يتخذها الالمان طريقاً لهم في زحفهم . وتعليقات خروشوف عنه معتدلة غير انه قاتل ببسالة كبيرة . والواقع ان هذه الجبهة كانت ممونة ومجهزة على نحو افضل من الجبهات الاخرى .

احسن وجه ممكن واظهار فعاليتها للعالم كله .

رأى ستالين في كيربونوس القائد المناسب لقطاع كييف ، سواء من ناحية امانته او اخلاصه . وكان في ذلك على حق ، غير ان كيربونوس لم يكن حائزاً على المؤهلات العسكرية والخبرة لقيادة مثل هذا العدد الكبير من الجنود وتوجيههم .

يضاف إلى ذلك ان عدم استعدادات بلادنا الدفاعية تركت اثارها السيئة على منطقة كييف العسكرية التي كان المفروض ان تحمي حدودنا المكشوفة لادهى الأخطار .

وعلى اساس ملاحظاتي الخاصة التي اعترف انها كانت قليلة نوعاً ، بدا لي ان مفوضية الدفاع بدأت تؤدي مهامها على صورة افضل منذ تولي المارشال تيموشنكو شؤونها . وكنت قد اعجبت بتيموشنكو منذ كان هو وانا نعمل معاً في منطقة كييف العسكرية حيث كان هو القائد وانا كنت عضواً في المجلس العسكري . وكان هو رجلا طيباً وجندياً جيداً . وزادت معرفتي به في اثناء تحريرنا بسارابيا من الاحتلال الروماني في ١٩٤٠ (١) . وقد اشتركت اشتراكاً فعالا في تلك العملية التي نشأت عن معاهدتنا مع الالمان وعن رغبتنا في استرداد حقوقنا التاريخية ، التي كانت قد اغتصبتها رومانيا الملكية بعد ثورة تشرين الأول . وكان تيموشنكو في هذا الوقت قد صار مفوض الشعب للدفاع . وقد رافقته مرة في رحلة بالطائرة إلى ان بلغنا بسارابيا وراء الخطوط الرومانية ليرى اقاربه في قرية فورمنكا حيث كان قد نشأ . ولم يكن قد عاد اليها منذ دعي للخدمة عند بداية الحرب العالمية الأولى . وقد هبطت الطائرة بنا في حقل على مقربة من فورمنكا ، فرحب القرويون بنا ترحيباً حاراً وعومل المارشال تيموشنكو معاملة البطل العائد إلى وطنه . وقد امضيت الليل في كوخ على مقربة من منزل شقيقه ، بينما امضى تيموشنكو الليل بطوله يشرب النبيذ ويتحدث عن الايام الماضية مع شقيقه وشقيقته واصدقائه . لقد كان تيموشنكو بالتأكيد افضل من فوروشيلوف بوصفه مفوضاً للدفاع .

وانه لمن سوء الحظ ان امثال تيموشنكو وجوكوف كانوا استثنائيين غير

(١) بسارابيا صارت لروسيا في مؤتمر برلين ١٨٧٨ وانتقلت لرومانيا بعد الحرب العالمية الأولى بعد ان اعلنت استقلالها . واستعادها ستالين للاتحاد السوفياتي بمقتضى اتفاقه مع هتلر في ١٩٤٠ وشرع في دمجها بالاتحاد السوفياتي .

عاديين . فبعد ابادة الحرس القديم ، جاء رجال من امثال ميخليس وشيهادنكو وكوليك وصارت مفوضية الدفاع مثل الوجار الذي تأوي اليه الكلاب الضالة (١) .

وحدث مرة ان الرفيق تيموشنكو قادني بيده إلى احدى جلسات مجلس الدفاع . وقد ارادني ان ارى كيف كان اولئك الرجال الذين فرض عليه العمل معهم يتخاصمون فيما بينهم ويمزقون اعناق بعضهم البعض . وقد كان « ميخليس » اسوأهم (٢) وكان له بنوع خاص تأثير قوي على ستالين . وكان كثيراً ما يتخطى حدود منصبه بوصفه رئيساً للادارة السياسية في الجيش الاحمر . ومنذ عينه ستالين ليحل محل بوخارين محرراً لجريدة برافدا صار ميخليس احد معتمدي ستالين الاوائل . وكنت انا في وقت ما على صلة حسنة معه . وقد نمت الصداقة في ما بيننا من جهودنا المشتركة في النضال ضد اليمينيين منذ ١٩٢٩ – ١٩٣٠.وكان قد قدم لي مساعدات كثيرة عندما كنت سكرتيراً لمنظمة الحزب في الاكاديمية الصناعية . ولكن في السنين التالية تباعدنا . وعندما صار رئيساً للادارة السياسية كان في نظري مغفلا احمق .

وقد راعني ان احداً مثله يستطيع ان يحظى بثقة ستالين غير المحدودة . ولطالما اعطى ميخليس ستالين النصح في الشؤون العسكرية وكان ستالين عادة يستمع اليه . وان نفوذ ستالين لم يعط الجيش والبلاد اي شيء حسن ، بل اسهم في اضعاف دفاعنا عشية اندلاع الحرب .

ان الفضل يعود لشعبنا وجيشنا في قدرة الصمود في وجه كوارث الحرب الأولى والبقاء إلى النهاية . لقد تعلمنا من اخطائنا واستطعنا في الأخير صد العدوان وسحقه على ارضه . ولكن باي ثمن تحقق ذلك كله ! لعله حتى لو لم يستأصل

(١) كان شيهادنكو وكوليك جنرالات «سياسة» ممتازين في عدم كفاءتهم وسوء اخلاقهم . وقد عينهم فوروشيلوف وعرفا بنشاطهما الوافر في تطهير الجيش الأحمر في ١٩٣٧ . وقد رقي كوليك مارشالا في ١٩٤٠ ، وفعل كل ما بامكانه من الاخطاء لتسليم لينينغراد للالمان . على ان جوكوف وصل في آخر لحظة لينقذ الموقف .

(٢) ل. ز. ميخليس كان جنرالا «سياسياً» من النوع المحبب عند ستالين . ولا سبيل لمعرفة ما اذا كان قد سبب عدداً اكثر من الوفيات والآلام باعماله المتعمدة في سني التطهير وبعدها او في اثناء الحرب بسبب عدم كفاءته .

ستالين افضل قادتنا ، لكانت وقعت الحرب . ولكن لم تكن لتكبدنا مثل هذا الثمن الذي دفعناه بقيادة « ابينا العظيم ، وعبقرينا العظيم » .

٦

الحرب الوطنية الكبرى

اشد الساعات حلكا

ان وصف خروشوف لسني الحرب ، وان يكن حافلا بالنوادر الكاشفة للوقائع واللقطات المضيئة لوجهات نظر القيادة العليا في الأعمال الحربية ، إلا أنه في الأساس يعبر عن انطباعاته الخاصة . ذلك ان اهتمامه الأول هو ، بكل وضوح ، عرض فشل ستالين وتقصيره ، وتقديم نفسه على انه رجل الجبهة العامل مع قادة الميدان بينما زملاؤه «السياسيون» جالسون في موسكو وقد تركوا القادة المقاتلين يعانون الخيبات ويواجهون العقبات التي تقام في طريقهم والدسائس التي تحاك ضدهم ، فضلا عن حرمانهم من المؤن التي هم بأمس الحاجة اليها .

ان خروشوف بطبيعة الحال ، كان هو ذاته من فئة «السياسيين» . غير انه بطبيعته العملية وحماسته لتنفيذ ما ينبغي تنفيذه ، وجد نفسه ، على ما يبدو ، في بيئته الجديدة اقرب الى الجنود المحترفين منه الى زملائه في موسكو : جنرالات المباحث واقرانه من المستشارين السياسيين . وكان ان وقف إلى جانب العسكريين ضد الكرملين . والحقيقة أنه كان طوال القسم الأكبر من الحرب ، أكثر أعضاء المكتب السياسي قرباً إلى دوي المدافع ، باستثناء جدانوف في لينيغراد .

ومع تقدم الزحف الالماني إلى داخل اوكرانيا نقل خروشوف بين عشية وضحاها من نائب ستالين وحاكم تلك الأرض ذات الثروة الهائلة التي تعتبر اهراء الاتحاد السوفياتي في الحنطة وقاعدته الصناعية الكبرى ، إلى منصب ممثل المكتب السياسي في مقر قيادة الجبهة .

ولم تلبث تلك الجبهة أن تمزقت شر تمزيق وقاسى خروشوف مرارة مشاهدة اقليمه العظيم تكتسحه المدرعات الالمانية ، وذلك بالأكثر بسبب التقصير المشين الذي ارتكبه أحد المقربين من فوروشيلوف ، المارشال

بود يوني الذي كان من مخلفات الحرب الأهلية التي عفا عليها الزمن ، وكان يتميز بالحماقة وعدم الكفاءة . وقد قدر له أن يقود مليون رجل إلى هلاك جماعي وكارثة مؤكدة لا مبرر لها أدت إلى ضياع كييف وخاركوف . ان روايات خروشوف وتعليقاته تعطي صوراً حية للارتباك والعار والبطولة التي رافقت تلك الأيام الأولى عندما كان ستالين قد هبط إلى حالة انهيار تام ، بينما كان الالمان يمحون جيوشاً برمتها في تطويقات هائلة زاحفين على موسكو ولينينغراد ومكتسحين اوكرانيا .

حين كنت اتقلد منصباً رفيعاً في الحكومة ، بوصفي السكرتير الاول للجنة المركزية ورئيس مجلس الوزراء ، حذرت رجالنا العسكريين من ان يلزموا منتهى الحذر عند تدوين مذكراتهم عن الحرب . وقد وجدت دائماً ان ليس باستطاعة المرء ان يتوقع تحليلا ايجابياً لمعركة من شخص اشترك فيها بالفعل . على اني بوصفي عضواً في المجلس الحربي وممثلا للمكتب السياسي على جبهات شتى في اثناء سير الحرب ، اظن ان باستطاعتي ان القي ضوءاً على ما حدث في عدد من المعارك الرئيسية .

فاسمحوا لي ان أوضح كيف بدت الحرب في نظري . وكذلك ان استعرض الادوار التي لعبها بعض الجنرالات والشخصيات الحكومية الذين كان علي التعامل معهم .

كنت في موسكو قبل نشوب الحرب واستبقيت هناك زمناً طويلا مكتفياً بالجلوس دون ان اعمل شيئاً . وكان ستالين يقول لي دائماً : « اسمع ، لماذا هذه السرعة للعودة إلى اوكرانيا ؟ اعطي الموجودين هناك فرصة للعمل دون وجودك معهم في كييف . لا حاجة الآن للعودة » . اما انا فقد كنت لا ارى معنى لبقائي في موسكو . فلم اكن اتعلم شيئاً جديداً من ستالين ؛ لم يكن هنالك سوى عشاء طويل ، الواحد تلو الآخر . وكنت قد بدأت اكره تلك المآدب واحتقرها . كانت تتيح لي فرصة مراقبة ستالين عن كثب ، ولم اكن راضياً عما كنت اراه . اذا بدا كأنما فقد كل ثقة بمقدرة جيشنا على القتال ، فرفع يديه يائساً ومستسلماً بعد ان سحق هتلر الجيش الفرنسي واحتل باريس . وقد ذكرت آنفاً انني كنت مع ستالين عندما سمعنا عن استسلام فرنسا ، فاطلق بعض اللعنات الروسية وقال بأن من المؤكد الآن ان هتلر سوف يحطم رؤوسنا . (١)

(١) هذا يؤيد انباء اخرى عن مسلك ستالين عشية نشوب الحرب . انظر بنوع خاص «حصار لينينغراد» بقلم ا. هاريسون سالزبوري .

ان هذا الكلام لم يكن ذا فائدة لي على الاطلاق . فواصلت محاولتي العودة إلى كييف . واخيراً سألته صراحة « ايها الرفيق ستالين ان الحرب قد تقع في اية لحظة الان وسوف يكون من اسوأ الأمور ان يقضى علي هنا في موسكو او على الطريق بعد نشوبها ، فالافضل لي ان اعود حالا إلى كييف » .

فكان رده مؤيداً لما كنت احسبه من انتفاء اي سبب موجب لديه لاستبقائي في موسكو ، اذ قال : « نعم ، اظن هذا صحيح ، فالاوفق ان تذهب » . كان يعلم ان مكاني الصحيح هو في كييف ، غير انه احتفظ بي لمجرد انه كان في حاجة إلى رفقة ، وخصوصاً عندما يكون خائفاً .

وفي صباح اليوم التالي رجعت إلى كييف وتوجهت رأساً إلى مكتب اللجنة الاوكرانية المركزية لاسمع آخر الانباء . وفي ذلك المساء ذهبت إلى منزلي . وفي الساعة العاشرة او الحادية عشرة تلقيت دعوة من مقر القيادة للعودة إلى مكتب اللجنة المركزية لاطلع على برقية وردت من موسكو . وجاء في الدعوة انني بوصفي السكرتير الاول للحزب الاوكراني ينبغي ان اكون شخصياً على علم بمضمون تلك البرقية . فذهبت إلى مكتب اللجنة المركزية ووجدت ان البرقية الواردة من موسكو كانت سبباً للذعر اذ كانت تحذرنا وتدعونا لنكون على استعداد للحرب في غضون الايام القليلة القادمة او حتى في غضون ساعات محدودة .

ثم تلقينا نداء من مخفر القيادة في «ترنوبول » (١) يبلغنا ان جندياً لجأ الينا من خطوط الالمان الامامية وزعم ان المانيا سوف تهاجم الاتحاد السوفياتي في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي . وبدا هذا النبأ مؤيداً للبرقية التي كنا قد تلقيناها من موسكو . فاستجوبنا الجندي الالماني بكل دقة ، فبدا ما قاله معقولا . وعندما سئل كيف علم بانهم سيقومون بالهجوم في اليوم التالي ، قال انه هو والجنود الآخرين قد صرفت لهم تعيينات ثلاثة ايام . وعندما قيل له لماذا سيقع الهجوم في الساعة الثالثة صباحاً قال ، لان الالمان يهاجمون دائماً في الصباح الباكر . وقال انه فر لانه شيوعي ضد الفاشيست ومن معارضي مغامرات هتلر الحربية . فحملنا ذلك على الميل إلى الايمان بصدق اقواله .

وبدلا من العودة إلى المنزل تلك الليلة انتظرت حتى الساعة الثالثة لارى ما الذي سيحدث . وفي تلك اللحظة بالذات ، وقد بدأ الفجر ينبثق ، تلقينا نبأ بان المدفعية الالمانية بدأت باطلاق النار . وعندما شن العدو الغزو تلقينا اوامر من موسكو بان

(١) ترنوبول إلى الشرق من لفوف. كان السوفيات قد استولوا عليها عند احتلالهم بولونيا الشرقية .

لا نرد على ناره بالمثل . واصدر قوادنا هذا الامر لانهم ظنوا ان نيران المدفعية كانت بقصد التحرش من قبل قائد الميدان الالماني وبتصرف منه بالاستقلال عن هتلر وبدون علمه . وبعبارة اخرى لقد كان ستالين في حالة من الخوف حتى انه عندما حاول الالمان اخذنا على حين غرة ومحونا من الوجود ، اقنع ستالين نفسه بان هتلر سوف يحافظ على العهد الذي اعطاه ولن يهاجمنا (١) .

ولكن في خلال ساعات تلاقت قواتنا مع الالمان الغزاة في معركة وصدت محاولتهم الأولى . وعندما اشرق ضوء النهار تلقينا نبأ من مقر قيادة المنطقة العسكرية بان الطائرات الالمانية كانت تقترب من كييف؛ولم تلبث ان ظهرت فوق المدينة قاصفة المطار بقنابلها، فنشبت الحرائق في الحظائر. ولكن لحسن الحظ لم يكن هنالك طائرات في داخلها عندئذ . وكانت طائراتنا كلها محتشدة على الحدود تحت غطاء من الشباك . ولم يلحق بقواتنا الجوية ودباباتنا ومدفعيتنا ومستودعات ذخائرنا ضرر يذكر من جراء اول هجوم قام به الاعداء .

على ان الحالة تبدلت سريعاً تبدلا سيئاً جداً ، وذلك بالاكثر لعدم ورود مساعدة تذكر من موسكو . وبعد فترة قصيرة من بداية الحرب واثناء الزحف الالماني على كييف حدثت يقظة عظيمة من الوطنية الصادقة في اوساط الشعب . وجاء العمال من مصانع الغزل وغيرها الواقعة حول كييف إلى اللجنة المركزية بحشود كبيرة متلاحقة طالبين اعطاءهم البنادق لتمكينهم من مقاتلة الغزاة وردهم على اعقابهم . فتحدثت تلفونياً مع موسكو طالباً شحنة من الاسلحة لتسليح هؤلاء المواطنين الراغبين في الانضمام إلى الجبهة تأييداً لقوات الجيش الاحمر . غير ان الشخص الوحيد الذي استطعت الاتصال به كان مالنكوف .

فقلت له : « اخبرني من اين نستطيع الحصول على بنادق ؟ لدينا هنا عمال من المصانع يريدون الانضمام إلى صفوف الجيش الاحمر لمقاتلة الالمان وليس لدينا شيء لنسلحهم به » .

فكان جوابه : « خير لك ان تقطع كل امل بالحصول على بنادق من عندنا ، فان البنادق المعدة لمنظمة الدفاع المدني قد ارسلت كلها إلى لينينغراد » .

— اذن ما هو المفترض ان نقاتل به ؟

— لا اعلم . الرماح والسيوف والاسلحة المصنوعة محليا ، واي شيء يمكن صنعه في مصانعكم .

— هل تعني ان علينا ان نقاتل الدبابات بالحراب ؟

---

(١) كان ستالين في الحقيقة منهوك القوى مغلوباً على أمره في اسابيع الحرب الأولى .

— عليكم ان تفعلوا افضل ما تستطيعون. يمكنكم صنع قنابل محرقة من قناني الغازولين والكيروسين وقذف الدبابات بها .

وبوسع القارىء ان يتصور مبلغ فزعي وسخطي واشمئزازي عندما سمعت مالنكوف يتحدث على هذا النحو . اننا هنا نحاول وقف الغزو بدون بنادق او رشاشات ، ناهيك لما يفتقر اليه من المدفعية والاسلحة الآلية . على اني لم اجروء ان اخبر احداً بما قاله لي مالنكوف . فمن يعلم اي رد فعل كان ينتج عن ذلك . ومن المؤكد انني لم اكن لاستطيع ان اخبر الشعب بمبلغ سوء الحالة ، ولكن الشعب لا بد ان يكون قد عرف من تلقاء ذاته كم نحن عليه من سوء التجهيز المهين الداعي إلى الألم والقنوط . ولماذا نحن قد اسيء تسليحنا ؟ السبب المداهنة في مفوضية الدفاع وصناع المعنويات والتخاذل في الزعامة ؟ أهذا ما حرمنا من بناء مصانع للذخيرة ومن تحصين حدودنا ؟ والآن فات الاوان وتأخرنا كثيراً في التفكير في اصلاح هذه الاوضاع .

اما الالمان فقد تحركوا بسرعة إلى داخل اوكرانيا وبسارابيا والاتحاد الروسي . وقد حرمنا احتلالهم لاوكرانيا من مناجمنا ومن خيرة اراضينا الزراعية ومن الجزء الاوروبي من الاتحاد السوفياتي حيث كانت قد تمركزت صناعاتنا . ووقع قسم كبير من السيارات التي انتجتها مصانعنا في ايدي الاعداء عندما زحف الالمان إلى مواقع صناعاتنا الاساسية حول موسكو . وقد كانت موسكو ولينينغراد المركزين السياسيين والعسكريين والفنيين اللذين نعتمد عليهما . وفي ١٩٤١ حوصرت لينينغراد وفقدنا ايضاً روستوف وفورنوزيه وستالينغراد ومناطق القوقاس الشمالية .

ثم اضطررنا إلى اخلاء مناطقنا الصناعية . وقام شعبنا وخصوصاً المهندسون والفنيون بعمل جبار ، اذ نقلوا معداتنا الصناعية ، إلى حيث لا يصل اليها العدو حتى يتسنى لنا الاستمرار في انتاج الدبابات والمدفعية والاسلحة الآلية والبنادق والرشاشات ومواصلة العمل في المناجم وما إلى ذلك . وقد تطلب كل ذلك مجهوداً فوق طاقة البشر وتعاوناً تاماً . وفي النهاية ظهرت فائدة اخلائنا لصناعتنا واستطاع جيشنا ان يطرد العدو إلى خارج وطننا .

ومنذ صرنا في حالة حرب اضطررت ان ادخل في جدل مع ستالين مراراً كثيرة ، وبالرغم من انه كان بوسعه القضاء علي حرقاً او غرقاً ، الا انني حاولت بمنتهى العناد والاصرار اقناعه بوجهة نظري . فوفقت إلى ذلك احياناً ووجدت ان الحاحي ومتابعتي له تحوله بعض الاحيان إلى مشاركتي في رؤية الاوضاع . الا

ان الجدل معه كان دوماً في منتهى الصعوبة ، بل والخطورة ايضاً .

وبعد ان تكللت العمليات الحربية بالنجاح خارج موسكو ، وهي العمليات التي اشتركنا فيها ، اعني جبهتنا الجنوبية الغربية ، دعيت إلى موسكو للتشاور مع ستالين . فوجدت نفسي ازاء شخص جديد . لقد تبدلت صورته كثيراً عما كانت عليه في بداية الحرب ، اذ استجمع قواه وانتصب شامخاً واخذ يتصرف كأنه جندي حقيقي . ومما زاد في صعوبة امكان مناقشته والدخول معه في جدل انه أخذ يرى نفسه بمنظار الاستراتيجي العسكري العظيم . وأخذ يظهر تصميم القائد البطل القوي الارادة . غير انني كنت اعرف اي نوع من البسالة والبطولة كان يتميز بها ! فقد رأيته عندما كان يرتجف هلعاً من هتلر ، كما يرتجف الارنب امام الافعى الهائلة . ولم يتبدل رأيي فيه قط . وفي المرحلة الاولى من الحرب عندما كانت الاحوال تسير من سيء إلى اسوأ بالنسبة لنا ، لم يفتني ان الاحظ غياب توقيع ستالين على اية وثيقة او امر اذ كانت عبارة « القيادة العليا » او « هيئة اركان الحرب العامة » او اية عبارة اخرى من هذا النوع هي التي تعتمد بدلا من ايراد اسمه الذي اختفى كلياً . وهذا الاسلوب لم يتبدل حتى بعد ان وفقنا إلى صد الالمان وطردهم من موسكو . وبدأ ستالين يستعيد ثقته وطمأنينته وظلت التوجيهات والاوامر تصدر منه بدون توقيعه . وقد ظهرت احياناً بلقبه « القائد العام » ، ولكنها لم تصدر قط باسمه . ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة ، فلم يكن شيء مما يفعله ستالين صدفة ، بل كانت كل حركة يبديها مقصودة ومدروسة ، وكل خطوة يخطوها ، سواء الصالح منها او الطالح ، تقاس بكل دقة وعناية .

وهاكم مثلا آخر على رفض ستالين تحمل مسؤولية مباشرة عما كان يحدث على جبهة القتال . ان كثيرين من الجنرالات الذين اسروا اثناء الزحف الالماني وصموا ، في الاوامر التي كان يصدرها ستالين بانهم خونة . وارسلت عائلاتهم إلى سيبيريا . واني لاذكر ان هذه المعاملة قد طبقت على مازيشنكو وبوندلين ، وعلى بوتابوف ايضاً ولم يسمح لهؤلاء بالعودة الا بعد وفاة ستالين . واسندت إلى مازيشنكو وبوندلين وبوتابوف مناصب في الجيش الاحمر بعد عودتهم من معسكرات الاسرى ، واعيد لهم اعتبارهم . وخلاصة القول ان ستالين كان يعامل جنرالاته معاملة سيئة جداً (١) .

(١) ان الجنرالات الثلاثة المذكورين كانوا يتولون قيادة القوات الالية (القوات المدرعة والدبابات) ، وهم الماجور جنرال م.ل. بوتابوف والليوتنان جنرال ا.ن. موزيشنكو والماجور جنرال ب.ج. بوندلين الذي كانت قواته =

ولم تكن معاملته لافراد الجنود وصغار الضباط افضل من ذلك . واني لاذكر قائداً اسمه غوردوف لطالما امتدح لمهارته ونشاطه . وكان رجلا سقيماً صغير الهامة ، ولكن ذلك لم يمنعه من ضرب ضباطه وجنوده بصورة مستمرة .

ووجدت بعد ذلك ان اندريه ايفانوفتش يريمنكو ضرب مرة عضواً في المجلس العسكري . وكان ذلك مقبولا تماماً بل ومنتظراً من القائد لتأديب معاونيه بقبضة يده . (١) وعندما كان احد القادة يبلغ ستالين عن عدم كفاءة احد الاشخاص او ينقل اليه صورة عن اخطاء ارتكبها ، كان ستالين ينتهره سائلا : « هل صفعته على فمه ؟ اذا كرر ذلك مرة اخرى اصفعه حالا على فمه » . وكان هنالك شيء آخر استوجب حزني والمي من ستالين ، وذلك اعتماده على «التشيكا» في اعمال الاستخبارات العسكرية .

وكان رجال « التشيكا » (المباحث) الحائزون على ثقة ستالين خسيسين جديرين بكثير من الازدراء والتحقير . ولنأخذ سيرجينكو مثالا لهم ، فقد كان في الادارة المركزية لامن الدولة في موسكو وكان رجلا واسع الحيلة كثير الدهاء . وعلمت بالاختبار انه كان ايضاً غير امين ومخادع . وحدث ما يلي : في اوائل الحرب عندما كانت الأمور تسير سيراً سيئاً ، لم يكن امامنا ، القائد وانا ، الا ان نختار نقل مقر القيادة من كييف إلى بروفاري .

وفجأة تلقيت برقية من ستالين يتهمني فيها ظلماً بالجبن والتخاذل ويهدد باتخاذ اجراءات ضدي . فقد اتهمني بالعزم على تسليم كييف، وتلك كانت كذبة قذرة ، وكنت متأكداً من ان الشخص الوحيد الذي زرع ذلك الظن في ذهن ستالين لم يكن سوى ذلك النذل سيرجينكو . وكنت اعلم ان ستالين يعتبر سيرجينكو شخصاً فوق الشبهات ، ويؤمن بكل ما يقوله له . وكان سيرجينكو

= بين تلك التي كانت تتحمل عبء هجوم دبابات كليست وريخشنو وقد قاتلوا قتالا مجيداً ، ولكن شردوا بكرات معاكسة لا فائدة منها قام بها كيربونوس. وكانت معاملة ستالين لعائلات هؤلاء الضباط الذين اسروا تدل على خصاله .

(١) ومن خصاله أيضاً أنه كان شخصياً يستعمل في أغلب الأحيان العنف إلى حد اطلاق النار حالا من قبل كبار الضباط على صغارهم الذين يرتكبون خطأ لا سيما في الأيام الأولى من الحرب . وذلك عندما كان المقربون من ستالين وبيريا ما زالوا يتقلدون القيادات العليا . وحتى جوكوف كان بالغ القسوة . وفي تاريخ لا حق بعد أن شفي الجيش من التطهيرات أخذ يتولى القيادات فيه بشكل متزايد ضباط اكفاء مجربون أدخلوا عليه تقاليد أكثر تمدناً .

حينذاك وراء الخطوط الالمانية . وقد بقي وراء قوات العدو عندما طوق الالمان كييف وتسلل مخترقاً الحصار متنكراً بثياب امرأة .

وبعد هذا الحادث صرت دائماً انظر إلى سيرجينكو هذا بحذر وعدم الثقة ، لعلمي بانه اهل لابتكار اية فرية اذا ما رأى انها تجعله يظهر بمظهر البطولة ، ولو كان ذلك على حساب شخص آخر (١) . غير ان التاريخ حكم ببراءتي من اتهام سيرجينكو الافترائي لي بالتخطيط لتسليم كييف ، اذ انزلنا في الواقع خسائر فادحة بالالمان وصدينا محاولتهم اليائسة ، ورديناهم على اعقابهم . اما سقوط كييف في ما بعد فلم يتسبب عن تخلي قواتنا عن الدفاع عنها ، بل عن حركة الكماشة التي قام بها الالمان بتطويقها من الشمال والجنوب في منطقتي كومل وكريمنشوغ .

ومن احط حاشية ستالين اذكر شيرباكوف (٢) . فهو افعى راقطة تنفث سما . وقد سمعت مرة انه عندما كان غوركي رئيساً لاتحاد المؤلفين كان شيرباكوف ملحقاً به بصفة سكرتير لمعالجة الشؤون العقائدية وذلك لتمكين غوركي من التفرغ للقضايا العملية . ولم يكن غوركي من الاشخاص الذين يستطيع امثال شيرباكوف السيطرة عليهم ، فانتهى الامر بنقله تلبية لطلب غوركي .

واني اذكر واقعة كانت من خصال شيرباكوف وستالين وقد حدثت في ١٩٤٣ . وتفصيلها ان الكسندر بتروفيش دوفزينكو ، مدير الافلام السينمائية الشهير والصحافي الممتاز ، وضع « سيناريو » لفيلم عنوانه « اوكرانيا في اللهب » ، وكانت اكثر المشاهد موضوعة على اساس مقال كان قد كتبه فاضحاً فيه نقائص الجيش الاحمر وانتقد فيه وباسلوبه اللاذع الاشخاص المسؤولين عن عدم اعداد جيشنا عشية نشوب الحرب . وبعث بالسيناريو إلى اللجنة المركزية ، فقرأه مالنكوف وبعض الرفاق الآخرين . وفي اثناء احدى زياراتي لموسكو سألني

(١) لا يعرف الشيء الكثير عن سيرجينكو. على انه يبدو انه كان «ميخليس» آخر ولكن أدنى طبقة . وكانت الادارة العليا في تلك الا يام دائرة من دوائر المباحث يرئسها بيريا . وكانت تصرفاته كما وصفت هنا ميزة جنرالا ت الشرطة والمفوضين السياسيين العاملين مع الجيش .

(٢) شيرباكوف عضو المكتب العالي ومن كبار رجال الحزب في موسكو ورئيس المديرية العالية التابعة للقوات المسلحة وهو رجل بدين ضخم الهامة مخادع وسكير. كان مقرباً جداً من ستالين، وفي أثناء الحرب كان الكثيرون يعتقدون أنه يرجح أن يكون خليفة ستالين . وقد توفي في ١٩٤٥ ، وقيل انه كان أحد الذين سمم لهم أطباء الكرملين في مؤامرة الاطباء عام ١٩٥٣ . وهو ربما يكون قد مات مسموماً ولكن ليس بيد الدكتور فينوغرادوف وزملائه .

ستالين اذا كنت قرأته ، فكان ردي على سؤاله « نعم ، قرأته » . والواقع انني لم اكن قد جلست لاقرأه غير ان دوفزينكو كان قد قرأه علي اثناء الهجوم الالماني في شهر تموز ١٩٤٣ . وبالطبع كان اكثر اهتمامي منصرفاً إلى هجوم الاعداء فلم يكن باستطاعتي ان اجمع افكاري على حرفية نص كتاب دوفزينكو . واوضحت ذلك لستالين ، فقال انني احاول المراوغة للتملص من مسؤوليتي عما حدث . وانطلق في شجب دوفزينكو وصب لعناته عليه منتقداً كل صفاته متهماً اياه بالقومية الاوكرانية وبجميع انواع الرذائل والموبقات . وقد كان في ذلك الزمن من المألوف جداً ، بل الشائع ، اتهام الاوكرانيين بالقومية الاوكرانية ، سواء اكان هنالك دليل على ذلك ، او لم يكن . وكان هذا الاسلوب قد اصبح معتمداً اثناء عهد كاغانوفيتش في اوكرانيا ، وهو الذي كان مولعاً بالقول ان كل شخص من الاوكرانيين هو من دعاة القومية الاوكرانية . وذلك، بالطبع ، لا صحة له على الاطلاق .

وعلى اية حال ، فقد دعا ستالين إلى عقد اجتماع للبحث في ذلك السيناريو الذي وضعه دوفزينكو . وكان ان تولى شيرباكوف عرض وجهة نظر الادعاء واخذ يحاول اثارة نقمة ستالين على دوفزينكو بالضرب على وتر الاتهام بان السيناريو متطرف في تمثيل روح القومية الاوكرانية . وظل مالنكوف ملتزماً الصمت اثناء سير المناقشة ، بالرغم من انه كان قد سبق له ان وافق على الفيلم . اما ستالين فلم يشأ ان يترك الموضوع عند ذلك الحد ، بل طلب إلي ان ادعو إلى عقد اجتماع للحزب الاوكراني وكبار رجال الحكومة بما فيهم امناء سر اللجنة المركزية الذين يتولون شؤون الدعاوة، وطلب الينا ان نعد قراراً بالنقد الذاتي حول سوء الحالة على الجبهة العقائدية في اوكرانيا . ثم دعا دوفزينكو شخصياً إلى حضور الاجتماع ووجه اليه تأنيباً قاسياً . ثم أمر بتجميد نشاط دوفزينكو الفني لمدة طويلة .

وهذه القضية المعيبة بكاملها كانت نتيجة لتدبير شيرباكوف الذي كان قد شق طريقاً إلى التمتع بثقة ستالين ، واضعاً نصب عينيه جعل الحياة مليئة بالتعاسة لكل شخص سواه .

قد يبدو انني اقول كل هذا وانا مسير بضغينة خاصة اضمرها ضد شيرباكوف. ليس هذا صحيحاً . فقد اعطيت شيرباكوف ما استحقه من التقدير وهو جدير بما هو اسوأ من ذلك . غير ان المذنب الرئيسي هو ستالين الذي يسمح ان يكون لمثل شيرباكوف مثل هذا النفوذ الشديد الخطر .

واني اود الآن ان اقول شيئاً عن عدد قليل من القواد الذين عرفتهم في اثناء الحرب . فقد امضيت الكثير من الوقت في صحبة عدد كبير من الجنرالات .

وكانت لي علاقات ممتازة مع الاكثرية الساحقة منهم . كانت بالطبع تنبت خلافات طارئة ، اذ ان قدراً معيناً من التوتر لا سبيل إلى تفاديه يقع في زمن الحرب . فالاشخاص يرتكبون الاغلاط او يفقدون السيطرة على طباعهم . وانا شخصياً لست قديساً ، ولكن استطيع ان اقول بصورة عامة انني ، اعجبت بالرجال الذين عملت معهم على مختلف الجبهات . فقد كنا دائماً نجد لغة مشتركة للتفاهم في ما بيننا . كانت تنشأ خلافات احياناً ، ولكنني سوف لا اخوض في ذلك هنا . لقد انتهت الحرب منذ زمن بعيد وتم سحق العدو ، وكثيرون من القواد المشار اليهم منحوا اوسمة وتقاعدوا مكرمين ، فلا فائدة من نشر الغسيل القذر .

على اني قبل التحدث عن القواد الذين تميزوا بمواقفهم في الحرب ، اود ان اقول بعض الشيء عن بافلوف الذي وجه اليه اللوم عن انهيار المقاومة في بيلوروسيا في بداية الحرب (١) . فقد كانت دوماً تخامرني الشكوك حول بافلوف حتى قبل ان تسند اليه القيادة البيلوروسية . واني لاذكر مراقبتي له في ١٩٤٠ ، عندما كان قائداً لقوات دباباتنا المدرعة وهو يجرب دباباتنا الحديثة طراز ت — ٣٤ في خاركوف .

واستناداً إلى حديث قصير جرى لي معه قررت في ضوئه انه رجل ضيق الآفاق كثيراً . ورغم انه كان من ابطال الحرب الاسبانية الا انه بدا لي غير موهل لتولي مسوؤلية كبرى . فقررت ان انقل إلى ستالين شكوكي في كفاءات بافلوف فطرقت الموضوع بمنتهى الحذر قائلا :

ايها الرفيق ستالين ، هل تعرف بافلوف جيداً ؟

— نعم اعرفه جيداً جداً .

— اما انا فقد تحدثت معه دقائق قليلة ، غير اني اقول صراحة انه ترك انطباعاً سلبياً عندي ، وبدا لي بانه محدود الافق . ليس هنالك من شك في انه يعرف

(١) كان الجنرال بافلوف يعتبر أكبر خبير سوفياتي في الدبابات عند بداية الحرب . غير انه ارتكب الاخطاء ذاتها حول الدبابات التي ارتكبها كثيرون من الجنرالات البريطانيين . فهو لم يكن يعتقد ان من المستطاع استعمالها بالسرعة التي اظهر الالمان ان بالامكان استعمالها في تشكيلات مدرعة تشق طريقها مسافات بعيدة في أراضي العدو . وكان يرى ان استعمال الدبابات هو لدعم المشاة . فكان ذلك سبباً في الخسائر الرهيبة التي لحقت بالمدرعات السوفياتية دون جدوى في الأيام الاولى من الحرب . وكان بافلوف قائداً لجبهة بيلوروسيا التي افتقرت إلى الجنود والمؤن وانهارت في الحال .

كيف يستعمل الدبابة ، ولكني لا اظن انه الشخص الملائم لتولي القيادة .

وبدا التوتر على ستالين وقال : كيف تستطيع ان تقول هذا ؟ انك تكاد لا تعرف الرجل .

— سبق لي واعترفت بانني لا اعرفه جيداً .

— حسناً ، اما انا فأعرفه . وقد اثبت لي جدارته كقائد للدبابات في اسبانيا .

— كل ما اردت هو اعلامك بانه لم يترك انطباعاً حسناً في نفسي . واني اريد ايضاً ان انقل اليك بعض شكوكي حول المارشال كوليك ، فهو مسوؤل عن كل مدفعيتنا والحرب قريبة الوقوع وانا لا اظن انه كفوء لتلك المهمة .

وهنا اهتاج ستالين وقال :

— شكوت اولا من بافلوف ، والان انت تشكو من كوليك ، وانت لا تعرفه جيداً ايضاً . اني اعرف كوليك من الحرب الاهلية عندما تولى قيادة المدفعية في تسارتسين (ستالينغراد) وهو يفهم المدفعية .

— ايها الرفيق ستالين ، اني لا اشك في ان كوليك كان ضابط مدفعية جيد في تسارتسين ، ولكن كم كان عدد المدافع التي عندك هناك ؟ اثنان او ثلاثة ؟ والان هو مسوؤل عن كل المدفعية التي في البلاد .

فخرج ستالين كلياً عن طوره وقال لي ان اخرس واتوقف عن التدخل في ما لا يعنيني . وذلك هو ما كنت اخشى وقوعه . فان ستالين كان يعتقد ان الجيش الاحمر هو « طفله » ولا يملك سواه صلاحية التعليق عليه . على ان الاحداث اثبتت خطأ ستالين وصحة ما ذهبت اليه في صدد بافلوف وكوليك .

وقد عين ستالين بافلوف قائداً لمنطقة بيلوروسيا العسكرية ولم اعلم حتى بهذا التعيين الا بعد وقوعه، جرياً على عادة ستالين الذي لم يكن يزعج نفسه حتى بالتشاور مع اعضاء المكتب السياسي . وهكذا عهد إلى بافلوف بالمنطقة العسكرية الواقعة تماماً على خط الهجوم من الغرب ، فلم يفعل شيئاً لاعداد قواته لمواجهة غزو هتلر . ففي الايام الاولى من الحرب منيت قواته بهزيمة منكرة وحطم سلاحه الجوي على مدرجاته فقضى ستالين بمحاكمة بافلوف ورئيس اركان حربه والعضو المحلي في المجلس الحربي امام المجلس العسكري واعدامهم رمياً بالرصاص . وينبغي ان يكون ستالين قد ادرك اي خطأ ارتكب باسناد القيادة البيلورسية إلى بافلوف، ولكن بعد فوات الاوان . فالجبهة قد انهارت والالمان كانوا يتقدمون بعيداً في بلادنا .

اما كوليك فقد برهن عن افتقاره كلياً لكفاءات القائد الحربي ، واني لاذكر اننا في ١٩٤٣ أصغينا ، انا وفاتوتين ، إلى التقرير الذي رفعه كوليك إلى

شبيلوف العضو في المجلس الحزبي عن جبهة « فورنوزيه » آنذاك . وكان ذلك التقرير مهزلة مضحكة تماماً . وفي النهاية ، بناء على الحاحنا ، رضخ ستالين وانزل كوليك من رتبة مارشال إلى رتبة ماجور جنرال . وبعد الحرب اعتقل كوليك واعدم رمياً بالرصاص .

وبعد سنين كثيرة، عندما فضحت اساءات ستالين في المؤتمر الحزبي العشرين تقرر اعادة الاعتبار لبافلوف والجنرالات الآخرين الذين كانوا قد حوكموا امام المجلس العسكري واعدموا في ايام الحرب الأولى . وابديت انا بعض التحفظات حول اعادة اعتبارهم ، لاني كنت مطلعاً على الاسباب المشروعة لمحاكمة بافلوف والآخرين . غير انني كنت اعلم ايضاً ان ستالين هو المذنب الحقيقي لانه هو الذي اسند إلى رجال مثل بافلوف القيادات التي تولوا . لذلك فانني لم استعمل نفوذي لمنع اعادة الاعتبار لهم .

وشاهدت جوكوف مراراً في اوائل الحرب ، وكنت دائماً اشعر بسرور عندما كان يجيء بطريق الجو لتسلم القيادة من كيربونوس . وحدث مرة بعد ان امضى معنا يومين ان تلقى دعوة من ستالين يأمره فيها بترك كل مهامه والعودة فوراً إلى موسكو . وعندما تلقى هذا الامر قال لنا : « حسن ، اخشى ان يكون قائدكم هنا ضعيفاً نوعاً ، ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟ لا يوجد من هو أفضل منه فعلينا اذن ان نقدم للرفيق كيربونوس كل تأيد نستطيعه ونأمل بحدوث الافضل ». وكان جوكوف على حق وكنت مخلصاً عندما قلت لجوكوف كم انا آسف لذهابه .

لم تكن ترجى من الآتين إلى الجبهة من موسكو في اوائل الحرب يد العون، ولا كانوا مثل جوكوف موضع ترحيبنا. واني اضرب مثلا على ذلك المارشال بودويوني (١) الذي ارسل الينا من موسكو عندما كان الالمان يطبقون على كييف . وقد حضرت الجلسة بينما كان رئيس قسم عملياتنا الحربية الكولونيل باغراميان (٢)

(١) س.م. بودويوني، السرجنت ماجور سابقاً من فرقة الفرسان العنصرية الذي صار صديقاً خاصاً لستالين واطلق اسمه على قبعة الجيش الاحمر الهزلية. كان جريئاً جداً وشجاعاً وسكيراً وغير كفؤ . فلم يفقد كييف فقط بل فعل أشياء ، أدت إلى تطويق عدد كبير من الجنود الروس وضباطهم .

(٢) ا.ك. باغراميان الذي بدأ حياته ضابطاً وسيماً في الجيش القيصري وقد قاتل ضد الجيش الاحمر في الحرب الأهلية ، وخدم بعض الوقت في الحرب العالمية الثانية رئيساً لاركان حرب تيموشنكو . ورقي في وقت لاحق إلى رتبة مارشال .

يبلغ بودويوني عن الحالة العامة التي كانت تبدو حينئذ كالحة . واني لا اذكر تماماً ما الذي قيل فان البحث كله دار في اصطلاحات عسكرية ، غير انني اذكر كيف كانت نهاية الحديث. فان بودويوني قال لباغراميان بصوت مرتفع النبرات : « لقد اصغيت إلى ما كنت تقوله ، ويبدو لي انك لا تسيطر حتى على جنودك وليس لك معرفة بهم ، واظن ان من الافضل ان تعدم رمياً بالرصاص » .

فرد عليه باغراميان قائلا : « سميون ميخايلوفيتش لماذا اعدم ؟ اذا لم اكن لائقاً لتولي رئاسة قسم العمليات ، اذن اعطني فرقة لاتولى قيادتها . فاي غرض تحقق من وراء اعدامي ؟ »

وقد ابى بودويوني ان يسمع شيئاً عن مجرد نقل او تنزيل واصر بصلابة على حمل باغراميان لان يوافق على انه يجب ان يعدم رمياً بالرصاص .

وبالطبع لم يكن باغراميان مستعداً لان يوافق على شيء كهذا .

وينبغي ان لا يغرب عن الذهن ان هذا الحديث « الودي » جرى بعد عشاء شهي وكمية كبيرة من البراندي. وعلى الرغم من هذه الظروف الملطفة كنت ما زلت مشمئزاً . فانه لمن الفظاعة ان يتصرف ممثل القيادة العليا ، بودويوني، على هذا النحو ازاء جندي صالح مثل باغراميان. انه دون ريب لم يكن بتصرفه هذا يساعد على حل اية مشكلة من المشكلات الخطيرة التي كنا نواجهها.واحوالنا لم تتحسن بعد وصول بودويوني كما انها لم تزدد سوءاً بعد ذهابه .

من حسن الطالع ان تهديدات بودويوني لم تؤد الى شيء . فان ايفان خريستوفوروفيتش باغراميان لا يزال حياً وبصحة جيدة — واتمنى له ان يعيش الف سنة اخرى، فقد كان دائماً رجلا مهذباً وجندياً صالحاً . وقد عهد اليه بعد ذلك بقطاعات رئيسية في الجبهة .

وينبغي لي ان اخبركم عن علاقتي بفلاسوف الذي انقلب في ما بعد إلى خائن للوطن. وكان قبل الحرب قد تولى قيادة الفرقة التاسعة عشرة الباسلة التي دون التاريخ انها اول فرقة في الحرب العالمية الثانية منحت وسام الراية الحمراء . وقد كان موضع الاحترام كرجل صالح وكقائد عظيم الكفاءة . وعندما كان كيربونوس وانا نبحث عن قائد يتولى قيادة الجيش السابع والثلاثين الذي شكلناه للدفاع عن كييف اوصى قسم الملاك الشخصي في منطقة كييف العسكرية بان نعين فلاسوف لهذا المنصب ، فقررت ان اتحقق منه بالبحث مع موسكو . وقد كنا في ذلك الحين لا نزال نعيش تحت وطأة الشبهات بان اعداء الشعب موجودون في كل مكان ، وخصوصاً بين العسكريين . لذلك اردت ان اتأكد ان بامكاننا ان نولي فلاسوف ثقتنا ونعهد اليه باختيار معاونيه للجيش السابع والثلاثين والدفاع

عن كييف .

وعلى ذلك فقد زرت مالنكوف الذي كان متولياً شؤون الملاك الشخصي في اللجنة المركزية . وبالطبع لم اكن اتوقع انه شخصياً يعرف شيئاً عن فلاسوف بل ظننت ان باستطاعته ان يعهد إلى بعض رجاله باستقصاء المعلومات عنه .

وعندما اتصلت بمالنكوف على التلفون اسأله عن مثل هذه المعلومات اجاب :

« انك لا تستطيع ان تتصور الحالة هنا فان كل عملياتنا قد توقفت ، وليس لدي من يستقصي اية معلومات عن فلاسوف فعليك ان تتدبر الامر بنفسك ، وتتخذ على عاتقك المسؤولية الكاملة عما تقرر » .

وهكذا كان علي ان اعتمد فقط على توصيات بعض العسكريين . ثم قررت انا وكيربونوس ، ان نسير قدماً في تعيين فلاسوف لتولي القيادة . فتسلمها بحزم وفعالية وجمع جيشه من الوحدات التي كانت آخذة بالتراجع من الجبهة الامامية او التي استطاعت ان تخترق الطوق الالماني المضروب حولها وبرهن على حكمة اختياره للقيادة . وكان دائماً يحتفظ بالهدوء ورباطة الجأش تحت النار . واوجد قيادة حازمة وعاقلة للدفاع عن كييف وادى واجبه كاملا وحال دون تمكن الالمان من الاستيلاء على كييف عن طريق هجوم مواجه . وعندما سقطت كييف في النهاية ، كان ذلك سببه حركة التطويق وحشد قوات المانية كبيرة إلى الشرق . ولم يكن ذلك لان فلاسوف لم يدافع عنها دفاعاً قوياً صامداً .

واخترق فلاسوف الطوق المضروب حول قواته والتحق بخطوطنا مشياً على الاقدام . وامر ستالين بان ينقل جواً إلى موسكو . وظننت لاول وهلة ان القيادة العامة كان لديها شيء من الادلة ضده واستدعته للتحقيق معه . غير اننا علمنا في ما بعد انه استدعي إلى موسكو لكي يقلد وساماً مكافأة له . وتولى ستالين شخصياً كيل المديح له وولاه قيادة هجومنا المضاد على الالمان خارج موسكو .

وقد ميز فلاسوف ذاته مرة اخرى ، فعهد اليه ستالين بالمهمة الحرجة للدفاع عن قطاع فالداي على خطوطنا الامامية . ووقع فلاسوف مرة اخرى في طوق ضربه حوله الاعداء ، فاستطاع ايضاً ان يخترق الحصار ويعود إلى خطوطنا . وفكر ستالين حتى في وضع فلاسوف قائداً لجبهة ستالينغراد . واني لاذكر قول ستالين لي مرة بحضور شهود انه لو كان فلاسوف حراً لكان اسند اليه قيادة ستالينغراد مفضلا اياه على يريمنكو .

وعندما تحول فلاسوف خائناً استدعاني ستالين وذكرني ، بلهجة اللوم ، بانني كنت انا الذي اوصى بترقيته قائداً للجيش السابع والثلاثين . فكان ردي عليه انني اقتصرت على تذكيره انه هو الذي اسند الى فلاسوف قيادة

الهجوم المعاكس من موسكو ، وانه ذهب حتى إلى التفكير بجعل فلاسوف قائداً لجبهة ستالينغراد . فاكتفى ستالين بالتخلي عن الموضوع ، ولم يعد إلى اثارته مرة اخرى .

كانت قضية فلاسوف بالطبع جرعة مرة تجرعتها انا وستالين ايضاً . وكان من المتعذر ان ندرك كيف ان رجلا اظهر مثل ذلك الاخلاص والبسالة والمهارة واكتسب كل ذلك الاحترام والتقدير استطاع ان يخون بلاده . ان فلاسوف ينبغي ان يكون صاحب اخلاق غير مستقرة على الاطلاق ليتمكن من السماح لنفسه بان يصير عميلا للالمان . كان المفترض انه شيوعي ، ولكنه لم يكن على ما يبدو صاحب عقيدة صحيحة على الاطلاق . وهو في الحياة المدنية كان معلم مدرسة ، ولم يكن في الظاهر رديئاً . وفي السنين الاولى كان يبدو بكل تأكيد مخلصاً للدولة السوفياتية وربما كان بالطبع مدفوعاً بالرغبة في الارتزاق عندما انخرط في سلك الجندية ، وربما كان يأمل ان يحرز مركزاً مريحاً عن طريق التوصل لان يكون موظفاً حزبياً . وانه لمن سوء الحظ ان يكون عندنا هذا النوع من الطامعين بالوظائف في الماضي ، واني اخشى ان يكونوا قد باتوا اكثر عدداً في هذه الايام . اما فلاسوف فقد كان بالطبع مجرماً اذ ارتكب ما تجاوز الطموح لايجاد عمل . كان خائناً وتلك جريمة من نوع يختلف اختلافاً تاماً عن جريمة الطموح لتكوين المستقبل .

وقد نال العقاب الذي استحقه ، اذ حوكم واعدم شنقاً (١) .

---

(١) الكولونيل جنرال ا.ا. فلاسوف أحد المع واكفأ الجيل الجديد من القواد السوفياتيين. قد أدى أعمالا مدهشة في سنة الحرب الاولى وتخلص مراراً عديدة بفضل شجاعته من تطويق الالمان له . كان شخصية اسطورية وجندياً موهوباً ممتازاً بذكائه . حمله القرف واثاره ما شهده من الفساد والفظاعة وعدم الكفاءة من ستالين ومحيطه فسمح لنفسه بأن يقع في يد الالمان في ربيع ١٩٤٢ عندما واجه تطويقاً في آخر حركة هجوم لم يحسن تدبيرها والاستعداد لها على نهر فولجوف ، فبدا له حينذاك ان أمل روسيا الوحيد هو في انتصار الالمان عليها وتحطيم نظام الحكم القائم فيها. فعرض ان يحول العدد الكبير من الاسرى الروس إلى جيش مقاتل وان يتولى قيادتهم إلى جانب الالمان. غير ان هتلر لم ينتهز تلك الفرصة فلم يقم جيش فلاسوف بشيء يذكر. وكان فلاسوف ناقماً يائساً ، فلم يدرك حتى فات الاوان انه لا أمل في خلاص روسيا على أيدي الالمان. وكان أبعد ما يكون عن الانتهازية. و عندما هزمت المانيا كان اعدامه امراً محتوماً بصفته خائناً .

كارثة خاركوف

في ربيع عام ١٩٤٢ ، كان قد تم توقف الالمان في ضواحي لينينغراد وصدوا على أعقابهم في آخر ساعة أمام موسكو . فقرر الروس القيام بهجوم مثلث الاتجاهات في اوكرانيا . وكانت خطة ذلك الهجوم الرئيسية تقضي بأن يقوم تيموشنكو بهجوم على خاركوف . غير ان ذلك الهجوم تحول إلى كارثة لا حد لها أصابت الجيش الأحمر. وكان خروشوف في مقر قيادة تيموشنكو متورطاً إلى درجة قصوى في التخطيط للهجوم وتنفيذه . من هنا كان فشله صدمة قاسية له . فذهب إلى أبعد ما استطاع في الخطاب السري إلى محاولة تبرير ذاته والقاء كل اللوم على ستالين . وهو هنا يعيد ذلك مرة اخرى . ويقول جوكوف في مذكراته التي نشرت بعد سقوط خروشوف (أعظم معارك المارشال جوكوف) ان ذلك الهجوم المشؤوم كان حقيقة ، وليد فكر ستالين. وانه هو ، أي جوكوف ، عارضه لأسباب وجيهة جداً ، وهذا صحيح إلى درجة التأكيد . غير أن جوكوف يستطرد إلى القول ان ستالين ، كان مؤيداً تأييداً قوياً من قبل تيموشنكو وخروشوف وهذا أيضاً يحتمل أن يكون صحيحاً . ثم انه يستمر في القول ضمناً (غير أن الرواية هنا غير جلية وربما ذلك عن عمد) انه لم تكن هنالك أية محاولة من قبل تيموشنكو وخروشوف للعدول عن ذلك الهجوم قبل وقوع الكارثة . وقد وقعت الكارثة لان القوات الالمانية ذاتها كانت موزعة للقيام بهجوم يرمي الى ازالة نتؤ في الخطوط الروسية . وكان ان تيموشنكو قذف بجيشه إلى النتؤ مما أوقعه مباشرة في داخل فكي الفخ .

بلغت نقمة ستالين علي ذروتها في اثناء فترة تقهقرنا عندما ظن اننا سوف نخسر اوكرانيا . كان هو القائد الاعلى ، غير انه لم يشأ ان يتحمل مسؤولية الهزيمة فبدأ يبحث عن كبش الفداء فكنت المرشح بداهة لذلك لانني كنت السكرتير الاول للجنة الاوكرانية المركزية وعضواً في المجلس العسكري .

وربما كانت اشد ساعات الخطر علي في اثناء الهجوم المعاكس الفاشل في اتجاه خاركوف في ١٩٤٢. وكانت العمليات قد بدأت بداية تبشر بالخير؛ فقد اخترقنا خطوط دفاع العدو الامامية بسهولة زائدة ، وادركنا انه ليس هنالك قوات محشودة ضدنا . وبدا لنا ان الطريق خالية امامنا للتقدم إلى عمق كثير في اراضي الاعداء . فكان ذلك داعياً للقلق ، اذ ان معناه اننا قد وقعنا في فخ . فاجرينا استطلاعات كشفت لنا ان العدو يقوم بحشد تجمعاته في قطاع « الفايانسك » من الجبهة الجنوبية . ويبدو ان الالمان خططوا لضرب جناحنا الايسر وتصفية النتوء

الذي كنا قد عملنا على تكوينه اثناء حملة الشتاء . واستطعنا ان نرى انه كلما ازددنا تعمقاً في تغلغلنا إلى الغرب كلما اصبح بامكاننا نشر جناحنا وصار بالتالي من الاسهل على الالمان بان يتوصلوا إلى قطعنا وتطويقنا .

ولم نكد نتوصل إلى ادراك خطة العدو حتى كان الأوان قد فات . فبقي علينا الان ان نحصل على الاذن بوقف الهجوم كلية والتراجع إلى الوراء .(١)

نسيت الان من كان صاحب المبادرة لتنظيم عمليات خاركوف الحربية .

وفي ما بعد كان لستالين ان يتهمني بانني انا الذي امرت باتخاذ خطة الهجوم . واني لا انكر انه ربما كنت قد اشتركت في ذلك ، ولكن كما سألت ستالين يومها : « ماذا يقال عن القائد تيموشنكو ؟ »

« كلا » قال ستالين « انها كانت فكرتك وتيموشنكو فقط رضخ لرأيك ».

فقلت : « ذلك مستحيل . انك لا تعرف تيموشنكو معرفة جيدة . فهو قوي الارادة جداً ولم يكن ليبدي موافقته على الخطة ، ما لم يكن رأى انها فكرة صحيحة » .

وحقيقة الأمر ان الرفيق باغراميان هو الذي وضع الخطة لهجوم خاركوف المعاكس . ووافقت عليها قيادتنا العامة للجبهة الجنوبية الغربية وكذلك وافق عليها مقر القيادة العامة ، وكنا جميعاً مشتركين معاً في القرار الاصلي . والآن كان علي ان اقنع هيئة الأركان العامة بالعدول عن الاعمال الحربية وكنت اعلم ان ذلك لن يكون امراً سهلا .

وحالما ادركنا خطر الاستمرار في السير صوب خاركوف اصدرنا الامر بوقف الهجوم واتخذنا التدابير لبناء خطوطنا الدفاعية . فحركنا مدفعيتنا والمدرعات والقوات المضادة للدبابات لتغطية جناحنا الايسر المكشوف . وعندما اعطيت سائر الاوامر الضرورية كنا قد تحولنا بصورة فعالة من الهجوم إلى الدفاع وعدت انا إلى منزلي لاحصل على بعض الراحة . وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً . وما شرعت بخلع ملابسي للنوم حتى اقتحم الرفيق باغراميان غرفتي ، وكان شديد الاضطراب وخاطبني قائلا : « يؤسفني ان ازعجك ايها الرفيق خروشوف ، غير انني رأيت انه ينبغي ان تعلم ان موسكو نقضت اوامرنا بوقف الهجوم » .

(١) بدأ زحف تيموشنكو في ١٢ أيار وسار عدة أيام سيراً حسناً . ولم يتحول نحو السيىء الا في ١٧ أيار مع توسع خطوط القوات السوفياتية توسعاً خطيراً. وفي منتصف ليل ١٧ أيار جرت مناشدة ستالين تلفونياً. وفي فجر يوم ١٨ قام الألمان بهجومهم المعاكس وبدأت حركة التطويق المميتة والروسيون المطوقون كانوا يدافعون يائسين .

— ماذا ؟ كيف يمكن ذلك ؟ من اتخذ هذا القرار ؟

— لا اعلم . كل ما اعرفه هو اننا اذا واصلنا خطة الهجوم فسوف نكون سائرين قدماً إلى كارثة . فقواتنا التي على النتوء سوف يقضى عليها بالهلاك . لذلك فاني ابتهل اليك بان تتحدث إلى الرفيق ستالين شخصياً . ان املنا الوحيد هو ان نتمكن من التكلم معه وحمله على الرجوع عن قراره الخاص بنقض اوامرنا .

لم أكن قد رأيت قط الرفيق باغراميان في مثل هذه الحالة من قبل . فالمعروف عنه انه رجل متزن سليم التفكير . وانا اميل اليه حتى اني استطيع القول انني احبه كثيراً . لقد كنت دائماً معجباً به لرصانة عقله وروحه الحزبية ومعرفته البعيدة المدى للشؤون الحربية وكذلك لنزاهته التي لا تشوبها شائبة . فوافقت تماماً على ما قاله عن ضرورة تحدثي إلى ستالين ، حتى لو كنت اتوقع اسوأ العواقب .

وكان الرفيق باغراميان معي عندما طلبت مقر القيادة العامة ، وكان الكسندر ميخالوفيتش فاسيلفسكي على الخط (١) وكان قد سبق ان علم بما حدث .

فخاطبته قائلا : « الكسندر ميخالوفيتش ، بوصفك رجلا عسكرياً درس الخرائط وفهم خطة العدو الحربية ، انت تعلم حقيقة الموقف بكل تفاصيله اكثر من معرفة الرفيق ستالين له . فارجوك ان تأخذ الخارطة وتوضح للرفيق ستالين ما الذي سوف يحدث اذا واصلنا هذه العمليات » . وادرك فاسيلفسكي ما الذي كنت ارمي اليه فكلانا قد رأى كيف كان ستالين يحاول ان يخطط حركات المعركة برسمه خطوط الجنود والجبهة باصبعه على كرة ارضية تمثل العالم .

فقال فاسيلفسكي : « ان ستالين الان في منزله الريفي . فقلت « اذن ، اذهب وتحدث اليه هناك . خذ معك خارطة لتريه كيف ان قرارنا بالعدول عن الهجوم هو الشيء الوحيد المعقول والمنطقي الذي ينبغي ان يعمل به » . فاجاب « كلا ، ايها الرفيق خروشوف ، ان الرفيق ستالين قرر واصدر اوامره فعلا » .

كان كل من تعامل مع فاسيلفسكي يستطيع ان يتصور الصوت الهادىء القوي النبرات الذي قال به هذا الكلام . وكنت انا على علاقات حسنة جداً معه ، لذلك بعد ان تركت السماعة قررت ان اطلبه واحاول مناشدته مرة اخرى ، هذه المرة ملحاً عليه بان يساعدني . غير انه ظل على رفضه قائلا : « نيكيتا سرجفيتش ، ان الرفيق ستالين عقد عزمه وهذا كل ما يمكن لي قوله » . ولو كان جوكوف موجوداً في مقر القيادة العامة بدلا من فاسيلفسكي فاني لمتأكد انه كان يتوجه حالا

(١) المارشال ا.م.فاسيلفسكي رئيس هيئة اركان الحرب العامة الذي خلف المارشال شابوشنيكوف بعد وفاته .

إلى منزل ستالين ويقابله من اجلي .

وهكذا ، فلم يبق امامي الا ان احاول ، انا شخصياً الاتصال بالرفيق ستالين . وكانت تلك لحظة شديدة الخطر علي ، اذ اصبحت اعرف الان بان ستالين نفسه خبير عظيم في الستراتيجية العسكرية . فطلبت منزل ستالين فرد علي مالنكوف . وبعد ان تبادلنا التحيات سألته قائلا : « هل يمكنني ان اتحدث إلى الرفيق ستالين ؟ » ومن المؤكد ان ستالين كان هناك ، فاني اعرف معرفة جيدة جداً منزله وكيف يجلس ، وكم عدد الخطوات التي يحتاج ان يخطوها للوصول إلى الهاتف .غير ان مالنكوف عاد ليقول لي « الرفيق ستالين يقول ان عليك ان تخبرني بما تريده منه فانقله اليه » . فكان ذلك علامة اكيدة على المتاعب التي سأواجهها .

فقلت باصرار : « اني اريد ان اتكلم مع الرفيق ستالين شخصياً ، واريد ان ابلغه عن الحالة على الجبهة » . فابلغ مالنكوف ذلك إلى ستالين وعاد إلى الخط ليقول : « الرفيق ستالين يكرر القول ان عليك ان تخبرني بما تريده . »

وعلى ذلك فقد اضطررت ان ابلغ مالنكوف اننا باستمرارنا في خطة الهجوم نضع انفسنا مباشرة في ايدي العدو. فقد تمادينا في توسيع جبهتنا واضعفناها . وقد كشفنا جناحنا للالمان . فساد الصمت مرة اخرى بينما ابلغ مالنكوف قولي هذا إلى ستالين . وعندما عاد قال لي : « الرفيق ستالين يعلم انك لم تحصل على موافقة قائد الجبهة على قرارك بوقف الهجوم ، وهو يعلم ايضاً ان العدول عن العملية كان رأيك ورأيك انت وحدك ، وهو ضدهذا الرأي ؟ »

واني لا ازال غير قادر على الاعتقاد ان تيموشنكو قد ابلغ ستالين انني انا ارغمته على القبول بذلك القرار . ولذلك ظننت ان ستالين انما يحاول ان يوهمني ويفسد علي حجتي ، فقلت لمالنكوف : « انت تعرف عن تيموشنكو انه لا يوافق ابداً على قرار ما لم يكن مقتنعاً به كل الاقتناع . » فقال لي مالنكوف : « لا فائدة من الاستمرار في المناقشة . ان ستالين يقول ان الهجوم يجب ان يستمر . » فقلت : « حسناً ، ان الاوامر هي الاوامر ! ومواصلة الهجوم امر سهل ، لان ليس امامنا قوات للعدو . وهذا هو الذي يقلقنا كثيراً » .

وهنا علق مالنكوف السماعة وانتهت المكالمة . وكان الرفيق باغراميان معي وسمع الحديث ، فتحطمت اعصابه واجهش بالبكاء ، اذ رأى ما سوف يحدث (١) .

(١) ان حكاية المحادثة التلفونية تتفق مع ما ورد عنها في خطبته السرية باستثناء بعض=

وقعت الكارثة بعد ذلك بايام قليلة تماماً كما كنا نتوقع . ولم يكن هنالك ما نستطيع ان نفعله لتفاديها . فقد هلك كثيرون من الجنرالات والكولونيلات وصغار الضباط والجنود . ومحيت هيئة اركان حرب الجيش السابع والثلاثين بصورة تامة . اذ كان الجيش قد تقدم بعيداً في اراضي العدو ، وعندما طوق رجالنا لم يكن لديهم حتى وقود كافية للفرار .

وكانت المسافة ابعد مما يستطاع اجتيازها مشياً على الاقدام . فقتل منهم كثيرون وأخذ أكثرهم اسرى . وتمكن الجنرال غوروف بطريقة ما من النجاة في دبابته . وقال البعض انه ينبغي ان يحاكم امام المجلس العسكري بتهمة الفرار . غير انني قلت لهؤلاء: «من الثابت اننا خسرنا عدداً وافياً من الجنرالات حتى الآن . فهل تريدون خسارة البقية الباقية ممن تمكنوا من النجاة ايضاً ؟ هل اصابكم مس من الجنون ؟ »

كان امراً بديهياً ان ستالين لن يعترف قطعاً بخطأه . فبعد ايام قليلة من حلول الكارثة تلقيت دعوة هاتفية من موسكو . لم يستدعوا تيموشنكو قائد الجبهة بل استدعوني انا . وبامكان القارىء ان يتصور مبلغ يأسي الشديد . ولا اراني في حاجة لان اصف باية حال كنت يومها . فلقد فقدنا الكثير ، آلافاً عديدة من الرجال ، وخسرنا اكثر من ذلك ، الأمل الذي كان يحيينا باننا قد نتمكن يوماً من صد الغزاة إلى الوراء ووقف مدهم الذي اجتاحنا في عام ١٩٤٣ . ان تجرعنا هزيمة خاركوف كان فيه من المرارة ما يكفي . ولكي تزداد الحال سوءاً بدا كأنني سوف احمل اللوم شخصياً عما حدث . وكنت أعلم ان محاولتي وقف الهجوم وتفادي الكارثة لن تدخل في الحساب لان اعتراف ستالين باننا محقون عندما اوقفنا العملية كان ليعني اعترافه بغلطته . ولم يكن من خصائص ستالين التحلي بهذا القدر من الشهامة اذ كان أبعد ما يكون عن تحمل نتائج اخطائه .

وبينما كنت بالطائرة في طريقي إلى موسكو استطعت ان ارى بوضوح نوع المأساة التي كنت قد تكهنت بوقوعها ، فوضعت ذاتي على كف القدر . وكنت مستعداً لاي شيء بما في ذلك الاعتقال .

وفي بداية الأمر لم تصدر عن ستالين اية اشارة تنم عما اذا كان ناقماً علي او متعاطفاً معي ، فقد كان ممثلا ماهراً . كان وجهه قناعاً من الغموض والابهام

=التفاصيل الجديدة والغريبة وهي أن ستالين عن طريق مالنكوف اتهم خروشوف بالعمل مستقلا عن تيموشنكو . ان تيموشنكو ورئيس أركان حربه باغراميان كانا حريصين جداً على السماح لهما بوقف الهجوم والتراجع لا نقاذ ما يمكن انقاذه .

ثم تحدث قائلا : « لقد أعلن الالمان انهم اسروا أكثر من مئتي الف من جنودنا ، فهل هم كاذبون ؟ »

— كلا ، ايها الرفيق ستالين ، انهم لا يكذبون . ان ذلك العدد يبدو انه قريب من الحقيقة . لقد كان لدينا مثل هذا العدد من الجنود تقريباً ، وربما اكثر قليلا . وعلينا ان نفترض ان البعض قتلوا وان الباقين اسروا (١) .

لم يقل ستالين شيئاً آخر . لكن كان بامكاني ان اراه يغلي . ولم اكن ادري متى سوف ينفجر هذا الوعاء الذي في حالة غليان ، ومن سوف يحترق بسائله الحار . غير انه ضبط نفسه ولم يقل شيئاً آخر لبرهة قصيرة . وبعد ذلك بدأنا نتحدث عن الاوضاع مرة اخرى : ما الذي نستطيع عمله الآن ؟ اي امل لنا ببناء خطوط الدفاع على مجرى نهر دونتز لكي تمنع العدو من عبوره ؟ كيف نستطيع وقف تقدم الالمان في زحفهم بما لدينا من موارد محدودة . وبعد هذا البحث دخلنا لتناول طعام العشاء .

بقيت مقيماً في موسكو بضعة ايام . وكنت كلما طالت اقامتي انهكني وآلمني انتظاري لما عساه يحدث لي . وكان يخامرني شك كبير ان ستالين سينسى الكارثة ويغفر . انه لا يزال يبحث عن كبش فداء . وهنا تلوح له فرصة لاظهار صلابته التي لا تعرف هوادة ولا صفحاً وتعتمد العقاب الصارم عندما تكون مصالح الشعب عرضة للخطر . كنت اعرف تماماً كيف سيستنبط طريقة انتقامه فهو استاذ في هذا المجال .

وبعد مرور ايام قليلة على وجودي في موسكو كنا جالسين إلى مائدة ستالين نتناول طعام العشاء فبدأ ستالين الحديث بلهجة هادئة لا تنم عن اي موقف وقال محدقاً بي : « هل تعلم ان في الحرب العالمية الأولى بعد ان سقط جيشنا في حركة تطويق المانية في بروسيا الشرقية حاكم القيصر القائد العام امام مجلس عسكري فحكم عليه بالموت واعدم شنقاً » .

فاجبته قائلا : «ايها الرفيق ستالين ، انني اذكر تلك الحادثة جيداً وقد فعل القيصر الشيء الوحيد الذي كان صواباً ، فان ميازنكوف كان خائناً وكان عميلا لالمانيا . »

فلم يقل ستالين شيئاً ولم يتوسع في هذا الموضوع . غير انه كان قد قال ما فيه الكفاية لاعطائي بعض الفكرة عن المكان الذي اقف فيه . ويمكن للقارىء ان

(١) ان لائحة الخسائر السوفياتية الرسمية ، كانت ٥,٠٠٠ قتيل و٧٠,٠٠٠ مفقود و٣٠٠ دبابة محطمة . أما الألمان فقد قالوا إنهم أخذوا ٢٠٠,٠٠٠ أسير .

يتصور كيف كان شعوري . ان ستالين يحاول ان يقيم وجه شبه ولو ضمناً بين تطويق قواتنا في بروسيا الشرقية في الحرب العالمية الأولى وبين تطويق قواتنا إلى الشرق من خاركوف . لقد كان ستالين يذكرني ، بوصفي عضو المجلس العسكري المسؤول عن هزيمة خاركوف ، ان ذلك الشيء قد حدث من قبل في التاريخ . وعدا ذلك فان هنالك سابقة في الحرب العالمية الثانية وهي اعتقال الجنرال بافلوف ومحاكمته واعدامه مع رئيس اركان حربه والعضو المحلي في المجلس العسكري بعد ان اكتسح الالمان بيلوروسيا بدون مقاومة في الايام الأولى من الحرب.

كان ستالين يعذبني نفسياً لان افهم ، في ضوء مصلحة الوطن وضرورات تهدئة الرأي العام ، امكان اضطراره لان يعاقب بقسوة جميع الذين كانوا مسؤولين عن كارثة خاركوف .

اذن هذا كان موقفي . كان مصيري في كف عفريت .

ولكن الأمر الوحيد الذي كان يحول دون ان ينحى ستالين علي باللائمة على ما حدث هو محاولاتي المتكررة بصلابة وعناد لحمله على العدول عن خطة الهجوم . وقد فعلت ذلك بحضور شهود ونقلت رأيي ومشورتي له بواسطة مالنكوف . واني متأكد ان بيريا وميكويان ومولوتوف ، وربما فوروشيلوف ، كانوا هنالك في الداشا مع ستالين عندما طلبته من الجبهة . وحتى ولئن يكن هؤلاء جميعاً على علاقة وثيقة جداً مع ستالين فانه ليستحيل عليه ان يتجاهل الحقيقة الواقعة وهي انني عارضت بشدة مواصلة خطة الهجوم . وهؤلاء الرجال كان يمكن ان يكونوا شهوداً معاكسين كثيراً لي لو ان خطة الهجوم تمت على خلاف ما حدث . ولكن بالنظر لما حدث فهم شهود غير مرضي عنهم من قبل ستالين ذاته .

واخيراً دعاني ستالين إلى مكتبه وقال ان بامكاني العودة إلى الجبهة ، ففرج عني ولكنني ادركت انني لست في مأمن بعد . فقد كنت اعرف حالات كثيرة كان ستالين يطمئن الناس فيها ويتركهم يغادرون مكتبه مستبشرين خيراً . ومن ثم يلحق بهم وينقلهم إلى مكان غير الذي كانوا يتوقعون الذهاب اليه . غير انه لم تحدث لي شيء من ذلك اثناء الليل بعد مغادرتي مكتبه وفي صباح اليوم التالي عدت بطريق الجو إلى الجبهة (١) .

(١) لقد كان لدى خروشوف ما يحمله على الخوف على حياته. ما اغفل قوله هو ان تيموشنكو خفضت رتبته العسكرية نتيجة لكارثة خاركوف وتسلم جوكوف منصب نائب القائد الأعلى .

وعند وصولي وجدت الحالة سيئة جداً . واخبرني المارشال تيموشنكو ان الجيش قد شرد كلياً وان الطريقة الوحيدة للم شعث الجنود هي ان نقيم مطابخ متنقلة على امل ان يعود الجنود عندما يمسهم الجوع وقد كان بذلك يعمل على اساس اختباراته في الحرب الاهلية ، فأنشأ مطابخ بعد ان اعدنا ببطء ولكن بصورة اكيدة تنظيم خطوط دفاعنا .

واني بعد هذه السنوات الطويلة ، اعود بالذاكرة إلى حادثة خاركوف لارى فيها لحظة مؤلمة لارضنا الأم وامثولة في حياتي اكتنفتها مخاطر لا انساها .

ستالينغراد

كانت ستالينغراد أعظم ساعة في حياة خروشوف . فقد كان بوصفه المستشار السياسي للمارشال يريمنكو ، الذي كانت تقع على عاتقه مسؤولية الدفاع عن ستالينغراد، رجل الساعة القوي. وبعد أن دمر الألمان المدينة وانتقلوا إلى القتال بين خرائبها اضطر يريمنكو إلى نقل مقر قيادته إلى الضفة الأخرى من النهر .

ان وصف خروشوف لتطورات المعركة يعطي لمحات مضيئة ، عن كثب ، للنضال الرهيب الذي انتهى بتحطيم جيش باولوس السادس ، وادى الى تحول مجرى الحرب .

عندما بدأت معركة ستالينغراد كانت قواتنا المسلحة لا تزال في حالة ضعف بالغ . وكنا نعاني نقصاً في المدفعية الثقيلة والمدافع الرشاشة والطائرات والاسلحة المضادة للدبابات . وكان الالمان ما زالوا يضغطون علينا بشدة . الا انه بدل القتال المضطرب غير المنظم الذي طبع مرحلة اوائل الحرب ، كان جنودنا الان يقاتلون ببسالة ولا يتراجعون الا عندما لا يكون هنالك سبيل آخر . وقد تراجعوا بطريقة منظمة من موقع إلى آخر ولم يسمحوا البتة لانفسهم بان يشردوا او تشتت جموعهم .

اما انتكاساتنا او هزائمنا فبالرغم من انها كانت اقل من عددها فقد كانت مع ذلك مؤلمة جداً . ففي اثناء المعركة تلقيت نبأ بان روبين ايباروري قد قتل . (١) وقد كان روبين ايباروري ونجلي في اوائل الحرب في جناح الجرحى في كويبيشيف .

(١) كان نجل دولورس ايباروري الشيوعي الأسباني الشهير المعروف باسم لاباسيوناريا وهو لا يزال يعيش في موسكو .

وكان ليونيد طياراً وقد توفي بعد ذلك في المعركة . ثم علمت بان انستاس ايفانوفيتش نجل ميكويان، وكان ايضاً طياراً، قد قتل. هذا كله كان مألوفاً عندي فنحن في حرب وكثيرون من الرجال الطيبين يموتون كما يحدث في كل حرب . غير ان الجيش الاحمر قد عانى من الخسائر اكثر مما ينبغي نظراً لسوء استعداده ولنقص تسليحه. واني لاذكر مشهداً مفجعاً شهدته عندما خرجت إلى منطقة القتال جنوبي المدينة قرب وادي نوريمان . فقد كانت بعض قاذفات القنابل محلقة فوقنا متجهة صوب الخطوط الامامية . وفجأة ظهرت طائرة المانية من طراز مسرشميتز . وامام اعيننا اصيبت قاذفات القنابل التي لنا واشتعلت النار فيها الواحدة تلو الاخرى . فانطلق الطيارون منها . وكانت طائراتنا تبدو شبيهة كل الشبه بطائرات مسرشميتز الالمانية فظن المشاة ان القاذفات المقاتلة كانت طائرات المانية ففتحوا النار على طيارينا بينما كانوا يهبطون بالمظلات إلى الأرض . واني لأذكر احد الطيارين يصرخ وهو يهبط قائلا: «اني واحد منكم ! انا واحد منكم !» ثم انطلقت زخة من نيران الرشاشات وانتهى كل شيء .

كان يتولى قيادة وحداتنا الجوية خريوكين وهو شاب اطلق عليه لقب بطل الاتحاد السوفياتي نظراً للدور الذي اداه في الحرب ضد اليابان عندما كنا نقاتل في الصين إلى جانب قوات شان كاي شيك (١) .

وصل الالمان إلى الفولغا وكادوا يحدقون نصف احداقة بنا فاوقفوا اتصالاتنا الحديدية مع الشمال وجميع طرق الملاحة النهرية . وتلقيت مكالمة هاتفية من ستالين سألني فيها بلهجة تهديدية : « ماذا حدث حتى شرعت في اخلاء المدينة ؟ » فاجبته قائلا : « ايها الرفيق ستالين من قال شيئاً عن اخلاء المدينة ؟ من ابلغك ذلك ؟ لم نفكر قط بهذا الشيء . واني لا اعلم كيف حصلت على هذه المعلومات ولكنها غير صحيحة على الاطلاق . »

وبعد ان اقفل الخط بدأت اتساءل من ترى الذي لفق هذه الكذبة القذرة ؟ انها بداهة موجهة ضدي شخصياً . وعلى ذلك فقد قررت الاتصال بماليشيف مع

(١) ت. ت. خريوكين قائد السلاح الجوي الثامن . والاشارة هنا إلى العمليات الحربية غير المعلنة ، وقد كانت صغيرة ولكنها دامية مع اليابانيين في مونغوليا في صيف ١٩٣٩ . وهنا اكتسب جوكوف شهرته إذ وصل في الوقت الملائم لينقذ الموقف الخطير في هلكن – غول وشتت اليابانيين . وانه ليغيب عن البال أحياناً ان الروس كان حينئذ يعتبرون شان كاي شك حليفاً لهم وقد أيدوه في قتاله ضد ماوتسي تونغ . وماو لم ينس ذلك أبداً .

اني كنت اعتقد انه لا ينحدر إلى هذه السفالة (١) فاخبرته عن اتصال ستالين بي فقال لي « نعم لقد تلقيت للتو ، انا كذلك مكالمة ساخطة من ستالين . وقد قال لي الشيء نفسه . ولا فكرة عندي عمن يمكن ان يكون قد لفق هذه الاكذوبة » .

ثم اتجهت ظنوني إلى شويانوف غير ان شويانوف لم يكن من النوع الذي يمكن ان يهبط إلى هذا الدرك من السفالة . على اني اتصلت به على كل حال فقال انه تلقى مثل هذه المخابرة التلفونية السيئة من ستالين ايضاً .

ولم يعد ستالين إلى ذكر مسألة الاخلاء مرة اخرى . وقد ادركت فيما بعد ان شائعة الاخلاء كانت من صنع ستالين ذاته . وكانت ما يمكن ان يسميه هو حيلة وقائية يقصد منها المبادرة لزرع هذه الفكرة من قبله شخصياً بغية جعلنا نعلم العواقب السيئة التي تنتظر كل من تخطر له مثل هذه الفكرة في المستقبل . كان ذلك من خصال ستالين التي عرف بها في توجيه الحرب . فقد كان يريد ان يتولى تنظيم كل شيء من موسكو. وهو بمباشرته الرقابة المركزية إلى مثل هذه الدرجة من التطرف سلب من قواده والمفوضين الموجودين على الجبهة كل فاعلية او قوة .

ان مقر قيادة المعركة في ستالينغراد كان على نهر تساريتسا في ساقية حفرتها سنون كثيرة من الامطار والثلوج الذائبة . وعند اول مجيئنا إلى ستالينغراد دهشنا لاكتشافنا ان هنالك موقعاً (او مخفراً) للقيادة سبق ان حفر في منحدر هذه الساقية . وقد اعد وجرى تحصينه قبل الحرب الحالية بزمن طويل . وقد اقيمت لوقاية مدخله حواجز ضد موجات الاهتزاز التي تحدثها الانفجارات . وعززت الابواب باطواق سميكة من الحديد لتحفظها من الاندفاع بالقوة إلى الداخل. وكان كل شيء في هذه الغرفة الارضية الحصينة يبدو مألوفاً إلى درجة غريبة . وقد زين كثيراً وفقاً لذوق ستالين . وكانت جدرانه من الواح خشب السنديان المزخرفة على مثال سائر مقرات (داشات) ستالين. وجهز تجهيزاً جيداً جداً حتى انه اعدت فيه «تواليت» لم يكن ليفكر اي رجل عسكري ان يكون له مثلها في احوال الحرب وميادين القتال . وانا لم اسمع ابداً قبل ذلك او منذ ذلك الحين ان كان قد اعد مخفر القيادة هذا في الاصل .

(١) ف.ك. ماليشيف مفوض الشعب حينئذ لصناعة الاسلحة وصارفي ما بعد أحد أفراد فريق مالنكوف ومن كبار الا ختصاصيين التقنيين وعضواً في برزديوم الحزب الموسع .

وفي بدء المعركة قام العدو بتوجيه اقسى الغارات الجوية على ستالينغراد . فكانت تحلق الموجة تلو الموجة من طائراته فوق المدينة وتقصفها بالقنابل . وهكذا كانت ستالينغراد تشتعل . ووجدنا اننا قد اصبحنا معزولين عن الضفة اليسرى من الفولغا في حين ان المواصلات مع الضفة اليسرى ضرورية لاشرافنا على المعركة . فقرر القائد يريمنكو (١) بالاتفاق معي ان استمرار وجودنا في ستالينغراد لم يعد مناسباً . فارسلنا برقية بهذا الصدد إلى مقر القيادة العامة طالبين الاذن بنقل مقر قيادتنا إلى الضفة اليسرى لنتمكن من ان نكون على اتصال سريع مع سائر جيوشنا . فمر يوم دون ان نتلقى جواباً فكررنا الطلب . ومرة اخرى لم يرد شيء من موسكو ولم يكن باستطاعتنا ان ننقل مقر القيادة بدون اذن .

ثم حدث ان ستالين اتصل بنا لشيء مختلف كلياً فتحدثت معه وقلت : « الرفيق ستالين ، لقد سبق لنا وطلبنا تكراراً الاذن بنقل مقر القيادة إلى الضفة اليسرى غير ان مقر القيادة العام لم يرد علينا حتى الآن وللوقت اهميته لذلك فاني اطلب منك ان تعطينا الامر بان نفعل ذلك » .

ـ« كلا هذا مستحيل . اذا علم جنودكم ان قائدهم قد نقل مقره إلى خارج ستالينغراد فان المدينة تسقط » .

فحاولت ان اوضح لستالين ، على قدر ما بوسعي ،ان مخاوفه لا اساس لها . وقلت : « الرفيق ستالين : انني لا ارى هذا الرأي فان الجيش الثاني والستين بقيادة شويكوف (٢) قد اخذ على عاتقه الدفاع عن ستالينغراد وقد عينا غوروف في المجلس العسكري وامرناه بان يبقى في المدينة ويعزز قيادة الجيش ونحن متأكدون تماماً ان شويكوف وغوروف يقومان بمهمتهما خير قيام ، ويحولان دون تغلغل العدو في خطوط دفاعنا والاستيلاء على المدينة .»

ـ حسنا ، اذا كنت متأكداً ان الجبهة سوف تصمد وان خطوطنا الدفاعية لن تخترق فاني اعطيك الاذن بالانتقال إلى الضفة اليسرى ولكن تأكد من ترك ممثل لمقر قيادة الجبهة في ستالينغراد يكون بامكانه ان ينقل اليك مجرى الامور . واني اريد منك ان تتأكد من ان لك في المدينة من تعهد اليه بالموافقة على تقارير شويكوف .

(١) المارشال يريمنكو كان قائد الجبهة الجنوبية الشرقية التي كان خروشوف ملحقاً بها . وفي هذه المرحلة كانت الجبهة الجنوبية الشرقية تشمل مدينة ستالينغراد وكانت جبهة ستالينغراد هي في عهدة مجموعة الجيوش المرابطة إلى الشمال من المدينة .

(٢) المارشال شويكوف كان قد خلف الجنرال لوباتين قائد الجيش الثاني والستين الذي كان قد تحمل طويلا وطأة الحصار كاملة . وشويكوف الذي كان عليه في ما بعد=

وهكذا اتخذنا يريمنكو وانا الاستعدادات اللازمة لنقل مقر قيادتنا وطلبنا من رئيس هيئة اركان حربنا زخاروف مساعدتنا (١) (زخاروف ويريمنكو كانا قد اعتادا ان يلكما الناس على الانف عملا بتعليمات ستالين) وقررنا ان نترك الجنرال غوليكوف في ستالينغراد ليطلعنا دائماً على تصرفات شويكوف في الدفاع عن المدينة . وكان غوليكوف قد ارسل الينا من قبل ستالين ليكون نائباً اول لقائد الجبهة(٢) . وكنت قد عرفته اثناء احتلالنا لمدينة لفوف في عام ١٩٣٩ ،وكذلك عندما كان رئيساً للموظفين في الجيش الاحمر . وقد رأيته كثيراً بحضور ستالين عندما كان رئيساً للمخابرات العسكرية . غير ان الفرصة لم تسنح قبل الآن لان اقدره كانسان وكشيوعي . واستدعينا غوليكوف وقال له يريمنكو :

ـ« ايها الرفيق غوليكوف ، لقد تلقينا الاذن بنقل مقر قيادتنا إلى الضفة اليسرى ونريد منك ان تبقى مع المقر الرئيسي هنا وان تكون على اتصال دائم مع الرفيق شويكوف » .

فبدت على وجه غوليكوف امارات الرعب غير انه تمكن لفترة قصيرة من تمالك نفسه . وحالما غادر يريمنكو الغرفة توسل الي غوليكوف ان لا نتركه وحده في المدينة . ولم يسبق لي ان رأيت قط جندياً او مدنيا ، في مثل تلك الحالة اثناء الحرب كلها . فقد كان ممتقع الوجه يرجوني ان لا اتركه. وظل يكرر القول : « ستالينغراد مقضي عليها » . « لا تتركني فيها . لا تقضي علي بالهلاك . دعني اذهب معكم ».

ـما هذا الذي تقوله ؟ كيف تجروء على القول بان ستالينغراد مقضي عليها ؟ الا تستطيع ان ترى ان الحالة قد تبدلت ؟ ونحن لا نتراجع او نتقهقر امام العدو . ان جيشنا يقف صامداً هنا . ماذا اصابك ؟ استجمع قواك . كيف تجروء على التصرف هكذا ؟ لقد صدر لك الأمر بالبقاء في المدينة وسوف تطيع الامر .

وبعد ايام قليلة تلقينا رسالة من ضابط في ستالينغراد ابلغنا فيها ان غوليكوف

=الاسراع في الزحف على برلين وصار مع الوقت قائداً للقوات السوفياتية في ألمانيا، كان من ألطف الرجال وجندياً لا معاً وبطل ستالينغراد الأول .

(١) الجنرال زخاروف رئيس أركان حرب يريمنكو في ستالينغراد وصار في ما بعد قائد الجيش .

(٢) الكولونل جنرال غوليكوف وهو جنرال «سياسي» كان أكثر توفيقاً في المهام الادارية والدبلوماسية منه في الميدان . وكاد لا ينجو من المحاكة والاعدام

قد اضاع عقله تماماً وهو يتصرف كرجل مجنون ووجوده في الجيش لا يؤدي لنا اية فائدة . وقد صار حتى حملا ثقيلا علينا . وطلب الينا الضابط الذي نقل هذه الشكوى اتخاذ الاجراءات الملائمة . فجردنا غوليكوف من مسؤولياته واصدرنا امراً باستدعائه .

وحدث بعد ذلك ان شكانا إلى ستالين . وفي اثناء احدى زياراتي لموسكو لامني ستالين غاضباً على الموقف الخاطىء الذي اتخذه ازاء جنرالاتنا ولتقصيري في اعطائهم العون الذي يحتاجون اليه فسألته « اي جنرال يراود ذهنك بالتحديد ؟ » فقال : «خذ غوليكوف على سبيل المثال . لقد ارسلناه لكي يساعدك فانظر كيف عاملته » ثم انطلق في حملة تقريع ضد يريمنكو واصفاً اياه بانه كذا وكذا عديم الفائدة . فصعقت لما سمعته لانني قبل ذلك كنت قد سمعت ستالين مراراً كثيرة يمتدح يريمنكو ويمجده ناعتاً اياه بافضل الالفاظ ، ناسباً اليه اعلى المزايا حتى انه ليكاد ان يعبده بوصفه افضل قوادنا وما إلى ذلك . وربما كان بعض السبب في تبدل ستالين نحو يريمنكو ان الالمان كانوا ما زالوا يدفعون بنا إلى الوراء وقد شقوا طريقهم إلى داخل ستالينغراد . وحدثت هنالك مناوشات وحتى معارك طاحنة في داخل المدينة . ولكنه بدلا من ان يقول لي ما يقلقه حقيقة صب جام نقمته على يريمنكو ناسباً اليه اساءة معاملة غوليكوف . فقلت: « الرفيق ستالين ، لا اعلم ما الذي قاله لك الرفيق غوليكوف ولكن اذا كان قد شكا لك معاملتنا له فلا مناص لي من ان اخبرك سبب مسلكنا نحوه . » ثم رويت لستالين كيف تصرف غوليكوف عندما امرناه بالبقاء في مقر القيادة في المدينة . واستطعت ان ارى من تبدل وجه ستالين انه لم يكن يعرف شيئاً عن الحادثة فاختتمت حديثي قائلا : « لذلك كان لنا كل الحق والمبررات لطرد غوليكوف . واني في الحقيقة لا ارى لماذا تصب نقمتك على يريمنكو وعلي انا على هذه الكيفية . اني ادافع عن اي شخص يعاقب ظلماً ولكن غوليكوف قد نال تماماً ما يستحق » .

ومن ثم ابلغني ستالين ان القرار قد اتخذ فعلا لاعفاء يريمنكو من قيادة ستالينغراد فاجبته اني اعتقد ان ذلك سيكون غلطة خطيرة . وقلت: «اني ادرك انه قد يكون هنالك آراء متباينة في يريمنكو . فهو مثل اي انسان آخر له اعداؤه او الذين لا يحترمونه . ولكن بصفتي عضواً في المجلس العسكري فقد

=لفشله في هجوم خاركوف . وقد رقي بعد الحرب رئيساً للإدارة السياسية للقوات المسلحة ولم يكن واضحاً ماذا كانت مهمته في ستالينغراد غير انه لم يستمر هنالك زمناً طويلا .

عايشت يريمنكو في اوقات حرجة وهو في رأيي جدير كل الجدارة بالرتبة التي يحملها وبالمنصب الحالي الذي يتقلده . واني اتحدث فقط عن فضائله كقائد ولن اتكلم عن صفاته الاخرى . فالشيء المهم هو انه كفوء ، واسع الخبرة ، وقائد جيد لجنوده » .

وفي البدء قاوم ستالين ، بالطبع ، بصلابة وعناد ، غير انه بعد فترة أخذ يلين ، واخيراً قال لي انني استطيع العودة بطريق الجو إلى الجبهة . وبينما كنا نتبادل كلمة الوداع هز ستالين يدي وقال :

« لقد سررت لاننا استدعيناك للتشاور معك . ولولا ما قلته لي لكنا اقلنا يريمنكو من منصبه.والواقع انني كنت قد عقدت العزم على ذلك. على ان الحجج التي اوردتها قد جعلتني ابدل رأيي . فباستطاعة يريمنكو ان يبقى في منصبه». فاجبته قائلا : « انك لن تندم على ذلك ايها الرفيق ستالين فقد فعلت ما هو صواب وصالح . »

وفي الوقت ذاته كان العدو يضغط علينا،غير ان جيشنا كبد الالمان من دمهم ثمناً لكل قيراط اكتسبوه . وكان شعارنا دائماً « لا تراجع خطوة واحدة » ، « اننا سوف نصمد في مواقفنا على الفولغا » وسوف « نقاتل حتى الموت ولن نتخلى عن ستالينغراد » .

ويبدو انه كلما ظهرت الحالة بانها شديدة الخطر كان مالنكوف يطير الينا مع فاسيلنفسكي وفورونوف ونوفيكوف او بعض الآخرين من ممثلي هيئة اركان الحرب العامة (١) . واني لاقول بصراحة انني لم اكن اسر كثيراً لرؤيتهم . فطالما لم يجلبوا لنا مساعدة حقيقية ، وذلك معناه نجدات عسكرية ودعم جوي

(١) ان المارشال ن.ن. فورونوف هو الاسم الجديد هنا . فهو بوصفه رئيس المدفعية كان أكثر الجنرالات السوفيات موهبة وذكاء . ويتحدث خروشوف كما لو ان مالنكوف وفاسيلفسكي (رئيس هيئة اركان في الحرب العامة) وفورونوف ونوفيكوف (رئيس قوة الطيران السوفياتية) كانوا يجيئون في زيارة جوية واحدة . في حين ان الواقع هو ان مالنكوف كان يمضي وقتاً طويلا في مقر قيادة يريمنكو بوصفه موفد ستالين الخاص (وهو ما كان يمتعض خروشوف منه كثيراً) في حين ان الآخرين الذين ورد ذكرهم ومعهم جوكوف كانوا زواراً يكثرون من زياراتهم . فلقد كان ضروري جداً للقيادة العامة أن تعلم تماماً ما الذي يجري في في ستالينغراد وكيف يمكن تموين المدينة وإلى متى يستطيع المدافعون عنها الصمود مع أقل عدد من النجدات . وذلك بينما كان جوكوف يعد بدأب وتكتم شديد هجومه المضاد الكبير .

ووحدات من المشاة والمدفعية، فانه لا يفيدنا مجيئهم شيئاً . بينما لدينا ملء ايدينا من العمل كان هؤلاء المشاهير يختارون الوقت غير المناسب لزياراتهم الشخصية . ولم يكونوا موضع الترحيب في مقر قيادتنا اذ كان المقر عند مجيئهم مزدحماً إلى حد يكاد معه الانسان لا يقوى على التحرك الا بمنتهى الصعوبة .

وكنت اشعر في اشد الاوقات حرجاً ان ستالين يوجه دوماً التفاتاً خاصاً وشديداً نحوي ، وانه قد ارسل مالنكوف ليكون عيناً علي . وكنت الاحظ فاسيلفسكي ومالنكوف يتهامسان معاً . وكان مالنكوف يعود إلى موسكو لابلاغ ستالين عن سبب سوء سير المعركة وهو بالطبع كان يريد ان يتجنب تحمل اية مسؤولية شخصية عما كان يحدث . وقد كان مالنكوف في حديثه همساً مع فاسيلفسكي يعد لان يوجه وشاية إلى البعض . وكنت اعلم انني انا بداهة الشخص الذي يقع عليه الاختيار . انه لم يكن يعرف شيئاً عن الشؤون العسكرية ولكنه كان اكثر من كفوء عندما يكون الامر متعلقاً بحبك الدسائس .

وفي النهاية كان فاسيلفسكي ومالنكوف يقولان لي انهما تلقيا الاوامر بالعودة إلى موسكو ، وبعد ذهابهما كان يريمنكو وانا نترك وحدنا مع عدد قليل من الموظفين في مقر القيادة . وكان يبدو كأن صمتاً رهيباً يسيطر على المنطقة كما يحدث كثيراً في الغابات بعد مرور العاصفة .

وفي احد مراحل المعركة جاء كونستنتين سيمونوف إلى ستالينغراد وسأل إلى اين ينبغي ان يذهب على الخطوط الامامية ليرى بعض القتال ، فأشرت عليه الاتجاه ولكن حذرته من شدة الخطر في ذلك القطاع فقال : « لا بأس في ذلك » وانطلق ذاهباً (١) .

ومع تقدم المعركة في سيرها تحولت جيوشنا التابعة لجبهة ستالينغراد جنوباً ضد مانستين (٢) . وبدأ جيشا روكوسوفسكي وشستياكوف في الاطباق على القوات

---

(١) كان سيمونوف كاتباً له شعبية قوية . أحدى قصائده : «انتظروني فسوف أعود» كانت تنشد وتتلى في كل مكان وكانت تدل على قوة الارادة والصمود . وروايته التي عنوانها «ضحايا وأبطال» تتضمن وصفاً مؤثراً للارتباك والخيانة والبطولة في التقهقر العظيم .

(٢) هذه إشارة إلى العملية الكبيرة ، التي أدت إلى تحطيم الجيش الالماني السادس بقيادة باولوس تحطيماً كاملا. وفي آخر تشرين الأول ١٩٤٢ كان شويكوف والجيش الثاني والستون على الضفة اليمنى لنهر الفولغا متمسكين بجزر قليلة من الحصى باسنانهم . ولكن قوات جوكوف كانت تتحرك سراً إلى مواقع معينة للشروع في حركة التطويق العظيمة. وفي ١٩ تشرين الثاني فتح فورونوف إلى =

الالمانية (١) . وتعرفت إلى رئيس اركان حرب شستياكوف وهو الجنرال بنكوفسكي فاحببته كثيراً . وقد كان ذكياً كفوءاً وقدم في ما بعد مساعدات جوهرية لما قام به جيش الحرس السادس . ولا يزال الجنرال بنكوفسكي حياً وفي صحة جيدة واني اتمنى له مئات السنين من الحياة السعيدة (٢) .

وعندما بدأنا نضغط على العدو في اتجاه كوتيلنيكوفو ازدادت الصعوبات التي كانت تواجهها قيادة واحدة في ادارة عمليتين مختلفتين كثيراً في وقت واحد . فقد كان على قيادة الجبهة ان توجه جيوشنا التي تطوق باولوس في ستالينغراد وفي الوقت ذاته كان عليها ان توجه حركة الهجوم صوب روستوف . لذلك اقترحت هيئة الأركان العامة ان نقسم الجبهة إلى قسمين يؤلف احدهما القوات المواجهة لباولوس في جبهة « دون » والثاني القوات التي تواجه مانستين في الجبهة الجنوبية . واني لا اعلم اذا كانت هذه فكرة ستالين او فكرة شخص آخر سواه في مقر القيادة العامة (٣) .

وازاء الصعوبات التي نشأت فقد كان من المعقول ان تقسم جبهة ستالينغراد . وكان هذا من دواعي اسفي واسف يريمنكو ان نفترق عن الجيوش على جبهة « دون » الجديدة التي كانت قد اكتسبت مكاناً لها في التاريخ : الجيوش التي مثل الجيش الثاني والستين الذي كان قد واجه ضربة العدو الأولى وصدها وتحمل العبء الكامل لمواجهة ضربات باولو . ثم كان هنالك الجيش الرابع والستون بقيادة الرفيق شوميلوف والجيش السابع والخمسون وغيرهما .

=الجنوب أعظم «باراج » فتحته مدفعية ، في الحرب ، بينما كانت ثلاثة جيوش قد تقدمت للهجوم من الجنوب. وبعد ذلك بأربعة أيام تم تطويق المدينة ولكن ليس بصورة حاسمة تكفي لصد أية محاولة جدية للخروج منها أو الدخول اليها . ولم يشرع مانستين حتى أوائل كانون الأول بحركته العظيمة لاختراق الطوق ونجدة باولوس وكان عندئذ قد فات الأوان للتمكن من انقاذه .

(١) المارشال روكوسوفسكي والجنرال شتياكوف. وروكوسوفسكي الذي كان البطل العظيم في حركة التطويق كاد لا ينجو بحياته في اثناء تطهير الجيش في ١٩٣٧ واكتسب فيما بعد سمعة سيئة ، بانه القائد الذي منع جيشه من التقدم على الفستولا (بأوامر من ستالين) عندما ثار البولونيون ضد الالمان . وكان وزيراً للدفاع في بولونيا عندما ثار البولونيون ضد روسيا في ١٩٥٦. أما شتياكوف فقد قاد الجيش الحادي والعشرين الزاحف من رأس جسر كليتسكايا وقد سمي هذا الجيش في ما بعد جيش الحرس السادس .

(٢) العم الأكبر لاونيغ بنكوفسكي الكولونل الذي انقلب على العهد وصار عميلا للغرب

(٣) ان تسمية الجبهات تسبب الارتباك. فان كلمة «جبهة» قد استعملت للاشارة إلى مجموعة

وكنا قد اقمنا صداقات وثيقة مع جميع هؤلاء . غير انني كنت اعلم ان من مصلحة القضية الوطنية ان نفارقهم لنحكم طوق الحصار حول ستالينغراد بينما نندفع جنوباً . وعندما اتصل بي ستالين ابلغته انني موافق على القرار القاضي بقسمة الجبهة .

ثم طلب ستالين يريمنكو . ولا اعلم كيف دار الحديث بينهما غير اني وجدت يريمنكو بعد ذلك غارقاً في الدموع .

فقلت له : اندريه ايفانوفيتش ماذا جرى ؟ الا ترى انه ينبغي لنا ان نقسم الجبهة ؟ ان جيوشنا قد تحولت إلى الجنوب ومهمتنا الآن هي ان نهاجم جناح العدو في شمالي القوقاس، وستالينغراد تستطيع ان تتدبر شؤونها . لكن ما بقي علينا هو ان نطوق العدو ونطبق عليه . ثم ان رفاقنا يستطيعون ان يصبروا عليه إلى ان ينفد ما لديه من الطعام والذخيرة . فكان جوابه ما يلي :

« ايها الرفيق خروشوف ، انك لا تدرك الحقيقة ، فانت مدني . انك لا تعلم كم قد قاسينا . لقد نسيت كيف ظننا في ايام الحرب الاولى انه قد قضي علينا وكيف ان ستالين كان يسألنا اذا كان باستطاعتنا الصمود ثلاثة ايام اخرى . لقد كنا جميعنا نعتقد ان الالمان سوف يستولون على ستالينغراد والان انظر ! لقد تحولنا إلى الهجوم . ربما انت لا تتوقع سلفاً ما الذي سيحدث غير اني انا اعرف ما سيحدث . ان جبهة « درن » الجديدة سوف تحظى على كل مفاخر انتصار ستالينغراد، وجيوشنا في الجبهة الجنوبية سوف يكون نصيبها النسيان » .

قال هذا وهو لا يزال يبكي بمرارة .

فحاولت تهدئة روعه قائلا : « مما لا ريب فيه ان التضحية الشخصية التي قدمها جندي واحد او قائد واحد لها اهميتها ولكنها ليست الشيء الرئيسي .

=من الجيوش وليس لناحية معينة. وفي أيلول أبدل اسم جبهة ستالينغراد إلى جبهة «دون» ووضعت تحت قيادة روكوسوفسكي وفي الوقت ذاته صارت الجبهة الجنوبية الشرقية تسمى جبهة ستالينغراد وبقيت بقيادة يريمنكو في حين أن جبهة جديدة انشئت على النهر نزولا سميت الجبهة الجنوبية الشرقية بقيادة فاتوتين . وفي آخر كانون الثاني قررت القيادة العليا ان جبهة دون وجبهة ستالينغراد ينبغي تنسيقهما معاً تحت قيادة قائد واحد للقيام بحركة الهجوم النهائي . ووقع الاختيار على روكوسوفسكي بالأفضلية على يريمنكو الذي اضطر ان يتخلى له عن ثلاثة من جيوشه بما في ذلك الجيش الثاني والستين الذي كان قد احتفظ حتى الآن بما بقي من المدينة . أما جبهة ستالينغراد فقد سميت من جديد الجبهة الجنوبية ، وعهد اليها بمهاجمة الالمان في منطقة روستوف .

فالشيء الرئيسي هو مجد الشعب ، انتصار شعبنا وانتصار قضيتنا » . غير اني لم استطع ان افعل شيئاً لتعزيته وانني في الحقيقة شعرت فعلا بالحزن الشديد عليه . فقد كنت اعلم كم قد عمل وكم قد تحمل وقاسى . فقد كرس كل ذرة من قوته ومهارته لضمان فوزنا وتأكيد انتصارنا . وقد عجزت عن العثور على كلمات باللغة الروسية تكفي للتعبير عن اعجابي بما قدمه يريمنكو للقضية بوصفه قائداً لجبهة ستالينغراد .

فهو الذي طوق جيش باولوس في فصل الخريف وقضى عليه في الشتاء . وقد رأيت مشهداً رهيباً عندما دخلنا المدينة في اوائل الربيع . بالطبع هنالك دائماً فظائع مريعة في زمن الحرب : رأيت جنوداً منهمكين في جمع جثث الجنود الالمان وقد خشينا ما قد يحدث لو تركناها منتشرة في كل مكان ، والربيع مقبل وسوف يليه صيف حار . فقد كنا نعلم ان ما لم نفعل شيئاً سريعاً فانها سوف تتعفن وتنتن وقد تنشب الاوبئة . غير ان ذلك لم يكن سهلا فالارض كانت لا تزال مغمورة بالجليد وكان من الصعب حفر الجليد لاستخراج تلك الجثث . وقد جمعنا الف جثة وكدسناها في طبقات بين الواحدة والاخرى اخشاب ثم اضرمنا النار في تلك الاكوام الكبيرة .

لقد خرجت لاراقب هذا المشهد ولكن لم اخرج مرة ثانية . لقد نسب إلى نابوليون او لشخص آخر سواه انه قال ان جثث الاعداء المحترقة لها رائحة شهية . اما انا فاني من ناحيتي لا اوافق على هذا القول . لقد كانت رائحة الجثث المحترقة كريهة جداً وكان المشهد كله كريهاً للغاية .

وحول ستالينغراد وجدنا جنوداً الماناً قد نزعوا ملابسهم وبدوا نصف عراة. فاحذيتهم وسراويلهم كانت غالباً مفقودة ، ولم تكن بالطبع الذئاب هي التي استولت عليها . لقد كان ذلك نتيجة لاعمال النهب . واني لاشعر بالاسف اذ اقول ذلك . واعتقد ان الارجح هو ان الجنود والمدنيين قد اشتركوا في اعمال النهب .

ومع تقدمنا إلى الامام بعد معركة ستالينغراد رأيت اكواماً كبيرة من الجنود الالمان الذين قتلوا بالرصاص فسألت الجنرال فولسكي (١) عن ذلك قائلا : « هل اعدم هؤلاء الرجال ؟ » فقال : « كلا . لقد قتلوا في المعركة . »

اجل ، ان العدو دائماً يتكبد خسائر كبيرة عندما يكون الجيش زاحفاً إلى الأمام . غير انني لم استبعد امكانية مخالفة بعض رجالنا للاوامر الصادرة اليهم بعدم

(١) الجنرال ت. ف. فولسكي قائد الجيش الآلي الرابع .

استعمال القوة ضد الاسرى . وبالاضافة إلى الاعتبارات المعنوية فاننا لم نكن نريد ان نعطي العدو حجة لان يزعم بـــان القوات السوفياتية الزاحفة كانت تعدم الاسرى رمياً بالرصاص . على انه كان من الممكن ادراكه تماماً ان بعض رجالنا ربما قد اعطوا لكرههم للالمان مداه وقتلوا كل من استطاعوا القبض عليه من الجنود الفاشيست على سبيل الانتقام من الفظائع التي ارتكبها الالمان في الاراضي السوفياتية التي احتلوها .

الجنرال مالينوفسكي

يسلط هنا ضوء جديد على سيرة المارشال مالينوفسكي (انظر الملحق ٣) الذي كان مع مرور الزمن سيصير وزيراً للدفاع في وزارة خروشوف . وهذا المقطع أيضاً يعطي مثالا حياً على جو الدسائس والشبهات الذي كان يخيم على بلاط ستالين والذي يهدد بخنق ، ان لم يكن بتحطيم ، كل من يمسه بخاره العفن . وانه لجدير بالملاحظة ان حادث لارين وقع ليس في شهور الحرب الاولى المشبعة بالخيانة بل بعد انتصار ستالينغراد .

في السنين الأولى من الحرب توصلت إلى معرفة روديون ياكوفليفش مالينوفسكي معرفة جيدة جداً . لم يعد مرضياً عنه فترة من الزمن بعد ان استسلمت روستوف للالمان،ولكن استمر محاطاً بالتقدير على نطاق واسع باعتباره من اقدر قوادنا واكثرهم كفاءة . كان يروي لي قصصاً لذيذة عن اوائل حياته . وانا لا اظن ان والدته كانت متزوجة . فهو على كل حال لم يعرف والده قط اذ نشأ بعناية خالته وامضى طفولته في اوديسا ولم يكن يضمر سوى الحقد لوالدته . غير انه كان دائماً يتحدث بعطف كثير وحنان عظيم عن خالته . وقد عمل ناقلا للرسائل وحمل السلع في اوديسا.ثم عندما نشبت الحرب العالمية الأولى جاء وحيداً هاربا والتقى بفرقة اخذته معها إلى الجبهة . وهكذا انضم إلى الجيش . وانتهى لان يكون من حاملي الرشاشات مع فصيلة من القوات الروسية الموفدة إلى فرنسا لتكون جزءاً من قوة الحملة الروسية .

وبعد سنين كثيرة عندما كان وزيراً للدفاع في الاتحاد السوفياتي رافقني مالينوفسكي في رحلتي إلى باريس للاجتماع برؤساء الدول الثلاث الكبرى . وقد فشل ذلك الاجتماع قبل ان يبدأ لان الاميركيين ارسلوا احدى طائراتهم ي ـ ٢ المعدة للتجسس فوق اراضينا فاسقطناها . واثناء وجودنا في باريس

اقترح مالينوفسكي قائلا : « دعنا نذهب لزيارة القرية التي كانت وحدتنا مرابطة فيها اثناء الحرب العالمية الاولى . ان الفلاح العجوز الذي اقمنا في بيته يرجح ان يكون قد توفي غير ان زوجته كانت امرأة شابة فربما تكون ما زالت على قيد الحياة. » فاخذنا سيارة وانطلقنا بها على الطرق الفرنسية الجميلة فارشدنا مالينوفسكي إلى القرية المقصودة بدون صعوبة فوجدنا المنزل ورحبت بنا ربة المنزل وابنها الذي كان عنده الان اولاده بلباقة وكرم وقالت لنا تلك السيدة «ان زوجي قد توفي منذ زمن بعيد . » وبدأ الاصدقاء يلتفون حولنا وفتحت الشمبانيا وشرع مالينوفسكي في استعادة الذكريات والسؤال عن الاشخاص والاماكن التي كان يعرفها .

— الم يكن هنالك صالون على مقربة من هذا المكان يجتمع فيه الفلاحون .

— الا تزال تذكر ذلك ؟

— اجل ، اني اذكره جيداً .

— اذن يرجح انك تذكر تلك الفتاة التي اسمها كذا وكذا ؟

— نعم — قال مالينوفسكي باسماً — انني اذكرها بكل تأكيد .

فضحكوا جميعاً وقالوا « انه يذكرها ! لقد كانت اجمل فتياتنا ولكن ماتت منذ زمن بعيد » .

واخذ فرنسيون آخرون بالوصول وانتشر النبأ بسرعة ان الزائر هو وزير الدفاع السوفياتي الذي كان جندياً في وحدة روسية مرابطة في القرية قبل خمسين سنة تقريباً .

وكانوا جميعاً يقولون بصوت واحد « اننا طبعاً نذكر ه ، فقد كان لديكم في وحدتكم دب روسي اليس كذلك ؟ » فضحك مالينوفسكي واخبرني انه هو وبعض رفاقه كانوا قد وجدوا جرو دب صغير في طريقهم إلى فرنسا فنقلوه معهم . وكان مالينوفسكي قد جاء إلى فرنسا عندما نشبت الثورة في بلادنا . واني اذكر ذلك عندما روى لي قصة حياته حيث قال : « لقد كنت اشعر باسف كبير ان الثورة وجدتني عند نشوبها عاملا في الخارج في الحملة الروسية وقد تمكنت بعد صعوبة كبيرة من العودة إلى روسيا بطريق فلاديفوستك وانتقلت وسط سيبيريا التي كانت حينئذ تحت سيطرة كولشاك . واخيراً التقيت بالجيش الاحمر. » واني اعيد هذا الجزء من تاريخ مالينوفسكي نظراً لاهميته لفهم عهد ستالين. وقد ظلت الشكوك والشبهات معلقة فوق مالينوفسكي مثل سيف ديموقليس اولا لانه كان احد المشتركين في الحملة القيصرية في فرنسا اثناء الحرب العالمية الأولى ، وثانياً لانه كان في منطقة يحتلها البيض قبل انضمامه إلى الجيش

الاحمر . ثم انه تعرض إلى شكوك ستالين شخصياً به مرة اخرى عندما كنا نعمل معاً على الجبهة الجنوبية بعد معركة ستالينغراد. وفي ما يلي رواية ما حدث :

في احد الايام دخل مالينوفسكي فجأة علي في محل اقامتي في فرخين – تسارتمسينسك وهو شديد الاضطراب ، ودموعه منهمرة على وجهه فصحت به قائلا :

– رودوين ياكوفليفتش ، ماذا وقع ؟ اي شيء حدث ؟

– شيء رهيب . ان لارين قد اطلق النار على نفسه .

وكان لارين عضواً في المجلس العسكري عن جيش الحرس الثاني وكان ايضاً جندياً حقيقياً وجنرالا قديراً وكان هو ومالينوفسكي صديقين حميمين . وكان لارين مفوضاً حزبياً لمالينوفسكي عندما اعطي هذا الاخير قيادته الأولى ومنذ ذلك الحين طلب اكثر من مرة ان يكون لارين مفوض وحدته .

وقد اخبرني مساعد لارين في ما بعد ظروف وفاته . وهي قصة لا تصدق في حد ذاتها . ويظهر انه عن قصد سمح لذاته بان يصاب برصاص العدو عندما خرج لتفقد الخطوط الامامية في الجبهة . فبدلا من الاحتماء وراء كومة من التبن عندما فتح الالمان النار اخذ يتنقل ساخراً بالعدو ملوحاً له بهدف فيه كل الاغراء متعمداً طلب الموت . فاصيب بجرح ولكن لم يكن جرحه خطراً فقد استقرت القذيفة في القسم الناعم من « بطة » ساقه . ولم يكن عظم الساق قد اصيب . و عندما ذهبت لاراه في منزله كان جالساً يتحدث بمرح مع طبيبة ارمنية وبدا مرحاً حتى آخر ساعة عندما اطلق الرصاص على نفسه .

اننا نعلم كيف اقدم لارين على الانتحار . غير اننا لا نعلم لماذا انتحر . لقد كان بالامكان ادراك السبب لو كان حدث ذلك في بداية الحرب عندما انتحر عدد من الجنرالات اثناء تقهقرنا . ولكن الآن كانت الحالة قد تبدلت وكنا نحن نقوم بالهجوم فقد طوقنا باولوس وكان جيش الحرس الثاني الذي كان لارين يمثله في عضوية المجلس العسكري يقاتل ببسالة ضد مانستين لذلك يبدو انه لم يكن هنالك من سبب على الاطلاق يحمله على الانتحار – وذلك على الاقل في ما يتعلق بنضالنا ضد الالمان .

وقد ترك لارين رسالة قصيرة ، غريبة جداً ، خلاصتها بكل بساطة انه لم يكن ليستطيع ان يبقى حياً . وقد كتب فوق توقيعه الشعار المألوف « يعيش لينين » . فارسلنا حالا رسالة لارين عن انتحاره إلى موسكو حيث تسلمها شيرباكوف . ولا يجوز للانسان ان يقول شيئاً غير حسن عن الميت لذلك سوف لا اقول شيئاً عن شيرباكوف سوى انه كان من كبار رجال الحزب

طيلة سنين كثيرة ورئيساً للادارة السياسية في الحرب . وقد استعمل شربا كوف رسالة لارين لينفخ في نار شكوك ستالين ضد مالينوفسكي . وكذلك ليغمز من قناتي انا ايضاً اذ كنت عضواً في المجلس العسكري التابع للجبهة التي وقع فيها الحادث .

فبعد فترة قصيرة من ارسالنا رسالة لارين استدعيت إلى موسكو وحسب العادة كانت هنالك مآدب لا نهاية لها مع كل ما يرافقها من زخرفات ستالين. واثناء تناول الطعام تحول ستالين نحوي وسألني قائلا : من هو مالينوفسكي ؟

فقلت له : «لقد قدمت لك تقارير عن مالينوفسكي اكثر من مرة في الماضي فهو قائد مشهور نوعاً . تولى قيادة فرقة في بداية الحرب ثم جيشاً واخيراً كان قائداً للجبهة الجنوبية حيث عانى بعض الانعكاسات كما تعلم . وقد اعفي من قيادته بعد سقوط روستوف واعيد تعيينه للمؤخرة حيث شكل جيش الحرس الثاني».

وهنا بدأ شيرباكوف في اللعب بشبهات ستالين بطريقة يقصد بها تحويل ستالين ضد مالينوفسكي وبطريقة غير مباشرة ضدي ايضاً فقال : « ربما لم يكن من قبيل الصدفة ان لارين كتب « يعيش لينين » وليس «يعيش ستالين» . ماذا تظن كان يعني بقوله « لينين » بدلا من ستالين ؟

فأجبت قائلا : « لا اعلم . ان لارين كان بداهة تحت تأثير نوع ما من الاضطراب النفساني عندما اطلق الرصاص على ذاته » .

لقد كان شيرباكوف يحاول بصورة واضحة ان يحملني على ان اتهم لارين ومالينوفسكي ايضاً غير انني لم تكن لي نية ان اسمح له ان يستعملني على هذه الطريقة .

وبعد ذلك سألني ستالين مرة اخرى :

– من هو مالينوفسكي ؟

– ايها الرفيق ستالين ، لقد عرفت مالينوفسكي منذ بداية الحرب واستطيع ان اعطيه فقط اعلى درجات التوصية سواء بصفته العسكرية او بصفته انساناً .

لقد استطعت ان ادرك ان مالينوفسكي كان عرضة لمتاعب فان سيرته الأولى ثم فشله في روستوف والآن انتحار لارين – كل هذه الامور كانت متصلة معاً في ذهن ستالين والادلة كانت تتكوم ضد مالينوفسكي على الرغم من جهودي القوية للدفاع عنه .

وعاد ستالين وخاطبني قائلا :

« يحسن بك متى عدت إلى الجبهة ان تراقبه جيداً . واني اريد منك ان تبقي عينيك مفتوحة على مقر جيش الحرس الثاني ايضاً . راجع كل اوامره وقراراته

ودقق فيها ، وتتبع كل حركة يبديها . »

— حسن ، ايها الرفيق ستالين سوف لا اترك مالينوفسكي بعيداً عن نظري .

وعندما رجعت إلى الجبهة وضعت جاسوساً على مالينوفسكي يراقبه كل ساعة من ساعات اليوم . وكان يتوجب علي ان اراقبه حتى عندما يذهب للنوم لارى ما اذا كان يغمض عينيه وينام حقيقة . على اني لم اكن راضياً عن عملي هذا على الاطلاق .

ولم أقل لمالينوفسكي شيئاً عن رد الفعل الذي بدا من ستالين عندما علم بانتحار لارين الا بعد وفاة ستالين عندما خرجت معه مرة للصيد . فاخبرته كيف كان علي مراقبته وابلاغ مقر القيادة العامة عنه دوماً . فقال لي مالينوفسكي انه كان يعلم دوماً لماذا كنت اتبعه ، ولماذا اتخذت مسكناً إلى جانب مسكنه . وقال لي انه كان باستطاعته ادراك حرج موقفي ولم يلمني على ذلك . وانه كان يعلم انه ما دام يعمل بشرف وكفاءة فاني لن اتدخل في شؤونه وانني سوف ارفع تقارير حسنة عنه إلى ستالين . واني لا اعلم ما الذي انقذ مالينوفسكي من ان يذهب ضحية رغبة ستالين الملحة في اعتقال الناس وتصفيتهم . ربما تكون تطلبات الحرب العملية هي التي ارغمت ستالين على كظم غضبه وشبهاته . ثم ربما ساعد تدخلي ودفاعي في نجاة مالينوفسكي من المصير الذي كان يتهدده . وعلى كل حال فان نفوذي لدى ستالين لم يكن قليلا او عديم القيمة .

زيارة من الرفيق اولبرخت

هنا تعطى لنا أول لمحة عن والتر أولبرخت الرئيس الحالي لجمهورية ألمانيا الديموقراطية أو ألمانيا الشرقية الشيوعية . فهو مثل سواه من الألمان الشيوعيين أمضى زمن الحرب في الاتحاد السوفياتي حيث كان يدرب ويعد للدور الذي سيقوم به في المستقبل . واثناء وجوده في موسكو كان رئيساً للدائرة السياسية في الحزب الالماني الشيوعي القائم في المنفى. وساعد على زيادة تحسين أوضاعه اتهامه لبعض زملائه الاكفاء . وفي ١٩٤٢ انشأ الروس اللجنة الالمانية الحرة في موسكو لتجنيد اسرى الحرب وتدريبهم على الأعمال السياسية ونشر الدعاوة بين الجنود الالمان في الخطوط الأمامية . وبعد معركة ستالينغراد عين عدد من الضباط الالمان البارزين في تلك اللجنة وأفضل وصف عن هذه الأعمال ورد في «في ظل ستالينغراد» لمؤلفه هينريل فون اينسيدلن .

جاء والتر اولبرخت مرة مع اثنين من الالمان الشيوعيين إلى « فرخين — تسارتسينسيك » لكي يذيعوا الدعاوة إلى العدو بواسطة مكبرات الصوت (١) وكانوا فيها يحرضون الجنود الالمان ويلحون عليهم لتسليم انفسهم . وهذا العمل كان عادة يجري ليلا .

وقد تناولنا اولبرخت وانا مراراً كثيرة العشاء معاً بعد ان كان يعود من الخطوط الامامية . وكنت امزح معه كثيراً مثل قولي له « ماذا ايها الرفيق اولبرخت لا يبدو عليك انك قد استحقيت عشاءك اليوم اذ ان احداً من الالمان لم يسلم نفسه » .

ثم تلقيت في احد الايام نبأ ان احد الجنود الالمان قد جاء إلى جانبنا . فقلت « احضره إلى هنا لنرى اي نوع من الرجال هو ونسمع ما يقوله عن الروح المعنوية لدى رفاقه » .

فجاءوا بالرجل لعندي فسألته : « من انت ؟ وما هي جنسيتك ؟ »

— انا بولوني .

— كيف دخلت في الجيش الالماني .

— انا من ذلك القسم من بولونيا الذي ضم إلى المانيا وقد دعيت للخدمة .

فتولاني شعور الارتياح إلى هذا الرجل فقلت له « اننا نخطط لكي نؤلف جيشاً بولونياً لتحرير بلادك فما رأيك في ذلك ؟ »

— اني مسرور طبعاً . فاني اريد ان تحرر بولونيا .

— حسن ، هل تريد ان توقع للانضمام إلى الجيش البولوني .

— كلا .

— اذن كيف يصير تحرير بولونيا .

— ان الروس سوف يحررونها .

فلم اشعر بارتياح لرنة صوته عندما قال ذلك فنظرت إلى الرفيق اولبرخت وقلت : «اذن هكذا ترى من تمكنت ان تجتذبه بدعايتك فهو ليس جندياً المانيا على الاطلاق . هو بولوني فار من الصفوف الالمانية ، وهو ليس على استعداد حتى لان يشترك في تحرير بلاده .

وبعد ذلك فر من الصفوف الالمانية عدد قليل من الالمان الاصليين واخذوا اسرى . وعندما جاء عيد الميلاد امرت بان تقدم لهم فروض الضيافة في مقر

---

(١) هذه الحادثة ينبغي ان تكون قد وقعت في أواسط شهر كانون الأول ١٩٤٢ عندما كان الروس يقاومون محاولة مانستين اليائسة للافراج عن جيش باولوس السادس والمحجوز في ستالينغراد .

قيادتنا – اعني مقر قيادة مالينوفسكي . غير اني امرت اولا ان يؤخذوا إلى الحمامات ويطهروا وتتاح لهم الفرصة لان يغتسلوا ويرتدوا ملابس جديدة ، وبعد ذلك جئنا بهم إلى محل سكننا وقدمنا لكل منهم مئة غرام من الفودكا وطعاماً . وكان اولبرخت هناك ايضاً . وفي اثناء الحديث الذي جرى بعد ذلك اخبرنا احد الاسرى الالمان انه ضد النازية وضد هتلر وضد الحرب . وبدا واضحاً انه افضل رفاقه الآخرين فسأله اولبرخت : « هل انت تقبل ان نعيدك إلى الخطوط التي جئت منها لتعمل هناك لمصلحتنا ؟ »

– نعم اقبل ولنذهب منفردين كل منا على حدة لنقول لضباطنا اننا هربنا من اسركم .

ودار جدل بين الزمرة فقال احد الالمان « اذا حاولنا الرجوع إلى خطوطنا فسوف نعدم رمياً بالرصاص ولن يؤمن احد بصدق قولنا باننا هربنا ولا يؤمن احد بصدق اية رواية نلفقها . فوقف صديقنا الالماني الاول ورد بحرارة : « انت جبان ! أنا سأذهب . وليعدموني رمياً بالرصاص فاني لا يضيرني ان اموت في سبيل القضية . »

وكنا ، الرفيق اولبرخت وانا ، على اتفاق تام على الرغبة في اعادة الفارين الالمان إلى خطوطهم . ثم علم تولبوخين بمشروعنا (١) فجاء لمقابلتي وقال : « ايها الرفيق خروشوف ، لا تنفذ فكرتك فهوُلاء الاسرى الالمان يعرفون موقع قيادتنا فاذا سمحنا لهم بالذهاب فقد يفشون امرنا فتلقى علينا القنابل » .

فقلت : « لا خطر هناك . فقد جئنا بهم إلى مقر القيادة واعدناهم منه وعلى عيونهم عصابات تمنعهم من الرؤية ، فليس لديهم اية فكرة عن مكان وجودهم . »

– ومع ذلك ، لا استطيع المخاطرة . فعلى الاقل يجب ان لا تعيدهم الا بعد ان تكون قد اتيحت لي الفرصة لنقل مقر قيادتي إلى موقع جديد .

---

(١) قد يكون هنالك شيء من الارتباك أو التشويش حول مقررات القيادة المشار اليها فان فرخين – تساريتسينسيك كانت في هذا الزمن مقر قيادة الجيش الحادي والخمسين بقيادة الماجور جنرال ن.ل. تروفانوف وكان هذا الجيش منضماً إلى الجيش السابع والخمسين بقيادة الجنرال ف.ا. تولبوخين . وكان مالينوفسكي حينئذ قائداً لجيش الحرس الثاني الذي نقل بمقتضى احتجاج من جبهة روكوسوفسكي في «دون» إلى جبهة ستالينغراد في ١٥ كانون الأول في حركة سريعة لوقف هجوم مانستين (وقد حصل هذا الهجوم في ٢١ كانون الأول). كان خروشوف دون ريب مع فاسيلافسكي رئيس أركان الحرب السوفياتي في مقر قيادة الجيش الحادي والخمسين يوم ١٢ كانون الأول عندما كان هجوم مانستين في أعلى ذروته .

فاستطعت ان ادرك ان لا فائدة من الاصرار لمعرفتي ان ستالين لن يؤيدني اذا ذهب تولبوخين اليه بدون علمي . على انني لم ابلغ اولبرخت عن اعتراضات تولبوخين بل قلت له فقط : « يبدو ايها الرفيق اولبرخت انه من المستحسن ان نضع المشروع جانباً لان هنالك بعض الخطر من ان هؤلاء الالمان قد يفشون موقع مقر قيادتنا اذا سمحنا لهم بالذهاب » .

فهز اولبرخت كتفيه وقال :

– حسن .

واستمر في عمله باذاعة الدعاوة عبر الخطوط الالمانية .

كورسك

كانت معركة كورسك أعظم معارك الدبابات التي شهدها التاريخ . ففي كورسك في تموز ١٩٤٣ مزق جوكوف قلب الجيش الالماني وقضى عليه بالفناء التام ، وقد اشتركت في المعركة حوالي ستة الآف دبابة ومدافع ذات محرك ذاتي كانت تمزق الفضاء بزخات متواصلة من قذائفها حتى أنها بدت أقرب ما يكون إلى المعارك البحرية منها الى معركة تدور رحاها على البر . وتوفرت فيها حرية المناورة المطلقة .

ورغم ان معركة كورسك لم تستحوذ على خيال الغرب وتستأثر باهتمامه بالقدر الذي فعلت ستالينغراد ، الا انها كانت انجازاً بطولياً فذاً مذهلا ومعركة منظمة على نطاق هائل تمثلت فيها على أرفع مثال ، المهارة وقوة الاعصاب وكثافة البطش . ولم يقتصر الفضل على جوكوف وفاسيلفسكي اللذين خططا للمعركة ووضعا تصميمها ، بل تعداه إلى روكوفسكي قائد الجبهة الوسطى ، وفاتوتين قائد جبهة فورونزية التي عززت مجدداً . وقد قاتلوا جميعاً أكثر تشكيلات الدبابات الالمانية خبرة ومهارة واخرسوها وحطموها .

وحضر خروتشوف هذه المناسبة الفريدة التي لا مثيل لها بوصفه المستشار السياسي للجنرال فاتوتين الذي كان الآن قد برز كاكثر جنرالات الطرفين كفاءة ومواهب . وقد لقي حتفه على ايدي الوطنيين الاوكرانيين في شباط ١٩٤٤ . وفي سبيل الاطلاع على أوفى التفاصيل لمعركة كورسك ، بل الحرب كلها بين المانيا والاتحاد السوفياتي ، انظر «بربا روسا» بقلم الآن كلارك .

كان المنتقصون من مواهبنا يقولون ان السبب الوحيد الذي ساعدنا على سحق جيش باولوس الهائل في ستالينغراد هو الشتاء الروسي الذي كان إلى جانبنا . وقالوا

مثل ذلك ايضاً عن بطشنا بالالمان وهزيمتنا لهم خارج موسكو في ١٩٤١ . ومنذ صدت روسيا غزو نابوليون وهم يزعمون دوماً ان الشتاء كان حليفنا الرئيسي . غير ان الالمان لم يستطيعوا استخدام هذه الحجة او التذرع بهذا العذر لايضاح سبب هزيمتهم في معركة كورسك في ١٩٤٣ . فهم الذين اطلقوا الرصاصة الأولى ، واختاروا موعد المعركة ومكانها وشكلها . وكانت جميع الاوراق بين ايدي هتلر وايدي رجاله السفاحين . وكان الصيف في اكثر ايامه حرارة وخلواً من الثلوج والامطار . واذا اردنا استعمال العبارات البراقة في وصف الطقس لجاز لنا القول ان البلاد باسرها كانت مليئة بالازهار الفواحة العطرة .

كان المفروض ان تقوم جيوشنا بقيادة روكوفسكي بخطة هجومية من جانبها في تموز او حوالي ذلك . وكنا على ثقة ان هجومنا هذا سيحالفه التوفيق واننا سوف نسحق الالمان ونردهم غرباً إلى الدنيبر . وكنا جميعاً تحدونا رغبة واحدة هي ان نشق طريقنا في خطوط الالمان فننقذ خاركوف ونحررها .

وفجأة ، حوالي ١٥ او ١٦ يوماً قبل الموعد الذي كانت ستبدأ فيه عملياتنا ، تلقينا اشارة من الجيش السادس ابلغنا فيها قائده ان جندياً المانياً فر من الخطوط الالمانية الامامية وان لديه بعض المعلومات المهمة . فهو يقول ان الالمان سوف يقومون بالهجوم صباح الغد في الساعة الثالثة . فأمرنا ان يؤتى بالاسير الينا حالا وتولينا فاتوتين وانا التحقيق معه . فسألته انا :

– ما الذي يحملك على الظن انهم سوف يقومون بالهجوم ؟

– انا ، بالطبع ، لم اطلع فعلا على الاوامر الصادرة بالهجوم ، غير ان الجنود يستطيعون الشعور بما سوف يحدث . وليس هذا الآن مجرد شعور . فاولا ، صرفت لنا جرايات مجففة لثلاثة ايام . وثانياً ، تحركت الدبابات متجهة إلى الخطوط الامامية . وثالثاً ، صدر الامر بتكديس الذخائر إلى جانب المدفعية الثقيلة وقطع الميدان لكي لا يضيع الوقت متى فتحت المدفعية النار .

– ولكن ما الذي يحملك على التأكد من ان الهجوم سوف يبدأ الساعة الثالثة صباحاً ؟

– تستطيع تقدير ذلك انت بنفسك . في هذا الفصل من السنة يبدأ بزوغ الفجر حوالي تلك الساعة وذلك هو الوقت الذي تستحسن القيادة الالمانية فيه ان تبدأ بالهجوم .

وقد كان ذلك الفتى الفار شاباً جميل الصورة ، انيق المظهر ، يبدو بداهة انه ليس من فئة العمال . وهو ينتمي إلى احدي الفرق المدرعة المشهورة مثل فرقة « ادولف هتلر » او « الرايخ » او « رأس الموت » . وهذه الفرق الثلاث جميعاً

كانت مرصدة ضدنا وكنت قد تعودت ان اقول إلى « فاتوتين » انني حيثما توجهت على الجبهة اجد دائماً فرقة « رأس الموت » مواجهة لي .

وسألت الجندي الالماني عما اذا كان نازياً .

– كلا ، انني ضد النازيين . وذلك ما جعلني اجيء إلى جانبكم .

– ولكنك مع « فرق العاصفة » وهم جميعاً نازيون .

– كلا ، ليسوا كذلك الآن . كان هذا صحيحاً في السنة الأولى والسنة الثانية من الحرب . ولكن فرق العاصفة الآن تضم اي شخص يستطاع الحصول عليه . لقد اخذوني بسبب مظهري اللامع . فانا لست حتّى من النوع الذي ينتمي اليه النازيون . فوالدي من الالزاس ، وقد نشأت فرنسياً . ووالداي هما ضد هتلر وربياني كذلك . وانا لا اريد ان اعرض عنقي للخطر في سبيل هتلر ، وذلك ما جعلني اهرب . وانه لمن مصلحة الشعب الالماني وخيره ان يهزم هتلر وينتهي .

وعندما انتهينا من استجواب الاسير تسلمه ضباط استخباراتنا وذهبوا به . فبادرنا حالا إلى مخاطبة موسكو لانذار القيادة العليا بان الالمان يعدون العدة للشروع في الهجوم.وبعد فترة قصيرة تلفن ستالين لي ، ولا اعلم اذا كان قد تحدث مثل ذلك مع فاتوتين ام لا. وعندما اقول ان ستالين طلبني فلا ازعم انه لم يطلب القائد كذلك . انني لا اريد ان يقول الناس « هكذا يفعل خروشوف . فهو يمدح نفسه مرة اخرى ويقول دائماً انا ، انا ، انا » . كلا ايها الاصدقاء المحترمون ، انني لا احاول الاشادة بشخصي ، بل كل ما احاول هو ابلاغكم ما حدث . كنت عضواً في المجلس العسكري والمكتب السياسي وكان ستالين يعرفني ويثق بي حتّى وان يكن بعض الاحيان يحملني اخطاءه . حتّى وان يكن ينفس عن نقمته وقلقه بالتحامل علي بعض الاحيان فقد كان يمحضني ثقته الكبرى . وكثيراً ما كان يطلبني ويسألني رأيي . وقد فعل مثل ذلك عندما كنت في ستالينغراد وفي الجنوب ، وفعل ذلك ايضاً في كورسك .

وقد اصغى ستالين إلي بهدوء وانا اوضح له الحالة . ولم يكن وقحاً او متململا كما كان يبدو بعض الاحيان في الماضي ، فسررت لذلك . ولا اعلم ما الذي جعله هادئاً مسيطراً على نفسه هذه المرة ، بينما كان في مناسبات اخرى يثور تماماً ويفقد رباطة جأشه . وكان كما لو ان الشيطان ذاته قد امسك بخيط متصل باعصاب ستالين ، ولم يكن احد يعلم متى الشيطان يحرك ذلك الخيط فينطلق ستالين في احدى نوبات الهياج التي اشتهر بها . على ان طباع ستالين ومقدرته على ضبط ذاته قد تحسنتا إلى درجة كبيرة . وكان ، بالاختصار ، شخصية ذات قوة عظيمة .

و بعد ان انتهيت من وصف الحالة ، سألني ستالين : « ماذا ترى انه يجب ان نفعل ؟ » فاجبته قائلا : « ان القائد وانا قد تبادلنا وجهات النظر ونحن متفائلان كثيراً ويسرنا ان الالمان سوف يبدأون هجومهم غداً » .

— لماذا ؟

— لان مواقعنا الدفاعية متينة وسوف نجعل العدو يدفع من دمهعندما يحاول ان يخترقها . حتى وان نكن لا نزال في انتظار النجدات ، فاننا سوف نتمكن من الصمود في مواقعنا . ان الدفاع يتطلب قوات اقل من القوات التي يتطلبها الهجوم . وقد تعلمنا ذلك بالممارسة كما تعلمناه نظرياً .

اما العدو فقد كان ايضاً واثقاً من الفوز . وقد اطلعت فيما بعد على امر استولينا عليه من وحدة المانية مدرعة تم تدميرها ، وهي رسالة موجهة إلى الجنود الالمان ورد فيها شيء مثل هذا : « انكم الآن تقومون بهجوم مستعينين بدبابات متفوقة كثيراً على الدبابات الروسية ت ٣٤ . وحتى الآن كانت دبابات ت ٣٤ افضل دبابة في العالم وتفضل حتى على دباباتنا.اما الآن فلديكم دباباتنا من طراز « تيغر » (النمر) الجديدة وهذه لا يضاهيها شيء . وبمثل هذا السلاح انتم يا محاربي الجيش الالماني لا يمكن ان تفشلوا في سحق العدو » .

والواقع ان دباباتهم الجديدة كانت ذات خطر حقيقي . غير ان جنودنا سرعان ما تعلموا كيف يتغلبون عليها . وفي كورسك ربحنا معركة قلبت ميدان الحرب لمصلحتنا ورجحت كفتنا وكانت في رأيي نقطة التحول في الحرب الوطنية العظيمة . فقد كانت حاسمة في تقرير هزيمة المانيا الهتلرية والانتصار النهائي لجيشنا السوفياتي ولعقيدتنا ولحزبنا الشيوعي .

النصر

دخل خروشوف «كييف» في ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٣ وكان قد رفع الى رتبة لفتننت جنرال. واصبح الان يشعر اكثر قرباً الى الجنود الذين كان قد عاش معهم أكثر من عامين ورافقهم حتى الحدود البولونية الجديدة . ولكن أيامه العسكرية كانت قد انتهت وكان عليه ان يعود إلى كييف لكي يواجه مهمة إعادة بناء إدارة الحزب والحكومة في اوكرانيا .

بعد هزيمتهم في كورسك بدأ الالمان يترنحون متقهقرين تحت ضربات جيشنا . ولست — والحق يقال — متحرراً من بعض وجوه الضعف البشري بما في

ذلك التباهي . لذلك فانني بكل تأكيد اشعر بسرور لانني كنت عضواً في المجلس العسكري التابع للجبهات التي اشتركت في المعارك الهائلة التي خاض الجيش الاحمر رحاها في ستالينغراد وفي كورسك .

وبعد كورسك كنت في البداية متصلا بجبهة فورونزيه ثم بالجبهة الأوكرانية الاولى . وكنا نندفع بقوة صوب « كييف » . وكانت ساعة انتصار باهر عند وصولنا إلى ضفة نهر دنيبر الغربية . كنا نقاتل في سبيل تحرير عاصمة اوكرانيا أم المدن الروسية . وكان الجميع يشعرون بدموع الفرح تتدفق في داخلهم . فمنذ ١٩٤١ القي بنا إلى الوراء حتى ابواب ستالينغراد وغداً او بعد غد سوف نكون في « كييف » .

وبينما كنا لا نزال خارج المدينة وصل جوكوف من مقر القيادة العامة (١) وكان قد اعد له ولي غرفة محصنة تحت الارض لننام فيها . وفي اثناء النهار كنا نجلس منصرفين إلى التمازح وبحث الحالة . وفي اليوم الثاني والثالث لم نهتم حتى لان نستعمل المخبأ . لقد طردنا الالمان وقذفنا بهم إلى الغابات وقواتنا كانت تناوشهم خارج المدينة ، وكنا نقاتل من رأس جسر إلى الغرب من المدينة لمنع العدو من شق طريق إلى زيتومير — كييف .

وكان غريشكو نائباً لقائد جبهة فورونزيه (٢) وشاهدناه يعد مقراً له في « ميزهغورا » لكي يساعد في تنظيم القوات من هناك . واني لاذكر ان الشمس كانت قد مالت إلى المغيب عندما وصل غريشكو إلى مخفر قيادتنا خارج كييف . وكان المساء دافئاً مع ان الخريف كان قد اقبل . وكنا قد انتقلنا إلى خارج الابواب وبوركاتنا (اودية قوقاسية) ملقاة على اكتافنا ، فوصل غريشكو وقدم تقريره مباشرة لنا . وكنت قد عرفته منذ زمن بعيد وأكن له الاحترام الوافر . فسمحت لنفسي ان امزح حول قامته الطويلة ، فقلت له : « ايها الرفيق الجنرال ، ارجوك ان تتراجع قليلا إلى الوراء لكي انظر اليك في عينيك » .

---

(١) بعد كورسك تسلم فاتوتين قائد جبهة فورونزيه الجبهة الاوكرانية الاولى وبقي خروشوف معه . وعندما اصيب فاتوتين بجرح مميت في شباط ١٩٤٤ تسلم جوكوف القيادة لفترة من الزمن وهي أول قيادة حربية تولاها منذ معركة موسكوفي عام ١٩٤١ .

(٢) الكولونل جنرال غريشكو وهو الآن المارشال غريشكو وزير الدفاع . اصبح في ١٩٦٠ القائد الاعلى لقوات ميثاق فرصوفيا . وبصفته قائداً لمنطقة كييف العسكرية بعد الحرب تماماً عمل قريباً من خروشوف بعض السنين . وهو الذي خطط واعد وتولى قيادة غزو تشيكوسلوفاكيا في ١٩٦٨ .

فضحك ولا اذكر تماماً ما الذي قاله في تقريره ، غير ان النقطة الرئيسية كانت ان العدو قد سحق .

وبعد قليل حدث انفجار مفاجيء وارتفعت سحابة من الدخان فوق المدينة. وكنت اعرف « كييف » مثل معرفتي لكف يدي فقلت : « ان الالمان ينسفون المصنع البلشفي في القسم الغربي من المدينة ، فاذا كانوا قد بدأوا في المباني فذلك يدل حتماً على انهم يركنون إلى الفرار » . وكنت قبل هجومنا قد طلبت تعيين فرق خاصة لتذهب حالا إلى بنايات اللجنة المركزية ومقر منطقة كييف العسكرية وبناية مجلس الوزراء واكاديمية العلوم وغير ذلك من المواقع ذات الاهمية حالما تدخل قواتنا إلى كييف . وكان على هذه الفرق ان تتأكد من ان الالمان لا يكون لديهم الوقت للشروع في اضرام الحرائق او تفجير المتفجرات وعليها ان تطرد فرق الهدم الالمانية وتعطل اية متفجرات قد تكون اعدت للتفجير .

وعندما بدأ الانفجار قلت لقائد المدفعية «ايها الرفيق فيرنتسوف اعط الامر لتغطية كييف بقصف موزع بالقنابل » فنظر إلي مندهشاً لانه كان يعلم وفائي لكييف ومحبتي للمدينة العزيزة ، فكيف اطلب اليه فجأة ان يطلق النار عليها ؟ فقلت له موضحاً موقفي « ايها الرفيق فيرنتسوف ، اذا فتحت النار على المدينة يدب الذعر في قلوب الالمان فيحاولون الخروج منها باقصى سرعة ويكون ما يلحقون من الاذى بالمدينة اقل نسبياً . وباستطاعتنا دائماً ان نصلح الاضرار التي تسببها بعض القذائف القليلة الموزعة هنا وهنا ك » .

ودخلت قواتنا كييف في ٦ تشرين الثاني ١٩٤٣ وهو يوم انتصار خاص لانه كان عشية الذكرى السنوية لثورة تشرين الأول العظيمة وبدا كما لو اننا تعمدنا تحرير كييف في ذلك اليوم احتفالا بتلك الذكرى. غير ان الواقع هو ان ذلك كان صدفة سعيدة .

وارسلت في ساعة مبكرة من صباح يوم ٦ تشرين الثاني سائق سيارتي الرفيق زورافليف إلى كييف ليتحقق من حالة الطريق . فعاد وابلغني ان الطريق خالية تماماً ، فدخلت وبعض الزعماء الاوكرانيين إلى المدينة . واني لاعجز عن التعبير عن العواطف التي غمرتني عندما انطلقت بسيارتي على الطريق إلى داخل كييف . كانت طريقاً مألوفة اذ كنا نستعملها للوصول إلى « داشاتنا » والذهاب منها قبل الحرب . وقد مررنا وسط الضواحي ووصلنا إلى « كريشاتك » (البوليفار الرئيسي في كييف) . وذهبت رأساً إلى مجلس الوزراء لاتفقد البناء ، فكان في حالة جيدة من الخارج . وكان بناء اللجنة المركزية لا يزال قائماً ايضاً وكذلك اكاديمية العلوم والمسارح . غير ان المصنع البلشفي ومصنع « كريشاتك » كانا

قد دمرا تماماً .

الا اننا شعرنا كأن تغييراً كبيراً قد حدث في المدينة . فقد كانت قبل الحرب كثيرة الضجيج مرحة حية ، اما الان فبدت خالية كأن لا حياة ولا انس فيها . وكنا ونحن نسير على طريق كريشاتك متجهين إلى شارع لينين نسمع صدى وقع خطواتنا على الرصيف المهجور ، ثم فجأة بدأ الناس يخرجون من مخابئهم ، كأنهم يخرجون من طين الارض .

وبينما كنا سائرين في شارع لينين باتجاه الاوبرا نتحدث ونقارن بين مظاهر الامس واليوم ، طرقت مسامعنا صرخة هستيرية ورأينا شاباً يركض مقبلا نحونا وهو يواصل الصياح قائلا : « انا اليهودي الوحيد الباقي ! انا آخر يهودي لا يزال حياً في كييف.» فحاولت ان اهدىء من روعه ، وخشيت ان يكون قد جن تماماً ، فسألته كيف بقي على قيد الحياة فقال : « زوجتي اوكرانية وقد خبأتني في « العلية » وكانت تطعمني وتعتني بي ولو تجرأت على الظهور في المدينة لكان قضي علي كما قضي على جميع اليهود الآخرين (١) .

وبعد ذلك التقينا رجلا عجوزاً ابيض اللحية يحمل جراب زاده مثل الذي كنت احمله انا عند ذهابي إلى العمل في المصنع في « يوزوفكا » فالقى ذاته على كتفي وقبلني على الوجنتين وظهرت الصورة في صحف ومجلات كثيرة .

ووقع نظري على الاميركيين للمرة الأولى في اواخر ربيع ١٩٤٤ على مقربة من كييف . وكان النهار يومها صافي الاديم دافئاً ، واذ بنا نسمع فجأة دمدمة صوت بعيد فاجلنا بصرنا في الجو ورأينا مجموعة كبيرة من الطائرات مقبلة نحونا . ولم اكن قد رأيت ذلك النوع من الطائرات من قبل فادركت انها اميركية . لانه لم يكن لدينا ما يشبهها في سلاحنا الجوي . واني كنت في الحقيقة ، آمل ان تكون اميركية لانه ما لم تكن اميركية فقد تكون المانية . وعلمت ،في ما بعد ان تلك الطائرات كانت من نوع « الحصون الطائرة » طراز ب ١٧ . وهي التي اتخذت قاعدة لها خارج « بولتافا » وكان ذلك جزءاً من اتفاقنا مع روزفلت . وكانت

(١) الا شارة هنا هي إلى مجزرة «بابي يار» وهو وادي خارج المدينة ، حيث قتل في يومين ٣٣٧٧١ شخصاً أوقفوا على حافة حفرة كبيرة واطلقت عليهم نار المدافع الرشاشة . وقد حول موقع بابي يار في ما بعد إلى مدينة للالعاب الرياضية . ولم يسمع بها أكثر الروس إلا بعد أن كتب يفتوشنكو قصيدته الشهيرةبعنوان «بابي يار» ووقع في مشاكل يسببها .

تستعمل اراضينا لتجديد تسلحها وتجديد وقودها بعد القيام بالقاء القنابل على المانيا . وقد كنا نراها في ما بعد محلقة فوق رؤوسنا ليلا في طريقها إلى اهدافها في المانيا ، ثم نراها عائدة عند الفجر . وكان الالمان على ما يبدو يتمكنون من اقتفاء اثر الطائرات الاميركية في عودتها إلى بولتافا فيقصفون قاعدتها بقنابلهم . وقد تلقيت نبأ يفيد ان طائرات كثيرة دمرت وارواح كثيرة فقدت من جراء ذلك . وكان اكثر القتلى من رجالنا الذين كنا قدمناهم ليعملوا في صيانة القاعدة (١) .

وفي اثناء دفعنا للقوات الالمانية في اتجاه الغرب التقينا بعدو قديم ، اي « الوطنيين الاوكرانيين » . وعلمنا من الرفيق « بيغما » قائد قاعدة انصارنا في اوكرانيا ان « البندريت » (٢) كانوا يؤلفون فصائل من الانصار من رجالهم ، وقد اتخذوا قاعدة لهم في الغابات التي حول « روفنو » . وكان قائدهم يسمى « تاراس بولبا » على اسم بطل « غوغول » . فأمرنا « بيغما » ان يكشف بالتفصيل ماذا يعتزم الانصار البندريت ان يفعلوا ثم قلنا له ان يتيح لبولبا فرصة لان ينضم الينا ضد الالمان . فرفض بولبا ذلك ولم نلبث ان أدركنا ان البندريت يحاولون الاحتفاظ بقوتهم وتوحيدها كي يكون باستطاعتهم فتح حرب الانصار ضدنا في مؤخرتنا بعد ان نطرد الالمان إلى خارج اوكرانيا .

فذهبت انا شخصياً إلى «روفنو» في شتاء ١٩٤٤ للتشاور مع الرفيق «بيغما» ومع القائد الذي كان استولى على المدينة والذي اخذ يحرر المنطقة . واظن انه كان « موسكالنكو » (٣) وكانت الارض مكسوة بالثلوج وكان البرد قارساً جداً . فقررت

(١) عدا سرب الطائرات المقاتلة التابع لسلاح الطيران الملكي الذي اتخذ قاعدة له في مورمانسك في أوائل أيام الحرب انشئت قاعدة لقاذفات القنابل الأميركية في بولتافا وهي تمثل الامتياز الوحيد الذي منحه ستالين للحلفاء الغربيين الراغبين في استخدام قاعدةجوية في الأراضي السوفياتية . والغارة الالمانية التي يذكرها خروشوف جرت في ليل ٢١-٢٢ حزيران ١٩٤٤ وقد دمرت خمسين قاذفة قنابل أميركية وقتلت حوالي ثلاثين روسياً واثنين من الجنود الأميركيين . وبالرغم من الآمال الكبيرة التي علقت عليها والاحتياطات الواسعة التي اتخذت لذلك فان عملية قصف المانيا التي اطلق عليها سراً اسم «فرانكلين» لم تسفر عن نجاح يذكر ، فقد قامت القاذفات بثماني عشرة رحلة فقط وكانت العملية تلقى عرقلة دائمة من جراء الشبهات السوفياتية السياسية وعدم الكفاءة البيروقراطية .

(٢) اتباع الثائر الوطني الاوكراني ستيفان بنديرا .

(٣) المارشال س.س. موسكالنكو الذي كان حينئذ قائداً عسكرياً للجبهة الاوكرانية الاولى ، وكان مقرباً كثيراً من خروشوف. وفي عام ١٩٦٠ صار قائداً أعلى لقيادة الصواريخ السوفياتية ، وفي ما بعد لقوات الصواريخ الستراتيجية .

ان اعود إلى كييف حالما ينتهي الاجتماع في مقر قيادة الفرقة . وقد حاول القائد ان يقنعني بان ابقى عنده تلك الليلة ، ولكنني اصررت على الرجوع إلى كييف حالا . فاتجهت شمالا على حدودنا القديمة مع بولونيا وتوقفت للراحة في احدى قواعد التموين المؤخرة فاسترعى التفاتي عدد كبير وغريب من الناس يتسكعون حول المكان . فتساءلت في سري كم ترى من هؤلاء هم من البندريت المتنكرين يأكلون طعامنا ويتدفأون بنارنا ويتجسسون علينا . وكنت قد حذرت سلفاً من ان المنطقة تعج بالبندريين . فبدلا من تمضية الليل في قاعدة التموين انطلقت إلى قرية صغيرة على الحدود البولونية القديمة وتوقفت هناك .

واني لاود لو اتيحت لي فرصة اكثر لازور قيادة الجبهة بعد ان عبرت قواتنا الحدود إلى داخل بولونيا . فقد كنت ارغب في ان ارى شيئاً من آثار ملاحقتنا للألمان إلى داخل اوروبا الشرقية . غير اني كنت مثقلا بالعمل في كييف للاشراف على اعادة بناء اوكرانيا وتنظيم الحزب فيها .

وكانت مظاهر ابتهاج عظيم تعم قطاعات الجيش لطردنا الالمان إلى خارج بلادنا. وقد تميزت وحدات الحرس بنوع خاص بما ابدته في من نشاط في السنة الاخيرة من الحرب وكان شعارها « إلى برلين من ستالينغراد ».وكان موضوعاً محبباً للمزاح وشرب الانخاب من سوف يتوصل ليكون حاكم برلين عندما نستولي في النهاية على العاصمة الالمانية . وكان كل واحد منا يطمح لهذا المنصب كما كان كل من رأى وعانى المتاعب التي جلبتها هذه الحرب على بلادنا اراد ان يقوم بدوره لكي يتأكد من أن الألمان قد دفعوا ثمن ما جنته ايديهم .

واذكر انني بينما كنت في كييف تلقيت اشارة تلفونية من جوكوف ، وكان في حديثه معي يطير فرحاً عندما قال : « قريباً جداً سأحبس ذلك الوحش المراوغ الهزيل هتلر في قفص . وعندما ارسله في قفصه إلى موسكو سامر به في طريق كييف ليتسنى لك ان تلقي نظرة عليه » . فأجبت جوكوف بانني اتمنى له كل توفيق . لقد كنت اطمئن إلى انه ما دام قائداً للجبهة ، فان هجومنا هو في ايد قوية صالحة .

ثم بعد استسلام المانيا طلبني جوكوف مرة اخرى وقال : « لن اتمكن من البر بوعدي لك ، فان ذلك الافعى هتلر قد مات ، اذ اطلق الرصاص على نفسه . فاحرقوا جثته وقد عثرنا على هيكله المفحم » (١) .

(١) ظل ستالين زمناً طويلا يصر على القول بأن هتلر لم يمت على الاطلاق .

تستعمل اراضينا لتجديد تسلحها وتجديد وقودها بعد القيام بالقاء القنابل على المانيا .
وقد كنا نراها في ما بعد محلقة فوق رؤوسنا ليلا في طريقها إلى اهدافها في المانيا ،
ثم نراها عائدة عند الفجر . وكان الالمان على ما يبدو يتمكنون من اقتفاء اثر
الطائرات الاميركية في عودتها إلى بولتافا فيقصفون قاعدتها بقنابلهم . وقد تلقيت
نبأ يفيد ان طائرات كثيرة دمرت وارواح كثيرة فقدت من جراء ذلك . وكان
اكثر القتلى من رجالنا الذين كنا قدمناهم ليعملوا في صيانة القاعدة (١) .

وفي اثناء دفعنا للقوات الالمانية في اتجاه الغرب التقينا بعدو قديم ، اي
« الوطنيين الاوكرانيين » . وعلمنا من الرفيق « بيغما » قائد قاعدة انصارنا في
اوكرانيا ان « البندريت » (٢) كانوا يؤلفون فصائل من الانصار من رجالهم ،
وقد اتخذوا قاعدة لهم في الغابات التي حول « روفنو » . وكان قائدهم يسمى
« تاراس بولبا » على اسم بطل « غوغول » . فأمرنا « بيغما » ان يكشف بالتفصيل
ماذا يعتزم الانصار البندريت ان يفعلوا ثم قلنا له ان يتيح لبولبا فرصة لان ينضم الينا
ضد الالمان . فرفض بولبا ذلك ولم نلبث ان أدركنا ان البندريت يحاولون الاحتفاظ
بقوتهم وتوحيدها كي يكون باستطاعتهم فتح حرب الانصار ضدنا في مؤخرتنا
بعد ان نطرد الالمان إلى خارج اوكرانيا .

فذهبت انا شخصياً إلى «روفنو» في شتاء ١٩٤٤ للتشاور مع الرفيق «بيغما»
ومع القائد الذي كان استولى على المدينة والذي اخذ يحرر المنطقة . واظن انه كان
« موسكالنكو » (٣) وكانت الارض مكسوة بالثلوج وكان البرد قارساً جداً . فقررت

---

(١) عدا سرب الطائرات المقاتلة التابع لسلاح الطيران الملكي الذي اتخذ قاعدة له
في مورمانسك في أوائل أيام الحرب انشئت قاعدة لقاذفات القنابل الأميركية في
بولتافا وهي تمثل الامتياز الوحيد الذي منحه ستالين للحلفاء الغربيين الراغبين
في استخدام قاعدةجوية في الأراضي السوفياتية . والغارة الالمانية التي
يذكرها خروشوف جرت في ليل ٢١-٢٢ حزيران ١٩٤٤ وقد دمرت خمسين
قاذفة قنابل أميركية وقتلت حوالي ثلاثين روسياً واثنين من الجنود الأميركيين .
وبالرغم من الآمال الكبيرة التي علقت عليها والاحتياطات الواسعة التي اتخذت لذلك
فان عملية قصف المانيا التي اطلق عليها سراً اسم «فرانكلين» لم تسفر عن نجاح
يذكر ، فقد قامت القاذفات بثماني عشرة رحلة فقط وكانت العملية تلقى عرقلة
دائمة من جراء الشبهات السوفياتية السياسية وعدم الكفاءة البيروقراطية .

(٢) اتباع الثائر الوطني الاوكراني ستيفان بنديرا .

(٣) المارشال س.س. موسكالنكو الذي كان حينئذ قائداً عسكرياً للجبهة الاوكرانية
الاولى ، وكان مقرباً كثيراً من خروشوف. وفي عام ١٩٦٠ صار قائداً أعلى لقيادة
الصواريخ السوفياتية ، وفي ما بعد لقوات الصواريخ الستراتيجية .

ان اعود إلى كييف حالما ينتهي الاجتماع في مقر قيادة الفرقة . وقد حاول القائد ان
يقنعني بان ابقى عنده تلك الليلة ، ولكنني اصررت على الرجوع إلى كييف حالا .
فاتجهت شمالا على حدودنا القديمة مع بولونيا وتوقفت للراحة في احدى قواعد
التموين المؤخرة فاسترعى التفاتي عدد كبير وغريب من الناس يتسكعون حول
المكان . فتساءلت في سري كم ترى من هؤلاء هم من البندريت المتنكرين يأكلون
طعامنا ويتدفأون بنارنا ويتجسسون علينا . وكنت قد حذرت سلفاً من ان المنطقة
تعج بالبندريين . فبدلا من تمضية الليل في قاعدة التموين انطلقت إلى قرية صغيرة
على الحدود البولونية القديمة وتوقفت هناك .

واني لاود لو اتيحت لي فرصة اكثر لازور قيادة الجبهة بعد ان عبرت
قواتنا الحدود إلى داخل بولونيا . فقد كنت ارغب في ان ارى شيئاً من آثار
ملاحقتنا للألمان إلى داخل اوروبا الشرقية . غير اني كنت مثقلا بالعمل في
كييف للاشراف على اعادة بناء اوكرانيا وتنظيم الحزب فيها .

وكانت مظاهر ابتهاج عظيم تعم قطاعات الجيش لطردنا الالمان إلى خارج
بلادنا. وقد تميزت وحدات الحرس بنوع خاص بما ابدته في من نشاط في السنة الاخيرة
من الحرب وكان شعارها « إلى برلين من ستالينغراد ». وكان موضوعاً محبباً للمزاح
وشرب الانخاب من سوف يتوصل ليكون حاكم برلين عندما نستولي في النهاية
على العاصمة الالمانية . وكان كل واحد منا يطمح لهذا المنصب كما كان كل من
رأى وعانى المتاعب التي جلبتها هذه الحرب على بلادنا اراد ان يقوم بدوره
لكي يتأكد من أن الألمان قد دفعوا ثمن ما جنته ايديهم .

واذكر انني بينما كنت في كييف تلقيت اشارة تلفونية من جوكوف ،
وكان في حديثه معي يطير فرحاً عندما قال : « قريباً جداً سأحبس ذلك الوحش
المراوغ الهزيل هتلر في قفص . وعندما ارسله في قفصه إلى موسكو سامر به في
طريق كييف ليتسنى لك ان تلقي نظرة عليه » . فأجبت جوكوف بانني اتمنى له
كل توفيق . لقد كنت اطمئن إلى انه ما دام قائداً للجبهة ، فان هجومنا هو في ايد
قوية صالحة .

ثم بعد استسلام المانيا طلبني جوكوف مرة اخرى وقال : « لن اتمكن من البر
بوعدي لك ، فان ذلك الافعى هتلر قد مات ، اذ اطلق الرصاص على نفسه .
فاحرقوا جثته وقد عثرنا على هيكله المفحم » (١) .

---

(١) ظل ستالين زمناً طويلا يصر على القول بأن هتلر لم يمت على الاطلاق .

وهكذا انتهت ملحمة الحرب التي شنها شعبنا العظيم ضد الغزاة الهتلريين . لقد غمرنا السرور والابتهاج من جراء تمكننا من تحطيم عدونا وشعرنا بارتياح معنوي رفيع بعثه فينا انتصارنا . وكانت كلمات الكسندرنفسكي ترن في اذاننا : « ان الذي يأتي الينا بالسيف فبالسيف يهلك » (١) .

وكنت قليل الحكمة حين قررت ان اتلفن لستالين اهنئه على استسلام المانيا . وعندما رد على التلفون قلت : « اسمح لي ايها الرفيق ستالين بان اهنئك بانتصار قواتنا المسلحة وشعبنا على الجيش الالماني » . فماذا كان رده ؟ قطع الخط بخشونة وقال بانني اضيع وقته. اما انا فقد صعقت ووبخت نفسي على مخاطبتي اياه. كنت اعلم اي نوع من البشر هو ، وكان علي ان اتوقع تماماً ما حدث . وكما سبق لي ان قلت ، كان ستالين ممثلا ماهراً وكان يتظاهر انه ما دامت الحرب قد انتهت فهو قد بدأ يفكر في شيء آخر أكثر اهمية يتجاوز الحرب واحداثها ، فلماذا والحالة هذه اضيع وقته بالحديث عن الأمس ؟

لقد تصرف كأنه لم يفاجأ ابداً بانتصارنا ولم يدهش له . واراداني ان اعتقد انه كان دائماً يعلم كيف ستنتهي الحرب . غير اني كنت اعلم غير ذلك ، فقد راقبته في اثناء الازمات ورأيت كيف كان اكثر قلقاً وتخوفاً من سائر الذين حوله .

ستالين والحلفاء

نجد في هذا الفصل أول اعتراف علني من أي سياسي سوفياتي عن الدور الكبير جداً الذي لعبه مشروع الاعارة والتأجير والعون الأميركي والبريطاني للجيش السوفياتي. وانه لمن المؤسف ان خروشوف شعر بأنه لا يستطيع التحدث بمثل ذلك عندما كان في سدة الحكم . فالشعب السوفياتي لم يبلغ قط عن القيمة التي وصل اليها ذلك العون . وخيمت على الموضوع كله سحابة من الدعاوة من نوع وآخر ، بحيث ان هنالك كثيراً جداً من الناس في الغرب لم يدركوا قط ادراكاً صحيحاً ضخامة مساعدة الحلفاء وأهميتها . وخروشوف لا يروي نصف الحقيقة ولكنه على الأقل قد بدأ يضع الامور في نصابها . وفي الباقي نرى التململ القديم حول الميدان الثاني والشبهات العميقة في أغراض الحلفاء ودوافعهم وعجزهم عن ادراك ضخامة العمليات البحرية الضرورية للقيام بالغزو عبر بحر المانش الذي بدا على الخرائط الروسية بانه ليس سوى عقبة تافهة. وفي هذا الفصل يحاول خروشوف أيضاً أن يظهر بأنه كان يجهل

(١) الكسندر نفسكي المحارب الروسي البطل الذي لم يكن أول من عبر عن هذا الشعور .

تقريباً ما كان يقوم به ستالين . ففي هذا الزمن لم يكن خروشوف يسيطر على أوكرانيا فحسب بل كان أيضاً عضواً في المكتب السياسي ، وفي الهيئة العليا التي تخطط السياسة وتدير شؤونها ، ومع ذلك ، فبدلا من ان يستشار في السياسة الخارجية ، كان لا يعلم حتى عن مشاريع ستالين ومفاوضاته مع تشرشل وروزفلت الا عرضاً في نوادر وحوادث يرويها ستالين على مائدة الطعام . وفي هذا الصدد، من الجدير بالملاحظة ان خروشوف في فصل آخر يقول انه إلى أن استدعي نهائياً إلى موسكو في عام ١٩٥٠ لم يكن اسمه حتى على قائمة الذين ترسل اليهم المعلومات التي توزع على زملائه في العاصمة ، وتلك معاملة شاذة لرجل سوف يصير في المستقبل المخطط الأكبر للسياسة السوفياتية. وفي هذا ما يدل دلالة عظيمة على ما كان لكفاءة خروشوف ومقدرته الاساسية من شأن في نجاحه بالقدر الوافي الذي ينجح فيه وهو يوضح أيضاً إلى حد بعيد أسباب قصوره .

تقرر اقامة عرض عسكري احتفالا بالنصر ، وحدد موعده يوم ٢٤ حزيران ١٩٤٥. فحضرت إلى موسكو لهذه المناسبة ، راغباً في مشاهدة قواتنا في ذلك العرض ، وفي مشاركة شعبنا كله في مظاهر الابتهاج والفرح في عاصمة وطننا .

وجاء ايزنهاور إلى موسكو ايضاً ووقف معنا على منصة ضريح لينين للاشراف على العرض ، وكانت تلك اول مرة اجتمع فيها بايزنهاور . واقام ستالين مأدبة كبيرة حضرها قوادنا الحربيون جميعاً وكذلك ايزنهاور . ولا اظن ان مونتغمري القائد البريطاني كان بين الحاضرين . وكان ستالين قد اقام علاقة حسنة مع ايزنهاور ، واحسن منها مع روزفلت . وكانت علاقته مع تشرشل سيئة ، واسوأ منها مع مونتغمري .

وبعد الحرب ، ولكن قبل نقلي من اوكرانيا إلى موسكو (في نهاية ١٩٤٩)، سمعت ستالين يتكلم مرات عديدة عن مميزات ايزنهاور النبيلة في احاديثه مع المقربين اليه . وكان دائماً ينوه بطيبة ايزنهاور وكرم اخلاقه وشهامته في معاملاته مع حلفائه . وكان ستالين يقول باننا لولا ايزنهاور لما كنا وفقنا إلى الاستيلاء على برلين . فقد كان بوسع الاميركيين ان يكونوا هنالك اولا ، وكان الالمان قد حشدوا قواتهم ضدنا بينما كانوا يدعون الاميركيين والبريطانيين للاستسلام اليهم . فوجه ستالين رسالة إلى ايزنهاور ناشده فيها ان يؤخر تقدم جيوشه ، وقال في تلك الرسالة انه وفقاً لاتفاقه مع روزفلت ، وبالنظر للدماء الكثيرة التي اراقها شعبنا ، فان قواتنا تستحق أن تدخل برلين قبل الحلفاء الغربيين . وبناء على ذلك أخر ايزنهاور جنوده واوقف هجومهم وبذلك سمح لقواتنا بان تستولي على برلين . ولو انه لم يفعل ذلك لكان الاميركيو ن احتلوا برلين قبل وصولنا اليها.وفي

تلك الحالة ، كما كان يقول ستالين ، كانت قضية المانيا ربما قد تقررت على نحو آخر وكان وضعنا قد انتهى على نحو اسوأ كثيراً . فهذا كان نوع الشهامة السخية التي اظهرها ايزنهاور اذ كان وفياً في بره بوعد روزفلت .

على ان الرئيس الاميركي في هذا الزمن كان ترومان ولم يكن ستالين يكن له اي احترام على الاطلاق . وكان يعتبر ترومان عديم القيمة . وهذا صحيح ، فان ترومان لم يكن جديراً بالاحترام وهذه حقيقة لا مراء فيها .

وفي نهاية الحرب تماماً كان ستالين شديد القلق على ان يتخطى الاميركيون الحدود المرسومة لهم في الغرب . وكان يخامره الشك في انهم قد يتخلون عن الارض التي كان روزفلت وافق سابقاً في طهران على ان يعطيها لنا . وقد يكون باستطاعة الاميركيين ان يقولوا ان الخط الذي وصل اليه جنودهم هو الحدود الجديدة الفاصلة بين منطقتي الاحتلال . غير ان الاميركيين سحبوا قواتهم إلى الوراء ووزعوها على الخط الذي كان قد حدد في طهران . هذا ايضاً لا بد من تسجيله للدلالة على لباقة ايزنهاور وحسن تصرفاته .

كان الالمان يواجهون ضغطاً شديداً من قواتنا ولم يكن باستطاعتهم ان يستمروا في المقاومة طويلا. وكان المفروض ان يلقوا اسلحتهم ويستسلموا لنا . على انهم رفضوا ان يفعلوا ذلك وتحركوا بدل هذا إلى الغرب ليستسلموا إلى الاميركيين . وهنا مرة اخرى لجأ ستالين إلى ايزنهاور قائلا له ان القوات السوفياتية قد اهرقت دماء كثيرة في سبيل سحق الالمان ، والآن يقوم الالمان الذين صادفوهم بالاستسلام إلى الاميركيين . وشكا ستالين ان ذلك لن يكون من الانصاف . كان ذلك في الجبهة النمسوية ، حيث كان مالينوفسكي يوجه هجومنا ، فاصدر ايزنهاور امره إلى القائد الالماني بان يستسلم إلى الروس الذين هزموا جيشه .

وحدث مرة ان ستالين تقدم بمثل هذا الطلب إلى تشرشل ، اذ كان الالمان في حالة فرار من روكوسوفسكي وهم يستسلمون للانكليز في المنطقة التي يحتلها مونتغمري . فطلب ستالين من الانكليز ان لا يأخذوا اسرى وان يرغموا الالمان على الاستسلام لقواتنا ، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل لان مونتغمري اخذهم جميعاً واخذ اسلحتهم . وهكذا ضاعت علينا ثمار انتصارنا على الالمان .

وكان الجنرال ايزنهاور والمارشال مونتغمري ممثلين للطبقة البورجوازية ذاتها ومع ذلك فقد كان قرار كل منهما في هذه المسألة مختلفاً عن قرار الاخر ، كما فسرا مبادىء اتفاقية المشاركة والشرف تفسيراً متبايناً . وكلما كانت لي معاملات مع ايزنهاور في السنين التالية كنت دائماً اتذكر تصرفاته هذه اثناء الحرب . وكنت احتفظ في ذاكرتي بكلمات ستالين عنه . وستالين لا يمكن اتهامه ابداً

بانه يميل إلى شخص ما بدون سبب وخصوصاً من هو عدو طبقي . فهو لا يداهن ولا يصالح في المسائل الطبقية. وكان ذلك من اقوى مزاياها، وكان يحترم كثيراً هذه المزية (١) .

دعا ستالين ايزنهاور إلى الاحتفال بالعرض العسكري ابتهاجاً بالنصر واعرب عن تقديره لمزاياه باهدائه اعلى اوسمتنا اي « وسام النصر » . صحيح ان هذا الوسام اهدي إلى المارشال مونتغمري ولكن في تلك الحالة اهدي على سبيل اتمام واجب رسمي من قبلنا بوصفنا حلفاء لان الانكليز كانوا يهدون اوسمتهم إلى قوادنا الحربيين فكان الأمر مجرد مقابلة بالمثل .

اما اذا كانت انطباعاتي من الآراء التي اعربها ستالين عن العلاقات المتبادلة في ما بين الحلفاء اثناء الحرب وخصوصاً عن روزفلت وتشرشل ، فاني اعتماداً على ما قاله ، اظن ان ستالين كان اكثر تجانساً مع روزفلت واستلطافاً له منه مع تشرشل، لان روزفلت بدا اكثر تفهماً وادراكاً لمشاكلنا . وكان روزفلت وستالين يشعران بكره مشترك للنظام الملكي ومؤسساته . وقد روى لي مرة الواقعة الآتية : عندما كانا في طهران جالسين لتناول طعام العشاء ، رفع روزفلت كأسه واقترح شرب نخب رئيس الاتحاد السوفياتي السيد كالينين فشربه الآخرون جميعاً . وبعد لحظات رفع تشرشل كأسه واقترح شرب نخب ملك بريطانيا العظمى ، فقال روزفلت انه لا يشرب ذلك النخب . فرفع تشرشل كتفيه مندهشاً غير ان روزفلت ظل ثابتاً في موقفه وقال: «كلا ، لن اشرب هذا النخب . انا لا استطيع ان اشرب نخب ملك بريطاني ، لانني لا استطيع ان انسى ابداً كلمات والدي » . وقال ستالين موضحاً ذلك انه عندما غادر والد روزفلت انكلترا او ارلندا إلى اميركا قال على السفينة لروزفلت الصغير « الملك هو عدونا » . وروزفلت لم ينس ابداً احتقار والده لملك انكلترا . وعلى الرغم من كل تطلبات اللباقة فلم يرفع روزفلت كأسه (٢) .

---

(١) انه لمن السهل الاعتقاد ان ستالين كان أكثر من مندهش من ضبط النفس الذي أبداه ايزنهاور وغيره في موضوع وقف تقدم الحلفاء في داخل المانيا . ومن المؤكد انه نقم على مونتغمري لان هذا الاخير اخذ عدداً أكبر من الاسرى الالمان الفارين أمام الزحف السوفياتي. وكان محقاً كل الحق في قوله إلى خروشوف انه أكثر اتفاقاً مع روزفلت منه مع تشرشل . فقد كان روزفلت ينظر بعين الشك الى الامبريالية وكان مقتنعاً انه بامكانه التفاهم مع ستالين .

(٢) قد يكون مفيداً العلم اذا كان ستالين حقيقة قد روى هذه القصة عن رفض روزفلت ان يشرب نخب الملك. فهو اذا كان حقيقة يعتقد ان والد الرئيس روزفلت كان=

وفي الخلافات التي نشأت في اثناء اجتماعات العمل التي عقدت في طهران كان ستالين غالباً يجد روزفلت إلى جانبه ضد تشرشل . وهكذا فان عواطف ستالين الشخصية كانت بصورة اكيدة محفوظة لروزفلت بالرغم من انه كان يحتفظ لتشرشل باعلى درجة من التقدير ايضاً . ولم يكن تشرشل رجل دولة انكليزياً عظيماً فحسب ولكنه كان يشغل احد المراكز الرئيسية في توجيه السياسات العالمية . وفي الوقت الذي واجه الحلفاء الفشل في الأردين ، وهو الفشل الذي هدد بالخطر انزال قوات الغزو ، طلب تشرشل من ستالين ان يحول الجيش الالماني علينا . وكان ذلك يتطلب قيامنا بهجوم لم يكن جزءاً من مشاريعنا في ذلك الوقت ، وكان لا ينبغي ان نقوم به الا بعد ذلك بزمن طويل . ولكن ظهر بالنتيجة انه مفيد جداً لنا . وقد احسن ستالين في اظهار حسن ارادتنا نحو حليفنا في وقت الحاجة .

ومما لا ريب فيه ان تشرشل لعب دوراً خطيراً في الحرب . فقد ادرك الخطر الذي يتهدد انكلترا ، وهذا ما جعله يبذل كل ما يستطيعه لتحويل الالمان ضد الاتحاد السوفياتي — لكي يجر الاتحاد السوفياتي إلى الحرب ضد المانيا . وعندما هاجمنا هتلر بادر تشرشل حالا إلى التصريح بان انكلترا تعتبر ان هنالك ضرورة لعقد معاهدة تضم بمقتضاها قواتها إلى قواتنا ضد المانيا . وهنا ايضاً عمل ستالين ما هو صواب ، ووافق على اقتراح تشرشل ووقع المعاهدة . وبعد مدة معينة من الزمن دخلت اميركا الحرب وبرز إلى الوجود ائتلاف يجمع الدول الكبرى الثلاث .

وانه لمن الصعب الحكم على حقيقة نيات الحلفاء عند دنو نهاية الحرب . الا انني لا استبعد رغبتهم في وضع عبء اثقل كثيراً على كاهل الاتحاد السوفياتي وزيادة استنزاف دمنا . او ربما كما ادعوا لم يكونوا مستعدين الاستعداد الوافي للقيام بعملية النزول . فان انتاجهم للسلاح لم يكن قد تحسن تحسناً كافياً . وكانوا في حاجة إلى وقت اطول وما إلى ذلك . ويرجح ان التفسيرين صحيحان . غير انني اعتقد انه كان هنالك رغبة في استنزافنا حتى الجفاف ، حتى يتسنى لهم دخول المراحل الاخيرة وهم يملكون وحدهم القدرة على تقرير مصير العالم . لقد ارادوا ان يستفيدوا من نتائج الحرب ويفرضوا ارادتهم ليس على عدوهم المانيا فحسب بل ايضاً على حليفهم الاتحاد السوفياتي . واني لاستطيع ان اتصور بسهولة كيف كان هذا الخاطر يلعب دوراً بارزاً في مخيلاتهم .

=قد هاجر إلى الولايات المتحدة من ارلندا أو انكلترا فمعلوماته خاطئة جداً . ويبدو محتملا أن يكون خروشوف قد خلط بين ما روى ستالين عن الخطأ الذي وقع في طهران بين روزفلت وتشرشل وذكريات مشوشة عن اسلاف الرئيس كينيدي .

واذا نظرنا للامر من موقف طبقي نرى انه كان من مصلحة الحلفاء ان يعتمدوا على الاتحاد السوفياتي حليفاً لهم زمن الحرب بالرغم من الحقيقة الراهنة بان بلادنا قد ارسيت على المبادىء الاشتراكية . فنحن قد اضطررنا لان نوحد قوتنا ضد عدو مشترك ، ولم يكن اي منا ليستطيع الحرب منفرداً . ولكن في حين كنا نبذل مجهودنا الاجماعي ضد العدو المشترك ، بقي كل منا في موقعه الطبقي الخاص . ان الحلفاء الغربيين لم يكونوا بالتأكيد مهتمين بتقويتنا ولا كانت لهم مصلحة في ذلك . وكانت كل من انكلترا واميركا تعلمان من وضعهما الطبقي ان عليهما مساعدتنا إلى حد معين غير انهما كانتا لا تزالان ترغبان ان يكون الاتحاد السوفياتي اكثر ضعفاً بعد الحرب حتى يتسنى لهما ان تمليا ارادتهما علينا .

وكنا نحن ، من ناحيتنا ، نرى انه من المفيد ان نصير اقوى كثيراً عند نهاية الحرب لكي يكون لصوتنا بعض القوة في تسوية القضايا الدولية . فلو اننا وفقنا إلى ذلك ، لما كانت مسألة المانيا تقررت على الطريقة التي جرت في بوتسدام . ان قرار بوتسدام كان تسوية وضعت على اساس توزيع القوة في ما بين الحلفاء عند نهاية الحرب ، ومصادفات الاتفاق انعكست بصورة خاصة في البنود المختصة ببرلين وفيينا . فهاتان المدينتان كانتا واقعتين في المنطقة التي تحتلها القوات السوفياتية . وكان يبدو مفروضاً ان تكونا جزءاً من منطقتنا . على ان الحلفاء لم يعطوهما لنا ، بل جرى تقسيم كل من برلين وفيينا إلى اربعة اقسام . فكان لنا قسم واحد وأخذت الدول الغربية — انكلترا واميركا وفرنسا — الاقسام الثلاثة الاخرى. وهذا ينبىء بعض الشيء عن توزيع القوة عند نهاية الحرب .

عندما بدأنا زحفنا غرباً وكنا ندنو من حدود المانيا اضطر الحلفاء ان يعملوا ويقوموا بعملية انزال قواتهم . فقد خافوا ان نتقدم إلى ابعد كثيراً من الحدود التي تقررت في يالطا .

ومع ذلك فانه يتحتم علينا ان لا نبخس الحلفاء حقهم من التقدير لمساهمتهم في القضية المشتركة ، قضية ايقاع الهزيمة بالمانيا الهتلرية . وتفادياً للعجرفة المفرطة لا بد من ابلاغ الشعب والحزب في الاتحاد السوفياتي بصورة صحيحة عما قدمه الحلفاء للقضية المشتركة وللاتحاد السوفياتي بالذات . ذلك انه اذا لم يحلل الماضي ايجابياً فبناء المستقبل سوف يقوم على اساس من الاضاليل والوطنية البدائية بدلا من بنائه على اساس الحقائق الثابتة . وانه لمن سوء الحظ ان مؤلفاتنا التاريخية عن الحرب العالمية الثانية قد ارتكبت خطأ ، اذ انها كتبت تحت تأثير شعور غير سليم من التباهي والخوف من قول الحقيقة عن مساهمة حلفائنا — وذلك كله لان ستالين ذاته كان يتمسك بوضع غير صحيح ومخالف للحقيقة . فقد كان يعرف

الحقيقة ولكنه احتفظ بها لنفسه . وكان يرى انه من المعيب والمخزي لبلادنا ان يعترف بها علناً .

ولكن قول الحقيقة لا حاجة لان يكون داعياً للمذلة والخزي وتقدير مزايا شركائنا في الحرب لا ينتقص بالضرورة من مزايانا الخاصة . بل على العكس ، فان اصدار بيان موضوعي عن الحقيقة الراهنة كان ليزيد في علو مكانتنا في عيون الناس جميعاً ولا ينتقص من كرامتنا واهمية انتصاراتنا . غير ان قول الحق في هذه الحالة كان مما لا يستطيع ستالين ان يفكر به . فقد حاول تغطية وجوه ضعفنا وخيل اليه ان ذلك يجعلنا اكثر قوة من اعدائنا ، فيزدادون خوفاً منا . وهذا تفكير ساذج . فقد كان عليه ان يعلم انه لا يستطيع ان يخدع العدو . فالعدو يستطيع دائماً ان يرى ويحلل بذاته . وانه من المحتمل ايضاً ان ستالين كان يخشى ان تكون للصراحة في الاعلام عن تاريخ الحرب ردة فعل عليه شخصياً . وذلك شيء آخر ، غير انني لا ازال اعتقد انه كان من الواجب علينا ان نعترف علناً بما حدث وان لا نحاول تغطية الحقائق . فاننا كنا بذلك نساعد بلادنا ونخدم قضيتنا بعدم محاولة اخفاء اغلاطنا وبكشفها للناس للاطلاع عليها مهما كان ذلك مؤلماً بالنسبة لنا .

كان الشعب يفهم ويؤيدنا . واذا قضت الضرورة فانه كان يغفر الاغلاط التي ارتكبت . وعندما فضحت سوء ادارة الحرب استطاع الناس ان يقولوا « ها هو خروشوف ينتقد ستالين غير انه يستعمل ستالين لاغراض تشبيهية في تحليلات بناءة » . وذلك هو الصحيح تماماً . وانا لا اظن انه قد فات الأوان للجيل الجديد الذي سوف يحل قريباً محل الزعامة الحالية لبلادنا ، لان يلقي ضوءاً موضوعياً على بداية الحرب . ان علينا ان ندرس الماضي لكي لا نسمح في عهدنا بمثل تلك الاغلاط التي سمح بوقوعها من قبل . علينا ان نمنعها في الحاضر وفي المستقبل .

ان الاعتراف بالعون المادي الذي تلقيناه في الماضي من خصومنا الحاليين لن يكون له اي اثر على الحالة اليوم . لا يجوز لنا ان نباهي ونتبجح باننا قهرنا الألمان وحدنا دون سوانا ، وان الحلفاء تحركوا فقط لاقتسام الغنيمة . ذلك هو السبب الذي يحملني على ابداء وجهة نظري الخاصة بما قدمه حلفاؤنا من المساعدات . واني لآمل ان آرائي سوف تؤيدها ابحاث المؤرخين الذين يحققون ايجابياً في الظروف التي بين ١٩٤١ و ١٩٤٥ . فالانكليز قد ساعدونا بضراوة وبتعريضهم انفسهم لخطر عظيم.لقد نقلوا شحنات إلى مورمانسك وتكبدوا خسائر عظيمة. فالغواصات الالمانية كانت مترصدة على طول الطريق وكانت المانيا قد غزت

نروج ووصلت بذلك إلى مشارف مورمانسك .

وكما اثبت ميكويان بعد رحلته إلى اميركا ، فقد تلقينا معدات وسفناً ومؤناً كثيرة من الاميركيين ساعدتنا كلها في ادارة رحى الحرب . وبعد وفاة ستالين ظهر ان مدفعيتنا كلها كانت مركبة على اجهزة اميركية . واني اذكر اني قلت مرة : « دعونا نحول كل ما ننتجه من الاجهزة الخاصة بالسيارات إلى الجيش لكي تصير التراكتورات الحاملة للمدفعية والمعدات الحربية التي تظهر في حفلات العرض كلها من صنع سوفياتي » . ان كل المدفعية في جمهورية المانيا الديمقراطية (المانيا الشرقية) كانت مركبة على تراكتورات اميركية من طراز ستدربيكر لذلك قلت : « هذا لا يجوز انه شيء معيب . انظروا كم مر من السنين على نهاية الحرب ونحن لا نزال نتنقل على مصنوعات اميركية . » وقد اردت بهذا ان اؤكد كيف ان الكثير من سياراتنا وشاحناتنا قد حصلنا عليه من الاميركيين . لنتصور فقط كيف كنا نستطيع ان نزحف من ستالينغراد إلى برلين بدونها . ان خسارتنا كانت لتكون هائلة جداً ، اذ كنا نفتقر إلى القدرة على المناورة (١) .

وبالاضافة إلى ذلك لقد حصلنا على الفولاذ والالمينيوم الذي صنعنا منه طائراتنا وغير ذلك . اما صناعتنا الخاصة فقد كانت مشتتة وقد تخلينا عن بعضها للعدو . وتلقينا ايضاً منتجات من الطعام بكميات هائلة واني لا استطيع ان اذكر الارقام لانها لم تنشر قط وبقيت كلها محتجزة في ذاكرة ميكويان . وكانت هنالك نكات كثيرة تتردد في الجيش عن « السبام » الاميركي . ومع ذلك فقد كان لذيذ الطعم . ولولا « السبام » لما استطعنا ان نطعم جيشنا ، بعد ان خسرنا اكثر اراضينا الخصبة — وهي اوكرانيا والقوقاس .

واني لاكرر القول ان الحلفاء اعطونا هذه المساعدة لا بدافع الشفقة على شعبنا ولا بدافع الاحترام والتقدير لنظامنا السياسي ، ولا املا في انتصار الاشتراكية وفوز الماركسية — اللينينية . بل ان الحلفاء ساعدونا عن تقدير رصين للموقف . فقد كانوا يواجهون مسألة حياة وموت لهم ، فساعدونا لكي لا يسقط الجيش السوفياتي تحت ضربات المانيا الهتلرية وحتى نستطيع ، بعد ان نجهز باسلحة عصرية ،

(١) كانت الدبابات السوفياتية أفضل ما في العالم ، ولكن حتى ستالينغراد لم يكن لدى الجيش السوفياتي معدات نقل ميكانيكية . وقد تمكنت هذه الدبابات بفضل الشاحنات الاميركية والبريطانية من التقدم بسرعة في زحفها لتشتيت المدرعات الالمانية في كورسك ومنها إلى برلين وفيينا .

ان نسحق قوة العدو ونضعف انفسنا في الوقت ذاته . هم ارادوا ان يتريثوا في الاشتراك فعلياً في الحرب ضد المانيا إلى ان يجيء الوقت الذي يكون فيه الاتحاد السوفياتي قد انفق قوته ولم يعد قادراً على احتلال مكانة حاسمة في حل المشاكل العالمية .

٧

مجاعة في اوكرانيا

مرت المجاعة الاوكرانية الكبرى في ١٩٤٦–١٩٤٧ دون ان يعرف الغرب عنها شيئاً . ولم يشر إلى هذه المجاعة إلا في كانون ١٩٤٧ عندما أعلن اندريه جدانوف في إحدى خطبه العامة الأخيرة أنها نتجت عن أسوأ قحط في تاريخ اوكرانيا ، أسوأ حتى من قحط ١٨٩٠ . إلا ان هذه المجاعة الأخيرة لم تكن أسوأ من المجاعة التي سببتها سنوات التجميع الزراعي والتي لم يعترف بحصولها على الصعيد الرسمي حتى الآن . وصحيح ان المجاعة الاوكرانية الأخيرة سببها بصورة رئيسية القحط ، ولكنه القحط الذي كان يتفاعل مع حالة زراعية مخربة . وعند خروشوف ما يقوله هنا في نقص الطاقات البشرية في المزارع (ذلك ان الاتحاد السوفياتي كله لا اوكرانيا فحسب جابه حالة نقص في الرجال المؤهلين للاعمال الزراعية في كل المزارع الجماعية ، حيث حل النساء والأطفال والمتقدمون في السن محل الرجال. وكان هؤلاء يعملون بادوات بدائية).لقد بلغ الخراب الذي خلفته الحرب حداً ان مجموع سكان اوكرانيا وروسيا البيضاء (بيلوروسيا) كانوا يعيشون في حفر من الارض رفعوا فوقها السقوف بصورة مرتجلة .

تلك كانت خلفية ولاية خروشوف الثانية كنائب ستالين في اوكرانيا . وان وصفه لحالة الجوع وما صاحبها من توحش بلغ حد افتراس البشر أحياناً ، أبعد ما يكون عن المبالغة بل يقدم فكرة باهتة عن حالة خربة . الا ان ثمة جانباً اسهم في تفشي المجاعة، ويتستر خروشوف عليه فلا يذكره : ان عملية تشريك الأرض والتجميع الزراعي انهارت في ظل الاحتلال الالماني وكانت أحدى مهام الحزب السوفياتي فرضها مجدداً ، فاندلعت مقاومة عنيفة اشترك فيها مع الفلاحين مدراء المزارع انفسهم الذين كانوا في حالات كثيرة قد أغضوا عن استملاكات فردية للارض الجماعية مقابل بعض المكاسب

لا نفسهم . تلك هي الحالة التي واجهت خروشوف ولم يكن سريعاً في مواجهتها. ويبدو انه واجه متاعب في تلك المرحلة فأرسل كاغانوفيتش بالذات من موسكو ليكون رئيسه وليقوم باعادة التجميع الزراعي متوسلا كل الاساليب التي لا ترحم . واننا نقع هنا على لمحة عن كفاح خروشوف دفاعاً عن الاوكرانيين ضد الدولة على حد تعبيره (ويعني بها حكومة موسكو التي كان عضواً فيها) . وإلى حد ما ، كان ما يجري إعادة لما حصل في الثلاثينات اي تجويع الفلاحين لا طعام المدن . غير ان خروشوف هذه المرة كان كمن يقف بين نارين . فمن جهة هو مسؤول عن خير أوكرانيا ، ومن جهة أخرى قد عهد اليه بتنفيذ أوامر ستالين . وسنعاين هنا كيف ولدت هذه الاوامر ، كما سنشاهد عن كثب لقطات عن المكائد الشخصية بين أقرب المقربين إلى ستالين في موسكو . وان الشجار الكبير حول قمح الربيع ضد قمح الشتاء ، وحول الحراثة على السطح أو في العمق ، ، لم يكن الا جزءاً من الشجارات بين الافراد الذين ، كالعادة ، يتذرعون بأي شأن تقني أو تفصيلي ليحولوه سلاحاً في حربهم الدائمة ثم يضربون على الاوتار الحساسة عند ستالين ليحرضوه على منافسيهم . وكان مالنكوف وافر النشاط في كل هذه المجالات (ان خروشوف لا يذكر ذلك ،إلا أن مالنكوف كان قد أرسل للشروع في إعادة تعمير أوكرانيا بينما كان الالمان يتراجعون إلى الوراء وبينما لم يزل خروشوف في قيادة الجبهة).

ما ان تحررت اوكرانيا من الغزاة الهتلريين في ١٩٤٤ حتى بذلت كل طاقتي لاعادة تنظيم الحزب وبناء الاقتصاد . وكان كل الرجال المقتدرين جسدياً قد عبئوا في الجيش . وكان الجيش الاحمر كلما شق طريقه إلى الامام عبر المعارك ، يدعم صفوفه بالرجال الذين كانوا في الارض المحتلة ، ولم يكن المجندون من المناطق المحتلة بحاجة إلى ايضاح مهمتهم ولا إلى ارشادهم إلى واجبهم في الالتحاق بصفوف الجيش السوفياتي لمقاتلة المانيا الهتلرية .

وعهد بمهمة اعادة بناء اقتصاد الشعب في اوكرانيا ، لاسيما في الزراعة ، إلى الذين تخلفوا عن اللحاق بتقدم الجيش الاحمر من المتقدمين بالسن، والذين في طور النقاهة ، وغير الصالحين للخدمة العسكرية ولاسيما النساء . وقد اعفي من الخدمة العسكرية بعض المهندسين وعمال المناجم والعمال الصناعيين . والذين عبئوا للصناعة ، وبينهم العديد من الفتيات ، لبوا الدعوة طوعاً . وكان حماسهم مفهوماً ، فمن ناحية جذبتهم الوطنية إلى خدمة القضية ، كذلك كان للتحريض والاعلام الحزبيين دورهما في التوكيد على اعادة بناء الصناعة على انه هو طريق الخلاص الاوحد من الكارثة الاقتصادية ، بل الطريق الاوحد لرفع مستوى معيشة الشعب .

ومن ناحية اخرى ، فان المناطق التي اعيدت اليها الصناعة كانت تتوفر فيها اسباب العيش افضل من المناطق الزراعية . فالطعام كان متوفراً في المدن اكثر منه في القرى. وقد اعيدت في دونباس مناجم الفحم وصناعات الصلب والصناعات المحلية إلى سابق عهدها . وجرت عملية اعادة البناء بسرعة . كان مذهلا مشاهدة التعاضد الذي اظهره الشعب وكيف فهم ضرورة وضع كل طاقته لبناء الصناعة والزراعة . وكان لسياسات لينين الحكيمة والمستشرفة التي اقامها بعد ثورة اكتوبر الفضل العميم في شفاء الروس والاوكرانيين من العداءات القومية التي كانت بينهم . ان اجيالا تمضي قبل استئصال كل شرور الماضي . الا ان الهدف الاساسي قد تحقق فعلا . فالشعب — العمال والفلاحون والمثقفون — جميعهم ادرك ان بالوحدة نستطيع ان نكون اقوياء ونحقق النمو المادي والثقافي .

ان الحرب قد وحدتنا مرة وإلى الابد وبددت آمال اعدائنا في ان نتمزق تحت ضغطها الثقيل . وبعد ان وضعت الحرب اوزارها وخمدت نشوة النصر واحتفالاته ، عاد العمال إلى المصانع والمناجم والمزارع الجماعية وشرعوا يعملون بخطوات اسرع في انجاز العمل .

غير ان ١٩٤٦ كان عام جفاف مفرط ، فعانت زراعة اوكرانيا كثيراً وكنا نتوقع حصاداً فقيراً . وادى إلى ذلك بصورة محتمة تجمع ظروف مناخية قاسية مع تخلف اساليبنا عن التقنية الحديثة في الزراعة . كنا نفتقر إلى البغال والخيول ، كما ان تنظيمنا للطاقة البشرية كان لم يزل ضعيفاً جداً . كان الرجال يعودون من الحرب مستعدين للعمل ، ولكن لم يجد أحد منهم مكانه اللائق . وبعد غيبة طويلة لم يعد بعض الافراد صالحين للعمل في المزارع وبعضهم لم يكن مؤهلا لذلك حتى من قبل (١) .

اتخذت جميع التدابير لتوفير كمية كافية من الحنطة للدولة . ولا بد من القول بان عمال المزارع الاوكرانية الجماعية فهموا واجبهم . وقد بذلوا كل جهودهم لتأمين الخبز لسائر انحاء البلاد وقد عانوا هم انفسهم من المجاعة بينما كان الالمان

(١) ضاعفت من حدة هذه الحال عوامل عديدة : خسائر الحرب المروعة التي بلغت عشرين مليوناً ، أكثرهم من المقتدرين جسدياً ، ثم الحاجة اليائسة إلى الرجال لاعادة بناء المصانع والعمل فيها ، ثم سياسة ستالين المتعمدة في إقصاء الجنود عن مساقط رؤوسهم حتى لا يؤدي عملهم هناك إلى نشر التذمر والشكوى بين أهليهم إذا ما تحدثوا عن مستويات المعيشة الأفضل في الغرب . وانه يصعب عليهم التحدث بيسر مع الغرباء في المناطق الا خرى .

يحتلون بلادهم، وعرفوا معنى عدم توفر الخبز وفهموا ان الصناعة الثقيلة لا تعود الا بالخير . والأمر نفسه ينطبق على صناعة المناجم والصلب والصناعات الكيميائية .

فضلا عن هذا فقد كانت ثقة المزارعين الجماعيين في الحزب كبيرة . فبنتيجة الأمر تحقق الانتصار على الالمان بقيادة الحزب . وشاع شعور عام بين عمال المزارع الجماعية في اوكرانيا بوجوب الاسهام في حفظ سلامة البلاد باسرها عن طريق توفير المحاصيل الزراعية الضرورية .

كان علينا ان نوفر المؤن للدولة اولا ولانفسنا ثانياً . وكان قد تقررت لنا خطة انتاج بمقدار ٧٠٢ ملايين الاطنان لسنة ١٩٤٦ . وهذه الحصة كانت قد تقررت تعسفاً رغم انها نشرت في الصحف مدعومة بتفاصيل علمية . لم تحسب على اساس طاقتنا في الانتاج بل على اساس ما اعتبرت الدولة وجوب تحصيله منا . وكان نظام الكوتا هذا في الحقيقة يقوم على المصادرة . ووجدت اننا مهددون في ذلك العام بكارثة . وكان من الصعب التكهن عن كيفية انتهائه . كنت اتلقى رسائل مفجعة تكسر القلب من عمال المزارع الجماعية ومن مديريها . واني لاذكر احداها وهي صادرة عن رئيس احدى المزارع الجماعية الذي كتب لي : « حسناً ، ايها الرفيق خروشوف ، لقد سلمنا الدولة الكوتا المطلوبة . ولكننا اعطيناها كل الموسم بحيث لم يبق لنا شيء منه . واننا واثقون من ان الدولة والحزب سيهبان لنجدتنا » . لعله اعتقد ان مصيرهم هو وقف علي اذ كنت رئيس مجلس مفوضي الشعب في اوكرانيا والسكرتير الأول للجنة المركزية الاوكرانية . وقد تخيل انه بما انني رئيس الدولة الاوكرانية استطيع معاونته . ولكنه كان يخدع نفسه ، ذلك انه لم يكن بامكاني صنع اي شيء بعد ان تتسلم الدولة الحنطة ، اذ تبطل عندها صلاحياتي في التصرف بها . بل كان علي انا شخصياً ان اتقدم بطلب خاص من الدولة لتزويدي بالقمح اذا شئت اطعام شعبي (١) .

وكنت اقدر سلفاً ان خطة انتاجنا لن تتحقق . فعينت لجنة من الخبراء الزراعيين والاقتصاديين برئاسة الرفيق ستارشينكو لوضع تقدير واقعي لامكانات انتاج الحنطة فتوصلت إلى رقم يتراوح بين الـ ١٠٠ و ٢٠٠ مليون بود

(١) في ١٩٣٨ ذهب خروشوف إلى اوكرانيا باعتباره رجل ستالين البطاش الكلي الطاعة . الا انه تبدل بسبب خبرته ابان الحرب فضلا عن تفهمه لالام الشعب وإمكاناته . وهنا يبدو مدافعاً عن الشعب ضد الدولة التي كان يمثلها .

(معيار روسي) . وهذا كان رقماً زهيداً اذ كانت اوكرانيا قبل الحرب تنتج ما يقارب ٥٠٠ مليون بود . وها هي الدولة تعين لنا ٤٠٠ مليون بود للخطة الانتاجية في ١٩٤٦ . ورأيت ان افضل السبل هي ان نواجه المشكلة بصدق . وانتابني شعور بانه اذا ما عرضت الوضع بصراحة على ستالين ودعمت تقريري بالوقائع والارقام ، فسيصدقني . وقد رغبت في ان افعل كل ما بوسعي لحمل ستالين على فهم وضعنا .

نجحت في الماضي مرات عديدة في اختراق الجدار البيروقراطي في موسكو وتوجهت رأساً إلى ستالين حول بعض القضايا . وعندما كنت استطيع عرض المواد المنتقاة بدقة واتباعها بتقدير منطقي للنتائج ، كان يدعمني ستالين .

وكان املي الكبير ان ابرهن عن صوابية رأيي هذه المرة ايضاً فيفهم ستالين ان طلبي ليس عملية تخريب ، ذلك ان هذا التعبير كان هو السائد لتبرير القمع ومصادرة المحاصيل من المزارع الجماعية . في هذه الحال ، سأقوم بمحاولة اقناع ستالين اننا عاجزون عن تأمين المحاصيل الزراعية التي نريدها او نحتاج اليها . كانت بلادنا بحاجة إلى هذه المحاصيل ، كما ان ستالين كان يريد ارسال الغذاء لبلدان اشتراكية اخرى، لاسيما الى بولونيا والمانيا اللتين كانتا عاجزتين عن الاستمرار دون مساعدتنا . وكان ستالين قد شرع في بناء محالفات دولية وأخذ في ارتداء عباءة قائد حملات عسكرية مقبلة . وكان سيسيئه جداً اذا ما سمع ان اوكرانيا لن تقدم الكوتا المقررة لها من المواد المفروض تسليمها للدولة فضلا عن انها هي بحاجة إلى حنطة من الدولة لغذاء شعبها .

على اي حال وجدت نفسي دون خيار في مواجهة ستالين بالحقائق : كانت المجاعة على الابواب ولا بد من صنع شيء لوقفها . واصدرت اوامري لاعداد وثيقة تعرض الحال لمجلس وزراء الاتحاد السوفياتي طلبت بموجبها ان تصدر الدولة بطاقات اعاشة تمكننا من تزويد سكان المزارع بكميات من المحاصيل وان ننظم سد حاجات الجائعين إلى الغذاء . وكنت اشك كثيراً بامكانات النجاح. وكنت متردداً في ارسال الوثيقة تلك إلى موسكو نظراً لمعرفتي بستالين ، وبقحته وطبائعه الشرسة . الا ان رفاقي اقنعوني وقالوا : « لقد رتبنا الامر بحيث اذا وجهت هذه الوثيقة إلى ستالين فانها لن تمسه هو شخصياً على الاطلاق ، انه لن يراها . لقد تحدثنا إلى كوسيغين وهو سيعطينا بطاقات الاعاشة. » . وكان كوسيغين يومها مسؤولا عن هذه القضايا (١) .

(١) أ.ن. كوسيغين رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي الحالي . كان في معظم أوقات=

ترددت طويلا ، ولكنني اخيراً وقعت الوثيقة . وعندما وصلت الوثيقة إلى موسكو لم يكن ستالين هناك ، اذ كان يقضي عطلته في سوخي . الا ان مالنكوف وبيريا اقتنصا الفرصة لاستغلال وثيقتي لخفض منزلتي في عيني ستالين . وبدل ان يقررا الأمر نيابة عن ستالين فقد ارسلاها اليه . وكانت كل الوثائق الرسمية الحكومية تتوجه إلى ستالين شخصياً الا انه لم يكن ينظر في اكثرها ، كما ان مراسيم حكومية عديدة لم تكن تحمل توقيعه . ولكن بفضل بيريا ومالنكوف ذهب هذا الطلب رأساً إلى ستالين في سوخي .

ووجه لي ستالين برقية جوابية تقطر قحة ومهانة ، فوصفني بالشخص المتردد الذي يكتب مذكرة ليبرهن عن عجز اوكرانيا عن الاكتفاء الذاتي ، وانني طلبت كمية فاضحة من بطاقات الاعاشة . اني لا استطيع ان اصف مبلغ الاذى الدامي الذي خلفته هذه البرقية في نفسي . لقد تراءت لي المأساة كاملة تحوم لا حولي شخصياً فحسب ، بل حول الشعب الاوكراني كله . ان المجاعة باتت الآن محتومة . لقد بدد رد فعل ستالين آخر الامال في امكان تجنبها .

عاد ستالين من سوخي وذهبت فوراً من كييف إلى موسكو لمقابلته . وكنت قد هيأت نفسي لاعنف تأنيب يتخيله انسان . وقد ينتهي بي الأمر إلى محاكمة كعدو للشعب وفي طرفة عين قد القى في لوبيانكا (مركز قيادة البوليس السري وسجنها في قلب موسكو) .

واعلمت ستالين بالجهود الكبرى التي بذلتها في وضع مذكرتي لاعكس بدقة الحالة في اوكرانيا . واصررت على ان اوكرانيا بالفعل هي بحاجة إلى مساعدة . وقد زادت حججي التي ادليت بها في غضبه . فرفض كلياً طلبنا للحصول على بطاقات الاعاشة .

وكانت المجاعة ، كما توقعت من قبل ، قد بدأت . وسرعان ما اخذت اتلقى الرسائل والتقارير الرسمية عن الوفيات. ثم بدأ أكل البشر. اذ تلقيت تقريراً انه وجد رأس بشري وبقايا قدم تحت جسر صغير قرب فاسيلكوفو وهي بلدة خارج كييف . ومن الواضح ان الجسد قد التهم . وحصلت حوادث مشابهة . واخبرني كيريشنكو (١) الذي كان يوماً سكرتيراً للجنة

=الحرب مسؤولا عن التنسيق بين مختلف صناعات الأغذية فضلا عن الصناعات الخفيفة المتوفرة حينئذ .

(١) أ.ا. كيريشنكو أحد أعوان خروشوف في جهاز الحزب الا و كراني قبل الحرب . كان جنرالا في المجالس العسكرية على مختلف الجبهات ابان الحرب. وقد خلف=

الاقليمية في اوديسا انه ذهب إلى مزرعة جماعية للتحقيق في كيف استطاع الناس الاستمرار في الشتاء وقيل له ان يذهب لمشاهدة امرأة تعمل هناك . وهاكم وصفه تلك الحالة : « « طالعني مشهد مرعب ، كانت المرأة، قد وضعت جثة ولدها على المائدة واخذت تقطعها ، وهي تهذي قائلة سبق ان اكلنا مانيشكا (ماريا الصغيرة) ، والان سنملح فانيشكا(ايفان الصغير) . وهذا يقوتنا لبعض الوقت » . فهل بالامكان تخيل حدود المأساة ؟ لقد خبل الجوع عقل هذه المرأة فذبحت اطفالها . انني اذ اروي هذه القصة تعود خواطري إلى تلك الفترة واستطيع ان اتخيل في ذهني ذلك المشهد المروع . ولم يكن لي حول ولا قوة بل رفعت هذه الاحداث لستالين الذي تفاقم غضبه أكثر . كان يقول : « انك لين العريكة وهم يخدعونك . انهم يعتمدون على اثارة عاطفتك عندما يزودونك بمثل هذه التقارير . انهم يحاولون ارغامك على اعطائهم كل الاحتياطي » . وكان جلياً ان لستالين اقنية تتخطاني يستقي منها معلوماته ويثق بها أكثر من تقاريري .

واخذ بعض الناس يشيعون بانني واقع تحت فعل التأثيرات الاوكرانية المحلية وتحت ضغط مصالح الفئات الاوكرانية ، بل انني قد اصبحت اوكرانيا قومياً بالذات . وكان بعض الناس يقول بانني لم اعد استحق الثقة الكاملة . وأخذ ستالين ينظر إلى تقاريري ببعض الحذر المألوف عنده ، ولكن من اين كان يستقي معلوماته ؟ من التشيكا دون ريب . كانوا يتجولون في البلاد ويرفعون التقارير إلى اللجنة المركزية . وقد تسربت بعض هذه المعلومات إلى ستالين نفسه . وكان الناس عادة يخشون اعطاء ستالين المعلومات لأنهم كانوا يعلمون ان التقارير المثبطة للعزائم لا تسره فيعرضون انفسهم للمتاعب . كان ستالين يحب ان يعتقد ان البلاد مزدهرة . كان يريد ان يعتقد ، كما قال مرة تاراس شيفشينكو (الشاعر الاوكراني من القرن التاسع عشر) : « من ارض المولدافيانيين إلى ارض الفنلنديين كانت الالسنة كلها صامتة لأن الازمنة جيدة » . الفارق الوحيد ان شيفشينكو كان يكتب ابان حكم نيقولا الأول ، بينما نحن الآن في ظل حكم جوزيف الأول .

وطرح ستالين مسألة الدعوة إلى اجتماع اللجنة المركزية بكامل هيئتها لبحث الموضوع الزراعي . ولا اذكر منذ متى عقد آخر اجتماع من هذا النوع ، بعد ان

=خروشوف كسكرتير أول لا وكرانيا في أواخر ١٩٤٩ ثم استدعاه خروشوف إلى موسكو في ١٩٥٧ واعتبر ساعده الايمن في هزيمة الفئة المضادة للحزب . ولكن في ١٩٦٠ سقط فجأة من سدة السلطة والثقة دون أن تكشف الا سباب حتى الآن .

كانت تعقد الاجتماعات في اواخر الثلاثينات اولا لبحث النضال ضد اعداء الشعب ، ثم لبحث الافراطات التي سمح بها ابان الكفاح ضد اعداء الشعب . في ذلك الزمن لعب ستالين دور مكافح صالح ضد افراطات كان هو قد بادر إلى اطلاقها بنفسه . وها ستالين الآن يطرح مسألة عقد اجتماع لبحث كيفية رفع قدرة زراعتنا على الانتاج . وطرحت مسألة من سيلقي التقرير العام في هذا الاجتماع . أهل يلقيه مالنكوف ؟ فهو المسؤول عن القضايا الزراعية ، ولكن اي نوع من التقارير بامكانه ان يقدم ؟ انه لا يعرف حتى البديهيات في الزراعة . حتى انه لا يعرف التعابير الزراعية . وكان ستالين يكرر هذه التساؤلات بحضور مالنكوف . وكان محقاً كلياً في هذا الصدد ، الا ان المدهش ان يكون ستالين نفسه قد سبق له ان عين مالنكوف مسؤولا عن الزراعة ، وهو يعرف انه غير صالح لهذا النوع من العمل . انها لمفارقة مثيرة للاهتمام لم استطع ان اجد لها تعليلا . الا ان كل شيء ممكن عند ستالين .

وفجأة قال لي ستالين : « قدم انت التقرير العام » . فارعبني ذلك فقلت له : « ايها الرفيق ستالين ، ارجوك ان تعفيني من هذه المهمة » .

ــ ولم لا ؟

ــ ان بامكاني القاء تقرير عن اوكرانيا . فقد عنيت بأمرها على مدى سنوات ، حتى بت ملماً بعض الشيء باحوالها . الا انني اجهل جهلا مطبقاً احوال الزراعة في الاتحاد السوفياتي ، وليس عندي ادنى فكرة عن سيبيريا . ثم انني لم اشهد القطن قط حتى انني لا اعرف كيف ينمو . وفي الواقع لم اكن قبل ذهابي إلى اوكرانيا ، اعرف اي شيء له صلة بالزراعة . فانا صناعي ، كان اهتمامي ينصب على الصناعة وادارة المدينة .

غير ان ستالين بقي مصراً : « هذا لا يهم . فانت ستضع التقرير العام على اي حال » .

قلت : « كلا ايها الرفيق ستالين ، ارجوك اعفائي من هذا . فانا لا ارغب في تضليل اللجنة المركزية ، كما انني لا اود ان اضع نفسي في موضع بلاهة اذ اتكلم عن مواضيع لا افهمها » .

وهنا فكر ستالين بضع دقائق ثم قال : « حسناً ، سنعين اندرييف (1)

(1) أ.أ. أندرييف كان أحد أعوان ستالين المتقدمين في صعوده إلى السلطة وكان بلشفياً منذ ١٩١٤ وعضواً في المكتب السياسي منذ ١٩٣٢ ، وكان شخصية تنظيمية لا لون ولا معالم له وكان يتدخل في كل صغيرة وكبيرة=

لوضع التقرير » . وكان اندرييف قد اشتهر على انه خبير الحزب الزراعي . وكان اكثراعضاء المكتب السياسي علماً في حقل الزراعة الا ان معرفته هذه لم يكن لها في نفسي الانطباع الحسن . كنت واثقاً ان تقريره سيكون كناية عن جمع ما يقدمه له الخبراء في تقاريرهم . على اي حال لم يكن بالامكان اقتراح اسم واكتفيت بان يعبر عني هذا الكأس .

وعين اندريه اندرييفيتش اندرييف خطيباً في اجتماع اللجنة المركزية . وانعقد الاجتماع في قاعة سفيردلوف في الكرملين . وجاء تقرير اندريه اندرييفيتش متناسقا ومنطقياً ، كما كانت كل تقاريره في الأصل . وكنت اجلس إلى جانب ستالين ولاحظت انه يصغي بانتباه . وخلال الاستراحة ذهبنا إلى الردهة حيث كان يجتمع اعضاء المكتب السياسي لتناول المرطبات . وجلسنا إلى مائدة ، وبينما كان يقدم لنا الشاي سألني ستالين : « ما رأيك بتقرير اندرييف ؟ »

فقلت : « انه دون ريب يلقي ضوءاً على المشكلات كلها . »

فقال : « لكنك كنت تجلس بلا مبالاة مطلقة لما يقول ، كنت ارقبك . »

فقلت : « اذا شئت الصراحة ، ففي اعتقادي ان هذه المشكلات كان مفروضاً معالجتها من زاوية مختلفة . لقد طرق مختلف القضايا باسلوب شكلي مفتقر إلى الاصالة » .

وهنا اهتاج ستالين وصاح « انك ترفض اولا القاء التقرير بنفسك ، والان توجه النقد » . والحقيقة انني لم أكن ارغب في انتقاد التقرير ، خصوصاً وانني اعتذرت عن القائه . الا انني على اي حال قد نقلت إلى ستالين بصدق ما اعتقده من ان اندرييف قدم ما يمكن وصفه بتقرير من الدرجة الثانية . وقد ادركت ان ذلك قد اثار ستالين ضدي بشكل واضح .

وبعد انقضاء فترة الاستراحة شرعنا نبحث وناقش التقرير ، فتكلم العديد من الخطباء ، وكنت احدهم . وطرقت موضوع ترميم الاقتصاد في اوكرانيا فقلت انني اعتبر مسألة التحديث الآلي للزراعة والبذار هما المسألتان الرئيسيتان .

وكان قد صدر مرسوم قبل هذا الاجتماع اشتمل على الوصية الأولى للعامل في المزرعة الجماعية : ان التزامه الاول هو تلبية كوتا الانتاج وتقديم المطلوب

=ويتابعها دون هوادة لمصلحة ستالين . في ١٩٤٣ عين مسؤولا عن الزراعة. ولكنه استحق غضب ستالين في ١٩٥٠ بسبب الخلا ف على شؤون تقنية في الزراعة الا انه استطاع الاستمرار حتى اعاده مالنكوف لفترة . وأصبح خروشوف في ١٩٥٠ الناطق الرسمي بالشؤون الزراعية السوفياتية .

إلى الدولة ، وبعد ذلك ، يستطيع تزويد زملائه العمال في المزرعة الجماعية بحاجاتهم من البذور والمحاصيل الاخرى . وكنت اعتقد ان هذه الوصية الأولى، وهي من بنات افكار ستالين دون ريب ، يجب الغاؤها ، بحيث تتأمن كمية من الحبوب للبذار في المزرعة قبل تقديم الحنطة للدولة .

كان الفلاح في الزمن القديم يتضور جوعاً ولا يأكل الحنطة التي احتفظ بها للبذار . اذ ان بذاره كان مستقبله ، كان كل حياة مزرعته . فكيف ننتزعه منه ؟ ولم يكن يأبه لكون الدولة مسؤولة عن التعويض عليه بحبوب جديدة للبذار ، اذ لم تكن لديه وسيلة لمعرفة مصادر البذار اذا تعذر توفيره . كانت الدولة تريد المزارعين ان يزرعوا حقولهم ببذار غير معروف وقد لا يناسب الاقليم . وهذا الاسلوب لم يكن اسلوباً سليماً لتدبر أمر الزراعة .

وكان ان ادت ملاحظاتي اثناء مناقشة تقرير اندرييف إلى اثارة ستالين علي أكثر . وانعقدت فوقي غمامة اشد اكفهراراً بعد خطبة مالتسيف ، وكان مزارعاً مجرباً ذا خبرة واسعة ، وقد أحسن ادارة زراعة الاورال (١) . وفي خطبته قال بان كل شيء يسير على ما يرام في الاورال وانهم سيحصلون على موسم ممتاز من قمح الربيع . وما ان ذكر مالتسيف حنطة الربيع ، حتى ادركت ان متاعبي ازدادت عما سبق . وادركت ان ستالين لن يتوقف عند دراسة التفاصيل ، ولكنه سيتناول موضوع حنطة الربيع ويلقيه في وجهي . وكان قد سبق لي ان اعلنت رفضي لزرع قمح الربيع وفق قواعد ارغامية جامدة . ذلك ان قمح الربيع كان محصوله ضئيلا في اوكرانيا ، لاسيما في الجنوب بينما كان حصاده جيداً في بعض المزارع الجماعية . من هنا كان رأيي ان يترك الامر اختيارياً للمزارع الاوكرانية الجماعية فلا يصدر أمر اليها من موسكو له صفة الارغام والشمول . غير ان ستالين لم يكن يفهم ذلك واصم اذنيه عن اي شيء بهذا الصدد . وكنت قد اعلمته بمشكلتي مع قمح الربيع قبل الحرب . ويومها وافقني على رأيي واصدر قراراً اعفى بموجبه المزارع الجماعية الاوكرانية من زراعة قمح الربيع بصورة الزامية .

وما ان وصلنا إلى غرفة الاستراحة حتى تلقفني ستالين بمكر لاذع قائلا : « هل سمعت ما قاله مالتسيف حول قمح الربيع ؟ »

---

(١) ت.س. مالتسيف خبير زراعي موهوب ونشيط وذو صلات حزبية قوية . وقد برز في مقدمة المحاولات التجريبية التي جرت لزيادة الانتاجية ، وبعضها كان حسناً وبعضها الآخر سيئاً .

— نعم ، ولكن ايها الرفيق ستالين كان مالتسيف يتكلم عن الاورال ، بينما موسمنا الأكثر محصولا في اوكرانيا هو قمح الشتاء . في الاورال لا يبذرون قمح الشتاء على الاطلاق ، ويقتصر بذارهم على قمح الربيع . انها مسألة مدروسة عندهم . ولذلك فهم يعرفون كيف يزرعونه وكيف يحصدونه بربح .

— هذا لا يهم . فاذا كانوا في الاورال يعرفون كيف يحصلون على موسم جيد من قمح الربيع ، واذا كنا نحن (وربت على بطنه) نملك مثل هذه الارض الغنية السمراء ، فان بمقدورنا الحصول على موسم أفضل . لا بد من اتخاذ قرار بهذا الصدد .

— اذا شئت اتخاذ قرار بهذا الشأن فدونك ذلك ، ولكن بامكانك ان تسجل معارضتي . الجميع يعرفون انني ضد قمح الربيع . و لكن اذا شئت ذلك ، اصدر قراراً يشمل شمالي القوقاس وأقليم روستوف .

— كلا ، فالقرار سيطبق مباشرة عليكم .

وبهذا كان ستالين يعني انه يريد ان نأخذ المبادرة حتى تقتفي المناطق الاخرى اثار تجربتنا (١).

وجرى تأليف لجنة رئسها اندريه اندرييفيتش . وعينت انا عضواً فيها . وعندما انتهى اجتماع اللجنة المركزية الموسع كان علي العودة إلى اوكرانيا . ولم تكن اللجنة بعد قد فرغت من عملها ، فترك كل من مالنكوف واندريه اندرييفيتش للعمل على صوغ القرار الذي اراده ستالين . الا انني قبيل مغادرتي موسكو اقترحت ان توصي اللجنة بالغاء الوصية الأولى لعمال المزارع الجماعية واقترحت ان يتوازى تخزين البذور للمزارع الجماعية مع تسليم الحنطة للدولة في نسبة معينة . وكان هذا تنازلا من قبلي ولكنني اعتقدت ان ذلك افضل من عدم احداث اي تغيير البتة . ذلك ان الساري كان هو ان الدولة لم تكن تترك اي شيء على الاطلاق للمزارعين . اما وفقاً لاقتراحي فعلى المزارعين تسليم نسبة معينة من حنطتهم للدولة مع الاحتفاظ بنسبة معينة لمخازن بذورهم .

ثم غادرت موسكو إلى كييف . واتصل مالنكوف بي هاتفياً بعد بضعة ايام

---

(١) ان مسرحية حنطة الربيع ضد حنطة الشتاء كان من خصائص تدخلات ستالين في القضايا التقنية التي كان يجهلها جهلا مطبقاً . وكان يعجز عن ادراك ان ما ينفع زرعه في الاورال لا ينفع في اوكرانيا . ومن الغريب أن يكون خروشوف نفسه قد وقع في الخطأ نفسه عندما أصر في سنوات لاحقة على زراعة الذرة ، بصرف النظر عن تنوع الظروف المحلية .

قائلا : « ان القرار جاهز ولم نضمنه اقتراحك بما يتعلق بتخزين البذور للمزارع الجماعية ومزارع الدولة . ونحن الآن سنرفع الأمر لستالين . هل تود ان نرفع اقتراحك على حدة ؟ ام الافضل ان لا نأتي على ذكره اطلاقاً ؟ »

هذا الاسلوب كان يتضمن الاستفزاز بكل وضوح . فالكل يعلم ، وستالين كذلك يعلم ، انني كافحت بضراوة في سبيل اقتراحي في جلسات اللجنة والان اذا قلت لمالنكوف ان لا يذكر اقتراحي لستالين فسأبدو جباناً . من هنا جاء جوابي لمالنكوف : « كلا ، ايها الرفيق مالنكوف ، ارجو ان تمضي برفع وجهة نظري إلى الرفيق ستالين » .

وهكذا رفعوا رأيي لستالين . ولم يمض وقت طويل حتى عاود مالنكوف الاتصال بي ليعلمني ان اقتراحي اغضب ستالين الذي رفضه على الفور .

وكانت الخطوة التالية ان ستالين طرح موضوع نوعية المساعدة التي يجب ان اتلقاها في اوكرانيا (١) وهذا يعني ان عينه تراقبني . وقال : « من الواضح ان علينا دعم قيادة خروشوف في اوكرانيا ...ان اوكرانيا تسير إلى الخراب وهذا يقود إلى كارثة تنزل ببلادنا كلها » . وبدا انه مصمم على شيء ما . ولكنني لم أكن متأكداً مما يرمي اليه . ثم قال : « اعتقد ان من الافضل ارسال كاغانوفيتش لمساعدتك . ما رأيك في هذا التدبير ؟ »

فوافقت . وكان كاغانوفيتش شغل في الماضي مركز سكرتير اللجنة المركزية في اوكرانيا وهو يعرف البلاد حق المعرفة .

ثم قال ستالين ومن الطبيعي انه نظراً لضخامةجمهورية اوكرانيا ومساحتها فهي تتسع للعشرات او المئات من العاملين فيهاوليس لاثنين فحسب . « وسنرسل باتوليشيف لمعاونتك ايضاً » .

فاجبت : « من كل بد . هذا يكون امراً حسناً » . فسجل القرار ونشر .

واقترح ستالين فصل وظيفة رئيس مجلس الوزراء في اوكرانيا عن مسؤولية السكرتير الأول للجنة المركزية . وقبل بضع سنوات ، عندما اندمج هذان المنصبان بناء على اقتراح ستالين حاولت اقناعه بعدم جدوى هذا التدبير . اما الآن فقد قال ستالين : « يتولى خروشوف رئاسة مجلس مفوضي اوكرانيا ، وكاغانوفيتش منصب السكرتير الأول للجنة المركزية ، وباتوليشيف مهمة سكرتير للجنة المركزية

(١) عندما كان ستالين يقترح وجوب «مساعدة» أحد الموظفين ، كان ذلك يعني أنه في الطريق استبداله .

ويكون مسؤولا عن الشؤون الزراعية » (١) .

وابديت استحساني . وعقدنا اجتماعاً للجنة المركزية بكامل اعضائها في اوكرانيا وصادقنا على قرار ستالين . وذهب كل منا إلى مركزه وباشر القيام بواجباته . وقلت لكاغانوفيتش وباتوليشيف : « علينا الاستعداد لموسم البذار ، ان الناس يموتون جوعاً ، وان أكل البشر قد شاع ، واذا لم ننظم الاغاثة من المجاعة ، لا معنى للكلام عن حملة البذار » .

وكنا نخشى ان يكون الوقت قد داهمنا في مسعانا لتأمين موسم جيد في ١٩٤٧ ولزرع بذار موسم ١٩٤٨ . وطلبنا معونة ستالين فارسل الينا كمية معينة من البذور والمواد الغذائية المقننة من موسكو . وكان الوقت في شهر شباط وقد بدأ البذار في بعض الاماكن من الجنوب . وما ان يأتي آذار حتى تكون مزارع جماعية عديدة في طول البلاد وعرضها قد اخذت تزرع بذارها . وكان علينا ان ننتهي بحملة بذار في نيسان كثيفة في اقليم كييف .

وقلت لكاغانوفيتش « يجب الوصول إلى قرار حول ما نعتزم فعله » . فاجاب : « علينا القيام بجولة في اوكرانيا » . فقلت : « نعم ، ولكن ليس هذا بالامر الأكثر الحاحاً الان . غبت انت عن اوكرانيا مدة طويلة ولذلك من الخير ان تقوم بجولة فيها . اما انا فابقى في كييف . ففي الوقت الحاضر لا يعود ظهوري في عدد من المزارع الجماعية بالخير المرتجى . ان الامر الرئيسي هو التعجيل بارسال المخصص من البذور بواسطة السكك الحديدية إلى المزارع حيث الحاجة ماسة اليها . وان نجاح حملة البذار يتوقف على انجاز هذا العمل » . وهكذا غادر كاغانوفيتش كييف وبقيت انا فيها اقوم بعمل موزع المكالمات الهاتفية في محاولتي توزيع حاجات الموسم من البذار والوقود وما اليها . ولم يخطر على بالنا توفير السماد المعدني نظراً لافتقارنا اليه اصلا .

وقام كاغانوفيتش برحلة إلى اقليم بولتافا . وقد اقنعه ما شاهده هناك بان

(١) هذه احدى ادهى نكسات خروشوف . ومعناها الوحيد انه كان في طريق انحداره السريع . فباتوليشيف ، رغم ان خروشوف لا يذكر ذلك ، كان من اتباع مالنكوف ، فجاء تعيينه يزيد في احراج خروشوف . ومن الصدف ان باتوليشيف هذا كان هو مدير مصنع المطاط في ياروسلا فل الذي يشير اليه خروشوف في الفصل الرابع . وقد سقط من الحظوة بعد تعيينه في اوكرانيا لفترة ثم عاد إلى السلطة في ١٩٥٠ عندما أصبح السكرتير الاول للحزب الشيوعي في بيلوروسيا . وقد استمر حتى بعد خسوف مالنكوف في ١٩٥٧ وأصبح وزيراً للتجارة الخارجية في ١٩٥٨ .

مسؤوليته كسكرتير اول ستسبغ عليه من الشرف بقدر ما ستلقي عليه من مسؤوليات خطيرة . فقد شاهد المزارعين الجماعيين وكأنما الرياح تقتلعهم من كل صوب . فهم لا يستطيعون العمل والعديد منهم كانوا يموتون جوعاً ، وبعد عودته إلى كييف فاتحني بانطباعاته عن احدى المزارع الجماعية بصورة خاصة . فأخبرني عن رئيسها واسمه موجيلشينكو ، قال : « انني لم اقابل شبيهاً له من قبل ». ومضى كاغانوفيتش يقول : « انه مفرط في عناده ومقته . ولكنني اخشى ان يحصل على حصاد جيد رغم كل شيء » .

وسألته : « وما شأننا بذلك ؟ » فاجاب : « حسناً ، عندما وصلت إلى مزرعة موجيلشينكو الجماعية وجدتهم يستخدمون اسلوب الحرث السطحي . ولما سألته لماذا ، اجاب بانه انما يحرث حسب الاسلوب المفروض اتباعه » .

وهنا رد عليه كاغانوفيتش « اذا بقيت على اسلوبك هذا تنتهي بطلب خبزك من الدولة » . فقال « لست انا من يفعل ذلك ايها الرفيق كاغانوفيتش ، كلا ، لا افعل ذلك على الاطلاق . انني لم اسأل الدولة قط ان تعطيني خبزاً . بل انا نفسي اعطي الدولة الخبز . وفضلا عن ذلك فانني لا آبه اذا كنت انت السكرتير الأول للحزب ، بل سأبقى أحرث الارض معتمداً هذا الاسلوب **اياً** كان رأيك » .

وفي السنة التالية قمت برحلة خاصة لمقابلة موجيلشينكو . وكانت مزرعته الجماعية احدى اكثر مزارع البلاد ازدهاراً . كانت تقدم الحصة المفروضة عليها من الكوتا إلى الدولة قبل ستة اشهر من الموعد المضروب ، وقد ازعج هذا كاغانوفيتش كثيراً . وهذا يفسر قوله لي « اخشى ان يحصل موجيلشينكو هذا على موسم جيد باستخدامه الحرث السطحي . »

ولا يفوتني ان اذكر انه كان لكاغانوفيتش غرض شخصي في تسفيه موجيلشينكو ، ذلك لانه كان مشتركاً في مكافحة اسلوب الحرث السطحي . وكان يتعرض الذين يستخدمون هذا الاسلوب للمحاكمة وفي بعض الحالات للاعدام . فقد اعلن اسلوب الحراثة ذاك « ضد القانون » . والنظرية المبررة لهذا التصرف استنبطها في ساراتوف استاذ لم يلبث ان عوقب هو بالذات . واعتقد ان مصيره كان السجن او ما هو اسوأ (١) .

واخذ كاغانوفيتش ، منذ بدء نشاطاته في اوكرانيا ، يتحين الفرص للبروز وليلقي بظله حولنا . وراوده ان يتفوق على الآخرين بدفع اوكرانيا حتى تتجاوز خطة الانتاج المقررة لها ، خصوصاً في الصناعات المحلية .

(١) مثل آخر على ما كانت تتسبب به الخلافات حول الممارسة الزراعية من متاعب .

اذكر انني في احدى السنوات كان علي بوصفي رئيساً لمجلس وزراء اوكرانيا ان اعرض على المكتب السياسي الاوكراني ارقام اهدافنا التي اقترحتها لجنة تخطيط الدولة ، فكان ان تردد كاغانوفيتش كثيراً قبل الموافقة عليها . وكان يعتقد ان الارقام عالية جداً ومحتم ان تقودنا إلى الفشل ، ولم يكن يرغب في قبول خطة انتاج لا نستطيع انجازها . بل كان يريد خطة نستطيع تجاوزها . ذلك انه من الاسهل وضع ارقام ادنى في الخطة ثم الايضاح فيما بعد عن كيف تحققت الخطة بل وتجووزت . ومن سوء الحظ ان هذه وسيلة شائعة جداً . واعتقد انها لم تزل تستخدم على نطاق واسع حتى الساعة .

في هذه الفترة تعثرت بحظ سيء ، فقد اصابني رشح تطور إلى التهاب رئوي . وكان علي ان امكث فترة طويلة في خيمة الاوكسجين . وسنحت الفرصة لكاغانوفيتش ، وانا طريح الفراش ، ان يفعل ما يحلو له دون مراقبتي . واستأسد على باتوليشيف إلى حد ان جاء هذا الاخير إلي وانا لما ازل طريح الفراش بعد اجتيازي ازمتي وشكا لي قائلا : « لم اعد احتمل ضغوط كاغانوفيتش » واردف « لم اعد اعرف ماذا افعل ». وادركت انه قد دفع الى فقدان صوابه ، ولم يلبث ان كتب إلى الرفيق ستالين طالباً اعفاءه من مسؤوليته نظراً لتعذر عمله مع كاغانوفيتش . فاعفي من منصبه في كييف ونقل إلى روستوف .

وأخذت صحتي بالتحسن الا انني مكثت في الفراش شهرين ايضاً قبل عودتي إلى العمل . ولكن بعد ابلالي واستئنافي واجباتي تدهورت علاقاتي مع كاغانوفيتش من سيء إلى اسوأ . لقد بات لا يطاق . وأخذ يضاعف نشاطه الكثيف في اتجاهين : ضد القوميين الاوكرانيين واليهود . ورغم انه هو يهودي الا ان حملته على اليهود لم تكن سوى ذريعة للنيل من اولئك اليهود الذين تربطهم بي اواصر الصداقة . مثال على ذلك اساءته معاملة مراسل صحفي في كييف يدعى تراسكونوف ، كنت اعرفه عندما كان يعمل في جريدة العمال في يوزوفكا زكيت انذاك ترشيحه لعضوية الحزب . وقد عاقب كاغانوفيتش تراسكونوف لمجرد صلاته الحميمة بي .

وطفق كاغانوفيتش ينفث تذمره وشكواه ضد كل من يقع عليه بصره . وكنت بوصفي رئيساً لمجلس الوزراء الاوكراني ، قد تركت لسكرتيرية الحزب ان تتدبر شكاوى كاغانوفيتش . وتسربت شكاوى سياسية عديدة من كاغانوفيتش إلى ستالين بشكل تقارير .

وذات يوم تلفن لي ستالين وقال : « لماذا لا تمهر هذه المذكرات من كاغانوفيتش بتوقيعك ؟ »

– ايها الرفيق ستالين هذه المذكرات ليست من اختصاص الحكومة ، بل من اختصاص الحزب ، لذلك فتوقيعي غير مطلوب .

– كلا ، فالأمر ليس كذلك ، وقد اعلمت كاغانوفيتش بانني لن أقبل اياً من مذكراته ما لم تشترك بتوقيعها .

وما ان وضعت السماعة حتى رن الهاتف وكان كاغانوفيتش على الطرف الآخر.

– ألم يكلمك ستالين بعد ؟

– نعم كلمني .

– هل اعلمك ؟

– نعم ، فقد اعلمني بان اصبح كلانا الآن مسؤولا عن توقيع كل المذكرات.

ولم يلبث ينبوع الشكاوى الرسمية المتدفق من عند كاغانوفيتش ان جف ، اذ علم انه لن يستطيع حملي على توقيعها معه . كان ذلك تطوراً قابلته بالترحاب ، الا ان العبرة الأهم من هذه القصة هي ان ثقة ستالين بي قد عادت . فقد اتخذت مكالمته الهاتفية كاشارة تدل على انني قد عدت إلى وضع عضو المكتب السياسي الموثوق . وكان ان قويت معنوياتي بما لا يحد (١) .

وقد تمكنا في النهاية من تحقيق حصتنا في الكوتا وسلمنا ما يقرب الـ ٤٠٠ مليون بود من الحنطة – وهي كمية لا تقارن بما كنا نسلم قبل الحرب ، الا انها اذا ما قورنت بما كنا نسلم بعد الحرب ،اعتبر موسمنا غير سيء .

وفي الخريف نقل ستالين كاغانوفيتش إلى موسكو ، وكانت سنتي الاخيرة في اوكرانيا في ١٩٤٩ هي افضل سنواتي هناك على الاطلاق . ففي التنافس مع

---

(١) في آذار ١٩٤٧ تخلى خروشوف عن السكرتيرية الاولى في اوكرانيا لكاغانوفيتش ، وبعد اسبوع وضع الملامة في إفشال الزراعة الاوكرانية على وزير الزراعة الاوكراني . وبعد عشرة أيام فقد مسؤولية سكرتيرية لجنة الحزب الاقليمية في كييف . وفي حزيران لم يظهر في اجتماع اللجنة المركزية الاوكرانية بكامل هيئتها . وبدا انه غاص دون أن يترك له أثراً . ولم يكن استمراره كرئيس وزراء اوكرانيا وعضو في المكتب السياسي بموسكو ليعني أي شيء ، ذلك أنه في مناسبات عديدة احتفظ ستالين بمعاونين رئيسيين في مراكز السلطة اسمياً لبعض الوقت بعد ان يكون قد جرى اهمالهم عملياً . ويخبرنا خروشوف هنا بان فترة خسوفه الكلي تعود إلى مرضه ، وهذا محتمل ، غير انه في الآونة الأخيرة ظهر ان مرض أعضاء الحكومة أصبح أمراً عادياً بعد أن كانت تكتنفه الاسرار في الماضي . وفي كانون الأول ١٩٤٧ عاد كاغانوفيتش إلى موسكو وظهر خروشوف فجأةفي كل مظاهر السلطان مجدداً .

الجمهوريات الأخرى تفوقنا على بيلوروسيا وسائر اقاليم الاتحاد التي كانت تعمل مثلنا للتخلص من آثار الاحتلال الالماني . وقد رفعت نجاحاتنا الاقتصادية من سوية اوكرانيا ومن هيبة القيادة الحزبية الاوكرانية في نظر البلاد كلها . وانني استعيد ذكريات تلك الايام بدفء واعتزاز . وقد وجهني ستالين اكثر من مرة إلى القاء التقارير حول المواضيع الزراعية مثل تربية الدواجن في اوكرانيا وسواها . وكانت تقاريري بناء على اوامره تنشر في « البرافدا » كأمثلة يقتدي بها الآخرون. الا انني لن اعزو لنفسي الفضل كله ، وانا باعتباري روسياً لا اود بالطبع ان اتجاهل واستخف بالشعب الروسي ، الا انه لا بد لي من عزو كل نجاحنا في اعادة بناء الزراعة والصناعة الاوكرانيتين للشعب الاوكراني نفسه .

٨
سنوات ستالين الاخيرة

قضية لينينغراد

قبل خطاب خروشوف السري في المؤتمر الحزبي العشرين لم يكن قد ورد علناً ذكر ما سمي قضية لينينغراد في الاتحاد السوفياتي وكل ما كان يعرفه العالم الخارجي عنها هو أنه بعد فترة قصيرة من وفاة أندريه جدانوف فجأة في عام ١٩٤٨ ، وهو الذي كان يرئس الفرع الحزبي في لينينغراد وأكثر المرشحين احتمالا لأن يكون خليفة ستالين ، جرت حركة تطهير وحشية واسعة النطاق في الجهاز الحزبي بلينينغراد وبين مؤيدي جدانوف في موسكو واماكن اخرى. منذ ذلك جرى إعدام ا.ا. كوزنتزوف ، سكرتير اللجنة المركزية وثاني رجل بعد جدانوف في لينينغراد وبطل الحصار في الحرب . وكذلك اعدم سكرتيرو مدينة لينينغراد والحزب الاقليمي جميعاً ومعهم م.ا. روديونوف ، رئيس وزراء الجمهورية الروسية الاتحادية ، وكثيرون غيرهم . ثم ان ن.ا. فوزنسنسكي الرئيس الشاب اللامع للجنة تصميم الدولة الذي بدا وكأن العالم كله تحت قدميه ، أعدم هو أيضاً رمياً بالرصاص في الوقت ذاته . أما ا.ن. كوسيغين وهو الاخر من جماعة لينينغراد والان رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ، فقد نجا بتنزيل رتبته موقتاً .

وكان مالنكوف المستفيد الرئيسي والمباشر من هذه العملية الدموية ، اذ جاءت وفاة منافسه جدانوف بمثابة نعمة سماوية حلت عليه . وتحرك رجال مالنكوف حالا إلى الامام في لينينغراد وكذلك في موسكو ، كان خروشوف بصورة اكيدة تقريباً على حق في قوله ان ستالين اعاده إلى موسكو من كييف في نهاية ١٩٤٩ ليكون نقلا مقابلا لرجحان كفة مالنكوف الذي كان قد أخذ يصير أقوى كثيراً مما ينبغي . الا أنه ثمة ما يدعو إلى الشك في ما اذا كان ستالين يخطط مباشرة لاستبدال مالنكوف بخروشوف بل من المحتمل أكثر بكثير ان يكون مالنكوف ، بعد وفاة جدانوف ، قد قرر مساعدة

ستالين ليتحرك ضد امبراطورية جدانوف . فنجح في تسميم رأس ستالين ضد جماعة لينينغراد الذين كانوا على الأقل منافسين محتملين له . وفي مطلق الأحوال ، فان مركز مالنكوف ازداد قوة مؤقتاً ، وأصبح خروشوف منافسه الكبير من الآن فصاعداً .

كان نقلي من اوكرانيا إلى موسكو في آخر ١٩٤٩ ، من بعض الوجوه ، نتيجة للمرض الذي كان قد بدأ يكتنف ذهن ستالين ويطغى عليه في السنين الاخيرة من حياته .

وفي احد الايام عندما كنت في لفوف ادير اجتماعاً بين الطلبة في معهد الاحراش حيث قتل الكاتب كالان بيد الوطنيين الاوكرانيين تلقيت فجأة دعوة تلفونية من مالنكوف يخبرني فيها ان ستالين يريدني ان اذهب إلى موسكو .

فسألته : هل في الأمر عجلة ؟

فقال : « نعم . خذ اول طائرة صباح الغد » .

ورحت استعد لكل احتمال . وحاولت ان اتوقع سلفاً جميع المفاجآت غير السارة . فقد كنت لا اعلم ماذا سيكون عليه وضعي اذا ما عدت إلى اوكرانيا .

غير ان مخاوفي سرعان ما تبددت ، اذ حياني ستالين بحرارة عند وصولي إلى موسكو ، وقال : « اخبرني ، الا ترى انك قد امضيت في اوكرانيا مدة طويلة كافية ؟ صرت مزارعاً اوكرانياً حقيقياً . والآن حان الوقت لكي ترجع إلى موسكو وإلى العمل فيها . ان رأينا هو ان عليك ان تعود إلى منصبك السابق كسكرتير اول للجنة الحزب في مدينة موسكو وللجنة الحزب الاقليمية » .

فشكرته على ثقته بي وقلت له انني متفق معه على ان اثنتي عشرة سنة كانت مدة كافية من الخدمة في اوكرانيا ، وقلت « لقد عوملت معاملة حسنة واني شاكر لكل من ساعدني في الاشراف على اوكرانيا ، ولكن مع ذلك كله فاني مسرور بعودتي إلى موسكو . » فقال ستالين « ونحن بحاجة اليك هنا . فالامور لا تسير سيراً حسناً تماماً ، وقد اكتشفت مؤامرات وانت سوف تتولى تنظيم موسكو لكي يكون باستطاعة اللجنة المركزية ان تطمئن إلى ان الكيان الحزبي المحلي سيؤيدها في نضالها ضد المتآمرين . وحتى الآن ، فقد اكتشفنا مؤامرة في لينينغراد . كما ان موسكو ايضاً اصبحت مكاناً تحتشد فيه عناصر ضد الحزب . ونحن نريد ان نجعل المدينة معقلا للجنة المركزية » .

— سوف افعل كل ما في قدرتي .

— حسن ، وهذه رسالة خطيرة وقعت في ايدينا ، تعرف جيداً على محتوياتها وسوف نتحدث عنها بعد ان تكون قد انتقلت إلى هنا .

ثم سلمني وثيقة طويلة في آخرها قائمة من التواقيع ، غير انها كانت كأنها بيان كتبه مجهولون . وقد جاء فيه انه يوجد في موسكو جماعة من الناس الذين يتآمرون ضد اللجنة المركزية وقد سمي بوبوف (١) سكرتير لجنة موسكو واللجنة المركزية بانه زعيم تلك الجماعة المؤلفة من سكرتيري لجنة المنطقة ومديري المصانع والمهندسين . وكان اول رد فعل مني هو ان كاتب هذا البيان اما رجل مجنون او نذل لئيم . وفي الحالتين ، فان نواياه كانت صادرة عن حقد وخبث . فاودعت تلك الوثيقة في صندوقي وقررت ان لا اعود إلى ذكرها مرة اخرى ما لم يفتح ستالين شخصياً الموضوع . وشعرت باني مهما اطلت في نسيان هذه المسألة ، يكون من الافضل .

ورجعت إلى كييف لادبر امر انتقالي . وعندما وصلت إلى منزلي جاءت واندا لفوفنا ، وكورنيشوك ، لزيارتي في شقتي (٢) . فاخبرتهما عن وظيفتي الجديدة فانهارت واندا لفوفنا تماماً وانفجرت بالدموع . واخذت تنتحب قائلة : « كيف تستطيع الذهاب ، كيف تقوى على ترك اوكرانيا ؟ »

هنا كانت امرأة بولونية تأسف لذهاب رجل روسي من اوكرانيا !

اما انا فقد دعوت إلى عقد جلسة للجنة المركزية بكامل هيئتها انتخبنا فيها قيادة جديدة لاوكرانيا . وكان علي ان اسرع في العودة إلى موسكو ، اذ طلب الي ان اتأكد من العودة لحضور الاحتفال بالذكرى السبعين لمولد ستالين في يوم ٢١ كانون الاول ١٩٤٩ .

وبعد ذلك بفترة توليت رسمياً مهمة سكرتير اول للجنة موسكو (٣) . ولم يلبث ستالين ان اثار موضوع تلك الرسالة التي كان قد اعطاها لي لادرسها . فقال :

— هل اطلعت على تلك الوثيقة التي اعطيتك اياها ؟

قال هذا وهو يراقبني باهتمام ..

— نعم . لقد اطلعت عليها .

— وما رأيك ؟ قال هذا وزم عينيه وركزهما على عيني وشمخ بأنفه وشخر — وكان ذلك من حركاته المحببة لديه .

---

(١) ج. م. بوبوف الذي كان خروشوف قد حل محله رئيساً للحزب في موسكو عند عودته من أوكرانيا .

(٢) كان كورنيشوك كاتباً أوكرانياً سياسياً شهيراً محبوباً كثيراً من هيئة الحزب .

(٣) كانت مكانة خروشوف عندما عاد الى موسكو في آخر ١٩٤٩ أعلى بكثير من ان يحتل منصب السكرتير الاول للجنة الحزب في موسكو . كان لا يزال عضواً في المكتب السياسي ، وفي سكرتيرية اللجنة المركزية أيضاً .

— هذه الرسالة يجب ان يكون واضعها نذلا لئيماً او مجنوناً .

— ماذا !

ولم يكن ستالين ابداً يشعر بارتياح عندما يبدو شخص آخر فاتر الايمان ببيانات تكشف المتآمرين وتتهمهم .

فأجبته :

— ايها الرفيق ستالين ، انني متأكد مئة بالمئة ان الاتهامات الواردة في تلك الرسالة لا صلة لها بالحقيقة . انني شخصياً على معرفة بالاشخاص الذين تتهمهم هذه الرسالة بالتآمر . وهم جميعاً رجال شرفاء مخلصون . واني لمتاكد بان بوبوف ليس متآمراً . صحيح انه يتصرف ببلادة ، وليس عمله في المستوى المطلوب من الكفاءة . ولكنه لا يمكن ان يتورط في اي نوع من المؤامرة . انه رجل صادق ولم يخامرني قط اي شك فيه . وهذه الرسالة لا تبدل رأيي فيه على الاطلاق .

ينبغي ان تكون لهجتي التأكيدية قد تركت بعض التأثير على ستالين ، فحدق فيّ وقال : « هل تعني انك لا تعتقد ان هذه الوثيقة يجب ان تؤخذ بعين الجد ؟ »

— نعم ، ايها الرفيق ستالين . وطبعاً انا غير متأكد تماماً ولكن اظن ان الدافع اليها هو الحقد والتحريض .

فأخذ ستالين يشتم غاضباً وترك الموضوع .

وكان مما يعزز وضعي الخاص واكتساب ثقة ستالين ان اؤيد تلك التهم الملفقة التي تضمنتها تلك الرسالة . تأييدي كل ما كان يحتاج اليه ستالين لكي يأمر باعتقال بوبوف والآخرين جميعاً وكان هؤلاء سيرغمون بدون ذنب على الاعتراف الكاذب . وهكذا كنا قدمنا للمحاكمة مؤامرة في موسكو شبيهة كل الشبه في عيوبها بالمحاكمة التي جرت في لينينغراد ، وكنت انا اكتسبت الفضل باني الرجل الذي تمكن بنشاطه ويقظته من قمع المؤامرة وهي في المهد .

ولكن مع ان بوبوف نجا موقتاً ، الا انني كنت اعرف ان ستالين ينتظر فرصة اخرى ليفتك به . فهو لن يجد راحة الا بعد ان يكون بوبوف ازيل من الطريق .

وقد اقترحت انا ان ينقل بوبوف من موسكو ، ووجدنا عملا له كمدير لمصنع كبير في كويبيشيف .

اما ستالين فكان بعض الاحيان يتذكر التهم التي تضمنتها تلك الرسالة ويسأل بلهجة تهديدية : « اين هو ذلك الرجل بوبوف ، على كل حال ؟ »

وكنا نجيبه : « انه في كويبيشيف » .

فتهدأ عندئذ ثائرة ستالين . غير انه كان ولا شك يتساءل في داخله ، من وقت إلى آخر ، قائلا « ربما يكون خروشوف مخطئاً ! وقد يكون بوبوف

متآمراً ضدي » . وقد وجدت في ما بعد ان بوبوف كان قد اظهر نقمته علي واتهمني بكل فرية عندما ابعدناه عن موسكو . ولكنه لم يكن يعلم انه لولا دفاعي عنه لكان في عداد الاموات .

وبعد ان تسلمت عملي في موسكو استطعت ان ارى ان وصولي إلى المسرح كان عقبة في طريق بيريا ومالنكوف . وبدأت حتى اشتبه بان من الاسباب التي حملت ستالين على استدعائي إلى موسكو كان ليضعني في ميزان القوة في القيادة الجماعية ، ولكي اكون عيناً على بيريا ومالنكوف تراقب تصرفاتهما .

ويبدو ان ستالين كان بعض الاحيان يخاف من بيريا ويسره التخلص منه ولكنه حار في كيف يفعل ذلك . ومن الطبيعي ان ستالين لم يخبرني بذلك على الاطلاق . غير انني كنت اشعر به (١) وكان ستالين دون ريب يعاملني معاملة حسنة . وبدا انه يثق بي ويقدرني ، حتى وان كان احياناً ينتقدني . ولكنه كان يمنحني تأييده عندما كنت احتاج اليه ، وكنت اقدر ذلك منه كل التقدير .

واخذت اصطدم باستمرار مع بيريا ومالنكوف . وكان مالنكوف قد صار عضواً في المكتب السياسي بعد الحرب ، وكان بالضرورة بيروقراطياً بكل معنى الكلمة تتجلى قدرته في وضع الرسائل والتقارير . ومثل هذا الرجل يمكن ان يكون اشد خطراً من الآخرين جميعاً اذا ما اعطيت له اية سلطة . وامثاله يعتلون اي شيء على قيد الحياة اذا تخطى الحدود التي يعينونها له .

وفي هذه الاثناء كانت المطاردة مستمرة في لينينغراد . واني لا اعلم كيف كان ستالين شخصياً يشعر نحو قضية لينينغراد . فهو لم يتحدث معي عنها الا عند الاشارة إلى موضوع « مؤامرة موسكو » في صدد نقلي من اوكرانيا . ان الذين اعتقلوا في موسكو كان اكثرهم من العمال الحزبيين الذين رقاهم جدانوف من منظمة غوركي إلى منظمة موسكو (٢) .

وبعد ان كنت قد بدأت العمل بصفتي سكرتير اللجنة المركزية ومسؤولا عن منظمة موسكو ، كان ا. ا. كوزنتزوف — كوزنتزوف لينينغراد — كما كنا دائماً نسميه قد اعتقل فعلا . وكانت منظمة الحزب في لينينغراد تتمزق شر تمزيق . وكانت الحملة مركزة ضد «ترويكا» (ثلاثي) من الشبان الذين كان يرجى لهم مستقبل مرموق ، وهم كوزنتزوف وفوزنسنسكي وكوسيغين . وكنت اعرف

(١) هنالك أدلة كثيرة على ان ستالين كان في الواقع قد أخذ يتحول ضد بيريا .

(٢) كان اندريه جدانوف سكرتير الفريق غوركي وكان قد طلب بعض محاسبيه إلى لينينغراد معه وتمكن ان يحسن مراكز آخرين في موسكو .

كوزنتزوف بعض الشيء ، وفوزنسنسكي معرفة جيدة جداً ، ولم يكن قد اعتقل بعد عندما وصلت إلى موسكو . ولكنه كان قد اقيل من وظائفه كلها وكان بدون عمل ينتظر ان يلقى القبض عليه في اي يوم من الايام .

وظل فوزنسنسكي فترة من الزمن بعد تجميد وضعه ، يجيء لتناول العشاء عند ستالين . وكان قد تبدل كثيراً وصار رجلا آخر فلم يعد ذلك الرجل اللامع الواثق من نفسه الميال إلى القوة والبطش . والواقع ان هذا ما ادى به إلى المكانة التي احتلها . فعندما كان رئيساً لتصميم الدولة دفعت به جرأته إلى الاصطدام مع بيريا . ذلك انه سعى لاعادة توزيع موارد البلاد بصورة أكثر مساواة . وكان معنى ذلك اخذ المال من بعض المفوضيات التي تتمتع برعاية بيريا ، هذه المفوضيات التي كان دائماً يطلب لها الحصول على اكثر من نصيبها من الأموال . وكان بيريا يتمتع بسلطة كبيرة بفضل قربه الحميم من ستالين .

وكان المرء يحتاج لان يكون له دهاء بيريا ليتصور كيف كان بيريا يختار اللحظة المناسبة تماماً ليكتسب فيها رضاء ستالين او نقمته على شخص ما لفائدته هو .

وقد تجاسر فوزنسنسكي فاعترض طريق بيريا . وقبل ان ينتهي بيريا من تصفيته كان فوزنسنسكي قد صار مجرد خيال شخصيته السابقة (١) .

واني لاذكر في اثناء هذه المدة ان ستالين سأل مالنكوف وبيريا اكثر من مرة قائلا : « ألسنا نهدر طاقتنا في عدم سماحنا لفوزنسنسكي بان يعمل ، بينما نحن ندرس مصيره ؟ » .

فكانا يجيبان : « نعم . دعنا نفكر في الامر . »

ويمر بعض الزمن ثم يعود ستالين إلى اثارة الموضوع ثانية ويقول : « ربما يتوجب علينا ان نسند إلى فوزنسنسكي رئاسة بنك الدولة فهو اقتصادي وخبير مالي حقيقي . » فلا يبدي احد اعتراضاً على ذلك . ولكن فوزنسنسكي كان يبقى حيث هو .

ويبدو واضحاً ان ستالين كان يشعر في قرارة نفسه ببقية من الاحترام والتقدير نحو فوزنسنسكي . وقبل قضية لينينغراد كانت تراوده آمال عظيمة بتلك « الترويكا » من الشبان اللامعين . وكان في الواقع يهتم بترقيتهم تدريجياً قبل « كشف المؤامرة » . وكان كوزنتزوف في وقت ما يبدو انه مرشح لكي يحل

(١) كان سائداً ان ن.ا. فوزنسنسكي ، أبرز البارزين من شبان الجيل الجديد ، اعدم باعتباره مشتركاً في «مؤامرة» لينينغراد ، غير ان خروشوف يعطي هنا لاول مرة وصفاً معقولا لما حدث .

متآمراً ضدي » . وقد وجدت في ما بعد ان بوبوف كان قد اظهر نقمته علي واتهمني بكل فرية عندما ابعدناه عن موسكو . ولكنه لم يكن يعلم انه لولا دفاعي عنه لكان في عداد الاموات .

وبعد ان تسلمت عملي في موسكو استطعت ان ارى ان وصولي إلى المسرح كان عقبة في طريق بيريا ومالنكوف . وبدأت حتى اشتبه بان من الاسباب التي حملت ستالين على استدعائي إلى موسكو كان ليضعني في ميزان القوة في القيادة الجماعية ، ولكي اكون عيناً على بيريا ومالنكوف تراقب تصرفاتهما .

ويبدو ان ستالين كان بعض الاحيان يخاف من بيريا ويسره التخلص منه ولكنه حار في كيف يفعل ذلك . ومن الطبيعي ان ستالين لم يخبرني بذلك على الاطلاق . غير انني كنت اشعر به (١) وكان ستالين دون ريب يعاملني معاملة حسنة . وبدا انه يثق بي ويقدرني ، حتى وان كان احياناً ينتقدني . ولكنه كان يمنحني تأييده عندما كنت احتاج اليه ، وكنت اقدر ذلك منه كل التقدير .

واخذت اصطدم باستمرار مع بيريا ومالنكوف . وكان مالنكوف قد صار عضواً في المكتب السياسي بعد الحرب ، وكان بالضرورة بيروقراطياً بكل معنى الكلمة تتجلى قدرته في وضع الرسائل والتقارير . ومثل هذا الرجل يمكن ان يكون اشد خطراً من الآخرين جميعاً اذا ما اعطيت له اية سلطة . وامثاله يعتلون اي شيء على قيد الحياة اذا تخطى الحدود التي يعينونها له .

وفي هذه الاثناء كانت المطاردة مستمرة في لينغراد . واني لا اعلم كيف كان ستالين شخصياً يشعر نحو قضية لينغراد . فهو لم يتحدث معي عنها الا عند الاشارة إلى موضوع « مؤامرة موسكو » في صدد نقلي من اوكرانيا . ان الذين اعتقلوا في موسكو كان اكثرهم من العمال الحزبيين الذين رقاهم جدانوف من منظمة غوركي إلى منظمة موسكو (٢) .

وبعد ان كنت قد بدأت العمل بصفتي سكرتير اللجنة المركزية ومسؤولا عن منظمة موسكو ، كان ا. ا. كوزنتزوف — كوزنتزوف لينغراد — كما كنا دائماً نسميه قد اعتقل فعلا . وكانت منظمة الحزب في لينغراد تتمزق شر تمزيق . وكانت الحملة مركزة ضد «ترويكا» (ثلاثي) من الشبان الذين كان يرجى لهم مستقبل مرموق ، وهم كوزنتزوف وفوزنسنسكي وكوسيغين . وكنت اعرف

(١) هنالك أدلة كثيرة على ان ستالين كان في الواقع قد أخذ يتحول ضد بيريا .

(٢) كان اندريه جدانوف سكرتير الفريق غوركي وكان قد طلب بعض محاسبيه إلى لينغراد معه وتمكن ان يحسن مراكز آخرين في موسكو .

كوزنتزوف بعض الشيء ، وفوزنسنسكي معرفة جيدة جداً ، ولم يكن قد اعتقل بعد عندما وصلت إلى موسكو . ولكنه كان قد اقيل من وظائفه كلها وكان بدون عمل ينتظر ان يلقى القبض عليه في اي يوم من الايام .

وظل فوزنسنسكي فترة من الزمن بعد تجميد وضعه ، يجيء لتناول العشاء عند ستالين . وكان قد تبدل كثيراً وصار رجلا آخر فلم يعد ذلك الرجل اللامع الواثق من نفسه الميال إلى القوة والبطش . والواقع ان هذا ما ادى به إلى المكانة التي احتلها . فعندما كان رئيساً لتصميم الدولة دفعت به جرأته إلى الاصطدام مع بيريا . ذلك انه سعى لاعادة توزيع موارد البلاد بصورة أكثر مساواة . وكان معنى ذلك اخذ المال من بعض المفوضيات التي تتمتع برعاية بيريا ، هذه المفوضيات التي كان دائماً يطلب لها الحصول على اكثر من نصيبها من الأموال . وكان بيريا يتمتع بسلطة كبيرة بفضل قربه الحميم من ستالين .

وكان المرء يحتاج لأن يكون له دهاء بيريا ليتصور كيف كان بيريا يختار اللحظة المناسبة تماماً ليكتسب فيها رضاء ستالين او نقمته على شخص ما لفائدته هو . وقد تجاسر فوزنسنسكي فاعترض طريق بيريا . وقبل ان ينتهي بيريا من تصفيته كان فوزنسنسكي قد صار مجرد خيال شخصيته السابقة (١) .

واني لاذكر في اثناء هذه المدة ان ستالين سأل مالنكوف وبيريا اكثر من مرة قائلا : « ألسنا نهدر طاقتنا في عدم سماحنا لفوزنسنسكي بان يعمل ، بينما نحن ندرس مصيره ؟ » .

فكانا يجيبان : « نعم . دعنا نفكر في الامر . »

ويمر بعض الزمن ثم يعود ستالين إلى اثارة الموضوع ثانية ويقول : « ربما يتوجب علينا ان نسند إلى فوزنسنسكي رئاسة بنك الدولة فهو اقتصادي وخبير مالي حقيقي . » فلا يبدي احد اعتراضاً على ذلك . ولكن فوزنسنسكي كان يبقى حيث هو .

ويبدو واضحاً ان ستالين كان يشعر في قرارة نفسه ببقية من الاحترام والتقدير نحو فوزنسنسكي . وقبل قضية لينغراد كانت تراوده آمال عظيمة بتلك « الترويكا » من الشبان اللامعين . وكان في الواقع يهتم بترقيتهم تدريجياً قبل « كشف المؤامرة » . وكان كوزنتزوف في وقت ما يبدو انه مرشح لكي يحل

(١) كان سائداً ان ن.ا. فوزنسنسكي ، أبرز البارزين من شبان الجيل الجديد ، اعدم باعتباره مشتركاً في «مؤامرة» لينغراد ، غير ان خروشوف يعطي هنا لاول مرة وصفاً معقولا لما حدث .

محل مالنكوف .

وكان فوزنسنسكي قد عين نائباً اول لستالين ، وكان كثيراً ما يعهد اليه بمهمة ترؤس مجلس الوزراء . وكان كوسيغين قد اعطي منصباً مسؤولا بتولي الشؤون التجارية والمالية . وفي رأيي ان سقوط اولئك الرجال قد تقرر لأنهم كانوا على ذلك المستوى من الكفاءة . فقد كان ستالين يعمل على اعدادهم ليخلفوا هيئة حرس الكرملين القديمة مما يعني ان بيريا اولا ، ثم مالنكوف فمولوتوف وميكويان لم يعودوا يتمتعون بثقة ستالين (١) .

ويتعذر علي ان اقول كيف تمكن رجال الحرس القديم من نسف ثقة ستالين بهؤلاء الشبان .

واني استطيع فقط ان اقدم الاستنتاجات التي توصلت اليها على اساس مشاهداتي ، وعلى اساس ملاحظات تسقطها من احاديث دارت بين مالنكوف وبيريا .

لقد استطعت ان ارى كيف كان بيريا ومالنكوف يتصرفان مع ستالين عندما كانت تذكر اسماء اولئك الشبان الثلاثة . وكونت سريعاً الاعتقاد ان بيريا ومالنكوف كانا يبذلان كل ما يستطيعانه لتحطيم « الترويكا » المؤلف من كوزنتزوف وفوزنسنسكي وكوسيغين . وكما سبق لي ان قلت كان بيريا اقدر الجميع على نسف ثقة ستالين بالاخرين . وكان مالنكوف لديه بمثابة منجنيق لدك حصون منافسيه . ذلك ان مالنكوف كان يجلس في سكرتيرية اللجنة المركزية وباستطاعته التوصل إلى الاطلاع على جميع المعلومات التي كانت تعطى إلى ستالين . فكان بامكانه ان يتلاعب في تكييفها بالاسلوب الذي يستفز نقمة ستالين ويؤدي إلى اثارة عدم ثقته .

ان المكائد التي كان يحبك خيوطها بيريا ومالنكوف ضد « ترويكا » ليننغراد شملت قضية اخرى وسابقة لهذه القضايا ، هي قضية ا. ل. شاخورين الذي كان نزيل السجن عندما بدأ اعتقال الليننغراديين بصورة جدية . وكان شاخورين اثناء الحرب مفوض الشعب لصناعة الطيران ، وكنت انا قد عرفته جيداً عندما كان منظماً حزبياً في اللجنة المركزية ، وفي عهدته المصنع الجوي الثالث عشر .

---

(١) ان هذا يتجاوز الحد . ويبدو من المرجح ان خروشوف كان يسبق في رؤيته مشاريع ستالين، والأكثر احتمالا هو ان مالنكوف وبيريا قد امتعضا من بروز كوزنتزوف وبوبوف وفوزنسنسكي فوفقا في الدس عليهم وتحطيمهم. وبعد ان ابعد أصحاب المناصب العالية كانت النتيجة المتوقعة ، كما يتبع الليل النهار ، ان يلحق بهم مساعدوهم .

وبينما كنت في اوكرانيا ، اعتقل شاخورين لانه ، على ما قيل ، سمح بانتاج طائرات غير صالحة في اثناء الحرب . وقد اخبرني مالنكوف فيما بعد ان فاسيا (فاسيلي) ستالين الذي كان طياراً كان قد وشى بشاخورين إلى والده . وان ستالين امر باجراء التحقيق (١) . وكان مالنكوف متورطاً بصورة غير مباشرة بقضية شاخورين ، لان جزءاً من مهمته اثناء الحرب كان الاشراف على صناعة الطيران مما جعله مسؤولا عن العمل السيء الذي يصدر عن مفوض الشعب . وكان هنا بعض العدل لان الاسراع في انتاج الكمية اثناء الحرب كان يتم على حساب النوع . ومهما يكن من امر فان شاخورين زج به في السجن واقيل مالنكوف من سكرتيرية اللجنة المركزية وارسل إلى مكان ما في آسيا الوسطى — إلى طشقند على ما اظن . واستعمل بيريا نفوذه لحمل ستالين على اعادة مالنكوف إلى موسكو . ولم يعد الاثنان بيريا ومالنكوف يفترقان منذ ذلك الحين .

ثم ان مارشال الجو ا.ا. نوفيكوف كان ايضاً في السجن عند بداية قضية ليننغراد (٢) . وقد اعتقل بعد الحرب لقبوله تسلم طائرات فاسدة . وهو ايضاً كان قد وشى به — على ما يقال — فاسيلي ستالين . وكنت انا اعرف نوفيكوف جيداً . فقد تولى قيادة السلاح الجوي في الجيش الاحمر في القسم الأكبر من الحرب وقام بزيارة مقر قيادتنا اثناء معركة ستالينغراد . وقد كانت له عيوبه ، فكان يشرب اكثر مما هو على الارجح مفيد له بكثير . غير انه كان رجلا مخلصاً صادقاً وشريفاً .

---

(١) كان ابن ستالين مشهوراً بعجرفته وطبعه الا نتقامي وكان أيضاً سكيراً عربيداً ، ثم انه استغل إلى حد بعيد صلته بأبيه فكانت ترقيته إلى رتبة لفتننت جنرال أثناء الحرب محاباة فاضحة ، وقد اضطر ستالين ان يقيله قبل وفاته بزمن قصير من قيادة سلاح الجو في منطقة موسكو العسكرية . وأكدت سفيتلانا الليليوييفا في كتابها وعنوانه «عشرون رسالة إلى صديق» ان فاسيلي كان مسؤولا عما أصاب المارشال نوفيكوف القائد الأعلى لقوات الجو السوفياتي من تحقير وسجن. وبعد وفاة ستالين، حكم على فاسيلي بالسجن ٨ سنين بسبب ذلك ولجرائم اخرى . وقد اطلق سراحه قبل انتهاء مدة محكوميته لأن خروشوف كان يشفق عليه ويعامله بمثابة ابنه واعيدت له رتبته في سلاح الطيران وعضويته في الحزب . ولكنه سجن مرة اخرى ثم اطلق سراحه . واستمر يسكر حتى مات في ١٩٦٢ .

(٢) كان نوفيكوف قائداً من الطراز الاول وكان أيضاً طياراً ماهراً ورجلا محبوباً .

يظهر انه بعد هذه الاعتقالات كان ستالين يشعر بقدر معين من حسن النية نحو شاخورين ونوفيكوف . فكان يتحول نحو بيريا ومالنكوف اثناء تناول الطعام سائلا اذا كان شاخورين ونوفيكوف ما زالا في السجن وعندما يردان على سؤاله بالايجاب يقول : « الا تريان انه يكون من الموافق اطلاق سراحهما ؟ »

غير ان ستالين كان يلقي مثل هذا السؤال على ذاته ، اي انه كان يفكر بصوت مرتفع . وكان يقابل سؤاله بالصمت فيترك الموضوع موقتاً إلى ان يعود إلى اثارته مرة اخرى . وذهب مرة إلى حد القول : « يتوجب عليكما ان تفكرا جدياً باطلاق سراح شاخورين ونوفيكوف. فأي عمل مفيد يقومان به في السجن ؟ انهما لا يزالان يستطيعان العمل . » وكان يوجه ملاحظاته هذه إلى بيريا ومالنكوف لانهما كانا مسؤولين عن القضية ضد شاخورين ونوفيكوف .

وكنا بعد العشاء نلتقي في غرفة الحمام لنغسل ايدينا . وكانت تلك الغرفة كبيرة واسعة . وكنا احياناً نقف فيها قبل الجلسات وبعدها . وكنا دائماً نسمي العشاء مع ستالين « جلسات » عمل نبحث فيها ما يتوجب عمله وما يحتمل ان تكون نتائج الجلسة . وقد سمعت مرة بيريا يقول لمالنكوف في غرفة الحمام :

« ان ستالين قد اثار موضوع ذينك الطيارين مرة اخرى . فانت تعلم انه اذا اطلق سراحهما فان ذلك قد يمتد إلى آخرين » .

فماذا ترى كان يعني بيريا بقوله « قد يمتد إلى آخرين » ومن هم « اولئك الآخرين ؟ » ينبغي ان يكون بيريا خائفاً من انه اذا اطلق سراح شاخورين ونوفيكوف فقد يعود ستالين إلى موضوع كوزنتزوف وفوزنسنسكي . وكان مالنكوف وبيريا يخافان اذا ما اطلق سراح كوزنتزوف وفوزنسنسكي اللذين يعتبرانهما زعيمي مؤامرة لينينغراد ، فان الحملة ضد منظمة لينينغراد كلها قد تنهار . وهكذا كان مالنكوف وبيريا يبذلان كل ما في استطاعتهما لابقاء شاخورين ونوفيكوف في السجن . وقد نجحا في ذلك ، فلم يطلق سراح « الآخرين » اي جماعة لينينغراد .

ولم يتسن لي ولا مرة ان اطلع على قرارات الادانة في قضية لينينغراد . غير انني افترض ، وذلك ايضاً بناء على احاديث استطعت سماعها بين مالنكوف وبيريا ، ان التهم الموجهة ضد جماعة كوزنتزوف كانت الوطنية الروسية ومعارضة اللجنة المركزية . لقد بدأ التحقيق ، ومن هو الذي ادار التحقيق ؟ ستالين نفسه فعل ذلك . ولكن اذا كان ستالين هو مدير الجوقة ، فبيريا كان اذن عازف الكمان الاول . وما الذي يحملني على هذا القول ؟ ان اباكوموف الذي اشرف فعلا على الادعاء كان من اتباع بيريا . فلم يكن ينقل بلاغاته

إلى اي كان ، ولا حتى إلى ستالين ، بدون ان يتداول الامر اولا مع بيريا .

ولم اكن انا في الحقيقة مطلعاً على القضية شخصياً . غير اني اعترف بانني قد اكون وقعت بامضائي على الحكم . ففي تلك الايام كان ستالين يوقع بامضائه على الاحكام اذا رأى ذلك من الضرورة ، في جلسة يعقدها المكتب السياسي ، يوقع عليها الباقون منا بامضاءاتهم ، دون النظر اليها . وذلك كان المقصود من « القيادة الجماعية » . وبالمقارنة مع اساليب ستالين المعتادة في معاملة اعداء الشعب ، نجد ان قضية لينينغراد كانت نموذجاً للعدل . فقد اعطيت مظهراً للقضية التي جرى تداولها وفقاً للاجراءات القضائية الصحيحة . فالمحققون اجروا التحقيق والنائب العام قام بالادعاء ، وجرت المحاكمة امام محكمة ودعي الاعضاء العاملون في منظمة لينينغراد ليراقبوا الاجراءات عندما كان المتهمون يجري استجوابهم في قاعة المحكمة . ثم اعطيت الفرصة للمتهمين لان يقولوا شيئاً من الدفاع عن انفسهم قبل تلاوة الحكم .

وقد اتفق اني كنت مع ستالين عندما ابلغ ما قاله فوزنسنسكي قبل ان يعلن عليه الحكم بالاعدام رمياً بالرصاص . فقد وقف فوزنسنسكي ونفث كرهه ضد لينينغراد ولعن اليوم الذي وطأت فيه قدمه تلك المدينة عندما جاء لتلقي العلم فيها من دونباس . وقال ان لينينغراد سبق ان نالت نصيبها من المؤامرات ، وانها تعرضت لجميع انواع النفوذ الرجعي من بيرون (١) إلى زينوفيف .

ويبدو جلياً انه فقد عقله . فان من الهذيان التحدث عن بيرون وزينوفيف في وقت واحد كما لو انهما كانا الشيء ذاته . فزينوفيف كان يمثل رأياً سياسياً يتناقض مع رأي ستالين في كيف يجب ان تبنى الاشتراكية في بلادنا . قد تكون انت معه او ضده . اما انا من ناحيتي فقد كنت دائماً ادافع عن موقف ستالين ، ولذلك قاتلت ضد زينوفيف واتباعه . ولكن بيرون كان شيئاً آخر بالمرة . واني لا اعلم ماذا قال كوزنتزوف والآخرون في كلماتهم الاخيرة . ولكن اياً كان ما قالوه فلم يكن له اي تأثير على مصيرهم اذ كانوا قد حكموا قبل زمن طويل من صدور الحكم عليهم رسمياً ، وحتى قبل بدء محاكمتهم . والواقع ان

---

(١) بيرون هو كونك فون بوهرن الشهير الذي صار في ما بعد دوق كورلند وهو من أصل الماني غامض بدأ «صنعته» كعاشق وسكرتير الامبراطورة انا ايفانوفنا قبل ان تتسلم العرش، وارتقى ليصير من أكثر الطغاة المكروهين في التاريخ الروسي . وقد تواقح كثيراً وتجاوز الحد في فرض نفسه ، وقد انتهي بان ارسل إلى سيبيريا لمدة عشرين سنة .

ستالين كان قد حكم عليهم شخصياً عند اعتقالهم . لقد هلك كثيرون في لينينغراد ، وكذلك ايضاً كان نصيب كثيرين من الذين نقلوا من لينينغراد للعمل في مناطق اخرى.

اما بصدد كوسيغين ، فقد كانت حياته معلقة بخيط واه . والرجال الذين كانوا قد اعتقلوا وحكم عليهم في لينينغراد وجهوا اتهامات سخيفة ضده في شهاداتهم ، وكتبوا جميع انواع الهراءعنه . وقد كان كوسيغين في موقف حرج منذ البداية ، لانه كان متصلا بالقرابة بكوزنتزوف عن طريق المصاهرة . وبالرغم من صلته الوثيقة بستالين ، فقد اقيل فجأة من جميع المناصب التي كان يتقلدها وعين للعمل في احدى الوزارات . وقد القت الاتهامات التي وجهت اليه ظلا حالكاً ، بحيث انني لا استطيع ان اوضح كيف نجا من القضاء عليه مع الآخرين . فلعله ، كما يقولون ، سحب ورقة يانصيب رابحة ، فمر ذلك الكأس به دون ان يتجرعه (١) .

في تلك الايام لم يكن مستغرباً حلول اي شيء بأي واحد منا . كان كل شيء يتوقف على ما يخطر لستالين حين يشخص ببصره نحوك . وكان بعض الاحيان حين يفعل ذلك يقول : « لماذا لا تنظر إلى عيني اليوم ؟ لماذا تحول عينيك عن عيني ؟ » او بعض السخافات الاخرى الشبيهة بهذه . وقد يتحول نحوك بدون انذار بشراسة حقيقية . وليس من محقق في الكون يتصرف مع اعظم المجرمين كما كان يتصرف ستالين مع اصدقائه الذين كان يدعوهم لتناول الطعام معه على مائدته .

وقد وصف بولغانين مرة ، اصدق وصف ، الاختبارات التي كان علينا جميعاً ان نعيشها معه في تلك الايام . فقد كنا خارجين في طريقنا بعد طعام العشاء مع ستالين في احدى الليالي ، اذ قال بولغانين : « انك تأتي إلى مائدة ستالين ضيفاً معززاً ، ولكنك لا تستطيع ان تتأكد من انك تعود إلى منزلك او تؤخذ إلى السجن » .

ورغم ان بولغانين كان يتعتعه السكر وهو يتلفظ بهذه الكلمات الا ان ما قاله يكاد يكون وصفاً دقيقاً لاحوالنا الحرجة بين يوم وآخر .

---

(١) لم يكن خروشوف وحده الذي تسأل كيف استطاع كوسيغين ان ينجو بحياته . ربما لأنه استطاع أن يبقى بعيداً عن الدسائس الحزبية وركز اهتمامه على الادارة والاقتصاد الصناعي . وقد اعاده ستالين إلى العمل وعينه عضواً مرشحاً لهيئة الرئاسة (البرزيديوم) الموسعة بعد مؤتمر الحزب التاسع عشر في عام ١٩٥٢ .

عداوة ستالين للسامية

لعل أبرز ظاهرة في هذا الفصل هي اهتمام خروشوف إلى درجة الخروج عن الموضوع ، في إيجاد المداخل ليتسنى له شجب العداء للسامية . ومع انه ليس هنالك دليل يثبت ان خروشوف شخصياً كان متورطاً عملياً بسياسات معادية للسامية ولكنه لم يكن يحب اليهود فكان يقول المرة تلو الاخرى بانهم ينبغي أن يوضعوا في مكانهم . وعندما كان مسيطراً على اوكرانيا احتفظ بالصمت ازاء ما كان يفعله النازيون باليهود . وهو وفقاً لسياسة ستالين التي اتخذها في ما بعد ، رفض ان يسلم بان اليهود عانوا أكثر مما عاناه غير اليهود في الأراضي السوفياتية . كما انه ينبغي ان يكون قد تغاضى عن ترحيل اليهود بوصفهم غير مرغوب فيهم ، ذلك الترحيل الذي اجراه ستالين ذاته بعد الحرب من اوكرانيا الى اقاصي سيبيريا . على ان كل شيء قاله عن مصير أفراد من اليهود في هذه الفترة كان حقيقياً ، وكان بوسعه أن يقول أكثر وهو يؤكد هنا رسمياً مقتل منجويل ويرمي ضوءاً جانبياً على مصير لوزوفسكي. ولم يكن شيء من ذلك قد جيء على ذكره في الخطاب السري ، كما انه لم يرد شيء عن اعتقال زوجة مولوتوف وسجنها . ومن الناحية الاخرى لقد احتوى الخطاب السري على معلومات أكثر مما هو وارد في هذا الفصل عن تدمير ستالين لشعوب باسرها في القرم والقوقاس (تتر وشركس وانغوتس وغيرهم) عقاباً لهم على تعاونهم مع الالمان . وموقف التهور والاستخفاف الذي اتخذه خروشوف ازاء أعمال العنف والحكم الاستبدادي يظهر في هذا الفصل كما ظهر في الفصول السابقة عن التطهيرات العظيمة، فهو يقول: «انني اوافق موافقة كلية على اعتقال الناس،ولكن شرط ان يتم ذلك على الوجه الصحيح» .

عندما كنا لا نزال ندفع بالألمان إلى خارج اوكرانيا تألفت هيئة اطلق عليها اسم اللجنة اليهودية ضد الفاشية التابعة لمكتب المعلومات السوفياتي . وتشكلت هذه اللجنة لكي تجمع المواد — المواد الايجابية طبعاً — عن بلادنا وعن نشاطات جيشنا السوفياتي ضد العدو المشترك: المانيا الهتلرية، وللقيام بتوزيع هذه المواد على الصحافة الغربية وخصوصاً في اميركا حيث لليهود دوائر كبيرة ذات نفوذ واسع .

وقد تألفت هذه اللجنة من يهود يشغلون مراكز رفيعة في الاتحاد السوفياتي . وتولى رئاستها لوزوفسكي ، وهو عضو في اللجنة المركزية كما كان رئيساً سابقاً لاتحاد العمل الدولي . وكان ميخويلز اشهر ممثل على المسرح اليهودي،هو ايضاً، عضو في اللجنة المركزية كما كانت ايضاً من اعضائها زوجة مولوتوف الرفيقة

زمشوزينا . واظن ان هذه المنظمة انشئت في البداية بناء على اقتراح مولوتوف وان تكن ربما هي في الاصل فكرة ستالين شخصياً .

وكان مكتب المعلومات السوفياتي ولجنته المضادة للفاشستية يعتبران ان لا غنى لمصلحة الدولة ولا لسياستنا ولا للحزب الشيوعي عنهما (١) .

وكان لوزوفسكي معتاداً على الاتصال بي في كل مرة اجيء بها إلى موسكو. وكان بعض الاحيان يطلبني على التلفون ويسألني عن مواد ليستعين بها في الدعاوة ضد الفاشستية الهتلرية ، فاعطي الاوامر لاعداد مثل هذه المواد بتوقيع مؤلفين مختلفين ، وكانت ترسل إلى اميركا وتستعمل على نطاق واسع للاشادة بانتصارات الجيش الاحمر وللكشف عن الفظائع التي ارتكبها الالمان في اوكرانيا . وبصورة عامة كانت نشاطات لوزوفسكي ذات قيمة كبيرة . وكان شخصاً جم النشاط كثير الحركة . وكان بعض الاحيان يكاد يغضبني بالحاحه إلى حد انتزاع المعلومات مني قائلا : « اعطني مواد اخرى ! اكثر ! واكثر » وقد كنا في ذلك الحين منهمكين في اعادة بناء الاوضاع الاقتصادية . ولم يكن لدي فراغ لاهتم بمثل هذه الامور ، على انه لم يكن ليتركني بل كان يلاحقني بالحاحه قائلا : « ينبغي ان تدرك ما لاظهارنا حقيقة العدو المشترك إلى العالم من اهمية عظيمة بفضح فظائعه وفي الوقت ذاته باطلاع العالم على اعمال الاصلاح التي نقوم بها في مدننا وقرانا » .

وبعد ان تم تحرير اوكرانيا وضع اعضاء لجنة لوزوفسكي عريضة رفعت إلى

---

(١) كان لوزوفسكي معروفاً كثيراً لدى المراسلين الغربيين ومحترماً منهم ، باعتباره الناطق السوفياتي الرسمي . وقد اختفى فجاة في ١٩٤٨ وترك فقده حزناً كثيراً . ولم يمض زمن طويل حتى عرف انه اعدم رمياً بالرصاص مع عدد من الادباء اليهود بعد ان حلت فجأة اللجنة اليهودية المضادة للفاشيست وكانت أول اشارة من خروشوف إلى «قضية القرم» في مقابلة أجراها معه وفد شيوعي كندي في ١٩٥٦ . وقد اختفى أيضاً الممثل اليهودي ميخويلز ثم علم انه اعدم وان يكن ذلك النبأ لم يعترف به. وكان ميخويلز شقيق أحد أطباء الكرملين الذي اتهم في ما بعد بنشاطه في التسميم واعدم بدوره. أما مدام مولوتوف زمشوزينا فقد كانت شخصية بارزة وكانت في وقت ما رئيسة مؤسسة المساحيق وقد اضطر مولوتوف ان يقف صاغياً ويتألم لا عتقالها في الوقت الذي كان يدير جبهته الحديدية إلى الغرب في أوائل أيام الحرب الباردة .

ستالين تضمنت اقتراحاً بان تصبح القرم جمهورية يهودية سوفياتية ضمن الاتحاد السوفياتي بعد ابعاد التتر القرميين . على ان ستالين رأى وراء هذا الاقتراح يد الصهيونية الاميركية تعمل عن طريق مكتب المعلومات السوفياتي وقال ان اعضاء اللجنة هم عملاء للصهيونية الاميركية وانهم يحاولون اقامة دولة يهودية في القرم لكي ينتزعوا القرم من الاتحاد السوفياتي وينشئوا نقطة انطلاق للاستعمار الاميركي على شواطئنا تكون خطراً مباشراً على الاتحاد السوفياتي . فاعتقل ستالين لوزوفسكي وميخويلز ولم تلبث زمشوزينا ان اعتقلت ايضاً واستغرق التحقيق مع هذه الزمرة وقتاً طويلا .في النهاية واجهوا جميعاً مصيراً مفجعاً . فاعدم لوزوفسكي رمياً بالرصاص ونفيت زمشوزينا ، وكنت ظننت انها اعدمت ايضاً لانه لم يعلن شيء عما حدث . و ستالين بالذات كان يقرر من ينبغي ان يعدم ومن منهم ينجو من الاعدام . واني اذكر ان مولوتوف اتصل بي ليطلب نصيحتي في صدد القضية كلها . ويبدو ان زمشوزينا حرضته على ذلك .

ولم يوافق مولوتوف ستالين على ضرورة اعتقال زمشوزينا . وعندما عرضت مسألة اقالتها من هيئة موظفي اللجنة المركزية في اجتماع عام عقدته اللجنة المركزية وافق سائر الاعضاء على ذلك غير ان مولوتوف امتنع عن الموافقة . فلم يقل «نعم» بل ظل ممتنعاً، فانتفض ستالين غاضباً وترك هذا الحادث اثره على موقف ستالين تجاه مولوتوف . وبدأ من ذلك الحين يعامل مولوتوف معاملة سيئة للغاية . وكانت خباثات كاغانوفيتش باروميتراً (ميزاناً) صادقاً بصورة خاصة لمركز مولوتوف الشاذ الحرج . فقد كان كاغانوفيتش ، بتحريض من ستالين ، يمثل دور الكلب الخسيس الذي اطلق من عقاله لينهش اوصال واطراف اي عضو من اعضاء المكتب السياسي احس ببرودة ستالين نحوه . وهكذا اطلق كاغانوفيتش على مولوتوف .

ولم اعلم انا بان زمشوزينا كانت باقية على قيد الحياة الا بعد وفاة ستالين ، عندما اخبرني مولوتوف انها كانت تعيش في المنفى . وكنا جميعاً متفقين على وجوب اخلاء سبيلها ، فاطلق بيريا سراحها واعادها إلى مولوتوف . ووصف بيريا كيف جاء مولوتوف إلى مكتبه في وزارة الشؤون الداخلية ليجتمع مع زمشوزينا بعد طول الفراق ، وكان مولوتوف شديد الفرح انها لا تزال على قيد الحياة والقى بنفسه بين ذراعيها . وهنأ بيريا مولوتوف وزمشوزينا ولكنه جعلهما يفهمان بانها تحررت بفضل مبادرة منه وكان يقول ذلك وفي صوته لهجة لا تخلو من التهكم .

ومن المسائل الجوهرية المطروحة : ما اذا كان ثمة ضرورة لاقامة اتحاد

يهودي او جمهورية ذات استقلال ذاتي داخل الاتحاد الروسي او داخل اوكرانيا ؟ انا لا ارى ذلك . ان حكماً يهودياً مستقلا ذاتياً كان قد سبق اقامته ولا يزال اسمياً موجوداً لذلك لا ضرورة لاقامة حكم كهذا ايضاً في القرم (١) .

غير ان هذه المسألة لم تبحث قط جدياً . كان يفرض علينا ان نوافق على ما يرتأيه ستالين وقد استسلمنا لسلطته المطلقة . وكان يرى انه اذا انشئت جمهورية يهودية في القرم فان الصهيونية المتفشية في اميركا تحصل بذلك على موطىء قدم لها في بلادنا . وهذا كل ما كان في الأمر . ولكن ستالين كان قد عقد العزم وامر باعتقال الكثيرين بصورة تعسفية ، وبدون اية مراعاة للاصول القانونية . اني اعتبر ان القضية كلها كانت لعنة وعاراً . فقد كان باستطاعة ستالين ان يكتفي برفض اقتراحهم ويوبخهم .الا انه اراد ان يحطم اولئك الذين ايدوا الاقتراح جميعاً . وانها لمجرد معجزةفقط ان زمشوزينا بقيت على قيد الحياة واقتصر نصيبها على النفي لمدة طويلة .

وكان اكثر انطباقاً على الاساليب المعتمدة ، العقاب الوحشي الذي لقيه ميخويلز رجل الادب والثقافة، اذ انهمقتلوه كما تقتل الوحوش . قتلوه سراً . ثم كوفيء قتلته ودفنت ضحيتهم بالتكريم .ان العقل ليضطرب ويصاب بدوار لمجرد ذكر ذلك . لقد اعلن ان ميخويلز سقطامام دبابة ، والواقع انه القي عمداً بحذق ومهارة امام سيارة شحن . ومن الذيفعل ذلك ؟ انه ستالين ، او على الاقل من يأتمرون بأمره . وبعد وفاة ستالين ،عندما فتحنا محفوظات وزارة أمن الدولة واستجوبنا رجال بيريا ، اكتشفنا انهم كانوا قد خططوا لقتل لتفينوف (سلف مولوتوف في وزارة الخارجية) بالطريقةذاتها . كان المقرر ان يقع لتفينوف في كمين ينصب له ويقتل على الطريق ،اثناء انتقاله من موسكو إلى « الداشا » التي كان مقيماً فيها (٢) .

وبعد ذلك قدم إلى المحاكمة جماعة من اليهود كانوا يعملون في مصنع ستالين للسيارات . وفي هذه القضية كان ستالين يبحث ايضاً عن المكايد التي تخطط لها الامبريالية الاميركية العاملة عن طريق الصهيونيين .

---

(١) هذه اشارة إلى جمهورية بيروبدزجان في سيبيريا التي خصصت لكي تكون وطناً قومياً لليهود السوفيات . غير انها لم تسفر عن شيء يذكر . واليهود لم يقبلوا للسكن فيها ما عدا القليل منهم .

(٢) م.م. لتفينوف وزير الخارجية السوفياتية وقد خلفه مولوتوف بعد فشل حملة «الا من الجماعي» في ١٩٣٩. رواية التصميم على اغتياله جديدة ، فقد توفي في النهاية وفاة طبيعية .

وانه ليكاد يتعذر تخيل حدوث مثل هذه الامور في عصرنا هذا . اني اوافق بصورة كلية على اعتقال الناس على ان يحاكم المتهمون محاكمة عادلة ويكتفى بنفيهم او سجنهم اذا ثبت من متابعة قضيتهم بامانة واخلاص انهم ، فعلا ، مجرمون او مذنبون سياسيون . والادعاء والمحاكمة ينبغي ان يلتزما الاصول القانونية والمحاكمة ينبغي ان تكون علانية، بحيث تنتفي اية ريبة من ذهن اي كان. ان المتهم مفروض عليه ان يكون مذنباً . وبذلك لن يتقدم احد للدفاع عن الاشخاص الذين قد انزل بهم العقاب والرأي العام سوف يؤيد الهيئات التي حكمت بالقصاص . كنا نرى في ايامنا هذه اناساً يرفعون اصواتهم ليشهدوا في المحكمة بصحة الاتهامات ويدقون صدورهم ويقسمون ان المتهمين هم من اعداء الشعب — كل ذلك ، وليس لديهم اي علم على الاطلاق بما حدث . ان الشاهد يوافق على قرار الادانة ويرفع يده مقترعاً على اعدام المتهم بدون ان يكون على بينة بواقع الجريمة المزعومة او بدور الشخص الذي يزعم تجريمه . ان هذه لم تكن محاكمات صحيحة . انها كانت محاكمات مغلقة في ايدي اشخاص معدودين ؟ ومن هم الذين يؤلفون الهيئة ؟ ثلاثة رجال هم الذين اعتقلوا المتهم وحاكموه وحكموا عليه مستقلين بانفسهم . ان اكثر الناس الذين اطيح برؤوسهم في عهد ستالين جرت محاكمتهم امام مثل هذا النوع من المحاكم .

لقد حاولت ان اعطي ستالين حقه واعترف بمزاياه ولكن لم اجد اي عذر لما كان في رأيي عيباً كبيراً في صفاته ، وهو موقفه من اليهود . وهو كزعيم وكبحاثة ضليع في النظريات قد بذل عناية عظيمة كي لا تبدر منه اية اشارة ولو تلميحاً إلى عداوته للسامية في مؤلفاته المكتوبة او في خطاباته . ثم انه محظور كلياً الاستشهاد علناً من اي حديث خاص ابدى فيه ملاحظات تشتم منها رائحة قوية عن عداوة للسامية . وعندما يتفق له ان يتكلم عن اليهود كان ستالين كثيراً ما يقلد بلهجة معروفة جيداً ومبالغ فيها الطريقة التي يتكلمون بها .

واني لاذكر عندما كنت اعمل في موسكو . ان نوعاً من الخلل أو الاضطراب في مصنع الطيران الثالث عشر نقل نبأه إلى ستالين عن طريق الاقنية الحزبية او امن الدولة . وفي اثناء اجتماع مع ستالين ، بينما كنا جالسين نتبادل الآراء ، تحول ستالين نحوي وقال : « ان العمال الصالحين في المصنع ينبغي ان تعطى لهم هراوات لكي يستطيعوا ان يؤدبوا بصرامة اولئك اليهود في نهاية يوم العمل » . وعندما قال ستالين ذلك لم اكن وحدي معه بل كان هنالك مولوتوف وبيريا ومالنكوف (على ان كاغانوفيتش لم يكن هناك ولم يكن ستالين ليسمح لنفسه باية ملاحظة ضد السامية بحضور كاغانوفيتش) ففكرت بيني وبين نفسي :

ما هذا الذي يقوله ؟

وبينما كنا نغادر الغرفة سألني بيريا بخبث : « والآن . هل تلقيت اوامرك ؟ » فأجبته : « نعم ، كان والدي امياً ولكن لم يشترك ابداً في مجزرة منظمة ، كان ذلك يعتبر عيباً وعاراً . والآنهذا التوجيه يعطى لي بوصفي سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي » .

وعلى الرغم من ان ستالين اعطاني امراً صريحاً ، فقد كنت اعلم اني اذا قمت بتنفيذه وصار ذلك معروفاً للجمهور ، فان لجنة ستعين دون ريب للتحقيق ، فيعاقب المسؤول عما جرى عقاباً صارماً . وستالين لن يتورع عن اي شيء لمعاقبة العداء للسامية علناً . اوامر اولا اوامر . كان يقطع رأس اي شخص تسيء تصرفاته إلى اسم ستالين او إلى سمعته لاسيما في موضوع يتعذر الدفاع عنه مثل العداء للسامية . وكانت تدور احاديث كثيرة مثل حديثنا عن مصنع الطيران الثالث عشر ونحن صرنا متعودين عليها . فكنا نسمع ما يقوله ستالين لنا ثم نمحوه من ذاكرتنا ونتناساه بالكلية .

وبعد نقلي من اوكرانيا إلى موسكو دعاني ستالين مع خلفي السكرتير الاول في اوكرانيا مالنكوف وكوروتشنكو ، (١) إلى « الداشا القريبة » للعشاء والح عليهما بالشرب . فقد كان مالنكوف وكوروتشنكو يزوران ستالين لاول مرة ، فشربا بنهم ، معتبرين انه لمن الشرف الكبير لهما ان ستالين كان يبالغ في اكرامهما . اما انا فكنت ادرى منهما بستالين وكنت اعلم برغبته في ان يسكر الناس . فلم يكن ذلك التكريم هو الشيء الرئيسي الذي يجول في خاطره . كان يطيب له ان يوصل ضيوفه إلى حالة تحل فيها عقدة السنتهم ليبدأوا الثرثرة باشياء كانوا يفكرون مرتين قبل النطق بمثلها عندما يكونون في حالة الرصانة ، مالكين لقواهم العقلية .

وجلست انا مضطرب الاعصاب . وكان علي ان اكون مسؤولا عن مالنكوف اذ انني انا الذي دعوته للحضور إلى موسكو . ولم يكن هناك شيء كثير لاقوله عن كوروتشنكو فقد عرفت بانه رجل صادق ولكنه محدود جداً . وفي ذلك الوقت بدا كأن ستالين غير قادر على اخفاء عدائه للسامية وأخذ في ذكر ملاحظات ضد

(١) كان كوروتشنكو صاحب شخصية قوية وقد وقف إلى جانب خروشوف كيده اليمنى في اوكرانيا . وصار رئيس الوزارة الاوكرانية في ١٩٤٧ ثم رئيس جمهورية أوكرانيا في ١٩٥٤ . وكان لمدة من الزمن عضواً مرشحاً لرئاسة اللجنة أما مالنكوف فقد خلف خروشوف سكرتيراً أول لاوكرانيا .

السامیین . وكان مالنكوف مستعداً لمثل هذا الحديث فجلس هو وكوروتشنكو منصتين دون ان يقولا كلمة . وانتهى العشاء وغادرنا المكان وقفل مالنكوف وكوروتشنكو عائدين إلى اوكرانيا .

وبعد نقلي إلى موسكو اتخذ المكتب السياسي للجنة المركزية قراراً يأمرني به ان اراقب بعين ساهرة نشاطات الحزب الشيوعي الاوكراني . وكنت بهذه الصفة اتلقى الصحف الاوكرانية كلها . وكنت اتولى مراجعة الصحف الاساسية بينما يهتم المساعدون لي بالاخرى وينقلون إلي اي شيء يستحق التفاتي . وبعد ذلك العشاء في « داشا » ستالين جاءني مساعدي شويسكي بصحيفة اوكرانية واطلعني على مقال ينتقد بعض العيوب والنواقص ، وقد انفرد المقال بذكر ستة اسماء وجه إلى اصحابها الانتقاد وقد كانوا جميعاً يهوداً . فادركت حالا إلى اين تتجه الرياح. ان مالنكوف وكوروتشنكو ، وهما اوكرانيان بكل معنى الكلمة ، قد استوعبا في ذهنيهما ان ستالين كان يوجه حملة انتقاد ضد الشعب اليهودي . وظناً منهما انهما يعملان باشارة ستالين ، بدأا العمل على مسؤوليتهما .

فطلبت مالنكوف تلفونياً وقلت له : « قرأت مقالك وينبغي ان تخجل من نفسك . كيف تجرؤ ان تقول مثل هذا الكلام في الصحف ؟ الا ترى ان هذا دعوة صريحة ضد السامية . لماذا فعلت ذلك ؟ اني اعلم ما الذي يجول في ذهنك . غير انك اسأت فهم ما اراده ستالين . فلو قرأ ستالين هذا المقال ، فلا اعلم ماذا قد يحدث لك بوصفك سكرتير اللجنة المركزية في اوكرانيا . كيف استطعت ان لا ترى ان في هذا ذخيرة نقدمها لاعدائنا لكي يستعملوها ضدنا ؟ فهم سوف يستغلون هذا الشيء المعيب ويقولون ان اوكرانيا ترفع راية الكفاح ضد اليهود ، راية العداء للسامية (١) » .

فشرع مالنكوف في تبرير ذاته ثم بدأ يشهق باكياً . على اني لم اتوقف عن تقريعه بل قلت : « اذا استمر هذا العمل الفاضح فاني سوف اتولى شخصياً ابلاغ ستالين عنك » . كنت بالطبع اقوم بمجازفة لانه لم يكن لدي ما يضمن ان محادثاتنا التلفونية لم تكن مراقبة ، ولم اكن ايضاً متأكداً ان مالنكوف لن يكتب هو شخصياً إلى ستالين ويقول له ان خروشوف كان يعطي توجيهات مناقضة للتي تلقاها منه عندما كان في منزله . ان ستالين لم يكن ليقبل صدور مثل ذلك مني .

(١) في الاشارة إلى نشاط مالنكوف لا يتحدث خروشوف عن ترحيل اليهود من اوكرانيا حالا بعد الحرب .

وبعد ذلك بوقت قصير تلقت نينا بتروفنا (زوجة خروشوف) رسالة من البروفسور فرومينا تروي فيها قصة اخرى تشير إلى مالنكوف والعداء للسامية . فقد كان في كييف مستوصف للاطفال المصابين بسل العظام وكانت رئيسة ذلك المستوصف البروفسور فرومينا . وعندما كنا في كييف ، قبل نقلي إلى موسكو ، كانت البروفسور فرومينا تتردد كثيراً على شقتنا . وكانت تعالج نجلي سيريوجها (نوع من التحبب في تسمية سيرجي) عندما كان مصاباً بالسل ، فتوصلت إلى شفائه . والآن ليس لدى سيرجي اية علامة تدل على ذلك المرض ، اذ شفي تماماً ونحن ننسب ذلك بالاكثر إلى فرومينا . وكان اختصاصي آخر في سل العظام وهو خريج اكاديمية لينينغراد قد قال لنينا بتروفنا ان ليس من اخصائي في معالجة هذا المرض افضل من فرومينا . ثم بعد انتقالنا إلى موسكو كتبت فرومينا رسالة إلى نينا بتروفنا تخبرها بانها طردت من وظيفتها في المستوصف بحجة انها تفتقر إلى المؤهلات الضرورية . فغضبت لذلك وتلفنت إلى مالنكوف مرة اخرى وقلت له : « كيف تسمح بهذا ؟ كيف امكن ذلك — ان يطرد من وظيفة شخص بمثل هذه الجدارة ولمثل هذا السبب ؟ كيف تقول انها غير حائزة على المؤهلات المطلوبة في حين ان احد خريجي اكاديمية لينينغراد يقول ان ليس هنالك من هو اكثر معرفة منها في سل العظام ؟ فمن الذي خالف هذا الرأي ؟ » فأخذ مالنكوف يحاول تبرئة نفسه . فقلت : « انك بكل بساطة تسيء إلى اسم الشيوعية وتجلب عليه العار ! » وكان ان فرومينا اعيدت ، على ما اذكر إلى مركزها ، غير ان الهجوم ضد السامية لم ينقطع .

لماذا تظل هذه الظاهرة تبرز بين حين وحين ؟ ان بعض ذلك يعود إلى ان العداء للسامية كان مستأصل الجذور عندنا منذ القديم ، ومن الصعب التخلص منه . والاجيال القديمة تذكر مذابح لا يحصى عددها وتتذكر فلاديمير بوريشكفتش الذي كان ابرز ممثلي « المئة اسود » في الدوما (البرلمان القيصري) (١) .

في عهد طفولتي في « دونباس » شهدت مرة مذبحة بأم عيني . فقد كنت أذهب إلى مدرسة تقع على بعد اربعة فراسخ (ميلان وثلثا الميل) عن المنجم الذي كان يعمل فيه والدي . وفي احد الايام وانا في طريق عودتي إلى البيت من

(١) ان ما اطلق عليه اسم « المئة أسود» كان منظمة رجعية متطرفة تمول من صندوق الشرطة السرية القيصرية التي كانت مهمتها ارهاب مؤيدي الحركات الاخلاقية والثورية وكذلك اليهود . وكان أكثر تلك الهيئات توفيقاً وشراً والمسؤول عن أسوأ المذابح «اتحاد الشعب الروسي» .

المدرسة ، وكان ذلك من ايام الخريف الجميلة المشرقة تتطاير شباك العنكبوت حولنا فيه مثل رقاع الثلج . وكنا في ذلك اليوم نسير حفاة القدمين كما كان شأننا في مطالع الربيع إلى اواخر الخريف . وكان كل قروي يحلم بان يكون لديه زوج من الاحذية . وكنا نمسح انوفنا باطراف اكمامنا ونربط سراويلنا بخيط . وكان اليوم جميلا ، وكنا في حالة نفسية لا نحمل هماً ولا نخشى شراً .

والتقيت مع زملائي في المدرسة برجل يسوق عربة فلما وقع نظره علينا توقف وبدأ يبكي وقال « اواه ايها الاولاد — لو انكم تشاهدون ماذا يفعلون الآن في « يوزوفكا » . فأسرعنا الخطى وحالما بلغت المنزل القيت كيس كتبي على الارض ، وهرعت راكضاً إلى « يوزوفكا » . وعندما بلغت البلدة رأيت جمهوراً كبيراً قد اصطف على قمة اكداس من الحديد الخام المودع إلى جانب خط السكة الحديدية . ورأيت ان القوزاق كانوا قد وصلوا ثم بدأ النفخ في البوق ولم اكن قد رأيت جنوداً من قبل . اذ لم يكن في يوزوفكا ذاتها جنود . لذلك كان كل ما وقع عليه بصري جديداً ومثيراً لاهتمامي . وعندما بدأ النفخ في البوق قال الجنود القدماء الذين بين العمال ان تلك كانت اشارة الدعوة للتأهب لاطلاق النار وان في اية لحظة سوف نسمع دوي الطلقات الاولى . فاندفع الجمهور المحتشد إلى الجانب الجنوبي من المنحدر ، غير ان الجنود لم يسمحوا للعمال بالدخول إلى المدينة . ودوى صوت الطلقة الأولى من البنادق فصاح احد الموجودين حولنا قائلا انهم يطلقون النار في الفضاء ، وقال آخر انهم يطلقون الخرطوش فارغاً من الرصاص ، وان واحداً او اثنين فقط يطلقون قذائف حية بقصد القاء القليل من الذعر في نفوس اليهود .

واخذ كل واحد يبتكر وصفاً لما كان يحدث حولنا . وتفرق الجمهور في ساعة متأخرة من المساء . واخذ العمال في منجمنا يتحدثون في اليوم التالي في ما بينهم عن عدد الاحذية التي عثر عليها والتقطها كل منهم اثناء جمع الغنائم . فقال احدهم انه خرج باثني عشر زوج من الاحذية . وكان بعض عمال المنجم يروون كيف كان « الايديش » يسيرون موجهين إلى الروس اقبح النعوت والاسماء وهم حاملون الاعلام وقد القوا « قيصرهم الايديش » على اكتافهم . وعندما هاجمهم الروس بالهراوات اختبأوا في مصنع الجلود فاضرم الروس النار في ذلك المصنع فاحترق « قيصر الايديش » وهو حي في داخله .

وفي اليوم التالي لوقوع المجزرة اتجهت راكضاً مباشرة من المدرسة إلى « يوزوفكا » لارى ماذا كان يجري هناك . فوجدت ان النهب كان لا يزال مستمراً ، ورأيت دكاكين اصلاح الساعات وقد حطمت ابوابها والرياش تتطاير

في الهواء على الشوارع حيث كان الناهبون يمزقون الوسادات وينفضون الرياش التي كانت في داخلها من نوافذ البيوت اليهودية .

ثم سرت اشاعة انه صدر مرسوم ينص على السماح للناس ، طيلة ثلاثة ايام ، بان يفعلوا ما يشاؤون باليهود . فظل النهب مستمراً ثلاثة ايام دون توقف . وبعد انقضاء الايام الثلاثة شرع رجال الشرطة ومعهم افراد منظمة « المئة اسود » الذين كانوا قد استغلوا عقلية العمال الفطرية للتحريض على المذبحة في بادىء الأمر ، في اعادة النظام . ولكن لم يتخذ اي اجراء في صدد اعمال النهب والتخريب . فالسلطات التي كانت قد قررت القيام بالمذبحة حافظت على وعدها باطلاق يد « المئة اسود » ثلاثة ايام كاملة يتصرفون في اثنائها كما يحلو لهم . وهكذا ذهبت اعمال النهب والقتل جميعها بدون عقاب . وسمعت ان الكثيرين من اليهود الذين ضربوا كانوا في مستوصف المصنع ، فقررت ان اقصد ذلك المكان مع احد اصدقائي وهو صبي صغير لنلقي نظرة على ما يجري . فوجدنا جثث اليهود الذين ضربوا حتى الموت موضوعة في صفوف على الارض .

وفي اواخر الخريف اصطحبني عمي مارتن شقيق والدي معه من المناجم إلى القرية . وقد ارسلني والدي ووالدتي معه لانهما ارادا لي ان اكون قريباً من الارض الزراعية . فقد كان والدي قبل العمل في المناجم مزارعاً . وكنا فقراء حينئذ ونحن لا نزال فقراء الآن . وكانت والدتي تكتسب بعض النقود من غسل الملابس . وكنت انا اجني « دراهم » قليلة من العمل في تنظيف المراجل بعد المدرسة وفي ايام الاحد . وكان والدي ووالدتي ، ولكن بنوع خاص والدتي ، يحلمان باليوم الذي يستطيعان فيه الرجوع إلى القرية ، إلى منزل صغير وجواد وقطعة ارض تكون ملكنا الخاص. وقدذهبت إلى القرية عندما بدأت الاضرابات في « دونباس » . وكانت الاعلام الحمراء خافقة والاجتماعات الكبيرة تنعقد باستمرار . وعندما عدت إلى المدينةمن القرية اخبروني بما حدث . اخبروني عن الذين نظموا الاضرابات وتولوا قيادتها . فلاحظت ان معظمهم كانوا يحملون اسماء يهودية . وكان الناس يمتدحون اولئك الخطباء . وكان العمال جميعاً يتحدثون عنهم بحماسة ومودة .

وبعد مرور سنين على ذلك ، وبعد ان تسلم ستالين مقاليد السلطة ، بدلا من ان يضع حداً لعداوة السامية عمل على نشرها . فالعداء للسامية نما ، كما تنمو الغرسة ، داخل عقل ستالين . ثم بعد وفاة ستالين اوقفنا انتشارها قليلا . ويبدو انه حتى الان ليس هناك ما يحد من هذهالنزعة ويكافحها كما يجب . ان رجال

الحرس المرافقين لي ليسوا اشراراً ، ولكن العداء للسامية يبرز ، حتى على غير قصد منا ، في احاديثي معهم .

مؤلفات ستالين النظرية

هنا يتحدث خروشوف عن وجه آخر من ستالين كان خافياً على بطانته والمقربين اليه . فقد كان ستالين يريد ان يترك أثره على النظرية الشيوعية (كان ، برغم كل شيء ، عالي الثقافة ، وتدرب ليكون استاذاً جامعياً) وشعر بالحاجة إلى إيجاد مبررات نظرية لبعض تصرفاته . ان نشاط ستالين في حقل العلوم اللغوية ، وهي اليونانية بالنسبة لخروشوف ، مهم لفهم عقلية ستالين التي كادت أن تكون غير ملحوظة في الغرب . ان العالم الجيورجي المشار اليه يجب أن يكون تلميذاً للاستاذ اللغوي ن.و. مار .

وفي صيف ١٩٥٠ برز ستالين ، الذي كان لم ينطق علناً بكلمة طيلة سنين (باستثناء أجوبة عرضية على اسئلة الصحفيين المقربين) فجأة على صفحات جريدة برافدا بمقال طويل عويص عن خطأ نظريات مار (الذي لم يسمع به أحد من قراء برافدا) ثم تابع ذلك «بردود على مار» توسع فيها في شرح آرائه الخاصة . وذهل قراء برافدا ووقعوا في حيرة. غير ان الامر الجوهري كان هذا : ان مار بموافقة رسمية كان قد جادل باسلوب ماركسي ان اللغة هي مظهر بنية المجتمع الفوقية وهي تتبدل مع تبدل المجتمع ، أي في الوقت المناسب مع تقدم الشيوعية عالمياً سوف تذوي الفوارق اللغوية ويصير هنالك لغة عالمية . وعلى ذلك فقد قرر ستالين انه قد حان الوقت لوضع حد للعالمية المشوشة التي من هذا النوع ، وان لغة المستقبل سوف تكون اللغة الروسية ، لذلك كان من الضروري ان يبرهن باسلوب ماركسي ان اللغة هي مظهر لأساس المجتمع الذي لا يتبدل وليس لبنيته الفوقية . وبدلا من الخروج من هذا التعمق في الأبحاث بدون جدوى فان ستالين ، على ما يقول خروشوف ، نال ارتياحاً بالغاً من التمرس النظري على هذا المستوى العالي .

أما المثل الثاني على تطبيق ستالين لنظرياته الذي يشير اليه خروشوف هنا فقد عرضه ستالين على العالم عشية المؤتمر الحزبي التاسع عشر في شكل رسالة عنوانها «اقتصاديات الاشتراكية» . وقد اعطيت هذه الرسالة إلى خطباء المؤتمر وإلى الوفود أيضاً قبل نشرها نهائياً . ويبدو أنه لم يهتم أحد منهم كثيراً بها ، اذ انها كانت طويلة وجدلية مملة غير أنها تضمنت اتجاهاً معيناً من التفكير عظيم الأهمية للمستقبل ، ذلك انه حتى شهر تشرين الأول ١٩٥٢ كان ستالين بالنسبة لجميع الظواهر موافقاً على اطروحة لينين بأن الطريق إلى الثورة العالمية يجب ان يمر بالحروب . وقد ظل متمسكاً بهذه العقيدة زمناً طويلا بعد ان دل على فسادها ظهور القنبلة الذرية . غير ان ستالين في

١٨

مؤلفه «اقتصاديات الاشتراكية» أعلن أخيراً ان الامور تبدلت وان الاتحاد السوفياتي صار الان في وضع من القوة يستطيع به مع موافاة الحظ وحسن التقدير والتصرف ان يتجنب الحروب التي قد تقع في المستقبل ، تاركاً الدول الرأسمالية تحطم واحدتها الاخرى في نضال من أجل الاسواق العالمية الآخذة في التضاؤل والانهيار .

عندما حان وقت انعقاد المؤتمر الحزبي التاسع عشر (١٩٥٢) كان ستالين قد اتخذ دور المفكر العظيم ، اذ وضع عدداً من المؤلفات النظرية . وهكذا تورط في ابحاث جدلية حول العلوم اللغوية . وكانت تلك مناقشة غريبة جداً لا فائدة منها له على الاطلاق من اية ناحية كانت . ودعا ستالين عالماً جيورجياً كان صديقاً له إلى تناول العشاء معه ، ولسبب ما بدأ يتكلم عن علم اللغات مع ذلك الرجل . وبعد ذلك كتب ستالين مقالاته التي هاجم فيها صديقه الجيورجي ذاته . وهكذا بدأت مؤلفات ستالين النظرية في الظهور اثناء المرحلة الاخيرة من حياته .

ووجه اهتمامه إلى المشاكل الاقتصادية فنظم جلسة مناقشة علنية ونشر نظرياته الخاصة . وعندما شرع ستالين في طبع حلقات من تعليقاته عن المشاكل الاقتصادية التي تواجهها الاشتراكية، وذلك قبل وفاته بقليل ، حمل كل انسان على قراءتها ودرسها . وكان المفروض ان الحزب بكامله ينكب على التعمق في دراسة مؤلفاته . وذهب ستالين إلى حد الاقتراح بان ينصرف الخطباء الذين سيتكلمون في مؤتمر الحزب التاسع عشر إلى بحث المسائل النظرية التي كان قد اثارها. وقد تحدث مالنكوف مطولا حول نظريات ستالين في التقرير العام الذي قدمه إلى المؤتمر . وحذا الخطباء الآخرون حذوه باستثنائي انا . لم افعل ذلك لانني كنت صاحب جرأة او ذكاء او لاني غير معجب بكتابات ستالين او منتقد لها ، كلا . بل لانني لم اكن في المؤتمر التاسع عشر من الخطباء الاساسيين . وكان المفروض ان القي بياناً عن انظمة الحزب وقوانينه الاساسية. ولم يكن في تلك الانظمة شيء يتطلب مني ان اشير إلى مؤلفات ستالين عن علم اللغة والقضايا الاقتصادية ؛ وعدا ذلك فان مالنكوف كان قد اعطاها من الاهتمام الكافي في تقريره العام .

وفي احد ايام الصيف الجميلة كنا مجتمعين في « داشا » ستالين وجلسنا إلى تناول الطعام على النحو الطويل الممل الذي عرفت به جلسات الطعام عند ستالين ، واذا بنا نرى فوروشيلوف ينطلق فجأة بالشتائم ويقول : « كوبا — وهو كثيراً ما كان ينادي ستالين بكنية التحبب التي اطلقت عليه — انك لم تقرأ هذه

الورقة التي ارسلها هذا العالم فلان ... انظر اية قطعة من الحثالة ، واي رقيع نذل هو هذا الرجل ! فقد كتب كذا ، وكذا ... انك لا تذكر ذلك ؟ . انك لم تقرأ هذا ؟ »

فقال ستالين : « كلا لم اقرأها . »

فحول فوروشيلوف بصره نحو الباقين منا، فقلنا جميعاً اننا لم نقرأ ما كان يتحدث عنه . وقال مالنكوف انه علم ان احد الاخصائيين في الشؤون الاقتصادية وضع كتاباً وطلب ان تنظم اكاديمية العلوم ندوة لمناقشة آرائه . واني أذكر اسم ذلك العالم ولكنه كان على ما يبدو اوكرانياً . وقد اغرق اللجنة المركزية بسيل من الرسائل طالباً منا ان نتدخل لنتأكد من ان مؤلفاته تلقى الاهتمام الذي يرى انها تستحقه . وتوسع مالنكوف في اعطاء بعض التفاصيل فقال ان ذلك العالم ارسل ايضاً نسخاً من كتابه إلى اعضاء اللجنة المركزية . وهنا عاد فوروشيلوف إلى اطلاق شتائمه قائلا : « هذا المحتال يجب ان يعتقل » .

وايد ستالين فوروشيلوف قائلا : « يا له من خنزير ! اقبضوا عليه . »

وبعد ذلك بوقت قصير صب علينا ستالين جام غضبه لاهمالنا التدقيق والحذر في اختيار هيئة موظفي مكتبنا . وشكا من ان وثائق سرية كانت تتسرب إلى الخارج بواسطة السكرتيرية وقال انه سوف يجري التحقيق لمعرفة المذنب . فنظرنا كلنا اليه بدهشة متسائلين عما يرمي اليه . وفجأة تقدم مني وقال : « انت المسؤول . ان المعلومات تتسرب عن طريق موظفي مكتبك . »

فاجبت قائلا : « ايها الرفيق ستالين . هذا غير صحيح . فان مساعدي امناء ولي عظيم الثقة بهم . انهم من اعضاء الحزب الاوفياء ومن المستحيل ان يفضي احدهم بمعلومات سرية » .

فقال ستالين : « هذا لا شأن لنا به . ان المعلومات قد تسربت إلى الخارج عن طريق موظف في مكتبك » . ثم اخذ ستالين يخبرنا ان بعض ما تحدث عنه في مؤلفه عن الشؤون الاقتصادية يطابق حرفياً ما اورده العالم الذي تحدث عنه فوروشيلوف وكال له الشتائم . ثم سأل قائلا : « كيف حصل هذا الرجل على مؤلفي ؟ كيف اكتشف الذي كتبته انا ؟ لا يمكن ان يكون قد سمع حديثنا عنه . وهذا يعني انه تلقى المواد التي امليتها ووزعتها عليكم . وها هو ينشر هذه الآراء كأنها من وضعه . »

وبينما كان ستالين يتكلم كان يزداد غضباً اكثر فاكثر . ثم فهمت ما حدث ، او على الاقل لماذا كان يلقي اللوم علي ، ذلك ان العالم المذكور كان يحمل اسماً اوكرانياً ، وكان ستالين يعلم ان هنالك عدداً من الاوكرانيين في مكتبي ،

وبنوع خاص مساعدي شويزكي ، وهو رجل امين لا يرقى اليه اي شك . وهكذا تعرض شويزكي مع الاوكرانيين الآخرين من موظفي مكتبي للشبهة . وادركت انه كان يحاول ان ينتزع اعترافاً مني . فهو كثيراً ماكان يفعل ذلك انه يحدق بالشخص ثم يوجه اليه التهمة ويراقب اذا كانت عيناه ترفان .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مكتب لجنة موسكو واستدعيت شويزكي وسألته : هل تعرف هذا العالم فلاناً الفلاني ؟

— كلا ، لا اعرفه .

— اولم تسمع به على الاطلاق ؟

— نعم . سمعت به .

— هل هو من معارفك ؟

— كلا لم التق به ابداً .

— حسن . جئني بملفه .

فجلب لي شويزكي ملف العالم فدرسته ملياً وتعرفت إلى محتوياته ولاحظت انه وان كان يحمل اسماً اوكرانياً فهو في الواقع من سيبيريا . وكان هذا العالم عضواً في الحزب منذ ١٩١٨ او ١٩١٩ واشترك في قسم خطير من النضال في سبيل الاشتراكية بوصفه احد الانصار الذين قاتلوا اثناء الحرب الاهلية ضد القوزاق البيض في سيبيريا .

وفي اليوم التالي قلت لستالين : « ايها الرفيق ستالين ، سألتني عن هذا العالم وقد استخرجت ملفه . فهل تعلم .. انه ليس من اوكرانيا ، اي انه لم يولد فيها ، غادرها جده إلى سيبيريا . »

وكنت بذلك احاول ان اثبت ان موظفي مكتبي لا علاقة لهم بتسرب المعلومات .

فنظر ستالين إلي نظرة شرسة ، وصاح بي « يا لجهنم ! » وتلك كانت طريقته في الاعتذار لاتهامه اياي . ثم لان صوته وقال : « اذن هو من سيبيريا ، اليس كذلك ؟ »

— نعم انه سيبيري . واين لا تجد اشخاصاً باسماء اوكرانية ؟ انهم منتشرون في جميع انحاء الارض . هناك الكثيرون منهم في الشرق الاقصى ، وفي كندا ، وفي بلدان اخرى في ما وراء حدود بلادنا .

وهكذا نجحت في ازاحة الضربة عني . غير ان ستالين لم يترك القضية عند هذا الحد . اذ ظل متألماً لان اقتراحاته اتفقت كلمة كلمة مع اقتراحات ذلك العالم ، نصف الناضج كما سماه ستالين . وكان لا يسمح لاحد بأن يبدي الآراء ذاتها التي

ابداها ، كأنما اراد ان ينظر إلى نفسه انه هو وحده النابغة العبقري . فكل شيء جديد ينبغي ان يكون هو قائله .

ولو ان ستالين كان ايجابياً ، وغير اناني إلى هذا الحد ، وقادراً على عرض نظرياته الخاصة بروح النقد الذاتي ، لكان تحقق من ان هذا النظري الحزبي نصف الناضج وضع كتابه من زمن طويل ، اي قبل ان يضع ستالين كتابه . كان ذلك العالم السيبيري ، في الواقع هو الذي يجب ان يقول لستالين : « انت سرقت افكاري ، لان اوراقي تسربت اليك » . فكثيراً ما يحدث ان رجلا غير معروف نسبياً يوفق إلى اكتشاف خطير . والرجل العظيم انما يكون مغموراً وبسيطاً قبل ان يتخذ الخطوة التي تجعله عظيماً . غير ان ستالين لم يكن ليسمح بهذه الامكانية ما دام هو حياً . وما دام هو الزعيم العظيم ، فينبغي دائماً ان تكون له الكلمة الأولى والاخيرة في تقرير القضايا النظرية .

وكان ان اضطهد ذلك العالم السيبيري ، ثم طرد من الحزب . وهاجمته الصحافة وعمدت إلى تحقيره واخيراً اعتقل ووضع في السجن . فكيف يحدث ذلك ؟ كل ما فعله الرجل انه كتب دراسة ربما كانت سيئة ، وربما كانت هدامة ولكنه ارسلها مباشرة إلى اللجنة المركزية . انها كانت تحمل وجهة نظره الخاصة ، وهو عضو قديم العهد في الحزب ومحارب قديم في الحرب الاهلية . والآن يلصق الناس به التهمة بانه مجرم . لماذا ؟ هم انفسهم لا يعرفون . كل ما يعرفونه انه كتب بحثاً عن الشؤون الاقتصادية لم يرض عنه ستالين .

وبعد وفاة ستالين اطلقنا سراح هذا الرجل . فتقدم بشكوى إلى لجنة موسكو عن الطريقة التي عومل بها ، وصب جام نقمته علي شخصياً . وبالطبع لم يكن يعلم شيئاً عن دوري في القضية . لقد انتقدني لانني لم اهتم به ولم اقدر عمله حق قدره . ربما كان عمله جديراً بالتقدير . و على كل حال لم تؤد شكواه إلى اية نتيجة . ذلك لان الذين اتبعوا هدى ستالين وامتدحوا كتاباته وهاجموا ذلك العالم السيبيري ، لم تكن لهم مصلحة في تبديل رأيهم . الآن وقد مات ستالين فمن المحتمل ان هذا الرجل لم يلق التقدير الذي يستحقه . غير انه ليس من شأني ان احكم في ذلك . فالشؤون الاقتصادية هي موضوع بالغ الاختصاص . فليرجع الاقتصاديون الخبراء إلى رسالته ليقيموها ويحللوها ويضعوها في مكانها اللائق .

ان حادثة تسرب كتابات ستالين الاقتصادية لم تنته باعتقال العالم السيبيري . فبعد ان اقنعت ستالين بان التسرب لم يقع عن طريق مكتبي توصل إلى الاستنتاج بان التسرب ينبغي ان يكون قد جرى عن طريق بوسكربشيف . وهذا الاقتناع

كان مثيراً للاشمئزاز و ذلك لان بوسكريبشيف عمل لستالين مدة سنين عديدة وكان « كلب ستالين الامين » . فكيف لأحد ان يصدق ان بوسكريبشيف هو الذي افضى باسرار رسمية ؟ وهو لا يمكن ان تكون له اتصالات مع اي كان ، لان الجميع كانوا يعلمون حق العلم من هو بوسكريبشيف فكانوايخافونه ويتجنبونه.وهو لم يكن رجلا ابله ، بل كان قد جمع في شخصه قدراً كبيراً من القوة حتى بدأ يظهر شيئاً من الكبرياء ، فيتصرف بترفع وشموخ وبازدراء نحو اي عضو من « البرزديوم » (هيئة الرئاسة) يكون قد خسر رضى ستالين . فكان يزأر بضراوة في وجه مولوتوف وميكويان مثلا ، عندما فقدا رضى ستالين . وكان يستطيع ان يكون مؤلماً بشكل لا يحتمل . وكان دائماً مع ستالين ويعلم قبل الآخرين منا من هو الذي وقع تحت ظل شبهات ستالين ونقمته . لذلك كان كل من يتحول بوسكريبشيف ضده يحتمل ان يكون الضحية التالية .

والآن ها هو بوسكريبشيف يسقط فجأة تحت شبهات ستالين. ومن الطبيعي ان بوسكريبشيف كان يستطيع الوصول إلى سائر الوثائق التي يدور حولها الحديث فهو الذي كتبها عندما املاها ستالين عليه . فقد كان ستالين يذرع الغرفة جيئة وذهاباً اثناء املائها . لم يكن ليستطيع الجلوس اثناء انصرافه إلى التفكير ، فكان يملي وهو يتمشى. ولم يكن ابدا يستعين بالمختزلين بل كان يملي دائماً على بوسكريبشيف ثم يعيد بوسكريبشيف عليه ما املاه ، فاذا ظهر ان هذا الاخير كتب شيئاً بصورة غير صحيحة او اذا طرأ على ستالين تعبير اكثر دقة ، فان بوسكريبشيف يعمد إلى تصحيح النص . واني اريد ان اعطي ستالين ما يستحقه هنا ، فانه حتى ساعة موته كان يستطيع ان يعبر عما يريده بكل وضوح ودقة . وكانت جمله وتعابيره قصيرة مفهومة ومعبرة. لقد كان ذلك من اعظم مواهب ستالين . وكان ستالين من هذه الناحية ذا مقدرة عظيمة لا يمكن انكارها ولا الانتقاص منها . فكل من عرف ستالين كان معجباً بموهبته هذه ومن جرائها كان يعتز بالعمل معه .

أقال ستالين بوسكريبشيف من منصبه وعين شخصاً آخر مكانه وهكذا وضع بوسكريبشيف في الجليد. واني لموقن انه لو بقي ستالين حياً مدة اطول ، لكان بوسكريبشيف اعتقل واعدم ، دون ريب ، بتهمة الخيانة . وكانت آخر كلمات قالها ستالين في الموضوع : «امسكت بوسكريبشيف وهو ينقل بعض مواد سرية . لا احد سواه كان يستطيع ان يفعل ذلك . ان تسرب الوثائق السرية حدث عن طريقه . انه هو الذي خان السرية » . واية سرية ! ذلك ان كلما قال ستالين انه « تسرب » إلى الخارج كان في الواقع سبق ونشر !

المؤتمر الحزبي التاسع عشر

كان ستالين عندما رئس المؤتمر الحزبي التاسع عشر في تشرين الأول ١٩٥٢ قد صار رجلا عجوزاً مريضاً ، لم يبق بينه وبين الموت سوى أقل من خمسة شهور. ويروي خروشوف هنا، وفي اجزاء اخرى بعض الشيء عن حالة ستالين النفسية في تلك الأيام. ويقول خروشوف أيضاً ، كما قال في خطابه السري ، ان ستالين كان على وشك الشروع في حملة تطهير جديدة كانت ستتناول البعض من أقرب زملائه اليه من كبار أعضاء المكتب السياسي القديم . غير ان خروشوف يتجاهل ، فعلا ، المغزى الحقيقي لعدد من تصرفات ستالين كما انه لا يعطي أي دليل على الاطلاق عن الصراع من اجل السلطة والنفوذ الذي دار بينه وبين مالنكوف (المتحالف مع بيريا) والذي كان يزداد حدة كل يوم. وقد سيطر ستالين بالطبع على المؤتمر وان يكن لم يتكلم سوى مدة سبع دقائق . وكان الشخصان الرئيسيان هما مالنكوف الذي القى تقرير اللجنة المركزية العامة ، وخروشوف الذي القى خطاباً له أهمية مماثلة عن اصلاح انظمة الحزب . وكان هذان المتنافسان قد ارتفعا فوق رؤوس الذين هم أقدم منهم ، ويبدو ان ستالين كان في هذا الزمن يضع هذين الرجلين في الطليعة كخليفين متضامنين له – ولكنه كان ، في الوقت ذاته ، يلعب الواحد منهما ضد الآخر. وما أغفل خروشوف ذكره هو ان كلا منهما قد هاجم الآخر بعنف في خطابه – فمالنكوف هاجم خروشوف دون ان يذكر اسمه وذلك بانتقاد اصلاحاته الزراعية الناقصة والفاشلة ، كما ان خروشوف هاجم بدوره مالنكوف للفساد والرشوة وضعف المعنويات وفساد الأخلاق في داخل الحزب .

في ١٩٥٢ استدعانا ستالين واقترح علينا ان ندعو إلى عقد مؤتمر حزبي . ولم يكن في حاجة لاقناعنا بذلك ، لاننا كنا جميعاً نرى ان من غير المعقول ان تمضي ثلاث عشرة سنة دون ان يعقد مؤتمر حزبي . وفضلا عن هذا كانت اللجنة المركزية قد انقطعت اجتماعاتها بعض الوقت (١) .

وبالاختصار كان قد انتفى دور الحزب بكامله وبنوع خاص اللجنة المركزية

(١) كان نظام الحزب يقضي بعقد مؤتمر حزبي كل ثلاث سنين . وكان من مهام المؤتمر ان ينتخب لجنة مركزية جديدة يختار منها أعضاء المكتب السياسي والسكرتيرين وغيرهم من كبار رجال الحزب . على ان ستالين كان يحكم دون مؤتمر منذ ١٩٣٩ ولا يعير التفاتاً إلى اللجنة المركزية مجرياً تعييناته الخاصة للمكتب السياسي الخ . (انظر ملحق رقم ٢) .

من القيادة الجماعية . وكان ستالين يعمل وحده متخطياً اللجنة المركزية ، ومتخذاً من المكتب السياسي ختم مطاط يصدق به قراراته . ولم يكن ستالين يزعج نفسه الا نادراً لان يطلب رأي اعضاء المكتب السياسي حول قضية معينة ، بل كان يتخذ القرار ثم يصدره بمرسوم .

ومهما يكن من امر فقد تقرر ان ندعو إلى مؤتمر حزبي في شهر تشرين الأول ١٩٥٢ . ومر بعض الزمن ولم يقل ستالين شيئاً عن جدول اعمال المؤتمر او من يريد هو ان يتكلم فيه . وكنا جميعاً نحاول ان نعرف اذا كان ستالين سيتولى هو شخصياً القاء التقرير العام او انه سيعهد بذلك إلى سواه . وفي هذه الحال ، فمن سيكون ذلك الشخص . وقدرنا انه اذا لم يلق التقرير هو شخصياً ، فمعنى ذلك انه يحس بالعجز عن الوقوف مدة طويلة على المنصة . طبعاً ، كان بامكانه ان يوزع نسخاً من الخطاب على المندوبين ولا يزعج ذاته بتلاوته بصوت مرتفع .

واخيراً اتخذ ستالين قراره بصدد جدول اعمال المؤتمر واعلن انه سوف يعهد بالتقرير العام إلى مالنكوف ، واستطرد يقول : « لنكلف خروشوف بوضع التقرير عن انظمة الحزب ، وسابوروف بوضع التقرير عن مشروع السنين الخمس » . وكان سابوروف هذا رئيساً للجنة التصميم (١) . وبعد ان ابلغنا ستالين قراراته هذه ، جرى تسجيلها حالا ، ثم وضع جدول اعمال المؤتمر الحزبي التاسع عشر وجرت الموافقة عليه .

واني لاعترف انه عندما صدر الامر لي بان اعد التقرير عن انظمة الحزب توترت اعصابي حذراً . فالتعيين هو دون ريب شرف عظيم ولكن في الوقت ذاته كنت اعرف انه عمل صعب ، اذ على القيادة الجماعية انتوافق عليه . وعلمت انني عندما اعرض صيغة التقرير ينبغي ان اتوقع اعتراض الآخرين عليه وبنوع خاص بيريا الذي سوف يأخذ مالنكوف إلى جانبه . وذلك ما حصل فعلا. اما ستالين فلم يطلع على تقريري ، بل اصدر امره إلى مالنكوف وبيريا ولي ولشخص آخر ان نراجع التقارير كلها . واصر بيريا على ان تقريري طويل جداً ويجب تلخيصه فحذفت منه كثيراً من المواد حتى ان تلاوته في النهاية لم تستغرق سوى حوالي ساعة واحدة .

(١) م.ز. سابوروف مهندس امضى أكثر حياته في لجنة التصميم وكان نائب رئيس الوزراء في ١٩٤٧ . لم يدخل اللجنة المركزية حتى ١٩٥٢ وكان تدرجه في الارتقاء حينئذ سريعاً . وقد تعرض لخطر جدي في ١٩٥٧ بسبب تأييده «للزمرة المعادية للحزب» ضد خروشوف .

على اني لا اظن ان الجوهر تأثر كثيراً . لقد تم اختصاره بحذف الامثلة التي لم تكن سوى حواشي ادبية يقصد منها زيادة توضيح بعض البيانات .وبتعزيز تقريري بالامثلة كنت في ذلك اقلد إلى درجة معينة جدانوف الذي تولى تقديم التقرير عن انظمة الحزب في المؤتمر الثاني عشر (١٩٣٩) مستعيناً بتدوين امثلة كثيرة فيه لا اعلم مبلغ ضرورة وجودها . غير انني اعتقدت ان ذلك الاسلوب الخاص قد سبقت الموافقة عليه لذلك سرت على منواله (١) .

ورب سائل يسأل لماذا لم يعهد ستالين بالتقرير العام إلى مولوتوف او ميكويان وكل منهما كان يشغل في الحزب منصباً اعلى من مالنكوف ، وهما شخصيتان حزبيتان لهما اهميتهما ؟ وكان البعض من الذين في هيئة القيادة قبل الحرب يعتبر ان مولوتوف سوف يكون زعيماً في المستقبل وانه ارجح المرشحين لان يخلف ستالين . غير ان هذا الظن زال من رؤوسنا بعد الحرب. وفي الايام التي سبقت وتلت المؤتمر الحزبي التاسع عشر كان ستالين يهاجم مولوتوف وميكويان في كل اجتماع نعقده ، وكان هذان الرجلان قد فقدا الحظوة وحياتهما كانت في خطر .

وهكذا عقد المؤتمر وتليت التقارير وبدأت المناقشة . وكانت المدد المخصصة للمناقشة قصيرة . وكان الجو المخيم على الحزب في ذلك الوقت يكاد لا يكون مساعداً على مناقشة الاقتراحات الواردة في التقارير المقدمة من قبل القيادة . ومع اقتراب المؤتمر من نهايته بحثنا في تقرير سابوروف عن مشروع السنين الخمس . وكان اسوأ مشروع خمسي اقره المؤتمر على الاطلاق . كان هزيلا في صيغته وفي تقديمه . وقد اضطررنا في ما بعد إلى تحمل مسؤولية تحقيقه . ولما كان التقرير لا يمكن الاعتماد عليه ، فلم يكن امامنا سوى ان ندخل عليه بعض التعديلات. وكانت القاعدة المتبعة انه لا يجوز التفكير في تعديل اي وثيقة يكون قد ابرمها المؤتمر الحزبي . غير ان هذه كانت حالة استثنائية وكان من البديهي في نظرنا ان مشروع السنين الخمس هذا لن ينتهي إلى شيء . واني لاذكر ان في بحثنا عن وسيلة ديموقراطية لتعديل مشروع السنين الخمس لكي تتفق اهدافه مع شيء من الحقيقة ، اجرينا توزيع التعديلات المقترحة على المندوبين . وبالاختصار اتخذنا التدبير المعقول الوحيد الذي كان باستطاعتنا ان نتخذه .

وفي نهاية المؤتمر القى ستالين خطابه الذي لم يستغرق اكثر من ست او سبع

(١) ان بيان خروشوف عن الاسلوب الذي اتبعه في اعداد خطابه ، وهذه كانت أعلى لحظة في تاريخه حتى ذلك الوقت ، يلفت النظر .

دقائق . وانطلق الجميع في الهتاف والتصفيق له ، مسبغين عليه نعوت النبوغ والعبقرية وما إلى ذلك من اطراء . وبعد ان غادر ستالين المنصة ورفعت جلسة المؤتمر ، التقينا جميعاً في قاعة الرئاسة (البرزيديوم) وهناك قال ستالين : « انظروا ! انني لا ازال استطيع ذلك » . اي انه يستطيع ان يقف على المنصة مدة ست او سبع دقائق ، وهو يعتبر ذلك نصراً عظيماً . ومع ذلك يرى انه لا يزال يمتلك القوة الكافية ليستمر في العمل !

وبعد المؤتمر افتتح ستالين شخصياً جلسة اللجنة المركزية . واقترح انشاء هيئة رئاسة (برزيديوم) مؤلفة من ٢٥ عضواً واخرج بعض الاوراق من جيبه قرأ قائمة الاسماء علينا . وصودق على الاقتراح والتعيينات ايضاً بدون مناقشة . وكان المعروف انه عندما يقترح ستالين شيئاً ، فلا تلقى اسئلة ولا تعليقات . فالاقتراح الذي يصدر عن ستالين هو بمثابة امر من الله وليس لاحد ان يجادل في ما يأمر به الله ، بل يتوجب على الجميع ان يرفعوا فروض الشكر ويؤدوا الطاعة . وبينما كان ستالين يتلو اسماء الاعضاء خفضنا جميعاً عيوننا وانكمشنا في مقاعدنا — ٢٥ شخصاً ! سوف يكون من الصعب العمل في مثل هذه المجموعة الكبيرة ، وسيكون من المتعذر اقرار اية قضايا عملية .

وبعد انتهاء الجلسة العامة تبادلنا جميعاً النظرات . ما الذي حدث ؟ من وضع هذه القائمة ؟ ان ستالين شخصياً لا يمكن ان يعرف معظم هؤلاء الاشخاص الذين اقر الان تعيينهم هو شخصياً . وظننت في بادىء الامر ان مالنكوف كان وراء هذا البرزيديوم الجديد دون ان يخبرنا بذلك . ولكنني فيما بعد سألته باسلوب ودي فاجاب قائلا : « اقسم لك ان لا علاقة لي على الاطلاق بهذه القائمة . ان ستالين لم يطلب مساعدتي ولا انا ابديت اية اقتراحات في صدد تأليف هيئة البرزيديوم » . وهكذا زاد انكار مالنكوف في غرابة الموضوع وغموضه . ولم يكن باستطاعتي ان اتصور ان بيريا له يد في ذلك ، لان هنالك اسماء في القائمة لا يمكن لبيريا ابداً ان يوحي لستالين بها . ولكني مع ذلك سألته قائلا : — « لافرنتي ، هل انت اوصيت لستالين بهذا ؟ » .

« كلا . كنت في بادىء الأمر متأكداً ان مالنكوف هو الذي فعل ذلك ، غير انه انكر بقسمه » . ثم ان لا مجال للظن بمولوتوف وميكويان ، اما بولغانين فقال انه لم يكن على علم بشيء وهكذا بقينا نتساءل حول هذا الموضوع محاولين ان نتوصل إلى معرفة من كان وراء تلك الاسماء . وكان بوسكريبشيف هو المتولي شؤون سكرتيرية ستالين الشخصية ، غير انه لم يكن باستطاعته ان يقترح اسماء دون الاستعانة بهيئة سكرتيرية مالنكوف ، وهو لو فعل ذلك لكان مالنكوف

علم بالامر . ذلك ان في الهيئة جماعة موالية له كانت تبلغه بالامر حتى لو تلقوا امراً مخالفاً من ستالين . وهكذا فشلنا في التوصل إلى معرفة الحقيقة . وبقيت تلك القائمة لغزاً تعذر علينا حله . واني اقدر الآن على اساس بعض الادلة ان ستالين تخطى مالنكوف تماماً واستعان بكاغانوفيتش . لقد كانت بعض الاسماء غير معروفة الا قليلا في الحزب ، غير ان كاغانوفيتش كان يعرف اصحابها ، ويرجح انه هو اخبر ستالين عنهم .

يرى القارىء من هذا اي نوع من الزعامة كان عندنا ؟ كان المفروض ان ستالين هو الذي يدير المؤتمر ويؤلف لجنة مركزية جديدة وينشيء « برزيديوم » جديداً ، غير ان الواقع هو انه لم يكن يعلم الا بالقليل جداً مما تصنع يداه . كان « البرزيديوم » الجديد اكبر كثيراً من ان يكون صالحاً للعمل ، وعضويته متنافرة العناصر . فقد كان الاشخاص الخمسة والعشرون الذين وقع عليهم الاختيار متفاوتي النوعية ومن فئات مختلفة المزايا . كانوا جميعاً يتمتعون بثقة الحزب وكانوا دون شك رجالا لهم مكانتهم . غير ان الكثيرين منهم لم يكونوا معدين لعمل له مثل هذه الاهمية (١) .

عندما كان ستالين يقرأ اسماء اعضاء « البرزيديوم » الجديد اصغيت باهتمام وتساءلت هل سيكون مولوتوف وميكويان وفوروشيلوف ضمن هذه الهيئة ؟ كنت ارتاب في ذلك اذ كانوا من الرجال الذين طرحهم ستالين جانباً . ان خطر اعتبارهم كجواسيس وبذلك اعلانهم اعداء للشعب كان معلقاً فوق رؤوسهم . ولكن ، وردت اسماؤهم في اللائحة . وقد رأيت في ذلك علامة حسنة .

وبعد ان اقترح ستالين الاسماء الخمسة والعشرين قال انه نظراً لصعوبة العمل

(١) كان تعيين « برزيديوم» من ٢٥ شخصاً ليحل محل المكتب السياسي الاصغر كثيراً موضع دهشة لدى جميع الذين لم يكونوا على بينة بالحقائق . ولكن هل كان خروشوف ومالنكوف على غير معرفة مثل الباقين منا . ان ما يثير الاهتمام في صدد الأشخاص المستجدين، سواء من الأعضاء أو المرشحين للعضوية، انهم كانوا محسوبين بالتساوي من رجال مالنكوف ورجال خروشوف . وهذا ، إذا استعملنا تعبير ستالين ، لم يكن صدفة . وتجدر الملاحظة ان الا عضاء المرشحين كان بينهم كوسيغين بعد ان كان قد عزل من مناصبه بعد قضية لينغراد . كما ان ل.ا. بريجنيف ، الذي كان حينذاك مشمولا برعاية خروشوف إلى حدبعيد ، ظهر لأول مرة على المسرح . وكان ستالين على ما يبدو قد وسع لجنة الحزب العليا لكي يغطي مسبقاً التصفية المتوقعة للبعض من كبار أعضائها .

في مجموعة من هذا الحجم فان علينا انتخاب هيئة مكتب من اعضاء البرزيديوم(١) .

وهذا الاقتراع كان غير دستوري ، اذ كنا قد اعتمدنا نظاماً جديداً للحزب في المؤتمر الحزبي التاسع عشر. ونحن لم نضع نصاً بانشاء هيئة مكتب للبرزيديوم . وهكذا بدأنا فعلا في مخالفة الانظمة . وقال ستالين بان المكتب سوف تكون اجتماعاته اكثر من اجتماعات البرزيديوم ، وسوف يتخذ قرارات في صدد جميع القضايا العملية التي قد تعرض عليه . اقترح ستالين تأليف هذا المكتب من تسعة اعضاء ، وقرأ اسماءهم حالا . وهم ستالين شخصياً ، مالنكوف ، بيريا ، خروشوف ، فوروشيلوف ، كاغانوفيتش ، سابوروف ، برفوخين (٢) بولغانين . وهكذا ترك خارجاً مولوتوف وميكويان . كان ادخال فوروشيلوف غريباً لان ستالين كان قد بدأت تخامره الشكوك حوله قبل زمن طويل من فقدان مولوتوف وميكويان الحظوة لديه . وقد اسفت اشد الاسف لان مولوتوف وميكويان لم يعينا لعضوية المكتب . وكنت ارى وجوب تعينهما .

والقى ستالين خطاباً في الجلسة العامة ادلى فيه ببعض الايضاحات المدهشة كثيراً والغامضة في الوقت نفسه عن سبب عدم جدارة مولوتوف وميكويان بثقة الحزب . فقد قال انهما عملاء لبعض الحكومات الغربية . وبالطبع لم يكن هنالك شيء من المنطق في هذا . فلو انهما كانا عملاء للاجانب وليسا جديرين بثقتنا ، اذن لماذا ابقيا في اللجنة المركزية وفي « البرزيديوم » ؟ وعلى اي حال ، فان مولوتوف وميكويان استبعدا في الواقع من الهيئة الحاكمة . غير انه سرني ان فوروشيلوف عين في هيئة المكتب . ورأيت ان ستالين ادرك اخيراً انه كان من الخطأ اعتبار فوروشيلوف جاسوساً للانكليز وغير ذلك من الاتهامات . كان كل شيء يتوقف على تخيلات ستالين الخصبة المتبدلة بين يوم وآخر .

وبعد المؤتمر الحزبي التاسع عشر وانشاء « البرزيديوم » الموسع وهيئة مكتب « البرزيديوم الجديد » ، استمرت اعمالنا وفقاً للنمط ذاته الذي كنا قد سرنا عليه قبل كل التبديلات والتحسينات . ومن اعضاء المكتب التسعة اختار ستالين لجنة داخلية من خمسة وفقاً لارادته وصداقاته .

---

(١) كان يعتقد انذاك ان لستالين هيئة داخلية صغيرة يعتمد عليها ولم يعرف بالضبط ممن كانت مؤلفة .

(٢) م.ج. برفوخين كان أحد الوزراء الفنيين (مثل سابوروف) الذين اكتسبوا شهرة في الصناعة ورقوا بسرعة إلى القمة في سني ستالين الأخيرة ، وهو أيضاً وجد ذاته في متاعب بعد هزيمة الزمرة المعادية للحزب .

لقد كان يعتبر شرفاً عظيماً ان يدعى انسان إلى الاجتماع مع ستالين . ومن الناحية الاخيرة كان يعتبر نذير شؤم اذا دعي المرء مرة ولم توجه اليه دعوة بعد ذلك. والاشخاص الخمسة كانوا: ستالين ومالنكوف وبيريا وبولغانين وخروشوف . وهو نادراً ما كان يدعو كاغانوفيتش وفوروشيلوف . اما مولوتوف وميكويان فلم توجه اليهما الدعوة على الاطلاق . والحقيقة الفعلية ان « البرزيديوم » كذلك لم يدع إلى الانعقاد ابداً . فكانت هيئة المكتب تقرر كل القضايا ، وهذه الهيئة كان معناها عادة اللجنة الداخلية المؤلفة من خمسة . وكانت جميع القرارات تتخذ بالطريقة ذاتها التي كان ستالين قد وضعها قيد الممارسة بعد عام ١٩٣٩ . فقبل المؤتمر الحزبي الثامن عشر كان « البرزيديوم » قد حافظ على قدر معين على الاساليب الديمقراطية . غير ان الديمقراطية اخذت تدريجياً تفسح الطريق امام الاوتوقراطية . فكان ستالين ، منذ ان اباد هيئة اللجنة المركزية الاساسية التي كان قد جرى انتخابها في المؤتمر الحزبي السابع عشر (١٩٣٤) والتي ضمت «الرجال الشيوخ » الذين خاضوا النضال لانشاء حزبنا منذ قبل الثورة ، يصدر الامر وحده ويعطل المناقشات. وفي هذا ما فيه الكفاية عن القيادة الجماعية .

مؤامرة الاطباء

كان اعتقال أطباء الكرملين في كانون الثاني ١٩٥٣ بتهمة تسميم جدانوف وآخرين من السوفيات البارزين حركة تمهيدية لما أخذ يعرف بتطهير ستالين الأخير ، وهو تطهير يهدف إلى التخلص من بعض أقرب زملائه ، وخصوصاً بيريا ثم مولوتوف وميكويان على الأرجح . ويروي لنا خروشوف شيئاً جديداً عن هذه الحركة التي عرفت بأنها «مؤامرة الأطباء» . والقضية كانت قد لفقت مسبقاً في وقت سابق للمؤتمر الحزبي التاسع عشر المنعقد في شهر تشرين الأول ١٩٥٢ ، وإلا لما كان خروشوف يعلم بأن الطبيب الذي كان يعالجه هو بالذات في أثناء المؤتمر سيكون موضع اتهام . وما لم يكن خروشوف يخلط في تواريخ الحوادث ، فثمة رائحة كريهة تفوح من هذه الرواية . والحقيقة أن دور خروشوف في هذه القضية المشؤومة هو موضع شبهة . فان س.د. اغناتيف ، وهو رجل مقرب جداً من خروشوف كان قد حل محل أباكوموف ، أحد أنصار بيريا، وزيراً لأمن الدولة . وفي ١٩٥٢ كان قد اشترك اشتراكاً فعلياً في تطهير رجال بيريا في مصالح الأمن تطهيراً وحشياً، وكانت مهمته ان يلفق أدلة الإثبات ضد الأطباء (الرسالة الاتهامية التي ارسلتها ليديا تيماشوك كانت عملية ملفقة كما قال خروشوف ذاته في خطابه السري) والاعترافات المغتصبة منهم بالعنف . وعندما اعيد التحقيق

بالقضية بعد وفاة ستالين اتهم بيريا أغناتيف بانه وراء القضية .
ولم يلبث بعد ذلك ان اعتقل بيريا واعدم مع كبار شركائه ، ومنهم أباكوموف . أما أغناتيف الذي قال خروشوف انه كان على فراش الموت في ١٩٥٢ فقد استعاد صحته إلى حد أتاح له البروز عضواً في سكرتيرية خروشوف الحزبية الخاصة . ورواية خروشوف لهذه الواقعة ، تحول الانظار عن أكبر مضامين هذه القضية وعن الحقيقة التي لا تزال مبهمة غامضة التفاصيل. فهو يعالجها كأنها مثل على سفالة ستالين في مهاجمة الابرياء ، كاولئك الأطباء .

استدعانا ستالين ذات يوم إلى الكرملين وتلا علينا رسالة من امرأة طبيبة اسمها تيماشوك زعمت فيها ان جدانوف مات لأن الأطباء تعمدوا علاجه علاجاً خاطئاً اودى بحياته . ومما لا ريب فيه انه لو صح ذلك لكان من افظع النذالات . إذ كيف يقدم اطباء على تدمير الحياة وهم الموكلون بانقاذها .

ولو كان ستالين شخصاً عادياً موزوناً ، لما اعار رسالة تيماشوك اي اهتمام . فالثابت ان مثل هذه الرسالة تصدر عن اشخاص غير متزنين نفسياً او يكيدون لاعدائهم بغية التخلص منهم . غير ان ستالين كان اكثر من متجاوب مع هذا النمط من المخطوطات . واني في الواقع اعتقد ان هذه المؤامرة هي نفسها كانت من منتجات السياسات الستالينية . فستالين كان قد غرس في ضمائرنا جميعاً الشكوك باننا محاطون بالاعداء وعلينا ترصدهم لنكتشف خائناً مكتوماً او مخرباً غير مفضوح في كل واحد منا .

وكان ستالين يسمي ذلك كله « باليقظة » او « الحذر » ودرج على القول انه اذا كان في نبأ ما عشرة بالمئة من الصحة فيتوجب علينا ان نعتبره صحيحاً، ولكن كيف يمكن العثور حتى على عشرة بالمئة من الحقيقة في رسالة مثل رسالة تيماشوك ؟

ان نظرة ستالين « لليقظة والحذر » حولت عالمنا إلى ملجأ للمجانين يلقى كل واحد فيه تشجيعاً للبحث عن حقائق غير موجودة في الشخص الآخر . فالابن تحول ضد ابيه ، والاب ضد ابنه ، والرفيق ضد الرفيق . وقد سمي هذا « مواجهة طبقية » . واني ادرك ان النضال الطبقي لا يؤدي اية مساعدة بل يفرق العائلات بدون رحمة . ان النضال الطبقي يحدد موقف كل عضو في الاسرة . واني لأؤيد الكفاح الذي لا يلين ولا يهاود في النضال الطبقي ، فهو ضروري لبناء الاشتراكية وتحقيق مستقبل أفضل . ان الحرب الطبقية ليست عرضاً احتفالياً ولكن معركة دموية قاسية . وانا اعرف هذا . لقد كنت انا شخصياً

مشاركاً في النضال الطبقي وتوصلت إلى تفهم المواجهة الطبقية اثناء الحرب الاهلية ، عندما اشتركت في النضال الدموي الذي اثاره الجيش الاحمر ضد عصابات المخنوفيتش والجيورجويين والانطونوفيين المشتتة وبقايا وحدات البيض الاخرى التي كانت لا تزال منتشرة ، ولم يقض عليها .

كان القوقاس الشمالي يعج بالعصابات واشتركت انا شخصياً في الاجتماع الذي عقد لتنظيم النضال ضدها . واخذت صورة فوتوغرافية مرة لفريق منا مع فورمانوف رئيس الادارة السياسية . وارسلت إلى رفيقي في السلاح وفي ادارة شؤون الجيش السياسية فيرا شوتسكينا نسخة من تلك الصورة . وهي الآن متقاعدة واني مسرور لانها على قيد الحياة وفي صحة جيدة . واني لا اعلم كيف تخطاها الكأس عندما كانت المجازر الستالينية لا تزال مستمرة . وعلى كل حال حتى في الماضي عندما كان النضال ضد عصابات البيض مستمراً في القوقاس الشمالي ابدى لينين بفضل بعد نظره ضبطاً عظيماً للنفس والكثير من الانسانية ، ففعل كل ما باستطاعته لكي لا يلحق اذى بالابرياء . وعندما كان يرى شخصاً ما مذنباً كان يتفانى في العمل على خلاصه واعادة اعتباره بدلا من معاقبته . وحتى لو كان الرجل ارتكب خطأً ، كان لينين يعمل على مساعدته واعادة تركيزه على اوضاع ايجابية اولا بشل خصال ذلك الرجل السلبية ثم باعادة تجنيده تدريجياً في النضال الفعال لبناء حياة اشتراكية جديدة . غير اننا خلفنا المسرح اللينيني وراءنا وانتقلنا إلى المسرح الستاليني وإلى السياسات اللاعقلانية — سياسات رجل مريض انزل الرعب بنا جميعاً .

وبالعودة إلى رسالة تيماشوك ينبغي ان اذكر ان جدانوف كان قد عولج من قبل اطباء الكرملين الذين ما كان يمكن ان يكونوا الا من خيرة الاطباء الموثوق بهم . ولم يكن يجند للعمل في مستشفى الكرملين الا الرجال المعروفون والحائزون على كل احترام في عالم الطب السوفياتي . غير ان هؤلاء القي القبض عليهم وزجوا في السجن مثل المجرمين العاديين .

كان جدانوف قبل وفاته في صحة سيئة مدة من الزمن . واني لا اعلم ما هي العلة التي كان يشكو منها الا ان بين علله كانت اضاعته قوة ارادته ، وفقدانه السيطرة على نفسه بسبب المسكرات . وكان مشهده يدعو إلى الشفقة . واني لاذكر حتى في ايام جدانوف الاخيرة ان ستالين كان يصيح به لان يوقف الشرب ، وكان هذا شيئاً مذهلا لان ستالين كان عادة يشجع الناس لان يتمادوا في الشرب حتى السكر . غير انه كان يرغم جدانوف على شرب عصير الفاكهة فيتألم اذ كنا نحن في الوقت ذاته نشرب النبيذ او شيئاً اقوى من النبيذ . وكان من

السهل ان نتصور ان ستالين هو الذي ارغمه على ذلك . الا ان جدانوف كان يفلت من كل رادع في منزله . ان هذه العادة الشريرة ذاتها هي التي قتلت شيرباكوف ، وهي بكل تأكيد عجلت في وفاة جدانوف إلى حد بعيد .

انني لا اضع على الاطلاق شيرباكوف وجدانوف على مستوى واحد . فمنذ وفاة ستالين ادركت ان طائفة المفكرين المثقفين عندنا تضمر كرهاً عميق الجذور ضد جدانوف بسبب دوره في تعطيل صحف لينينغراد . غير انه ينبغي ان لا يغرب عن البال ان جدانوف لم يكن الا منفذاً لاوامر ستالين . واني اعتقد ان سياسات ستالين الثقافية ، وخصوصاً سياساته الثقافية التي فرضها على لينينغراد بواسطة جدانوف ، كانت قاسية حمقاء لا معنى لها (١) .

فليس من المستطاع تنظيم تطور الاداب والفنون والثقافة بالعصا او باصدار الاوامر ، وليس بالامكان شد جميع الفنانين بالزمام للتأكد من عدم انحرافهم عن السير في الخط الضيق الذي رسم لهم . ان محاولة السيطرة على الفنانين واحكام القيود عليهم يؤدي إلى عدم تبادل الآراء وتصادمها وزوال الانتقادات ، وبالتالي ضياع الحقيقة تماماً . ولن يبقى سوى صورة مظلمة مملة داعية إلى الضجر لا فائدة منها . وهذه الصورة لن تؤدي فقط إلى عدم تشجيع الناس على الافادة من الفن بل انها تسمم وتقتل اهتمامهم بالفن وعلاقاتهم به .

وعلى كل حال فان الاطباء الذين كانت لهم علاقة بمرض جدانوف اعتقلوا جميعاً وكان بينهم فينوغرادوف الذي تولى مرة علاج ستالين ، وهذا امتياز وشرف عظيم له ، لان ستالين لم يكن يسمح قط للاطباء بمعالجته . غير ان ستالين لم يوفر فينوغرادوف ، بل امر باعتقاله وضربه . وقد تعرفت إلى فينوغرادوف بعد اطلاق سراحه ، اذ جيء به اكثر من مرة لاستشارته عن صحتي . واعتقلوا ايضاً ف. ك. فاسيلنكو ، وهو طبيب واسع الشهرة واستاذ كبير . لم اكن اعرفه شخصياً معرفة جيدة غير اني سمعت اشياء كثيرة حسنة عنه من ستْرازهسكي الذي كنت احترمه كثيراً . وكنت قد عرفت ستْرازهسكي من ايام كييف . فكان ضوءاً يستنار به ليس فقط في عالم الطب عندنا بل في الخارج ايضاً . وعندما انتهت الحرب طلب مني ستْرازهسكي اطلاق سراح فاسيلنكو من الجيش لكي يستطيع

(١) ان الاشارة هنا إلى تطهير الفنون بواسطة جدانوف كانت فضيحة كبيرة في ١٩٤٧–١٩٤٨ . فالمجلات عطلت وحدد عدد المؤلفين وأرغم الشعراء البارزون على الاعتراف بأغلاطهم الماضية واجبروا على اعطاء وعود بأن ينظموا للجماهير فقط . وقد كانت في الواقع موجة ارهاب ثقافي .

العمل في المستوصف الذي كان ستْرازهسكي يديره وقال « فاسيلنكو تلميذي واود ان يتسلم العمل مني لكي اكون متأكداً ان المستوصف انتقل إلى أيد يعتمد عليها » . وكان ستْرازهسكي قد اسس هذا المستوصف قبل الثورة وكانت له سمعة ممتازة . وكان فاسيلنكو في الصين عندما بدأت الاعتقالات فاستدعي منها . وفي الدقيقة التي وطأت اقدامه الحدود السوفياتية القي في السلاسل والقيود .

واني لاذكر بعد القاء تقريري عن انظمة الحزب في المؤتمر الحزبي التاسع عشر انني مرضت ولم اتمكن من مغادرة المنزل عندما كان تقريري يناقش في المؤتمر ، بل اضطررت ان الزم الفراش لبضعة ايام فجاء طبيب متقدم في السن لفحصي . وبينما كان منصتاً لدقات قلبي وضع اذنه على صدري فتأثرت ببعد نظره وشدة تفكيره وعنايته وشعرت برهبة في تلك اللحظة . واحسست بالالم. لا لانني كنت مريضاً بل ، لانني كنت قد قرأت شهادة ضد ذلك الطبيب الشيخ الذي اثر بي كثيراً اهتمامه بصحتي . وكنت اعلم انني قلت بصدده ان ستالين لن يوفره ويعفي عنه .

وبعد فينوغرادوف جرى اعتقال فاسيلنكو والآخرين . ووزع ستالين نسخاً عن رسالة تيماشوك مع تعليقه عليها فأثار غضب الجماهير ضد الاطباء الذين « ارتكبوا مثل تلك السفالة » بقتلهم جدانوف . وبدأت رسائل اخرى تتدفق واصفة الاطباء بالخونة . وكانت تلك الرسائل تعكس رأي الشعب الذي اعتقد ان ستالين لم يكن ليذيع مثل هذه الوثيقة لو لم تكن قد اثبتت الادلة الجريمة . . فثورة الناس كانت بدافع استنكارهم لحدوث مثل ذلك الجرم .

كونيف (١) الذي كان هو نفسه مريضاً في ذلك الوقت ، وجه رسالة طويلة إلى ستالين زعم فيها انه هو ايضاً يجري تسميمه بالادوية ذاتها التي قيل انها استعملت للقضاء على جدانوف . وقد جاءت رسالة كونيف مضاعفة للمهزلة . ويبدو ان جميع اعضاء البرزيديوم ادركوا افتقار اتهامات كونيف إلى الحقيقة . ولكننا لم نكن نناقش الموضوع علناً ، لان ستالين عقد العزم على اتخاذ موقف يصعب علينا تبديله . وكنا عندما نجتمع ونتبادل الآراء سراً نعترف بامتعاضنا من

(١) المارشال ا.س. كونيف وهو جنرال ممتاز من الحرب العالمية الثانية ، أظهر بعد ذلك ميلا للا نغماس في الدسائس السياسية . وكان في أوقات مختلفة نائباً أعلى للقوات البرية السوفياتية ، (خلفاً لجوكوف بعد طرده في ١٩٤٦) فقائداً أول لوزير الدفاع وقائداً أعلى لقوات ميثاق فرصوفيا . وقد قيل ان اثنين من المارشالات الآخرين واميرالا واحداً قدسممهم أيضاً (ليس لدرجة الموت) الاطباء التعساء .

رسالة كونيف اذ ان الاشخاص الذين اتهموا بقتل جدانوف كانوا جميعاً في السجن . على ان تلك الرسالة وسعت دائرة المتهمين وزادت في اضرام نار ارتياب ستالين بالاطباء عامة .

ثم بدأت الاستجوابات وسمعت باذني كيف كان ستالين يتحدث مع س. د. اغناتيف الذي كان حينئذ وزير امن الدولة . وكنت اعرف اغناتيف جيداً واعرف انه رجل مريض جداً وقد اصيب بنوبة قلبية كادت تكون قاتلة ، وكان معتدلا لطيفاً محبوباً ، وكنا جميعاً نعلم اي نوع من الحالة الصحية كان فيها . وكان ستالين قد اعتاد ان ينتقص من مكانته بصورة خبيثة على التلفون بحضورنا . ولكن ستالين قد صار شبه مجنون مهتاجاً يصيح على اغناتيف ويهدده طالباً منه ان يضع الاطباء بالقيود والاصفاد ويضربهم حتى يصيروا كتلة محطمة ويسحقهم حتى يصيروا مثل الغبار . ولم يعترنا اي استغراب عندما اعترف الاطباء جميعاً تقريباً بجرائمهم . واني لا استطيع ان الومهم لاتهامهم انفسهم . لقد مر امامي كثيرون من الناس على اختلاف انواعهم : صادقين وخونة ، رجال ثورة ، ومخربين ، اعترفوا جميعاً بما كان ينسب اليهم . واني اضرب مثلا آخر على ذلك ميرتسكوف الذي يقترب الآن من آخر عمره ويمشي عاجزاً مقوس الظهر . اعترف بانه جاسوس للانكليز . وان اطباء الكرملين قد وضعوا في مثل هذه الحالة ذاتها فاعترفوا هم ايضاً بجرائمهم(١) .

تلك كانت قصة القضية التي سميت « مؤامرة الاطباء » . كانت بالفعل عملا معيباً مخجلا . فبعد سحق العدو في الحرب العالمية الثانية ، وبعد ان استعادت طائفة المثقفين السوفيات حقوقها وحققت مكانتها العالمية ، نرى فجأة طائفة من مثقفينا — على الاقل الاطباء منها — يسقطون عرضة لشبهات ستالين . ان قضية الاطباء كانت شيئاً فظاً وحقيراً .

ولو عدنا إلى ١٩٠٢ لوجدنا اضطرابات نشبت نتيجة انتشار الكوليرا في « ماكييفكا » ، وهي مدينة في دونباس ضرب في اثنائها اطباء تلك المنطقة بلا رحمة او شفقة . ثم اني لاذكر في اوائل شبابي حوالي عام ١٩١٠ انه انتشر وباء الكوليرا في جميع انحاء دونباس وكان كثيرون من عمال المناجم يموتون تحت الارض حيث كان يشتغل والدي . وكان العامل عندما يصاب بالمرض ينقل إلى ثكنات الكوليرا التي لم يكن يرجع منها احد . وسرت شائعة بين عمال المناجم ان

(١) برأت لجنةشكلهابيريا بعد موت ستالين الا طباء من الا تهامات التي وجهت ضدهم غير ان اثنين منهم لقيا حتفهما أثناء التحقيق .

الاطباء كانوا يسممون المرضى . ووجد شهود يزعمون بانهم شاهدوا احدهم يلقي مسحوقاً في البئر والآن ، في ايامنا هذه ، عادت السلطات السوداء نفسها ترفع رووسها من جديد وعاد اضطهاد المثقفين والاطباء إلى العلانية .

سفتلانا

بالا مكان مقارنة إنطباعات خروشوف عن ابنة ستالين وعلاقاتها مع والدها وحياتها البيتية مع ما ورد في المؤلفين اللذين وضعتهما سفتلانا وعنوان الأول «عشرون رسالة إلى صديق» ، وعنوان الثاني «فقط سنة واحدة.» ورغم ان ثمة فوارق وإختلافات صغيرة ، إلا ان سفتلانا على العموم تؤيد رواية خروشوف التي تظهره على أحسن ما يكون ، بينما تظهر من ستالين أسوأ خصاله وبصورة نافرة جداً .

ان السرد التاريخي للاحداث هو كالعادة ، مبهم إلى حد ما ، غير ان رواية سفتلانا تؤيد وصف خروشوف عن تدخل ميكويان للدفاع عنها وموقف خروشوف الودي نحوها . وقد فرض حظها العاثر ان يعزل خروشوف بينما هي وبراجيش سنغ في لحظتها الحرجة . فكان ان تولى كوسيغين وسوسلوف من بعده ، منعها من الزواج ثم منعها من مرافقة براجيش في رحلته الأخيرة إلى الهند ليموت هناك بسلام .

وعندما توفي وسمح لها في النهاية أن تأخذ رماده إلى الهند حاولت السلطات ان تعيدها حالا إلى بلادها . وكان بنيدكتوف وهو السفير السوفياتي في الهند ، وهو الذي يصفه خروشوف بالمتزمت ، عبارة عن انسان مذعور . فقد كان وزيراً للزراعة لفترة ثم عزله خروشوف .

أما تعليقات خروشوف عما يتوقع المواطنون السوفيات عندما يستدعون إلى موسكو ، فتفي بايضاح حقيقة الحال .

عرف ستالين بطبائعه المتوحشة وطباعه الحادة . لكن فظاظته لم تكن دوماً تنطوي على حقد نحو الاشخاص الذين كان يتصرف معهم بخشونة . كان بذيئاً وسيء التصرف مع كل الناس ، لان ذلك كان في طبعه وطبيعته . وقد تعرضت انا مراراً إلى خشونته . فقد كان ستالين يحبني ولو لم يكن يحبني او لو انه شعر باقل شبهة نحوي لكان استطاع ان يتخلص مني في اي وقت اراد ، وبالطريقة ذاتها التي تخلص بها من اشخاص كثيرين اصبحوا في نظره غير مرغوب فيهم . وحدث اكثر من مرة انه بعد ان كان فظاً او ناقماً علي عاد فاعرب لي عن حسن قصده . ولكن معاذ الله ان يبدي اي نوع من الاعتذار . ان الاعتذار كان غريباً

عن طباعه . وهنالك رواية تعطي فكرة جلية كيف ان ستالين كان يسمح لنفسه ان يشتم ويحقر المقربين اليه .

فقد حدث في العام الاخير من حياته ان دعانا جميعاً إلى منزله الريفي للاحتفال معه بالعام الجديد . وكنا جميعاً في حالة ابتهاج كبير . انه عام جديد نضيف به إلى مصلحتنا سنة اخرى من الانتصارات والنجاحات . وكانت هنالك موائد عليها اصناف المقبلات ، فتناولنا عشاء فاخراً وشربنا كثيراً . وكان ستالين في حالة زهو ومرح فشرب كثيراً ، والح على الجميع بان يحذوا حذوه . وكانت هنالك مقادير كبيرة من الخمر تحت تصرفنا .

وتوجه ستالين نحو الحاكي ووضع بعض اسطوانات الموسيقى الروسية والجيورجية . فاصغينا جميعاًواخذنا نغني مرافقين الاسطوانات . ثم وضع بعض الالحان الراقصة وانطلقنا نرقص . وكان بيننا راقص واحد ماهر هو انسطاس ايفانوفيتش ميكويان . وجميع رقصاته كانت مبنية على ايقاع ليزغينكا (رقصة قوقاسية شعبية) .

ثم بدأ فوروشياوف يرقص وانضممنا جميعاً اليه . وأنا عندما أرقص لا احرك قدمي ، انني أرقص كما ترقص البقرة على الجليد . غير اني مع ذلك اشتركت في الرقص ، وكذلك فعل كاغانوفتش على انه كان راقصاً من مرتبتي ولم يكن أعلى من مرتبتي كثيراً . وبولغانين على ما يظهر قام بشيء من الرقص في شبابه . فكان يحاول أن يؤدي رقصة روسية غامضة الايقاع . وقد رقص ستالين أيضاً يمسح الأرض بقدميه ، وذراعاه ممدودتان إلى الخارج . وكان واضحاً انه لم يرقص على الاطلاق من قبل (وانه لمن المؤسف أنّ مولوتوف لم يكن معنا في تلك المناسبة . فهو الوحيد ، بسبب نشأته في عائلة مثقفة ولكونه طالباً جامعياً ، كان يعرف ، مثل سائر الطلاب ، كيف يرقص . وكان يحب الموسيقى ويستطيع العزف على الكمان . ورغم انني لم أكن خبيراً في هذه الامور حتى أكون حكماً صالحاً ، غير ان مولوتوف كان في نظري راقصاً من المرتبة الاولى) وكان الجو العام في الحفلة مرضياً . ثم ظهرت سفتلانكا (صيغة تحبّب لاسم سفتلانا ابنة ستالين) . ولا أدري اذا كانت قد دعيت أو انها أتت من تلقاء ذاتها . إلاّ أنها وجدت ذاتها وسط حشد من الناس أكبر منها سناً ، اذا شئنا استخدام تعبير ملطّف . وحالما وصلت هذه السيدة الرصينة دعاها ستالين أن ترقص . واستطعت أن اتبيّن علائم الارهاق على وجهها . كانت تتحرّك بصعوبة وهي ترقص . ورقصت لفترة قصيرة من الزمن ثم حاولت أن تتوقف . ولكن والدها ظل مصراً على استمرارها في الرقص . فذهبت ووقفت إلى جانب الحاكي (الفونغراف) مسندة كتفها إلى

الحائط . وذهب ستالين اليها ، وانضممت بدوري اليهما ، ووقفنا معاً . وكان ستالين يترنّح متمايلاً . ثم قال : «والآن هيا ، يا سفتلانا ارقصي ، فانت المضيفة هنا ، هيا ارقصي ! »

فقالت : «سبق أن رقصت يا أبي ولكنني أشعر انني متعبة ! » وعند ذاك أمسكها ستالين بخصلة من شعرها وجرها . فتضرج وجهها احمراراً ، وامتلأت عيناها بالدموع . وشعرت أنا بالاسى لما أصابها . لكن ستالين مضى يدفعها بقسوة ويجرّها إلى حلبة الرقص .

وها نحن أمام مشهد والد يعبّر بهذا الاسلوب عن حنانه وحبه لابنته ! ذلك انه مما لا يتطرق اليه الشك ان ستالين كان يحب سفتلانا كل الحب . وكان يحب فاسيا أيضاً ، غير انه كان ينحى باللائمة على فاسيا لأنه يعاقر الخمرة ويفتقر إلى حسن السلوك . وكانت سفتلانا من جهة ثانيةطالبة مهذبة وذات سلوك حسن ومهذب . ولم أسمع شيئاً سيئاً عنها . وكان ستالين فخوراً ومولعاً بها . ومع ذلك انظروا كيف أبدى شعوره الوالدي نحو ابنته . لقد تصرف معها بقسوة ووحشية ليس لانه أراد أن يؤلمها ، كلا . بل كان سلوكه نحوها تعبيراً عن محبته ، ولكن باسلوب فظ .

وقد قلت آنفا ، انني كنت أشعر نحو والدة سفتلانا ، نادزهدا الليلوييفا ، بكل تقدير واحترام . واذا كانت مختلفة كثيراً عن ستالين ، فقد كنت معجباً بوداعتها . أما فاسيا (فاسيلي) فقد كان صبياً حسناً ، ذكياً ولكن عنيداً جداً . وقد بدأ يعاقر الخمرة باكراً في شبابه . وكان طالباً لا يعرف النظام وحسن السلوك ، مما سبب لوالده حزناً كثيراً . وأظن ان ستالين كان يضربه دائماً . وقد عهد إلى «شيكتس » وضع «فاسيا» تحت رقابة دائمة .

أما سفتلانا ، فكانت على خلاف ذلك . وعندما كانت طفلة صغيرة كانت تتنقل في جوانب المنزل دائماً عندما نكون هناك . وكان ستالين دائماً يدعوها « بالمضيفة » وأخذنا نحن أيضاً نسميها «المضيفة » كذلك . وكانت دائماً أنيقة في ملابسها . ترتدي تنورة اوكرانية وقميصاً مطرزة . فكانت تبدو شبيهة بدمية جميلة تزينها ثيابها ، ولكنها كانت في الوقت ذاته مثل والدتها ، بشعرها الكستنائي ونقط النمش الصغيرة التي تعلو بشرتها . وقد نشأت «المضيفة» وكبرت أمام عيوننا . لاني اذكر انه كلما كنا نجيء إلى منزل ستالين كان ستالين يقول لها : « هيا أيتها المضيفة ، احتفي بالضيوف » . وكانت تركض إلى المطبخ . وكان ستالين يقول : كلما غضبت علي تهددني بقولها : « سأذهب إلى المطبخ واشكوك إلى الطباخ » وكنت أنا دائماً ابتهل اليها قائلاً «ارحميني ، اذا ما شكوتني إلى الطباخ ، فلا

أدري ماذا يصيبني ». وكانت ، سفتلانا تقول بحزم وقوة انها ستشكو والدها اذا كرر ارتكاب أي خطأ .

وكان لستالين نجل أكبر هو ياشا (ياكوف) من زوجته الاولى ، وهي امرأة جيورجية . وكان ياشا مهذباً . ولم يصدف ان تعارفنا . وعندما بدأت اجتمع بستالين في منزله ، لم يكن ياشا هنالك إلا نادراً . فقد كان يسكن منزلاً مستقلاً مع زوجته وابنته الطفلة . وعندما كان يجيء قليلاً إلى عشاء عائلي في منزل ستالين ، كان يأتي دائماً وحده ولم يجلب معه زوجته وابنته على الاطلاق .

ثم حدث ان زوجة ستالين ناديا انتحرت في ظروف غامضة غريبة . ولا بد أن يكون ستالين قد فعل شيئاً حملها على الانتحار . وكانت سفتلانا تعرف ذلك . وسرت شائعة بأن ستالين اطلق الرصاص على ناديا . ويؤخذ من رواية اخرى وهي أقرب إلى الحقيقة في نظري ان ناديا انتحرت باطلاق الرصاص على نفسها بسبب إهانة وجهت إلى شرفها كامرأة . ومما لا ريب فيه ان سفتلانا كانت تعلم شيئاً عن الطريقة التي ماتت بها والدتها وكانت تتألم لذلك كثيراً .

وبعد وفاة ناديا ، كان فاسيا وسفتلانا دائماً في المنزل عندما كنا نحضر لمقابلة ستالين . وقد اعتدت على رؤية سفتلانا ، وكنت دائماً مولعاً بها . وكنت أشعر نحوها كما يشعر الانسان نحو طفل يتيم : شعور الابوة الممتزج بالشفقة الانسانية . أما ستالين فكان متوحشاً ، قليل الاهتمام بها ، لا يبدي أبداً أي حنان والدي نحوها . وعندما لايكون صارماً بصورة ظاهرة في معاملتها ، كان يبدو بارداً وعديم الاحساس في معاملته . وكان ستالين حيثما توجه يترك أثراً سيئاً في علاقاته مع الآخرين . فقد كان يتميز بشخصية مرعبة . وكانت علاقات سفتلانا بوالدها غريبة معقدة . وكان حنانه نحو ابنته أشبه بحنان القطة نحو الفأر . فقد حطم قلبها وهي طفلة ، ثم وهي فتاة يافعة ، ثم وهي امرأة وأم . وقد أدى ذلك كله إلى انهيار سفتلانا تدريجياً . وكان ستالين يذهب في رحلاته للنزهة وحده ، لا يصطحب أحداً من أولاده معه . ان الحيوانات تحب ان تحتضنها وتلاعبها امهاتها في الشمس وجميع المخلوقات تحتاج إلى المحبة والمخلوق البشري اذا حرم من المحبة تتحجر عواطفه ويصير متصلباً نفسانياً . وهذا ما حدث لسفتلانا .

ولا أعلم أي نوع من البشر تولى الاشراف على تربية سفتلانا ونشأتها . أذكر انني رأيت في بعض الأحيان امرأة جيورجية شابة جميلة في المنزل . وقال البعض انها مربية سفتلانا أو معلمتها . ولا أعلم أي نوع من المعلمة كانت تلك الشابة ولا من أين جاءت . وسرت شائعة تقول انها وجدت هناك لفائدة بيريا لا لفائدة سفتلانا.

وجاء يوم اختفت فيه فجأة .

وتزوجت سفتلانا رجلا اسمه موروزوف . كان اسمه روسياً ، ولكنه كان يهودياً . وعاشا بعض الوقت معاً . وكان ستالين يكاد لا يأبه له أو يتحمل رؤيته . ولم أر موروزوف يدعى ولا مرة إلى أي مكان من قبل ستالين . وهذا أيضاً ضايق سفتلانا وآلمها كثيراً ثم فجأة بعد الحرب ، استولت على ستالين نوبة من العداء للسامية ، فتم الطلاق بين سفتلانا وموروزوف . وكان رجلاً ذكياً . وقيل لي انه الآن اقتصادي كبير وانه يحمل دكتوراه ودرجة علمية في الشؤون الاقتصادية . وبالاختصار فهو رجل ممتاز ومواطن سوفياتي له مكانته .

ولعل ستالين عندما طلب من سفتلانا أن تطلق زوجها ، ذكر شيئاً من ذلك لمالنكوف . وكانت ابنة مالنكوف ، وهي فتاة طيبة جداً اسمها فوليا ، قد تزوجت نجل صديق مالنكوف ، شامبرغ ، الذي كان قد عمل عدة سنين في مكتب مالنكوف . ثم في أحد الأيام اخبرتني زوجة مالنكوف ، فاليريا الكسيفنا مالنكوفا ، وهي امرأة ذكية أحترمها كثيراً ، ان فوليا طلقت زوجها الشاب شامبرغ وتزوجت شخصاً آخر يعمل مهندساً . ولن احاول أن اقارن بين الرجلين . ذلك من شأن فوليا . واني أظن أن زوجها الجديد شاب طيب أيضاً . غير انني لم استطع ان افهم ما الذي دعاها لترك ابن صديق والدها شامبرغ . ان هذا شيء اقلقني في حينه . لم يكن مالنكوف عدواً للسامية ، ولم يخبرني أبداً ان ستالين تحدث اليه عن استيائه لان ابالته متزوجة من رجل يهودي ، غير انني متأكد ، انه حتى وان يكن ستالين لم يقل لمالنكوف مباشرة ، فان مالنكوف قد علم من الآخرين ان ستالين كان قد أمر ابنته سفتلانا بان تطلق زوجها لانه يهودي . ومما لاشك فيه ان مالنكوف وجد من الافضل اقتفاء اثر ستالين مع ابنته . ان هذا الحادث كان مظهراً آخر لذلك العداء الكبير والنامي للسامية الذي سبق وتحدثت عنه . انني لا انسب هذا الشعور إلى مالنكوف ، فان الوضع من ناحيته كان مجرد ولاء خادم لسيده . ان ستالين حمل ابنته على الطلاق من زوجها اليهودي وهكذا ينبغي أن يفعل مالنكوف أيضاً . وعلى العموم ، كنت اعتبر مالنكوف انساناً عادياً سليماً غير مصاب بهذا الداء .

ثم ان سفتلانا تزوجت للمرة الثانية . وكان ستالين يريدها ان تتزوج يوري ، ابن جدانوف ، وهو الآن رئيس إحدى كليات جامعة روستوف . وكنت دائماً أحبه ولا أزال كذلك . فهو شاب ذكي مثقف وعاقل . وستالين يحبه أيضاً . غير ان سفتلانا لا تحبه . وبعد وفاة ستالين تم الطلاق بينهما ، وأسفت كثيراً لكل ذلك ، ولم أكن أميل لأن اسمع الناس يتحدثون عن سوء سلوك سفتلانا وعدم اخلاصها للذين كانت مقترنة بهم . لقد عاشت زمنا في وحدة لا زوج لها . وهذا

شيء غير طبيعي . وكان لها ولدان ، صبي من زوجها الأول وطفلة صغيرة من الشاب جدانوف . ثم ان اطلاعها على ما فضح عن سوء استعمال والدها لسلطته كان صدمة عنيفة اخرى لها .

وبعد ذلك بمدة أخبرني ميكويان ان سفتلانا ذهبت اليه لتستشيره وتطلب نصيحته في أمر زواجها من صحافي هندي اسمه براجيش سنغ . كان أكبر منها في السن ، ولكنها عرفته منذ زمن بعيد ، وهو رجل مستقيم وشيوعي . وقال لي ميكويان : « طلبت مني أن اعرف ما هو رأيك » فادهشني منها انها تطلب رأيي في شأن من شؤونها الخاصة . فقلت لميكويان : « اذا كانت هي ترى انه الشخص اللائق والجدير بالثقة ، فلتتزوجه . من شأنها هي أن تختار . وأي شيء تقرره لن نتدخل فيه . ان كونه ليس مواطناً سوفياتياً لا ينبغي ان يكون عقبة اذا كانت هي حقيقة تحبه . دعها تقرر ما تريد . » وهكذا تزوجته ، وكنت راضياً ، وأردت لها أن تتمكن من أن تعيش الحياة التي تريدها . ثم كان الحدث الأخير ، القشة التي تقصم ظهر البعير . كما يقول المثل : وفاة زوجها الثالث ودفنه .

واني أتحدث عن سفتلانا بمثل هذا التطويل ، أولاً لأنها بائسة جداً . وعندما علمت أنها سافرت لتدفن زوجها في موطنه وانها لن تعود ، رغبت في الاعتقاد ان ذلك ليس سوى افتراء خادع لفقه الصحافيون البورجوازيون . واستمر رفضي تصديق النبأ بضعة أيام ، حتى تلقيت توكيداً لا يرقى اليه شك بصحة الخبر ، ولم استطع أن افهم كيف انها توصلت إلى هذا القرار . لقد تركت وطنها وأولادها ، وأفسحت لاعداء طريقة الحياة السوفياتية مجال الثرثرة ، اذ استغلوا اسم بنت ستالين لاغراض لا تخدم بلادنا . ان ما أقدمت عليه أمر لا يغتفر بالنسبة لمواطنة سوفياتية . الا انني ، رغم ذلك كله ، أشعر بأسى عميق من أجلها . وعندما أفكر بها وبحظها التاعس ، استعيد هذه الأبيات لنكراسوف :

« ان مشهد الأرض اليتيمة الأشجار يبعث في عينيها الدموع ، اذ تذكر شجر البتولة الذي كان ينمو هناك . »

فان مجرد تذكري سفتلانا يبعث في عيني الدموع . اذ آسف أن يكون هذا مآلها . وهي منذ بداية حياتها ومصيرها تكتنفه الصعوبات . ان ذلك كله لا يبرر ما فعلت الا انه يجعلني حزيناً من أجلها أكثر مني غاضباً عليها .

لم تتيسر لي قراءة كتابها الا انني سمعت مختارات منه عبر المذياع . ان الغرب يذيع الفقرات التي تخدم اغراضه ، ولعل الاجزاء التي سمعتها لا تعطي فكرة سليمة عن الكتاب ككل . غير ان ما اذيع ، يبدو على الأقل ، مستهجناً ، فكأنه كتب نتيجة انهيار عقلي وعاطفي من نوع ما . مثل على ذلك ما تقوله عن أنها كانت

ترسم إشارة الصليب ، وانها كانت متدينة . ان في كتابها اشياء غريبة وفيه روح مريضة . وانني لا استطيع ان أقبله . اذ كيف يكون بامكان مواطن سوفياتي ترعرع في مجتمعنا أن يكتب مثل هذه الكتابة ؟

ان هربها إلى الغرب لخطيئة كبرى اقترفتها ، ولا مبرر لها . غير ان للقضية جانباً آخر . فهي حقاً قد ارتكبت بلاهة ، ولكنها عوملت كذلك ببلاهة . ولنقل انها عوملت ببلاهة وفظاظة . فمن الواضح انها بعد مأتم زوجها ذهبت إلى سفيرنا في نيودلهي بنيديكتوف وأرادت ان تمكث في الهند لبضعة شهور . وبنديكتوف الذي أعرفه ، هو رجل متزمت ، فكان أن رفض ذلك وطلب منها العودة فوراً إلى الاتحاد السوفياتي . تلك كانت بلاهة ارتكبها السفير . ذلك انه عندما يوصي سفير سوفياتي بعودة مواطن من الاتحاد السوفياتي إلى البلاد فوراً ، فان ذلك يبعث في المواطن الشكوك والريب . وكانت سفتلانا مطلعة ، بصورة خاصة ، على ما كان يجري في حالات كهذه . ففهمت ان هذا التدبير يعني أنها غير موثوق بها . ولم يكن مثل هذا التدبير ليعني اهتماماً بصالحها ، بل الشك فيها — ولنقل الشك السياسي — مما يمكن أن يؤول إلى نتائج سيئة بالنسبة لها .

كان هذا التصرف بمثابة تكتيك عدواني ومذل من شأنه أن يضيع توازن شخص موفور الاستقرار ، فكيف بسفتلانا التي كانت تفتقر إلى الاستقرار . وان كتابها ليكشف عن عدم استقرارها . فكان ان انهارت واستنجدت بدولة أجنبية . ان قومها يتحملون جزئياً مسؤولية ارتدادها عندما يستخدمون الوسائل القمعية البوليسية بدل اعتماد الحنكة والاحترام في التوجه إلى مواطن من الوطن السوفياتي .

أما عن رأيي بصدد ما كان يجب صنعه ، فانني أعتقد جازماً انها لو عوملت معاملة مختلفة لكان بالامكان تجنب حصول هذه الحادثة المؤسفة . فلو أنهم قالوا لسفتلانا عندما جاءت إلى السفارة تطلب بقاءها في الهند شهرين أو ثلاثة : « يا سفتلانا ايوزيفوفنا ، لماذا تطلبين ثلاثة أشهر فقط ؟ بامكانك أخذ تأشيرة لسنة أو اثنتين أو ثلاث سنوات بل بامكانك أخذ تأشيرة للبقاء هنا إلى ما تشائين . وعندما يعن لك ، فباب العودة إلى الاتحاد السوفياتي مفتوح أبداً . » ذلك انها لو اعطيت حرية الخيار لكانت معنوياتها ارتفعت واطمأنت نفسياً وكان عليهم أن يشعروها بأنها موثوق بها . وانني على يقين لو انها عوملت على هذا النحو ، وحتى لو كانت قد وضعت كتابها ، فانها اما تعود عن نشره أو تعيد كتابته . الا انهم عاملوها على نحو وضعها في جو من الشكوك . ولما كانت امرأة مقتدرة وفاهمة ، فقد ذهبت نتيجة هذه الاجواء إلى السفير الاميركي . هذه قصة رحلتها إلى سويسرا ثم أميركا .

لقد قطعت علاقاتها بالوطن الام وفارقت اولادها — ابنها وابنتها — واصدقاءها. لقد فقدت كل معارفها . وبكلمة ، انهت حياتها كمواطنة سوفياتية . انه لأمر مؤسف جداً ، وانني أشعر بالحزن من أجل سفتلانا . ورغم تقدّم السنين لم أزل اناديها بصيغة التحبب : سفتلانكا ، وهي المعروفة منذ زمن بسفتلانا ايوزيفوفنا .

والآن ماذا كان حصل لو اننا تصرّفنا وفق ما ذكرت ولم تعد رغم ذلك سفتلانا من الهند إلى وطنها ؟ ان ذلك كان دون ريب أمراً سيئاً ، ولكنه ليس أسوأ مما قد حصل . ان ما حلّ بسفتلانا يؤسفني كثيراً ، الا انني لم أزل اعتقد اننا لم نخسر كل شيء وبامكانها رغم ذلك ، أن تعود . فلعل حنينها نحو أولادها سيزداد تضرّماً . فلا بد من اعطائها والحالة هذه ، فرصة اخرى . ومن الضروري اعلامها انها ، اذا شاءت العودة ، تنزل على الرحب والسعة ، وان ما أظهرته من ضعف عندما غادرت الوطن وذهبت إلى أميركا ، لن يكون سيفاً مسلطاً فوق رأسها . انني ، اذ لا أعذر سفتلانا عما اقترفت لكنني لا أعذر كذلك اولئك الذين بدل مد يد المعونة لدلها على الطريق الملائم ، دفعوها إلى اتخاذ خطوة غير سليمة ولا مبرر لها ولا معقولة ، عندما القت بنفسها في عالم الاغتراب .

المآدب والنزهات مع ستالين

ان أقل ما يتوجب قوله في هذا الفصل هو انه يقدم صورة حية عن الديكتاتور في مرحلة الانحدار ، وعن التملق الذليل والنفاق اللذين كانت تمارسها حاشيته ، بمن فيها خروشوف . ولا يغيب عن بالنا ان خروشوف في هذه المرحلة كان منشغلا في صراع محموم مع مالنكوف . وكان يناضل لنيل حظوة ستالين إلى أقصى حد . ان كل من يشكك في هذه الحقيقة الأساسية عليه بقراءة «أحاديث مع ستالين » بقلم الثائر اليوغسلافي ميلوفان دجيلاس . فهنا يظهر دجيلاس ستالين بين قواده «وأقرب أقرانه» باكراً في ١٩٤٧.

«مر قزم قبيح المنظر عبر القاعات الامبراطورية الرخامية المطلية بالزخارف فانفتح ممر أمامه ، ولاحقته النظرات المشعة المعجبة ، بينما أصاخت آذان رجال البلاط لالتقاط كل كلمة منه . أما هو ، فانطلاقاً من ثقته بنفسه وبمنجزاته ، بدا واضحاً أنه لايأبه لكل هذا . كانت بلاده خربة ، وجائعة ، ومنهكة . الا ان جيوشه وقادته ، اثقلتهم السمنة واسكرتهم الفودكا والنصر اذ كانوا قد اجتازوا بسنابك خيلهم نصف اوروبا حتى الآن ، وكان هو مقتنعاً بأنهم سوف يأخذون نصفها الآخر في الجولة القادمة . كان يعلم بأنه أعتى شخصية

في التاريخ وأشدها طغياناً . غير ان ذلك لم يكن يقلقه ، لأنه كان مقتنعاً بانه ينفذ ارادة التاريخ » .

ثم ان وصف دجيلاس لسلوك ستالين يطابق وصف خروشوف . في ١٩٤٧ كان ستالين لا يزل قوياً ومفرطاً في اعتداده . وخروشوف يظهره كذلك في مرحلته الأخيرة — مرحلة تقزم شخصية اثيلا إلى رجل متقدم في السن ومتهدم ، يسعى جاهلا لتحطيم أقرب زملائه قبل ان يعمدوا هم إلى تحطيمه ، وهو يعيش على خوف تسرب السم إلى مطبخه . أما الرفاق ، بمن فيهم خروشوف ، فقد توافقوا على حكمة ؟ من الطبيعي جداً في العالم القائم أن يخفض المرء جناحه ويعزف عن مقاومة مظالم اللحظة الراهنة وشروره[1].

كانت تلك السنوات الاخيرة مع ستالين اياماً عصيبة . فقد توقفت الحكومة فعلا عن العمل ، واختار ستالين مجموعة صغيرة ابقاها على مقربة منه في كل الاوقات . ثم كانت هناك مجموعة أخرى من الناس لم يكن يدعوها طوال فترة غير محدودة عقاباً لافرادها ، وكان اي منا يجد نفسه بين هذه الفئة اليوم او ضمن تلك الفئة الاخرى غداً .

وبعد المؤتمر التاسع عشر انشأ ستالين من بين اعضاء البرزيديوم الجدد لجاناً لتتبع مختلف القضايا على نطاق واسع . غير انه تحقق عملياً ان هذه اللجان لم تكن فعالة ، نظراً لاضطرار كل من اعضائها اتباع وسائله الخاصة . فلم يكن ثمة مرشد يوجهها ، ولا عين احد لها ما يتوجب عليها القيام به ، فهامت على وجهها تختار هي ما تشاء دون اي تنسيق او تخطيط . فكان كل واحد في الجوقة يعزف على آلته عندما يطيب له العزف .

وكنا عادة نلتقي معاً في اجتماعات المكتب السياسي على النحو التالي : لم تكن هنالك اجتماعات رسمية بالمعنى الحقيقي . الا انه عندما كان يأتي ستالين إلى المدينة من منزله الريفي (الداشا القريبة) حيث يسكن ، كان يوجه الينا الدعوة عبر سكرتيرية اللجنة المركزية . وكنا نجتمع اما في مكتبه في الكرملين ، او غالباً في قاعة السينما في الكرملين . وكنا نشاهد الافلام السينمائية ونتباحث في مختلف القضايا في فترات الاستراحة . وكان ستالين ينهض من قيلولة بعد الظهر في نحو الساعة السابعة او الثامنة مساء ويتجه إلى الكرملين . وكنا نقابله هناك . وكان يختار الافلام بنفسه . وكانت تلك الافلام في الغالب يصح وصفها بالافلام التذكارية ، وكنا نأتي بها من الغرب . والعديد منها اميركي . وكان ستالين يحب افلام الكاوبوي بصورة خاصة . كان يشتم هذه الافلام ويعطيها التقييم الايديولوجي المناسب لكنه كان يطلب على الفور المزيد منها . ولم تكن على هذه الافلام ترجمة مطبوعة ،

ولذا كان وزير السينما بولشاكوف يترجمها لنا بصوت عال . وكانت الافلام متنوعة اللغات الاوربية الاميركية ولم يكن في الواقع الوزير يعرف اياً منها ، الا انه كان قد أخبر بعقدة الفيلم مسبقاً ثم يبذل جهداً مضنياً لحفظ تلك العقدة غيباً ، وبعد ذلك « يترجم » الفيلم لنا . وغالباً ما كانت ترجماته مدار تعليقاتنا الفكهة وكان ابرعنا في ذلك بيريا . وكان بولشاكوف في معظم الاحيان يفهم العقدة خطأ فيوضح لنا ما يستطيع اي منا ان يشاهده بوضوح على الشاشة . كأن يقول مثلا : « انه الآن يغادر الغرفة .. انه الان يقطع الشارع » . وعندها كان بيريا يمد له يد المساعدة قائلا : « انظر ! لقد بدأ يعدو ! انه يركض الآن ! »

ولم يكن ستالين يذهب إلى اية قاعة سينما الا تلك التي في مسرح الكرملين ، وكانت آلة الاضاءة فيها متخلفة حتى عن ذلك الزمن . ولم تعد القاعة الان تستخدم كصالة عرض سينمائي . وكنا نشاهد كل انواع الافلام من المانية وانكليزية وفرنسية واميركية . ومن بلدان اخرى كذلك . وكانت لدينا محفوظات من الافلام ضخمة . وعلى العموم لم تكن تعجبنا هذه الافلام كثيراً .

واذكر اننا ذات مرة شاهدنا فيلماً تاريخياً قاتماً رديئاً انتج في بريطانيا . ويحكي الفيلم قصة كنز تقرر نقله من الهند إلى لندن ، وكان هناك قراصنة اسبان على طول الطريق يغيرون على السفن البريطانية ويقتلون بحارتها . وعندما حان الوقت لنقل الكنز ، تذكر الانكليز ان في احد سجونهم واحداً من قادة القراصنة . وكان هذا متوحشاً وجريئاً وماكراً ، فقرروا ان يسألوه ان كان يقبل تولي نقل الكنز من الهند ، ورد القرصان (القبطان) بانه يقبل شرط ان تترك له حرية اختيار طاقمه بين القراصنة الآخرين الذين هم معه في السجن . ووافق الانكليز واعطوه سفينة فتوجه إلى الهند حيث حمل الكنز ، وفي طريق العودة شرع يتخلص من القراصنة الملاحين واحداً تلو الآخر . واتبع الاسلوب التالي : ان يضع صورة الضحية المقبلة في مقصورته حتى يذكر نفسه بالأمر . وبعدما يتخلص من هذا الشخص ويرميه في البحر يعود فيضع صور ضحايا المستقبل ... وهكذا دواليك ، واعتقد ان الفيلم ينتهي بتصفية القرصان القائد نفسه . ويقولون ان هذه كانت قصة حقيقية . وفيما كنا نشاهد الفيلم ونعاين خيانة هذا القبطان ، تذكرنا كيف ان الناس الذين يعملون حول ستالين غالباً ما اختفوا . وأخذت تطاردنا الفكرة التالية : « الم يكن اعداء الشعب يقتلون بهذه الطريقة ؟ »

وكانت العادة انه عندما ينتهي الفيلم ينهض ستالين ويقول : « حسناً ، فلنذهب ونتناول شيئاً من الطعام ، لم لا نفعل ذلك ؟ » وكثيراً لم نكن حينذاك جائعين ولم نكن نريد ان نأوي الى النوم متأخرين لان لدينا عملنا في الصباح . أما

ستالين فلم يكن لديه عمل في الصباح ولم يكن ليأبه لنا . وكان الجميع يجيبون بنعم ويقولون انهم جائعون ، وهذه الكذبة الجماعية عن الجوع كانت بمثابة رد فعل لا ارادي . فنركب سياراتنا ونتوجه إلى منزله الريفي .

كان بيريا ومالنكوف يركبان عادة سيارة ستالين ويتوزع الباقون منا حسب اختيارهم . أما أنا فكنت اركب إلى جانب بولغانين . وكانت قافلتنا تتخذ طريقاً لها من الشوارع الجانبية . وكنت غالباً اسأل الذين يركبون مع ستالين : « لم قمتم بهذا الانحراف في سيركم ؟ » وكانوا يجيبون « لا تسألنا . فنحن لم نقرر الطريق . ستالين بنفسه اختار الشوارع التي سنجتازها » . ويبدو ان ستالين كان يملك خريطة لشوارع موسكو ، فكان يسلك طريقاً مختلفة كل مرة . ولم يكن يخبر حتى حراسه عنها . ولا يحتاج الأمر إلى كبير عناء حتى يفهم على حقيقته . فستالين كان يتخذ تدابير احتياطية لخداع اعدائه المفترضين اذا ما خططوا لاغتياله . اما بالنسبة للكرملين فلم يكن مسموحاً لاحد ولوجه في تلك الايام . وكان المبنى الذي يقع فيه المسرح مغلقاً في وجه الجميع الا الذين يصطحبهم ستالين شخصياً معه .

وفي كل مرة كنا نذهب إلى المنزل الريفي كنا نتهامس حول ازدياد الاقفال مرة بعد أخرى . وكانت البوابة الرئيسية تغلق بكل انواع المزالج كما كانت هناك حواجز . وكان ثمة سوران وضعت بينهما كلاب حراسة ، بالاضافة إلى جهاز انذار كهربائي وكل انواع اجهزة الامان الأخرى . وانني اشعر بان هذا كان أمراً طبيعياً إلى حد ما ، لان ستالين ، في المنصب الذي يحتله ، كان هدفاً مغرياً لاي عدو من اعداء النظام السوفياتي . ان هذه مسألة لا تتحمل المزاح ، برغم انه كان من الخطر جداً على اي منا ان يحاول تقليده في هذا المجال .

وعندما كنا نصل إلى « الداشا » كانت « الجلسة » ، اذا صح تسميتها كذلك تستأنف . وهذا النظام للعمل ، اذا صحت التسمية ايضاً ، اتبع منذ الحرب حتى وفاة ستالين . فلا اللجنة المركزية ولا المكتب السياسي ، ولا مكتب البرزيديوم كان ينعقد بانتظام ، لكن اجتماعات ستالين المنتظمة مع دائرته الداخلية (عادة ، مالنكوف وبيريا وبولغانين وخروشوف) كانت تسير مثل الساعة . فاذا مضى يومان او ثلاثة ولم يستدعنا ، كنا نعتبر ان شيئاً حدث له . كان يعاني من الوحدة بصورة رهيبة . وكان بحاجة إلى ان يكون الناس حوله طول الوقت . وعندما يستيقظ في الصباح كان يستدعينا على الفور ، ويدعونا اما إلى مشاهدة فيلم او يشرع في محادثة يمكن انهاؤها ، في دقيقتين ، لكنه كان يمدها بحيث نبقى معه وقتاً اطول . وكانت تلك اوقات فراغ وتسلية بالنسبة الينا ، وصحيح ان شؤون

الدولة والحزب احياناً كانت تقرر في هذه الاجتماعات ، الا اننا كنا نصرف جزءاً من وقتنا في التسلية . الأهم كان ان نشغل اوقات ستالين حتى لا يعاني الوحدة . كان مغتماً من الوحدة وكان يخافها .

كان يشعر بخوف عميق يتخطى حتى مجرد ما تبعثه فيه الوحدة او امكان نجاح اعدائه في نصب كمين له على طريقه إلى « الداشا » . فعندما كنا نتناول الطعام معه لم يكن يلمس اي صحن او زجاجة قبل ان يكون شخص آخر تذوقها . وهذا يظهر انه كان في اقصى حالات الهلع والريبة . ولم يكن يثق حتى بالاشخاص الذين كانوا يخدمونه طول سنوات كثيرة ، والذين كانوا دون ريب مخلصين له كلياً . لم يكن يثق باحد على الاطلاق . وعندما كنا نتناول العشاء عند ستالين كانت تقدم دوماً لنا صنوف الطعام المفضلة عنده ، وكان الطباخون يجيدون طهيها . فكانت اصنافاً لذيذة المذاق . غير انه كان مفروضاً علينا ان نأكل على النحو التالي :

لنقل ان ستالين اراد ان يأكل شيئاً ، فكان يعين لكل منا صنفاً من الطعام يتذوقه قبل ان يشرع هو بتناوله .

فكان يقول مثلا : « نيكيتا ، هاك بعض القوانص ، هل جربتها ؟ »

ثم يقول : « انظر . هاك بعض الرنكة (نوع من السردين) » . وكان الرنكة يوضع على المائدة من دون ان يملح بحيث يملحه كل حسب رغبته . وكان علي ان اتذوقها اولاً ثم يأخذ ستالين حصته . وهكذا دواليك في كل صنف . وكان لكل صنف واحد منا مكلف بتذوقه ليتأكد من انه مسموم ام لا .

وكان بيريا الوحيد الذي لم يكن مفترضاً فيه ان يتذوق . لقد استثني من ذلك لان بيريا كان يأمر باحضار طعامه الخاص من منزله ، وكانت خادمة ستالين العجوز ماتريونا بيتروفنا تخدم بيريا وتقول بصوتها ذي الخنة « حسناً ، ايها الرفيق بيريا . هذا هو عشبك » . وكنا نضحك عالياً كلما قالت ذلك . والواقع ان بيريا كان يكثر من أكل الخضار كما يفعل اهل آسيا الوسطى ، واحياناً كان يدفع الطعام في فمه باصابعه رغم انه كان بين الفينة والفينة يستعمل الشوكة .

كانت هذه المآدب مرعبة . كنت احاول خلال النهار عادة ان اخذ قسطاً من الراحة ، بعض القيلولة . اذ ان الخطر من انك اذا لم تنم قليلا ثم دعاك ستالين إلى العشاء ، فان النعاس قد يدب فيك وانت جالس إلى المائدة . والذين كان يأخذهم ينعاس وهم إلى مائدة ستالين كانوا يواجهون نهايات سيئة . وغالباً كانت هناك ايضاً نوبات شراب مفرطة . واذكر ان بيريا ومالنكوف وميكويان كانوا يطلبون من الخادمات ان يقدمن لهم مياهاً مصبوغة بدلا من النبيذ ، لانه لم يكن باستطاعتهم مجاراة ستالين في الشراب .

كان ثمة افراط في الشراب على مائدة ستالين منذ ما قبل الحرب . وكان كل من شيرباكوف وجدانوف قبل وفاتهما من اكثر المسيئين في تصرفاتهما المبتذلة الكريهة — كما كانا الضحيتين الاولين لتلك التصرفات . ومرة تمادى شيرباكوف إلى حد التعريض للتدبير الذي اتخذه بيريا ومالنكوف وميكويان مع الخادمات ليقدمن لهم الماء الملون بدل الخمرة . وعندما ادرك ستالين انه كان يخدع ، ارغى وازبد وانفجر بصاعقة من الغضب .

وقابلنا جميعاً تصرف شيرباكوف بالامتعاض والاستنكار ، الا اننا لم نكن نستطيع قطعاً الاعراب عن ذلك علناً . وانهى شيرباكوف نفسه بالسكر حتى الموت . ولم يكن يشرب لانه مولع بالخمرة ، بل لمجرد ارضاء ستالين الذي كان يتسلى برؤية الناس حوله وقد اصبحوا ثمالى يتردون في اوضاع محرجة وحتى مخزية احياناً . وكان يجد في اذلال الآخرين متعة تروق له . واذكر ان ستالين جعلني ذات مرة ارقص الغوباك (رقصة اوكرانية شعبية) امام بعض كبار المسؤولين في الحزب . وكان علي ان اجلس القرفصاء على وركي وارفع قدمي في الهواء ، وهو امر اقول بصراحة انه لم يكن سهلا علي . لكن كما قلت في ما بعد لميكويان : « عندما يقول ستالين ارقص ، فان الرجل الحكيم يرقص » . وفي تلك العشاءات الطويلة الباعثة على السأم ، كان ستالين يغرقنا بالحكايات . لن انسى ابداً كيف وصف لنا نفيه الأول . وقد ساعدتنا تلك القصة على فهم سر افراطه في الشرب . فقد ارسل إلى اقليم فولوغدا ، حيث كان قد نفي عدد من المحكومين من مجرمين وسياسيين . وكان ستالين يقول : « كان بين المحكومين من المجرمين اناس طيبون . وكنت اتجول معظم الوقت معهم . وكنا ندخل إلى حانات الخمر في البلدة ونشرب بكل كوبيك نملكه . وكنت ادفع انا مرة ثم يدفع آخر مرة ثانية ، وهكذا دواليك . وكان المحكومون المجرمون طيبين ، كانوا ملح الارض . لكن كان هناك الكثير من الجرذان بين المحكومين السياسيين . وذات مرة نظموا محكمة رفاقية وقدموني إلى المحاكمة بسبب تناول الشرب مع المجرمين العاديين ، وقالوا هذه مخالفة » .

ولا اعرف اي نوع من الحكم اصدرته محكمة الرفاق على ستالين . لم يجرؤ اي منا ان يسأله . اكتفينا بتبادل النظرات . وبعد خروجنا من عنده تبادلنا الملاحظات مثل « هل رأيت ؟ حتى في فتوته كان يميل إلى الافراط في الشراب . ان هذا بالوراثة على الارجح » . وكان ستالين قد اخبرنا قصصاً عن ابيه . قال ان والده كان صانع احذية وكان يشرب كثيراً . كان يقول ان والده كان يشرب إلى درجة انه اضطر إلى بيع حزامه من أجل بعض الكحول . والمعروف

ان الجيورجي لا يبيع حزامه الا اذا كان في حالة يائسة . وقال ستالين : « باع والدي حزامه مرات عدة ، وعندما كنت لا ازال في المهد كان يغمس اصبعه في كأس من النبيذ ويجعلني امصها . كان يعلمني ان اشرب حتى وانا في المهد » .

لا اعرف ماذا كتب في سيرة ستالين عن ابيه غير انني اذكر انه في بداية تحمله المسؤوليات سرت شائعة تقول ان والده لم يكن عاملا ولا صانع احذية بسيطاً ، بل كان يملك مشغلا يعمل فيه على الاقل عشرة مستخدمين بأمرته . وبالنسبة لتلك الايام كان ذلك مشروعاً كبيراً . ولو ان مثل هذه الحقيقة كشفت خلال حملة التطهير فيما يتعلق بسيرة اي شخص عدا ستالين ، لكان اخضع لتحقيق يجعل عظامه تصطك رعباً . كان الناس كثيري الفضول حول ماضي المرء قبل الثورة . واذا اكتشف انك تأتي من خليفة غير عمالية ، كنت تعتبر مواطن درجة ثانية . ان هذا الموقف بالامكان تفهمه . ان الطبقة العاملة هي اكثر طبقات المجتمعات ثورية واكثرها استقراراً . لقد حملت هذه الطبقة على منكبيها ثقل سائر الطبقات الاخرى عبر التاريخ . من هنا ان موقف الناس ازاء اية طبقة عدا البروليتاريا كان دوماً يكتنفه التحسب والانتقاد .

وكان ستالين يخبرنا نمطاً آخر من القصص . قال ذات مرة :

« ذهبت في يوم من ايام الشتاء إلى الصيد . اخذت بندقيتي واجتزت نهر اليانييسي على اداة التزلج . قطعت اثني عشر فرسخاً (نحو ثمانية اميال) ، وشاهدت بعض الحجل في شجرة . ولاصدقكم القول لم أكن اعرف ان ما شاهدت حجالا . كنت قد اصطدت حجالا من قبل ولكنني كنت دوماً اعتقد انها تصطاد في الحقل وانها لا تعلو عن العشب . كان معي اثنتا عشرة خرطوشة ولكن ثمة اربع وعشرون حجلا . فقتلت اثني عشر حجلا واستمرت البقية جالسة هناك . فقررت الرجوع لاستجلاب المزيد من الخرطوش . ورجعت فعلا وجلبتها ثم عدت » . وكنا في تلك اللحظة بانتظار ان يقول اي شيء . فقال « وصلت وكانت الحجال لم تزل جالسة تنتظر » . فاعترضت سائلا : « ماذا تعني بانها لم تزل جالسة تنتظر ! هكذا تماماً . » قال : « كانت لم تزل جالسة تنتظر » ، فأصر بيريا عليه بالمضي في قصته ، « قتلت الحجال الاثني عشر الباقية ، وأخذت سلكاً وربطتها به ثم اوثقتها إلى حزامي وسرت بها إلى البيت ».

بعد العشاء بينما كنا نغسل ايدينا قبل الانصراف ، أخذنا نبصق في الحمام باحتقار . هكذا اذن قطع اثني عشر فرسخاً في يوم ماطر ، وقتل اثني عشر حجلا ، وعاد قاطعاً اثني عشر فرسخاً اخرى ذهاباً وإياباً ، ثم قتل اثني عشر حجلا أخرى ، وعاد إلى بيته مجتازاً اثني عشر فرسخاً أخرى — النتيجة ثمانية واربعون فرسخاً

قطعها على اداة التزلج ! وقال بيريا : « اسمعوا ، كيف يستطيع شخص من القوقاس لم يتح له الحظ من قبل ان يتزلج ، ان يقطع مثل هذه المسافة ؟ انه يكذب بكل تأكيد كان يكذب . ولم يكن يخامر احدنا ادنى شك بذلك . واني لا اعرف الحافز الذي دفعه إلى ذلك . لعل دافعاً داخلياً كان وراء ذلك . كانت هذه القصة بالذات اكذوبة مسلية ولم تعد على القضية بأي ضرر ، ولكن ستالين كان يكذب في محادثات اكثر جدية كذلك . اما لجهة ادعاءاته عن مهاراته في الرماية فقد انكشف انه لم يكن بامكانه التصويب على الاطلاق ، فكيف يقتل اربع وعشرين حجلا باربع وعشرين خرطوشة . فذات مرة حمل بندقية صيد عندما كنا نتناول العشاء وخرج ليطارد رفاً من الدوري . لكن نجاحه اقتصر على اصابة احد حراسه خطأ . ومرة اخرى كان يقلب مسدساً فانطلق منه الرصاص وكاد يقتل ميكويان الذي كان يجلس إلى جانبه . وادى انطلاق الرصاصة إلى انتشار الحصى على الطاولة وعلى ميكويان . لم يتفوه احد بكلمة ، لكننا جميعاً اصبنا برعب شديد .

واذا كان ثمة ما هو اسوأ من تناول العشاء مع ستالين ، فانه كان تمضية العطلة معه . ان تناول العشاء معه او الذهاب إلى العطلة بصحبته ، هو دون ريب لشرف عظيم . الا ان ذلك كان ايضاً جهداً جسدياً رهيباً . ولو ان بامكان الناس ان يتصوروا اية محنة على المرء ان يتحمل واية مرارات عليه ان يبتلع للحفاظ على العلاقات الطيبة ولاظهار جو الود والصداقة رغم كل شيء . كان لا بد من هذه التضحيات . ولكن لهذه الآلام ثمن . فالمحادثات كانت تجري على قدم وساق ، وبالامكان دوماً استخدامها لفائدتك والوصول إلى استنتاجات مفيدة منها لمصلحتك .

بعد شروعي في العمل في موسكو ، أخذ ستالين يدعوني غالباً لمرافقته عندما يذهب إلى القوقاس لتمضية العطل . وهذه الدعوات المتتابعة كانت جزءاً من مخاوفه من الوحدة . ولا بد ان يكون ستالين أحبني بصورة خاصة ، لأنه قبل ان يذهب إلى عطلة كان غالباً يدعوني قائلا : « فلنذهب جنوباً . انك بحاجة إلى عطلة ايضاً » .

وأجيب : « حسناً . يسرني ان اذهب معك » . وواضح انني كنت افضل الا اذهب ، لكن لم يكن من المعقول ان يفكر المرء بالرفض . فكنت اذهب واعاني الآلام . وذات مرة امضيت شهراً كاملا في اجازة معه . وضعني في الغرفة المجاورة لغرفته تماماً . كان ذلك عذاباً لي شديداً ، وخصوصاً تناول الوجبات التي لا تنتهي . وكلما قدمت على مذبح دعواته ، كان بيريا يقول لي : « احدنا يجب ان يتألم ، ولا يمنع ان تكون انت » .

كان ستالين يمضي ، عادة ايام عطلته في سوخي ، وكان يسمح لفوروشيلوف ان يأتي إلى سوخي اكراماً للايام الماضية . وكان فوروشيلوف وزيراً للدفاع وذا حظوة عند ستالين . وقد بنى لنفسه منزلا ريفياً كبيراً على غرار قصر ليفاديا (في يالطا) .

ومرة كنت امضي اجازة وحدي في سوخي ، وكان ميكويان في مكان آخر — في سوخومي على ما اعتقد . واتصل بنا ستالين هاتفياً من منتجعه في بورزومي . واعتقد انها المرة الوحيدة التي امضى اجازته هناك . وكان قد استدعى جميع الذين يمضون اجازات في القوقاس بالاضافة إلى بيريا الذي كان انذاك في عمله في موسكو . تجمعنا كلنا في بورزومي . وكان البيت كبيراً ولكنه فقير التجهيز . وقد سبق ان كان متحفاً . وبالتالي لم يكن ثمة غرف ، فكنا ننام في قاعة واحدة . كان ذلك رهيباً . وكنا نعتمد على ستالين في كل شيء . وكان لنا منهج يومياً يختلف عن منهجه . ففي الصباح ننهض ونذهب في نزهة مشياً على الاقدام ، فيما يكون ستالين لا يزال يغط في نومه . ثم عندما ينهض يبدأ نهارنا رسمياً .

وفي احد الايام استدعانا ستالين اليه وقال : « ان راكوزي (الديكتاتور المجري ماتياس راكوزي) جاء لتمضية عطلة في القوقاس . لقد اتصل بي وطلب أن آذن له » . وماذا بعد ذلك ؟ فهذه لم تكن المرة الأولى التي يأتي فيها راكوزي إلى القوقاس لتمضية العطلة . لكننا بقينا صامتين . واضاف : « من الافضل ان يتصل احدكم براكوزي ويقول له ان يأتي إلى هنا » . واتصل أحدنا براكوزي هاتفياً . وعندئذ قال ستالين : « كيف يعرف راكوزي دائماً بمجيئي إلى القوقاس ؟ الظاهر ان نوعاً من جهاز الاستخبارات يبلغه ، يجب ان نمنعه من ذلك » . وهكذا سقط راكوزي إلى قائمة المشبوهين . وفي الواقع لم يكن لغزاً كيف كان يعرف راكوزي بمجيء ستالين إلى القوقاس . كل ما كان عليه فعله هو ان يتصل هاتفياً بسكرتيرية اللجنة المركزية ليسأل عن ستالين فتقول له انه في عطلة في القوقاس . هذا كل ما في الامر ، والارجح ان هذا ما كان يحصل بصورة عفوية .

عندما وصل راكوزي انضم الينا على العشاء واخذ يشارك في حفلات الشراب . ومرة قال : « اسمعوا ، ماذا يجري هنا ؟ ما هذا السكر كله الذي استفحل امره بينكم ؟ » ان كل ما فعله راكوزي هو تسمية الاشيا باسمائها ، وكنا نعرف في قرارة نفوسنا انه على حق ، ولكن كان كل واحد منا قد استنبط الذرائع والمبررات لسلوكه . ان احداً منا لم يكن يحب هذا النمط من السلوك والعيش ، لكننا مع ذلك اعتبرنا قوله هذا اهانة . وابلغ بيريا ستالين ان راكوزي قد وصفنا باننا زمرة من السكارى ، فأجابه ستالين : « حسناً . سنرى ما نفعل بهذا الشأن » .

وفي تلك الليلة بالذات بدأ ستالين يصب الخمرة لراكوزي : زجاجتان او ثلاث من الشمبانيا ولا ادري كم من النبيذ . واستطاع الرجل ان يصمد بطريقة ما ، لكنه سافر في اليوم التالي . وكان ستالين طول ذلك النهار في مزاج جيد ، يضحك ويمزح ويقول : « هل رأيتم في اية حال وضعته ؟ » .

وبقي ستالين هناك لبعض الوقت . واستبقانا انا وميكويان لفترة اطول حتى نبقى في رفقته . واخيراً هربنا وذهبنا إلى منازل عطلتنا الخاصة .

وكان ستالين يستضيف عندما يكون في القوقاس ، رجالا متقدمين في السن من اقرانه الذين عرفهم في طفولته . واذكر من بينهم عاملا في سكة الحديد كان ستالين يخصه بعطف خاص . وبدا انه كان شخصاً طيباً وصادقاً . وكان شيوعياً . أخبر ستالين مرة عن الحالة السيئة المتفشية بين الجيل الجديد في جيورجيا . ذلك ان الشبان عندما يختمون دراساتهم كانوا يعجزون في الحصول على عمل مناسب في جيورجيا ، وفي الوقت نفسه لا يرغبون في مغادرتها . فكانوا اما يتسكعون دون عمل ، او يبدأون بالسعي وراء الربح الفاحش عن طريق التجارة الفردية . وكان هذا الامر شائعاً في جيورجيا ولكنه كان خبراً جديداً على ستالين ، وخبراً سيئاً . وقال لي فيما بعد : « هل تعلم ماذا يجري في جيورجيا ؟ ان الشبان اما يتسكعون او يتعاطون الربح الفاحش ؟ انه لأمر يدعو إلى الاشمئزاز والاستنكار » .

وكان بيريا هو الزعيم في جيورجيا . وقد مضت عليه سنون وهو سكرتير اللجنة المركزية في جيورجيا ولكنه كان مصدر الاعلام الوحيد لستالين عن جيورجيا ، موطنه . وكان بيريا في الواقع قد حجب عن ستالين كل ما يجري في جيورجيا ، ولكن الاخبار تسربت الآن إلى ستالين فاقضت مضجعه وأثارت غضبه .

ومما لا ريب فيه انه كان من الواجب مكافحة عدم الكفاءة في جيورجيا والنقائص العديدة الاخرى ، ولكنني ارفض ان أعزو ذلك إلى اخطاء قومية في الجيورجيين انفسهم . فالمشكلات هذه كانت حصيلة ظروف الحياة في جيورجيا . ان جيورجيا هي زاوية الاتحاد السوفياتي التي يطل منها على الجنة . فهي ذات مناخ دافىء ، مثالي لمواسم الليمون والكرمة . وفيها كذلك غوايات انسانية عديدة . فمن الطبيعي ان يجد الجيورجي العادي صعوبة في ترك هذه الجنة ، فتنشأ الاغراءات لسلوك مسلك الربح الفردي الفاحش . وكانت هذه المثالب المنتشرة بسرعة بين العناصر غير المستقرة في جيورجيا بالامكان انتشارها في اي شعب يعيش الظروف نفسها . ولطالما سمع حراسي يتذمرون : « الجيورجيون في كل مكان ويستغلون كل شيء » وكنت دوماً اقول لهم لو كان الروس يعيشون في جيورجيا لفعلوا الشيء نفسه .

واذكر انه بعد مضي بضع سنوات علي في القيادة شرع الجيورجيون يتعاطون التجارة باوراق شجر الكستناء . فقلت لف . ب . مزافانادز (رئيس جيورجيا من قبل خروشوف) وللقادة القرميين ان يتثبتوا بان اشجار الكستناء لا تزرع الا في مزارع الدولة . وهم يقولون لي الآن ان التجارة باوراق الكستناء انتفت كلياً منذ ذلك التدبير .

ومن الطبيعي ان تنشأ اغراءات لتحصيل بعض المال الاضافي . وهذا هو مصدر حصول الاستغلال ، فهي ليست مسألة قومية بل واقعة من وقائع الحياة . واذا تاجر وضارب الجيورجيون بالخضار فعلى الدولة ان تزرع الخضار عندها ، بحيث تضيع على المضاربين فرصة الربح من هذه التجارة ، ببيع الخضار في موسكو . وذلك بان تصبح الخضار أبخس ثمناً بانتاجها في مزارع الدولة . وعندما تكافح التجارة غير المشروعة ، فان الامة الجيورجية كلها يشرفها ذلك ، وينتفي عن الجيورجيين في موسكو صيت الاستغلال والتجارة . الا ان ستالين لم يكن يفكر على هذه الأسس المعقولة البناءة في ايجاد الحلول للمشاكل . بل كان يعتقد ان معالجة مشكلة الربح والاستغلال في جيورجيا انما تكون بالتدابير الادارية ، وهذا يعني اعتقال الناس ونفيهم .

الخوف والمكائد في دائرة ستالين الداخلية

هنا يقدم خروشوف المزيد من الأمثلة عن عقدة جنون الاضطهاد والانتقام عند ستالين ، والتي تعود بالأكثر إلى سنوات الحرب ، حين كان يبدو الجنراليسيمو الرابط الجأش الهادىء الطباع . إلا ان الذي يغيب عن هذا السرد ، عدا بعض لمحات قليلة في هذا الاتجاه ، هو فهم للمزايا التي مكنت ستالين من المحافظة على هدوئه والبحث على مستوى رفيع مع تشرشل وروزفلت . هنا أيضاً في هذا القسم نجد لمحات ، معظمها تناول بيريا ، تكشف المكائد التي كانت تجري على قدم وساق بين أقرب المقربين إلى ستالين ، والنادرة المروية هنا عن الطاهي الجيورجي هي بمثابة فاصل هزلي رائع .

اذكر حادثاً مذهلا وقع عندما امضى ستالين عطلته في افون عام ١٩٥١ . فقد استدعاني من موسكو كما استدعى ميكويان من سوخومي . وذات يوم كنت وميكويان نتنزه في الخارج فاذا بستالين يبرز من شرفة المنزل . وبدا انه لم يلحظ وجودنا ، ميكويان وانا . وردد لنفسه « انتهيت . انني لا اثق باحد . حتى

ولا بنفسي » . كان هذا اعترافاً مذهلا . كنا قد عاينا شكه هذا في الناس امداً طويلا ، ولكنه الآن جاء يعترف به وبهذا الاسلوب الحاسم .

ايمكن تصور صدور مثل هذا التصريح من انسان في يديه مقدرات البلاد وله تأثيره على مصير العالم ؟ ان يشك المرء بالناس ، فهذا شأنه ، واما ان يذهب المرء إلى ازالة كل من يشك بهم فذاك أمر آخر بالغ الخطورة .

كنا جميعاً نحن الذين حوله اناساً ظرفيين . فما دام يثق بك إلى حد معين ، فسيظل في امكانك ان تعيش وتعمل . لكن في اللحظة التي يتوقف عن الثقة بك ، عندها يأتي دورك فتصبح في عداد الموتى . ذلك كان المصير المحتمل لكل الذين يتبعونه ويكافحون إلى جانبه في صفوف الحزب ولمصلحة الحزب . والكثيرون من هؤلاء ، ومن أشد رفاق ستالين ولاء ، قد ازيلوا . وان كامينف وزينوفيف لمثلان صالحان على ما اعني . لست اعرف بالتحديد نوع العلاقات التي كانت تقوم بين ستالين وتروتسكي في المرحلة المبكرة بعد الثورة ، ففي وصيته المكتوبة قبل وفاته ، يقول لينين ان تروتسكي لم يكن قط ماركسياً ، بينما توفرت في ستالين المواصفات الضرورية ليكون ماركسياً حقيقياً (١) . الا ان لينين قال ايضاً ان ستالين ليس رحب الصدر ، ومنتقم . ان هذا الاعتراف الذي صدر عن ستالين في افون جعلنا ننفذ ببصائرنا عبر الستار الذي حجب بعض اسباب المأساة التي حلت بالحزب والبلاد في ظل قيادته . وقد طال حكمه فترة طويلة ، وطويلة جداً . لقد فقد الكثيرون من الشرفاء والابرياء رؤوسهم في ظل ستالين .

في ايامه الاخيرة ، كنا غالباً ما نلتقي ستالين كجماعة — بيريا ، ومالنكوف وبولغانين وانا . ولم يكن بولغانين يحضر دوماً جلسات العشاء التي تنعقد فيها حلقتنا الداخلية . وعاماً بعد آخر كان يزداد وضوحاً ان الوهن حط بستالين عقلياً وجسدياً . وبدا هذا بوضوح في الخسوف الذي كان يمر به عقله وفي تضعضع ذاكرته . وعندما كان لم يزل في حالة جيدة ومتزنة ، كان قائداً هائلا ، ولكنه الان يشارف على الانهيار بسرعة .

وذات مرة استدار نحو بولغانين وبدأ يقول له شيئاً لكنه لم يستطع ان يتذكر اسمه . فتطلع اليه ستالين بتركيز ثم قال : « انت هناك ، ما اسمك ؟ »

---

(١) كان تروتسكي دون ريب منشيفيكياً لسنوات قبل انضمامه للبلاشفة . وكمنشيفيكي سابق لم يكن يصنف في نظر لينين بالماركسي الحقيقي . ولم يقل لينين شيئاً في وصيته التي يلمح اليها خروشوف ، ان تروتسكي لم يكن قط ماركسياً .

– بولغانين .

– بالطبع بولغانين . هذا ما كنت اريد ان اقوله . وكان ستالين يغضب كثيراً عندما يحدث مثل هذا الأمر . لم يكن يريد للاخرين ان يلاحظوا . ولكن الأمر كان يتكرر فيدفعه إلى الخجل كلما حدث . وكان كاغانوفيتش يحضر اجتماعات حلقتنا الداخلية اقل من بولغانين ، اما فوروشيلوف فلم يعد يدعى اليها تقريباً .

واستمر ستالين لمدة عشر سنوات يشك بفوروشيلوف على انه جاسوس انكليزي ، وكانت تلك بلاهة بالغة (١) . فلا استطيع ان اتصور المدى الذي يبلغه انسان في شكه بالناس حتى يصل إلى هذا الحد الاقصى . لقد عمل ستالين وحارب جنباً إلى جنب مع فوروشيلوف عدة سنوات . ان نزاهة فوروشيلوف في نظر الحزب وفي نظر الطبقة العاملة لم تكن لتخضع لادنى شك . وان تقييم عمله في وزارة الدفاع باعتباره كان غير مهيأ لهذه المسؤولية وكسولا ومهملا لا يجوز ان يختلط مع أمر ولائه ونزاهته . اذكر مرة غضب فيها ستالين فجأة في احدى جلساتنا وسأل : « لماذا تسلل فوروشيلوف كالدودة إلى المكتب (السياسي)؟»

قلنا له « لم يتسلل بل انت عينته » . فيما بعد تباحثنا بيريا ومالنكوف وانا في الموضوع وهززنا رؤوسنا عجباً من ستالين كيف يستطيع ان يقول مثل هذه الأشياء .

اما كاغانوفيتش فكان اقل جاذبية من فوروشيلوف ولكنه في النشاط والاجتهاد كان كالعاصفة التي لا تهدأ . كان يعمل دون ان يرحم نفسه ولم يكن يقيم اعتباراً للوقت الذي يقضيه في العمل . كان يكرس كامل وقته للحزب ، ويسعى وراء الوظيفة . ولكن ذلك امر آخر . انني هنا اتكلم عن نمط عمله واسلوبه .

اذكر الآن كيف أخذ ستالين ذات مرة يبوح بشكوكه حول مولوتوف . كنا في الجنوب ، في افون ، على ما اظن ، عندما خطر فجأة في بال ستالين ان مولوتوف عميل للامبريالية الاميركية . ويبدو ان مولوتوف سافر مرة في الولايات المتحدة بالقطار من واشنطن إلى نيويورك . وقدر ستالين ان مولوتوف لا بد ان يكون وضع في مقصورة خاصة ، فمن اين اتى بالمال ؟ اذن لابد ان يكون قد باع نفسه من الاميركيين . وشرحنا لستالين ان من غير المعقول ان يكون مولوتوف قد اقتنى قطاراً ليسافر فيه . ذلك ان كل القطارات في الولايات المتحدة تملكها شركات خاصة . ومع ذلك فقد ابرق ستالين إلى (اندريه) فيشنسكي الذي

---

(١) يبدو من غير المعقول ان يكون ستالين قد أخذ يفكر بأحد محاسيبه القدامى ، فوروشيلوف ، على انه جاسوس انكليزي منذ ١٩٤٣ اياً كان الرأي الذي كونه.

كان يعمل آنذاك في الامم المتحدة مستوضحاً . وبالطبع رد فيشنسكي على الفور ان مولوتوف لا يملك ، ولا يمكن ان يملك ، مقصورة خاصة او قطاراً .

وبنتيجة هذه الشكوك ، كما قلت آنفاً ، جمد ستالين وضع مولوتوف وميكويان بعد المؤتمر التاسع عشر . وقد ساءنا جميعاً مصيرهما . وظننا ان ستالين يفكر بخطة ضدهما عندما لم يدخلهما في عضوية المكتب السياسي . وبعد المؤتمر شرع ستالين في انتهاج سياسة عزلة ضد ميكويان ومولوتوف .

وقد تأثرت شخصياً بابعادهما من الحلقة الداخلية إلى حد بعيد ، اذ كنت احترمهما كثيراً . وكنت اعتبر مولوتوف ذا خبرة غنية وواسعة لاسيما في شؤون السياسة الخارجية . اذ كان غالباً ما يتحدث في هذه الشؤون بحضوري فأجد في كلامه سعة الاطلاع والمنطق والقوة . من هنا كان قلقي بالغاً من ان يؤدي ابعاده إلى التأثير على نوعية العمل القيادي . كما كنت احب انستاس ايفانوفيتش ميكويان . وكنت اقدر كثيراً احكامه في القضايا الدولية كذلك ، لاسيما ما اختص منها بالتجارة الخارجية .

لكن ميكويان ومولوتوف ، بعد المؤتمر التاسع عشر ، ظلا ، آكالا لتقليد قديم يحضران كلما اجتمعنا إلى ستالين . ولم يكلفانفسيهما ولا مرة الاتصال بستالين وطلب الأذن منه بالحضور . كل ما كانا يفعلان هو التثبت من ان ستالين هو في الكرملين او في منزله الريفي ثم يحضران بكل بساطة . وكان يسمح لهما دائماً بالدخول . لكن كان واضحاً ان ستالين لم يكن مسراً جداً برؤيتهما . كانا يريدان البقاء على مقربة من ستالين لأنهما ارادا انقاذ حياتهما — لا مجرد انقاذ مركزهما في الحزب والدولة . فكانا يحاولان استعادة ثقة ستالين بهما . وكنت مدركاً للخطر الذي يتعرضان له ، وكنت كلياً إلى جانبهما .

وذات يوم قال ستالين : « لا اريد ان يأتي هذان الرجلان إلى هنا بعد الآن » . وبعد ذلك تحدثنا ، ميكويان ومولوتوف وبيريا ومالنكوف وانا ، واتفقنا على ان نحاول تليين موقف ستالين منهما . كما اتفقنا على اعلامهما عندما يذهب ستالين إلى المنزل الريفي او إلى صالة سينما الكرملين حتى يقابلاننا هناك . ولفترة استمر ميكويان ومولوتوف يأتيان إلى دار السينما . ثم لاحظ ستالين مناوراتنا واستنتج اننا نعمل كعملاء لهما . وذلك بعد ان حقق مع معاونيه من الموظفين فتأكد انهم يلتزمون اوامره ولا يعلمون ميكويان ولا مولوتوف عن اماكن وجوده .

وذات مرة ثار صاخباً ، وهو لم يسم احدنا ولكنه كان يتطلع باتجاه مالنكوف وهو يزأر : « تعتقدون انني لا اعرف انكم تبلغون مولوتوف وميكويان موعد ذهابنا إلى السينما ؟ توقفوا عن اخبارهما اين أكون ! لن اتسامح في هذا الأمر . »

ورأينا انه لم تعد فائدة من الاصرار . فذلك لن يعود عليهما بأي نفع . وقد تتعرض مراكزنا نحن عند ستالين ، ولم يكن أحد يريد ذلك . كان ستالين مهتاجاً ، وعندما يحصل ذلك تصبح علاقتك به في مهب الريح . وهكذا دون ان نعود إلى بحث الموضوع فيما بيننا ، قررنا طيه للوقت المناسب . وانني مقتنع بانه لو عاش ستالين طويلا لكان قضي على ميكويان ومولوتوف .

اود ان اذكر شيئاً عن علاقة بيريا بستالين في اواخر حياته . في اثناء الحرب أصبح بيريا أكثر صفاقة من ذي قبل . وعندما فقد ستالين السيطرة على نفسه ابان التراجع امام الالمان ، اصبح بيريا مصدر الرعب في الحزب . وكان تزايد نفوذه واضحاً من تركيب حاشية ستالين . فعندما كنت اعود من الجبهة إلى موسكو في الحرب ، كنت الحظ ان ستالين محاط بالجيورجيين . فكان ثمة رئيس طهاة قوقاسي يطبخ الشيشلك لستالين ، وقد رسم برتبة ماجور جنرال . وكلما كنت اجيء إلى موسكو كنت الحظ ان الاوسمة والشرائط تزداد على صدر هذا الطاهي الكبير ، ربما اعترافاً بفضله ومهارته في طبخ الشيشلك .

وذات يوم ضبطني ستالين احدق في شرائط الطاهي واوسمته فحدجني بنظرة منه . لقد عرف بماذا افكر ، وعرفت بدوري ماذا فكر هو ، ولكن كلينا لم ينبس ببنت شفة . كنا جميعاً نشعر بان وجود هذا الطاهي بلباسه الرسمي المغطى بالاوسمة هو بمثابة اهانة بليغة لنا كلنا ، ولكننا لم نذكر الأمر لأن لا فائدة من ذكره . وبالاضافة إلى هذا الماجور جنرال الطاهي ، كان جيورجي آخر مسؤولا عن تزويدنا بالخمرة وبلحم الغنم للشيشلك وبمؤن أخرى لمطبخ ستالين . وقد رسم هذا في الحرب برتبة لفتننت جنرال . وكنت الحظ كلما عدت من الجبهة ، انه هو الآخر قد منح وساماً او وسامين خلال غيبتي . واعتقد ان الآخرين جميعاً من زملائي كان يثيرهم كما اثارني هذا التصرف .

بعد الحرب اصبح بيريا عضواً في المكتب السياسي . وأخذ القلق يساور ستالين من تزايد نفوذ بيريا ، بل انه أخذ يخافه . ولم أكن اعرف في ذلك الوقت جذور هذه المخاوف . عرفتها فيما بعد وذلك عندما اكتشفت اجهزة بيريا الرهيبة لاستئصال البشر وازالتهم من الوجود .

وأدرك ستالين ان قدرة بيريا على ازالة اي شخص يشير اليه ستالين باصبعه ، انما تساعده في ازالة من يرغب هو شخصياً في ازالته يوماً من الايام . وكان ستالين يخشى ان يكون هو اول شخص يختار بيريا ان يزيله . ومن الطبيعي ان لا يفضي ستالين لاحد بهذه المخاوف ، ولكنني كنت اتبينها بوضوح . من ذلك اني كنت اتعشى معه في احد الايام بعد نهاية الحرب وفجأة تطلع ستالين حوله إلى الاشخاص

مذين يخدمونه وسأل بغضب : « لماذا انا مطوق بالجيورجيين ؟ » وكان بيريا التحسباً للامر فوراً فقال : « ايها الرفيق ستالين ، هؤلاء الناس هم خدامك الاوفياء ، المخلصون » .

فازداد غضب ستالين : « هل يعني ذلك بان الروس ليسوا مخلصين ، وليسوا اوفياء لي » ؟

« كلا » اجاب بيريا « انا لم أقل ذلك . غير ان الاشخاص الذين اختيروا هنا هم خدام اوفياء جميعاً لك » .

فصرخ ستالين : « لا اريد ولاءهم ، اطردهم جميعاً » .

وكان بين الجيورجيين طاهي الشيشلك وموظف التموين — فطردوا جميعاً وخرج بيريا من الغرفة مهزوماً .

وما ان تخلص ستالين من الجيورجيين واستبدلهم بالروس حتى بدا مرتاحاً إلى انه حال بين بيريا والتوصل إلى المطبخ عبر حاشيته . غير ان ستالين كان يتقدم في السن ولا يعرف مدى قوة بيريا الحقيقية . مثال على ذلك ان اباكوموف وزير أمن الدولة كان يرفع تقاريره إلى ستالين وهي تحتوي على ما كان بيريا قد اخبره ان ستالين يرغب في سماعه .

فضلا عن هذا ، فان بيريا كان يسيطر بصورة عملية على حاشية ستالين ، حتى بعد طرد الموظفين الشخصيين الجيورجيين . وكان بيريا قد عمل في التشيكا مدة طويلة من الزمن وكان جميع افرادها معروفين لديه . وكانوا جميعاً يحاولون جهدهم ان يحصلوا على رضاه مما يسهل له استخدام هؤلاء لاغراضه . لذلك لم يكن ستالين يثق حتى في حاشيته الروسية بما فيه حرسه الشخصي من « التشيكا » .

ان احساسي بان ستالين يخاف بيريا قد تأكد عندما لفق ستالين قضية المنغوليين . وانني متأكد بصورة مطلقة بان تهمة « المؤامرة » قد لفقت بقصد الخلاص من بيريا الذي كان هو نفسه منغولياً . فقد نشر ستالين مرسوماً ينص على ان للمنغوليين علاقات بالاتراك وان بعضهم يخضع للتوجيه التركي . وبالطبع كانت المزاعم سخيفة لا اساس لها . ونظراً لتقدم ستالين بالسن ومرضه لم يكن متناسقاً في تتبع خطته ، فقلب بيريا الأمر كله لمصلحته وفرض نفسه بفطنة كرجل ستالين الذي ينفذ اوامره . لم يكن يجرؤ احد سواه على التدخل بقضية لها علاقة بالجمهورية الجيورجية . غير ان بيريا ندب نفسه للمهمة وذهب إلى جيورجيا وادار عمليات

القصاص ضد الاعداء الوهميين . فاقتيد هؤلاء المساكين إلى الذبح كالاغنام .
وكان طعم ذلك كله مراً كالعلقم في افواهنا . وكونت عندي اقتناعاً شخصياً بان
القيادة يجب ان تكون تحت سيطرة الجمهور حتى تصان من افعال تتنافى مع
عقيدتنا الاشتراكية وتؤذي طريقة حياتنا الاشتراكية .

وازداد غرور بيريا . فأصبح بمقدوره — وكان يذهلني كيف يتحمل ستالين
ذلك — ان يطرح موضوعاً اثناء العشاء ، فاذا رفضه ستالين، يبادر بيريا فينهر
اي شخص يحاول طرح الموضوع نفسه فيما بعد قائلا : « هذه المسألة لا حاجة
إلى اثارتها مجدداً » . وكان ستالين لا يقول شيئاً ، رغم انه سمع باذنيه ان بيريا
بنفسه هو الذي طرح الموضوع في البداية .

وكان بيريا مغتراً في كل شيء . فلم يقرر أمر بدونه ، ولا يرفع أي أمر
إلى ستالين دون اخذ موافقته مسبقاً . واذا رفعت تقريراً إلى ستالين بحضور
بيريا دون ان تعلمه مسبقاً ، فانه يعمد إلى معارضة التقرير وتحطيمه في نظر
ستالين وذلك بطرح مختلف انواع الاسئلة واثارة كل التناقضات الممكنة حوله .
وفي ابان ذلك كله كان بيريا يوطد سلطانه .

وفي الفترة اللاحقة للحرب أخذ مالنكوف ايضاً يوطد سلطانه ، رغم ان
احواله كانت بين الحين والآخر تصاب بنكسة . فذات مرة نقل ستالين مالنكوف
من سكرتيرية اللجنة المركزية إلى آسيا الوسطى . ولكن بيريا مد يد المساعدة
لمالنكوف ودبر اعادته إلى موسكو . ومنذ ذلك الحين أصبح بيريا ومالنكوف
صديقين لا ينفصلان . وكان ستالين يمزح على العشاء فيقول عنهما « هذان
المتشردان المحتالان » . وكنت اراقب باهتمام كبير تلك الصداقة وهي تنمو بين
هذين المتشردين المحتالين . وكنت ادرك ان بيريا لا يحب مالنكوف ولا
يحترمه الا انه يستخدمه لاغراضه السياسية . ومرة قال لي بيريا ان مالنكوف
هزيل الشخصية ، وانه ليس الا تيس ماعز ، وانه يفر اذا لم توثقه إلى مقود .
واضاف : « ولكنه روسي ومناسب جداً . وهذا يجعله سهل المنال ، مطواعاً » .
ولعل العبارة الاخيرة : « وهذا يجعله سهل المنال » هي مفتاح صداقة بيريا
لمالنكوف (١) .

---

(١) خلال هذا السرد كله ينجح خروشوف في تصوير مالنكوف وكأنه دساس لا مزايا له ، بحيث يصبح على القارىء ان يبذل الجهد ليتذكر ان هذا الموصوف هنا «بتيس الماعز» هو الذي كاد في ١٩٥٧ ان يقيل خروشوف نفسه ، فضلا عن منزلته العلمية الثقافية التي جعلته ينظر أحياناً من فوق إلى خروشوف .

وكنت انا صديقاً لمالنكوف منذ عملت معه في منظمة موسكو قبل الحرب .
ولطالما صرفنا عطلاتنا معاً . ولنا منازل ريفية متجاورة . وصمدت صداقتنا
لكل التقلبات حتى عندما اظهر مالنكوف قدراً معيناً من الشعور بالتفوق نحوي
ابان الحرب ، لاسيما عندما كان ستالين يبدي استياءه مني .

وذات مرة كنت ومالنكوف معاً في منزل ستالين الريفي في سوخي . وكنت
قد أتيت من كييف واتى مالنكوف من موسكو . وذهبنا إلى النزهة معاً فقلت له :
« انني مندهش كيف انك لا تدرك موقف بيريا منك . ألم تتحقق بعد منه ؟»
فصمت ولم ينبس بكلمة .

واضفت : « اتعتقد انه يحترمك ؟ انا اعتقد انه يسخر منك » . واخيراً أجاب
مالنكوف : « نعم ، بكل تأكيد ، ادرك ذلك . ولكن ماذا باستطاعتي ان افعل ؟ »

فقلت : « ما باستطاعتك ان تفعل ؟ كل ما ارغب فيه هو ان تفهم الأمر على
حقيقته . الآن لا تستطيع ان تفعل اي شيء ، ولكن الوقت سوف يحين » .

واخذ قلقي يزداد . فقد اصبح ستالين في سن من العمر وضعتنا جميعاً في
موقف صعب . وكنت ابعد ما اكون عن انتظار موت ستالين ، اذ انني في
الواقع ، كنت اخشى وفاته . كنت اخاف النتائج . ماذا سيحدث للبلاد ؟ ورغم
شكوكي حول الحملة ضد اعداء الشعب ، الا ان ثقتي بستالين كانت لم تزل قوية .
كنت اقدر ان بعض الافراطات حدثت ، ولكن في الاساس رأيت ان كل ما
جرى كان سليماً . وليس فقط انني لم ادن ستالين بل مجدته لأنه لم يتهيب تطهير
الحزب في سبيل وحدته . وفي اواخر الاربعينات كنت مقتنعاً بانه عندما يموت
ستالين فاننا سنفعل كل شيء ممكن لمنع بيريا من احتلال منصب قيادي في
الحزب واذا لم نوفق إلى ذلك فستحل بالحزب نهايته . بل انني توصلت إلى
يقين ان نجاح بيريا سيعني فشل الثورة . وعلى اقل تقدير فانه يعني فشل مكاسب
الثورة . وكان رأيي في الاساس ان بيريا قد يحيد بالبلاد عن طريقها الاشتراكي إلى
الطريق الرأسمالي .

وفي السنوات الاخيرة من حياة ستالين كان بيريا يظهر اكثر فأكثر قلة
احترام لستالين وبصورة تزداد سوءاً ، وكان يصارح مالنكوف اكثر مني ،
الا انه كان ، على العموم يتكلم بحضور ستالين دون احترام ، واحياناً باسلوب
مهين . وقد اثارني هذا الامر دوماً وجعلني أكون يقظاً . اذ انني كنت اتحسب
لان يكون بيريا يقصد من ازدرائه الظاهري لستالين التحريض لجري إلى الادلاء
بملاحظات مشابهة او حتى لمجرد الموافقة معه ، بحيث يستطيع ان يذهب إلى
ستالين ويشي بي كعدو للشعب ومعاد للستالينية . الا انني كنت قد ألفت خيانات

القصاص ضد الاعداء الوهميين . فاقتيد هؤلاء المساكين إلى الذبح كالاغنام .
وكان طعم ذلك كله مراً كالعلقم في افواهنا . وكونت عندي اقتناعاً شخصياً بان
القيادة يجب ان تكون تحت سيطرة الجمهور حتى تصان من افعال تتنافى مع
عقيدتنا الاشتراكية وتؤذي طريقة حياتنا الاشتراكية .

وازداد غرور بيريا . فأصبح بمقدوره — وكان يذهلني كيف يتحمل ستالين
ذلك — ان يطرح موضوعاً اثناء العشاء ، فاذا رفضه ستالين، يبادر بيريا فينهر
اي شخص يحاول طرح الموضوع نفسه فيما بعد قائلا : « هذه المسألة لا حاجة
إلى اثارتها مجدداً » . وكان ستالين لا يقول شيئاً ، رغم انه سمع باذنيه ان بيريا
بنفسه هو الذي طرح الموضوع في البداية .

وكان بيريا مغتراً في كل شيء . فلم يقرر أمر بدونه ، ولا يرفع أي أمر
إلى ستالين دون اخذ موافقته مسبقاً . واذا رفعت تقريراً إلى ستالين بحضور
بيريا دون ان تعلمه مسبقاً ، فانه يعمد إلى معارضة التقرير وتحطيمه في نظر
ستالين وذلك بطرح مختلف انواع الاسئلة واثارة كل التناقضات الممكنة حوله .
وفي ابان ذلك كله كان بيريا يوطد سلطانه .

وفي الفترة اللاحقة للحرب أخذ مالنكوف ايضاً يوطد سلطانه ، رغم ان
احواله كانت بين الحين والآخر تصاب بنكسة . فذات مرة نقل ستالين مالنكوف
من سكرتيرية اللجنة المركزية إلى آسيا الوسطى . ولكن بيريا مد يد المساعدة
لمالنكوف ودبر اعادته إلى موسكو . ومنذ ذلك الحين أصبح بيريا ومالنكوف
صديقين لا ينفصلان . وكان ستالين يمزح على العشاء فيقول عنهما « هذان
المتشردان المحتالان » . وكنت اراقب باهتمام كبير تلك الصداقة وهي تنمو بين
هذين المتشردين المحتالين . وكنت ادرك ان بيريا لا يحب مالنكوف ولا
يحترمه الا انه يستخدمه لاغراضه السياسية . ومرة قال لي بيريا ان مالنكوف
هزيل الشخصية ، وانه ليس الا تيس ماعز ، وانه يفر اذا لم توثقه إلى مقود .
واضاف : « ولكنه روسي ومناسب جداً . وهذا يجعله سهل المنال ، مطواعاً » .
ولعل العبارة الاخيرة : « وهذا يجعله سهل المنال » هي مفتاح صداقة بيريا
لمالنكوف (١) .

(١) خلال هذا السرد كله ينجح خروشوف في تصوير مالنكوف وكأنه دساس لا مزايا له ، بحيث يصبح على القارىء ان يبذل الجهد ليتذكر ان هذا الموصوف هنا «بتيس الماعز» هو الذي كاد في ١٩٥٧ ان يقيل خروشوف نفسه ، فضلا عن منزلته العلمية الثقافية التي جعلته ينظر أحياناً من فوق إلى خروشوف .

وكنت انا صديقاً لمالنكوف منذ عملت معه في منظمة موسكو قبل الحرب .
ولطالما صرفنا عطلاتنا معاً . ولنا منازل ريفية متجاورة . وصمدت صداقتنا
لكل التقلبات حتى عندما اظهر مالنكوف قدراً معيناً من الشعور بالتفوق نحوي
ابان الحرب ، لاسيما عندما كان ستالين يبدي استياءه مني .

وذات مرة كنت ومالنكوف معاً في منزل ستالين الريفي في سوخي . وكنت
قد أتيت من كييف واتى مالنكوف من موسكو . وذهبنا إلى النزهة معاً فقلت له :
« انني مندهش كيف انك لا تدرك موقف بيريا منك . ألم تتحقق بعد منه ؟»
فصمت ولم ينبس بكلمة .

واضفت : « اتعتقد انه يحترمك ؟ انا اعتقد انه يسخر منك » . واخيراً أجاب
مالنكوف : « نعم ، بكل تأكيد ، ادرك ذلك . ولكن ماذا باستطاعتي ان افعل ؟ »

فقلت : « ما باستطاعتك ان تفعل ؟ كل ما ارغب فيه هو ان تفهم الأمر على
حقيقته . الآن لا تستطيع ان تفعل اي شيء ، ولكن الوقت سوف يحين » .

واخذ قلقي يزداد . فقد اصبح ستالين في سن من العمر وضعتنا جميعاً في
موقف صعب . وكنت ابعد ما اكون عن انتظار موت ستالين ، اذ انني في
الواقع ، كنت اخشى وفاته . كنت اخاف النتائج . ماذا سيحدث للبلاد ؟ ورغم
شكوكي حول الحملة ضد اعداء الشعب ، الا ان ثقتي بستالين كانت لم تزل قوية .
كنت اقدر ان بعض الافراطات حدثت ، ولكن في الاساس رأيت ان كل ما
جرى كان سليماً . وليس فقط انني لم ادن ستالين بل مجدته لأنه لم يتهيب تطهير
الحزب في سبيل وحدته . وفي اواخر الاربعينات كنت مقتنعاً بانه عندما يموت
ستالين فاننا سنفعل كل شيء ممكن لمنع بيريا من احتلال منصب قيادي في
الحزب واذا لم نوفق إلى ذلك فستحل بالحزب نهايته . بل انني توصلت إلى
يقين ان نجاح بيريا سيعني فشل الثورة . وعلى اقل تقدير فانه يعني فشل مكاسب
الثورة . وكان رأيي في الاساس ان بيريا قد يحيد بالبلاد عن طريقها الاشتراكي إلى
الطريق الرأسمالي .

وفي السنوات الاخيرة من حياة ستالين كان بيريا يظهر اكثر فأكثر قلة
احترام لستالين وبصورة تزداد سوءاً ، وكان يصارح مالنكوف اكثر مني ،
الا انه كان ، على العموم يتكلم بحضور ستالين دون احترام ، واحياناً باسلوب
مهين . وقد اثارني هذا الامر دوماً وجعلني أكون يقظاً . اذ انني كنت احسب
لان يكون بيريا يقصد من ازدرائه الظاهري لستالين التحريض لجري إلى الادلاء
بملاحظات مشابهة او حتى لمجرد الموافقة معه ، بحيث يستطيع ان يذهب إلى
ستالين ويشي بي كعدو للشعب ومعاد للستالينية . الا انني كنت قد ألفت خيانات

بيريا فاصغيت دون اي تعليق على ما يقول . انني لم اغلق اذني قط ولكنني لم افتح فمي ابداً . لكن بيريا استمر بالروح نفسها ، رغم كل محاولاتي لصده . فقد كان واثقاً ان لا شيء يتهدده . وكان يعرف انني لن العب دور المخبر الواشي . وعرفت ايضاً انه كان اقرب كثيراً إلى ستالين مما كنت بحيث يستطيع ان يكون اقل حذراً . ذلك انه عندما كان يتخاصم بيريا وستالين ، كان بيريا يحاول دوماً التظاهر بان ما جرى هو خصام بين الاحبة . فعندما يتخاصم جيورجيان ، فانما يفعلان ذلك للتسلية ، وفي النهاية لا بد ان يتصالحا .

وبالاختصار ، كان بيريا سيداً من اسياد الاستفزاز . بل كان ماهراً جداً في ضروب القذارات والخيانات . وكنت اعرف انه يتحين الفرص ليشي بي ويتخلص مني . لذلك كنت دوماً يقظاً ، حذراً منه . لقد استخدم هذه الحيلة مع بولغانين ايضاً ، لكن بولغانين عرف هدفه كما عرفت . الا انني واثق ان بيريا لم يتجاسر ان يتفوه بأي شيء ضد ستالين في حضور كاغانوفيتش . فلم يكن بيريا غير واثق من كاغانوفيتش فحسب بل كان يمقته بعنف .

تلكم كانت الحالة عشية موت ستالين .

موت ستالين

اعلن راديو موسكو للعالم في صبيحة الرابع من أذار ١٩٥٣ ، بأن ستالين قد أصيب بنزيف في الدماغ « بينما كان في منزله في موسكو » . بينما في الواقع ، وكما يؤكد ذلك خروشوف هنا ، فقد كان ستالين في منزله الريفي . وقد صحب البلاغ نداء وجهته اللجنة المركزية ومجلس الوزراء إلى الشعب السوفياتي لمضاعفة «وحدته وتضامنه وثبات روحه ويقظته في هذه الأيام المضطربة» . وأمر كل من البطريرك الارثوذكسي الروسي والحاخام اليهودي إقامة خدمات دينية خاصة بالمناسبة ، وبعد إنقضاء يومين ، أي نحو الساعة الرابعة صباحاً جاء الاعلان الذي سبقه قرع الطبول بأن «قلب رفيق لينين في السلاح ، حامل عبقريته وقضيته ، القائد والمعلم الحكيم للحزب الشيوعي والاتحاد السوفياتي ، قد توقف عن النبض» .

ان وصف خروشوف للظروف المروعة المحيطة بموت ستالين هي في خطوطها العريضة ، صحيحة ويؤيدها بصورة أساسية وصف سفتلانا اللليويفا في «عشرون رسالة إلى صديق» . ان كلا من الوصفين ، رغم التفاصيل التي يخدمها ، يلتقي مع الآخر ، بصورة مثيرة للاهتمام ، حول سلوك بيريا ، الذي يكاد لا يصدق ، على فراش موت ستالين .

ويهول خروشوف كثيراً بمخاوفه من ان يستولي بيريا على وزارة الشؤون الداخلية ، ذلك لان بيريا رغم سيطرته طوال سنين على الشرطة السرية لم يكن يتبوأ مركزاً رسمياً كهذا . وقد كان له ، بوصفه عضواً في المكتب السياسي ، اشراف عام على وزارتي الشؤون الداخلية وأمن الدولة . وقد رأس هاتين الوزارتين (اللتين خلفتا المفوضيات القديمة) محاسيب بيريا حتى ١٩٥١ عندما أصبح س.د. أغناتيف صديق خروشوف رئيساً لأمن الدولة . فكان مبعث قلق خروشوف ان بيريا يستطيع بما له من قاعدة اتباع واسعة في أجهزة الأمن الداخلي التخلص من أغناتيف واستعادة السيطرة على الوزارة، وهذا تماماً ما حصل الا أنه لم يدم طويلا .

اصاب المرض ستالين في شباط ١٩٥٣ . وكنا ، مالنكوف وبيريا وبولغانين وانا في منزله الريفي مساء يوم سبت بعدما حضرنا فيلماً في الكرملين . واستمر العشاء كالعادة حتى الخامسة او السادسة صباحاً وكان ستالين مخموراً تماماً وفي حالة نفسية جيدة . ولم تظهر عليه ادنى امارات التعب الجسدي . وعندما حان وقت انصرافنا جاء إلى المدخل ليشيعنا . وكان يمزح بمرح صاخب ويلكزني في بطني لكزات مؤلمة باصبعه ، ويناديني « نيكيتا » بلكنة اوكرانية كما كان يفعل دائماً عندما يكون طيب المزاج . وهكذا بعد هذا العشاء بالذات ذهبنا جميعاً إلى بيوتنا مسرورين . اذ ان العشاءات عند ستالين لم تكن تنتهي دائماً بمثل هذا السرور .

كان اليوم التالي ، الاحد ، يوم عطلة كالعادة . وكنت متأكداً ان ستالين سيتصل بنا ليدعونا إلى اجتماع من نوع ما . ومساء الأحد ، نظراً لتوقعي مكالمة منه في اية لحظة ، تأخرت في تناول العشاء في بيتي . واخيراً صرفت النظر عن الانتظار وتناولت بعض الطعام . ولم يتصل بي احد بعد الطعام . ولم اكن اصدق ان يوم عطلة يمضي بأكمله دون ان يستدعينا ستالين . ولكنه لم يفعل . كان الوقت متأخراً جداً عندما خلعت ثيابي واستلقيت على الفراش .

وفجأة رن الهاتف . كان المتكلم مالنكوف : « اسمع ، ان صبيان التشيكا (الشرطة السرية المعروفة بهذا الاسم) اتصلوا للتو من منزل ستالين الريفي . يعتقدون ان شيئاً قد حدث له . الافضل ان نذهب إلى هناك . ولقد ابلغت ايضاً بيريا وبولغانين . هيا فلنمض حالا إلى هناك » .

استدعيت ، على الفور ، سيارتي التي كانت معي قرب منزلي الريفي . ولبست ثيابي بسرعة وتوجهت إلى منزل ستالين . استغرق وصولنا إلى هناك

خمس عشرة دقيقة . وعندما اجتمع شملنا توقفنا لنتحدث إلى الضباط المناوبين قبل ولوج غرفة ستالين . فأعربوا عن قلقهم : « الرفيق ستالين دوماً على وجه التقريب يستدعي شخصاً ما في الحادية عشرة ليطلب الشاي او شيئاً يأكله . هذه الليلة لم يفعل » . فارسل الحراس ماتريونا بتروفنا لترى ما حدث . وكانت بتروفنا خادمة مسنة صادقة ومخلصة لستالين . وبعد ان القت ماتريونا بتروفا نظرة فاحصة ، عادت وابلغت الحراس ان ستالين يستلقي نائماً على ارض الغرفة الواسعة التي ينام فيها عادة ، ويبدو انه نهض من الفراش ووقع . ورفعه الحراس ووضعوه على مقعد في غرفة الطعام الصغيرة المجاورة .

عندما اطلعنا على ذلك كله ، قررنا ان حضورنا غير مناسب وستالين في حالة الغيبوبة هذه . فافترقنا وعدنا جميعاً إلى منازلنا . وفي وقت متأخر من تلك الليلة تلقيت مكالمة ثانية من مالنكوف قال فيها : « تلفن الصبيان (التشيكا) مرة اخرى ، يقولون انه لا بد ان يكون مصاباً بسوء ، وماتريونا بتروفنا تقول انه كان ينام بهدوء عندما ارسلناها لتلقي عليه نظرة ثانية ، ولكن نومه غير طبيعي . من الافضل ان نعود ».

وطلبنا من مالنكوف ان يستدعي فوروشيلوف وكاغانوفيتش اللذين لم يحضرا إلى العشاء في الليلة السابقة ولم يحضرا إلى المنزل الريفي في المرة الأولى التي حضرنا فيها لتفقد الحالة .

ورتبنا استدعاء الاطباء ايضاً . واذكر منهم البروفسور لوكومسكي . وبعد ان تقابلنا في محطة الضباط المناوبين ذهبنا إلى الغرفة التي كان يضجع فيها ستالين على المقعد . فطلبنا إلى الاطباء ان يجروا اللازم وان يفحصوا حالته بدقة . فتقدم البروفسور لوكومسكي من ستالين بحذر شديد ، وعرفت بماذا يفكر . كان يرتجف بعصبية وامسك بيد ستالين كأنه يمسك بحديدة حامية . وقال بيريا بفظاظة : « انك طبيب ، اليس كذلك ؟ امسك يده كما يجب » .

فقال البروفسور لوكومسكي ان ذراع ستالين اليمنى لا تتحرك ، وكذلك ساقه اليسرى . وكانت حالته خطرة . فنزعوا عنه ثيابه واعادوه إلى الغرفة الضخمة حيث كان ينام عادة ، وحيث الهواء متوفر بصورة أفضل .

ونظم الاطباء رقابة دورية عليه . كما اقمنا في ما بيننا ، نحن اعضاء مكتب البرزيديوم ، مناوبة دائمة حوله على النحو التالي : كانت نوبة بيريا ومالنكوف ، وكاغانوفيتش وفوروشيلوف ، وبولغانين وانا . وكان من الواضح ان مالنكوف وبيريا قد رتبا نوبات الحراسة بحيث اخذا نوبة النهار لهما وتركا نوبة الليل لبولغانين وانا . واني اعترف بالانزعاج الذي اعتراني ، وكنت آسفاً لأننا فقدنا

ستالين . قال لنا الاطباء ان ستالين قد يعيش ، لكنه لن يكون قادراً على العمل وان مرضاً من هذا النوع لا يستغرق طويلا وينتهي بالموت .

وبذلنا كل ما في وسعنا لانهاض ستالين على قدميه . وادركنا انه كان غائباً عن الوعي . ولكن فيما كان الاطباء يأخذون عينة من البول ، لاحظت ان ستالين حاول ان يغطي نفسه ، فلا بد انه شعر بالضيق . وذات مرة ، في النهار ، استعاد وعيه فعلا . وبدأ وجهه يتحرك . كانوا يطعمونه الحساء ويسقونه الشاي بالملعقة . رفع يده اليسرى وبدأ يشير إلى شيء على الجدار . وكان هنالك صورة معلقة على الجدار ، وهي مقتطعة من مجلة « اوغنيوك » . وكانت الصورة اعادة للوحة تمثل طفلة صغيرة تطعم حملا بواسطة قرن . ولعل ستالين حاول ان يقول : « انني في وضع ذلك الحمل تماماً . وانتم تفعلون معي الشيء نفسه بواسطة الملعقة » .

ثم بدأ يصافحنا واحداً واحداً — بيده اليسرى ، لان يده اليمنى شلت . واعطيته يدي فهزها بيده اليسرى . وقد عبر بمصافحته هذه عن مشاعره .

وما ان سقط ستالين طريح الفراش حتى أخذ بيريا ينشر حقداً ضد ستالين ويسخر منه . كان الاصغاء لبيريا لا يطاق . ولكن مما لفت النظر ان بيريا كان ، ما ان يظهر ستالين بعض دلائل الوعي ويشعر بانه قد يشفى ، يرمي بنفسه عند ركبتيه ثم يمسك بيده ويروح يقبلها . وحين كان ستالين يفقد الوعي من جديد ويغمض عينيه ، كان بيريا يقف ويبصق . كان هذا بيريا على حقيقته — خائناً حتى نحو ستالين الذي كان من المفروض ان يقدره ، بل يعبده .

وذات مساء وصلت مع بولغانين لنتولى نوبة الحراسة الليلية على ستالين ، وكنا قد امضينا معظم النهار هناك . كان علينا ان نراقب الاطباء عندما يكونون هناك . كنت صريحاً مع بولغانين أكثر مما كنت مع الآخرين . قلت له « ان ستالين لن يستطيع الشفاء . هل تعرف كيف سنجد انفسنا عندما يموت؟ هل تعرف اي مركز سيتخذ بيريا لنفسه ؟ سيحاول ان يجعل نفسه وزيراً لأمن الدولة . لا نستطيع ان نتركه يفعل ذلك ، والا كانت بداية النهاية بالنسبة الينا » .

فقال بولغانين انه يوافقني على ذلك . قلت « سأتحدث إلى مالنكوف . اعتقد انه سيرى المسألة كما نراها . اذا لم نفعل شيئاً ، وفوراً ، فان هذا يعني كارثة وشيكة بالنسبة للحزب . ان في استطاعة بيريا ان يعيد عقربي الساعة إلى الوراء اي إلى ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ، وفي امكانه ان يفعل أسوأ من ذلك » .

وبدأت تساورني الشكوك في ما اذا كان بيريا شيوعياً حقيقياً ام لا . فلعله

ممن تسللوا إلى الحزب . وتذكرت كلمات غريشا كامنسكي عندما قال ان بيريا كان عميلا للاستخبارات الانكليزية المضادة في باكو في السنوات الأولى من الثورة .

كان بيريا ذئباً في ثياب حمل ، وقد تسلل إلى ثقة ستالين وتوصل إلى وظيفة خطيرة عليا بالخداع والخيانة .

ووافقني بولغانين على كل ما قلت . وانتهت نوبتنا وعدت إلى المنزل . وما ان استلقيت في الفراش حتى رن جرس الهاتف . مالنكوف يتكلم : « احضر سريعاً . اصيب ستالين بنكسة . تعال حالا . » استدعيت سيارتي فوراً وتوجهت إلى منزل ستالين . وعندما وصلت إلى المنزل الريفي وجدت ستالين فعلا في وضع سيء . ووصل الآخرون . وكان بامكاننا جميعاً ان نرى ستالين على شفير الموت . وابلغنا الاطباء انه يحتضر واننا نشاهد احتضاره . وفجأة توقف عن التنفس . وجاء رجل ضخم من مكان ما وبدأ يدلك صدره لكي يحمله على التنفس ثانية . كانت مراقبة المشهد مؤلمة بالنسبة إلي . قلت : « اسمع ! أوقف ذلك ، ارجوك ! ألا ترى ان الرجل مات ؟ » فاستسلموا . كان ذلك صحيحاً — لقد مات ستالين .

وفي اللحظة التي لفظ ستالين انفاسه ركب بيريا سيارته وانطلق ذاهباً .

٩

الخلافة

التآمر على اسقاط بيريا

بالنسبة لخروشوف ، بدأ التآمر لاسقاط بيريا بينما كان هو وزملاؤه وسفيتلانا الليليويفا يقفون إلى جانب جثمان ستالين . ومرة اخرى تتفق سفتلانا وخروشوف في وصفهما لموقف بيريا غير الاعتيادي . فقد فوجيء كلاهما بابتسامته المنتظرة عندما استدعى سيارته لحظة وفاة ستالين . وكان واضحاً ان بيريا يريد الاسراع بمغادرة كونتسيفو ليمسك بزمام قيادة قوى الأمن . (بالامكان ان نذكر ان سفيتلانا تشرد عن الموضوع وهي تمتدح شعور خروشوف نحوها حينئذ وفيما بعد). ولم يكن من شك ان بيريا كان يسعى إلى السلطة العليا ، وهكذا كان يفعل مالنكوف الذي برز في إحدى المراحل كخلف لستالين ، بوصفه رئيس الوزراء والسكرتير الأول للحزب الشيوعي ، ويليه بيريا في الهرم التسلسلي . وكان الرجلان حليفين موقوتين ، يعتقد كل منهما ان بامكانه توسل الآخر واستخدامه . ولكن خروشوف كان قد بدأ آنذاك يتطلع إلى فوق . ولبرهة تحالف خروشوف مع مالنكوف وبيريا ، ولكن خلال عشرة أيام أرغم مالنكوف ، الذي بقي رئيساً للوزراء يومها ، على التخلي عن السكرتيرية الاولى للحزب فتقلدها خروشوف رسمياً بعد ستة أشهر . ان زعم خروشوف الضمني بأنه كان الرأس المدبر للمؤامرة ضد بيريا ، لا ريب في صدقه بصورة عامة ، ولكن يشك في أن الأمر حدث تماماً على النحو الذي وصفه . ذلك ان آخرين إلى جانب خروشوف كانوا متنبهين لمقاصد بيريا والخطورة الناتجة من تجمع السلطات في يديه . فعدا أفراد البريزيديوم ، كانت قيادة الجيش العليا كلها ضد بيريا كما انها كانت تكره مالنكوف بسبب تصرفاته ابان الحرب ، حين تصرف كأنه جاسوس ستالين على الجيش .

ومن المحتمل ان بعض الماريشلات ، والعديد منهم عمل مع خروشوف ابان

الحرب ونشأت صداقات بينه وبينهم ، كان لهم دور فعال أكثر مما هو مذكور هنا ، في مراحل التآمر الاولى ضد بيريا . ولا بد ان قضايا أخطر من مسألة إشادة المنازل الريفية في سوخومي ، وهي القضية التافهة والخيالية ، كانت موضع الخلاف . وان التآمر ذاته كان دون ريب مسؤولية أشد اكفهراراً من مجرد «تطبيقات» تجري مع مترددين لدفعهم إلى تأييد المؤامرة .

وان وصف خروشوف لاعتقال بيريا وتوقيفه يختلف كثيراً عن بعض الروايات المثيرة التي كان يمتع بها الزوار الشيوعيين الأجانب بين الفينة والفينة ، ولكن المرجح ان وصفه هنا هو الاصح .

مات ستالين ، وبدا موته حينئذ مثل مأساة رهيبة ، ولكنني كنت اخشى ما هو اسوأ . لقد نظر كل منا إلى موت ستالين على طريقته الخاصة . اما انا فكان موته صعباً علي جداً ليس فقط لان روابطي به كانت قوية حينئذ بل لان بموته سيفرغ مركز أخذ بيريا يهيء نفسه له . فقد كان وراء الأكمة ما وراءها من توقعات غير مستحبة ، بل من نتائج لها طابع الكارثة .

كان بيريا فرحاً بعد وفاة ستالين . ويمكن القول انه بدأ يحتفل حتى قبل ان توضع جثة ستالين في النعش . كان واثقاً من ان ليس من قوة على الارض تستطيع شده إلى الخلف ، وان لحظة العمر التي كان ينتظرها قد حانت ، فلا عقبة تعترض طريقه . وبامكانه الان ان يفعل ما يشاء . كانت هذه الافكار المنتصرة ترتسم على وجهه وهو ينطلق نحو المدينة تاركاً ايانا في منزل ستالين الريفي .

كنت اعرف ان مالنكوف لم تكن له ولا مرة مكانة او دور مستقل بل كان دوماً يمثل دور الوسيط او الصبي الذي ينقل الرسائل . كان ستالين يقول خلال احاديثه في الحلقة الداخلية : « مالنكوف هذا كاتب جيد . بامكانه كتابة قرار بسرعة . وهو شخص ملائم لتوزيع المسؤوليات ولكن لا قدرة عنده البتة للتفكير المستقل او المبادرة » (١) . وكان مالنكوف يعتبر التودد لبيريا مكسباً يعود عليه بالنفع رغم معرفته بان بيريا كان يستخف به ويسخر منه . وكان مالنكوف على حق ــ فقد كان نافعاً جداً ان يتودد المرء لبيريا . فصلات مالنكوف الوثيقة ببيريا استطاعت ان تبقيه ذا حظوة عند ستالين . اما الآن وقد مات ستالين ، فلم يكن في وسع مالنكوف الا ان يكون « مطواعاً » في تنفيذ خطط بيريا كما

---

(١) قبل خمسة أشهر من وفاة ستالين ، في تشرين أول ١٩٥٢ ، دلل ستالين على على ان نظرته إلى مالنكوف مختلفة كلياً ، اذ اسند اليه وضع التقرير العام للمؤتمر التاسع عشر للحزب .

قال لي بيريا ذات مرة .

تلك هي الافكار التي جالت في مخيلتي بينما انا اقف قرب جثمان ستالين في منزله الريفي .

وعندما ذهب بيريا ، قرر الباقون منا دعوة اعضاء المكتب السياسي والبريزيديوم. وبينما كنا ننتظر وصولهم ، كان مالنكوف يذرع ارض الغرفة جيئة وذهاباً بعصبية . فقررت ان احدثه الآن ، وهنا ، فتوجهت نحوه وقلت : « إيغور ، اريد التحدث اليك » .

وسأل ببرودة : « عن ماذا ؟ » فقلت : « الآن ، وقد مات ستالين ، لدينا شيء نبحثه . وهو ما عسانا ان نفعل ؟ »

فأجاب : « سوف نجتمع كلنا معاً ونتحدث . أليس من أجل هذا دعينا إلى اجتماع ؟ »

فقلت : « حسناً ، سنتحدث فيما بعد » .

والتأم شمل الاعضاء في منزل ستالين الريفي وشاهدوه ميتاً . ثم وصلت سفتلانا وتوجهت لمقابلتها . كانت مضطربة وأخذت تنتحب . فلم استطع لجم مشاعري . وأخذت ابكي معها ، وبكيت بصدق موت ستالين .

لم أكن أبكي مجرد موت ستالين بل كنت قلقاً على مستقبل الحزب والبلاد . كنت اشعر ان بيريا سيبدأ بالتصرف كالرئيس ذي الصلاحية ، فيأمر وينهي . واذا حصل هذا كانت بداية النهاية . لقد عرفت لأمد طويل انه لم يكن شيوعياً وكنت اعتبره انتهازياً خائناً لا يتورع عن اي شيء في سبيل مآربه . ومن ناحية ايديولوجية لم أكن اعتبر انه ينطلق من موقع شيوعي . كان جزاراً وقاتلا .

وعندما انعقد الاجتماع اقترح بيريا على الفور ان يرئس مالنكوف مجلس الوزراء . واقترح مالنكوف تعيين بيريا نائباً اولا له ، كما اقترح دمج وزارتي أمن الدولة والشؤون الداخلية في وزارة واحدة هي « وزارة الشؤون الداخلية » على ان يكون بيريا وزيرها .

وبدا في ظاهر الأمر ان بيريا قنع بمركز متواضع (١) . وبقيت صامتاً . وكنت اخشى ان يعترض بولغانين على هذا الاجراء غير المناسب ، الا ان بولغانين بقي هو الآخر صامتاً . وكنت الحظ موقف الباقين . ولو اننا ، بولغانين

---

(١) ليس بهذا القدر من التواضع . الم يظهر خروشوف مخاوفه من قبل من مثل هذه الخطوة . ثم ان بيريا اختير نائباً أول لرئيس الوزراء .

وانا ، اعترضنا لاتهمنا بفتح معركة قبل ان تبرد الجثة وباننا نحب المشاكسة ونتصرف بدون روح نظامية . على ان الامور كانت تسير في الاتجاه الذي خشيت ان تسير فيه .

وتم تعيين مولوتوف وكاغانوفيتش نائبين اولين لرئيس الوزراء ، وعين فوروشيلوف رئيساً للبريزيديوم (رئيساً لاتحاد الجمهوريات السوفياتية) بدل شفرنيك (١) . وكان بيريا يتكلم عن شفرنيك باحتقار ويقول ان شخصاً غير معروف من الأمة باجمعها ليس مناسباً لشغل مركز خطير في القيادة . فاتضحت امامي معالم الخطة التي وضعها بيريا والتي لم تكن جميع هذه الترتيبات الا اجزاء متماسكة منها . فقد كان يحاول بتعيينه فوروشيلوف في رئاسة بريزيديوم السوفيات الاعلى ان يجعله شخصاً يعتمد عليه عندما يبدأ الجولة الثانية من المذابح . ثم اقترح بيريا ان اعفى من مهامي كسكرتير للجنة موسكو بحيث استطيع التركيز على عملي في سكرتيرية اللجنة المركزية . وصدر المزيد من التعيينات والتسميات . ثم قررنا ترتيبات المأتم والطريقة الافضل لاعلان وفاة ستالين على الشعب (٢) .

وهكذا فقدنا ستالين وبدأنا ندير دفة الحكم بانفسنا .

وخلال الجنازة وبعدها كان بيريا لائقاً معي كثيراً ، وهو أمر أدهشني . وبدأ بيريا ومالنكوف يدعوانني إلى التمشي معهما حول الكرملين . ولم يقطع بيريا صلات الود بينه وبين مالنكوف ولكنه حاول ان يقيم صلات ود مماثلة معي . ومن الطبيعي انني لم اقاوم ولم ارفض مثل تلك الصلات ، غير ان رأيي ببيريا لم يتغير بل على العكس ازداد قوة . وادركت ان مودته نحوي من الحيل التي اشتهر بها. وعرفت ما يرمي اليه بيريا في سياسته المنافقة ازائي ، كان يداعبني ليميت في حذري ، فيما هو ينتظر الفرصة السانحة للتخلص مني قبل سواي .

وتقرر ان نعمل ، مالنكوف وانا ، على وضع جدول اعمال جلسات

(١) ن.م. شفرنيك ، أحد المخلصين القدامى المتقدمين لستالين وقد امضى معظم احترافه الحزبي على رأس النقابات السوفياتية . ان رئاسة بريزيديوم السوفيات الأعلى أو رئاسة الاتحاد السوفياتي كانت وظيفة بروتوكولية على الأغلب لترؤس الاحتفالات أو ما يشبه . كما ان بولغانين قد عين نائباً أول لرئيس الوزراء مع بيريا وكاغانوفيتش ومولوتوف . ولم يتقلد خروشوف أي منصب وزاري . وكانت قوته في مركزه كعضو في البريزيديوم وسكرتيرية الحزب .

(٢) اشتمل الاعلان عند صدوره على النداء المشهور إلى شعب الاتحاد السوفياتي لتجنب «الذعر والشرود» .

البريزيديوم . وكان مالنكوف سيرئس الجلسات وأعمل انا معه في وضع جدول الاعمال .

اجرينا في البريزيديوم تبديلا كبيراً . فالغينا البريزيديوم الموسع والمكتب السياسي المصغر اللذين انشأهما ستالين في اجتماع اللجنة المركزية الاول بعد المؤتمر التاسع عشر . وعدنا إلى حلقة ضيقة من ١١ شخصاً . وحدث الصدام الأول بين بيريا ومالنكوف من جهة ، وسائر اعضاء البريزيديوم الجديد من جهة ثانية ، عندما قدم بيريا الاقتراح الآتي :

« بما ان احكاماً كثيرة بالسجن والنفي اوشكت على الانتهاء ، وبما ان جميع هؤلاء المحكومين والمنفيين سابقاً سوف يعودون إلى بيوتهم ، فانني اقترح ان نوافق على مشروع قرار بعدم السماح لاحد منهم بالعودة من دون اذن خاص من وزارة الشؤون الداخلية » . وهذا يعني من بيريا نفسه . كان هذا الاقتراح انذاراً بما كان يضمره بيريا .

وتملكني الغضب فتكلمت ضد الاقتراح قائلا : « ارفض اقتراحك التعسفي هذا جملة وتفصيلا . لقد فعلنا الشيء نفسه في الماضي . اما الآن فنحن نفكر ، بصورة اسلم في تقييم الماضي ونقده ، فلا نستطيع بعد اليوم ان نفرض مثل هذا الخروج على الشرعية . ان هؤلاء المحكومين اوالمنفيين الذين تتحدث عنهم قد اعتقلوا واستجوبوا وحوكموا وحكموا من قبل « ترويكات » أمن الدولة (١) دون ان يتاح لهم الاستعانة بشهود او المثول امام قضاة . وكان نصيبهم السجن او القتل . والآن تريد ان يجردهؤلاء الناس ثانية ، بعد ان انهوا احكاماً من هذا النوع ، من حقوقهم كلها ويعاملون كمجرمين ولا يسمح لهم اختيار امكنة سكنهم . ان هذا امر غير مقبول مطلقاً » .

وأيدني الآخرون . فسحب بيريا بدهاء اقتراحه . وبما ان مالنكوف كان يسجل الوقائع فلم يسجل الاقتراح . وفي وقت لاحق قدم بيريا ما بدا انه اقتراح ليبرالي ، وهو اقتراح بخفض العقوبة القصوى من ٢٠ سنة إلى ١٠ سنوات . وادركت مقصد بيريا الحقيقي من وراء هذا الاقتراح فقلت : « انني اعارض هذا كلياً ايضاً . لأنه علينا اعادة النظر في نظام الاعتقال والتحقيق كله من الاساس لا ان نعدل التفاصيل . وهذا الاقتراح يحاول مرة اخرى ، تشجيع الحكم التعسفي . ليس مهماً اذا كان الحد الاقصى هو عشرون سنة او عشر سنوات ، لأنك

(١) هذه جماعات ثلاثية دمجت فيها وظائف النيابة العامة والقضاء وعرفت بالتعسف المتطرف .

تستطيع ان تحكم شخصاً تكرهه عشر سنوات تلو عشر سنوات حتى يموت في السجن . ان المطلوب هو اعادة نظر جذرية في اسلوب الاعتقال الكيفي والحكم التعسفي الذي كان سائداً في ايام ستالين . ان ما ترمي اليه هو اضفاء الشرعية على الحكم التعسفي — على الوضع الراهن . ان الوثائق تهيء لاظهار الاساليب التي تقترح على حقيقتها كما طبقت في الماضي فاقامت حكم التعسف واللاشرعية ، وكان ان دمر الحزب نتيجة ذلك » .

ومرة أخرى سحب بيريا اقتراحه . وهكذا تكلمت ضده بقوة مرتين حتى الآن . ولم يكن يخامرني شك انه بعد معرفته بموقفي منه أخذ يرسم معالم الخطوة التالية . اذ لم يكن يحتمل ان يعترض طريقه احد .

والآن ماعسى ان تكون الخطوة التالية عند هذا النذل بيريا ؟ ذات يوم كنا نتمشى معاً — بيريا ومالنكوف وانا — عندما بدأ بيريا يعرض بحذاقة الفكرة الآتية : « اننا نتقدم في السن ، وان اي شيء قد يحدث لنا ،وسيكون علينا ان نترك عائلاتنا وراءنا دون معيل او معين . علينا ان نفكر بهذا كله . لذلك احب ان اقترح على الحكومة بناء منازل ريفية ، تسلم بعد ذلك إلى قادة البلاد من أجل استعمالهم الشخصي . اقترح بناء هذه المنازل في سوخومي (على ساحل البحر الاسود) بدل ضواحي موسكو — وليس في ضواحي سوخومي بل في قلب المدينة . عندها يصبح بامكاننا ان نخلي وسط المدينة ونحوله إلى حديقة مليئة باشجار الخوخ » .

وأخذ يتحدث عن الروعة التي تتميز بها مدينة سوخومي وعن الخوخ والعنب النامين فيها . كان كل شيء عنده قد أصبح ناجزاً ومهيأ حتى ادق التفاصيل حول الموارد لتمويل المشروع والملاك الشخصي للاشراف عليه . وكان يتحدث على نطاق واسع وفخم . وتابع حديثه : « ستشرف وزارة الشؤون الداخلية على المشروع . علينا البدء ببناء منزل ريفي لك يا ايغور (مالنكوف) ثم لك يا نيكيتا وبعد ذلك لمولوتوف وفوروشيلوف والباقين » .

كنت اصغي اليه ولم احاول مناقشته . كنت متأكداً ان فكرة المنازل الريفية هذه كانت نوعاً من الاستفزاز المفتعل . لم احاول الاعتراض بل اصغيت . وكنت اردد بينما هو يتكلم : « نعم ، نعم ، علينا ان نفكر بالأمر » وكأنني اوحي اليه بالموافقة .

وبعد ان انهينا الحديث صعدنا إلى سياراتنا متوجهين إلى منازلنا في الريف . وكنا في سيارة واحدة ولكن على منعطف طريق روبليف كنا سنفترق ، اذ يتابع بيريا سيره على خط مستقيم اما نحن ، مالنكوف وانا ، فكان علينا ان ننعطف يساراً إلى منازلنا . وعندما اصبحنا ، مالنكوف وانا ، في سيارة واحدة بمفردنا

قلت لمالنكوف « اسمع ما رأيك في فكرة بيريا تلك ؟ انها اكثر الاستفزازات سماجة » . فقال : « لماذا تعتقد ذلك ؟ » فقلت : « ان بيريا محرض فهو يريد ان يبني هذه المنازل للتحريض لا كهدف آخر . دعنا لا نعترض على هذا الأمر لفترة . »

وهكذا بدأ بيريا تنفيذ فكرته ، فأمر بوضع الخطط . قال انه تم اختيار موقع منزل مالنكوف بحيث يتمكن من مراقبة الاتراك . وقال بيريا مازحاً : « ايغور ! سيكون في امكانك ان ترى تركيا . هل ترى اي منزل جميل سيكون منزلك ؟ »

قال بيريا هذا بعد ان دعانا إلى اجتماع لهذه الغاية حضره بنّاء شهير قدم لنا تقريراً عن المشروع . وأمر بيريا بالشروع فوراً بالتنفيذ . وكان بيريا يعتبر هذا البنّاء حليفاً يثق به . وكان يعمل لمصلحة بيريا وينفذ كل ما يطلبه منه . وقد أصبح هذا البناء اليوم مسؤولاً عن بناء مصانع الطاقة الذرية . وبعد ان انتهى الاجتماع وذهب بيريا ، انفردت بمالنكوف وقلت له « انه لاساسي بالنسبة لخطط بيريا ان يبني منزلك الريفي في وسط مدينة سوخومي . وهذا يستلزم اجلاء عدد كبير من السكان ، فتحل بهم نكبة كبرى . وهذا ليس مزاحاً . ألم تفهم بعد جانب التحريض في المشروع ؟ بيريا يريد ان يبدأ نوعاً من المذبحة المنظمة التي تستهدف رمي الناس خارج بيوتهم وهدمها لكي يبني لك قصراً . وسيرتفع سور حول المنزل الريفي وملاعبه . وستموج المدينة بالاستنكار والغضب . وسيتساءل الناس لمن سيبنى هذا البناء كله ؟ . وعندما ينتهي كل شيء ، تصل انت إلى منزلك فيقول الناس الذين سيشاهدونك : رئيس مجلس الوزراء يغادر سيارته ويختفي في قصره . عندها يدركون ان المذبحة واجلاء السكان من بيوتهم قد حدث كله في سبيلك . وسينتشر الحقد عليك ليس في مدينة سوخومي فحسب بل في البلاد كلها . وهذا تماماً ما يرمي اليه بيريا . انه يحاول دفعك بمناوراته هذه إلى موقع لا تحسد عليه من الفضيحة التي لا يرجى منها خلاص حتى تضطر إلى الاستقالة . الا ترى ذلك ؟ بيريا يقول انه سيأمر بوضع مشاريع لبناء منزل له ، لكنه لن يبني مثل هذا المنزل . سيبني منزلك ثم يستغله من أجل تشويه سمعتك » .

فقال مالنكوف : « كيف تستطيع ان تقول هكذا ؟ ان بيريا قد بحث الأمر معي ! »

على ان كلامي دفع مالنكوف إلى البدء بالتفكير . وذات يوم ، عندما كان بيريا يعرض علي التصاميم قال : « الن تكون هذه المنازل جميلة ؟ »

— طبعاً . جميلة جداً . انها فكرة رائعة .

— لماذا لا تأخذ التصاميم معك إلى المنزل ؟

واخذت التصاميم معي ولكنني لم اعرف ماذا افعل بها . وقد وقعت عليها نينا بتروفنا (زوجة خروشوف) فسألتني : « ما هذا ؟ » . وعندما ابلغتها قالت بغضب : « هذه فكرة معيبة » .

لم استطع ان اشرح لها الأمر ، فقلت لها : « سوف نتحدث عن ذلك في ما بعد دعينا الآن نضعها جانباً » (١).

وحاول بيريا الاسراع في بناء المنازل الريفية في سوخومي ولكن شيئاً لم يكن قد تحقق عندما حان وقت اعتقاله . وبعد اعتقاله الغينا المشروع كله . واحتفظت بمشاريع المنازل في بيتي لفترة طويلة بعد ذلك .

وفي اثناء ذلك بدأت الامور تتوالى بسرعة . كان بيريا يحاول التدخل في اعمال الحزب ، فاخترع نوعاً من الوثائق عن الاوضاع في قيادة الحزب الاوكراني . وهكذا قرر ان تكون ضربته الأولى موجهة ضد المنظمة الحزبية في اوكرانيا . وكنت مستعداً لهذا الأمر لأنني تصورت انه سيحاول توريطي اذ كنت لم ازل مسؤولا الى حد كبير عن اوكرانيا . وكان بيريا قد اخذ يجمع الأدلة عن طريق دوائر وزارة الشؤون الداخلية الاقليمية في اوكرانيا ، وكان ستروكاش هو رئيس مكتب وزارة الداخلية في لفوف (٢) . وقد توفي فيما بعد . كان شيوعياً صادقاً وجندياً صالحاً .

وقبل الحرب كان كولونيلا في قيادة قوات الحدود في اوكرانيا . ثم تولى ابان الحرب رئاسة اركان قوات الانصار الاوكرانيين وكان يرفع تقاريره إلي عن الحالة في الارض المحتلة وراء خطوط العدو ، وكنت قد تحققت خلال ذلك من صدقه ونزاهته . وبعد الحرب عين ممثلا لوزارة الشؤون الداخلية في اقليم لفوف ، وعلمنا في ما بعد انه عندما اتصل وزير الشؤون الداخلية لاوكرانيا ، وكان من محاسيب بيريا ، بستروكاش وطلب منه معلومات عن موظفي الحزب المحليين ، اجابه ستروكاش انه ليس مسؤولا عن الملاك الشخصي وان عليهم الاتصال بلجنة الحزب الاقليمية . عندها اتصل بيريا بنفسه بستروكاش وقال له اذا كنت ستجادل في امور تافهة كهذه فسيكون مصيرك كالغبار . وقد اكتشفنا هذه الحادثة لاحقاً بعد ان اوقفنا بيريا . ولكننا آنذاك لم نكن نعرف ان الحزب كان يخضع لوزارة الشؤون الداخلية في اوكرانيا .

وبدأ البريزيديوم البحث في مذكرة وجهها بيريا حول التشكيل العرقي للهيئات

(١) لمحة آسرة عن حياة خروشوف البيتية وعن تصرفات زوجته الرائعة .

(٢) ت.أ. ستروكاش ، لفتننت جنرال في شرطة الأمن ، أصبح في ما بعد على رأس وزارة الشؤون الاجتماعية .

الحاكمة في اوكرانيا . وكانت فكرة بيريا ان الموظفين المحليين اي من غير الروس يجب ان تسند اليهم مراكز القيادة في جمهورياتهم ، فلا يؤتى بهم للعمل في مركز الحزب في موسكو . فاصدرنا قراراً يقضي بان يحتل منصب الامين العام في كل جمهورية مواطن ينتمي اليها لا لشخص يرسل من موسكو (١) .

وصدف ان موقف بيريا بالنسبة لهذه المسألة كان سليماً ومطابقاً لموقف اللجنة المركزية للاتحاد كله ، الا انه كان يتخذ هذا الموقف ليدفع اغراضه المعادية للحزب إلى الامام . كان يبشر بضرورة عكس عملية زعامة الروس على الجمهوريات غير الروسية . وكان الجميع يعرفون ان مثل هذا الامر صحيح ومطابق للخط الحزبي . لكن الناس لم تكن تعرف في البداية ان بيريا كان يدفع هذه الفكرة قدماً من أجل اثارة التوتر القومي بين الروس وغير الروس ، فضلا عن اثارة التوتر بين القيادة المركزية في موسكو والقيادات المحلية في الجمهوريات .

عند هذا الحد انتحيت مالنكوف جانباً وقلت له : « اننا نسير إلى كارثة . بيريا يشحذ خناجره » . وتساءل مالنكوف « حسناً ، ولكن ماذا نستطيع ان نفعل » .

— حان وقت المقاومة . انت دون ريب تلاحظ ان موقف بيريا ذو طابع معاد للحزب . لا يجوز ان نقبل بما يفعل . علينا رفضه .

— هل تعني ان اقاومه وحدي ؟ انا لا اريد ان افعل ذلك .

— ماذا يجعلك تعتقد انك ستكون وحيداً ؟ هناك انت وانا ، اي اثنان . ثم اني واثق من ان بولغانين سيوافق ، وواثق من ان الآخرين سينضمون الينا اذا عرضنا حجتنا من موقف حزبي ثابت . المشكلة انك لا تترك فرصة لاحدنا ان يقول ما عنده ، اذ ما ان يقدم بيريا اقتراحاً حتى تقفز فوراً لتؤيده قائلا : « هذا رائع ، رفيق بيريا ، انه اقتراح حسن . انا مع هذا الاقتراح . هل يعارضه أحد ؟ » . وتطرح الاقتراح فوراً على التصويت . هلا اعطيت مجموعنا فرصة التعبير عن آرائنا ولو لمرة ؟ وسترى ماذا يحصل . سيطر على نفسك . لا تكن متسرعاً . وسوف ترى انك لست الوحيد الذي يفكر بالطريقة التي تفكر بها . انا واثق ان العديدين هم معنا ضد بيريا . فلنضع انت وانا جدول الاعمال معاً ، ولنطرح

(١) هنا إشارة إلى العملية التي لم تتضح معالمها بعد والتي قادها بيريا لتشجيع القيادات المحلية في الجمهوريات التي تشكل الاتحاد . وقد اعتقل واعدم قبل أن يتضح الغرض البعيد من وراء مشروعه ، رغم ان التفسير الذي يعطيه خروشوف يرجح ان يكون صحيحاً .

على البحث بعض القضايا التي نعتقد ان بيريا مخطىء فيها . عندها نعارضه . وانا واثق اننا نستطيع تعبئة سائر اعضاء البريزيديوم وراءنا وتمر قراراتنا . اتح لنا فرصة التجربة على الأقل .

في النهاية وافق مالنكوف ، وقد ادهشني ذلك وبعث في السرور . وكتبنا جدول اعمال الجلسة المقبلة للبريزيديوم وضمناه عدداً من القضايا التي ايدنا فيها الآخرون ، وكانت النتيجة انهزام بيريا . وتكرر هذا الأمر مراراً ، وعندها فقط اصبح مالنكوف واثقاً من ان في امكاننا استخدام وسائل الحزب ضد بيريا فنهزم مقترحاته المؤدية ، في نظرنا ، لخراب البلاد . وعندما ايقن بيريا ان الآخرين أخذوا يتجاوزونه ، حاول ان يسرع في اعداد الامور كما يريدها . فاضفى على نفسه مظهر الاهمية الذاتية وحاول ان يظهر تفوقه في كل المجالات . كنا نمر في فترة حرجة . وشعرت ان الوقت حان لنواجه بيريا .

وأخبرت مالنكوف ان علينا الاتصال بسائر اعضاء البريزيديوم وتأليبهم معنا . ومن الجلي ان ذلك لم يكن ليتيسر ابان انعقاد الجلسة بينما بيريا حاضر بيننا . كان علينا ان نتحدث مواجهة مع كل فرد حتى نكتشف موقفه الحقيقي من بيريا . وأخيراً وافق مالنكوف وقال : « نعم ، علينا ان نعمل » .

وكنت اعلم ان بولغانين يقف مع الحزب وهو يفهم كلياً الخطر الذي يمثله بيريا . واتفقنا ، مالنكوف وانا ، انه كبداية يجب ان اتحدث إلى الرفيق فوروشيلوف. وكنت قد خدمت مع فوروشيلوف في لجان مختلفة ، وقررت الذهاب اليه بهذه الذريعة . فاتصلت به هاتفياً واعلمته انني اريد مقابلته بشأن عمل احدى اللجان . فقال الرفيق فوروشيلوف انه يفضل مقابلتي في مبنى اللجنة المركزية . فاجبته : « كلا ، ارجوك ان تدعني اجيء إلى مكتبك » . ولكنه اصر على المجيء إلي ولكنه في الاخير سلم باقتراحي . واتفقت مع مالنكوف على ان امر به عند رجوعي من فوروشيلوف فنتناول الطعام معاً ونتحدث بنتائج مقابلتي لفوروشيلوف . وكنت انا ومالنكوف نسكن البناية نفسها ، وشقتي هي مباشرة فوق شقته .

ذهبت إلى مكتب الرفيق فوروشيلوف لكنني لم استطع انجاز المهمة التي جئت من اجلها ، اذ ما ان وطأت قدمي مكتب فوروشيلوف حتى بدأ يكيل الاطراء لبيريا : « اي انسان رائع هو لافرنتي بافلوفيتش (بيريا) ، يا رفيق خروشوف ، اي انسان رائع حقاً هو ! » . واجبته « ربما ، وربما كنت تبالغ في تقديره » . ولم يعد مناسباً بعد ان استقبلني فوروشيلوف على هذا النحو طرق الموضوع معه . وكنت افكر لعل فوروشيلوف تكلم على هذا النحو لأنه يعتقد ان للجدران اذاناً . او لعله ظنني حليف بيريا ، باعتباري اتنزه معه ومع مالنكوف في هذه الايام .

على اي حال ، كان رأيي مختلفاً كلياً عن رأي فوروشيلوف في بيريا ، ولكن ، لو انني قلت ما كنت اريد قوله ، لوضعت فوروشيلوف في موضع غير مناسب . اذ يصعب عليه ، ولو من زاوية كبريائه الشخصي ، ان يقفز إلى موقف معاكس لما كان يقفه من بيريا ، عند ولوجي باب غرفته .

وهكذا تبادلت وفوروشيلوف بعض الكلمات حول الموضوع الرسمي لمقابلتنا والذي كان يتعلق بمسألة جزئية تافهة سر عان ما انتهينا منها وغادرته معجلا إلى بيت مالنكوف حيث كنا قد تواعدنا على الغداء . وأخبرت مالنكوف بزيارتي الخائبة لفوروشيلوف .

واتفقنا ، مالنكوف وانا ، على انه يجب ان اتحدث إلى مولوتوف الذي كان كوزير للخارجية ، قد سألني في وقت سابق ان كان في الامكان ان نلتقي لكي نبحث في امور تتعلق بموظفي وزارة الخارجية . فاتصلت بمولوتوف هاتفياً وقلت : « اذا كان في وسعك ان تأتي إلى هنا فوراً ، فاننا نبحث في قضية الملاك الشخصي (الموظفين) » .

وعندما وصل بعد برهة قصيرة قلت له : « دعنا نتحدث عن الموظفين لكن ليس عن موظفي وزارة الخارجية » . وافصحت له عن وجهة نظري بشأن بيريا ودوره والمخاطر التي تهدد الحزب . وكان قد سبق لي اعلامه بخطة بيريا لزيادة التوترات القومية في الجمهوريات .

ويبدو ان مولوتوف كان هو نفسه فكر في هذه الامور طويلا . ولم يكن يستطيع الا ان يفكر في ذلك ، لانه كان يعرف الكثير عما حدث خلال حكم ستالين . واذكر ان مولوتوف عندما كان لم يزل متمتعاً بثقة ستالين الكاملة كان يهاجم بيريا بعنف ولكن ليس بحضور ستالين . وكان مولوتوف نفسه ضحية تحريضات بيريا المرائي وخياناته . ولطالما سمعته يصف نشاطات بيريا باسمائها الحقيقية في وجه بيريا نفسه . لذلك عندما وصلت في حديثي مع مولوتوف إلى الموضوع الجدي المطروح على بساط البحث ، ادركت انه على اتفاق تام معي . وقال : « نعم . اوافقك تماماً ، لكن ما هو موقف مالنكوف ؟ » .

— انني ابحث في هذا الأمر معك باسم مالنكوف وبولغانين ايضاً . لقد تبادلنا وجهات النظر معاً حول الموضوع .

عندها قال مولوتوف . « انتم على حق في اثارة هذا الموضوع . وانا اعطيكم تأييدي الكامل . لكن قل لي شيئاً آخر : ماذا تريدون بالضبط ؟ إلى اين سيقودكم هذا المسعى ؟ » .

— اولا علينا ان نعفي بيريا من مسؤولياته كعضو في البريزيديوم وكنائب

رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الشؤون الداخلية .

قال مولوتوف ان هذا ليس كافياً . « فبيريا خطر جداً . لذلك اعتقد ان علينا اللجوء إلى تدابير اكثر تطرفاً » .

قلت : « هل تعتقد ان علينا ان نوقفه تمهيداً لاستجوابه » . لقد استخدمت كلمة « توقيف » وليس « اعتقال » لأنه لم تكن هناك بعد تهم اجرامية ضد بيريا . كنت على يقين من انه عميل كما وصفه كامنسكي ولكن هذا الاتهام لم يجر اثباته . اما بصدد سلوك بيريا التحريضي والاستفزازي فلم يكن لدينا سوى حدسنا بوجوب المضي في الأمر ولا يجب ان يعتقل انسان لمجرد الحدس . من هنا استخدمت تعبير « توقيفه » للتحقيق . المهم انني انتهيت مع مولوتوف الى اتفاق واعلمت فيما بعد الرفيق مالنكوف وبولغانين بما تم .

وقررنا الاسراع في الأمر قبل ان تسترق « آذان بيريا » السمع او قبل ان يطلق احدهم القطة من عقالها (اي يبوح بالسر) . ان في استطاعة بيريا ان يعتقلنا جميعاً اذا ما تسربت اليه انباء عن نشاطاتنا . وقررنا ان اتكلم إلى سابوروف الذي كان يومها عضواً في البريزيديوم . وعندما تحدثت اليه اجاب على عجل : « انا موافق كلياً معكم » . ثم سألني : « ولكن ما هو موقف مالنكوف ؟ » . كل من حدثته بالموضوع يتساءل عن موقف مالنكوف .

في ذلك الوقت لم يكن كاغانوفيتش في موسكو ، اذ كان يقوم بجولة تفتيشية على صناعة الخشب . وعندما عاد إلى موسكو طلبت منه المرور بمكتب اللجنة المركزية لمقابلتي . ووصل في المساء فجلسنا نتحدث . واستغرق حديثنا وقتاً طويلا ، اذ كان يخبرني بتفصيل واف عن سيبيريا ومناشر الخشب . ولم احاول مقاطعته عندما أخذ يتحدث ، برغم انه كانت تجول في ذهني امور اخرى غير مناشر الخشب . وعندما انتهى قلت له : « ان ما اطلعتني عليه ممتاز جداً . الآن اريد ان اخبرك بما يجري هنا » . وأخبرته حقيقة الظروف والنتائج التي توصلنا اليها . فقام كاغانوفيتش بحركة لكز فيها اذنيه كأنه يفتحهما وقال « من تقصد بنحن ؟ » ، اجبته ان مالنكوف وبولغانين ومولوتوف وسابوروف وانا متفقون واننا نشكل اكثرية من دونه . ذلك ان طريقة طرحه السؤال بدت وكأنه يريد تقييم توزيع القوى . ولكنه استدرك قائلا : « انا معكم . بالتأكيد انا معكم . ان ما كنت اطرحه مجرد سؤال » . ولكننا ، كل واحد منا ، ادرك حقيقة تفكير الآخر ، ثم سألني : « ماذا عن فوروشيلوف ؟ » فأخبرته عن لقائي الفاشل معه وامتداحه بيريا .

فقال كاغانوفيتش متعجباً كأنه لا يصدق ما اقول : « هل قال ذلك فعلا ؟ »

ولما أكدت له الأمر ، لعن كاغانوفيتش فوروشيلوف ولكن بدون مرارة ، قائلا : « هذا العجوز ابن حرام . كان يكذب عليك . لقد اعلمني بنفسه انه لا يطيق بيريا ، وان بيريا خطر وانه على الارجح سوف يحطمنا جميعاً . ان ما قاله لا يعني شيئاً » .

— اعتقدت فعلا ان فوروشيلوف لم يكن صادقاً معي ، ولكن على اي حال هذا ما قاله لي .

— ما قاله لا يعني شيئاً البتة .

— اذن علينا ان نحاول التحدث اليه مرة اخيرة ، ربما كلمه مالينكوف نظراً لانه سبق لي ان حدثته ، فلعل الافضل ان لا اثير معه موضوع بيريا ثانية اذ لا اريد ان اضعه في موقف صعب . واتفقنا على ذلك .

ثم قال كاغانوفيتش : « ما هو موقف ميكويان ؟ »

— لم اتحدث إلى ميكويان بعد . ان قضيته أكثر تعقيداً بعض الشيء . ان الجميع يعرفون ان ميكويان على علاقات حسنة جداً مع بيريا ، وكانا دائماً يلتقيان . لا بد من التحدث إلى ميكويان بالأمر ولكن من الافضل ارجاء ذلك إلى وقت لاحق .

ثم اخبرت مالنكوف باحاديثي مع كاغانوفيتش فوافق على ان يتولى هو مفاتحة فوروشيلوف . بقي برفوكخين . وفجأة قال مالنكوف : « اريد التحدث إلى برفوكخين بنفسي » .

— من كل بد ، اذا شئت ذلك ولكن برفوكخين شخص معقد ، انا اعرفه .

— وانا اعرفه ايضاً

— حسناً ، اذن ، تكلم اليه انت .

ودعا مالنكوف برفوكخين اليه . ثم لم يلبث ان اتصل بي قائلا : « تعلم انني استدعيت برفوكخين واخبرته كل شيء . فقال لي سيفكر بالأمر بعض الوقت . ان هذا خطر جداً . اعتقد ان عليك الامساك به حالا ، من يعرف ماذا ينتج عن الامر ؟ سأفكر بعض الوقت . هذا قول خطير جداً » .

اتصلت هاتفياً بالرفيق برفوكخين . فجاء إلي وأخبرته كل شيء بصراحة . فقال : « لو ان مالنكوف طرح الموضوع بالصراحة التي اعتمدتها انت معي لما بقي تساؤل عندي . انني اتفق معكم كلياً . ليس من بديل عما تقترحون » . لا ادري ما قال مالنكوف لبرفوكخين ولكن الأمر سوي الآن .

وبهذا كنا قد بحثنا الأمر مع جميع اعضاء البريزيديوم باستثناء فوروشيلوف وميكويان . واتفقنا على ان اتحدث انا إلى ميكويان وان يتحدث مالنكوف إلى

فوروشيلوف . وفي وقت لاحق ذهبت لاقابل مالنكوف وسألته« حسناً ! ماذا حدث ؟ الا يزال فوروشيلوف يكيل المدائح لبيريا ؟ »

فقال مالنكوف : « ما ان اطلعته على خطتنا حتى عانقني وبدأ يبكي » .

لا ادري اذا كان هذا قد حدث فعلا ولكن لم يكن الرفيق مالنكوف مضطراً ان يكذب في هذا الصدد .

مع هذا برز سؤال آخر : عندما نقرر رسمياً تجريد بيريا من مناصبه ، من الذي سيوقفه فعلا ؟ ان الحراس في البريزيديوم يدينون له بالطاعة ، ثم ان رجال الشرطة السرية سيكونون جالسين في الغرفة الثانية وفي امكان بيريا ان يأمرهم بسهولة باعتقالنا جميعاً . سنكون ضعفاء تماماً لأنه كان هناك حرس مسلح ضخم في الكرملين .

ولهذا قررنا ان نطلب مساعدة العسكريين . واوكلنا ، في البداية امر توقيف بيريا إلى الرفيق موسكالينكو (١) ، قائد الدفاع الجوي و ٥ جنرالات . كانت هذه فكرتي .

ثم عشية الجلسة وسع مالنكوف حلقتنا بحيث شملت الماريشال جوكوف وآخرين . وهذا يعني ان المجموع أصبح ١١ مارشالا وجنرالا . وكانت التعليمات تلك الايام يقضي بان يودع العسكريون اسلحتهم الباب قبل الدخول إلى الكرملين، ولذلك طلبنا من بولغانين ان يتأكد من السماح للماريشالات والجنرالات بان يحضروا مسدساتهم معهم . ورتبنا الأمر بحيث ينتظر فريق موسكالينكو في غرفة منفصلة إلى ان نستدعيه ، فيدخل غرفة الاجتماع ويوقف بيريا لمجرد ان يعطي مالنكوف اشارة معينة بذلك . وكنا قررنا عقد جلسة لرئاسة مجلس الوزراء لكننا دعونا جميع اعضاء رئاسة اللجنة المركزية ايضاً . وافتتح مالنكوف الجلسة على انها جلسة لمجلس رئاسة اللجنة المركزية وليس لمجلس الوزراء حتى يتسنى البحث في احوال الحزب . وكان علينا ان ندعو فوروشيلوف بصورة استثنائية لأنه كان رئيساً للسوفيات الاعلى وبالتالي فانه لم يكن يحضر بصورة منتظمة جلسات هيئة رئاسة مجلس الوزراء او الحزب .

وما ان افتتح مالنكوف الجلسة حتى قال : « دعونا نبحث مسائل الحزب . هنا بعض القضايا المتوجب معالجتها فوراً » ووافق الجميع على ذلك . وكما سبق ان اتفقنا ، طلبت الكلام واقترحت ان نبحث في قضية بيريا . كان بيريا يجلس

(١) الجنرال ك.س. موسكالينكو اصبح ماريشالا فيما بعد . وعند اعتقال بيريا كان قائداً للدفاع الجوي عن موسكو .

إلى يميني . فامسك بيدي بشدة ، وتطلع إلي وتعابير الدهشة على وجهه وقال : « ماذا يجري يا نيكيتا ؟ بماذا تغمغم ؟ »

قلت : « عليك ان تصغي إلى ما اقول وسوف تكتشف فوراً عما اتحدث » .

ثم تكلمت فأعدت إلى الاذهان الاجتماع الكامل للجنة المركزية في شباط ١٩٣٩ الذي اتهم فيه الرفيق غريشا كامينسكي بيريا بالعمل للاستخبارات الانكليزية عندما كان سكرتيراً لمنظمة الحزب في باكو . ثم اعدت إلى الذاكرة كيف ان غريشا كامينسكي اختفى عن الانظار بعد ذلك فوراً مثل حجر يرمى في الماء .

وقلت : « تساءلت دائماً بشأن بيان كامينسكي وعجبت لماذا لم تبذل اية محاولة لشرح ما قال » . وعرضت التحركات التي قام بها بيريا منذ وفاة ستالين ، وتدخله في شؤون منظمات الحزب في اوكرانيا وروسيا البيضاء ودول البلطيق . ووصفت كيف ان بيريا يعتمد على اذكاء العداوات القومية لتقويض الوحدة السوفياتية . واوردت اقتراحه الاخير بشأن الاشخاص الذين في المنفى او في معسكرات الاعتقال ، مشدداً على ان بيريا يريد اضفاء الطابع الشرعي على الحكم التعسفي . وانتهيت إلى القول : « توصلت إلى الاقتناع بانه ليس شيوعياً . انه محترف استطاع ان يتسلل مثل الدودة إلى الحزب لاغراض شخصية . ان عجرفته لا تطاق وليس من شيوعي شريف يستطيع ان يتصرف بالطريقة التي يتصرف بها هو ضمن الحزب » .

وطلب بولغانين الكلام وقال شيئاً مشابهاً لاقوالي . ثم تكلم الآخرون كل بدوره . وعرض مولوتوف موقف الحزب المناسب من القضية ، كما شدد سائر الرفاق على عرض المبادىء نفسها ، باستثناء ميكويان الذي كان آخر المتكلمين . كرر ما كان قاله لي قبل الجلسة ، وعلى وجه التحديد : ان بيريا سيقبل انتقاداتنا بصدق ويعمل على اصلاح نفسه ، وانه ليس حالة ميؤوساً منها ، وانه لا يزال مفيداً للقيادة الجماعية .

وعندما انتهى الجميع من الكلام ، كان من المفترض في مالنكوف ، كرئيس للجلسة ، ان يجمع خلاصة ما قيل لكي يخرج منها باقتراح ، لكن اعصابه خانته في اللحظة الاخيرة . فبقيت الجلسة معلقة بعد نهاية آخر كلمة . وساد صمت طويل ، ورأيت اننا نتخبط في مشكلة ، فطلبت من الرفيق مالنكوف حق الكلام لاتقدم باقتراح . واقترحت ما كنا اتفقنا عليه : ان يعفي بريزيديوم اللجنة المركزية بيريا من مسؤولياته كنائب لرئيس مجلس الوزراء ووزير للشؤون الداخلية ، ومن كل المناصب الحكومية الاخرى التي يتقلدها .

وكان مالنكوف لما يزل في حالة رعب . وعلى ما اذكر لم يطرح اقتراحي على

التصويت ، بل ضغط الزر الذي يعطي الاشارة السرية للجنرالات الذين كانوا ينتظرون في الغرفة المجاورة . وكان جوكوف اول من دخل ، ثم تبعه موسكالينكو والآخرون . وقال مالنكوف للرفيق جوكوف بصوت واهن : « انني كرئيس لمجلس وزراء الاتحاد السوفياتي اطلب منك ان توقف بيريا في انتظار نتائج التحقيق في التهم الموجهة اليه » .

وأمر جوكوف بيريا بقوله : « ارفع يديك » .

وفك موسكالينكو ورفاقه العسكريون عقال مسدساتهم تحسباً لاية محاولة تبدر من بيريا الذي مد يده يحاول التقاط حقيبة يده التي كانت عند النافذة ، فامسكت بذراعه لامنعه من سحب اي سلاح من الحقيبة . لكننا اكتشفنا في ما بعد انه لم يكن يحمل سلاحاً ، لا في الحقيبة ولا حول وسطه . ولم تكن حركته السريعة سوى رد فعل عفوي .

ووضع بيريا على الفور في مبنى مجلس الوزراء ، إلى جانب مكتب مالنكوف في ظل حراسة مسلحة . وفي هذه المرحلة برز سؤال جديد : « الآن وقد اوقفنا بيريا ، اين نضعه ؟ لا نستطيع تسليمه إلى وزارة الشؤون الداخلية لأن جميع من هناك من رجاله . وكان نواب بيريا كروغلوف (١) وسيروف . وبالكاد كنت اعرف كروغلوف الا انني عرفت سيروف جيداً وكنت اثق به . ولم يزل هذا رأيي حتى الآن . واذا كانت قد علقت بسمعته بعض الهنات فذلك يعود بالفعل إلى كونه من رجال التشيكا الذين كانوا ضحايا سياسة ستالين العامة في القمع والاضطهاد . في البدء اقترحت ان يوقف سيروف بيريا ولكن الآخرين اعترضوا . واخيراً قررنا ايكال امر بيريا إلى الرفيق موسكالينكو الذي أمر رجاله بنقل بيريا إلى تحصين قائم في مقره . وكنت واثقاً من ان الرفيق موسكالينكو سيفعل ما تمليه قضية الحزب .

وعندما انتهى كل شيء انتحى بي مالنكوف جانباً وقال : « اصغ إلى ما لدي رئيس حراسي » . ثم توجه الرجل إلي وقال : « لقد سمعت للتو ان بيريا اعتقل . اريد ان ابلغك انه اغتصب ابنة زوجتي القاصرة . قبل سنة تقريباً ماتت جدتها ، وكان على زوجتي ان تذهب إلى المستشفى تاركة الفتاة وحدها في

(١) س. ن. كروغلوف كولونيل جنرال في بوليس الأمن وكان لفترة نائب مدير «سميرش» ومسؤولا عن المحافظة على سلامة ستالين وروزفلت وتشرشل في يالطا وطهران . كان مشهوراً بحبه الظاهر للانتقام والقسوة . إلا أنه خلافاً لبعض زملائه ، كان شخصياً ، شجاعاً . وقد خلف بيريا كوزير للداخلية .

المنزل . وذات مساء ذهبت لتشتري بعض الخبز من مكان قريب من المبنى الذي يسكنه بيريا . وهناك وقعت على رجل عجوز يتطلع اليها بنهم . فأصيبت بهلع شديد ، ثم جاء احدهم واخذها إلى منزل بيريا الذي ارغمها على تناول العشاء معه . ثم سقاها شيئاً ما ، فغلبها النعاس فاقدم على اغتصابها . »

قلت لهذا الرجل : « اريد منك ان تخبر قاضي الاتهام بكل ما اطلعتني عليه » . وبعد ذلك اعطينا لائحة باسماء أكثر من ١٠٠ فتاة وامرأة اغتصبهن بيريا . لقد استخدم الاسلوب نفسه معهن جميعاً : عشاء ونبيذ فيه دواء منوم .

وعندما وضع بيريا في الانفراد طلب ورقة وقلماً . وساورتنا شكوك ، لكننا قررنا في النهاية اعطاءه ما يريد لعله يعاني من رغبة في الاعتراف بصراحة من التهم الموجهة اليه . الا انه بدأ يكتب رسائل : الاولى كانت إلى مالنكوف : « ايغور ، الا تعرفني ؟ ألسنا صديقين ؟ لماذا وضعت ثقتك في خروشوف ، انه هو الذي زجك في هذا الأمر . أليس كذلك ؟ » وهكذا دواليك ، وارسل لي كذلك رسالتين او ثلاث يقسم فيها انه انسان صادق ، إلى آخر المعزوفة !

لم نكن نثق بقدرة النائب العام على التحقيق في قضية بيريا بصورة موضوعية فعزلناه واستبدلناه بالرفيق رودينكو (١) . وعندما شرع رودينكو يستجوب بيريا ، وجدنا انفسنا ازاء رجل مرعب حقاً ، بل وحش لا مقدسات الا وينتهكها . وعندما فتحنا الملفات وحولناه إلى المحاكمة اطلعنا على الاساليب التي كان يتوسلها لتحقيق اغراضه . يسعنا القول انه كان بعيداً عن الشيوعية وعن اي ملمح من ملامح الانسانية .

وواجهتنا بعد اعتقال بيريا مشكلة هي ما عسانا نفعل بميركولوف وزير اشراف الدولة (٢) . وانني اعترف بانه كان موضع احترامي وكنت اعتبره عضواً صالحاً في الحزب . كان شخصاً منقفاً ، دون ريب ، وبصورة عامة كان يعجبني . على هذا الاساس قلت لرفاقي « لا يعني كون ميركولوف معاوناً لبيريا في جيورجيا انه بات شريكه في جرائمه . لعله لم يكن كذلك . ثم اننا لا نستطيع معاملة كل من تعاون مع بيريا على انه شريكه . اقترح استدعاء ميركولوف

(١) ر.أ. رودينكو، أوكراني كان النائب العام السوفياتي الأول في محاكمات نورنبورغ. ثم أصبح النائب العام للاتحاد السوفياتي في ١٩٥٣ .

(٢) ف.ن. ميركولوف ، شخصية مرموقة ولكنه من جهاز الشرطة السرية المقيت وأحد أقرب المقربين من أعوان بيريا . حل محله أباكوموف في وزارة الشؤون الداخلية في ١٩٤٦ ولم يلبث ان أصبح وزير اشراف الدولة ، وقد حوكم مع بيريا واعدم .

والتحدث اليه . لربما يساعدنا على ايضاح بعض المسائل الغامضة حول بيريا » .
واتخذنا ترتيباً باستدعاء ميركولوف إلى مكتب اللجنة المركزية واخبرناه بما حدث .
من اعتقال بيريا الى التحقيق معه . وقلت له : « لقد عملت مع بيريا سنوات عديدة ، ايها
الرفيق ميركولوف ، ولذلك نعتقد ان بوسعك معاونة اللجنة المركزية في تحقيقاتها » .

— سأفعل كل ما تريدون .

— اذن اكتب تقريراً وارفعه لنا .

ومضت ايام قلائل سلمنا في نهايتها ميركولوف مذكرة مطولة ، كانت دون
قيمة البتة . بل كانت اقرب إلى قصة خيالية . وقد كان ميركولوف كاتباً اديباً
الى حد ما . فقد الف الروايات وكان بارعاً في الكتابة الخيالية . وبعد ان احلت
ما كتب إلى النائب العام ، طلب رودينكوف موعداً مني . وعندما جاءني اخبرني
انه بدون اعتقال ميركولوف فان تحقيقاتنا مع بيريا تبقى ناقصة . ووافقت اللجنة
المركزية على اعتقال ميركولوف . وانني آسف ان ميركولوف الذي وثقت به
كشف عن تورط عميق في بعض جرائم بيريا . لذلك صدر حكم بحقه وكان عليه
تحمل المسؤوليات نفسها . وفي كلماته الاخيرة ، بعد صدور الحكم ، لعن
ميركولوف اليوم والساعة التي تعرف فيها على بيريا . وقال بان بيريا قاده إلى
هذا المصير . وهكذا ، في النهاية ، اعترف ميركولوف بجرائمه واصدر حكمه
الخاص على الرجل الذي ورطه في عالم الجريمة .

كان بين الاشخاص الذين عادوا إلى حياة نافعة ونشيطة بعد سقوط بيريا ،
الكسندر بيروفتش دوفجنكو ، مدير الافلام البارع والذي كان قد انزل به ،
بغير حق ، العار اثناء الحرب . بعد فترة قصيرة على اعتقال بيريا جاءني دوفجنكو
الى مكتبي واخبرني القصة التالية :

ذات يوم استدعى المدير شواريلي الذي انتج فيلم « سقوط برلين »
دوفجنكو . وكان شواريلي يعتمد كلياً على عطف ستالين ، ولم تكن محض صدفة ان
فيلمه المذكور ابرز ستالين يجول في عالم الاستراتيجية في قاعة ضخمة وهو محاط
بالمقاعد الفارغة — وكأنه ينفرد بهذه العظمة وحيداً ، لولا وجود الجنرال بوسكربشيف
رئيس القسم الخاص في اللجنة المركزية . بكلام آخر كان شواريلي متزلفاً لعيناً .
وبعد موت ستالين واعتقال بيريا ارسلناه إلى الاورال . ولست اعرف اي مكانة
يحتل في عالم الافلام اليوم وان كاد قد افاد من النقد الذي وجه اليه بعد موت سيده
وحاميه ستالين .

على اي حال فقد استدعى شواريلي دوفجنكو وقال له : « ايها الرفيق دوفجنكو ،
اشير عليك بالذهاب إلى الرفيق بيريا ومقابلته . انه مهتم جداً بك ولديه اقتراح

لمصلحتك يريد عرضه عليك » . ووقع دوفجنكو في حيرة من أمره فلماذا
شواريلي يقول له بوجوب الذهاب إلى بيريا ؟ ثم ما علاقة وزارة الشؤون
الداخلية بالأمر ؟ وفي النهاية قرر ان لا يذهب .

واوضحت لدوفجنكو : « ايها الرفيق بتروفيتش ، ان شواريلي كان يحاول
تجنيدك عميلا لبيريا . فهو يعرف انك شخص ذو نفوذ وعلى ذلك تكون نافعاً
لمخططات بيريا في اوكرانيا . كان يريد بيريا الاعتماد عليك عندما يبدأ بحمام الدم
في اوكرانيا ، وهو لا يعرف اسلوباً للعمل غيره » . كان دوفجنكو في رأيي
مواطناً صادقاً مستقيماً مخلصاً . كان يؤخذ عليه انه جابه القادة احياناً بكلام غير
ملائم ولكن هل الافضل سماع مثل هذا الكلام من مواطن صادق على ان نسمعه
من الاعداء . بوسعك دوماً ان تخاطب العقل في الانسان الصادق فتصلحه ، واذا
كان على حق تنتفع منه . وبعد موت الكسندر بيتروفيتش دعوت الاوكرانيين إلى
تسمية ستديو كييف للافلام باسمه . وهكذا فعلوا .

وكانت قصة دوفجنكو عن كيف حاول بيريا استخدامه ، نموذجاً عن العديد
من مثيلاتها ، وبعضها ارهب كثيراً من هذه . وقد أخذت هذه القصص تنكشف
بعد اعتقال بيريا .

مؤتمر الحزب العشرون

اعتقل بيريا في حزيران ١٩٥٣ . وهانحن نقفز هنا في الاحداث
الداخلية إلى الذروة في مؤتمر الحزب العشرين المنعقد في شباط ١٩٥٣ .
بعد ذلك يخيم الصمت . وكانت فترة ١٩٥٣ — ١٩٥٦ بالنسبة لخروشوف
هي فترة التجربة بين النجاح أو الفشل . ففي أيلول ١٩٥٣ ، تقلد منصب
السكرتير الأول للحزب وهومنصب ترك فارغاً منذ ارغم مالنكوف على التخلي عنه
(مع احتفاظه برئاسة الحكومة) بعد عشرة أيام من موت ستالين . ومنذ
ذلك الحين أخذت اسطورة القيادة الجماعية تتلاشى . وفي ١٩٥٥ ارغم مالنكوف
على الاستقالة من رئاسة الوزارة وحل محله بولغانين الذي كان دوره ثانوياً
وانتقالياً . غير ان مالنكوف استمر قوة في المكتب السياسي ، وكان من
الجلي ان مولوتوف وميكويان وسواهما من أعضاء القيادة قد وضعوا خروشوف
تحت رقابتهم الشديدة وهو الرجل الذي اختاروه لقيادة الحزب ، الا ان
الدلائل أخذت تتضاعف بان خروشوف كان منهمكاً في مسعى مكشوف
للسيطرة . كان يقلب الزراعة والصناعة رأساً على عقب ، وحملته في سبيل
الأرض العذراء معروفة . كان يظهر نفسه على الصعيدين الداخلي
والخارجي على أنه القائد الحقيقي ، حتى عندما كان بعض زملائه يقاومون

نشاط بعض سياساته . فميكويان مثلا (وسواه أيضاً) اعترض على حملة الأراضي العذراء ، واعترض مولوتوف ، فاهينا علناً . كان خروشوف ناشطاً في تثبيت عبادة شخصيته . وكان كذلك (واستمر هذا حتى سقوط مالنكوف) يتبع الموقف الستاليني بالنسبة لمنعةروسيا ازاء امكان انفجار حرب ذرية وبالنسبة لتقديم الصناعة الثقيلة على سلع الاستهلاك . (وكان مالنكوف قد أعلن ان الاتحاد السوفياتي يدمر مع سائر العالم اذا ما انفجرت حرب نووية ، كما كان قد شرع في برنامج يحول فيه الاعتمادات من الصناعة الثقيلة إلى صنع سلع الاستهلاك) .

عند انعقاد المؤتمر العشرين للحزب كان خروشوف قد وصل إلى موقع مسيطر دون ريب ، ولكن كان عليه الانتظار ستة أشهر تالية قبل أن يتوصل إلى السيطرة الكاملة . ففي حزيران ١٩٥٧ تم تحطيم الجناح «المضاد للحزب» : مالنكوف ومولوتوف وكاغانوفيتش وسواهم . ولكنه رغم ذلك بقي ، على عكس ستالين ، معرضاً للسقوط اذا شاء زملاؤه الاقربون العمل ضده كما فعلوا في تشرين أول ١٩٦٤ .

ان قلة من تلامذة الشؤون السوفياتية يعتبرون سرد خروشوف في خطبته السرية ضد ستالين وافياً ، ومن الواضح بان رفاقه ، وبصورة خاصة مالنكوف ، كانوا قد دفعوه إلى موقع مكشوف . وكانوا مختلفين في أهدافهم في هذا الأمر . فبعضهم كان مهتماً بتذكير الحزب ان ستالين قد مات وان خلفاءه هم في سدة السلطان . وغيرهم ممن كان قد وافق بتردد ، اعتقد ان خروشوف سيكون الضحية الأولى للعاصفة المحتم هبوبها .

ومن الواضح ان خروشوف الذي افتتح المؤتمر بتقريره العام لم يكن يرغب اطلاقاً في التنديد بسيده السابق قبل ان ينتهي المؤتمر . ولكنه قرر في النهاية ان يقلب الطاولات على رفاقه وان يربح بجرأة كلية الفضل في الاتجاه الجديد الذي كان يقاومه في السابق .

كانت مغامرة جريئة بل مغامرة رابحة عادت على صاحبها بالفوائد الكبيرة.

نشأت حالة مبهمة . مات ستالين ودفن ولكن إلى ان اعتقل بيريا كانت لم تزل السياسات الستالينية هي المتبعة . واستمر العمل كالعادة . ولم يخطر لاحد وجوب اعادة الاعتبار لاولئك الذين دفنوا في القبور وقد وصموا بانهم اعداء الشعب ، او اطلاق سراح السجناء من معسكرات الاعتقال واكثرهم بقي حتى المؤتمر العشرين ، اي ٣ سنوات بعد موت ستالين .

لم نستطع طول ثلاث سنوات ان ننفصم عن الماضي ولا حالفتنا الشجاعة والتصميم لرفع الستار عن ما اختبأ وراءه من اعتقالات ومحاكمات واحكام تعسفية واعدامات وما إلى ذلك مما حدث ابان حكم ستالين . وبدا كأننا بتنا

اسرى نشاطاتنا في ظل قيادة ستالين فلا نستطيع تحرير انفسنا من سيطرته حتى بعد موته . ولم نستطع تحرير انفسنا من النتائج البسيكولوجية لهستيريا مطاردة اعداء الشعب حتى ١٩٥٦ واستمر اعتقادنا بالوهم الذي خلقه ستالين في اننا محاطون بالاعداء ، وان علينا مكافحتهم ، واننا باتباعنا الاساليب التي بررت على صعيد نظري وتكرست بالممارسة من قبل ستالين ، انما تضاعف من الاتصال الطبقي وتوطد مكاسب الثورة . لم نستطع ان نتخيل ان تلك الاعدامات كلها التي جرت خلال حملات التطهير ، كانت من وجهة نظر شرعية جرائم بحد ذاتها . لكن ذلك كان صحيحاً . لقد ارتكب ستالين اعمالا اجرامية تخضع في اية دولة في العالم للعقاب ، باستثناء الدول الفاشية كدولتي هتلر وموسوليني (١) .

ثم حدث اعتقال بيريا والتحقيق بقضيته . وظهرت فضائح صارخة عن الاجهزة السرية التي اخفيت عنا والتي تسببت بموت العديد من البشر . اذكر انني دهشت بصورة خاصة عندما اتضح ان كيروف قد اعدم كعدو للشعب . فقد كان كيروف اول قائد في الشمال نظم الدفاع عن بلادنا ضد الانكليز . ولكن حتى عندما تفتحت اعيننا ابان محاكمة بيريا ، فقد رفضنا التصديق بان ستالين نفسه كان وراء ارهاب بيريا . فلبرهة استمرينا نعطي الحزب والشعب تفسيرات غير صحيحة عما حدث في الماضي ، اذ وضعنا اللوم كله على بيريا . كان شخصية مناسبة لتحميلها الاوزار . وبذلنا كل ما بوسعنا لصون ستالين دون ان ندرك اننا بذلك كنا نحمي مجرماً ، سفاحاً ، قاتلا جماعياً . اكرر ، حتى ١٩٥٦ لم نكن قد حررنا انفسنا من التبعية لستالين .

وشعرت لاول مرة بزيف موقفنا عندما ذهبنا إلى يوغسلافيا وتحدثنا إلى الرفيق تيتو في ١٩٥٥ . اذ عندما تعرضنا لموضوع الارهاب وذكرنا اسم بيريا كمسؤول عن جرائم عهد ستالين ، ابتسم الرفاق اليوغسلافيون بهزء وابدوا ملاحظات ساخرة . فاثارنا ذلك ودخلنا في جدل طويل دفاعاً عن ستالين . وتكلمت فيما بعد امام الجمهور ، دفاعاً عن ستالين عندما انتقده اليوغسلافيون . ومن الواضح الآن ان موقفي ذاك كان خاطئاً . فلم اكن ادرك ان الضرورة ليست إلى فضح الجرائم بقدر ما هي في تحديد المسؤوليات ووضع اللوم على من يجب حتى لا تتكرر الاساليب الستالينية ثانية في الحزب .

كنت لم أزل ابكي ستالين كقائد فذ قوي فقدناه . كنت اعرف انه مارس

(١) هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها خروشوف أو أي سياسي سوفياتي إلى حد المساواة بين أفعال ستالين وهتلر .

سلطانه بتعسف واحياناً في الاتجاه غير الملائم ، ولكنني كنت لم ازل اعتقد ان قوة ستالين الرئيسية استخدمت في سبيل تعزيز الاشتراكية وتوطيد مكاسب ثورة اكتوبر . لربما توسل ستالين اساليب ، هي في رأيي ، غير سليمة بل حتى بربرية الا انني لم أكن قد شرعت بعد في تحدي حق ستالين الاساسي بمكانة عالية في التاريخ .

لكن كانت ثمة اسئلة بدأت تثار من دون ان يكون لدي جواب جاهز عنها . كنت بدأت اتساءل لماذا لم يطلق احد من جميع اولئك الذين اعتقلوا ولماذا لم يفرج عن أحد من جميع اولئك الذين سجنوا . وبدأت اشك في ما اذا كانت كل الاعتقالات والاحكام مبررة من وجهة نظر قضائية . ولكن ستالين هو ستالين . فقد كان له سلطان لا يضاهى حتى في الموت ، ولم يكن يخطر لي ان بوسعه اساءة استخدام سلطانه .

على اية حال ، فقد شعرت ، ربما بفعل ما تكشفت عنه التحقيقات مع بيريا ، برغبة ملحة في رفع الستار اكثر قليلا — لنعرف من هم الذين اعتقلوا بالتحديد وما هي الوسائل التي استخدمت في استجوابهم ، وقبل ذلك كله ما هو الدليل الذي اعتمد في اعتقالهم . وطرحت المسألة على البريزيديوم في احدى جلساته واقترحت ان نقوم بتحقيق للحصول على صورة اوضح لما حدث في ظل ستالين (١) . وكنت متحمساً بصورة خاصة للقيام بهذا العمل نظراً لاقتراب موعد المؤتمر العشرين للحزب .

ولم يكن مفاجئاً الا يتحمس فوروشيلوف ومولوتوف وكاغانوفيتش كثيراً لاقتراحي هذا . وكما اتذكر ، لم يدعم مالنكوف اقتراحي بحماسة ، ولكنه لم يقم بما يحول دون تنفيذه . وشرحت للذين عارضوا الفكرة انه نظراً لكون المؤتمر العشرين سيكون هو المؤتمر الأول بعد موت ستالين ، فعلينا ان نثبت تحملنا لكامل مسؤولياتنا في حكم الحزب والبلاد . وان هذا يعني وجوب معرفتنا على وجه التحديد لكل ما حدث في ظل ستالين وحقيقة الدوافع التي كمنت وراء قرارات ستالين حول مختلف القضايا ، لاسيما تلك المتعلقة بالاشخاص الذين اعتقلوا .
وكان ثمة سؤال لا بد ان يواجهنا في المؤتمر : لماذا يبقى هذا العدد الكبير من الناس في المعتقل وما عسانا نفعل بالنسبة لهم ؟ وباختصار ، كان علينا الاجابة عن

(١) عينت فعلا لجنة تحقيق من قبل بريزيديوم الحزب في ١٩٥٤ وذلك ، فوراً ، بعد ان اعدم بيريا . وأعلن خروشوف في الخطبة السرية ان ٧٣٧٩ شخصاً قد اعيد اعتبارهم نتيجة ابحاث هذه اللجنة .

اسئلة حول ما حدث ابان حكم ستالين وعن مشاكل نابعة من سياساته ولم نزل نتحمل نتائجها بعد موته .
والفنا لجنة وجعلنا بوسبلوف مسؤولا عنها (١) . ان الادلة التي جمعتها لجنة بوسبلوف كان لها وقع المفاجأة بالنسبة لبعضنا . واعني بذلك انا نفسي ، وبولغانين ، وبيرفوخين ، وسابوروف واخرين . واعتقد ان مولوتوف وفوروشيلوف كانا اكثر الناس اطلاعاً على الابعاد الحقيقية للاضطهاد الستاليني ، ولذا فانه لم يكن لديهما سبب للمفاجأة . وكذلك كان ميكويان مهيأ أكثر من معظمنا لتصديق الحقائق التي كشفت . ولست متأكداً اذا كان قد عرف كل شيء ، ولكنه كان مقرباً جداً من ستالين . وكان العديدون ممن عملوا معه وممن كان يثق بهم قد جرفتهم موجات التطهير . ونظراً لمعرفتي بقدرة ميكويان على فهم الظاهرات وتقييمها كنت واثقاً انه كان على اطلاع بصورة عامة عما يجري حوله . وحتى لو لم يكن وافي الاطلاع ، فهو على الاقل قد قدر وهن التبريرات التي كانت تعطى للاعتقالات والاعدامات .

اما بالنسبة لكاغانوفيتش فاني لا اعتقد انه كان يعرف كل التفاصيل . ولم يكن ستالين بحاجة إلى اطلاعه على الاسرار ، اذ انه كان معروفاً بتبعيته التي تصل إلى حد قطع عنق ابيه لو ان ستالين امره . ولم يكن ستالين يحتاج إلى اطلاع كاغانوفيتش ايضاً ، لانه كان دوماً متملقاً مقيتاً يكشف الاعداء ويعرض الناس للاعتقال يمنة ويسرة .

ولا بد من كلمة عن مالنكوف . فقد كان مسؤولا عن الملاك الشخصي للجنة المركزية ابان التطهيرات ولعب دوراً فعالا في هذا المجال . فقد ساعد على ترقية اشخاص من صفوف الحزب ثم ارسالهم إلى الموت . انا لا اقول انه كان يتخذ المبادرة في الاضطهاد والاعدامات ، لكن مئات من الناس صفوا في المناطق التي اوفده ستالين اليها لفرض النظام (٢) .

(١) ب.ن. بوسبلوف (اسمه الحقيقي فيجليسون) كان من ايديولوجيي الحزب الرئيسيين. وكان يرئس تحرير البرافدا بين ١٩٤٠ — ١٩٤٩ ثم عين مديراً لمعهد ماركس — انجلز — لينين — ستالين بين ٤٩—٥٢ ، وكان ديماغوجياً . عمل مع سوسلوف . ولم يعرف من قبل انه كان مسؤولا عن اللجنة التي جمعت الدلائل للخطبة السرية .

(٢) كان مولوتوف ومالنكوف من الناشطين في الموافقة على جرائم ستالين وتشجيعها. كما ان خروشوف نفسه كان كذلك ، على الاقل في أوكرانيا . أما الباقون فقد علموا على الأقل ، بتلك الجرائم وتستروا عليها .

وعشية انعقاد المؤتمر العشرين لم أرد ان اقدم التقرير العام إلى المؤتمر . كان من رأيي أنه طالما نحن مقبلون على اعلان قيادة جماعية ، فليس من الصواب ان يلقي السكرتير الأول للجنة المركزية التقرير العام . واقترحت في جلسة للبريزيديوم قبيل انعقاد المؤتمر ان نبحث في من سيتولى وضع التقرير العام . ونظراً لكون مولوتوف هو العضو المتقدم بيننا ، فهو الانسب ليكون خطيب المؤتمر . ولكن الجميع اصروا بالاجماع على ان القي انا التقرير .

واحسست انهم يريدونني ان افعل ذلك صادقين . وكان أحد الاعتبارات ان القاء السكرتير الاول للجنة المركزية للتقرير العام لا يثير حساسيات يمكن ان يثيرها اي شخص آخر ، نظراً لتعدد المرشحين الطامحين بمركز الصدارة في القيادة الجديدة . ولما لم يكن هنالك بعد ستالين من زعيم معترف به (١) رغم توفر المرشحين للزعامة ، لذلك فقد طلب مني كسكرتير اول ان القي بنفسي البيان العام .

ووضعت مسودة التقرير وعرضتها على المناقشة والاقرار . وكان التقرير حصيلة تأليف جماعي . فقد اعتمدت اللجنة المركزية على معاهد البحوث وفئات أخرى تستدعى عادة للمعاونة في التقارير العامة .

افتتح المؤتمر ، فألقيت التقرير وبدأت المناقشة . كنا نواجه امتحاناً حقيقياً . كان الجميع يتساءلون اي نوع من المؤتمر سيكون هذا الذي ينعقد بعد موت ستالين ؟ ويجدر بي القول ان المؤتمر كان يجري بصورة مرضية . وتوالى الخطباء الواحد تلو الآخر يؤيدون خط اللجنة المركزية . ولم يبد اي منهم اية معارضة (٢) ولكن رغم ان المؤتمر كان يسير على نحو مرض وقد تقبل تقريري بالترحيب ، الا انني لم اكن راضياً . كانت تعذبني الفكرة الآتية : « ان المؤتمر سينتهي . لكن ماذا بعد ذلك ؟ ان مئات الألوف من الناس الذين اعدموا سيظلون في ضمائرنا

(١) كان ثمة «مرشحون» للزعامة دون ريب : خروشوف ومالنكوف مثلا . وكان خروشوف يظهر نفسه في كل مناسبة سواء داخل الاتحاد السوفياتي أو خارجه – في بلغراد ودلهي وجنيف – على أنه هو السيد . وفي الجمهوريات التي كان يسيطر عليها أنصاره (مثل أوكرانيا وكازاخستان) أخذت عبادة شخصية خروشوفية بالظهور فالازدهار . الا ان مالنكوف كان لم يزل يقاوم . كان خروشوف ، لا يسمح ، الا اذا اعترف بالهزيمة ، لا حد سواه بالقاء التقرير العام في المؤتمر العشرين .

(٢) هل يبعث هذا على الدهشة ؟ ان القيادة الجديدة قد امضت ثلاث سنوات وهي تعمل على مماشاة أية معارضة .

وبينهم ثلثا اعضاء اللجنة المركزية الذين انتخبوا في المؤتمر السابع عشر (١٩٣٤) . حتى ان معظم الاعضاء الناشطين في تلك الايام قد اعدموا او اضطهدوا » . وبايجاز ، فان ما اكتشفته لجنة بوسبلوف كان يثقل وجداني . وأخيراً استجمعت قوتي وعزيمتي ، وعندما فرغت قائمة الخطباء الا من اعضاء البريزيديوم ، أثرت المشكلة من اساسها : « ايها الرفاق ، ماذاعسانا نفعل بشأن القضايا التي اكتشفها الرفيق بوسبلوف ؟ ماذا عسانا نفعل بصدد جميع الذين اعتقلوا او قتلوا ؟ لقد شارف المؤتمر على الانتهاء ، وسوف نفترق جميعاً من دون ان نقول كلمة في مفاسد عهد ستالين . لا نستطيع ان نبقي الناس في المنفى او في معسكرات الاعتقال بعد الآن ، اننا نعرف ان هؤلاء كانوا ابرياء . فلدينا ادلة لا يرقى اليها شك بانهم كانوا أبعد ما يكون عن ان يوصموا باعداء الشعب ، بل انهم كانوا نساء ورجالا شرفاء يقفون انفسهم على الحزب ، والثورة والقضية اللينينية ، قضية بناء الاشتراكية والشيوعية في الاتحاد السوفياتي . لا نستطيع ان نبقي الناس في المنفى ومعسكرات الاعتقال بعد الآن . مفروض ان نتوصل إلى طريقة حول كيفية ارجاعهم » (١) .

وما ان ختمت كلمتي حتى اخذ الجميع يهاجمونني لاسيما فوروشيلوف : « ماذا دهاك ؟ هل تعتقد ان بامكانك ان تثير كل هذه الامور وتنجو بنفسك ؟ ما هو اثرها في اعتقادك على هيبة الحزب والبلاد ؟ ليس بوسعك ابقاء ما ستقوله سراً بل سيشيع وعندها تمتد الاصابع رأساً نحونا . ماذا سيكون بوسعنا ان نقول بشأن ادوارنا في ظل ستالين ؟ »

وتدخل كاغانوفيتش في الحديث يعارضني على الاسس نفسها . ولم يكن موقفه ينطلق من تحليل فلسفي عميق لقضايا الحزب المثارة بقدر ما كان يجادل خوفاً على نفسه . كان هاجسه الاوحد الهرب من اية مسؤولية تترتب عليه . وكان يريد التأكد من انه لم يترك آثاراً تدل على اشتراكه في هذه الجرائم . فاجبت هؤلاء المعارضين بقدر ما امكنني من الهدوء والاقناع : « ما زلت اعتقد انه يستحيل علينا ستر كل شيء . فعاجلا ام آجلا سيعود الناس من السجون ومعسكرات الاعتقال إلى المدن . وسوف يخبرون اقاربهم واصدقاءهم وكل معارفهم بما حدث . وسيعلم الحزب كله ، بل البلاد بأسرها ، بان اشخاصاً قد قضوا عشرة او خمسة

(١) ان خروشوف لا يذكر هنا ان ميكويان قد فجر في المؤتمر قنبلة بابدائه ملاحظات تضمنت نقداً عنيفاً لستالين ، وبالتالي لخروشوف ، ولو مداورة . كما ان غيره أبدى ملاحظات ضد «عبادة الشخصية» دون تحديد ، وان خروشوف وحده امتدح في كلمته ستالين لتمزيقه «اعداء الشخص» رغم أنه بعد احد عشر يوماً اضطر في خطبته السرية إلى استنكار استعمال هذا التعبير .

عشر عاماً في السجن . ولكن من أجل ماذا ؟ من اجل لا شيء . ان الاتهامات ضدهم كانت ملفقة ، ولو جئنا بهم إلى المحاكمة ستتبخر قضايا الادعاء ضدهم في الهواء . ارجوكم ايها الرفاق ان تفكروا بشيء آخر هو اننا نعقد هذا المؤتمر ، وهو الأول بعد موت ستالين ، لذلك يتوجب علينا ان نصارح مندوبيه بكل ما حدث في الماضي . صحيح ان المفروض ان نقدم تقريراً عما قمنا به بعد موت ستالين ، ولكن كأعضاء في اللجنة المركزية ابان حياة ستالين علينا ان نعلمهم بحقيقة ما حدث في تلك الفترة . كيف بامكاننا التظاهر باننا لا نعرف ما حدث ؟ »

وكررت رجائي إلى البريزيديوم ان يدعمني في موقفي هذا لكن رد الفعل كان عاصفاً . وردد فوروشيلوف وكاغانوفيتش في صوت واحد تقريباً : « ان ذلك سيؤذينا . وحتى لو لم نكن نعرف ما حدث فان ذلك سيكون سيئاً ايضاً . سيظل علينا ان ندفع الثمن » .

واجبتهما : « اذا كنتم تعتبرون حزبنا يقوم على مبدأ الديمقراطية المركزية فاننا كقادة لم يكن يحق لنا على الاطلاق ان لا نعرف ما كان يحصل . ان البعض منا لم يعرف الكثير من الأمور لأننا كنا جزءاً من نظام لم نطلع فيه على ما يفترض ان نطلع عليه . وكان يقال لنا لا تحشروا انوفكم في كل شيء . فامتثلنا . ولكن لم يكن الجميع في هذا الموقف . فبعضنا عرف ما حصل ، وبعضنا ادخل انفه حتى تلطخ بالاحداث . ولكن مهما تفاوتت نسبة المسؤولية بيننا ، فانني مستعد كعضو في اللجنة المركزية منذ المؤتمر السابع عشر (١٩٣٤) ان اتحمل قسطي من المسؤولية حتى لو رأى الحزب من المناسب ان يوبخ جميع اولئك الذين كانوا في مواقع القيادة في ظل ستالين وحكمه التعسفي » .

وهذه المرة اعترض مولوتوف : « الا ترى ماذا سيحدث ؟ » ومضى فوروشيلوف في احتجاجه الصارخ بان ما ادعو إلى تحقيقه ينزل غضب الحزب على رؤوسنا ، وأخذ يكرر قوله « من يطلب منا ان نفعل ذلك ؟ من يقول ان علينا ابلاغ المؤتمر هذه الأمور ؟ » .

اجبت « ان احداً لا يلزمنا . ولكن الجرائم قد ارتكبت أليس كذلك ؟ علينا ان نقر على الاقل بذلك بيننا وبين انفسنا . ولا محالة ان الناس سيكتشفون الأمر . فاذا صمتنا ، أصدروا احكامهم علينا . انا لا اريد حصول ذلك . انني لا ارغب في تحمل المسؤولية على هذا النحو . بل افضل ان نكشف نحن الأمر بأنفسنا » .

وكان صعباً جداً التوصل إلى اتفاق حول هذا الموضوع . ورأيت ان من المستحيل حمل البريزيديوم على الوصول إلى قرار ، كما اننا لا نستطيع من جهة أخرى ، ان نطرح الموضوع رسمياً على المؤتمر الا بعد حصول الاتفاق فيما بيننا .

وعندها قررت ان اجرب الذريعة الآتية : « ان المؤتمر الحزبي يسير على اتم ما يرام ، ولكن النظام الداخلي المطلوب توفره للقيادة الموحدة من قبل اللجنة المركزية قد انهار . فهل لي ان اذكركم بان لكل عضو في البريزيديوم الحق في ان يتكلم في المؤتمر ويعرب عن وجهة نظره حتى ولو لم تطابق خط التقرير العام » .

وهكذا لم اعد في حاجة إلى ان ابلغهم انني مستعد اذا اقتضت الضرورة ان القي مثل هذا الخطاب . واضفت : اذا كنا نريد ان نعترف بالمفاسد التي ارتكبها ستالين ، فيجب ان نفعل ذلك الآن . وان اعتراف المجرم يخفف عليه جرمه . فلو انتظرنا حتى المؤتمر الحادي والعشرين ، يكون الاوان قد فات ، وتلقينا التوبيخ من الحزب » .

واتخذ احدهم المبادرة وقال « حسناً . اذا كان هذا هو الوضع الذي نحن فيه ، فان من الافضل ان يلقي احدنا بياناً عن مفاسد ستالين » . وبالنتيجة وافق الجميع ولو بفتور على وجوب القاء البيان . واعتقد ان بولغانين وبيروفوخين وسابوروف وربما مالنكوف اعطوني تأييدهم الشخصي .

وهكذا بقيت مسألة الشخص الذي سيلقي البيان . فاقترحت اسم بوسبلوف نظراً لكونه رئيس اللجنة التي قامت بجمع الادلة التي بالامكان اعتمادها في البيان . ولكن الآخرين اعترضوا وقالوا ان علي ان القيه . فرفضت اذ انه سبق لي والقيت التقرير العام دون ذكر شيء عن ادلة بوسبلوف ومكتشفاته ، فكيف القي الآن بياناً جديداً نرتكز عليها ؟ ولكن الآخرين اصروا قائلين : « اذا القى بوسبلوف البيان فان الناس سيبدأون بالتساؤل : لماذا لم يقل خروشوف شيئاً عن هذا الأمر في التقرير العام ؟ وذلك قد يقوي الانطباع بوجود انشقاق في القيادة » .

ان هذه الحجة تستحق التقدير . واخيراً استسلمت . وتقرر ان القي بياناً ترتكز خلاصته على ادلة اللجنة . وطلبنا من بوسبلوف ان يحول التقرير إلى بيان . وقررنا عقد جلسة خاصة مغلقة القيت خلالها خطابي (١) .

(١) ان وضع البيان السري لا بد انه كان معقداً أكثر مما يقوله خروشوف هنا . فلا بد انه كان معداً قبل انعقاد المؤتمر لانه طويل ومسهب يضم عشرين الف كلمة مليئة بالتفاصيل وتدل على جهد مركب (مع مقاطع قصيرة يبدو ان خروشوف نفسه أضافها في اللحظات الأخيرة) . ولو ان خروشوف قصد التنديد بستالين لكان أعد ذلك في التقرير العام كما فعل ميكويان في بيانه . ويبدو ان خروشوف وقع تحت ضغط جعل من المحال بالنسبة اليه انماء عبادة شخصيته أكثر ، ثم انه تصرف بجرأة فحاول ان يستغل حالة سيئة لمصلحته بان يبرز أنه هو الرجل الذي يتجرأ ان يتكلم .

واصغى المندوبون بصمت تام . وكان الجو هادئاً في القاعة الضخمة بحيث امكنك ان تسمع صوت ذبابة تطير . وسيطر الذهول على الحاضرين وهم يستمعون إلى الفظائع التي تعرض لها اعضاء الحزب من بلاشفة قدماء وحزبيين شبان على السواء . وكانت هذه اول مرة يستمع فيها معظمهم إلى شيء من المأساة التي عاشها حزبنا : مأساة تنطلق من المرض في نفسية ستالين التي حذرنا منها لينين في وصيته التي اكدها ستالين في اعترافه امامي وامام مالنكوف : « انا لا اثق باحد حتى بنفسي » .

وهكذا ولد البيان عن مفاسد ستالين في المؤتمر العشرين للحزب . كان من المفترض ان يكون سرياً ، لكنه كان في الواقع أبعد من ان يكون كذلك . واتخذنا اجراءات للتأكد من ان نسخاً منه وزعت على الاحزاب الشيوعية الشقيقة حتى يتسنى لها الاطلاع عليه . وعلى هذا النحو تلقى الحزب البولوني نسخته . وعند انعقاد المؤتمر العشرين توفي سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولوني الرفيق بيروت .

وحدث اضطراب كبير بعد موته ، ووقعت وثيقة البيان السري في ايدي بعض الرفاق البولونيين الذين كانوا معادين للاتحاد السوفياتي فاستخدموه لاغراضهم الخاصة ، ووزعوا نسخاً منه . وقيل لي ان النسخة كانت تباع بسعر بخس . وهكذا اصبح بامكان عملاء الاستخبارات من اي بلد شراؤها من السوق بثمن بخس .

وعلى هذا النحو تيسر نشر الوثيقة . ولكننا لم نتبن البيان علناً . واذكر انه عندما كان الصحافيون يسألونني : « ماذا في امكانك ان تفيدنا عن هذا البيان ؟» كنت اجيبهم ان عليهم ان يوجهوا اسئلتهم إلى (ألن) دالاس ، اي الاستخبارات الاميركية ! » (١) .

اذ اعود بالذاكرة إلى الوراء ارى باننا احسنا تكليف بوسبلوف باجراء التحقيقات . وانني مرتاح لكوني تحينت اللحظة المناسبة واصررت على القاء بيان في المؤتمر العشرين حول هذا الموضوع ، ولو لم افعل لانعكس الأمر . فقد كنا في حالة غير مستقرة . كان الناس في السجون ومعسكرات الاعتقال ولم يكن بامكاننا تفسير ما حدث لهم ، لاسيما بعد الافراج عنهم . ولو اننا استعنا بطريقة تحميل بيريا كل الاثام التي ارتكبها ستالين ، لكنا قد كررنا ما حصل بعد محاكمة

(١) انه لجدير بالتسجيل انها المرة الأولى التي يعلن فيها خروشوف ان الخطبة السرية وجدت فعلا .

بيريا من تحميله هو الاوزار كلها دفاعاً عن سمعة ستالين حتى يبقى « اب الشعب وصديقه » . فان نقول ان بيريا لا ستالين هو المسؤول ، هو كالقول بان ملاكاً ضلل الله بتقاريره فارسل البرد والرعد وكل الكوارث على البشر نتيجة هذا التضليل ، والناس لم يتألموا لان الله ارادهم ان يتألموا ، بل لان ذلك الملاك الشرير بيريا كان يجلس إلى يمين الرب .

ومنذ فترة غير بعيدة بينما كنت اصغي إلى الراديو استمعت إلى قراءة فصل من رواية شولوخوف « حاربوا في سبيل وطنهم » . وفيه يحاول المؤلف ميخائيل الكسندروفتش ان يفسر في محادثة بين صيادين ما حدث من مفاسد في عهد ستالين . فيسأل احد الصيادين زميله : « ما رأيك بالرفيق ستالين ؟ يقولون انه لم يلحظ كل تلك الأمور الرهيبة التي كانت تحدث والتي ذهب ضحيتها اناس مخلصون وشرفاء حوكموا واعدموا . كيف سمح الرفيق ستالين بحدوث ذلك كله » . ويقول الصياد الآخر « حقاً ، انه لامر يصعب تصديقه » . ثم يسأل الأول : « اليس بيريا هو المذنب الأول ؟ ألم يكن هو الذي يضلل ستالين بتقاريره ؟ » « نعم ، كان بيريا الرهيب هو سبب ذلك كله » .

ان ميخائيل الكسندروفيتش لكاتب موهوب وانسان ذكي ، ولكن ليس من شأنه انه يعمل على استمرار هذا التفسير للمأساة التي تسببها ستالين للحزب . ثمة حقيقة بديهية ومطلقة وهي ان بيريا لم يخلق ستالين ، بل العكس هو الصحيح : ان ستالين هو الذي خلق بيريا . ومن قبل ، خلق ستالين يزهوف الذي لقبه ستالين بـ « القبضة الفولاذية » الخ ... وقبل يزهوف كان ياغودا . وستالين هو الذي اخترع ياغودا . واحدهم بعد الآخر دخل ثم خرج ، وهذا التبدل في شخصيات المسرح كان جزءاً من منطق ستالين . كان يستخدم اتباعه ومحاسيبه لتحطيم الشرفاء في الحزب الذين كان يعرف انهم بلا لوم او عيب في نظر الحزب والبلاد . ثم كان يقف ستالين بعيداً عن كل هذا ، بينما الارهاب يلتهم منفذيه انفسهم . وعندما كان الارهاب يستهلك عصبة من الجلادين كان يستبدلها باخرى . وبهذا المنطق توالوا الواحد بعد الآخر : ياغودا اولا ، ثم يزهوف ، واخيراً بيريا . وكسرت الحلقة بموت ستالين ، وواجه بيريا محكمة الشعب كمجرم .

قبل انعقاد المؤتمر بقليل كنت قد استدعيت رودينكو (النائب العام) الذي كان قد تورط بقضايا عديدة في الثلاثينات وقلت له : « انني مهتم بامر المحاكمات العلنية (١٩٣٠) . قل لي كم كانت نسبة الصواب في الاتهامات التي وجهت إلى بوخارين وريكوف وسيرتسوف ولوميناذز وكريستنكي والكثيرين غيرهم من المعروفين لدى اللجنة المركزية ، والمكتب السياسي والمكتب التنظيمي ؟ »

فاجاب الرفيق رودينكو انه من ناحية الاصول القانونية لم يكن هناك اي ممسك قانوني يسمح بالحكم على هؤلاء او حتى محاكمتهم . وقال ان القضية ضدهم استندت إلى اعترافات ادلوا بها تحت تعذيب جسدي ونفسي . وان مثل هذه الاعترافات المنتزعة بمثل هذه الاساليب غير مقبولة كاساس قانوني لمحاكمة اي كان .

ومع هذا قررنا ان لا نقول شيئاً عن المحاكمات العلنية في بياني . والسبب ان ممثلين في الاحزاب الشقيقة كانوا قد حضروا محاكمة ريكوف وبوخارين وغيرهما من الزعماء . وقد عاد هؤلاء المندوبون إلى بلادهم وشهدوا بعدالة المحاكمة . ولم نرد ان نسيء اليهم ، ولذا قررنا تأجيل اعادة الاعتبار إلى بوخارين وزينوفيف وريكوف والباقين إلى أجل غير مسمى .

وكان من الافضل ان نقول كل شيء . ان الجريمة تنكشف دائماً . لكن برغم تلك الغلطة فان المؤتمر العشرين انجز الشيء الكثير . وكان انجازه الأهم هو انه بدأ السير في طريق تنقية الحزب من الستالينية وتوطيد المقاييس اللينينية ،تلك المقاييس التي كافح في سبيلها افضل ابنائنا .

القسم الثاني

العالم الخارجي

١٠

البلدان الشقيقة

كانت بعثة خروشوف إلى فرصوفيا في ١٩٤٥ أكثر أهمية مما وصفها . فقد كان رئيساً للجنة التي عهد اليها بوضع الخطط لاعادة بناء مدينة دمرت تدميراً مرعباً ، فصارت كوماً كبيرة من الأنقاض التي سودتها النار . وانها في الحقيقة جرأة من خروشوف ان يقلل من ضخامة الصعوبات التي واجهها في فرصوفيا، ثم في بلدان أوكرانيا ومدنها التي كان يحبها والتي لم يبق في بعض الأحيان منها شيء يدل عليها ، عدا صفوف المداخن النافرة من قلب الثلج لتظهر في شكل جبانة كثرت فيها شواهد القبور . ثم ان وصف خروشوف للعلاقات السوفياتية مع البلدان الدائرة في فلكها واقعي كثيراً . وهذا الوصف، باستثناء عدد قليل من النوادر ، تكاد تنحصر أهميته الرئيسية في الضوء الذي يلقيه على عقلية رجل يتحدث ويحدد موقف موسكو تجاه بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا والمجر مع الحكومات القائمة فيهاعلى هذاالشكل : «... لقد تجنبنا عمداً أن نستعمل الضغط على البلدان الاشتراكية الاخرى.» وهو يشير بذلك إلى جزء من العالم أقام فيه الحكم الشيوعي، عملا بتعليمات ستالين ومساندة الجيش بسلسلة من المحاكمات الفاضحة وأعمال القتل القانونية: راجك في المجر وكوستوف في بلغاريا وسلانسكي في تشيكوسلوفاكيا وآخرون أيضاً لا يحصر عددهم. وهكذا تحولت الاحزاب الشيوعية في أوروبا الوسطى والشرقية إلى نسخة طبق الأصل للحزب الشيوعي السوفياتي كما قولبته التطهيرات الكبرى في الثلاثينات .

في كانون الثاني ١٩٤٥ اتصل بي ستالين هاتفياً إلى اوكرانيا وسألني قائلا : «هل تستطيع ان تأتي إلى موسكو حالا ؟ اننا في حاجة ملحة اليك » . فانتقلت جواً إلى موسكو من كييف . فاستقبلني ستالين بحماسة وابتهاج وقال : « ان الرفقاء البولونيين طلبوا ان نساعدهم في اعادة بناء مرافق بلادهم العامة ، وبنوع خاص

شبكات المياه والمجارير . نحن حررنا فرصوفيا ، ولكن البولونين في حالة يأس ويقولون ان فرصوفيا خرائب ولايعلمون ماذا يفعلون او كيف يبدأون . وانت قد سبق لك ان اكتسبت خبرة واسعة في سرعة اعادة بناء المرافق الضرورية في المدن المخربة ، لذلك نريد ان نرسلك إلى فرصوفيا لتشرف على العمل هناك » .

فاجبته قائلا : « سأذهب بكل سرور ، غير انني اود ان اصطحب معي بعض الخبراء في ادارة الشؤون البلدية ، وفي الهندسة والكهرباء . واول شيء ينبغي عمله هو اعادة تشغيل محطة القوى الكهربائية في بولونيا ، ثم شبكتي توزيع المياه والمجارير » .

وطلبت من الرفيق ستراسمنتوف ان يرافقني لعلمي انه منظم قدير وخبير في ادارة الخدمات الكهربائية . واخذت ايضاً بعض المهندسين الذين تخصصوا في شؤون محطات توليد القوى الكهربائية وفي مشاريع توزيع المياه وشبكات المجارير . وانتقلنا جميعاً بطريق الجو إلى فرصوفيا .

وكانت الحكومة البولونية او « اللجنة » كما كانت تسمى في ذلك الزمن قد اتخذت مقرها في « براغا » ، وهي ضاحية من فرصوفيا على الضفة اليمنى من «الفستولا». وكان اوسوبكا — موراوسكي رئيساً للوزراء ، والرفيق بيروت سكرتيراً للجنة المركزية للحزب الشيوعي البولوني (١) ، والجنرال سبيشالسكي محافظاً لفرصوفيا. وكنت التقيت بيروت من قبل ، ولكن هذه كانت اول مرة ألقى فيها سبيشالسكي ، فكان انطباعي عنهما جيداً . وكان هذا الاخير شاباً نشيطاً محباً للعمل ، مهندساً معمارياً ماهراً . اما بيروت فكنت اعتبره شيوعياً صادقاً مخلصاً للقضية الماركسية — اللينينية . على ان ضعفه كان في انه خجول ، وطيب القلب ، يميل كثيراً إلى الثقة بالآخرين . وقد ادى هذا الضعف إلى بعض الارتباكات في بولونيا في ما بعد ، عندما استغل زملاوءه ضعفه .

وانقسم المهندسون إلى ثلاث زمر مع زملائهم البولونيين . فعهد إلى الزمرة الاولى باعادة القوى الكهربائية باسرع ما يمكن . وتولت الثانية اعمال توزيع المياه . وعهد إلى الثالثة باصلاح شبكة المجارير . وترك للبولونيين امر القيام

(١) هؤلاء جميعاً كانوا اعضاء في «لجنة لوبلين» الشهيرة التي ألفها الروس لتعمل بوصفها أول حكومة لبولونيا الشيوعية ، فكان أوسوبكا مورامسكي أول رئيس للوزراء من ١٩٤٤–١٩٤٧ ، ثم اقيل وأخيراً أهين في التطهير الذي جرى في ١٩٤٩ . ولم يلبث بيروت أن صار أول رئيس للبلا د . أما مركزسكرتير الحزب العام فكان في الواقع يتولاه غومولكا في ١٩٤٥ .

بتنظيف المدينة . وعهدت إلى الرفيق ستر امنتوف بتولي الاشراف على هذه الاعمال بمساعدة اخصائيين بولونيين وروس . وكان عليه معالجة بقية المشاكل التي قد تنشأ ، ثم اطلاعي واطلاع الرفاق البولونيين على الحالة العامة .

وكان لدى رجالنا بعض الاخبار الحسنة لينقلوها الينا . فقد ظهر ان محطة توليد الكهرباء لم يلحقها التخريب الا من الخارج وان بقية المعدات والاجهزة في داخلها صالحة للعمل . وكان البولونيون قد ظنوا ان المحطة دمرت تماماً . ثم ان الآلات الميكانيكية ومضخات الماء في بقية انحاء المدينة كانت ايضاً لا تزال صالحة للعمل ، كما ان شبكة المجارير لم تكن على ما يظهر قد تضررت كثيراً . وسررت لسماعي كل ذلك . وبعد ايام قليلة من الفحص والتدقيق ، قلت للرفيق بيروت مازحاً : « لماذا لا تدفع نفقات رحلتنا واستشارتنا باعطائنا نصف القوى الكهربائية التي سوف نعيدها إلى العمل في فرصوفيا ؟ اننا من المؤكد نستطيع الافادة منها في كييف . » وكنت اشير بذلك إلى الحالة المشؤومة التي كانت سائدة في كييف في ذلك الزمن . فمحطة توليد الكهرباء هناك دمرها الالمان تدميراً تاماً .

استعادت فرصوفيا الكهرباء والماء ، ففرح بيروت كثيراً وشكرنا بحرارة وطلب الينا ان ننقل تحياته إلى الرفيق ستالين . وكان يتكلم بكل اخلاص . وقبل سفرنا اقترح علي الرفيق بيروت قائلا : « عندنا هنا شخص ذو اهمية كبيرة في الحزب الشيوعي البولوني هو الرفيق فلاديسلاف غومولكا . فليتك تزوره في منزله ، لانه مريض ولا يستطيع الخروج منه » .

وهكذا ذهبت لزيارة الرفيق غومولكا ، فاذا هو في شقة مظلمة قذرة مؤلفة من غرفة واحدة . وكانت زوجته تغسل الملابس عند وصولنا . وكان غومولكا جالساً على كرسي وقد لف ما يشبه فوطة سوداء حول عنقه . ولم يكن الرفيق البولوني يتكلم الروسية جيداً ، غير اننا استطعنا بواسطة المترجم ان نتفاهم ، فاعطاني غومولكا تقييمه للحالةالعامة في بولونيا واخبرني كيف يجري تنظيم العمل الحزبي فتأثرت بحديثه . وبدا لي انه يعلم من اين يبدأ تنظيم اعمال الحزب والحكومة . وبالاختصار ترك غومولكا اثراً قوياً عندي بانه زعيم سياسي ورجل دولة قدير . وختم حديثه معي قائلا : « انني مريض الآن ، ولكن سوف انهض واتجول قبل مضي وقت طويل » .

وعندما قدمت لستالين تقريراً عن رحلتي ، اخبرته بأمر غومولكا واوصيت به

كثيراً (١) .

وابدى ستالين ارتياحه للانباء التي نقلتها اليه عن بولونيا. وسر كثيراً لتمكننا من مساعدة البولونيين لان هذه المساعدة سوف تترك اثراً حسناً لدى الشعب البولوني وخصوصاً سكان فرصوفيا. اذ كانت معاهدة ١٩٤٩ (ميثاق روبنتروب – مولوتوف) قد تركت جرحاً عميقاً في نفوس البولونيين. وكان هذا الجرح لا يزال طرياً لما يندمل فاراد ستالين ان يفعل كل ما يستطيعه في هذا السبيل. وهو بالطبع لم يقل ذلك لي صراحة، غير انني ادركت ما كان يجول في خاطره.

وعند انتهاء الحرب كانت لنا قوات مرابطة في بولونيا والمجر. ووجه ستالين اهتماماً شخصياً فعالا إلى شؤون هذين البلدين (٢) وكذلك لشؤون تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا. وكان الباقون منا في القيادة حريصين ان لا يتدخلوا في اوروبا الشرقية ما لم يدفعهم ستالين نفسه إلى ذلك. وكان هو حريصاً على الاحتفاظ بالسياسة الخارجية عامة، وبسياستنا ازاء البلدان الاشتراكية الاخرى بنوع خاص. ولم يكن ستالين ابداً يزعج نفسه بطلب مشورة الآخرين. وكان هذا هو الواقع بعد الحرب، اذ كنا بمثابة خدم له نؤمر فنطيع. وكان ستالين يزأر مهدداً في وجه كل من يتخطى حدود المهام التي اسندت اليه.

وكان من الاسباب التي حملت ستالين على الانصراف بكليته إلى الاهتمام باوروبا الشرقية هو ان الحرب الباردة كانت قد بدأت. والقى تشرشل بيانه الشهير في فولتون فألح على تعبئة القوات الامبريالية في العالم ضد الاتحاد السوفياتي. وكانت علاقاتنا مع انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية والبلدان الاخرى التي كانت قد تعاونت معنا لسحق المانيا الهتلرية من جميع الوجوه ولجميع الاغراض قد اصابها العطب الكلي. وكانت اميركا توجه سياستها الخارجية من

---

(١) بقي غومولكا على قيد الحياة بعد تحطيم ستالين المتعمد للحزب الشيوعي البولوني لأنه كان لحسن حظه في السجن في بولونيا عندما كان زملاؤه يواجهون الإعدام في موسكو. ولم يلبث ان صار بعد اجتماعه هذا مع خروشوف سكرتيراً عاماً للحزب البولوني الذي ولد من جديد، إلى ان سجن مرة ثانية (وقد سجنه ستالين هذه المرة) في ١٩٤٩ بتهمة الميل إلى تيتو. ولحسن حظه لم يعدم. وقد اجتمع خروشوف به مرة ثانية في ظروف مختلفة كثيراً، عندما تولى رئاسة الثورة البولونية في خريف ١٩٥٦ ورفض المطالب التي قدمها وفد سوفياتي عالي الصلاحيات (خروشوف وكاغانوفتش وميكويان ومولوتوف)، طار إلى فرصوفيا ليهدد البولونيين.

(٢) قد يكون هذا أكبر خطأ في الكتاب.

مركز القوة، اذ كان لديها دون سواها، القنبلة الذرية. ومما زاد الحالة سوءاً ان ترومان كان رئيساً في ذلك الزمن، وهو لم يكن يملك درهماً من الكفاءة السياسية، ولا عقلا مرناً. وكان لا يضمر سوى العداء والكره نحو الاتحاد السوفياتي. واني لا استطيع ان اتصور كيف ان احداً اعتبر ترومان جديراً بنيابة الرئاسة، بل الادهى من ذلك، بمنصب الرئاسة.

ان العالم باسره يعلم عن طريق الصحف كيف انه صفع صحافياً انتقد ابنته لانها مطربة فاشلة. ان تلك الحادثة وحدها جعلتنا نشك بكفاءة ترومان كرجل دولة، ناهيك بجدارته في احتلال منصب خطير كمنصب رئاسة الولايات المتحدة الاميركية. وكانت قوة اميركا الجوية في ذلك الوقت اقوى ما في العالم، سواء في النوع او في الكمية. وكانت «القلاع الطائرة» الاميركية و «الحصون الممتازة» (سيوبر فورترس) قد لعبت دوراً كبيراً في كسب الحرب ضد المانيا واليابان. وهذا كله جعل اميركا لا تقهر. وكان الاميركيون يتباهون باظهار هذه الحقيقة، وذلك بارسال طائراتهم للتحليق فوق اوروبا كلها، منتهكة بذلك الحدود الجوية، وخصوصاً اجواء الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا. وكان في الاتحاد السوفياتي ذعر شديد من ان ترسل الولايات المتحدة جنودها إلى تشيكوسلوفاكيا لاعادة الحكومة الرأسمالية التي اسقطتها في ١٩٤٨ الطبقات العمالية بقيادة الحزب الشيوعي.

وكان هذا الخطر عاملا آخر حمل ستالين على ان تحظى شؤون البلدان الاشتراكية الصديقة، وبنوع خاص تشيكوسلوفاكيا، بذلك الاهتمام المباشر. وكان للحزب التشيكوسلوفاكي الشيوعي مكانة بارزة بين الاحزاب الاوروبية، وكانت له قيادة بروليتارية صالحة، وهيبة عالية.

كان غوتولد رئيساً للحزب. وكنت اسمع عنه، واعلم ان ستالين يقدره تمام التقدير. وكنت انا شخصياً قد اجتمعت اليه في ١٩٤٨ بعد انتصار الحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا على البورجوازية. وفي احد الايام تلقيت مخابرة هاتفية من ستالين وهو في حالة نفسية حسنة، ودعاني إلى القرم حيث كان يمضي فرصته واخبرني ان غوتولد وزوجته ذهبا ايضاً إلى القرم في اجازة للراحة، واردف قائلا: «احضر إلى هنا، فان غوتولد يقول انه لا يستطيع ان يعيش يوماً آخر بدونك». فطرت إلى القرم في اليوم التالي تماماً.

وكان ستالين حينئذ مقيماً في احد قصور يالطا حيث تمت لقاءاته مع روزفلت وتشرشل في اثناء الحرب. وكان غوتولد مقيماً في القصر ذاته، فكانت لنا احاديث كثيرة طويلة وذلك، كالعادة، حول مائدة الطعام. وكانت الاحاديث

عادية باستثناء الزراعة والاقتصاد .

ظل ستالين بعض الزمن يسألني مشككاً : « هل هنالك صحة في ما قاله غوتولد عن ان التشيكيين يجنون محصولا من شمندر السكر يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ « سنترس » (٥٦٣ إلى ٦٧٥ بوند) واننا نحن قبل الحرب ، كنا لا نجني في اوكرانيا اكثر من حوالي ١٦٠ سنترس ؟ » فكنت اجيب : « نعم ، ايها الرفيق ستالين ، هذا صحيح » .

وطلبت من خبرائنا الزراعيين درس الموضوع ، فكان تقريرهم ان تشيكوسلوفاكيا هي في المرتبة الأولى ، لانها ليست منكوبة بذلك النوع من السوسة التي تلتهم محصول الشمندر السكري في اوكرانيا ، وان تشيكوسلوفاكيا تحصل على كمية من الذرة في شهور الصيف اكثر من مناطق اوكرانيا التي ينمو فيها الشمندر السكري (١) .

وبدا ستالين غير راض . كان يريد ان يتباهى بتفوق زراعتنا ومزارعنا الجماعية على تشيكوسلوفاكيا وكذلك صناعتنا . ولما كانت افضل زراعتنا حينئذ في اوكرانيا ، فقد دعاني إلى القرم لكي اؤيد ادعاءه لغوتولد بتفوقها على زراعة بلاده . غير اني حسمت النزاع حالما بدأت المناقشة ، فلم يبق مجال للجدل بتفوق التشيكيين .

وبعد ذلك ببضع سنين رأيت غوتولد مرة ثانية ، عندما رئس الوفد التشيكوسلوفاكي إلى مأتم ستالين . واصيب غوتولد بمرض شديد في موسكو واقتضى الأمر اعادته إلى براغ حيث توفي بعد زمن قصير .

وصدر الامر إلى بولغانين الذي كان حينذاك وزير الدفاع أن يمثل الاتحاد السوفياتي في مأتم غوتولد . وعند عودته إلى موسكو ابلغنا ان الحالة في براغ مائعة كثيراً ، وان من الصعب التكهن بما سيكون عليه خلفاء غوتولد . وعلى الرغم من ان علاقاتنا مع تشيكوسلوفاكيا كانت ممتازة ، فان وفاة غوتولد سببت لنا بعض الخوف لان علاقاتنا الوثيقة معه كانت الخيط الرئيسي الذي يربط حزبينا ودولتينا معاً .

وعين زابوتوكي ، الذي كان رئيساً للوزراء في عهد غوتولد ، رئيساً لجمهورية تشيكوسلوفاكيا . وبعد وفاة ، او بالاحرى اعتقال واعدام ، السكرتير العام

(١) الزراعة التشيكوسلوفاكية كانت ، دون ريب ، متقدمة كأية بلاد أخرى . وذلك يعود إلى المهارة والسماد ، أكثر منه إلى عدم وجود السوس .

سلانسكي ، صار نوفوتني رئيساً للحزب (١) . واني لا اعلم الكثير عن الاحداث التي ادت إلى صعود نجم نوفوتني ، ولذلك لن اتحدث الا عن المدة التي زرت فيها تشيكوسلوفاكيا بعد ان كان نوفوتني قد صار سكرتيراً للجنة المركزية .

كانت معرفتي بنوفوتني محدودة عندما بلغنا نبأ ترقيته . وكان ذلك اول دخوله الميدان الدولي . وقيل لنا انه كان سكرتيراً للجنة مدينة براغ التي كانت اقوى هيئة حزبية في تشيكوسلوفاكيا ، وانه كان يتمتع بهيبة واسعة في الحزب التشيكوسلوفاكي . على ان هذا لم يكن اكثر من شائعة .

وفي لقائي الأول بنوفوتني ، احببته كثيراً ولا ازال اعتقد انه شيوعي طيب صادق ، وقف نفسه على الماركسية — اللينينية والطبقة العاملة . ولم يخامرني ادنى شك في ذلك . وعندما رأيته يعمل ادركت انه كرس حياته كلها للحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا . وقصارى القول ان صلتي به كانت جيدة .

والتقيت ايضاً وزير الشؤون الداخلية في حكومة نوفوتني (٢) ، وكان صديقاً مخلصاً ونشيطاً للاتحاد السوفياتي . ولكنه اعتقل وقدم للمحاكمة . وشعرت باستياء لذلك ، ولكن لم استطع ان ادافع عنه بسبب الادلة الدامغة التي قدمت ضده .

(١) توفي غوتولد بعد قليل من وفاة ستالين في ١٩٥٣ وخلفه في منصب الرئيس زابوتوكي الذي كان رئيساً للوزارة منذ ١٩٤٨ ، وصار نوفوتني حينئذ سكرتيراً للحزب . وتوفي زابوتوكي في ١٩٥٧ وخلفه في الرئاسة نوفوتني الذي احتفظ أيضاً بسكرتيرية الحزب ، وهكذا كان في الواقع دكتاتوراً على تشيكوسلوفاكيا . وكان نوفوتني قد اكتسب سمعة سيئة أثناء السنين الأربع التي قضاها في معسكر اعتقال نازي (ماوتاوسن) وكان قد تمكن بسرعة أن يأخذ لنفسه ولاصدقائه امتيازات خاصة على حساب السجناء الأقل حظاً ومستعيناً بمركزه لتحطيم اعدائه . وكان ارتقاء نوفوتني السريع بعد الحرب يرجع إلى درجة كبيرة للدور الذي لعبه في الكشف عن مؤامرة مزعومة قام بها زميله سلانسكي واخرون أدت إلى إتهامهم بالخيانة ومحاكمتهم واعدامهم بطريقة مماثلة لمحاكمات الخيانة السوفياتية في الثلاثينات. وبعد أن وطد نوفوتني ذاته ، حكم تشيكوسلوفاكيا على الطريقة الستالينية مقاوماً كل تبديل حتى ربيع ١٩٦٨ ، عندما اكتسحت موجة من الامتعاض الشعبي عبرت عن ذاتها بحركة الاصلاح الكبرى التي رئسها الكسندر دوبتشك والتي انتهت نهاية مفجعة بالغزو السوفياتي .

(٢) رودولف باراك ، اعتقله نوفوتني وقضى بالحكم عليه بالسجن لمدة ١٥ سنة في ١٩٦٢ فتخلص بذلك من منافسه الوحيد الخطر ، بالاضافة إلى استخدامه لتغطية فشله في ارضاء خروشوف في أخذ خطوات أسرع ضد الستالينية في تشيكوسلوفاكيا.

اضف إلى ذلك اننا كنا في تلك الايام نتجنب استخدام الضغط على البلدان الاشتراكية الاخرى . وقد افترضنا ان كل حزب شيوعي ينبغي ان يعالج مشاكله الداخلية بذاته . لذلك عندما كنا نتلقى انباء تطورات لم نوافق عليها ، كنا احياناً نعبر عن آرائنا وشكوكنا دون التدخل المباشر وقد تمسكنا بمثل هذا الموقف في قضية الحزب التشيكوسلوفاكي .

على انني مع ذلك لا اذكر حدثاً كان فيه بعض التوتر بين الزعماء التشيكيين وبيني . كنت استعد مرة لمرافقة وفد سوفياتي في زيارة إلى تشيكوسلوفاكيا ، فأخبرتهم انني ارغب في القيام بزيارة خاصة للجنرال سفوبودا وان احمل له بعض الهدايا الروسية كدليل لتقديري الشخصي له وامتنان الشعب السوفياتي للدور الذي لعبه في الحرب . ففي ١٩٤٣ كان مع فالوتن ومعي فرقة تشيكوسلوفاكية تحت قيادة الكولونل سفوبودا ملحقة بجيشنا . وهذه الفرقة تميزت بنضالها خارج خاركوف . وبعد ذلك زادت معرفتي بسفوبودا بعد ان شكل رجاله فرقة عسكرية قوية . واني لاذكر ان الشيوعيين التشيكيين اخبروني اثناء الحرب بانه كان زعيماً سياسياً نشيطاً كما هو قائد عسكري ممتاز . ووفقاً لدستور تشيكوسلوفاكيا آنذاك كان ممنوعاً انشاء خلايا سياسية في صفوف الوحدات العسكرية . ولهذا فان الهيئة الشيوعية في الفيلق التشيكي كانت مخالفة للقانون . غير ان ذلك لم يمنع سفوبودا من دعوة زعيم الهيئة الشيوعية وابلاغه نوع العمل السياسي الذي يجب القيام به . وقد قاتل التشيكوسلوفاكيون جنباً إلى جنب معنا على الجبهة الاوكرانية الاولى وكنت انا عضواً في المجلس الحزبي ، وكان سفوبودا احد معاوني . واتيحت لي فرصة اخرى لان اجتمع بسفوبودا والزعماء التشيكوسلوفاكيين الآخرين بعد ان حررت قواتنا بلادهم . وكانت الحكومة التشيكية المؤلفة من جديد قد سافرت إلى براغ بطريق كييف ، حيث قمت انا باستقبالهم . وهكذا فتاريخ الرجل وعلاقاتي به كانت تعني انه من عدم اللياقة ان اذهب إلى تشيكوسلوفاكيا دون ان اقوم بزيارة شخصية له .

ولكن ، في الوقت الذي اتيحت لي الفرصة للذهاب إلى تشيكوسلوفاكيا مع الوفد ، كان سفوبودا يمر بمحنة ، وكان مغضوباً عليه . ويؤخذ من معلومات تلقيناها انه بات يعمل محاسباً في مزرعة جماعية . وهذا لم يكن معقولا ، فهو لم يفعل شيئاً ليستحق هذا الاذلال . فقلت لرفاقي انني ارى وجوب وضع سفوبودا في عمل مفيد واعطائه المركز الذي استحقه بمساهمته الخطيرة في الحرب بوصفه القائد العسكري الوحيد في الجيش التشيكي الذي قاتل إلى جانبنا ضد المانيا . فعلينا ان نفعل شيئاً لرفع مكانته واعادته إلى الحياة السياسية . وقد وافق رفاقي في قيادة الحزب

الشيوعي السوفياتي والحكومة السوفياتية على اقتراحي .

وعندما تحدثت مع اصدقائنا التشيكيين عن رغبتنا في ان نرى الجنرال سفوبودا حاولت ان اقنعهم بانني اعتبره محارباً ممتازاً ورفيقاً صادقاً ولذلك فانني لا استطيع ان انساه ، كما لو انه ليس في الوجود . وسألتهم اذا كان لديهم اي مانع من اجتماعي به ، فسمحوا لي بذلك على مضض منهم (١) .

هنالك شعور اخاء قوي نحو الاتحاد السوفياتي في اوساط بقية شعوب البلدان الاشتراكية ، غير انني وجدت دائماً ان صداقة البلغاريين لنا هي ، في الاخص ، صداقة حميمة . وشعورهم هذا يمكن ادراكه وفهمه . ذلك لان ميادين القتال في بلغاريا لا تزال ملأى بعظام المحاربين الروس الذين ماتوا في سبيل انتزاع استقلال بلغاريا من الاتراك .

(١) ل. سفوبودا الذي صار رئيساً لتشيكوسلوفاكيا بعد سقوط نوفوتني في ١٩٦٨ وأبدى مقاومة باسلة ضد تدخل الاتحاد السوفياتي في بلاده. وكان قبل ذلك بكثير وزير الدفاع الشيوعي الميول في عهد بنس وبهذه الصفة لعب دوراً فعالا في إسقاط البرلمانية الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا . وهو لم ينضم فعلا إلى الحزب الشيوعي حتى ١٩٤٨. وكان ستالين ينظر اليه نظرة شك متطرفة وقد عمل على اسقاطه . في ١٩٥٠ و١٩٥١ اختفى عن المسرح وأمضى بعض الوقت في السجن ، ثم اطلق سراحه . وكان يعيش كمحاسب في مزرعة جماعية . وان عودته على المسرح السياسي كان الفضل فيها لخروشوف .

١١

الحرب الكورية

هنا تبدو، مرة أخرى ، ان الهواية اللامبالية هي الطابع الغالب التي كان يعالج بها ستالين المشاكل التي لا علاقة مباشرة لها بسلامة الاتحاد السوفياتي كما يفهمها هو. ويحتمل أنه تلقى مشورة مفصلة عن الحالة في كوريا من وزارة خارجيته غير انه شجع الكوريين الشماليين على الحرب دون أن يعطي الموضوع اهتماماً جدياً. والنقطة المهمة التي تبرز في هذا الفصل هي ان خروشوف لا يتردد في القاء تبعة الحرب أو حتى التحرش على الشماليين . والقضية كلها كما يعرضها خروشوف هنا كانت غزوة عن الغزو الذي قام به الكوريون الشماليون ،اعتمدت على تقدير خاطىء للموقف وقع فيه ستالين .غير انه من الواضح أيضاً ان ستالين عرف غلطته قبل معرفة خروشوف بزمن طويل . ولم يستطع خروشوف أن يدرك السبب الذي حمل سيده على سحب المستشارين السوفيات جميعاً والوقوف على الحياد التام باستثناء حملة الدعاوة التي واصل القيام بها – عندما تطور ما كان ينبغي أن يكون مجرد نزهة يقوم بها الكوريون الشماليون إلى حرب كبيرة. فلا عجب ان أظهر ستالين احتقاراً لاقوال خروشوف الذي كان في جهل تام لاوضاع القوى الدولية الحقيقية ، وخصوصاً دور الأمم المتحدة .

يوم نقلت من اوكرانيا إلى موسكو ، في نهاية ١٩٤٩ ، وصل « كيم إل سنغ مع وفده لاجراء مشاورات مع ستالين . واراد الكوريون الشماليون ان يقتحموا كوريا الجنوبية بروؤس الحراب . وقال كيم ال سنغ ان الضربة الأولى ستؤدي إلى انفجار داخلي في كوريا الجنوبية ، وان قوة الشعب سوف يكون لها الغلبة – اي القوة الحاكمة في كوريا الشمالية . وبالطبع ، لم يكن باستطاعة ستالين ان يعارض هذا الرأي الذي يتفق مع ايمانه الراسخ كشيوعي بان الصراع في كوريا هو قضية داخلية . فالكوريون الشماليون يريدون مد يد

المساعدة إلى اخوانهم الواقعين تحت سيطرة « سنغمان ري » . وقد اقنع ستالين كيم ال سنغ بان عليه ان يدرس الموضوع جيداً ويجري بعض الحسابات ، ثم يعود اليه بمشروع واقعي متماسك . وغادر كيم موسكو إلى بلاده ، ثم عاد بعد ان درس الوضع جيداً هناك ، وابلغ ستالين انه متأكد كل التأكد من النجاح . واذكر ان ستالين خامرته الشكوك والمخاوف من تدخل الاميركيين . ولكن اذا انتهت الحرب بسرعة – وكيم إل سنغ كان متأكداً من ذلك – فان تدخل الولايات المتحدة الاميركية يمكن تجنبه .

وعلى الرغم من ذلك قرر ستالين ان يسأل ماوتسي تونغ عن رأيه في اقتراح كيم إل سنغ . وعلي ان اؤكد هنا ان الحرب لم تكن من رأي ستالين ، بل من رأي كيم إل سنغ . على ان ستالين لم يحاول ان يثنيه عن عزمه . فما من شيوعي يقف حائلا بين كيم إل سنغ وبين رغبته الملحة في تحرير كوريا الجنوبية من سيطرة سنغمان ري ومن نفوذ الرجعية الاميركية . فذلك يناقض وجهة نظر الشيوعية العالمية . اضف إلى ذلك ان ماوتسي تونغ وافق على اقتراح كيم إل سنغ ورأى ان الولايات المتحدة لن تتدخل ، لان الحرب ستكون قضية داخلية تهم الشعب الكوري وحده .

ودعا ستالين إلى مأدبة عشاء فاخرة في منزله الريفي ، حيث اخبرنا كيم إل سنغ عن الأحوال في كوريا ، وخصوصاً ما ينعم به جنوبها من تربة صالحة ومناخ ممتاز لزراعة الارز وصيد الاسماك وما إلى ذلك . وقال ان توحيد كوريا الجنوبية والشمالية يفيد البلاد باسرها . فتمنينا لكيم إل سنغ كل توفيق وشربنا نخب الزعامة الكورية الشمالية ، متطلعين إلى مجيء ساعة النصر .

وكنا قد اعطينا كوريا الشمالية بعض الاسلحة ، وكان من البديهي ان يتلقوا الآن ما يطلبونه من الدبابات والمدافع والبنادق والرشاشات والمعدات الهندسية والاسلحة المضادة للطائرات . وكانت طائرات سلاحنا الجوي تحمي بيونغيانغ ، ولذلك كانت مرابطة في كوريا الشمالية .

وحانت الساعة وبدأت الحرب وجرى الهجوم بصورة موفقة ، اذ انطلق الكوريون الشماليون جنوباً بسرعة فائقة . غير ان الذي توقعه كيم إل سنغ ، اي قيام الشعب في كوريا الجنوبية بانتفاضة داخلية بعد الطلقات الأولى لاسقاط سنغمان ري ، لم يتحقق لسوء الحظ . وكان توقع كيم في محله من حيث ان الحكم في كوريا الجنوبية لم يكن وطيد الدعائم ومستقراً وقادراً على الدفاع ، كما انه لم يكن محبوباً في داخل كوريا الجنوبية . غير القوى الشيوعية الداخلية لم تكن كافية للقيام بالانتفاضة ، كما انها لم تكن منظمة

التنظيم الذي ظنه كيم .

واحتل الكوريون الشماليون سيول . وفرحنا نحن لذلك وتمنينا مرة اخرى لكيم إل سنغ كل توفيق ، لان هذه الحرب كانت حرب تحرير وطني ، او قل حرباً طبقية لا حرب شعب ضد شعب آخر اذ اتحد العمال والفلاحون والمثقفون بقيادة حزب العمال في كوريا الشمالية ضد الرأسماليين . وهذا بحد ذاته تطور تقدمي .

ولو قدر لجيش كوريا الشمالية الوصول الى مدينة بوزان ، وهي اخر مرفأ في كوريا الجنوبية ، لكانت الحرب قد انتهت ولكان قد تم توحيد كوريا في دولة اشتراكية قوية غنية في موادها الاولية وصناعتها وزراعتها .

غير ان ذلك لم يتم . فقد استفاد العدو من المقاومة التي نظمها سنغمان ري في بوزان ، اذ نجح في انزال قواته في « شمولبو » ، مما جعل موقف الكوريين الشماليين شديد الخطر . والواقع ان جيش كوريا الشمالية بكامله في الجنوب قد انعزل تماماً ووقعت جميع اسلحته في ايدي سنغمان ري . وهكذا اصبحت الكارثة تتهدد كوريا الشمالية ذاتها .

ويقع على ستالين بعض اللوم في ذلك ، فلاسباب لا استطيع فهمها ، سحب ستالين جميع مستشارينا لدى جيش كوريا الشمالية عندما كان كيم إل سنغ يستعد للزحف . وحين سألت ستالين عن ذلك ، انتهرني قائلا : « من الخطر ابقاء مستشارينا هناك ، اذ ربما يؤسرون ، فنتهم بالاشتراك في هذا العمل الذي هو من شأن الكوريين وحدهم » . وكانت النتيجة ان جيش كوريا الشمالية واجه المتاعب منذ البداية . وعندما بدأت المعارك الطاحنة بعد «شمولبو » تأثرت كثيراً من الانباء التي كانت تصلنا عن الوضع الفاجع الذي اوقع كيم إل سنغ نفسه فيه . وشعرت بالحزن على كيم إل سنغ حتى اني قلت مرة لستالين : « ايها الرفيق ستالين ، أليست فكرة حسنة ان نقدم مساعدة اكثر فائدة إلى كيم إل سنغ ؟ انه يريد ان يقاتل في سبيل شعبه لكي يجعل كوريا حرة مستقلة ، غير انه ليس رجلا عسكرياً . وهو الآن يواجه وحدات اميركية قوية مجربة . وسفيرنا في كوريا الشمالية كان سكرتيراً ثانياً للجنة لينينغراد الاقليمية ، ومع انه منح زمن الحرب رتبة لفتننت جنرال فهو ليس جندياً محترفاً ولم يحصل حتى على تدريب عسكري اساسي ونصيحته لا يمكن ان تكون بديلا عن مشورة رجل مدرب على ادارة العمليات الحربية . ولنأخذ مثلا مالينوفسكي (وزير دفاع خروشوف في المستقبل) فهو قائد منطقة الشرق الاقصى العسكرية ، فلماذا لا نرسل مالينوفسكي إلى كوريا الشمالية لكي يستطيع ، متنكراً ، ان يساعد كيم إل سنغ في ادارة رحى الحرب بصورة اكثر فعالية واثراً ؟ »

فاستقبل ستالين ملاحظاتي بمنتهى الغضب والاستياء ، فادهشني ذلك . ألم يكن ستالين قد اعطى بركته إلى كيم إل سنغ ؟ ألم يقدم اسلحة" إلى الزعيم الكوري ؟ ألم نكن نحن إلى جانب كيم ؟ . انه بدون مساعدتنا لم يكن له اي امل . غير ان مساعداتنا هذه كانت بالاسلحة فقط ، ولو اننا لم نرفض اعطاءه مساعدة رجال قادرين على توزيع القوات وادارة العمليات الحربية ، لكانت كوريا الشمالية دون ريب خرجت من الحرب منتصرة ظافرة . واني اعتقد انه لو تسنى لكيم إل سنغ الحصول على فرقة واحدة من الدبابات او فرقتين على الاكثر ، لكان استطاع ان يعجل زحفه جنوباً ويحتل بوزان في طريق تقدمه ، ولكانت الحرب قد انتهت حينئذ وهناك . ألم تقل الصحف الاميركية انه لو تم الاستيلاء على بوزان لما كانت الولايات المتحدة قد تدخلت بقواتها المسلحة (١) .

وكان الذي حدث ، ان الاميركيين بعد تأخر طويل انزلوا قواتهم فاستردوا سيول وتحركوا متجهين إلى الشمال متخطين خط العرض الثامن والثلاثين ، وهو خط الحدود الذي قررته معاهدة الصلح بعد سقوط اليابان . وهكذا تحولت الحالة إلى كارثة حلت بكوريا الشمالية وكيم إل سنغ .

وكانت قوات كوريا الشمالية الجوية مؤلفة بالاكثر من طائرات ميغ ١٥ وهي احدى افضل مقاتلاتنا النفاثة واسرعها مناورة . وفي اثناء سير الحرب جدد الاميركيون تسليح سلاحهم الجوي وادخلوا فيه مقاتلات جديدة اسرع واقوى من مقاتلاتنا ، فبدأت طائراتنا التي من طراز ميغ ١٥ تواجه الهزيمة . فصار الاميركيون يستطيعون اختراق خطوط دفاعنا الجوي وقصف كوريا الشمالية بقنابلهم وهم بمأمن من اي خطر . ولم يعد بوسعنا ان نوفر التغطية الجوية للمدن ولمحطات توليد القوى الكهربائية .

وبينما كان هذا الوضع المؤسف يزداد سوءاً ، وبينما كنا نشعر باشد الحزن

(١) ان ذاكرة خروشوف قد خانته هنا، فبعد هجوم كوريا الشمالية حاول الأميركيون التدخل على الفور بقوتهم الجوية ثم بكل ما استطاع الجنرال دوغلاس ماك ارثر جمعه من القوات البرية من حامياته الناقصة في اليابان . وقد تحمل الأميركيون خسائر فادحة في أيام الحرب الأولى وخسروا ماجور جنرال واحداً أخذ اسيراً غير أنه بقي هنالك العدد الكافي من الرجال للاحتفاظ برأس جسر بوزان في الطرف الجنوبي لكوريا . وبدون الاميركيين كانت بوزان دون ريب قد سقطت . وفي الوقت ذاته كان ماك ارثر سبق بتوجيه ضربة قاضية إلى «انشون» التي كانت موقتاً قد حطمت جيش كوريا الشمالية . ثم أن التدخل الصيني في خريف ١٩٥٢ حول مجرى الحرب مرة أخرى .

نحو كيم إل سنغ وشعب جمهورية كوريا الشمالية ، ظهر شوآن لاي فجأة .
ولم اكن انا موجوداً اثناء اجتماعه بستالين ، اذ كان ستالين حينئذ في الجنوب
(في سوخي) . وعندما عاد ستالين إلى موسكو قال ان شو آن لاي جاء للاجتماع
به ، بناء على تعليمات من ماوتسي تونغ .

وكان جيش كوريا الشمالية في هذا الوقت قد فقد القسم الاكبر من رجاله .
وسأل شو آن لاي ستالين اذا كان ينبغي ان تتحرك القوات الصينية إلى اراضي
كوريا الشمالية لكي تسد الطريق في وجه الاميركيين والكوريين الجنوبيين . وفي
بادىء الأمر ، رأى ستالين وشو ان تدخل الصين لن يأتي بفائدة . ولكن حين استعد
شو آن لاي للعودة إلى بلاده ، عاد احدهما — اما شو آن لاي عملا بارامر
ماوتسي تونغ ، أو ستالين ذاته — إلى فتح الموضوع من جديد . واتفقنا عندئذ على
ان تقدم الصين مساعدة عسكرية لكوريا الشمالية . وكانت هنالك قوات صينية
مرابطة فعلا على الحدود . واعتقد ستالين وشو آن لاي ان هذه القوات تستطيع
ان تتدبر الموقف تماماً ، فترد القوات الاميركية والكورية الجنوبية إلى الوراء
وتنقذ الوضع .

وعاد شو آن لاي إلى بكين . وكان شو آن لاي اذكى مستشاري ماوتسي تونغ
واكثرهم نفوذاً . وكان ستالين يقدره حق قدره وكنا نحن جميعاً نعتبره رجلا
لامعاً مرناً نستطيع ان نتكلم معه بعقل وحكمة .

لم تعلن الصين الحرب ولكنها اكتفت بارسال متطوعين إلى كوريا . وكانت
هذه القوات بقيادة بنغ تي– هواي الذي كان له مكانة رفيعة عند ماوتسي تونغ
الذي كان يقول عنه انه ألمع كوكب في الافق العسكري الصيني .

وبدأ القتال مجدداً ، وتوفق الصينيون إلى ايقاف تقدم الاميركيين والكوريين
الجنوبيين . ودارت معارك طاحنة . وهنالك في المحفوظات وثائق تضمنت
التقارير التي اعطاها بنغ تي– هواي عن الحالة إلى ماوتسي تونغ . وقد وضع بنغ
تقارير مطولة تصف خططاً مفصلة محكمة للمعارك ضد الاميركيين . وقد اعلن
صراحة انه سيطوق العدو ويقضي عليه بضربات حاسمة . حتى ليمكن القول ان
القوات الاميركية سحقت والحرب انتهت مراراً كثيرة في هذه التقارير الحربية
التي كان يرسلها بنغ إلى ماو ، وهذا بدوره يرسلها إلى ستالين .

على انه من المؤسف ان الحرب لم تنته سريعاً على الاطلاق . وقد عانى الصينيون
هزائم كبيرة . وتلقينا انباء تفيد ان نجل ماوتسي تونغ ، وهو ضابط برتبة جنرال ،
قتل في غارة جوية على احد مخافر القيادة . وهكذا لقي نجل ماوتسي تونغ حتفه
في كوريا الجنوبية ! وتكبدت الصين خسائر فادحة وذلك لان مقدرتها الفنية

وتسلحها كانا ادنى كثيراً من قوة الاميركيين . وكانت تدابير الصين
في الهجوم وفي الدفاع على السواء تعتمد بالاكثر على مجرد الطاقة البشرية .

واخذت الحرب تطول وتتعثر . وبينما كان الفريقان يحفران الخنادق ، ازداد
القتال شدة ودموية .

ان ذكرياتي عن الحرب الكورية هي حتماً مجتزأة . فانني لم اطلع على اي من
الوثائق التي تضمنت المناقشات التي جرت حول قضية العون العسكري والفني
لكوريا الشمالية . غير انني اطلعت في الاساس على سياستنا وقرأت سائر الوثائق
التي كنا نتلقاها من سفيرنا .وبينما كنت اعمل في اوكرانيا ، لم اكن اتلقى
اي رسائل من المكتب السياسي سوى ما يختص مباشرة باوكرانيا ، او بي
شخصياً . ثم عندما نقلت إلى موسكو قال ستالين ان بالامكان توزيع
الوثائق السرية علي ، لانني لم اكن احصل من قبل على اي بريد يتعلق بشؤون
المكتب الداخلية . وهكذا بدأت اطلع على تقارير المعارك التي كان ماوتسي تونغ
يتلقاها بدوره من بنغ تي– هواي ويحولها إلى ستالين . وبهذه الطريقة ايضاً
استطعت ان اعرف ، حق المعرفة ، شيئاً عن الحالة وتطوراتها في كوريا الجنوبية .

١٢

حسم النزاع مع تيتو

كان أول ظهور لخروشوف على المسرح الدولي رحلته إلى يوغوسلافيا في صيف ١٩٥٥ لاصلاح ما تسبب به ستالين من ضرر عندما أصدر حرمه المشهور على تيتو في ١٩٤٨ . وقد رافقه في رحلته هذه بولغانين الذي كان حينذاك رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ، وكذلك ميكويان ، ووزير الخارجية الجديد شبيلوف . وكان بولغانين يتصرف ، دوماً ، وكأنه مهرج سكير محبب يعمل ما يطلب إليه خروشوف القيام به . أما ميكويان فكان يبقى في الظل يبدي أحياناً انذارات صوتية عندما يكثر خروشوف من الكلام ويبالغ في التمارين . وكان خروشوف في ذلك الزمن لا يزال يكثر من تناول الشراب ويصل في بعض الاوقات إلى درجة السكر الظاهر .

وفي هذا المحيط غير المألوف كان خروشوف يرتكب الغلطة تلو الغلطة ، بدءاً بخطابه في المطار الذي أغضب تيتو اذ أدعى فيه ان المعاملة السوفياتية ليوغوسلافيا كان الملوم فيها بيريا لا ستالين . غير ان خروشوف لم يرتكب الغلطة ذاتها مرتين . واظهر أنه يكتسب المعرفة بسرعة ، كما انه يمتلك طاقة غير متوقعة على ضبط سلطانه الشخصي .

وينبغي أن نتذكر أن ستالين في ١٩٤٩ كان قد استعمل كل وسيلة ما عدا الحرب – من مناورات عسكرية على الحدود وحصار اقتصادي ونشاطات تخريبية ودعاية عنيفة خبيثة – للتوصل إلى إسقاط تيتو .

كنت عند وفاة ستالين ، سكرتير اللجنة المركزية وسكرتير اول لكل من لجنة مدينة موسكو واللجنة الاقليمية . وبعد وفاة ستالين اعفيت من واجباتي في لجنة الحزب في موسكو ، لكنني بقيت محتفظاً بسكرتيرية اللجنة المركزية . ولفترة من الزمن لم يكن هنالك سكرتير اول للحزب . ثم اقترح بولغانين ، في اجتماع عام عقدته اللجنة ، ان اتولى منصب السكرتير الأول للحزب .. وهكذا اصبحت

بموافقة البرزيديوم ، السكرتير الاول للحزب في الاتحاد السوفياتي . وبتلك الصفة توليت رئاسة الوفد إلى يوغوسلافيا في ١٩٥٥ لاعادة العلاقات الطيبة مع الرفيق تيتو .

كان تيتو واسع الشهرة ومحبوباً في الكومنترن قبل الحرب العالمية الثانية . وفي اثناء النضال العظيم الذي قام به الشعب اليوغوسلافي ضد الغزاة الهتلريين حقق تيتو شهرة واسعة بوصفه زعيماً للانصار . ولا اظن ان احداً يشعر بالاساءة اذا ما قلت ان اعظم مقاومة ضد الاحتلال النازي في اوائل الحرب كانت تلك التي ابدتها حركة الانصار الوطنية التي نظمها الحزب الشيوعي اليوغوسلافي. فقد كانت حركات عظيمة – في فرنسا وفي ايطاليا وفي بلدان اوروبية اخرى ايضاً – غير ان الحركة اليوغوسلافية كانت الأولى والاكثر ضخامة وفعالية .

وكنت قد التقيت تيتو لأول مرة بعد الحرب عندما جاء إلى موسكو مع كاردلج ودجيلاس لمقابلة ستالين . عاد الرفاق اليوغوسلافيون إلى بلادهم بالقطار مروراً بطريق كييف وقد ارادوا مشاهدة انحاء من البلاد ، ولو حتى من نافذة مركبة السكة الحديدية . وتلفن ستالين لي وقال : « نظم استقبالا حسناً واعتن بهم اثناء وجودهم في كييف ، ودع تيتو يشعر ان بلادنا تحتفظ باعمق شعائر الصداقة نحو يوغوسلافيا . »

وعند وصولهم استقبلناهم استقبالا لائقاً ، رغم اننا كنا لا نزال في حالة فقر . وتلبية لارادة تيتو نظمت له ولجماعته زيارة لاحدى المزارع الجماعية. وقال تيتو ان ما شاهده ترك اثراً حسناً في نفسه ، حتىولو ان اقتصادنا كان لا يزال في حالة خراب. ولم تكن زراعتنا بعد شيئاً نستطيع ان نفاخر به .

لقد شعرت انا بميل إلى تيتو . فقد كان صاحب شخصية مرحة ومتواضعة واستلطفت كاردلج ايضاً لخفة روحه وسرعة بداهته وتهذيبه وطيبته . وليلة كنا في الأوبرا روى لي دجيلاس عدداً من الحكايات لا تزال واحدة منها عالقة في ذهني اود ان ارويها هنا :

كان ما كان في زمان ما كلب وبقرة وجحش في قرية في مكان ما من يوغوسلافيا . وكانت الامور تسير من سيء إلى اسوأ واخيراً قرر الكلب والبقرة والجحش الهرب إلى الجبال ، حيث راحوا يتجولون مدة من الزمن إلى ان بدأوا يشعرون بالجوع والحنين إلى الوطن . فارسلوا الكلب ليرى اذا كانت الحالة قد تحسنت هناك . ولم يلبث الكلب ان عاد راكضاً باقصى ما استطاعت ان تحمله قوائمه ليقول : لا تزال الحياة صعبة جداً في القرية ، انهم لا يسمحون بالنباح ، فكيف يستطيع الكلب الحياة بدون ذلك ؟ وهكذا استمر الثلاثة في التجوال في

الجبال فترة اخرى من الزمن ، ثم قرروا ارسال البقرة للاستطلاع ، قائلين للبقرة : لما كنت لا تنبحين فسوف لا يلحقك اذى من تحريم النباح . وهكذا انطلقت البقرة في طريقها . وبعد حين عادت وهي في يأس عظيم وقالت : انه لمستحيل ، انه لمستحيل ، اذ حالما وصلت إلى القرية هجم الناس علي وامسكوا بحلمات ضرعي وشرعوا في امتصاصها للرضاعة منها وشدها بقوة حتى كادوا يمزقونها . واخيراً تمكنت من النجاة ! . وعلى ذلك بقوا في الجبال مدة اخرى . وفي النهاية قرروا ان يحاولوا للمرة الاخيرة بارسال الجحش إلى القرية . فراح ولم يلبث ان عاد مسرعاً وقال : مستحيل ، مستحيل على الاطلاق . لا نقدر ان نعيش في المدينة ! فقال رفيقاه : لماذا ؟ ماذا حدث ؟ فقال الجحش : حالما وصلت إلى المدينة حاولوا ترشيحي لعضوية البرلمان ، ولم استطع الفرار الا بصعوبة ! .

وبعد الانتهاء من هذه الحكاية وجه تيتو إلى دجيلاس نظرة قاسية وقال مازحاً : « هل تريد من وراء حكايتك هذه ان تخبرنا باننا ننتخب الحمير للبرلمان ؟ » فضحكنا جميعاً .

وفي ما بعد اخبرت ستالين بالجو الودي الذي كان سائداً عند زيارة اليوغوسلافيين فسر كثيراً ، لانه كان يريد آنذاك ان تكون لنا افضل واصدق العلاقات الودية مع يوغوسلافيا .

ومر بعض الوقت على هذه الزيارة ، ثم ابلغنا سفيرنا في بلغراد وهو اكاديمي وفيلسوف اسمه يودين (ب. ف. يودين الذي صار بعد ذلك سفيراً في بكين) ان اليوغوسلافيين وجهوا في اجتماع حزبي جميع انواع الملاحظات الساخرة والمهينة إلى الاتحاد السوفياتي ، وخصوصا إلى مستشارينا العسكريين والفنيين الذين ارسلناهم إلى هناك بناء على طلب تيتو ، للمساعدة في اعادة بناء البلاد .

ووصف يودين ذلك بالتفصيل . فارسل ستالين نسخاً من هذا الوصف إلى اعضاء المكتب السياسي ، فتلقيت نسخة عنه في كييف .

ثم بدأت القيادة الرسمية اليوغوسلافية تكتشف العيوب وتحاول ان تلتمس اعذاراً للدخول في خصام معنا. ثم ان كثيرين من اليوغوسلافيين الذين كانوا اصدقاءنا لم يوافقوا على هذا الموقف الجديد الذي اتخذته حكومتهم ، فوضعوا في السجن . وفقد بعضهم حياته لا بسبب صداقتهم لنا ، بل لمعارضتهم زعامة الحزب الشيوعي اليوغوسلافي والحكومة اليوغوسلافية . وبلغ الأمر ذروة حدته عندما استدعى الاتحاد السوفياتي جميع المستشارين الذين كانوا يساعدون يوغوسلافيا لاعادة تنظيم شؤونها الاقتصادية والعلمية

والعسكرية (١) .

وبعد وفاة ستالين ، بدأنا نتبادل الآراء حول امكانية اعادة العلاقات مع اليوغوسلافيين وتصفية العداء الذي كان قد خلقه ستالين بين الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا . وقد قوبل هذا الرأي بمعارضة قوية منذ البداية وكان الناس يقولون كيف نستطيع ان نستعيد العلاقات مع يوغوسلافيا حين تكون حكومتهم تسير بالبلاد نحو الرأسمالية ، وتسمح للرأسمال الاميركي بان يسيطر على اقتصادها ، وتعيد الملكية الخاصة وتطلق الحرية للبنوك ؟ وكان ميخائيل سوسلوف ، على الاخص ، متشدداً في معارضته ومصراً على القول ان يوغوسلافيا لم تعد بلداً اشتراكياً .

والحق ان سبب هذه المزاعم السخيفة هو اننا ابتعدنا كثيراً عن اليوغوسلافيين إلى حد اننا اصبحنا نؤمن بهذه المزاعم . وهذا ينطبق على الحكاية القديمة عن ذلك الذي قال للناس في ساحة القرية ان هنالك في مكان ما من يوزع لحم الخراف والرز مجاناً . وهكذا كان حالنا مع يوغوسلافيا . لقد سمعنا تلك الروايات كثيراً حتى اننا اصبحنا نؤمن بصحتها .

وفي الرد على اولئك المعارضين اقترحت ان ندرس الموضوع ايجابياً من جديد ، وذلك بتأليف لجنة من الاقتصاديين وغيرهم من الاخصائيين . فقبل الاقتراح وعين شبيلوف وبعض الرفاق الآخرين في تلك اللجنة . وبعد ابحاث وتحقيقات وافية ، قدموا لنا تقريراً يمكن العثور عليه في محفوظات اللجنة المركزية ، خلاصته

---

(١) ليس واضحاً هنا لماذا يقول خروشوف في هذه المرحلة ان اليوغوسلافيين كانوا ملومين للخصام الذي حدث . ففي خطابه السري القى اللوم صراحة على ستالين الذي روى عنه انه قال: «انني حين احرك اصبعي لا يبقى هنالك تيتو. فهو يسقط حالا» وعلق خروشوف على ذلك قائلا : كان دوراً مخجلا ذاك الذي لعبه ستالين . كاردلج وميلوفان دجيلاس كلا هما من الزملاء المقربين إلى المارشال تيتو . وكاردلج الذي كان رئيساً للوزراء لا يزال رجل دولة عجوزاً . أما دجيلاس ، وهو رجل متحمس ذكي من الجبل الأسود ، فقد خسر حظوته عند تيتو فزجه في السجن لموقفه ضد البيروقراطية الشيوعية . وهو في كتابه «الطبقة الجديدة» يهاجم النظام الشيوعي من أساسه ، واحدث كتابه «أحاديث مع ستالين» اساءة أكبر للنظام . ومن الواضح أن بذور خلافاته مع ستالين خاصة ومع الشيوعية عامة ، نشأت في هذه الزيارة .

ان لا صحة لاعتبار يوغوسلافيا دولة رأسمالية . واذا كان الفلاحون هناك يملكون الأرض ويستغلونها لانفسهم ، فلا يزال في البلاد مزارع جماعية وحكومية . اما البنوك والتجارة ووسائل الانتاج فهي جميعاً في يد الدولة التي يهيمن عليها الشعب بواسطة دكتاتورية الطبقة العاملة . ولذلك فان يوغوسلافيا هي دولة اشتراكية . وهكذا لم يبق من مبرر للابقاء على حالة الخصام التي اوجدها ستالين . فقررنا استئناف الصلات واعادة العلاقات بين الحزبين السوفياتي واليوغوسلافي . ولكن لما كانت احزاب شيوعية اخرى قد تورطت في نزاعنا مع يوغوسلافيا ، فقد كان علينا ان نحصل على موافقتها . وكان ان حصلنا عليها .

وعندما اثيرت قضية ما هي افضل طريقة للاتصال بتيتو ، ارتفعت اصوات تقول ان نطلب إلى اليوغوسلافيين ان يجيئوا الينا لاجراء المفاوضات . فقلت ان هذا امر مستحيل وغير وارد على الاطلاق اولا لانني اشك في قبولهم الدعوة لئلا يظهروا بمظهر المتسولين ؛ وثانياً لاننا كنا نحن البادئين في قطع علاقاتنا معهم ولذلك يجب ان نكون نحن البادئين في اعادتها . وثالثاً لان بلادنا كبيرة وحزبنا كبير وسلطتنا وهيبتنا عظيمتان في ميدان الشيوعية العالمية . ولذلك يتعرض الزعماء اليوغوسلافيون لخطر كبير اذا هم اجتمعوا بنا في اراضينا ولم نتمكن من التوصل معهم إلى الاتفاق .

وهكذا تقرر ارسال وفد إلى بلغراد،على ان اتولى رئاسته ويكون من أعضائه بولغانين وميكويان وشبيلوف.وكانت سفارتنا في يوغوسلافيا آنذاك تقوم بمهمتها بواسطة هيئة صغيرة من الموظفين.ولبى الرفاق اليوغوسلافيون رغبتنا في زيارتهم وتبادل الآراء معهم . وعندما هبطنا في مطار يوغوسلافيا استقبلونا بجميع مظاهر اللياقة والقيت كلمة في المطار اتفقنا على صياغتها جميعاً ، فلم تكن تعبر عن رأيي الشخصي بقدر ما كانت تعبر عن وجهة نظر قيادة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي .

ورد تيتو على كلمتي قائلا : « لا حاجة بنا لترجمة كلمتك ، لان كل واحد هنا يفهم اللغة الروسية » . وقد اراد بذلك ان يبرهن على ضبط النفس الذي احسسنا بوجوده . وشعرت ببعض الخيبة للاستقبال البارد الذي لقيناه في المطار ، وخشيت ان يشجع ذلك الذين عارضوا في قيادتنا اعادة العلاقات الطيبة مع يوغوسلافيا (١) .

---

(١) شعر خروشوف بأكثر من خيبة الأمل للجفاء الذي لقيه من تيتو في المطار ، فظهرت عليه علائم الغضب الشديد . وتجدر الملاحظة انه سبق لخروشوف ان =

وعندما بدأت المناقشات اتخذنا نحن المبادرة باقتراحنا ان ندفن خلافاتنا . وقلت انني متأكد تماماً اننا سوف نتمكن من التوصل إلى نوع من التفاهم المتبادل . وانني اعترف انه ما تزال هنالك بعض الاخطاء في موقفنا . واليوغوسلافيون قد لاموا ستالين عن حق للانشقاق الذي حدث بين حزبينا ولم يوجهوا ذلك الينا بل إلى ستالين . ونحن ايضاً كنا نسير على الافتراض بان ستالين اوجد الخصام ولكننا كنا نتجه إلى تجنب اثارة موضوع من هو الملوم عندما بدأنا فعلا العمل لاعادة علاقاتنا إلى وضعها الطبيعي مع يوغوسلافيا . وكنا قد بدأنا ندرك مدى اساءة استعمال ستالين لسلطته والضرر الجسيم الذي سببه باستئصاله زهرة شباب حزبنا . وكما ذكرت من قبل ، اننا بسيكولوجيا لم نكن على استعداد لاجتماعنا مع اليوغوسلافيين اذ لم نكن بعد حررنا انفسنا من اعتمادنا الوضيع على ستالين . ومع ذلك فقد وافق اليوغوسلافيون على انه من الممكن ان نتوصل إلى نوع من التفاهم وظهروا بانهم مستعدون لتقبل حسن نوايانا .

ونظم الزعماء اليوغوسلافيون جولة لنا في البلاد . ومرة اخرى كان استقبالنا في المدن والبلدان استقبالا يدل على التحفظ . وظهر جلياً ان الجماهير المصطفة في الشوارع لم تحضر تلقائياً لاستقبالنا . فقد نظمها الحزب. ولم يظهروا العداء، لكنهم لم يظهروا الود كثيراً . وكانوا بالاكثر يهتفون « ليحيا تيتو ... تيتو ... تيتو (١)! »

على اننا سررنا في اثناء جولتنا في البلاد بمشاهدة الشعب اليوغوسلافي يتصرف بكل احترام ازاء ذكرى جنودنا الذين قدموا حياتهم في سبيل تحرير يوغوسلافيا من هتلر (٢) فقد كانت قبور محاربينا الابطال في حالة حسنة وعليها لوحات تدل على اسمائهم .

كانت البلاد ، دون ريب ، فقيرة جداً ، وذلك لضعف زراعتها قبل الحرب . وقد دام الاحتلال الهتلري فيها مدة طويلة وكان قاسياً. ورأينا الفلاحين وليس لديهم سوى معدات زراعية بدائية جداً . ان اسباب تخلفهم جلية جداً فان

= تحمل مسؤولية كلمته السيئة في المطار ، اذ وضع اللوم على بيريا ، لأنه ، كما يقول ، لا هو ولا رفاقه كانوا قد تخلصوا بعد تماماً من أثر ستالين .

(١) ان خروشوف محق تماماً في ما يقوله عن مسلك الشعب اليوغوسلافي . فقد كانوا يبدون عداء ظاهراً .

(٢) ان اليوغوسلافيين هم الذين حرروا أنفسهم من الالمان وان يكن مصيرهم توقف بصورة مطلقة على انتصار الحلفاء في ميادين أخرى . وقد كان هذا من الأسباب التي جعلت تيتو يرفض ان يتلقى الاوامر من ستالين .

يوغوسلافيا بلاد معزولة يسودها الخراب حتى وان يكن الرأسماليون يزعمون بانهم يقدمون لها المساعدة (١) .

واذكر انني تحدثت مع فوكمانوفيك – تمبو ، فترك في نفسي اثراً حسناً باخلاصه وصدقه وانسانيته . وقد احببته على الرغم من انه كان يتكلم بعنف ضدنا . ولا اظن انه كان يحسن به ان يذهب إلى هذا الحد البعيد في حملته علينا . وقد اخبرني كيف ذهب إلى اميركا للتفاوض على عقد قرض وقال : « كنا نواجه اقسى الصعوبات ، فمواسمنا كانت قد فشلت وكنا امام خطر المجاعة . وكان التوتر بين بلادنا والاتحاد السوفياتي على اشده . وعرف الاميركيون مبلغ بؤسنا فحاولوا استغلال ذلك في معاملتهم لنا وان يفرضوا علينا اقسى الشروط واشدها تحيزاً لمصلحتهم مقابل اعطائنا القرض . وقد رأوا ان لا مندوحة لنا عن القبول وكانت شروطهم بصورة واضحة ذات صفات واهداف سياسية ترمي إلى ابعاد يوغوسلافيا عن طريقها الاشتراكي وارغامها على الاتجاه نحو الرأسمالية . فقلت لهم اننا نؤثر الموت على القبول بمثل تلك الشروط ، وخرجت واقفلت الباب بقوة . وقد بقيت هناك بضعة ايام لاعطي الاميركيين فرصة اعادة فتح المفاوضات . واخيراً اضطروا للتنازل قليلا لأنهم خافوا ان يدفعوا بنا بتصلبهم إلى ابعدمن هذا وادركوا اننا اذا عدنا ناقمين فقد يفقدون كل أمل بابعاد يوغوسلافيا عن المعسكر الاشتراكي.وكان غرضهم الأول منعنا من العودة إلى الاتفاق مع الاتحاد السوفياتي او، كما كانوا يقولون ، لحمايتنا من الاضطرار إلى الاستسلام إلى ستالين . لقد ارادوا ان يشجعوا الانقسام في العالم الاشتراكي وان يزيدوا في تحصين معسكرهم الامبريالي ».

وسررت برجل يتكلم بمثل هذه الصراحة معبراً عن كرهه الطبقي . غير انني شعرت بالامتعاض عندما تناولني فوكما نوفيك – تمبو بقارس الكلام . وقد قلت في احدى اجتماعاتنا «اذا اردتم في اي وقت ان تزيدوا في حدة توتر علاقاتكم مع اية بلاد اخرى ، فان الرفيق تمبو هو اكفأ المؤهلين لذلك » . فنظر تيتو نحوي وانفجر ضاحكاً . وبعد ذلك صرنا ، فوكما نوفيك – تمبو وانا ، على احسن ما يمكن من الاتفاق . وكنت في الواقع احترمه كثيراً . كان طبعه الحاد ناتجاً عن كرهه لاعداء الطبقة العاملة ، وهذا ما جعله يسمح لنفسه باستعمال لهجة غير معتدلة معنا .

(١) كان الغرب الرأسمالي مدة من الزمن كثير التردد في تقديم أية مساعدة إلى تيتو لتشككه في جدية خصامه مع ستالين . ولكن مع مرور الزمن قدم له مساعدات كثيرة وذلك لتمكينه من المحافظة على استقلال يوغسلافيا خارج الكتلة السوفياتية .

وعلى كل حال ، فنحن قد اظهرنا بعض النقص والتقصير في شعورنا مع يوغوسلافيا عندما كانت تواجه اقسى الصعوبات التي مرت بها في تاريخها (١) .

وفي نهاية زيارتنا الأولى إلى يوغوسلافيا اصدرنا بلاغاً مشتركاً . وكان ذلك التصريح نقطة انطلاق فقط . فقد اصر تيتو على تقيدنا بمبادئ عدم التدخل التام في شؤون البلدان والاحزاب الاخرى الداخلية ، والاعتراف بحق كل بلد بحريته في العمل دون ضغط من الخارج . فوافقنا نحن على ذلك معتقدين باخلاص ان العلاقات ينبغي ان تقوم على اساس الثقة المتبادلة . وقد اثار البلاغ المشترك بعض القضايا التي كان من الافضل تجنبها ، غير ان اكثر النقاط الصعبة تم تلطيفها . وكان هذا الاتفاق بالطبع مجرد بداية . فبعد تلك المدة الطويلة من الجفاء كان هنالك ما يتطلب اكثر من الجلوس إلى الموائد وتناول كؤوس النبيذ معاً .

وبعودتنا إلى موسكو قدمنا تقريرنا عن كيفية سير اجتماعاتنا مع اليوغوسلافيين وقلنا ان يوغوسلافيا ظهرت بانها بلاد متمسكة بطريقتها الاشتراكية ، وان الشعب والحزب صامدون في العقيدة الماركسية – اللينينية . وقررنا في موسكو توسلا لملاقاة اليوغوسلافيين في منتصف الطريق ووضع الاسس لزيادة التعاون الاقتصادي معهم ، ان نحذف المبلغ الكبير الذي هم مدينون به لنا ونتخلى عنه . ثم لم يلبث اليوغوسلافيون ان طلبوا منا قرضاً ، لا اذكر قدره تماماً ، ولكنه كان كبيراً، وقد ارادوا الحصول عليه لبناء مصنع للفولاذ فاعطيناهم القرض المطلوب على شرط ان يقدم القرض في شكل آلات وماكينات تستعمل في بناء المصنع وتجهيزه .

لقد كان تيتو دائماً شيوعياً صحيحاً ورجل مبادىء . ولكن قبل ان تبدأ علاقاتنا معه في التحسن ، كانت يوغوسلافيا قد اتجهت بتجارتها بالاكثر نحو الشركات الاميركية والانكليزية وغيرها من الشركات الغربية ، مقابل الحصول منها على القروض . وكانت قد ترددت شائعة ان يوغوسلافيا قد منعت ، بمقتضى معاهدة ، من الاتجار مع الاتحاد السوفياتي . والواقع ان هذه الشائعة كانت ملفقة

(٦) كانت المفاوضات متوترة جداً ووصلت مراراً كثيرة إلى نقطة تهدد بقطعها . وكان خروشوف مصمماً على إعادة العلاقات الحميمة بين الحزبين الشيوعي السوفياتي واليوغوسلافي . وبعبارة أخرى اعادة دمج يوغوسلافيا مع الاتحاد السوفياتي على مستوى الحكومات ، كما هي الحال بين الدول المستقلة ، وهذا ما حدث . أما فوكما نوفيك – تمبو الذي كان مدة طويلة رئيساً لاتحاد العمال اليوغوسلافي ومن الأنصار القدماء ، فقد كان ولا يزال رجلا مستقيماً صادقاً .

لا صحة لما اذاعها كثيرون ممن لا يريدون الخير ليوغوسلافيا ولا للاتحاد السوفياتي . ولم يكن بين يوغوسلافيا والغرب مثل هذه المعاهدة . ولكن في الوقت ذاته لم يكن هنالك مجال للشك في ان الامبرياليين لم يكونوا يقدمون ليوغوسلافيا منحاً وهبات حباً بها . فقد كان مما يجلب الارباح للبلدان الرأسمالية حينئذ ، ولا يزال الآن كذلك ، ان تستعين باتفاقات تجارية مغرية لمحاولة ابعاد البلدان الصديقة عن المعسكر الاشتراكي الواحدة بعد الاخرى . واني لاذكر في هذا الصدد حديثاً ذا طابع سري ، ولكن ودي ، جرى لي مرة مع الرفيق غومولكا الذي كان قد طلب ان نبيع بولونيا حنطة . فرأيت حقيقة الدافع الكامن وراء هذا الطلب وقلت له بكل صراحة : « اني اشعر بانك ترغب في شراء الحبوب منا لسبب غير مواجهة احتياجاتك الداخلية . فمن بين جميع البلدان الاشتراكية ، باستثناء الاتحاد السوفياتي طبعاً ، لدى بولونيا افضل وارقى مستويات التقدم الزراعي . ولذلك فيجب ان يكون لديك من الحبوب ما يكفي احتياجات بلادك . ولذلك فاني اعتقد ان هنالك بالتأكيد شيئاً آخر يجول في خاطرك » .

فحدق إلي وقد ادرك اني فهمت غرضه وقال : « نعم ايها الرفيق خروشوف انك على حق ، فنحن بالطبع لسنا بحاجة إلى الحبوب كطعام ولكن نحتاج اليها علفاً للخنازير التي نعتمد عليها في صناعة البايكون (لحم الخنزير المملح). والبولونيون على ما هو معروف ، ينتجون افضل انواع « البايكون » الذي يباع باسعار جيدة جداً في الاسواق الاميركية . وعندما كان الاميركيون يفرضون الحصار على ما يستورد من الاتحاد السوفياتي ومن بلدان اخرى اشتراكية حرصوا على ترك ثغرة مفتوحة يمكن عن طريقها الحصول على « البايكون » البولوني .

وعلى هذا ، كان الغرب دائماً يعقد صفقات خاصة مع يوغوسلافيا . فليس بمستغرب ان يشعر الاتحاد السوفياتي بنقمة كبرى عليها . وكان مرد هذه النقمة إلى الغيرة والحسد ، اكثر منها إلى النظرة العقائدية . ونحن ، الم يكن الاربح لنا جلب المعدات الميكانيكية من الولايات المتحدة ؟ غير ان الاميركيين رفضوا بيعها لنا . كانوا يبيعونها من يوغوسلافيا.غير اننا لا نرى لماذا نحول غضبنا على الاميركيين إلى نقمة على اليوغوسلافيين الذين كانوا يستفيدون من فرصة كنا نحن نود ان نستفيد منها ؟

اتخذت يوغوسلافيا دائماً موقفاً خاصاً مستقلا في سياستها الخارجية ، خصوصاً في مواجهة قوات معادية من البلدان الامبريالية . وكانت يوغوسلافيا دائماً تحرص على ان لا تنضم او تنتسب إلى كتلة او إلى اخرى . ولم تكن سياستها دائماً متفقة مع سياستنا الخارجية . وكانت تقع احياناً خلافات بيننا . وقد رفض اليوغوسلافيون ان

ينضموا إلى حلف فرصوفيا نظراً لارتباطهم بعلاقات تجارية خاصة مع الغرب . وقد ترك رفضهم هذا شرارة لم تنطفىء في ما بيننا حتى بعد ان بدأت علاقاتنا تتحسن في ١٩٥٥ . وكان هنالك بطبيعة الحال سبب آخر لرفض يوغوسلافيا توقيع ميثاق فرصوفيا . وهذا السبب هو نزاعها على الحدود مع بلغاريا .

وعادت علاقاتنا فتوترت مرة اخرى بعد حوادث ١٩٥٦ في المجر . وتخلينا نحن من جانبنا عن بعض التدابير التي كنا قد اتخذناها لتحسين علاقاتنا مع يوغوسلافيا . مثال على ذلك اننا اوقفنا الاتفاق المعقود بيننا حول القروض . غير انه لم يكن هنالك من سبب لنسمح بتطور الوضع إلى قطع العلاقات مرة اخرى مع يوغوسلافيا.ولذلك فقد عمل تيتو وانا على تلطيف هذا النزاع في اجتماع خاص عقد في بوخارست .

ويحسن بنا في هذا الصدد ان ننظر في موقف يوغوسلافيا في المؤتمرين الخطيرين اللذين عقدهما الحزب في ١٩٥٧ و ١٩٦٠ . فقد حضر اليوغوسلافيون هذين المؤتمرين بصفة لا تزيد كثيراً عن صفة المراقبين . ولربما قاموا ببعض المشاركة في المناقشات ، غير انهم لم يوقعوا قرارات المؤتمر . اني لا انكر ان موقفهم هذا اثارني كثيراً في حينه (١) . ولم استطع ان ادرك لماذا كانوا يتصرفون مثل هذا التصرف ، غير انه لم يكن باستطاعتنا ان نفعل شيئاً في هذا الصدد . والظاهر ان الرفاق اليوغوسلافيين لم تكن لهم ارادة لان يأخذوا على عاتقهم اي شيء من الالتزامات المتبادلة التي كان توقيع القرارات يفرضها . واني اعتقد ان رفضهم ان يقيدوا انفسهم كان خطأ ، غير اني الآن على الأقل استطيع ان ادرك الاسباب التي دعتهم إلى ذلك . وكما قال تيتو في سياق حديثه معي : « انك دون ريب توافق معي على اننا اذا كنا نريد ان نبقى غير منحازين لاية كتلة ، فاننا لا نستطيع ان نوقع قرارات المؤتمر » . لقد اراد اليوغوسلافيون ان يتكلموا باسم البلد التي برزت مجدداً ويدافعوا عنها ، وهي البلدان التي كانت قد تحررت لتوها من الاستعمار ، والتي وجدت انها في وضع معين بين العالمين الاشتراكي والرأسمالي . وقد كان لليوغوسلافيين كل الحق باتخاذ هذا الموقف ، وكان يتوجب علينا ان نتمكن من المحافظة على علاقاتنا معهم بالرغم من رفضهم الانضمام الينا انضماماً اوثق .

(١) ان كلمة «اثارة» كلمة لطيفة معتدلة من وصف شعور خروشوف نحو تيتو لرفضه الاشتراك عملياً في المؤتمرين الكبيرين اللذين عقدا في موسكو في ١٩٥٧ و ١٩٦٠ . فقد اهتاج كثيراً وجرى ضغط شديد على اليوغوسلافيين نتيجة لذلك .

ومع ذلك فان سياسة الوقوف على الحياد التي اعتنقها الحزب الشيوعي اليوغوسلافي كانت مجرد عثرة على ممر السنين .

وبعد رحلتنا إلى يوغوسلافيا في ١٩٥٥ وجهنا دعوة إلى وفد يوغوسلافي يرئسه الرفيق تيتو لزيارة الاتحاد السوفياتي . فقام باكثر من رحلة واحدة من هذا النوع واصبح يعرف بلادنا معرفة جيدة . وقد دعوناه مرة لزيارة القرم للاستراحة بضعة ايام والقيام برحلة صيد . وكانت رحلات الصيد قد اتخذت ، منذ قرون ، فرصة لالتقاء زعماء بلدين او ثلاثة بلدان ومناقشة القضايا ذات المصلحة والاهمية المتبادلة . وكان الجو الذي ساد مباحثاتنا مع تيتو اثناء خروجنا للصيد معاً جواً حميماً ودياً . ووجه اليوغوسلافيون دعوة الينا لزيارة بلادهم ، رداً لزيارتهم بلادنا . فزرتهم عدداً من المرات . واتاحت لي تلك الرحلات فرصة مشاهدة كثير من الاشياء الجديدة وغير العادية التي كانت يوغوسلافيا تنشئها في بلادها .

ان يوغوسلافيا تزعم ، كما يعلم العالم باسره ، انها اكتشفت اساليب ادارية واجراءات اقتصادية تؤدي إلى تسهيل التحول او الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية . والذي يدعونه هو ان تلك الاساليب التنظيمية الجديدة هي اكثر ديموقراطية تسمح للعمال والموظفين والخبراء بزيادة المساهمة في ادارة اقتصاديات الشعب . اما نحن فقد كنا في بادىء الامر ضد هذه الاصلاحات المقترحة . الا انني اهتممت في معاينتها في طور التطبيق والتنفيذ عندما زرت المصانع في يوغوسلافيا رغبة مني في ان اتحقق إلى اي مدى كانت تلك الاجراءات الجديدة قابلة للتطبيق في احوالنا الخاصة في الاتحاد السوفياتي .

واني اذكر ان الرفاق اليوغوسلافيين ذهبوا بي مرة لزيارة مصنع للتراكتورات في ضواحي بلغراد . وهناك حاول المهندسون والمديرون والمشرفون على العمل وممثلو اتحادات العمل والمنظمون الحزبيون جميعاً ان يشرحوا لي كيف تقرر مشروع الانتاج بالاساليب الديموقراطية . ولكنني في الواقع لم استطع ان افهم شيئاً مما كانوا يحاولون قوله عن مفهومهم الجديد للملكية الخاصة . فكان كل ما قالوا بهذا الصدد بمثابة اضفاء بعض الزينة على الواجهات . وقد ابديت شكوكي للرفاق اليوغوسلافيين بمنتهى الصراحة ، وبدا لي كأنهم وافقوا معي بعض الموافقة ولكنهم استمروا في محاولة اقناعي ان طريقتهم كانت تختلف نوعاً عن الطريقة التي كنا نسير عليها في الاتحاد السوفياتي ، وانها اكثر ديموقراطية واكثر توصلا إلى

مساهمة الشعب في تحقيق اهداف الانتاج . (١) .

وعلى الرغم من الشكوك التي ساورتني فقد كانت حججهم ، دون ريب ، جديرة بقدر معين من الالتفات . وفي اثناء المدة التي عشتها وعملت فيها واشتركت في قيادة الحكومة ، كان اقتصادنا دائماً يدار ادارة مركزية واني ارى ان في ايامي كانت المركزية افضل واكفأ نظام .

غير انني بدأت منذ عهد قريب اشعر بانه في حين لا تزال الادارة المركزية ضرورية الا انه لا يقل عنها في الاهمية في نظر العمال ان يكون لهم رأي اكثر مما كان في السابق ، بجهة تحديد حصصهم من الانتاج واحوالهم فيه . وفي حين ان مشاريع الانتاج ينبغي دائماً ان تضعها القمة وتشرف عليها ، فاني اعتقد ان في المستقبل سوف يكون ، بكل تأكيد ، للعمال انفسهم مساهمة اكثر في وضع الخطط وتعيين الحصص وتقرير كيفية القيام بتلك المشاريع وتنفيذها . وبعبارة اخرى ، انني اعتقد ان هنالك على الاقل ذرة من الصواب ، ولو في مجرد الشروع باسهام مفيد في ادارة الشؤون الاقتصادية ، تقدمه الاساليب التنظيمية الجديدة التي وضعها اليوغوسلافيون . ولا فائدة من التنكر لذلك .

وقد زعم اليوغوسلافيون انهم اوجدوا شروطاً اقتصادية مفضلة لمواجهة متطلبات المستهلك . غير انه كان لهم نصيبهم من العقد والمشاكل ايضاً . وفي اثناء احدى زياراتي اعترف لي تيتو بقوله : « اننا نحاول معالجة بعض التطورات المؤسفة عندنا . واني اظن ان لدى بعض رجالنا الذين يديرون المشاريع الحكومية حسابات مالية في بعض البنوك الرأسمالية في الخارج . وبعبارة اخرى انهم يختلسون من اموالنا » . وفي رأيي ان هذا النوع من اساءة الامانة طبيعي . وهو نتيجة حتمية لسياسة تيتو الاقتصادية . وربما يكون اليوغوسلافيون الآن إما انهم قد تخلصوا من مثل هذه المشاكل بتصفيتها او انهم ابتكروا طريقة ما للتغلب عليها .

ان الاساءات والاخطاء تحدث دائماً عندما يكون المجتمع في سياق اجراء اختبارات وتجارب لاساليب وانظمة جديدة . وانه ليس مما يدعو إلى الدهشة والاستغراب ان لا تكون جميع اختبارات اليوغوسلافيين وتجاربهم قد ثبت نجاحها وصحتها . ولكن في الوقت ذاته ليست جميع اختبارات اليوغوسلافيين وتجاربهم

(١) هنا ، يشير خروشوف خاصة إلى مجالس العمال التي انشئت في يوغوسلافيا في محاولة لتحقيق نوع جديد من الاشتراكية المحررة من التصميم المركزي ، وذلك بجعل المصانع والبنوك والمشاريع والمعاهد من جميع الأنواع تدير ذاتها . وفي زيارته الأولى إلى يوغوسلافيا نظر خروشوف إلى تلك الفكرة نظرة احتقار بالغة.

مما ينبغي رفضه على الفور . بل علينا ان نفحص الحالة فحصاً دقيقاً وبدون تحيز ، ثم نقرر اي نوع من انظمة اليوغوسلافيين يجوز تطبيقه بصورة مفيدة تجلب الربح على اقتصاديات بلدان اشتراكية اخرى . واني أعترف ان ابحاثنا وفحوصاتنا لهذه الامور لم تكن دائماً متزنة وايجابية . وقد جرت بعض الاحيان فحوصات مشتركة يزعم فيها الفريقان انهما توصلا إلى الحقيقة . اما انا فلم اشعر ابداً ان احد الفريقين كان على حق بصورة كلية . انه لمن الخطأ دائماً ان يدعي المرء انه على حق مطلق لا ينازعه فيه احد . فالاصرار بعناد على ان الاسلوب الذي يتبعه احدنا هو الاسلوب الوحيد الصحيح لتحقيق اي أمر ، لخطأ فاضح وبلاهة .

كانت الزراعة هي احد المجالات التي كان يبدو ان اليوغوسلافيين يسيرون فيها على الطريق القويم . وقد كان لي مرة حديث مفيد مع تيتو حول هذا الموضوع ، قال لي فيه : « عندما كانت علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي مقطوعة ، اردنا ان نتحقق من اننا لا نعتبر مرتدين عن الاشتراكية . فاتخذنا تدابير ادارية لنتابع نظام التجميع الزراعي (التشريك) إلى النهاية . فمن ناحية الكمية البحتة ربما نكون قد وفقنا في الجماعية ، ولكن صادفنا صعوبات كبيرة في انتاج المحاصيل الكافية لتلبية طلبات السكان . ومع ذلك فاننا لم نبدأ بالانتقال من المزارع الجماعية إلى المزارع الحكومية الا بعد ان اتبعنا النظام الجماعي إلى النهاية » . واستشهد على ذلك برقم كبير يمثل نسبة مئوية من ارض استعملت للمشاريع الزراعية الحكومية كانت قد حددت لزراعة القمح وانتاج الحليب وتربية الدواجن والبقر . فكانت الدولة تبتاع المزارع من الفلاحين وتحولها إلى مزارع حكومية على مثال الاساليب المتبعة في مزارعنا السوفياتية الحكومية .

وكانت سياسة الرفيق تيتو الرامية إلى اقامة زراعة الدولة التعاونية بدلا من ان تكون مناقضة لطريقتنا في بناء الاشتراكية بعيدة عن ذلك كل البعد ، وجديرة بكل التفات وعناية من قبلنا . لقد كان لينين شخصياً يقول ان تعاونيات الفلاحين والمزارع الحكومية تمثل اكثر مراحل التطور الزراعي تقدماً ورقياً . واني أعتقد ان اليوغوسلافيين اتبعوا الطريق القويم عندما بدأوا في استبدال المزارع الجماعية بمزارع حكومية (١) .

---

(١) قبل الخصام مع الاتحاد السوفياتي في ١٩٤٨ ، ولمدة من الزمن بعد ذلك ، كانت الشؤون الاقتصادية والصناعية والزراعية اليوغوسلافية تدار بأقصى درجة من الصراحة على النمط السوفياتي . الا أن السيطرة المركزية في الصناعة تركت مكانها للادارة الذاتية ، وفي الزراعة الغيت المزارع الجماعية بسبب نقمة الفلاحين لتحل =

وقد حاولنا نحن انفسنا ان نقوم باجراء تحسينات شاملة في نظامنا الزراعي عندما حاولنا اعادة اسكان الزراع الجماعيين في الارض البكر . ويمكن للمرء أن يتصور الصعوبات التي سببتها حملة الاراضي البكر لعائلة كان عليها ان تنتقل من مكان عاشت فيه طيلة اجيال كثيرة إلى مكان آخر . فقد كان ذلك صعباً جداً عليها . ولكن كان علينا ان ننقل عائلات كثيرة — اوكرانية وبيلوروسية وروسية — إلى ألوف الكيلومترات بعيداً عن ارض آبائها واجدادها . وقد انفقنا مبالغ كبيرة في سبيل تنفيذ حملة اعادة الاسكان . واضطررنا كذلك ان نعطي قروضاً ومساعدات مالية إلى الشبان الذين استخدموا في بناء مستعمرات الاسكان في الارض البكر . وكنا قد صرنا مقتنعين ان علينا انشاء مزارع جماعية على تلك الأرض . والمزرعة الجماعية هي منظمة مصطنعة ، اي انها ليست متحداً جماعياً حقيقياً فضلا عن انها كثيرة الكلفة .

لذلك قررنا اختيار الطريقة الاخرى وهي المزارع الحكومية. وعندما كنت انا في القيادة كان ارخص انواع الخبز هو الذي كان ينتج في المزارع الحكومية على الارض البكر (١) .

وقد سرني ان تيتو ، اذ كان يرى فوائد الزراعة التعاونية ويفضلها على الجماعيات ، كان ايضاً يدرك اهمية التصميم المركزي . والتصميم او التخطيط

= محلها التعاونيات الزراعية التي الح على الفلاحين، أصحاب الملكيات الصغيرة، لينضموا اليها وقد فعل أكثرهم ذلك . والمزارع الحكومية وهي دائماً محبوبة من خروشوف (مزارع كبيرة تملكها الدولة ويتولى ادارتها موظفون يتقاضون مرتبات ويعمل فيها عمال مأجورون) ليست في الواقع كثيرة الانتشار في يوغوسلافيا . وقد وجدت بالأكثر لاغراض خاصة مثل تربية المواشي . والمزارع الجماعية ، كان، نظرياً، يمتلكها فلاحو القرية أو جماعة من القرى الصغيرة ويعملون فيها لجني ارباح مشتركة .

(١) ان حملة الأرض البكر التي يشير اليها خروشوف هنا كانت عملية ضخمة ترمي إلى فتح مساحات كبيرة من السهول الخالية من الاشجار ، وبالاكثر في خازستان، لزرع الحبوب . وقد حرثت هذه الاراضي لأول مرة في ١٩٥٤ وكانت مساحتها لا تقل عن تسعين مليوناً من الافدنة ، أي أكثر من مجموع الأراضي المزروعة في انكلترا وفرنسا واسبانيا معاً . وقد نقل نصف مليون من روسيا الاوروبية إلى تلك السهول الخالية حيث عاشوا في أحوال بدائية ، منظمين في مزارع حكومية كبيره جداً . ورغم النجاح الأول (الكبير النفقة) اوقفت الاختبارات وتحولت الأرض سريعاً إلى حفر من التراب .

المركزي الذي كانت تقوم به لجنة التصميم الحكومية في الاتحاد السوفياتي هو ضرورة جوهرية في ادارة الاقتصاد الاشتراكي . فبدون التصميم المركزي فان سيطرة السوق – العرض والطلب ، التي تتألف منها عناصر الدولة الرأسمالية – تزول سريعاً وتحل محله العلاقات الاشتراكية بين الافراد والمشاريع . وكان من دواعي سروري وارتياحي ان تدرك دولة يوغوسلافيا بزعامة الرفيق تيتو ان التصميم المركزي ضرورة لا غنى عنها للمحافظة على الاقتصاد الاشتراكي الصحيح .

وفي اثناء زياراتي ليوغوسلافيا واحاديثي مع تيتو نما عندي احترام عظيم له ، وثقة كبيرة بمقدرته كزعيم بعيد النظر ، مقدام . وعندما زرت برفقته داخل البلاد رأيت ان الاحوال قد تحسنت كثيراً بالنسبة لما كانت عليه عندما قام وفدنا بزيارته الأولى في ١٩٥٥ . فكان الشعب اسعد حالا والمصانع تنشأ في جميع الانحاء . واني لاذكر زيارتي لموقع كان يبنى عليه مصنع للبلاستيك جهز بآلات جرى شراؤها من الولايات المتحدة . فكانت معدات واجهزة مفيدة جداً والمصنع يبشر بان يكون نعمة عظيمة ومصدر خير كبير للشعب اليوغوسلافي .

وقد اخبرني الرفيق تيتو مرة ان يوغوسلافيا في ١٩٦٣ جنت ايراداً بلغ مقداره ما يقرب الـ ٧٠ مليون دولار من السياحة . ومثل هذا المبلغ قد يكون تافهاً لبلاد مثل ايطاليا او سويسرا او اسوج وسواها من البلدان الغربية ، ولكنه لبلد اشتراكي ، بما في ذلك الاتحاد السوفياتي ، مبلغ كبير يستحق الذكر . وقد ابلغني تيتو ان يوغوسلافيا تعمل على بناء فنادق وطرق جديدة لجلب عدد اكبر من السياح . فالسياحة تدر نقداً اجنبياً هو ضروري للتجارة الخارجية . واني استطيع ان اقول اننا نحن في الاتحاد السوفياتي كنا نحسد يوغوسلافيا على نجاحها في الترغيب بالسياحة واستدراج السياح الاجانب اليها .

وبدأت ابحث واسأل لاكتشف كيف استطاع اليوغوسلافيون ايجاد مثل هذا المورد السياحي المزدهر . فقالوا ان الطرق الصالحة كانت في طليعة العوامل ، وتليها الفنادق والمطاعم اللائقة . وزادوا في الايضاح قائلين انهم ، لكي يضمنوا حسن الخدمة للسياح في الفنادق اليوغوسلافية ، اوفدوا اشخاصاً منهم إلى البلدان الرأسمالية لدرس كيفية استقبال السياح واعداد الطعام وادارة الفنادق ادارة صحيحة . وقد زرت بعض فنادقهم السياحية فوجدتها نظيفة جداً وعصرية .

ومما لا ريب فيه ان ليوغوسلافيا مزايا طبيعية كبيرة . فهي احدى اجمل بلدان اوروبا الاشتراكية . وكنت قبل زيارة يوغوسلافيا اعتقد ان القرم عندنا وشواطىء القوقاس هي ابهج المناظر واعظمها في العالم باسره . ولكن عندما شاهدت دوبروفنك وغيرها من المناطق السياحية في يوغوسلافيا ، ادركت اننا لسنا البلد

الاشتراكي الوحيد الذي يستطيع ان يدعي مثل هذا الجمال الطبيعي ويفاخر به . وربما كان مناخ يوغوسلافيا وشواطئها الفسيحة وثروتها الكبيرة بالآثار التاريخية ، تجعلها متفوقة حتى على ما في بلادنا من مظاهر الجمال الكثيرة .

والسياح ، بالطبع ، يسببون المشاكل بعض الاحيان . وقد سألت الرفيق تيتو مرة قائلا : « اخبرني ، كيف تراقب وتتحقق من اوضاع السياح الغربيين الذين يدخلون يوغوسلافيا بالسيارات ؟ ففي الاتحاد السوفياتي لدينا جهاز بيروقراطي هائل يضع الكثير من الحواجز في طريق السياح » .

فضحك وقال : « وجدنا حلا للمشكلة بكل بساطة . فهنالك جميع انواع الطرق التي يستطيع بها السياح غير المرغوب فيهم والجواسيس وامثالهم الدخول إلى البلاد . والتحقيق على الحدود ليس فيه الضمانة الكافية ضدهم . هنالك طرق اخرى لمكافحة تسللهم ، ولذلك فان حراس الحدود في بلادنا يخضعون السياح لاقل ما يمكن من التحقيقات الرسمية . والعملية المألوفة كلها لا تستغرق سوى دقائق معدودة سواء في الدخول إلى البلاد او الخروج منها . ولا يجري عادة اي تحقيق في الهويات على الاطلاق . فالقادم يقول بكل بساطة إلى اين سيذهب فيرفع الحاجز وينطلق بسيارته . وهذا يجري مع القادمين إلى يوغوسلافيا من بلدان اخرى . ومثل هذه الحرية تعطى للمواطنين اليوغوسلافيين المتوجهين إلى الخارج .ومثالا لذلك ، فان هنالك عمال مناجم كثيرين يغادرون يوغوسلافيا للعمل بعض الزمن في المانيا الغربية . فهؤلاء يخبرون حارس الحدود انهم ذاهبون للحصول على بعض المال لشراء سيارة فيسمح لهم بالخروج حالا » .

فأثارت هذه الطريقة في معالجة مشكلة رقابة الحدود اهتمامي وفضولي . وعندما رجعت إلى بلادي ابلغت ذلك إلى الرفاق الذين كانوا يشرفون على السياحة . وقلت لهم ان يفكروا في ذلك . وشرعنا ايضاً في تنفيذ برنامج كبير لبناء الفنادق ولاستغلال ما لدينا من المشوقات لاستجلاب السياح إلى بلادنا .

وفي اثناء حديث آخر مع الرفيق تيتو سألته : « هل تسمح لنا بان نرسل رجالنا ليتعلموا من اختباركم الكبير في السياحة ؟ »

فاجاب تيتو قائلا : « طبعاً ، وانه ليسرنا ان نريهم ونبلغهم كل شيء يهمكم ان يطلعوا عليه . ان السائح العادي الذي يجيء إلى هنا ليس صاحب ثروة وليس رأسمالياً كبيراً . انه عادة من الطبقة العاملة من المانيا الغربية او ايطاليا ولديه دخل متوسط . ولذلك فمعظم السياح لا يجلبون معهم مبالغ كبيرة من المال لينفقوها ويذهبوا ، بل هم يستعملون خدماتنا ويدفعون ما عليهم بالنقد الاجنبي » . ثم اني سألت الرفيق تيتو ايضاً اذا كان لديهم مشكلة صغار الباعة من الشبان

والشابات الذين يطاردون السياح محاولين بيعهم جميع انواع الحلى الصغيرة والزخارف وخصوصاً حول الفنادق وقلت : « اننا في بلادنا نشعر بالخجل من جراء ذلك » .

فقال : «ليس عندنا في الحقيقة ، مثل هذه المشكلة . ذلك انه عندما تدرج اية سلعة بين شعبنا وتصبح شائعة ، نبادر إلى ابتياع المعدات اللازمة لصنعها ونشرع في انتاجها محلياً . ان اذواق المستهلكين تتبدل دوماً ، على ان كل ما نفعله هو تدبير الأمر عقلانيا ، فنعمل للتأكد من ان صناعتنا تجاري تقلبات الازياء ، وتتكيف بصورة مستمرة وفق ما يطلبه المستهلك » .

فاقترحت على رفاقي ان نحذو في بلادنا حذو الرفيق تيتو وننسج على منواله ، ونضع حداً للعار الذي يلحق بنا من تراكض شبابنا وراء السياح .

واني لا اعلم أي اقتراحاتي وضع فعلا موضع التنفيذ . غير اني أظن اننا ارسلنا بعض الاشخاص إلى يوغوسلافيا لدرس الشؤون السياحية . واني ارى من الصحف ان عدداً كبيراً من الفنادق قد انشيء في الاتحاد السوفياتي .

ان اختباراتي مع الرفيق تيتو دلتني على وجود طرق مختلفة في الخارج لبناء الاشتراكية . وليس ثمة قالب واحد يلائم احتياجات جميع بلدان العالم ، وان الظن بوجود مثل هذا السبيل المفرد هو مجرد جهل وبلاهة . ان كل حزب يعرف ما هو افضل السبل لتأمين الوحدة بين صفوفه . ان مزيداً من الصبر هو المطلوب ازاء الاحزاب في اختباراتها لاساليب تختلف قليلا في مواجهة مشاكل الشعب الاساسية .

ومن المفروض تمكين كل طبقة عمالية من اختيار طريقها الخاص للنهوض والتقدم على اسس الظروف الاقتصادية التاريخية والمحلية . وذلك بالطبع ضمن شرط واحد هو ان تكون وسائل الانتاج والمصارف ملكاً للشعب وان تدار شؤون الدولة من قبل ديكتاتورية البروليتاريا . ومفروض ان يسود التسامح علاقات التفاعل المتبادلة مع الاحزاب والدول المختلفة ، وان يرحب صدرنا نحو الآخرين وان نتجنب التحدث عن عيوبهم وخصوصاً علناً وفي الاماكن العامة . على ما يدعو إلى الأسف انه أحياناً يتعذر علينا ضبط انفسنا . الا انني لن اورد هنا امثلة على ذلك . ان اهل الادراك التفكير الحسن جميعاً يعلمون حق العلم من هم الذين اشير اليهم في حديثي هذا .

١٣

مؤتمر القمة في جنيف

في بلغراد وجد خروشوف نفسه يلتقي لأول مرة رئيس دولة أجنبية ، ويتعرض لتفحصات ديبلوماسيين وصحافيين أجانب بعيداً عن قواعده المألوفة . وفي جنيف بعد ذلك بشهر أو شهرين اجتمع للمرة الأولى بزعماء الدول الامبريالية : الرئيس ايزنهاور والسيدين ايدن وفور ، ناهيك بجون فوستر دالاس . وكان ذلك امتحاناً خطيراً إلى جانب كونه نقطة تحول هامة . فالفلاح الذي نشأ في كالينوفكا — والزعيم الحزبي الذي شق طريقه صعداً في ظل ستالين كان يجتمع الان وعلى مستوى الند للند برؤساء العالم الغربي المنتخبين وذوي الخلفيات الثقافية من «وست بونت» «وايتون» «واكسفورد» «والليسيه» «والسوربون» .

وكان خروشوف وبولغانين ما زالا يرتديان الملابس التي ارتدياها في زيارتها ليوغوسلافيا — أي البدلات الصيفية البنفسجية الباهتة الفضفاضة والسراويل الواسعة والمعاطف الصيفية المتدلية إلى الأرض فظهرا في هيئة سائق سيارة قبل حرب ١٩١٤ (وبعد جنيف أخذت الزعامة السوفياتية تهتم بحسن الهندام) .

ويعطي خروشوف هنا فكرة نابضة بالحيوية عما عاناه من توتر وغربة ومركب نقص . وكان شعوره ، مثلا ، بالارتباك والحيرة حول طائرة «اليوشن» ذات المحركين التي جاءوا عليها من موسكو ، يدل على أشياء كثيرة في نفسه .

ظل ستالين حتى وفاته يقول لنا « سوف ترون ، عندما اذهب ستدق الدول الامبريالية اعناقكم مثلما تدق اعناق الدجاج » . ولم نحاول من جهتنا ، ولا مرة ، ان نطمئنه إلى اننا سنكون قادرين على تدبر امورنا ، اذ كنا نعلم ان لا فائدة من مثل هذا الايضاح . فضلا عن ذلك ، فقد كانت تساورنا الشكوك حول سياسة

ستالين الخارجية . فقد كان يبالغ في تأكيد اهمية القوة العسكرية ، وبالتالي في اعتماده الكلي على قواتنا المسلحة . وعاش في رعب دائم من هجوم العدو . وكانت السياسة الخارجية في نظره تعني الاحتفاظ بوحدات جوية حول موسكو في حالة استنفار طيلة اربع وعشرين ساعة مستمرة .

وبعد وفاة ستالين واجهنا تحدياً مثيراً في محاولتنا التعامل مع الدول الاجنبية بانفسنا . وفي ١٩٥٥ ذهبنا إلى الخارج عدداً من المرات للاجتماع بممثلي الدول البورجوازية ولجس نبضهم حول مختلف القضايا . وقد اتاحت رحلتنا إلى جنيف لرؤساء الدول البورجوازية فرصة امتحاننا وتفحصنا . وكان اجتماع جنيف محكاً عصيباً لنا . هل سنكون قادرين على تمثيل بلادنا تمثيلا صحيحاً ؟ هل نواجه الاجتماع برصانة مجردة عن الآمال الخيالية ، وهل سنتمكن من منع الجانب الآخر من تخويفنا والتهويل علينا ؟

اقول ، بعد حساب كل ما حصل ، اننا قد اجتزنا فعلا التجربة . ولا بد لي هنا من كلمة حول المقدمات التي ادت إلى اجتماع جنيف : فمنذ القى تشرشل خطابه في فولتون داعياً البلدان الرأسمالية في العالم إلى تطويق الاتحاد السوفياتي ، تأثرت علاقاتنا مع الغرب (١) . وأظن ان رأي تشرشل كان في الواقع يتلخص في ان على الدول الغربية المبادرة بسرعة بعد وفاة ستالين إلى فتح خطوط الاتصالات مع الاتحاد السوفياتي . وكان تشرشل يدعو الغرب إلى استغلال عدم تشكيل الحكومة السوفياتية الجديدة تشكيلا كاملا ، مما جعل وضعنا اكثر عرضة للتأثر بالضغط . وكانت الصحف الغربية قد امتلأت فجأة بدعوة ملحاحة لعقد اجتماع بين الدول الاربع الكبرى . وكنا نحن نؤيد انعقاد مثل هذا الاجتماع . وكان يخالجنا شعور ان بعد تلك الحرب الدامية ، نحن والغرب ، قد نستطيع التوصل إلى التفاهم والاتفاق في ما بيننا على مبادىء معقولة للتعايش السلمي وعدم التدخل في شؤون الدول الاخرى الداخلية .

وتم الاتفاق بالطرق الدبلوماسية على ان يكون مكان انعقاد الاجتماع في جنيف ، وحدد صيف ١٩٥٥ موعداً لانعقاده . وكان بولغانين قد أصبح في ذلك الوقت رئيساً لمجلس الوزراء . واني اعتقد ان من الاسباب التي حملتنا على الموافقة

(١) من المفيد هنا ان نلاحظ كيف يستخدم عبارة «تطويق» للدلالة على السياسة الاميركية المعروفة بسياسة «الاحتواء» والتي اعتمدت بعد ان تم فرض «السفوتة» على القسم الأكبر من أوروبا الوسطى وشرقي أوروبا .

على اجتماع جنيف هو ان مالنكوف كان حينئذ قد اعفي من منصبه كرئيس مجلس الوزراء . وبوسع كل من عرف مالنكوف ان يعترف بانه ، بعد وفاة ستالين ، فقد كلياً روح المبادرة ، وبات لايمكن مطلقاً التكهن بما يقوله ويقوم به . وبدا ضعيفاً ومتقلباً إلى حد الخطورة ، نظراً لسرعة تأثره بضغط الآخرين ونفوذهم. ولم يكن من باب الصدفة انه سقط في براثن بيريا . ومع ان بيريا قد لا يكون اذكى من مالنكوف ولكنه كان اكثر دهاء معه واقوى ارادة .

وكان بولغانين بصفته رئيس الوزراء سيتولى رئاسة الوفد إلى جنيف بالرغم من انه لم يكن مطلعاً اطلاعاً كبيراً على السياسة الخارجية ، ولا خبيراً في المفاوضات الدبلوماسية . ولما كان وزراء الخارجية في الحكومات الثلاث الاخرى ، وهي الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ، سيكونون مرافقين لرؤساء تلك الحكومات ، فقد قرر البريزيديوم واللجنة المركزية ارسال وزير خارجيتنا مولوتوف كما تقرر انضمامي انا إلى الوفد . وقد حذرت من انه قد يتعذر على الوفود الاخرى ادراك الداعي لوجودي لانني لا اتقلد منصباً وزارياً واني فقط امثل الحزب (بوصفي سكرتيره الأول) . فرد مولوتوف على ملاحظتي قائلا : « ان من شأننا نحن دون سوانا ان نقرر من نضم إلى وفدنا . ثم انك عضو في بريزيديوم السوفيات الاعلى الذي هو اعلى هيئة حاكمة في الاتحاد السوفياتي . ولذلك ارى انك ينبغي ان تذهب معنا ». واني لا ازال حتى الآن غير متأكد اذا كان ذهابي إلى جنيف آنذاك كان مناسباً او غير مناسب . ولكنني لا انكر انني كنت متشوقاً إلى الالتقاء بممثلي الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا وفرنسا ، وان اشترك في حل المشاكل الدولية .

كانت السياسة السوفياتية الخارجية في ذلك الوقت تدعو الى التعايش السلمي على ان الزعماء الغربيين كانوا يهجسون بامور اخرى . فقد ارادوا ان يتوصلوا إلى عقد اتفاق ضمني على شروطهم معنا حول الوضع السياسي في الشرق الاقصى . فلم تكن لديهم رغبة في ان يعيروا اي اهتمام لمصالح او رغبات الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الاخرى . وقد كان هدفهم ايضاً ، بالطبع ، ان يعيدوا الرأسمالية إلى البلدان التي كان قد حررها الجيش السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية ، فضلا عن سلخ بولونيا عن الكتلة الاشتراكية . غير اننا كنا نعلم ان الهدف الأول الذي يسعى الانكليز والاميركيون والفرنسيون لتحقيقه هو ما كانوا يسمونه « باعادة توحيد المانيا » والذي كان بالحقيقة يعني طرد القوى الاشتراكية من جمهورية المانيا الديموقراطية . وبعبارة اخرى تصفية الاشتراكية في جمهورية المانيا الديموقراطية وخلق المانيا رأسمالية واحدة تكون ، بدون ريب ، عضواً في الحلف الاطلسي (ناتو) . اما بصدد موقفنا من هذه القضية

فكان يختصر برغبتنا في توقيع معاهدة صلح تعترف بوجود الدولتين الالمانيتين وتضمن تطور كل واحدة منهما على النحو الذي يراه شعبها موافقاً .

اما انا فقد كنت اشعر ان المهم والرئيسي هو حفظ السلام . غير ان الدول الغربية كانت لا تزال مترددة في اتخاذ حتى التدابير الاساسية الضرورية لارساء اسس صحيحة لسلم مضمون . من هنا كان محتماً على اجتماع جنيف الفشل حتى قبل انعقاده . غير انه كانت له فوائده في عدد من النواحي المهمة . فقد اتاح لزعماء الدول الكبرى الاربع فرصة ان يرى كل منهم الآخر عن كثب ، وان يتبادلوا على الموائدبصورة غير رسمية وجهاتالنظر في ما بينهم .

وكان مما يدعو إلى الاسف ان وفدنا وجد ذاته في وضع غير موآت منذ اللحظة الأولى التي هبط بها في مطار جنيف . ذلك ان وفود الدول الثلاث الاخرى جاءت في طائرات ذات اربعة محركات بينما وصلنا نحن في طائرة اليوشن متواضعة ذات محركين (ال — ١٤) . كانت طائراتهم بالتأكيد ادعى للاعجاب من طائرتنا ، والمقارنة في هذا المجال كانت محرجة .

واقيمت حفلة على شرف الوفود الأربعة في المطار بدأت بعرض عسكري كان رئيس كل وفد يأخذ دوره في استعراض حرس الشرف . وهنا وقعت حادثة غير سارة في اثناء هذه الحفلة . وذلك ان بولغانين ، بوصفه رئيس وفدنا ، كان عليه ان يتقدم إلى الامام ويستعرض حرس الشرف (١) وفيما هو يستعد لذلك ، تقدم فجأة ضابط بروتوكول سويسري ووقف امامي تماماً وظهره يلاصق انفي ، فكان اول ما خطر لي هو أن ادفعه من طريقي . ولكنني علمت في ما بعد انه انما فعل ذلك عملا باوامر الحكومة السويسرية التي ارادت ان تمنعني من السير مع بولغانين لعرض الجنود ، اذ لم يكن مسموحاً ان افعل ذلك بموجب البروتوكول . غير ان طريقتها بايقاف ذلك الضابط امامي كان فيها كثير من الخشونة وعدم التهذيب .

وبينما كنا في طريقنا بالسيارات إلى مقر اقامتنا ، رأيت ان حرس ايزنهاور الخاص كان ينطلق راكضاً وراء سيارته . فادهشني ذلك المشهد المستغرب جداً . فكيف يمكن للسائر اللحاق بسيارة مهما ابطأت في سرعتها . وبعد هذا باربع سنين شهدت ذلك مرة اخرى عندما قابلني ايزنهاور على المطار في واشنطون في بداية

(١) لا يزال خروشوف يزعم أنه لم يكن على رأس الوفد السوفياتي . والحقيقة انه راعى في حركاته كلها تقديم بولغانين عليه ، غير ان مركزه البارز كان واضحاً لدى الجميع .

زيارتي لاميركا . وهنا ايضاً كان هؤلاء الشبان المتحمسين من افراد حرسه الخاص يركضون وراء السيارة التي نقلتني إلى المدينة .

لم يكن اجتماع جنيف اول مرة اجتمعت فيها مع ايزنهاور فقد اجتمعت به في نهاية الحرب عندما جاء إلى موسكو ووقف على منصة نصب لينين لمشاهدة عرض النصر في ٢٤ جزيران ١٩٤٥ . غير ان ذلك كان في تاريخ مبكر في حياتنا العامة . فقد كان ايزنهاور جنرالا وكنت انا رئيس الحزب الاوكراني والدولة . وها نحن الان في جنيف ، بعد ذلك بعشر سنين نلتقي مرة اخرى كممثلين لبلادنا . لقد وقفنا من قبل جنباً إلى جنب على منصة العرض . والآن كان علينا ان نجلس على جانبين متقابلين حول مائدة المفاوضات وجهاً لوجه .

اذا كان لي ان اقارن بين الرئيسين الاميركيين اللذين تعاملت معهما —ايزنهاور وكينيدي — فان المقارنة لن تكون في مصلحة ايزنهاور . فرجالنا الذين كانت مهمتهم ان يدرسوا ايزنهاور عن كثب قالوا لي انهم يعتبرونه قائداً عسكرياً عادياً ورئيساً ضعيفاً . لكنه كان رجلا طيباً ، ودمث الطبع . والذي اكتشفته في جنيف انه كان يعتمد اكثر من اللزوم على مستشاريه . وكان يبدو لي جلياً ان وجوده رئيساً للولايات المتحدة كان عبئاً ثقيلا عليه .

كانت محادثاتنا مع الوفد الاميركي بصورة عامة بناءة ومفيدة للجانبين ، على الرغم ان اياً منهما لم يبدل موقفه جوهرياً حول اية قضية من القضايا التي تواجهنا. فالولايات المتحدة في تلك الاثناء رفضت حتى ان تبدي تساهلا حول اكثر القضايا عدلا وعقلانية ، لان جون فوستر دالاس كان لا يزال حياً ، وكان هو الذي يقرر سياسة الولايات المتحدة الخارجية لا الرئيس ايزنهاور . وتأكيداً لهذا القول استطيع ان اصف شيئاً لاحظته في احدى الجلسات العامة في جنيف .

كان كل من رؤساء الوفود الاربعة قد اخذ دوره في رئاسة الجلسات . وعندما جاء دور ايزنهاور وقف دالاس إلى يمينه وكنت انا جالساً إلى يسار بولغانين ، مما جعلني إلى يمين دالاس او ربما كان هنالك مترجم بيننا . ومهما يكن من امر فقد رأيت دالاس يدون كلاماً على ورقة بقلم رصاص ثم ينزع الورقة من دفتره ويدسها تحت يد ايزنهاور ، فيلتقط ايزنهاور تلك الوريقات ويفتحها ويقرأها قبل اتخاذ اي قرار حول اي موضوع يطرح للبحث . وكان يسير على هذا النمط بكل دقة ، كما يفعل الطالب الصغير عند تلقي الاوامر من معلمه . وقدكان من الصعب علينا ان نتصور كيف ان رئيس دولة يستطيع ان يسمح لنفسه ان يستسلم لسواه على هذا النحو امام وفود بلدان اخرى . فقد بدا بشكل لا يطرق اليه الشك ان ايزنهاور كان يترك لدالاس ان يدرس ويفكر بالنيابة عنه .

وهنا اورد كلمة عن دالاس . فبعد بضع سنين عندما رئست الوفد السوفياتي إلى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة في نيويورك سألني السيد نهرو عن رأيي بدالاس وكيف كانت حالنا معه في مؤتمر جنيف . واني اذكر لهذه المناسبة ان نهرو كان الطف واحب شخص عرفته . فقد كانت الابتسامة لا تفارق ثغره وكان وجهه يطفح بالبشر والايناس . ولم يدهشني سؤاله فاجبته باني تحدثت مع دالاس بصورة غير رسمية حول مائدة الطعام في جنيف فوجدته شخصاً ذا طباع جافة ولذلك لم يدر بيننا حديث الا عن انواع الطعام .

كان دالاس غالباً ما يردد ان هدف الولايات المتحدة هو ارجاع الاشتراكية في اوروبا إلى حدود الاتحاد السوفياتي . وكان يبدو ان فكرة التطويق هذه مستحوذة عليه إلى درجة الهوس . وقد توسع دالاس في الحظر الاقتصادي الاميركي المفروض على الاتحاد السوفياتي ، فجعله يشمل مقاطعة التبادل الثقافي . حتى انه لم يكن يسمح للسياح السوفيات ولاعبي الشطرنج القيام بزيارة الولايات المتحدة . واني أذكر ايضاً انه عندما عقدت الولايات المتحدة مؤتمراً دولياً للطهاة برعايتها لم يسمح لوفد الطهاة السوفياتيين بحضوره .

الا انني اسجل ما يلي لمصلحته : ان دالاس عرف الحد الذي يستطيع دفعنا اليه ولم يدفعنا ، ولا مرة ، أبعد منه . مثال على ذلك انه عندما تواجهت قوات بلدينا في الشرق الادنى في احداث سوريا ولبنان في ١٩٥٨ تراجع دالاس عن شفير الحرب . فقد انسحبت قوات الولايات المتحدة وانكلترا الرجعيتين بفضل ضغط الرأي العام العالمي جزئياً ولكن بعض الفضل يعود إلى حكمة دالاس وحصافته ، فتعزز مركز الاتحاد السوفياتي في سائر البلدان التقدمية في العالم .

وعندما توفي دالاس قلت لاصدقائي : انه على الرغم من انه عاش على كره الشيوعية ، ورغم مقته لكل تقدم ، الاانه لم يتجاوز على الاطلاق ذلك الحد الذي كان دوماً يذكره في خطبه . ولهذا السبب وحده ينبغي ان نحزن لموته .

ولما كان ايزنهاور قد جلب معه وزير الدفاع (شارلس ولسون) إلى جنيف في ١٩٥٥ ، فقد حرصنا نحن على ان يضم وفدنا وزير دفاعنا الماريشال جوكوف . وكان جوكوف من اصدقاء ايزنهاور ابان الحرب . واعتقدنا ان تعارفهما السابق قد يساعد في وضع اسس مباحثات قد تؤدي إلى تخفيف التوتر بين بلدينا . وكنا نأمل ان ايزنهاور وجوكوف قد تتاح لهما فرصة للتحدث معاً على انفراد ، وانهما قد يتبادلان وجهات النظر حول ضرورة التعايش السلمي . غير ان ذلك الهر الخبيث دالاس كان يحوم دائماً حول ايزنهاور ويزجره اذا ما شعر انه قد تخطى الحدود المرسومة . وكان دالاس لا يطيق فكرة التعايش السلمي مع الاتحاد السوفياتي .

واظهر ايزنهاور الكثير من المشاعر الودية نحو جوكوف وقدم له هدية وحمله تحية شخصية إلى زوجته وابنته . ولكن ما عدا هذه المجاملات لم تسفر محادثات جوكوف مع ايزنهاور عن شيء .

وبعد ان اصبحت اجتماعات جنيف تواصل سيرها العادي ، اقترح ايزنهاور ان نلتقي بعد كل جلسة عامة لتناول المرطبات فننهي يومنا في جو لطيف . وكانت فكرته انه اذا كان قد صاحب جلسات النهار اي انقباض او توتر فقد نستطيع غسله بكأس من المارتيني . واني لاذكر انه في احدى هذه اللقاءات غير الرسمية قدمني ايزنهاور إلى نلسون روكفلر الذي كان مرافقاً للوفد الاميركي بصفة مستشار . ولم يكن هنالك شيء خاص يتميز به على ما استطعت ان ارى . فقد كان ديمقراطي الملابس وهو من ذلك الصنف من الرجال الذين لا يتركون اثراً كبيراً في النفوس (١) . وعندما التقيت به قلت « اذن هذا هو السيد روكفلر بشحمه ولحمه » . ولكزته مداعباً في خاصرته بقبضة يدي فتقبل المداعبة وقابلني بمثلها .

واهتممت بالتحدث إلى روكفلر حول امكانية الحصول على قرض من الولايات المتحدة بنحو ٦ مليارات من الدولارات . غير ان الاميركيين كانوا قد بدأوا فعلا بالالحاح علينا بوجوب تسديد ما نحن مدينون لهم به بموجب قانون الاعارة والتأجير . فأجبنا اننا على استعداد لأن ندفع للاعارة والتأجير مبلغاً معيناً ، لا كل الدين ، شرط ان يوافقوا على منحنا قرضاً بستة مليارات دولار . ودارت بيننا بعض المناقشات حول هذا الأمر غير انها لم تسفر عن نتيجة .

كانت افضل علاقاتنا في جنيف مع الفرنسيين . وكان ادغار فور الذي اطلقنا عليه لقب « ادغار فورودفيتش » لطيفاً وخلاباً جداً . وقد بذل الكثير ليظهر صداقته وحسن ضيافته . على ان الحكومة الفرنسية في تلك الايام كانت عرضة لتبدلات وتحولات سريعة ، لذلك لم يكن من فائدة ترجى من اعطاء اي اهتمام جدي للفرنسيين في اجتماعات جنيف (٢) .

اما علاقاتنا مع الوفد البريطاني وان لم تبلغ الود الذي ساد علاقاتنا مع الوفد الفرنسي الا انها كانت حسنة لاسيما محادثاتنا مع ايدن الذي كان يسير على

---

(١) ان الاشارة إلى نلسون روكفلر «بديمقراطي الملابس» هي دعابة طريفة تلقي بعض الضوء على نظرة السوفيات إلى الغرب .

(٢) ان صرف النظر ، كما يقول خروشوف ، من أخذ السيد فور على محمل الجد ، مع حبه له ، بحجة سرعة تبدل الوزارات الفرنسية ، تسجيل للحدود التي لا تتعداها ذهنية الحكومة السوفياتية .

السياسة العامة نفسها التي يقول بها الاميركيون غير انه كان يبدو اكثر مرونة منهم وانفتاحاً لتقبل الحجج المعقولة . وفيما كنا نتناول طعام العشاء ، مساء احد الأيام سألني ايدن : « ما رأيك لو دعيت لتقوم بزيارة رسمية إلى بريطانيا العظمى ؟ الا ترى ان مثل هذه الرحلة قد تعود بالفائدة على الحكومتين ؟ »

فقلت : « قد تكون حقاً مفيدة . » وكدنا نتفق . وكان على البريطانيين ان يوجهوا دعوة رسمية لنا لقبولها .

وعند انتهاء اجتماع جنيف وضعنا بياناً مشتركاً يوضح موقف الوفود الأربعة . وقد صيغ هذا البيان باسلوب يترك لكل وفد امكانية تفسيره على طريقته الخاصة . وكان نصه نتيجة اتفاقات وتسويات متعددة ، مما سمح لنا جميعاً توقيعه ، لاننا لم نكن لنريد ان نفترق دون ان نبدي شيئاً يدل على نتائج ايجابية. ومن الناحية الاخرى لم يرد اي منا ان تفسر اية نقطة من البيان على انها تنازل عن مبدأ او سياسة لمصلحة الجانب الآخر .

وقد توقفنا في برلين الغربية بطريقنا إلى بلادنا . وهناك التقينا بزعماء الجمهورية الالمانية الديموقراطية واصدرنا بياناً مشتركاً آخر . وقد استقبلنا في برلين بكل مظاهر التكريم وخرجت جماهير غفيرة تهتف لنا ، وقد زرت انا المانيا قبل الآن ، غير ان هذه كانت اول مرة ازورها بصفة رسمية . كنت اتوقع ان تكون هنالك بعض مظاهر العداء نحونا غير انه لم يحدث شيء من ذلك . كانت هنالك بعض الوجوه العابسة ولكنها لم تكن كثيرة . وعلى العموم ، لقينا ترحيباً حماسياً مما عزز يقيننا بان الالمان ملوا الحرب ، وانهم يريدون الآن ان يقيموا علاقات ودية قوية معنا .

وهكذا عدنا من جنيف ونحن نعلم اننا لم نحقق اية نتائج جدية ، غير اننا تشجعنا اذ ادركنا الان ان اعداءنا يخافون منا على الارجح اكثر من خوفنا نحن منهم . وقد شهروا سيوفهم وحاولوا الضغط علينا لحملنا على القبول باتفاقات هي اكثر فائدة لهم منها لنا ، لانهم كانوا خائفين منا. لقد علموا الان ان عليهم ان يتعاملوا معنا بصدق وانصاف وان عليهم ان يحترموا حدودنا وحقوقنا ، وان ليس باستطاعتهم ان يحصلوا على ما يريدونه بالقوة او بالتهديد والخداع . وادركوا ان عليهم ان يقيموا علاقاتهم معنا على اساس افتراضات جديدة وامال جديدة ، اذا كانوا حقيقة يريدون السلام . ان اجتماع جنيف كان انتصاراً لنا على الصعيد الدبلوماسي . فقد اثبتنا مقدرتنا على الصمود والمحافظة على مواقعنا في الميدان الدولي . جاءت دعوة ايدن لنا للقيام بزيارة رسمية إلى بريطانيا مؤكدة نجاحنا ودليلا صريحاً عليه .

١٤

زيارة لندن

في غضون المدة التي سبقت زيارة خروشوف وبولغانين الى لندن في ربيع ١٩٥٦ ، كان خروشوف قد زار بكين في ١٩٥٤ ، وقام برحلته الشهيرة إلى الهند في ١٩٥٥ ، ومر ببلغراد ، وسافر إلى جنيف ، فصار سائحاً ناضجاً مدرباً على الاسفار . وكان قد أصبح معروفاً في المؤتمر العشرين للحزب وخطبته السرية . وكان بولغانين رئيس الوزراء ، ولكن بات واضحاً ان خروشوف هو الذي يمسك بزمام القيادة رغم أنه حتى صيف ١٩٥٧ ، لم يكن قد كسر بعد شوكة المعارضة وحطم مالنكوف ومولوتوف وكاغانوفيتش وغيرهم نهائياً .

ولا يذكر هنا خروشوف الحقيقة بأن مالنكوف بقي عضواً في بريزيديوم الحزب بعد أن تخلى عن رئاسة الوزراء وقام حينئذ بزيارة موفقة إلى انكلترا ، قبل زيارتهما ، فمهد الطريق ، وجس نبضات كل البلاد .

وقد طرأ ما شوه زيارة خروشوف وبولغانين اذ أوفد الجنرال سيروف رئيس الشرطة السيء السمعة للاشراف على تدابير الأمن أثناء زيارتهما . فطلعت الصحف البريطانية حافلة بالاحتجاج الصارخ ، مما اضطر سيروف إلى الرجوع إلى الاتحاد السوفياتي . أما خروشوف فلم يستطع أن يدرك لماذا البريطانيون لم يكونوا راضين عن سيروف .

كانت حكومة العمال التي حكمت انكلترا بعد الحرب لا تبدي صداقة نحو الاتحاد السوفياتي . وما بذلناه من الجهود لاقامة علاقات تجارية حسنة لم تنجح كثيراً . وكانت علاقاتنا مع بريطانيا العظمى قد تحسنت قليلا بعد وفاة ستالين ، عندما زارنا وفد حزب العمال وفتحوا معنا مباحثات في شؤون مختلفة . ثم حل المحافظون

محل العمال وصار ايدن رئيساً للوزراء (١) . وكنا نعتبر ايدن رغم نزعته المحافظة ، تقدمياً إلى حد ما . وكنا لا نزال نذكر مع التقدير انه عندما كان وزيراً للخارجية قبل الحرب ، ايد معاهدة توحد القوات البريطانية والسوفياتية ضد المانيا الهتلرية . وكان ايدن قد استقال عندما بدأ تشمبرلين سياسته الهوجاء المعادية للسوفيات والرامية إلى تحريض هتلر ضدنا (٢) . لذلك فان عودة ايدن إلى الحكم بعثت فينا الأمل بامكانية تحسين علاقاتنا مع بريطانيا العظمى .

وبعد ان اتفقنا مع ايدن في جنيف على القيام بزيارة رسمية إلى انكلترا ، اتخذنا التدابير اللازمة عن طريق تبادل المذكرات الدبلوماسية ، وتقرر سفر وفدنا إلى لندن في شهر نيسان ١٩٥٦ . وينبغي ان يكون الموعد الذي حدد هو منتصف نيسان لأنني اذكر جيداً ان الاحتفال بذكرى مولدي جرى في الطريق إلى انكلترا . ومولدي هو في ١٧ نيسان .

كان بولغانين لا يزال رئيساً لمجلس الوزراء ، ولذلك فقد كان هو رسمياً رئيساً للوفد (٣) . وقد جرى ضمي إلى الوفد لانني كنت توصلت الى علاقات جيدة مع ايدن في جنيف . وكان قد تحدث معي اكثر مما تحدث إلى اي شخص آخر . واصطحبنا معنا ايضاً إلى لندن الاكاديمي كورشاتوف ، لاننا كنا نريد ان ننشيء اتصالات مع الاوساط العلمية البريطانية (٤) . وكان كورشاتوف رجلا جذاباً ، ذكياً ، ظريف المعشر ، إلى جانب كونه عالماً لامعاً .

سافرنا إلى انكلترا على طراد حربي ، لكي يتسنى لنا بعد ذلك ان نستقل القطار إلى لندن . وبهذه الطريقة تتيسر لنا مشاهدة اكثر قدر من البلاد الريفية . وقبل ان نترك روسيا سألتنا السفارة البريطانية في موسكو اذا لم يكن لدينا مانع من السماح لاحد الملحقين البحريين فيها بمرافقتنا في الرحلة . فوافقنا على ذلك .

---

(١) كان تشرشل رئيساً للوزراء عندما عاد المحافظون إلى الحكم . وقد خلفه ايدن بعد ذلك .

(٢) من الاسباب الرئيسية لاستقالة إيدن من منصبه كوزير للخارجية ، المحاولة التي قام بها تشمبرلين لاسترضاء موسوليني لفصله عن ألمانيا . لم يفعل تشمبرلين شيئاً لكي «يحرض هتلر» ضد روسيا ، لأن هتلرلم يكن في حاجة إلى التحريض . وكانت سياسة تشمبرلين ترمي إلى استرضاء هتلر بالسماح له بضم قسم من تشيكوسلوفاكيا . وعندما لم ينجح هذا المسعى بذل في الواقع محاولة فاترة لتحقيق تحالف من أي نوع مع روسيا .

(٣) كان خروشوف في الواقع هو رئيس الوفد .

(٤) ا.ف. كورشاتوف ، العالم الذري الشهير .

ولقد ساور بعضنا القلق بان الملحق البريطاني قد يسعى وراء الاسرار الحربية والمواصفات التقنية على ظهر الطراد . على ان مثل هذه الغباوة كانت من رواسب العهد الستاليني . وقد ظهر ان الملحق البحري الانكليزي كان حسن الاخلاق ظريف المعشر . وفي ١٧ نيسان ، وهو يوم ذكرى مولدي ، قررنا ان ندعوه لتناول العشاء مع وفدنا . وقد شربنا ، طبعاً ، كؤوس الخمر ، فاظهر الرجل الانكليزي ان له ذوقاً رفيعاً فيها . والواقع انه افرط في الشراب إلى حد كاد لا يستطيع الرجوع إلى حجرته ، فكيف يرجى منه التجول على ظهر السفينة باحثاً عن الاسرار العسكرية ؟ وبعد ذلك مزحت مع ايدن حول ذلك الموضوع . فسألني قائلا : « هل احسن ملحقنا العسكري السلوك على ظهر سفينتكم ؟ » .

– لقد أحسن السلوك كثيراً . لقد مثل بريطانيا العظمى ، باخلاص وكفاءة .

– هل تعني بهذا انه تجسس عليكم ؟ هل تجول في سائر انحاء السفينة فاحصاً كل شيء ؟

– آه ، نعم . كان مدهشاً . ظل يعصر جسمه ويضغطه حتى دخل في زوايا لا تستطيع حشرة البق ان تجد متسعاً لدخولها . وقد شاهد كل ما يجب مشاهدته !

فضحك ايدن ، ولا اعلم اذا كان احد اخبره من قبل عن درجة السكر التي وصل اليها الملحق . ومهما يكن من امر ، فقد كان مستعداً لان يمزح مع بولغانين ومعي عنه .

وعندما بلغت سفينتنا الميناء في انكلترا جرى لنا استقبال حافل بكل مظاهر التكريم العسكرية . واطلقت المدافع تحية لنا واخذنا القطار إلى لندن واستطعنا ان نرى من البلاد اكثر كثيراً مما استطعنا رؤيته من سويسرا ، باستثناء جنيف . ولم اكن قد ذهبت إلى الخارج من قبل . واول ما انطبع في نفسي عن انكلترا ، تلك البيوت الصغيرة المبنية بالاجر الاحمر ، لانها ذكرتني بمثل ذلك العدد الكبير من البيوت التي كنت قد رأيتها في طفولتي في دونباس . فقد كان والدي يعمل في منجم قريب من مصنع يوزوفكا الذي كان في وقت ما ، يملكه رجل من ويلز اسمه جون هيوز (١) . وكان هيوز قد بنى لعماله الفنيين او المديرين بيوتاً صغيرة من الاجر الاحمر تشبه تماماً تلك البيوت التي رأيتها في زيارتي لانكلترا . واني لاذكر اننا في ايام الصيف في دونباس كنا لا نرى سوى نوافذ تلك المنازل لانها كانت مغطاة بنبات اللبلاب .

---

(١) – يوزوفكا – أو هيوز – اوفكا وقد اطلق عليها هذا الاسم تيمناً باسم جون هيوز .

وكان الفندق الذي حللنا فيه في انكلترا ممتازاً والخدمة فيه حسنة جداً . وكان كل هذا جديداً علينا ، اذ لم نكن على اتصال كثير مع الاجانب من قبل . واظن اننا تركنا انطباعاً حسناً في نفوس السكان المحليين . واني لاذكر اننا مرة كنا ننتقل إلى فندقنا في سياراتنا ، فبدأ اللندونيون حالا يتجمهرون حولنا . وقد اعجبوا على الاخص ، بالاكاديمي كورشاتوف ولحيته . فكان الاولاد الصغار يشيرون اليه ويضحكون ويقفزون بحماسة كما يفعل الصغار في بقية انحاء العالم .

وبعد ان استقر بنا المقام ، بدأنا المباحثات مع زعماء الحكومة البريطانية . كان الفريق البريطاني بقيادة ايدن ولويد ، واظن ان ماكميلان ايضاً اشترك في المفاوضات . ولم تضف محادثاتنا ، في الجوهر ، شيئاً كثيراً إلى ما كان قد اسفر عنه اجتماع جنيف . وكانت القضية الرئيسية لا تزال المانيا ، ونزع السلاح ، والتعايش السلمي . وكنا قبلا قد رأينا ان الغرب لم يكن بعد مستعداً لان يعالج هذه القضايا المهمة معالجة جدية . فالدول الغربية كانت لا تزال تحاول ملاطفتنا لحملنا على القبول بشروطها .

واني لاذكر حادثة سيطرت على جو محادثاتنا في لندن . فقد كان بولغانين ولويد وانا في سيارة واحدة ركبناها لزيارة بعض المعاهد التربوية . فالتفت لويد نحوي وقال : « هل تعلم ، ان عصفورة صغيرة هبطت على كتفي منذ ايام وهمست في اذني انكم تبيعون السلاح لليمن ؟ » فاجبته قائلا : « يظهر ان هنالك جميع انواع العصافير الصغيرة تطير حولنا هذه الايام ، هامسة بشتى الانباء ، لان واحدة منها هبطت على كتفي انا ايضاً وقالت لي انكم تبيعون السلاح لمصر والعراق . وقالت لي هذه العصفورة الصغيرة ايضاً انكم تحاولون ان تبيعوا السلاح لكل من يرغب في شرائه منكم ، وبعض الاحيان حتى إلى الذين لا يريدون الشراء منكم » .

— أظن ان هذا صحيح ، وان هنالك جميع انواع العصافير ، منها ما يهمس في آذانكم ومنها ما يهمس في آذاننا .

— نعم ولكن أليس من الافضل ان تهمس جميع العصافير الصغيرة الانباء ذاتها في آذانكم وآذاننا ، فنتخذ نحن وانتم التزامات متبادلة بان لا نبيع السلاح لاحد؟ وهكذا تقوم هذه العصافير بخدمة للقضية المشتركة التي هي قضية السلام (١) ؟

(١) سلوين لويد وحده يستطيع أن يعلمنا اذا كان هذا الحديث صحيحاً .

كان هذا النوع من الحديث مزاحاً بالطبع . ولا ينبغي ان يفهم منه انه لم تكن احاديثنا واجتماعاتنا جدية مع الانكليز . فقد اتاحت لنا هذه الاجتماعات ، فوق كل شيء ، فرصة لان نوضح موقفنا . وقد كان الغرب يبدي اهتماماً في محادثاتنا للسبب ذاته . زد على ذلك اني اظن ان بريطانيا كانت تهتم اهتماماً خاصاً في منع النزاع الحربي ، وبنوع خاص في الشرق الادنى . فقد ارادوا منا ان نوافق على عدم بيع السلاح لمصر . ونحن كنا على استعداد لذلك من حيث المبدأ ، غير اننا اشترطنا ان يتقيدوا هم ايضاً بعدم بيع السلاح لأي بلد من بلدان الشرق الأدنى.

وفي احد الايام وجه ايدن دعوة إلى بولغانين والي لتناول العشاء في « الداشا » التي يسكنها كما سمينا منزله الريفي . واخبرنا ان احد الاثرياء الرأسماليين وهب هذا المنزل الريفي للحكومة لتستعمله ، على ان يوضع تحت تصرف رئيس الوزراء ، بصرف النظر عن انتمائه الحزبي . وقبل العشاء خرجنا بولغانين وانا لنتمشى معه على الطريق القريب من المنزل . وقد ذكرتني المناظر الطبيعية باراضينا الريفية في اقليمي اوريل وكورسك .

كان منزل ايدن الريفي محاطاً بالزهور من كل صوب . وكانت وسائل التدفئة فيه مواقد من الحديد ، يوقد فيها الفحم الحجري . وكنت اعلم من اختباراتي في دونباس ان الفحم الحجري (الانتراسيت) يحتوي كميات كبيرة من الكبريت . وهذا يوضح سبب انتشار رائحة كريهة وغشاوة لزجة فوق كل شيء في داخل المنزل .

وقد اشترك معنا في تناول العشاء مكميلان ولويد وبعض السياسيين المحافظين النافذين . وكانت زوجة ايدن تمثل دور المضيفة . وكانت سفارتنا قد اخبرتنا انها ابنة شقيقة تشرشل . ويبدو انها ورثت بعض مزايا تشرشل في الميل إلى الخمور . فلم تحرمنا من رفقتها عندما كانت تقدمها . ولكني لا استطيع القول بانها اساءت استعمال هذا التقليد الخاص بتشرشل .

وفي اثناء العشاء ، سألتنا السيدة ايدن قائلة : « اخبروني ، اي نوع من الصواريخ عندكم ؟ هل تطير مسافة بعيدة ؟ »

فقلت : «نعم ، مداها بعيد جداً . فهي تستطيع بسهولة ان تصل إلى جزيرتكم وابعد منها قليلا » .

فعضت على لسانها ، وكان من الفظاظة بمكان ان ارد على سؤالها كما فعلت . اذ لعلها اعتبرته نوعاً من التهديد . مع اننا لم نقصد ان نهدد احداً . كنا فقط نحاول ان نذكر البلدان الاخرى بأننا اقوياء ونستحق الاحترام ، واننا لا نسمح ان يكون التخاطب معنا بلغة الانذارات النهائية .

ودعانا ايدن ، بولغانين وانا ، ان نمضي الليلة في منزله الريفي فارشدونا إلى غرف منفصلة في الطابق الاعلى . وفي الصباح نهضت مبكراً وذهبت إلى القاعة باحثاً عن غرفة بولغانين لكي اوقظه ، فطرقت احد الابواب ظاناً انه باب غرفة بولغانين ، فسمعت صوت امرأة وقد بدا انها مندهشة او خائفة . فادركت انني كدت ان افاجىء زوجة ايدن في غرفتها . فاسرعت عائداً إلى غرفتي دون ان اعتذر او اكشف عن هويتي . وقد ضحكنا ، بولغانين وانا ، على هذه الحادثة غير اننا قررنا ان لا نذكرها إلى مضيفنا .

وفي اليوم التالي كنا على موعد لزيارة الملكة اليزابت . ولم يكن يطلب منا ان نرتدي اي نوع خاص من الملابس . ذلك اننا كنا ابلغنا ايدن سلفاً اننا سنسر لمقابلة الملكة اذا كانت ستستقبلنا بلباسنا اليومي وكانت لدينا بعض المعرفة بمثل هذا النوع من الحفلات الرسمية . ولم نكن نريد ان نزعج انفسنا بلبس البدل الرسمية ذات الذيول والقبعات العالية وما إلى ذلك لكي نحظى بمقابلة الملكة . واني لاذكر اننا كنا مرة في موسكو نتفرج على فيلم ظهر فيه انستاس ايفانوفيتش ميكويان في باكستان فاغرقنا جميعاً في الضحك من منظره . فقد بدا حقيقة شبه جنتلمان اوروبي من الطراز القديم . واستطيع القول ان المظاهر الغربية المطلوب من الدبلوماسيين الاجانب ان يظهروا بها لم تكن غريبة عن انستاس ايفانوفيتش .

ومهما يكن من امر فقد وصلنا إلى قصر الملكة في يوم دافىء جميل . واخبرنا ايدن ان شهر نيسان هو افضل ايام السنة واقلها مطراً . وكانت جماهير من السياح يتفرجون على جنينة القصر . واخبرنا ايدن اننا سنجد الملكة امرأة بسيطة ، ولكن ذكية ، ولطيفة جداً . فاستقبلتنا عند دخولنا القصر ، ومعها زوجها واثنان من اولادها . فقدمونا اليها ، وكانت ترتدي فستاناً بسيطاً ابيض ، فبدت شبيهة بالنساء اللواتي تشاهدهن سائرات في شارع غوركي بعد ظهر احد ايام الصيف اللطيفة .

وسمحت لنا بالطواف في ارجاء القصر ، ثم دعتنا لتناول كأس من الشاي معها (١) . فجلسنا حول الشاي وتحدثنا عن امور شتى ، وابدى زوج الملكة اهتماماً عظيماً بمدينة لينينغراد . فقال انه لم يذهب اليها ، ولكنه يحلم بزيارتها يوماً من الايام . فأكدنا له انها مدينة جميلة واننا فخورون بها . واكدنا له انه من السهل علينا ان نجعل حلمه يتحقق في اي وقت يشاء . وقلنا ان باستطاعته ان يزورنا باية

(١) الروس يشربون الشاي بالكأس .

صفة يريد — سواء كممثل للحكومة او كقائد في الجيش . فشكرنا وقال انه سيقبل دعوتنا اللطيفة عندما تتاح له الفرصة .

اما الملكة فكانت تبدي اهتماماً خاصاً بطائرتنا « تو — ١٠٤ » التي كانت تجلب البريد لنا في اثناء وجودنا في انكلترا . والواقع ان احد الاسباب التي دفعتنا إلى استخدام طائرة « تو — ١٠٤ » هناك هي رغبتنا في اظهار ان لدينا طائرة ركاب نفاثة من نوع جيد . وقد كانت هذه طائرة من افضل طائرات السفر النفاثة في العالم ، واردنا ان يعرف مضيفونا ذلك . وكانت الملكة قد شاهدت الطائرة في الجو عندما حلقت فوق القصر في طريقها للهبوط إلى الارض . فشكرناها ووافقنا معها على انها طائرة ممتازة عصرية جداً وبدون شك افضل ما في العالم .

تركت الملكة اثراً كبيراً في نفسي . فقد كانت لطيفة ، هادئة الصوت ، متواضعة ، مجردة من مظاهر الغطرسة التي يتوقع المرء ان يراها في الاسر المالكة . فهي قد تكون ملكة انكلترا ، ولكنها في نظرنا كانت اولا وفوق كل شيء زوجة لرجلها واماً لاطفالها . واني لاذكر بعد ذلك بمدة من الزمن ، في اثناء رحلة قمت بها لانكلترا ، اني التقيت امرأة انكليزية فقالت لي : « اذن ، لقد اجتمعت بالملكة فما رأيك فيها ؟ » فاجبتها اننا اعجبنا بالملكة كثيراً فهزت المرأة رأسها حزناً وقالت : « انني اشعر بالأسى من اجلها ، فانها لا تعيش حياة سهلة » .

فسألتها : « لماذا تقولين هذا ؟ »

فقالت : « انها امرأة شابة ويرجح انها تود ان تحيا حياة عادية مثل اية امرأة في سنها . غير انها لا تستطيع ذلك لانها ملكة : فهي تعيش في قفص . وهي دائماً معروضة للفرجة ، ويتوجب عليها ان تظهر دائماً في حالة تتفق مع مقامها الملكي . وهذه مسؤولية ثقيلة تجعل حياتها صعبة متعبة . وذلك ما يجعلني اشعر معها بل احزن عليها » .

وقد اعجبت بهذه المرأة . فكل ما قالته عن الملكة كان يدل على شعور انساني واحساس انوثي . ربما كان نكرازوف (ن . ا . نكرازوف شاعر القرن التاسع عشر) محقاً عندما قال : « من في روسيا يعيش مرتاحاً من المتاعب ؟ حتى القيصر نفسه » والشيء ذاته ينطبق على الملكة اليزابت الثانية .

كان بولغانين ، من الناحية القانونية رئيس الدولة ورئيس وفدنا . وكنت انا عضواً بسيطاً في الوفد . غير انني في الواقع كنت اتولى تمثيل بلادنا في المفاوضات مع الانكليز . واني في الحقيقة ما كنت لاريد ان يكون الوضع هكذا . غير ان بولغانين كان يطلب مني دائماً ان انوب عنه . وكان يحدث مراراً، عندما يطلب منا ان نقول شيئاً او ان ندلي ببيان من نوع ما ، ان انتظر بولغانين لان يقول شيئاً .

وبعد فترة صمت مزعجة كان يتلفت نحوي ويقول : « هيا ، قل ما تراه ، واجب على السؤال » . وبطبيعة الحال لم اكن مخيراً ، بل كان يتوجب علي ان اقول انا شيئاً اذا اردنا ان نتجنب الارتباك والحيرة .

واني اضرب هذا مثلا : اقام وزير البحرية حفلة استقبال غير رسمية لنا حضرها كثيرون من مختلف الفئات ، ولكن الاغلبية كانت من ضباط البحرية . ولما كان علينا ان نقرر كيفية الرد على خطاب الوزير ، قال لي بولغانين : « تكلم انت » . فقررت ان القي خطاباً صريحاً قاسياً ، وان اتخذ موقف الهجوم ضد الانكليز ، فقلت : « ايها السادة ، ها انتم هنا تمثلون بريطانيا العظمى . والعالم بأسره يعلم انه كان زمان سادت بريطانيا البحار . غير ان ذلك العهد قد مضى وينبغي لنا الآن ان ننظر إلى الأمور نظرة واقعية . ان كل شيء قد تبدل . لقد ابلغني رجالكم الاخصائيون بمدى اعجابهم بالطراد الذي جاء بنا إلى هنا . انه ليسرنا ان نبيعكم هذا الطراد ، اذا كنتم حقيقة تريدون الحصول عليه لانه اصبح من طراز قديم ، ولا قيمة له . وعدا ذلك ، فان الطرادات التي مثله لا تلعب الآن دوراً حاسماً . ولا قاذفات القنابل تلعب هذا الدور ايضاً . ان الغواصات هي التي تحكم البحار الآن ، والصواريخ هي التي تحكم الفضاء » (١) .

وفي فترة الاسئلة والاجوبة التي تلت كلمتي تناولنا وجهات النظر بصراحة تامة ، ولم يكن احد الطرفين يتورط في اتخاذ اي موقف خاص كما انه لم يهدد او يظهر بمظهر المتجه نحو الحرب . وكان هنالك تيار خفي من التهكم في الاسئلة التي كان يوجهها الانكليز ، وشيء قليل من الضحكات الخافتة .

وعندما اجتمعنا مع ايدن في اليوم التالي سألني باسماً :

— كيف كان حالكم مع بحارتنا ؟

— لديكم بحارة ممتازون ، لهم شهرتهم في العالم كله . ويظهر من ابتسامتك انك علمت بما دار بيننا من مناقشات .

— نعم علمت بها ، وبملاحظاتك ايضاً .

— وما هو رأيك في ملاحظاتي ؟

— انت تعلم انني اميل إلى الاتفاق معك ، غير انني انا رئيس الوزراء ولا استطيع ان اتحدث إلى ضباط بحريتنا بالاسلوب الذي تستطيعه انت ، اي ان

---

(١) هذا في الواقع كان رأي خروشوف في ذلك الزمن . وكما يعلم غير الروس رأيهم هذا وأنشأوا اسطولا عائماً قوياً ، وباشروا ببنائه عندما كان خروشوف لا يزال في الحكم .

اقول لهم ان سفنهم واسلحتهم قديمة وعديمة الفائدة . وعلى كل ، فباستثناء بعض قاذفات القنابل ، فان اسطولنا العام هو كل ما لدينا ، فما رأيك ، هل استطيع ان اتحدث كما تحدثت انت ؟

وقد نشرت الملاحظات التي ابديتها للاميرالية فيما بعد وسط ضجة عظيمة في الصحف الاميركية . وساق الاميركيون كل انواع الحجج ضد ما زعمته بان السفن العائمة وقاذفات القنابل تخطاها الزمن . غير ان الايام حققت ما قلته . والاميركيون يعترفون الان بان قاذفات القنابل فقدت فائدتها وينبغي ان تستبدل بالصواريخ .

كان ايدن قد وضع برنامجاً كبيراً لطوافنا في البلاد فكنا نجوب ونتجول منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل بالسيارات والطائرات . وكانت السرعة مرهقة . وبدأت اظهر عدم ارتياحي . واخيراً ضربت الأرض بقدمي عندما كان من المفروض ان ننطلق لزيارة بعض المدن الانكليزية لنطير بعدها إلى اسكوتلندا . وأخذت ايدن جانباً وقلت له : « يا مستر ايدن ، ان ساقي لا تحملاني خطوة اخرى ، وسوف اعلن الاضراب غداً ، ولن اخطو خطوة واحدة إلى خارج الفندق » .

فضحك وقال : يا مستر خروشوف ، سنتخلى عن المدينة التي كان المفروض ان تزورها اليوم ، ولكن ارجوك ان نستمر في الرحلة إلى اسكوتلندا . الم تسمع عن الاسكتلنديين ؟ انهم قوميون شرسون في تعصبهم ، وسيقضون مضجعي اذا لم تذهبوا إلى اسكتلندا ، ثم انهم يعلنون الثورة وينفصلون عن الكومنولث ؟

فتبادلت مع بولغانين النظرات ووافقنا على الذهاب رغم اننا لم نكن نرى ان الرحلة تستحق ذلك العناء . واتضح لنا فيما بعد ان اسكتلندا بلد جميل وزيارته لا تخلو من المتعة والفائدة . كان مرورنا بها عابراً . وحرم علينا الاتصال الا بالرسميين الذين كان من المقرران نجتمع بهم . وهذا بصورة عامة ما كان متبعاً ابان اقامتنا في بريطانيا العظمى .

وعند وصولنا إلى اسكتلندا استقبلنا حرس شرف سار امامنا وعزف الموسيقى . وقد راقبنا العرض من تحت خيمة وقتنا المطر البارد . وكان قد سبق تحذيرنا من ان طقس اسكتلندا ماطر بصورة مستديمة . وكنت قد اخبرت من قبل عن الملابس العسكرية الاسكتلندية وقد رأيتها في برلين وفيينا عند نهاية الحرب . ان بزاتهم العسكرية غير مألوفة وكذلك التنانير الرمادية — وموسيقاهم غريبة كذلك ، وهي تعزف

على آلات موسيقية اسكتلندية خاصة (١) .

وقيل لنا ان مأدبة اعدت على شرفنا برعاية الملكة . اذن ، هي ايضاً ملكة اسكتلندا ، وقيل لنا ان المنزل الذي ستقام فيه المأدبة كان قصراً لماري ستيوارت . وتكلم مضيفونا جميعاً بوقار كثير عن تلك الملكة وعن ماضي بلادهم . وكان نجلي سيريوزجا (سيرجي) معي في هذه الرحلة وجلس إلى المائدة مع سيدتين متقدمتين في السن ، واحدة منهما كانت مترجمة وكانت تحاول باستمرار ان ترسخ في ذهن سيريوزجا وتحمله على الاعتقاد بان المرأة الثانية على المائدة هي اميرة . وعندما رأت ان ذلك لم يكن له تأثير خاص عليه ، قالت مؤكدة ان تلك لم تكن امرأة عادية على المائدة معهم ، بل هي اميرة حقيقية . وروى لي سيريوزجا في ما بعد ما حدث وضحكنا كثيراً . واني لا اظن ان المترجمة كانت تتظاهر ، بل اعتقد انها حقيقة كادت تطير فرحاً لجلوسها على مائدة واحدة مع احدى الاميرات . وقد غاظها بعض الشيء ان الشاب الروسي لم يقدر ما لذلك الشرف من الاهمية البالغة .

وعندما عدنا إلى لندن من اسكتلندا اقام ايدن مأدبة عشاء في مكان ما من دوائر الحكومة . وقبل العشاء مررنا بمكتب ايدن ، فرأيت ما ظننت لاول وهلة انه صورة القيصر نقولا الثاني مرفوعة على الحائط . على ان ايدن اوضح لي الحقيقة ، وهي ان صاحب الصورة هو نسيب القيصر نقولا (الملك جورج الخامس) ، فتركت الموضوع وغيرت الحديث لانه قد لا يكون ساراً لهم اذا انا ذكرتهم ان نسيبه ذاك قتل في سفردلوفسك في ١٩١٨ (٢) .

وقبل ان نذهب إلى العشاء ، اخبرنا ايدن ان تشرشل سيكون هنالك ايضاً . وجلست إلى جانب تشرشل تماماً . وكان متقدماً كثيراً في السن ، بديناً وخرفاً . واخذنا نتبادل عبارات عارضة ، لا تعني في الحقيقة شيئاً . ثم قدم لنا طبق من المحار فسألني تشرشل : « هل اكلت المحار قبل الآن ؟ »

— كلا يا مستر تشرشل .

— اذن ، انظر كيف آكله انا فانني احب المحار .

— حسناً ، سوف اراقبك واتعلم منك كيف يؤكل .

(١) قد يطيب للاسكتلنديين أن يروا أنفسهم كما يبدون في أعين الروس .

(٢) الملك جورج الخامس ملك انكلترا كان يشبه كثيراً آخر القياصرة الذي قتل مع زوجته وأولاده في قبو في سفردلوفسك التي كانت تعرف حينئذ باسم «اكاترنبرغ» .

وشرع هو في الأكل ، بينما كنت انا اتناول الحساء واراقبه . ثم اكلت ما في صحني من المحار .

فسألني :

— هل احببته ؟

— صراحة ، ليس كثيراً .

— ذلك لانك غير متعود على اكله .

قد يكون هذا حقيقياً ، ولكنني مع ذلك لم احبه .

ذلك كان مجمل حديثي مع تشرشل . وقد اتي هو مرة على ذكر ستالين قائلا : « اتعلم ، كنت اكن احتراماً عظيماً للمستر ستالين اثناء الحرب » . وكان تشرشل ، بصورة واضحة ، يبذل جهده لتجنب الحديث عن الشؤون الرسمية . فهو لم يكن رئيس الحكومة ، وقد ترك لإيدن بحث المسائل الجدية .

ورأيت تشرشل مرة ثانية عندما دعينا لمشاهدة احدى جلسات البرلمان من شرفة الزائرين . وكان قد الحق بنا شاب من المحافظين يحسن التكلم باللغة الروسية ليكون دليلا وترجماناً للوفد . وكان هذا الشاب يتقن اللغة الروسية اتقاناً تاماً ، حتى انه كان يستطيع ان يعبر عما يريده بلغة سائقي سيارات الشحن . وكان يحاول كثيراً ان يقنعنا بسيطرته التامة على اللغة الروسية وان يظهر في الوقت ذاته انه من عامة الشعب . غير اننا تظاهرنا بعدم الاكتراث وباننا لم نلحظ الدور الذي كان يمثله امامنا . وبينما كانت المناقشة جارية ، همس ذلك الشاب فجأة قائلا : « انظروا — ها هو تشرشل » . ودخل تشرشل إلى المجلس وذهب إلى مقعده . ثم قال لنا الدليل : « تشرشل لا يستطيع الجلوس اكثر من خمس او عشر دقائق دون ان يستغرق في النوم » . فراقبنا ما يجري . وبالفعل ، بعد فترة قصيرة القى تشرشل رأسه على جانب مقعده واستسلم لنوم عميق .

وذهبوا بنا مرة في جولة في لندن لمشاهدة مناظرها ، فشاهدنا البرج حيث كان الملوك والملكات يعدمون افراد الشعب . وراقبنا حفلة ابدال الحرس ، وهي حفلة فنية المظاهر ، حية ، استطعت بعد مشاهدتها ان ادرك لماذا كانت من الوقائع التي تجتذب السياح . وعلى العموم ، فقد سررت ان ارى كيف يكرم الانكليز ماضيهم وكيف يعيدون تمثيل تاريخهم في مهرجانات تذكارية مثل حفلة ابدال الحرس . على ان ثمة تقاليد بدت لي سخيفة مضحكة . فعندما زرنا مجلس اللوردات خرج الرئيس لاستقبالنا في زي ظهر فيه بشكل هزلي مضحك . كان يرتدي جلباباً احمر ورداء (روب) احمر ولمة كبيرة الحجم من الشعر المستعار . وقادنا إلى المنصة التي كان من فوقها يرئس جلسات مجلس اللوردات ، فيما كان الاعضاء

جميعاً يمرون ايضاً بالشعر المستعار . فدهشت ان ارى رجالا اصحاب مقامات خطيرة يستطيعون ان يديروا اجتماعات جدية بمثل هذه الملابس المضحكة ومحاطين بمثل هذه السخافات . ولم اتمالك نفسي عن الابتسام عندما شاهدت هذه المناظر المسرحية الشاذة .

ووقع لسوء الحظ حادثان عندما اقتربت اقامتنا من نهايتها . حدثت الأولى في الميناء ، حيث كان طرادنا راسياً . وكنا قد طلبنا إلى القبطان ان يتخذ تدابير الأمن الضرورية . وفجأة تلقينا نبأ يفيد ان بحارتنا شاهدوا شخصاً يسبح تحت الماء حول الطراد . ولكن يظهر انه تهرب من رجالنا قبل ان يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً . وكان ذلك آخر ما شوهد منه . فابلغنا مضيفنا بما حدث ، ولكني نسيت اي نوع من الايضاح قدم لنا . فتركنا الموضوع عند ذلك الحد ، مع اننا لم نستبعد احتمال وضع لغم في اسفل الطراد . وقد ذكر بعض رجالنا العسكريين ذلك الاحتمال كنظرية توضح ما حدث . وفي ما بعد ، عندما اكتشفت جثة ضابط مخابرات اسمه الكومندور كراب (١) في انكلترا ، قال رجال مخابراتنا ان الانكليز ربما كانوا يحاولون التقاط بعض المعلومات عن رفاصات وهيكل طرادنا . وعلى كل حال ، لم نهتم كثيراً بهذا الحادث . غير انه كان من الجدير بالذكر ان الانكليز لم يكتفوا باننا سمحنا لملحقهم البحري بان يسافر معنا على الطراد من الاتحاد السوفياتي ، فارادوا فوق ذلك ان يحاولوا التجسس على ضيوفهم . وكان هذا الحادث احد الاسباب التي حملتنا على ان لا نضيع وقتاً اكثر في انكلترا وان نعود إلى بلادنا .

اما الحادثة الثانية فقد جرت اثناء لقاء اعد لنا مع حزب العمال المعارض . وكان العمال قد اقترحوا ان نتناول طعام العشاء معهم . فقبلنا الدعوة رغم اننا لم نكن نتوقع ان يحقق ذلك اللقاء اية غاية مفيدة . وكنا قد وجدنا العمال يتخذون منا موقفاً معادياً أكثر من المحافظين . واني اظن ان باستطاعتي ان اوضح سبب هذه الظاهرة الغريبة ، ذلك اننا كنا على طرفي نقيض مع المحافظين . فهم يمثلون رأس مال كبير واعمالا كبيرة ، ونحن نمثل الطبقة العاملة والحزب الشيوعي .

فكنا نعرف موقفنا منهم وهم يعرفون موقفهم منا . فلم يتظاهروا بغير حقيقتهم . ونحن من جهتنا لم تكن لدينا بالطبع اي اوهام حولهم او آمال كبيرة نعقدها عليهم . لذلك كنا نستطيع التعامل فيما بيننا على اسس سياسية ثابتة .

(١) ان مسألة الكومندور كراب خلقت فضيحة كبيرة في حينها ولا تزال ، فهل قتله الروس أم أنه مات غرقاً ؟ لماذا كان يسبح تحت الطراد السوفياتي على كل حال ؟

اما العمال فقد كانوا خلاف ذلك كلياً . كانوا يعتبرون انفسهم انهم هم الذين يمثلون الشعب العامل ويعتقدون ان سياستهم هي سياسة الطبقة العاملة . وبالاختصار كانوا يدعون شتى المزاعم التي لم نكن نقرها ولا نعترف بها . ولذلك كان بيننا توتر عظيم .

اقيمت حفلة العشاء التي دعانا اليها العمال في احد مطاعم دار البرلمان . وكان ولسن ، الذي كان يعتبر صديقنا، أحد زعماء حزب العمال في ذلك الحين. ورغم كونه محافظاً قليلا فانه لو كان في الحكم فسياسته نحونا تكون أكثر وداً من سياسة حكومة ايدن . ولكن هاكم ما فعل وقد مر على وجوده في الحكم الآن مدة طويلة من الزمن . لقد اتبع السياسة ذاتها نحونا التي كان قد اتبعها المحافظون من قبله !

عندما اتخذنا مقاعدنا حول مائدة العشاء ، ظهرت الويسكي الانكليزية التي لا يستغنى عنها . وكان النخب الأول ، كما هي العادة في المآدب العامة ، نخب الملكة ، فرفعنا كؤوسنا وشربنا نخب الملكة ثم تبادل الوفدان الانخاب .

واظهر غيتسكل على الاقل قدراً من اللباقة في ملاحظاته التي ابداها بعد العشاء . ولكن جورج براون نهض فجأة واعتلى منبر الخطابة . وكانت لبراون في ذلك الحين مطامح في زعامة حزب العمال . وكان متطرفاً في عدائه نحونا . فالقى كلمة كانت مخزية وغير مقبولة على الاطلاق . فهنا نحن في ضيافته ، ومع ذلك فقد انطلق في محاضرة طويلة ضد سياساتنا . اما انا فلم احاول التصنع او تزويق الكلام في الرد على هجومه ، بل قلت موجهاً الحديث اليه : « يا مستر براون ، سوف اقول لك تماماً ما هو رأيي في كلمتك . اننا ضيوفك ونتوقع ان نعامل وفقاً لذلك . فاذا كنت تصر على اهانتنا ، فاني اخشى ان لا خيار لنا الا ان نشكركم على دعوتكم لنا وننصرف » . وهكذا خرجنا في تظاهرة تعبر عن استيائنا وانتهت المأدبة (١) .

(١) كان حادث مأدبة حزب العمال الذي وقع في مجلس العموم حديث الصحف وعنوان أخبارها في ذلك الزمن . وكان غيتسكل حينئذ زعيم حزب العمال ، وكان هو أيضاً قد أثار غضب خروشوف بتسليم قائمة بأسماء السياسيين الاشتراكيين في أوروبا الشرقية الذين كانوا قد اختفوا ، طالباً اليه ان يكتشف ماذا حدث لهم، وكانوا جميعهم بالطبع قد اعدموا رمياً بالرصاص . أما جورج براون فقد فقد السيطرة على طباعه وصاح في وجه خروشوف الذي تأذى وغضب كثيراً . وللاسباب التي ذكرها خروشوف ، كان الشيوعيون السوفيات يكرهون دائماً الاشتراكيين الاوروبيين أكثر كثيراً من كرههم للمحافظين .

وبعد يوم او نحو ذلك ، اقيمت حفلة استقبال في مجلس اللوردات وكان براون هناك فتقدم نحوي مصافحاً فرفضت قائلا : « يا مستر براون ، بعد حادث ذلك المساء لا استطيع ابداً مصافحتك » .

فقال : « هل تعني انك لا تهز يدي ؟ » ومد يده نحوي واستردها مرتين . فلم اتحرك . وقلت : « كلا لن اصافحك ». فترك يده تسقط إلى جانبه ومشينا متباعدين احدنا عن الآخر . اما العمال الآخرون الذين شاهدوا ذلك الصد الذي وجهته إلى براون ، فقد كانوا حذرين جداً عندما تقدموا لتحيتي . فكانوا يقدمون ايديهم لي بتمهل كثير كأنهم يريدون التحقق عما اذا كنت ساقبلها او أرفضها . غير اني صافحتهم جميعاً وتبادلنا المجاملات المرحة بالرغم من اني كنت ما زلت ناقماً على براون . وفي ما بعد جاء وفد ثلاثي من العمال واعتذر لي عن خشونة براون ، واكد لي الوفد انه كان يتكلم عفوياً معبراً عن رأيه فقط . وكان براون يعتبر عدواً للسوفيات ، وحاول ان يتخذ من زيارتنا فرصة لتسميم علاقاتنا ، فوفق إلى ذلك (١) .

وعندما التقيت ايدن بعد هذه الحادثة مع براون ، ابتسم من تحت شاربيه وقال : « كيف كانت حفلتكم مع العمال ؟ » .

فقابلت ابتسامته بمثلها وقلت : « انت تعلم ان الامور لم تكن على ما يرام ».

ـ « ألم اقل لك ان من الافضل ان تتعامل مع المحافظين . فهؤلاء العمال يستحيل العمل معهم » لم يكن ايدن ليضيع هذه الفرصة لكي يستغل سياسياً ، النزاع الذي وقع بيننا وبين حزب العمال إلى ابعد مدى . وقد اغتبط المحافظون بان اول احتكاك لنا مع زعماء العمال كان سيئاً .

وقلنا لايدن على سبيل المزاح اننا كنا نحاول ان نعقد العزم حول اي من من الحزبين ننضم اليه . فضحك وقال : « اني الح عليكم بكل قوة ان تختاروا المحافظين » . فقلت له اننا ربما عملنا باقتراحه .

وفي سياق مفاوضاتنا في لندن طلبنا من ايدن ان يسمح لنا بان نقابل ضيافته بمثلها ، فيقوم بزيارة الاتحاد السوفياتي . فشكر دعوتنا وقبلها . غير انه لم يتسن له ان يقوم بتلك الرحلة . فبعد عودتنا من لندن وقعت حوادث بولونيا وحوادث

---

(١) ان الاشارة إلى تسميم العلاقات لها دلالتها . لأن خروشوف لم يدرك ان بعض الناس قد يقول اشياء عفوية لا غاية خفية وراءها .

المجر والاهم من كل ذلك هجوم بريطانيا وفرنسا واسرائيل على مصر . وكنا نحن إلى جانب مصر ، واتخذنا خطوات دبلوماسية للضغط على المعتدين لوقف الحرب . وقد انتهت تلك الحرب بعد مرور اربع وعشرين ساعة على البدء بها . غير ان الجدل والحملات الصحافية بلغت حدها من العنف . وهكذا كان من غير المعقول ان يقوم ايدن بزيارة الاتحاد السوفياتي .

١٥

اعادة النظام في المجر

يختلف وصف خروشوف الدفاعي لانتفاضة المجر في ١٩٥٦ اختلافاً كبيراً جداً عن الحقائق المسلم بصحتها ، بحيث يقتضي وضع كتاب صغير للرد عليه نبذة نبذة وايراد تعاقب تلك الحوادث على حقيقتها . غير أن هنالك بعض المسائل الرئيسية التي ينبغي إيضاحها وهي ان ايمري ناجي لم يكن مسؤولا عن الا نتفاضية ، وإنما دفعه إلى تولي الحكم موقتاً ثورة شعبية لم يتمكن من السيطرة عليها ووقفها .

ان سكرتير الحزب الستاليني ، ماتياس راكوزي ، كان قد اقيل من منصبه في تموز ١٩٥٦ في اجتماع عقدته اللجنة المركزية المجرية برئاسة ميكويان (كان ميكويان قد انتقل جواً من موسكو لأن السفير السوفياتي في بودابست ارسل يقول ان ثورة ستحدث ما لم يعزل راكوزي) . وحل جيرو محل راكوزي كسكرتير أول . واستمر جيرو في اتخاذ تدابير القمع . وكان ناجي في ذلك الوقت قيد الاعتقال ، فانضم الشيوعيون إلى الطلبة والمثقفين طالبين حريات أعظم ، وحدث الانفجار في ٢٣ تشرين الأول عندما انطلق مئتا ألف من المتظاهرين في بودابست مطالبين بالحرية وباطلا ق سراح ناجي ، فجرى إهراق دماء . وعندما استدعى جيرو الجيش ورجال الشرطة العاديين ، لم يلبوا طلبه بل سلموا اسلحتهم إلى الطلبة ، وفي بعض الأحيان انضموا إليهم. أما إيمري ناجي فلم يقبض على السلطة من تلقاء ذاته . ولكن ميكويان وسوسولوف حملاه على ذلك ، تلبية للمطالب الشعبية ، على أمل ان يتمكن من جمع صفوف الحزب وقمع الثورة . وكان ناجي محتجزاً في مقر الحزب من قبل الستالينيين الذين ناشدوا الجيش السوفياتي مساعدتهم . فكانت النتيجة أن القسم الأكبر من الجيش المجري تحول ضد الروس. ثم ان الحزب الشيوعي المجري زال عملياً من الوجود ووقف الجميع يؤيدون ناجي الذي طالب الروس بسحب جنودهم من البلا د ، ففعلوا ولكن بعد تردد طويل . غير أنهم عادوا بقوى كبيرة وسحقوا المقاومة

بعنف . وهنا برز جانوس كادار الذي كان قد لجأ إلى حماية الروس ، ليقيم تحت الحماية السوفياتية ، نظام الحكم الذي لا يزال مستمراً حتى اليوم .

في ١٩٥٦ ، بعد نضال دموي نشب في بودابست ، استعمل ايمري ناجي الخداع والتهديد لجر الشعب إلى التمرد وإلى حرب اهلية يثور فيها الاخ ضد اخيه . فارغم مواطنين بارزين على الوقوف امام الميكروفون والاعلان عن موافقتهم على زعامته وشجب عهد راكوزي . وقد أذعن بعض الناس لطلبات ناجي عن خوف ، والبعض الآخر عن عدم تفهم وادراك لما يجري . وطورد اعضاء الحزب المعروفين بنشاطهم ، وخصوصاً رجال التشيكا ، في الشوارع وعطلت لجان الحزب ومنظمات التشيكا . وكان الناس يقتلون ويعلقون على اعمدة المصابيح باقدامهم وساد البلاد شتى الفظائع . ثم دارت رحى الثورة المضادة وكان الشباب ، اول الامر ، العنصر الغالب فيها . وكانوا قد نهبوا المستودعات العسكرية ومخازن الذخيرة . ثم انضمت اليهم بعد ذلك فصائل مسلحة وبدأت المناوشات في شوارع بودابست واستولت بعض هذه الفصائل المسلحة على المدافع ، وبالاكثر على المدافع المضادة للطائرات فحولوها ضد المدينة . وبدأ المهاجرون المجريون بالعودة إلى بودابست وذلك بالاكثر من فيينا . وكان هؤلاء من العناصر الرجعية التي ارغمت على الفرار بعد سحق هتلر وانشاء حكومة اشتراكية . وكانت البلدان المنضمة إلى الحلف الاطلسي (ناتو) قد بدأت فعلا في التدخل في القضية . فكانت تلقي الوقود في نار الحرب الاهلية ، على أمل اسقاط الحكومة الثورية وتصفية مكاسب الثورة لمصلحة عودة الرأسمالية إلى المجر .

ووجه ايمري ناجي طلباً الينا بان نسحب جميع القوات السوفياتية من المجر . ووفقاً لالتزاماتنا ، بمقتضى معاهدة فرصوفيا ، كنا نستطيع سحب قواتنا فقط اذا طلبت منا ذلك حكومة مؤلفة بصورة قانونية . ولم يكن لنا اية نية بان نفعل ما يطلبه منا زعيم حركة انقلاب مسلح . وكان الوضع من وجهة نظرنا ان عصابة صغيرة استغلت الاغلاط الفاضحة التي ارتكبتها حكومة راكوزي واسقطت حكومة المجر الشرعية . فلم تكن طلبات ناجي من الناحية القانونية تستند إلى اي تأييد برلماني ، ولذلك فليس لها قوة القانون .

وبالرغم من ان ناجي كان شيوعياً ، فهو لم يكن يمثل الحزب الشيوعي المجري ، بل كان يمثل نفسه مع فريق صغير من المهاجرين الذين عادوا لمعاونة الثورة المضادة . لذلك قررنا حالا ان الانتفاضة وحكومة ناجي لا تمثلان العمال والفلاحين والطبقة المثقفة في البلاد عامة . وقد رفض الفلاحون تأييد الثورة المضادة

بالرغم من مناشدات ناجي ، فقد لزم هؤلاء الحياد ورفضوا ان يخدعوا فاستمرت مزارع جماعية كثيرة في العمل ، متجاهلة الشعارات المضادة للنظام الجماعي التي كانت تذاع من بودابست (١) .

وقررنا نحن سحب قواتنا من بودابست ، دون ان يكون لعملنا هذا اية علاقة بطلبات ناجي ، ووضعها في ميدان الطيران خارج المدينة .وبقينا مطلعين على حقيقة الموقف في المدينة عن طريق موظفي سفارتنا.

وبحثنا قضية التمرد في البريزيديوم وفي اللجنة المركزية وتوصلنا إلى الاستنتاج ان لا عذر لنا في التزام الحياد والتخلف عن مساعدة الطبقة العاملة في المجر في نضالها ضد الثورة المضادة . واتخذنا قراراً بالاجماع في هذا الصدد . ولم يحضر انستاس ايفانوفيتش ميكويان وسوسلوف الاجتماع لانهما ذهبا إلى بودابست في النهار ذاته وعادا منها في المساء إلى المطار ، حيث كانت قواتنا مرابطة .

كانت هذه لحظة تاريخية ، اذ كنا نواجه اختياراً عسيراً ، بين ان نعيد قواتنا إلى المدينة ونسحق الانتفاضة وبين ان ننتظر لنرى اذا كانت القوات الداخلية تستطيع ان تتحرر وتحبط هي الثورة المضادة ؟ فاذا نحن قررنا الحيطة الاخيرة فثمة احتمال ان تسيطر الثورة المضادة موقتاً مما يعني ان دماء بروليتارية كثيرة سوف تهرق . زد على ذلك انه اذا نجحت الثورة المضادة واتخذ الحلف الاطلسي (ناتو) قواعد له وسط البلدان الاشتراكية فسينتج عنه تهديد شديد الخطر على تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا ، ناهيك بالاتحاد السوفياتي نفسه .

وفي اتباعنا اية من الخطتين ، لا نكون عاملين لمصلحة اهداف قومية ، بل في سبيل تحقيق هدف اممي لمصلحة تعاضد الاخوة البروليتارية . وحرصاً على التأكد من ان جميع البلدان تدرك حقيقة موقفنا من هذه الناحية ، قررنا ان نجري مشاورات مع البلدان الاشتراكية الاخرى ، وفي طليعتها الحزب الشيوعي الصيني الشقيق ، وعلى ذلك فقد طلبنا من ماوتسي تونغ ان يوفد ممثلا من قبله ليتشاور معنا حول حوادث المجر . فلبى الصينيون الطلب سريعاً وجاء وفد بطريق الجو برئاسة ليوشاوشي . وكان ليو يتمتع بخبرة واسعة وذا هيبة ، وكان موضع احترامنا البالغ . ندبتني سكرتيرية اللجنة المركزية لتمثيل الجانب السوفياتي . وكان بونوماريف عضواً في وفدنا ايضاً .

---

(١) الحقيقة أن كثيرين من الفلاحين لزموا الحياد ولم يشتركوا في القتال . وقد استمروا يعملون في الحقول تاركين القتال للعمال والطلاب في المدينة ، وبعض وحدات الجيش المجري .

وعقدت مشاوراتنا مع الصينيين في لبكي التي كانت سابقاً احدى « داشات » ستالين ، ثم اصبحت منتجعاً للراحة . امضينا الليل بطوله نزن الامور بكل دقة ونتشاور حول فوائد استخدام قوة السلاح في المجر أو مضارها . وقال ليو شاوشي في بادىء الأمر ان لا ضرورة لذلك ، وان علينا ان نخرج من المجر وندع الطبقة العاملة تحصن ذاتها وتعالج الثورة المضادة بطرقها الخاصة ، فوافقنا نحن على ذلك .

ولكن ، بعد ان توصلنا إلى هذا القرار ، شرعنا في بحث الحالة مرة اخرى فحذرنا البعض من احتمال ميل الطبقة العاملة إلى الثورة المضادة لاسيما ان الشباب في المجر هم بنوع خاص عرضة لذلك .

واني لا اعلم كم مرة بدلنا رأينا بين هذا وذاك من الاحتمالات . وكلما كنا نظن اننا عقدنا العزم على امر ما ، بادر ليو إلى التشاور مع ماوتسي تونغ تلفونياً . وكان ماو يوافق على كل ما يوصي به ليو . واخيراً انتهينا من تلك الجلسة التي دامت الليل كله إلى اتخاذ قرار بعدم استعمال القوة العسكرية في المجر . وبعد ان اتفقنا على ذلك ذهبت إلى منزلي وبقي ليو ووفده في « الداشا » .

وعندما صعدت إلى فراشي ذلك الصباح وجدت نفسي لا ازال قلقاً ، اقلب المشكلة على وجوهها ، بحيث تعذر علي الركون إلى الراحة . وكانت المشكلة مثل مسمار في رأسي يحرمني النوم .

وفي الصباح ، اجتمع بريزيديوم اللجنة المركزية للاستماع إلى تقريري عن نتيجة مباحثاتنا مع الوفد الصيني . فاخبرتهم كيف اننا بدلنا موقفنا مراراً كثيرة ، وكيف اننا توصلنا في النهاية إلى اتخاذ قرار بان لا نستعمل القوة العسكرية في المجر . على انني حذرت البريزيديوم آنذاك من عواقب الامتناع عن مد يد المساعدة للطبقة العاملة قبل ان تكون عناصر الثورة المضادة قد تغلغلت في صفوفها .

وبعد مناقشات طويلة قرر البريزيديوم انه لن يكون لنا من عذر على الاطلاق نتذرع به اذا نحن وقفنا جانباً ورفضنا مساعدة رفاقنا المجريين . وعندئذ سألنا المارشال كونيف الذي كان قائدا لقوات ميثاق فرصوفيا: « كم يقتضيك من الوقت اذا اصدرنا لك الامر باعادة النظام إلى المجر وسحق قوات الثورة المضادة ؟» فبعد ان فكر لحظة رد قائلا : « ثلاثة ايام لا اكثر » . فقلنا له : « اذن استعد وسنبلغك متى تبدأ بالعمل .» وكان على ليو شاوشي ان يطير إلى بكين ذلك المساء ، وكان لا يزال يعتقد اننا اتفقنا على عدم استعمال القوة العسكرية في المجر . لذلك رأينا ان علينا ابلاغه باننا بدلنا موقفنا . واتفقنا ان نتشاور معه في مطار فنوكوفو . وطلبنا اليه ان يتوجه إلى المطار قبل الموعد المقرر لسفره ، لكي يتسنى لنا الاجتماع

به هناك والتحدث اليه .

وعلى ذلك فقد توجهت هيئة البريزيديوم بكاملها إلى المطار . ووصل ليو ورفاقه وعقدنا اجتماعنا معهم . ولم يدر اي جدل على الاطلاق ، بل جرى الحديث في جو ودي جداً . واظهر الصينيون انهم يشاطرون الشعب السوفياتي اهتمامه وقلقه . وكنا نحن جميعاً مهتمين بمصلحة الطبقة العاملة المجرية وبمستقبل الشعب المجري . ووافق ليو على ان قرارنا المعدل القاضي بالشروع بارسال قواتنا هو عين الصواب .

وقال : « لن استطيع الحصول على موافقة الرفيق ماوتسي تونغ في هذه اللحظة غير انني اعتقد انه سوف يؤيدكم . وحالما اصل إلى بكين سوف ابلغ المكتب السياسي للحزب الصيني الشيوعي بذلك ، ثم ننقل اليكم قرارنا الرسمي . غير ان باستطاعتكم ان تفترضوا انكم حائزون على تأييدنا » .

وبعد ان تم الاتفاق على ذلك ، ودعنا الوفد الصيني (١) فطار إلى بلاده .

كان علينا الان التشاور مع بولونيا لحل المشاكل التي برزت هناك . وكانت المتاعب التي لقيناها هنا اقل كثيراً في خطورتها من متاعبنا في المجر . فلم يكن في بولونيا ثورة مسلحة . وكانت قد تألفت قيادة بولونية مقبولة من قبل الرفاق غومولكا رسيرناكيوفكز وآخرين من الرفاق الذين نثق بهم . فكان لدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد بان الموقف في بولونيا كان يتجه نحو الاستقرار (٢) . وكان لدينا لذلك ما يزيد في وجوب التشاور مع بولونيا ، نظراً لقلق الشعب البولوني على مصير بلاده . وكانوا يشعرون ان لهم علاقة كبيرة بما قد تنتهي اليه احداث المجر . ونحن لم نكن فقط نريد ان نعرف رأي الرفاق البولونيين قبل اتخاذ تلك الخطوة الحاسمة بارسال الجنود إلى بودابست — بل اردنا ايضاً ان يكون رد الرفاق البولونيين ايجابياً . وكنا نريد ان نحصل على تأييدهم . لذلك اتخذنا التدابير لجعل الرفيق غومولكا مع سيرناكيوفكز وغيرهما من الرفاق ان يقابلونا في مكان

(١) كان الصينيون في البداية قد نصحوا بعدم العمل العسكري في بولونيا. وبعد تردد كثير الحوا على استعمال القوة في المجر ، وفي ما بعد حملوا الكثير من المسؤولية عن ذلك .

(٢) يبدو أن خروشوف ليس لديه شيء ليقوله عن محاولة التدخل السوفياتي في بولونيا . فالجيش استعد للضرب هناك ، غير ان المارشال روكوسوفسكي الذي كان وزير الدفاع في بولونيا ، رغم كونه سوفياتياً ، حذر قيادة الكرملين من أن الجيش البولوني كان معادياً وسيقف وراء غومولكا ويقاتل معه. وقد كان ج. سيرناكيوفكز رئيس وزراء بولونيا ، عندما حدثت ثورة ١٩٥٦ .

خارج الاراضي السوفياتية على الحدود السوفياتية — البولونية . وعين البريزيديوم هيئة ثلاثية من خروشوف ومولوتوف ومالنكوف تمثل الجانب السوفياتي في الاجتماع .

وبعد التشاور مع البولونيين طرت انا مع مالنكوف إلى بوخارست . وكان قد سبقنا اليها وفد روماني وآخر تشيكي بقيادة نوفوتني وبلغاري بقيادة جيكوف . كان علينا ان نوضح الحالة القائمة ، ولم يكن علينا ان نقنع اياً كان بضرورة اتخاذ عمل حاسم ، لان هؤلاء الرفاق كانوا قد تلقوا معلومات وافية من سفرائهم في بودابست عن الحالة التي كانت آخذة في التدهور هناك . زد على ذلك ان بعض مناطق الحدود في المجر كانت قد بدأت فعلا في السعي للحصول على سلاح من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا للدفاع عن النفس ضد حكومة ايمري ناجي التي تمثل الثورة المضادة . وكان زعماء البلدان الاشتراكية الصديقة موافقين بالاجماع على ان علينا ان نعمل ، وبسرعة .

وقال الرومانيون والبلغاريون انهم يرغبون في الانضمام الينا في تقديم مساعدة عسكرية للعمال الثائرين في المجر في نضالهم ضد الثورة المضادة ، فكان ردنا ان لا حاجة لتوريط اية قوات في هذه العملية عدا القوات السوفياتية المرابطة حالياً في المجر ، بمقتضى اتفاق بوتسدام . ثم مزحنا مع الرفاق الرومانيين حول اهتمام رومانيا الآن ورغبتها الملحة في الاشتراك في المعركة ضد الثورة المضادة ، في حين انها في ١٩١٩ كانت منحازة إلى جانب الثورة المعاكسة التي سحقت ثورة بيلاكون المجرية . فضحك الرفاق الرومانيون ثم تمنوا لنا التوفيق والاسراع في العمل .

وفي ساعة متأخرة من ذلك المساء طرت ومالنكوف إلى يوغوسلافيا للتشاور مع الرفيق تيتو . كان الطقس سيئاً جداً وكان علينا ان نحلق فوق الجبال ليلا وسط عاصفة رعدية شديدة . وكان البرق يسطع حولنا فلم يغمض لي جفن . وكنت قبلا قد طرت كثيراً ، خصوصاً في اثناء الحرب ، غير انني لم اطر قط في مثل هذه الاحوال السيئة . وكان يقود طائرتنا طيار واسع الخبرة مجرب هو الجنرال تسيبن . وفي اثناء العاصفة فقدنا كل اتصال مع طائرة الاستكشاف المرافقة لنا والتي كانت تطير امامنا صوب جزيرة بريوني ، تجاه ساحل يوغوسلافيا . وكان المطار المحلي غير مجهز تجهيزاً حسناً ، بل كان من تلك المدرجات البدائية التي انشئت في اثناء الحرب . غير اننا بفضل مهارة الجنرال تسيبن تمكننا من الوصول . وعندما هبطنا في ارض المطار سألنا اذا كانت طائرتنا الاخرى قد وصلت فقال لنا اليوغوسلافيون انهم لا يعرفون عنها شيئاً فشعرنا بقلق شديد

على مصير ملاحيها .

وكانت هنالك سيارة في انتظارنا ومنها انتقلنا الى زورق بخاري اتجه بنا إلى مقر الرفيق تيتو في جزيرة بريوني . وكان مالنكوف ممتقع الوجه كأنه جثة لا حياة فيها . فقد كان يصاب بالدوار في السيارة على الطرق الجيدة ، فكيف في هذه الرحلة . فاستلقى مالنكوف في الزورق واغمض عينيه وقلقت عليه وعلى الحالة التي سيكون عليها متى نزلنا الى البر . وكان تيتو في انتظارنا عندما بلغنا الجزيرة . فرحب بنا ترحيباً حاراً وتعانقنا وتبادلنا القبلات ، بالرغم من اننا كنا إلى عهد قريب على علاقات متوترة ، وقد ازدادت توتراً اكثر فأكثر مع تطور الاحداث في المجر . فقد كان بيننا خلاف في الرأي حول افضل السبل واصلح طريق للعمل هناك .

ابلغنا تيتو عن سبب مجيئنا وواجهناه بالقرار الذي اتخذناه بارسال قوات إلى بودابست ، وسألناه رأيه في ذلك . وكنت اتوقع ان اسمع من تيتو اعتراضات تفوق كثيراً ما لقيناه في اثناء مناقشاتنا مع الرفاق البولونيين . غير اننا فوجئنا حين قال تيتو اننا على حق تام في ما قررناه ، وان علينا ان نرسل قواتنا للعمل باسرع ما يمكن . وقال لنا انه ملزم بمساعدة المجر لسحق الثورة المضادة . واكد لنا انه يدرك كل الادراك ضرورة اتخاذ تلك التدابير . لقد كنا مستعدين لنلقى منه معارضة ، ولكن بدلا من ذلك تلقينا منه التأييد التام . واني لأذهب إلى القول انه ذهب إلى ابعد من ذهابنا في الالحاح بوجوب تصفية تلك المشكلة بسرعة وبصورة حاسمة .

وبعد ان تقرر ذلك قلت : « اذن يحسن بنا ان نعمد إلى بعض الراحة لان علينا ان نعود إلى موسكو في ساعة مبكرة من الصباح » . على ان تيتو قال : « كلا — لا تعجلوا بالعودة . لماذا لا تمكثون هنا يوماً او يومين ؟ » فشكرناه ، واوضحنا له ان الوقت لا يسمح لنا الا بالعودة إلى موسكو حالا . واخيراً سألني : « متى تعتزمون ان تعيدوا النظام إلى بودابست ؟ »

فأجبته باننا لم نقرر بعد اليوم بالضبط . غير اننا ننتظر ان يكون عاجلا . ولعل تيتو ادرك ان قولي هذا لم يكن يدل على الحقيقة بكليتها لأننا قد حددنا اليوم الذي نوجه فيه الضربة . غير انني لم اكن اريد ان اخبر احداً عن موعد تحرك قواتنا للدخول إلى بودابست . ولم يكن لليوغوسلافيين اي دور مباشر في العملية . لذلك فلا حاجة بهم لان يعلموا ما عزمنا عليه . وكنت ارى انه كلما كان عدد الذين يعلمون اقل ، بما فيهم اصدقاؤنا ، كان ذلك هو الافضل . ولو ان موعد شروعنا في العمل تسرب إلى الخارج لكان كلفنا ثمناً غالياً .

واخيراً قلت : « ارى ان نحاول ان نحصل على قليل من النوم الآن » فقال تيتو : « اسمع ، لماذا النوم الآن ؟ ما الذي يدعوكم إلى السرعة ؟ لماذا لا نمضي

الليل في الحديث ؟ لا يزال هنالك ساعات قليلة لبزوغ الفجر ، وأنا اود ان امضي ما لدينا من الوقت القليل معكم » .

فاجبت قائلا : « حسناً ، سنحاول أن نغمض عيوننا قليلا في الطائرة ، ونحن في طريق عودتنا إلى موسكو » .

وهكذا سهرنا حتى الفجر . وفي الصباح قال تيتو انه سيخرج لوداعنا . فجلس امام مقود السيارة وانطلق بنا إلى مكان الاقلاع ، حيث تبادلنا عبارات الوداع وتمنى لنا سفراً سعيداً (١) .

وصلنا إلى موسكو حوالى المساء ، فخرج اعضاء البريزيديوم لمقابلتنا في المطار ، ثم توجهنا رأساً إلى الكرملين .

بعدها ابلغنا كونيف بان يحرك قواته إلى داخل البلاد ليعيد النظام على الفور في كل مكان من المجر ، باستثناء بودابست حيث ابدى الشعب مقاومة شديدة نوعاً ما . فقد كان ضباط من الجيش المجري قد انضموا إلى الثورة ، كما وضع جنودنا وجهاً لوجه امام اساليب دفاعية منظمة تنظيماً جيداً . وكانت المدافع قد نقلت إلى الطوابق العليا من البنايات واستعملت لتغطية الشوارع . ولكن المقاومة ، كما توقع المارشال كونيف استمرت اقل من ثلاثة ايام . وكان من الممكن سحق التمرد بسرعة اكثر ، الا ان ذلك كان يتطلب تدابير هدامة إلى حد ابعد وكان هذا في غير مصلحتنا .

واختبأ ايمري ناجي في السفارة اليوغوسلافية ، مع عدد كبير من زعماء الحركة الآخرين . وأحدث ذلك توتراً اكيداً في علاقاتنا مع يوغوسلافيا . وقد طلب الرفاق المجريون تسليم ناجي ورجاله لهم لكي يقدموا إلى المحاكمة ليحاسبوا على جرائمهم . وقاوم اليوغوسلافيون ذلك بكل صلابة .

اما حكومة الثورة المجرية الموقتة ، وعلى رأسها كادار ومونيش ، فقد انتظرت بكل برودة حتى لم يعد باستطاعة الرفاق اليوغوسلافيين ان يستبقوا لديهم ناجي ورجاله (٢) . وعندما اطلق اليوغوسلافيون ناجي اصروا على الحصول على

---

(١) ان موقف تيتو ازاء القضية المجرية كان غير مؤكد . فقد الح على الروس بضرورة التخلص من راكوزي ، ولكن يبدو أنه ذعر من عنف الا نتفاضة ، ولو أنه كان شديد العطف على ناجي .

(٢) كانت حكومة «المجر الثورية الموقتة» التي اطلق عليها هذا الاسم قد أقامها الروس من تلقائهم عندما بدا كأن حكومة ناجي في بودابست سوف تدوم . وكانت هيئة مؤلفة من بقايا حكومة الحزب الشيوعي المجري التي كانت قد تفككت =

على مصير ملاحيها .
وكانت هنالك سيارة في انتظارنا ومنها انتقلنا الى زورق بخاري اتجه بنا إلى مقر الرفيق تيتو في جزيرة بريوني . وكان مالنكوف ممتقع الوجه كأنه جثة لا حياة فيها . فقد كان يصاب بالدوار في السيارة على الطرق الجيدة ، فكيف في هذه الرحلة . فاستلقى مالنكوف في الزورق واغمض عينيه وقلقت عليه وعلى الحالة التي سيكون عليها متى نزلنا الى البر . وكان تيتو في انتظارنا عندما بلغنا الجزيرة . فرحب بنا ترحيباً حاراً وتعانقنا وتبادلنا القبلات ، بالرغم من اننا كنا إلى عهد قريب على علاقات متوترة، وقد ازدادت توتراً اكثر فأكثر مع تطور الاحداث في المجر . فقد كان بيننا خلاف في الرأي حول افضل السبل واصلح طريق للعمل هناك .

ابلغنا تيتو عن سبب مجيئنا وواجهناه بالقرار الذي اتخذناه بارسال قوات إلى بودابست ، وسألناه رأيه في ذلك . وكنت اتوقع ان اسمع من تيتو اعتراضات تفوق كثيراً ما لقيناه في اثناء مناقشاتنا مع الرفاق البولونيين . غير اننا فوجئنا حين قال تيتو اننا على حق تام في ما قررناه ، وان علينا ان نرسل قواتنا للعمل باسرع ما يمكن . وقال لنا انه ملزم بمساعدة المجر لسحق الثورة المضادة . واكد لنا انه يدرك كل الادراك ضرورة اتخاذ تلك التدابير . لقد كنا مستعدين لنلقى منه معارضة، ولكن بدلا من ذلك تلقينا منه التأييد التام. واني لأذهب إلى القول انه ذهب إلى ابعد من ذهابنا في الالحاح بوجوب تصفية تلك المشكلة بسرعة وبصورة حاسمة .

وبعد ان تقرر ذلك قلت : « اذن يحسن بنا ان نعمد إلى بعض الراحة لان علينا ان نعود إلى موسكو في ساعة مبكرة من الصباح » . على ان تيتو قال : « كلا — لا تعجلوا بالعودة . لماذا لا تمكثون هنا يوماً او يومين ؟ » فشكرناه ، واوضحنا له ان الوقت لا يسمح لنا الا بالعودة إلى موسكو حالا . واخيراً سألني : « متى تعتزمون ان تعيدوا النظام إلى بودابست ؟ »

فأجبته باننا لم نقرر بعد اليوم بالضبط . غير اننا ننتظر ان يكون عاجلا . ولعل تيتو ادرك ان قولي هذا لم يكن يدل على الحقيقة بكليتها لأننا قد حددنا اليوم الذي نوجه فيه الضربة . غير انني لم اكن اريد ان اخبر احداً عن موعد تحرك قواتنا للدخول إلى بودابست. ولم يكن لليوغوسلافيين اي دور مباشر في العملية . لذلك فلا حاجة بهم لان يعلموا ما عزمنا عليه . وكنت ارى انه كلما كان عدد الذين يعلمون اقل ، بما فيهم اصدقاؤنا ، كان ذلك هو الافضل . ولو ان موعد شروعنا في العمل تسرب إلى الخارج لكان كلفنا ثمناً غالياً .

واخيراً قلت : « ارى ان نحاول ان نحصل على قليل من النوم الآن » فقال تيتو : « اسمع ، لماذا النوم الآن ؟ ما الذي يدعوكم إلى السرعة ؟ لماذا لا نمضي

الليل في الحديث ؟ لا يزال هنالك ساعات قليلة لبزوغ الفجر ، وأنا اود ان امضي ما لدينا من الوقت القليل معكم » .

فاجبت قائلا : « حسناً ، سنحاول أن نغمض عيوننا قليلا في الطائرة ، ونحن في طريق عودتنا إلى موسكو » .

وهكذا سهرنا حتى الفجر . وفي الصباح قال تيتو انه سيخرج لوداعنا . فجلس امام مقود السيارة وانطلق بنا إلى مكان الاقلاع ،حيث تبادلنا عبارات الوداع وتمنى لنا سفراً سعيداً (١) .

وصلنا إلى موسكو حوالى المساء ، فخرج اعضاء البريزيديوم لمقابلتنا في المطار ، ثم توجهنا رأساً إلى الكرملين .

بعدها ابلغنا كونيف بان يحرك قواته إلى داخل البلاد ليعيد النظام على الفور في كل مكان من المجر ، باستثناء بودابست حيث ابدى الشعب مقاومة شديدة نوعاً ما . فقد كان ضباط من الجيش المجري قد انضموا إلى الثورة ، كما وضع جنودنا وجهاً لوجه امام اساليب دفاعية منظمة تنظيماً جيداً . وكانت المدافع قد نقلت إلى الطوابق العليا من البنايات واستعملت لتغطية الشوارع . ولكن المقاومة ، كما توقع المارشال كونيف استمرت اقل من ثلاثة ايام . وكان من الممكن سحق التمرد بسرعة اكثر ، الا ان ذلك كان يتطلب تدابير هدامة إلى حد ابعد وكان هذا في غير مصلحتنا .

واختبأ ايمري ناجي في السفارة اليوغوسلافية ، مع عدد كبير من زعماء الحركة الآخرين . وأحدث ذلك توتراً اكيداً في علاقاتنا مع يوغوسلافيا . وقد طلب الرفاق المجريون تسليم ناجي ورجاله لهم لكي يقدموا إلى المحاكمة ليحاسبوا على جرائمهم . وقاوم اليوغوسلافيون ذلك بكل صلابة .

اما حكومة الثورة المجرية الموُقتة ، وعلى رأسها كادار ومونيش ، فقد انتظرت بكل برودة حتى لم يعد باستطاعة الرفاق اليوغوسلافيين ان يستبقوا لديهم ناجي ورجاله (٢) . وعندما اطلق اليوغوسلافيون ناجي اصروا على الحصول على

---

(١) ان موقف تيتو ازاء القضية المجرية كان غير مؤكد . فقد الح على الروس بضرورة التخلص من راكوزي ، ولكن يبدو أنه ذعر من عنف الانتفاضة ، ولو أنه كان شديد العطف على ناجي .

(٢) كانت حكومة «المجر الثورية الموقتة» التي اطلق عليها هذا الاسم قد أقامها الروس من تلقائهم عندما بدا كأن حكومة ناجي في بودابست سوف تدوم . وكانت هيئة مؤلفة من بقايا حكومة الحزب الشيوعي المجري التي كانت قد تفككت =

تأكيدات بالمحافظة على سلامته . فرفض الرفاق المجريون ذلك . وحالما وصل ناجي إلى منزله جرى اعتقاله – كما كان ينبغي ان يفعل (١) . ثم ان الرفيق كادار اقترح ان ينقل ناجي بطريق الجو إلى بوخارست ، إلى ان يتم اعادة النظام وتتاح الفرصة للحكومة الجديدة لان تعيد الحالة إلى مجراها الطبيعي في المجر .

اما الحكومة الثورية المجرية الموقتة التي انتقلت إلى المجر من اوزغورود (في اوكرانيا السوفياتية) عندما اعيد النظام لاول مرة فقد ابدلت اسمها باسم « حزب العمال الاشتراكي » . وبدأ الزعماء الجدد في جمع قواتهم ، ثم اخذت الحالة تعود إلى الاستقرار بصورة مرضية جداً .

وعندما تمت تسوية جميع الامور اعاد الرفاق الرومانيون ايمري ناجي إلى المجر .

وكان قد نشأ بعض التوتر بين الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا بسبب الموقف الذي اتخذته يوغوسلافيا اثناء حوادث المجر . فاقترح الرفيق تيتو ان نجتمع ونتحدث لاعادة العلاقات الحسنة في ما بيننا . وقد اقترح في البداية ان نجتمع سراً على سفينة في نهر الدانوب على الحدود بين رومانيا ويوغوسلافيا . لكنه قبل ان نسافر

= كلياً . وكان جانوس حاكم المجر الحالي عضواً في حكومة ناجي واظهر علناً تأييده لها . أما فرنك منيش فقد كان لبضعة أيام وزير الداخلية في حكومة ناجي . غير ان هذين الرجلين اختفيا فجأة دون انذار في ٢ تشرين الثاني تاركين ناجي وحده في الساحة . ثم ظهرا في المعسكر السوفياتي في اوزغورود . وبعد ذلك بيومين اذاع كادار بيانه الشهير على الراديو ، زاعماً أنه ألف حكومة جديدة وناشد الروس أن يرسلوا قوة لسحق الثورة . ثم عاد مع مونيش إلى بودابست بصحبة القوات الروسية تسانده الدبابات الروسية ، وأنشأ الحكم الجديد الذي ترأسه منذ ذلك الحين . وكان مونيش بوصفه وزيراً للدفاع وللداخلية ، هو المسؤول عن تدابير القمع القاسية التي أعادت المجر إلى النظام ثم صار رئيساً للوزارة في ١٩٥٨ ، في حين بقي كادار سكرتيراً للحزب . ومنذ وفاة مونتش ، حاول كادار أن يجري قدراً من الاصلاح في المجر وان يغطي إلى حد ما الدور الذي لعبه . والذي كشفه خروشوف عن مونيش يلقي ضوءاً على طابعه الخاص وموقفه بوصفه زعيماً سوفياتياً جديداً من البلدان الدائرة في الفلك السوفياتي .

(١) هذا مخالف للحقيقة فان المجريين وعدوا في الواقع تيتو بأن لا يلحق ناجي أي أذى اذا خرج من حماية السفارة اليوغوسلافية في بودابست . وقد غضب تيتو كثيراً عندما اعتقل . ولا يذكر خروشوف تلك الحقيقة الصغيرة بأن ناجي نقل بعدئذ من السجن واعدم رمياً بالرصاص . كما انه لا يشير إلى اعتقال الجنرال بال ماليتر واعدامه عندما اجتمع بالروس للتفاوض بعد ان امنوه على حياته .

غير رأيه واقترح ان نجتمع علناً في بوخارست . وكنا نحن قد صفينا نزاعنا مع يوغوسلافيا بعد وفاة ستالين ، ولم نكن نرى سبباً لاثارة نزاع آخر . فتحدثنا حول كيفية تحسين العلاقات التجارية وقلت ان ليست لنا اية مطالب للسيطرة على يوغوسلافيا ، وكررت تقيدنا بمبدأ عدم التدخل في شؤون يوغوسلافيا الداخلية .

ومر بعض الزمن ورأينا ان الامور لا تسير سيراً حسناً في المجر ، فبحثنا الحالة في البريزيديوم وقررنا انه لم يعد باستطاعتنا ان نتركها تستمر على تلك الحال . واصدر البريزيديوم امراً إلي كي أطير إلى بودابست لاجراء محادثات مع الزعماء المجريين .

وكانت امالي الخاصة معلقة على مونيش . فقد ظننت بانني استطيع التعامل معه افضل من التعامل مع كادار . وقد كان مونيش ذئباً عجوزاً داهية مجرباً خاض غمار الثورة المجرية مع بيلاكون وعاش في الاتحاد السوفياتي فترة طويلة من الزمن . وقد ظننت انه مستعد اكثر من اي شخص آخر لمعالجة المشاكل التي كانت لا تزال تواجه المجر .

وعند وصولي وجدت من استقبلني في المطار ونقلني بالسيارة إلى المدينة . وكان قد سبق لي ان زرت بودابست في ١٩٤٦ ، فوجدتها الآن لا تزال جميلة كما كنت اتذكرها وان يكن هنالك بعض آثار القتال على الجدران التي اصابها الرصاص ، وحتى بعض الخرائب .

واقيمت لي مأدبة في قاعة مظلمة ولا اعلم لماذا كان الضوء هكذا خافتاً . وكنت في الغرب قد حضرت مآدب على ضوء الشموع ، ولكنها كانت دائماً تقام لمناسبة الاحتفال بنصرنا . ولم يكن هنا في بودابست مناسبة من هذا النوع . ولعل الوليمة كانت معتمة لان النور كان خفيفاً جداً . وكانت القيادة بكاملها حاضرة . قدم لنا المجريون « الغولاش » اللذيذ والنبيذ الممتاز ، ثم لم يلبث أن دار الحديث حول الشؤون السياسية . وقال مونيش رداً على انتقاداتي : « كنت كما تعلم ، سفيراً لبلادي في موسكو اثناء عهد راكوزي ، لذلك لا يمكنني ان اكون مسؤولاً عما حدث » . فسألته عن الصحافة المجرية التي لا تزال في سياستها غير ملتزمة بالموقف المطلوب ، فقال : « اسمع ايها الرفيق خروشوف ، انا لست مكلفاً بالاشراف على الصحف ، فهذه من مهام غيري من الرفاق . »

وبالاختصار ، كان لا يزال هنالك مشاكل ، وهذه هي الحال دائماً عندما تمر البلاد والحزب في مثل تلك الانتفاضة الشديدة . وكان من آثار التمرد السيئة ان الجيش المجري كان في حالة فوضى وضعيف المعنويات . ولم يكن الجيش بكامله قد اشترك في الثورة المضادة ، غير ان افراداً من الضباط ، وعددهم قليل ،

اشتركوا اشتراكاً نشيطاً فيها (١) . وبعد سحق الثورة المضادة ، وسقوط عصابة ناجي ، بقي قدر معين من التردد والتذبذب بين ضباط الجيش . لذلك طلبت حكومة الرفيقين كادار ومونيش من جميع الضباط ان يحددوا موقفهم السياسي ازاء الاحداث ، مما ادى إلى ان قسماً منهم اقسموا اليمين ان يخدموا الشعب المجري بامانة واخلاص ويقوموا بتنفيذ اوامر الحكومة المجرية . وقد امتنع عدد قليل من الضباط عن توقيع هذا القسم ، وادى امتناعهم هذا إلى الاستغناء عنهم وكانت نتيجة ذلك ان الجيش نقص في الكمية ، ولكنه تحسن في النوع .

اما الحياة في البلاد فبدأت تعود إلى طبيعتها بالرغم من الاتهامات التي كانت ترددها الصحف البورجوازية والدعاوة المشوهة للحقيقة المفتراة في الخارج بان الاتحاد السوفياتي قد قمع ثورة شعبية في المجر .

وطلب الرفيق كادار ولجنة الحزب الشيوعي المجري المركزية من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ان توفد مستشارين لمساعدتهم على اعادة تنظيم صناعة الفحم التي كانت في حالة تعسة . ونزولا عند طلب الحكومة واللجنة المركزية المجرية ، قمت بعدد من الرحلات إلى المجر في ١٩٥٧ .

وحدث مرة عندما كنت هناك في الصيف ان كادار قال لي انهم عازمون على اقامة اجتماع حاشد امام سفارة الولايات المتحدة ، ستكون له اهمية خاصة لان الكردينال مندزنتي وهيئة موظفي السفارة الاميركية سيكونون على شرفة السفارة يراقبون الاجتماع . وكان مندزنتي رئيس الكنيسة الكاثوليكية في المجر ويمثل الجناح الاكثر رجعية في قوات الثورة المضادة التي كانت تصدت لضرب الحكومة المجرية وكيان الاشتراكية في المجر في ١٩٥٦ . ولجأ بعد سحق الثورة المضادة إلى السفارة الاميركية واختبأ فيها وبقي هناك سنين طويلة .

واذا كان ليس باستطاعة مندزنتي والاميركيين ان يسمعوا الخطب التي تلقى في الميدان ، فانه لمن المؤكد ان يكون لهم عملاء منتشرون بين الجمهور يدونون في مذكراتهم كل ما كان يحدث او يقال .

وكان لدينا سبب آخر يحملنا على الاهتمام بذلك الاجتماع . ذلك انه عندما انتشر خبر وصولي إلى المجر ، بدأ الصحافيون الاميركيون يطلقون اصواتهم قائلين ان خروشوف لن يجرؤ على الظهور امام الجمهور ، لأن المجريين لن يغفروا له استعماله القوة لسحق الثورة المضادة . وكنا نتوقع الكلام الهراء من

(١) القسم الأكبر من الجيش المجري انضم للثورة .

الصحافة الاميركية .

وتولى كادار افتتاح الاجتماع . والح علي الرفاق المجريون ان اتكلم . ولم يكن باستطاعتي الرفض . وفي الكلمة التي القيتها ، انحيت باللائمة على العمال والمثقفين في المجر لسماحهم بوقوع تمرد ضد الثورة في بلادهم .

وفي اثناء الاجتماع قال كادار : « انظر هناك إلى اليسار فترى السفير الاميركي واقفاً مع رجاله ، كما ترى مندزنتي ايضاً » . وعندما انتهى الاجتماع قلت : « ايها الرفيق كادار ، دعنا ننزل عن المنصة نتمشى وسط الجمهور » .

فابتسم وقال : « هنالك حشد كبير ، كما تعلم » . فقلت : « وهذا يزيدني رغبة ، فاننا بهذه الطريقة نظهر للصحفيين الاميركيين وللسفير الاميركي ومندزنتي ان خروشوف لا يخاف من الظهور ، وانه لا يزال يختلط مع الشعب ، يغسل عقولهم ، كما يقول الصحفيون الاميركيون الذين يريدون السوء للاتحاد السوفياتي وللمجر » .

وكانت كلمتي التالية التي القيتها في اكبر مصنع للالات الميكانيكية في المجر .

ومن هناك ذهب الرفيق كادار ، وانا برفقته ، إلى منطقة مناجم الفحم حيث كان يتزعم المقاومة الحزبية السرية اثناء الحرب . ولما كنت انا شخصياً عاملا سابقاً في المناجم ، فقد شعرت ان باستطاعتي ان اتخذ اسلوباً صارماً مع عمال مناجم الفحم . فقلت اني شديد الخجل باخواني عمال المناجم الذين لم يرفعوا اصواتهم ولا قبضاتهم في وجه الثورة المضادة . انهم لم يسهموا في التمرد ولكنهم لم يقوموا باية مقاومة ضده ايضاً . وعندما انتهيت من كلامي ابدى عمال المناجم اسفهم وقالوا انهم يشعرون بالندم لارتكابهم مثل هذا الخطأ السياسي الفاضح ووعدوا بانهم سوف يفعلون كل ما يستطيعونه لعدم السماح بوقوع ما وقع مرة اخرى .

ثم انتقلنا إلى اجتماع حاشد في مصنع الفولاذ على الدانوب الذي جهز بقرض منا . كان قائماً في بلدة تعرف باسم «ستالينوفاراش» ، غير ان اسمها استبدل باسم آخر . وسألني الرفيق كادار ذات مرة : « هل من المناسب ان تجتمع بوفد من المثقفين عندنا ، فنوجه دعوة للعاملين في اكاديمية العلوم وفي المعاهد الاخرى » . فوافقت على ذلك وسررت اذ وجدت في ذلك الاجتماع ان المثقفين ايضاً ادركوا ضرورة التدابير التي اتخذت .

وفي جميع هذه الاجتماعات كنا نلقي بيانات نفضح فيها مكائد الثورة المضادة العالمية ، والامبريالية العالمية الرامية إلى اعادة الرأسمالية إلى المجر . وكان الرفاق المجريون من ناحيتهم يظهرون للصحافة البورجوازية ان الشعب المجري ابعد كثيراً من أن يضمر اي سوء نحو الاتحاد السوفياتي ، بل انه يشكر لنا

وبجيشنا ما ادينا من واجب المساعدة على سحق الثورة المضادة . وكان لكل من الحاضرين ملء الحرية في أن يقول ما يجول في خاطره . وكان يسود هذه الاجتماعات جو من الابتهاج والحماسة . وهكذا ابدى الشعب المجري موافقته التامة على التدابير التي عزمت على اتخاذها الزعامة الجديدة للحزب المجري وللحكومة المجرية .

واتفقت وجهات نظرنا مع الزعامة الجديدة على ان التمرد أثاره اساءة ستالين استخدام سلطته ، وان بذور الخلاف زرعها في المجر مستشار ستالين راكوزي . وبعبارة اخرى ، كانت الثورة المضادة نتيجة اخرى لنفسية ستالين المريضة التي كان لينين قد حذرنا منها في وصيته (١) .

واني اذكر اننا عندما اقترحنا مشروعاً يرمي إلى انقاص قوات الجيش السوفياتي المرابط كحاميات في مختلف انحاء اوروبا الشرقية ، سألت المجريين رأيهم في ذلك وقلت لكادار « ما رأيك في احتمال سحب قواتنا من المجر ؟ هل تستصوب ذلك ؟ اننا نعتمد على حكمك في هذا الصدد ونحن نفعل كل ما تقرره » . فاجاب : « ايها الرفيق خروشوف ، اظن انه من الافضل ان تقرر انت هذا الأمر . وباستطاعتي ان اقول لك شيئين : الأول هو ان ليس هنالك اي امتعاض في بلادنا من وجود قواتكم في اراضينا ، اقول هذا بصراحة تامة ؛ والثاني هو ان هنالك شيئاً واحداً فقط يقلق الشعب المجري ، عمالا وفلاحين ومثقفين على السواء ، وهو ان لا يعود راكوزي إلى المجر » . وفي ذلك الوقت كان راكوزي يعيش في الاتحاد السوفياتي . ويبدو انه كان هنالك في المجر قوى لا تزال تعطف عليه وتأسف لسقوطه من الحكم ، كما كان هنالك قوى في الاتحاد السوفياتي تؤيد ستالين حتى بعد ان اثبتنا جريمته نحو الحزب .

والآن ، اني ادرك ان من الناس من يزعم ان حكومة كادار تساندها موسكو ، وانها انشئت تحت رعايتنا ونفوذنا . على اننا نستطيع ان نجيب على ذلك بطرح السؤال الآتي : تحت اية رعاية قامت حكومة ايمري ناجي ؟ ولمن كانت الطائرات التي نقلت العملاء البورجوازيين والمهاجرين المضادين للثورة إلى المجر ؟ انها الامبريالية العالمية ، وخصوصاً الولايات المتحدة (٢) . وعدا ذلك ، فقد كانت

(١) بعد أن كان خروشوف قد صرح مرة أن القضية كلها سببها ناجي تحول الآن ليقول أنها قد تسببت عن تصرفات ستالين وراكوزي .

(٢) مما لا ريب فيه ان عدداً من المهاجرين المجريين عادوا إلى المجر عندبدء الثورة ، غيران الدول الغربية المنهمكة حينئذاك بقضية السويس وقفت على الحياد .

حكومة كادار نتيجة انتخاب جرى في مؤتمرللحزب المجري ترأسه راكوزي بالذات . هكذا ادحض مزاعم اولئك الذين يزعمون ان كادار وحكومته كانوا — اذا استعملنا تعبيراً فظاً — العوبة في ايدينا وعملاء لنا .

واود ان اكون واضحاً كل الوضوح بصدد هذه المسألة . اننا ، في الاتحاد السوفياتي ، نؤيد القوى الثورية في العالم . ونحن انما نفعل ذلك قياماً بالتزاماتنا ، ورغبة منا في اخذ قسطنا من نضال الطبقات العاملة تحت العلم الاحمر يزينه الشعار « يا عمال العالم اتحدوا » . اننا ضد تصدير التغييرات إلى الخارج ، ولكننا ايضاً ضد تصدير الثورات المضادة . وذلك هو السبب الذي يجعل مساعدة الطبقة العاملة في اي بلد من البلدان ، في نضاله ضد قوات الرأسمالية ، أمراً لا يمكن التخلي عنه . وهذا ما فعلناه في المجر . ونحن بمساعدتنا الشعب المجري على سحق الثورة المضادة ، منعنا العدو من تفكيك وحدة المعسكر الاشتراكي . وقد حاز ذلك على تأييد جميع الطبقات العاملة والعناصر التقدمية في العالم بأسره .

لهذا فاني اقول : نعم ! ساعدنا المجر في ١٩٥٦ . وكما قلت مرة في اجتماع حزبي حاشد : اننا وفينا ديناً علينا للمجر كان يثقل كاهلنا منذ ١٨٤٨ . ففي ذلك العام ، قامت ثورة ناجحة في بودابست ، غير ان نقولا الأول سحق بجيوشه تلك الثورة واعاد الحكم النمساوي الملكي إلى المجر ، فكان ذلك عاراً مخجلا . وهو عار لا يلحق ، طبعاً غير نقولا الأول وحاشيته لا العمال ولا الفلاحين في الامبراطورية الروسية سابقاً . ومع ذلك كانت بلادنا تشعر بوطأة هذا الدين إلى ان تسنى لنا ، في ١٩٥٦ ، وفاؤه . وهكذا اصبح الآن « لا علينا ولا لنا » .

١٦

عبد الناصر والسويس وسد أسوان

كان خروشوف في وصفه لعلاقات الكرملين مع الرئيس عبد الناصر أكثر توسعاً وأكثر تفصيلا وأكثر صراحة واستقامة وأقل تحفظا مما كان في أحاديثه عن شرقي أوروبا . وقد سهل التغلغل السوفياتي في الشرق الاوسط تخلي الاميركيين عن مشروع سد أسوان . ثم ان أزمة السويس التي تلت ذلك كانت إلى حد بعيد قصة توفيق . وبالرغم من أن خروشوف يحرف بعض الحقائق ليجعل دور السوفيات يبدو أكثر واقعية ووثوقاً مما هو ، فلم يكن هنالك سوى القليل من التصرفات التي عليه أن يخفيها. وأكثر ما تبرز أهميته بوضوح جهل السوفيات لحقيقة الحالة في مصر ، قبل تأميم قناة السويس في ١٩٥٦ ، وفي العراق بعد ذلك .

لا أنكر أننا واجهنا بعض الصعوبات عندما أوجدت العناصر المعادية للسوفيات حالة حرجة في بولونيا والمجر . وبينما كنا نعالج هذه المشاكل اجتمع دبلوماسيون انكليز وفرنسيون من الفئة الثالثة مع رجال سفارتنا في لندن وباريس حول فنجان قهوة أو كأس من النبيذ وقالوا : «يبدو انّ لديكم بعض المتاعب في بولونيا والمجر واننا ندرك كيف يحدث ذلك أحياناً . ونحن أيضاً نواجه بعض المتاعب في مصر ، فلنتفاهم بصورة صامتة في ما بيننا على أن تصفوا انتم متاعبكم بأية طريقة ترونها موافقة ، وان لا تتدخلوا بينما نحن نصفي متاعبنا.» وبعبارة أخرى ، حاول الامبرياليون أن يستغلوا المتاعب التي نعانيها في بولونيا أو المجر ، لكي يرسلوا قواتهم إلى مصر لاعادة الحكم الاستعماري إلى سابق عهده فيها .

لقد تخلصنا نحن سريعاً من متاعبنا في بولونيا . وحالما انتهينا من سحق التمرد في المجر اتجهنا حالاً إلى الاهتمام بانهاء الحرب التي كان الاستعماريون يديرون رحاها ضد الرئيس المصري عبد الناصر(١) .

ان استعمال نفوذنا الدولي لوقف اعتداء انكلترا وفرنسا واسرائيل على مصر في ١٩٥٦ كان نقطة تحول تاريخية . فقبل ذلك الزمن كان الاتحاد السوفياتي — وروسيا الامبريالية قبله — ينظر إلى الشرق الأدنى على انه يخص انكلترا وفرنسا . وكان الملك فاروق قد طلب مرة من ستالين ان يبيعه أسلحة لكي يستطيع ان يرغم بريطانيا العظمى على اجلاء قواتها عن مصر . غير ان ستالين رفض تلبية طلبه وقال بحضوري ان الشرق الادنى هو جزء من منطقة نفوذ بريطانيا ، ولذلك فاننا لا نستطيع أن ندس انفنا في شؤون مصر . ولم يكن ذلك لان ستالين لم يكن يريد أن يتحرك نحو الشرق الأدنى — اذ كان في الواقع يود كثيراً ذلك — ولكنه كان واقعياً يدرك ان ميزان القوة ليس لمصلحتنا ، وان بريطانيا لم تكن لتسكت عن تدخلنا.

على ان الأمور تبدلت في السنين التالية . فاقتصادنا وقواتنا المسلحة وثقل نفوذنا في الشؤون الدولية ، كل ذلك ازداد زيادة عظيمة جداً . وعندما جاء عام ١٩٥٦ كنا قد صرنا قادرين ان نخطو إلى الأمام ونساعد الرئيس عبد الناصر والشعوب العربية . وليس معنى ذلك اننا نريد ان نحل محل انكلترا في استغلال مصر وبلدان عربية اخرى ، أو اننا مدفوعون بمصالح ذاتية ومركانتلية . بل على العكس ، كنا لا نريد إلاّ مساعدة هذه الشعوب لنزع نير عبوديتها واتكاليتها على أسيادها الاستعماريين . كانت مهمتنا في الشرق الأدنى مهمة شريفة . لقد كانت دبلوماسيتنا تستند على مبادىء لينين ذاتها في السياسة الخارجية . وبدأنا فعلاً نجني ثمارها من مستقبل الامم العربية .

وعندما بدأنا نوجه اهتماماً فعالاً إلى شؤون مصر ، كان موقفنا مشبعاً بالحذر ، وكان تفاؤلنا منضبطاً متحفظاً .

وعندما تولى عبد الناصر مقاليد الحكم بعد الثورة التي نشبت في مصر(٢) ، لم

(١) الثورة المجرية . تم سحقها نهائياً في ٩ تشرين الثاني . وحرب السويس بدأت في ٢٩ تشرين الأول .

(٢) ان الاحداث على نوع ما متداخلة مشوشة في هذه الفقرات .

نكن نطمئن إلى أن سياسته سوف تحقق ما هو ضروري لاصلاح الكيان الاجتماعي السياسي في بلاده . ولمدة معينة بعد الانقلاب وبروز الكولونيل عبد الناصر كرئيس للدولة ، لم نتأكد من الاتجاه الذي سوف تتخذه الحكومة ا لجديدة المؤلفة من ضباط من الجيش ، سواء في السياسة الخارجية أو في السياسة الداخلية .

انبثقت الزعامة المصرية بالاكثر من الطبقات العليا في الجيش المصري ، وبعبارة أخرى من البورجوازية لا من الطبقة العاملة . وعلى العموم كان لهؤلاء ماضٍ يتمتع بالامتيازات ، وان يكن الحكم الجديد بعيداً جداً عن ان يكون متجانساً على الصعيد الاجتماعي .

وكنا ننزع إلى الظن ان انقلاب عبد الناصر كان في جملة الانقلابات العسكرية التي صارت عادة مألوفة في أميركا الجنوبية . ولم نكن لنتوقع انه سينتج عنه الكثير مما هو جديد ، على اننا لم نكن مخيرين إلا أن ننتظر لنرى ما يحدث .

وقد اعجبنا بما رأيناه ، فان المصريين بدأوا في السير على سياسة كانت لها مزايا كثيرة . اذ باشروا فعلاً بالضغط على الانكليز ليسحبوا قواتهم من البلاد . ولم يكن لدى الانكليز مجال للرفض فلبوا طلب المصريين .

وعلى هذا فقد قدرنا موقف عبد الناصر واحترمناه وأدركنا ان حكومته لم تكن مجرد حلقة اخرى من سلسلة الحكومات الجديدة التي تستولي على الحكم ثم تنتهج السياسات القديمة . كلا — ان الحكومة المصرية الجديدة كانت تضمر في قلبها مصلحة شعبها الوطنية — ولذلك فهي جديرة بكل احترام وتأييد . لقد اردنا مساعدة عبد الناصر لكي يواصل نضاله ضد الاستعماريين .

غير انه بقي هنالك صعوبة كبيرة في تحديد الاهداف السياسية الاجتماعية التي ترمي إلى تحقيقها حكومة مصر الجديدة . ذلك ان مقادير كبيرة جداً من الرساميل الأجنبية كانت لم تزل في البلاد وقد تركت الحكومة المصارف الخصوصية وشأنها . فحكومة عبد الناصر كانت بداهة حكومة وطنية غير انه كان يبدو كما لو انها آخذة في التحول إلى حكومة بورجوازية . وبالرغم من ذلك ، فقد كان من مصلحتنا أن نؤيد زعامة عبد الناصر البورجوازية لانها تبشر بأنها سوف تضعف نفوذ الاستعمار الانكليزي في الشرق الأدنى ، وهذا من صالح الاتحاد السوفياتي(١) .

(١) يبدو أن خروشوف في هذه المرحلة لم يستطع ان يقرر الهدف الاساسي الذي دفع الاتحاد السوفياتي الى مساعدة مصر .

وكانت علاقات عبد الناصر مع الرفيق تيتو أفضل حتى من علاقاته معنا . وعندما سافر تيتو إلى الهند ذهب بالباخرة عن طريق قناة السويس . وأفاضت الصحف اليوغوسلافية في كيل المديح للحكومة المصرية . وفي ذلك الوقت لم تكن علاقاتنا قد تحسنت بعد مع يوغوسلافيا . ولكن بعد ذلك بوقت قصير ، عندما اجتمعنا ، الرفيق تيتو وأنا ، لأول مرة لتبادل وجهات النظر حول القضايا الدولية ، امتدح تيتو عبد الناصر وسياسته كثيراً .

فتأثرنا بحديثه ، ولكننا أشرنا إلى أنه من الصعب التأكد من أن عبد الناصر يعتزم ان ينشىء حكماً تقدمياً في مصر أم لا . فلم يكن بعد قد مس البورجوازيين والبنوك .

فرد الرفيق تيتو على ملاحظتنا بقوله ان عبد الناصر شاب لا يتمتع بخبرة سياسية واسعة . وهوحسن النوايا ، لكنه لا يزال يفتقر إلى تدعيم سلطته في الحكم . وذكر تيتو اننا إذا اعطينا عبد الناصر فرصة ، فقد نتمكن في مابعد من ممارسة تأثير مفيد عليه ، سواء لخير الحركة الشيوعية أو لخير الشعب المصري . فمصالح الشعب في مصر ومصالح الإشتراكية متشابكة معاً . وعلى كل حال ، فان الاشتراكية تستطيع أن تنقل ثمارها إلى جميع شعوب العالم . لذلك فان رغبتنا في تأييد الحكومة المصرية في سياستها ليست مؤامرة تحوكها بلاد ضد بلاد اخرى ، ولكنه نمو طبيعي لرغبتنا في اشتراك أمة أخرى في اختباراتنا (١) .

وبعد وقوع الانقلاب بقليل، وبعد ان قرر المصريون أن يحاولوا إخراج الانكليز ، جاء ممثلو عبد الناصر الينا طالبين مساعدة عسكرية ، وقالوا انهم في حاجة إلى ان يكون لهم جيشهم الخاص ليمارسوا به الضغط على الانكليز ، فوافقنا على طلبهم وأعطيناهم أسلحة تراوح بين البنادق والمدفعية العادية . لكننا ، على ما أذكر ، لم نعطهم أية طائرات في بادىء الأمر ، بل دبابات واعتدة للبحرية . وقال عبد الناصر انه يحتاج ، في الأخص ، إلى زوارق طوربيد . وأظن اننا قدمنا لهم المساعدة العسكرية على أسس تجارية ، ولكن باسعار مخفضة .

وبعد شراء الاسلحة منا ، بدأ عبد الناصر — الذي صار مقرباً كثيراً من تيتو — بالتحدث عن بناء الاشتراكية في بلاده . على أنه تحدث عن الاشتراكية باسلوب من شأنه أن يجعلنا غير متأكدين إذا كان حقيقة يفهم ما يقول . وبدا أيضاً ان من

(١) هنا نرى ان الاتحاد السوفياتي يأخذ على عاتقه ما كان يسمى انه «عبء الرجل الأبيض» .

المحتمل أن تكون عنده بعض الدوافع البعيدة المرمى من وراء اعتناقه المبادىء الاشتراكية . وفي الأزمنة الحاضرة أصبحت كلمة اشتراكية تستخدم باسلوب مطاط . حتى ان هتلر كان يثرثر عن الاشتراكية ويطلق الكلمة على حزبه النازي (الاشتراكية الوطنية) . في حين ان العالم كله يعرف أي نوع من الاشتراكية كان هتلر يقصد . لذلك كنا حذرين ممن تبنوا كلمة اشتراكية بينما كان كل ما يهتمون به هو الحصول على مساعدة عسكرية منا .

كان أحب ما يتمنى الشعب المصري تحقيقه هو السيطرة على نهر النيل العظيم وتسخيره لخدمة إقتصاده . ومنذ الأزمنة القديمة ، كان المصريون يستعملون مياه النيل لري أراضيهم الزراعية الواقعة على ضفتي ذلك النهر . فمياه النيل هي أساس حياتهم الزراعية ، فضلاً عن أنها مصدر لم يستغل بعد لتوليد القوى الكهربائية. وعندما تولى عبد الناصر الحكم أخذ يروج لفكرة بناء سد . فدخل في مفاوضات حول هذا الموضوع مع الولايات المتحدة ، وتوصل إلى اتفاق مع أحد البنوك الأميركية المسمى «البنك الدولي» لاقتراض مبلغ من المال لبناء ذلك السد . واستسلم المصريون للوهم القائل بأن ذلك الحلم الذي كان يراودهم منذ قرون بعيدة سوف يتحقق .

غير ان وهمهم هذا لم يستمر طويلاً حين رفضت مصر السير على الطريق التي رسمتها لها الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ، فنتج عن رفضها هذا ان الامبرياليين غضبوا وأعلنوا فجأة أن القروض التي وعدوا مصر بها لبناء السد لن تعطى لهم .

فانفجر الرئيس عبد الناصر غضباً وأعلن ان مصر سوف تؤمم قناة السويس ، مما أدى إلى ارتفاع حرارة الوضع السياسي الدولي حتى درجة الخطر .

وعندما هاجم الامبرياليون مصر ، تشاورت مع مولوتوف الذي ، وان لم يعد من العناصر الفاعلة ، كان وزيراً للشوؤن الخارجية زمناً طويلاً مما جعله أكثر رجالنا السياسيين خبرة وتجارب . فطلبته على التلفون وسألته عن رأيه في فكرة خاطرتني «فياشيلاف ميخايلوفتش ، أظن انه يحسن بنا أن نفاتح رئيس الولايات المتحدة الأميركية لاتخاذ عمل مشترك ضد المعتدين على مصر.»

فأبدى مولوتوف ملاحظة صائبة ، وهي أن ايزنهاور لن يوافق مطلقاً على الانضمام الينا ضد انكلترا وفرنسا واسرائيل . فقلت له — انه ، طبعاً ، لن يوافق ، لكننا إذا نحن وضعناه في موقف يضطر فيه إما إلى الرفض ، فنفضح بذلك كذب بياناته العلنية في شجب الاعتداء على مصر ، وإما إلى قبول الاقتراح السوفياتي ، فيشترك معنا في حماية استقلال مصر . ثم أخبرت مولوتوف بوجوب

طرح الموضوع على البريزيديوم في الحال . وهكذا دعوت أعضاء البريزيديوم إلى الكرملين لعقد اجتماع عاجل . وفي هذا الاجتماع وضعنا صيغة الاقتراح وتولى شبيلوف وزير الشوؤن الخارجية الجديد ارسال مذكرتنا إلى الرئيس ايزنهاور متضمنة رأينا في أن تتحد قواتنا تحت علم الامم المتحدة.وأرسلنا أيضاً مذكرات إلى رؤساء وزراء بريطانيا وفرنسا واسرائيل طالبين اليهم فيها وقف هجومهم العدواني على مصر في الحال .

وبعد تسليم رسالتنا إلى ايزنهاور بفترة قصيرة ، نشرناها في الصحف . وقيل لنا ان الرئيس ايزنهاور قال للصحافيين عند تسلم مذكرتنا : «هذا لا يصدق ! هل الروس جادون في ما يقولون ؟ كيف يخطر في بالهم ان ننضم اليهم ضد بريطانيا وفرنسا واسرائيل ؟ انه لأمر لا يمكن تصوره ! » . وهكذا حققت مذكرتنا تماماً ما كان مفروضاً أن تحققه اذ اثبتت كذب زعم الاميركيين بأنهم يقاتلون في سبيل السلم والعدالة وعدم الاعتداء . قد يقاتلون بالكلام لا بالافعال ، وقد كشفنا حقيقتهم .

وفي ربيع ١٩٥٦ ، عندما كنا في لندن وأجرينا محادثات مع السادة إيدن ولويد ومكميلان وبطلر وغيرهم من رجال الدولة البريطانيين ، قلنا لهم صراحة ان لدينا صواريخ تصل إلى مرمى بعيد . ثم ، عندما هاجمت اسرائيل وبريطانيا وفرنسا مصر قالت الحكومة السوفياتية في رسالة وجهتها إلى رئيس الوزارة البريطانية : «ماذا يكون موقف بريطانيا ذاتها اذا هي هوجمت من دول أقوى منها تمتلك أسلحة هدامة من جميع الأنواع ؟ » وأضافت الرسالة ان تلك الدول تستطيع أن تفعل ذلك بدون أن ترسل اساطيل بحرية وجوية إلى الشواطىء البريطانية ، بل تكتفي باستخدام وسائل اخرى كالصواريخ مثلاً . ويبدو ان هذا البيان من الحكومة السوفياتية كان له تأثيره عليهم . فقد ظنوا ، قبلا ، على ما يظهر ، اننا «نبلفهم» عندما قلنا علناً ان لدى الاتحاد السوفياتي صواريخ بعيدة المرمى غير انهم ما لبثوا الآن أن تأكدوا أن لدينا في الحقيقة صواريخ . وكان لذلك أثره في نفوسهم .

وفي ذلك الحين طرت إلى جزيرة بريوني للتشاور مع تيتو حول حوادث المجر . وكان تيتو في تلك الجزيرة لاعتلال صحته . وأذكر انني سألته : «ألا ترى ان من الخطر وجودك هنا بينما هنالك حرب تدور رحاها في مصر ؟ فالطائرة تستطيع

بسهولة ان تلقي قنبلة على هذه الجزيرة فلا يبقى شيء منك أو من «الداشا» التي أنت فيها . ولا يستطيع أحد أن يثبت ان ذلك ليس نتيجة حادث طارىء .

« ان الانكليز والفرنسيين يعرفون كل شيء عن صلتك مع عبد الناصر ، وكل شيء ممكن حدوثه ! »

فقال رانكوفيك (وزير الشؤون الداخلية في يوغوسلافيا) : «نعم انني اكرر القول دائماً للرفيق تيتو بأن يعود إلى بلغراد في أثناء الحرب الدائرة في الشرق الادنى ، غير انه لا يريد ذلك . وهو يقول انه في حاجة إلى الاستحمام بالمياه المالحة الضرورية لشفائه» . ولكن إذا كان تيتو لم يعترف بأنه في خطر شخصي ، فقد اعترف بخطورة الموقف في الشرق الأدنى . وكان قلقاً على يوغوسلافيا ، وكذلك على مصر وعبد الناصر .

وفي مذكراتنا إلى الحكومات المعتدية الثلاث قلنا : «لقد هاجمتم مصر مع علمكم أنها أضعف منكم كثيراً ، غير أن هنالك بلداناً أخرى قادرة تماماً على المجيء للدفاع عن مصر .» وكنا بهذا نلمح بوضوح إلى أن الاتحاد السوفياتي هو إحدى تلك البلدان وانه على استعداد للتدخل اذا قضت الضرورة . ثم حذرناها اننا لا نستطيع البقاء على الحياد ، لأنه إذا استمر النزاع في الشرق الأدنى وانتشر ، فانه يهدد مصالحنا الوطنية . وكانت حكومتا انكلترا وفرنسا تعلمان حق العلم ان بيان ايزنهاور في شجب اعتدائهما كان مجرد بادرة ظاهرية . ولكن عندما وجهنا نحن تحذيرنا الحازم إلى المعتدين علموا اننا لم نكن نتلاعب بالرأي العام . ولذلك أخذوا كلامنا على محمل الجد . وقد قيل لي انه عندما تلقى غي موليه مذكرتنا أسرع إلى التلفون وهو لا يزال مرتدياً «البيجاما» وطلب ايدن . ولا أعلم اذا كانت هذه الرواية صحيحة ، ولكن سواء كانت صحيحة أو لم تكن ، وسواء كان مرتدياً البيجاما أو لم يكن ، فان ذلك لا يغير الحقيقة الآتية ، وهي ان الاعتداء توقف بعد ٢٢ ساعة من تسليم مذكرتنا . وكان علينا أن نوجه انذارنا مرة واحدة فقط — خلافاً للاساليب الصينية التي كانت توجه الانذارات الف مرة قبل أن يصبح لها أي مفعول .

وأظن أن باستطاعتي أن أوضح لماذا تراجعت اسرائيل من الأراضي التي استولت عليها بمساعدة فرنسا وانكلترا . فبالاضافة إلى حملنا الامم المتحدة على شجب الاعتداء ، فقد أعلنا في الصحف باننا كنا نجند متطوعين للخدمة في الجيش المصري

صفة سائقي دبابات وطيارين واخصائيين وما إلى ذلك . وبعبارة أخرى ، قررنا أن نقدم إلى مصر مساعدة جدية تتخذ شكل ارسال رجال قادرين على استخدام الأسلحة العصرية . ووضعنا شروطنا لاسرائيل بعبارات لا غموض فيها أو إبهام على الاطلاق : وهي اما ان تسحب اسرائيل قواتها وتذعن لقرار الامم المتحدة ، وإلا فانها تصطدم مع قوات مصر المسلحة وبعملها هذا قد تجد نفسها تواجه المتطوعين الذين جندناهم .

وكانت سياستنا موضع تقدير كبير من قبل الشعب المصري والرئيس عبد الناصر . وكان انتصارنا عظيماً عندما وضعنا نهاية للازمة وكان ذلك أيضاً انتصاراً عظيماً للقوات التقدمية في العالم ، عزز هيبة الاتحاد السوفياتي ليس فقط في أوساط الشعب المصري ، ولكن بين جميع الشعوب التي تحررت حديثاً من الاستعمار ولا تزال تواصل نضالها في سبيل الاستقلال .

ومع ان الرئيس عبد الناصر امتدحنا كثيراً ، الا أن اقواله اشتملت على حقائق دقيقة عن سياستنا بعد وقوفنا إلى جانب مصر في ١٩٥٦ . ولم يكن هنالك أية شروط ملحقة بدفاعنا عن مصر ، بل كانت تصرفاتنا قائمة على اسس إنسانية بحتة ، بعيدة عن الارتزاق والانتفاع الذاتي . والواقع أننا لم نكن بحاجة إلى ما يمكن الحصول عليه من مصر . فلدينا تقريباً كل ما تنتجه مصر ، فضلاً عن الكثير مما لا تنتجه : زيتنا وارزنا . وإذا كان هنالك شيء نحن في حاجة اليه ، فاننا نحاول دائماً الحصول عليه من بلدان أخرى بشروط تجارية أفضل كثيراً . ونحن على خلاف البلدان الاستعمارية لاحاجة بنا للالتجاء إلى الحرب أوالمكائد السياسية للحصول على مانريد .

على ان المصريين كانوا ، بعد زوال خطر الاعتداء الاستعماري ، يواجهون صعوبات خطيرة . فقبل تموز ١٩٥٦ ، كان معظم الذين يديرون شؤون قناة السويس والمرشدين الذين يتولون قيادة السفن في عبورها من الفرنسيين . وعندما أمم الرئيس عبد الناصر القناة ، استدعي هؤلاء جميعاً إلى بلادهم . وراود الغرب الأمل بأن تعجز مصر عن إدارة شؤونالقناة وحدها ، فتقع في متاعب مالية وسياسية ، فيفشل عبد الناصر ويثبت عدم كفاءة .

وكان أن اتجهت الحكومة المصرية الينا طلباً للمساعدة ، فارسلنا حالاً اليها المرشدين والمهندسين بحيث تيسرت الأمور واعيد فتح القناة حالاً باشراف الادارة المصرية .

وولّد هذا الوضع بكامله نزاعاً حاداً بين الدول الكبرى في الشرق الأدنى وكانت الازمة نتيجة اخرى لسياسة الضغط الاعتباطيّة التي كان يمارسها دالاس . لكن سياسات دالاس ارتدت عليه . وقد أسدى دالاس خدمة إلى مصر بطريقة ما .

إذ أظهر لناصر من هم أصدقاؤه الحقيقيون ومن هم أعداؤه . وقد أدرك عبد الناصر هذه الحقيقة . وفي ١٩٥٨ طلب زيارة الاتحاد السوفياتي .

وبعد درس طلبه في القيادة الجماعية أجبنا باننا على استعداد لاستقباله في أي وقت أراد . وتبادلنا نحن وجهات النظر في القيادة حول القضايا التي قد ترغب مصر في بحثها معنا ، وحرصنا على توفر الاجماع حول موقفنا ، ثم رأيت ان اجتمع بعبد الناصر اجتماع الند للند .

وجاء عبد الناصر بعد أن أمضى فترة استجمام في يوغوسلافيا . وقد ترك أثراً حسناً في نفسي منذ لحظة لقائي به . كان لا يزال شاباً يتسم بالتحفظ والرصانة والذكاء ، وتتألق الابتسامة دائماً على شفتيه . وأقول بصراحة انني اعجبت به كثيراً ، وقد تم اجتماعنا خارج مدينة نوفوي أويغاريفو . وكان عبد الناصر قد أصطحب سفيره غالب ، وهو رجل لامع ، لذيذ المعشر ، جدير باحترامنا ، وكان يتكلم الروسية جيداً ، وقام بدور المترجم لعبد الناصر .

وفجأة اتصل بنا نبأ انقلاب عسكري وقع في بغداد . فلقي النبأ ، بالطبع ، ترحيبنا ، لأنه كان يعني نهاية طال انتظارها لأكثر العهود رجعية وإرهاباً في العالم . وقد قتل الديكتاتور الحاكم ، وهو عميل خبيث عتيق للاستعمار الانكليزي . (١) ويمكن أن يسمى هذا الانقلاب ، بحق ، انقلاباً ثورياً . وكان باستطاعتنا أن نرى في الزعيم الجديد قاسم ممثلاً للقوات التقدمية في العراق . وكان لدينا ، بالفعل ، بعض المعلومات عن قاسم ، اذ كانت له اتصالات فردية مع الشيوعيين ، حتى انه كان يسمي نفسه شيوعياً . واستطعنا أن نرى من رد الفعل عند عبد الناصر ان نبأ الانقلاب كان مفاجأة تامة له ، وبدا بالطبع متحمساً وقال انه يجب أن يعود إلى الشرق الادنى حالاً . وكانت مصر وسوريا قد أنشأتا قبل انقلاب العراق بفترة قصيرة الجمهورية العربية المتحدة . وراود عبد الناصر الامل بأن تنضم حكومة العراق الجديدة إلى السياسة التي تنتهجها مصر ، وهي رغبة يمكن فهمها تماماً . ولكن ظهر فيما بعد أن ، لا الأمل الذي راود عبد الناصر ولا المعلومات التي كانت لدينا عن قاسم ، على شيء من الصحة . وظهر ان قاسم كان متقلباً في سياسته .

وأبدى عبد الناصر عزمه على العودة إلى يوغوسلافيا ومنها يسافر مع عائلته بالباخرة إلى الاسكندرية . ولكنني اقترحت عليه ان لا يركب الباخرة لان انقلاب العراق جعل الوضع قابلا للانفجار في المنطقة كلها ، إذ شرعت الولايات المتحدة

(١) الاشارة هنا هي إلى نوري السعيد

الأميركية وانكلترا وسواهما في تحريك وحداتها العسكرية والاستعداد للحرب . وهكذا يكون من السهل عليها إغراق سفينة في البحر دون أي اثبات . وأضفت قائلاً ان الأفضل له أن يطير من باكو (في ازربجيان السوفياتية) إلى إيران فالعراق فسوريا ، ثم إلى القاهرة .

ففكر عبد الناصر في ذلك ووافق على اقتراحي . وفي ذلك الوقت لم تكن علاقاتنا مع إيران سيئة ، على أنها لم تكن حسنة جداً أيضاً . لذلك لم نكن نستعمل الفضاء الإيراني بدون طلب اذن خاص ، على انني كنت متأكداً من ان الشاه لن يرفض طلبنا ، لاننا في أثناء زيارته للاتحاد السوفياتي شعرنا باهتمام كبير من جانبه في تحسين علاقاته معنا . ونحن ، طبعاً ، عندما طلبنا الاذن بأن يسمح لنا بالطيران فوق إيران لم نقل ان المسافر بالطائرة سوف يكون رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، بل ابتدعنا رواية اخرى . وبعد مرور وقت قصير على سفر عبد الناصر ، تلقينا خبر وصوله بسلام إلى سوريا .

كانت الوفود العسكرية المصرية التي اعتادت أن تزورنا بانتظام يرئسها عامر ، القائد الأعلى للجيش المصري(١) . وينبغي أن أذكر هنا أن هذا الرجل لقي في ما بعد نهاية فاجعة ، فقد انتحر بسبب الهزيمة المشؤومة التي لحقت بالجيش المصري ، حاملاً على عاتقه مسؤولية تلك الهزيمة . قد يكون عليه بعض اللوم ، غير انه من العسير علي أن احكم بذلك . على انني عندما عرفته ، كان يترك في نفسي انطباعاً بأنه رجل شريف ، حسن الصفات ، مخلص لقضية الشعب المصري .

وظننت في ذلك الزمن أن تيتو هو الذي وضع في رؤوس المصريين فكرة استخدام جميع أساليب الضغط الودي معنا لاقناعنا بأن نبني لهم السد الذي يرغبون في بنائه. والذي حملني على هذا الاعتقاد هو انه في كل مرة كنت القاه فيها كان يدافع بقوة عن عبد الناصر ويمتدحه كثيراً جداً . وكان دائماً يقول بوجوب مساعدة مصر . وقد أثبتت الأيام صدق رأيه . ومع مرور الزمن ، عملنا بمشورة تيتو . وكان لنا ، طبعاً ، خلافاتنا ، وكانت لصحافتنا أحياناً ما تنتقد به مصر . ولكن المصريين استطاعوا دائماً أن يعتمدوا علينا في الوقوف إلى جانبهم في الأوقات الحرجة .

لم يقبل المصريون كلمة «لا» ، في ما يتعلق بسد أسوان . وعرف عامر كيف يكون مثابراً ، دون أن يكون مزعجاً . وكان كلما جاء موسكو يطلب موعداً

(١) نائب القائد الأعلى للقوات المصرية ، وقد اعتقل بعد حرب الأيام الستة في آب ١٩٦٧ وانتحر في أيلول ١٩٦٧ .

للاجتماع بي شخصياً . وكان يجهد في إقناعي بأن مساعدتنا في بناء السد العالي تعود علينا بالمنفعة المتبادلة . وكان يصر على القول بأن السد سيزيد ثلث محصول المصريين الزراعي ، مما يعزز ثروة بلاده ورغبة الآخرين في استثمار اموالهم فيها . وكنت أوافقه على قوله ، ولكنني أذكر له عجزنا عن تقديم رأس المال الضخم المطلوب لبناء السد . وفي آخر الأمر ، طلبت قيادتنا من لجنة التصميم درس الاقتراح المصري بدقة وعناية . وبعد مدة من الزمن قدموا لنا تقديراً عما يمكن أن ينتج عن بناء السد من الفوائد الاقتصادية ، فضلاً عن السياسية . كنا طبعاً ، نسر ان تتاح لنا فرصة تحسين إقتصاديات أصدقائنا ، فنعزز بذلك علاقاتنا معهم . غير ان هذا من الاعتبارات السياسية ، ولكن المهم ان نتأكد من أننا لا نعطي أموالاً على غير طائل ، فاذا أعطينا المصريين أموالاً توجب علينا أن نتأكد من انهم يستطيعون إعادتها الينا ، بانتظام ، قطناً أو أرزاً أو بضائع اخرى(1) .

وهذا لا يعني اننا كنا نساعدهم لاغراض نفعية ، كلا ، على الاطلاق ، كان اهتمامنا سياسياً أكثر منه إقتصادياً ، اذ نكتسب فائدة لا تقدّر بثمن ، وهي ثقة الشعب المصري بنا وامتنانه لصنيعنا ، فضلاً عن ثقة العرب جميعاً وبقية البلدان المفتقرة إلى التطور والنمو ، خصوصاً ، في أفريقيا . ان مساعدتنا للمصريين تظهر ان الاتحاد السوفياتي يمكن الاعتماد عليه في بقية أنحاء العالم لمساعدة الشعوب الفقيرة التي تعمل على التحرر من حكم الاستعمار . وفوق ذلك ، كنا نعلم ان تعزيز قوة البلدان العربية تعني بالتالي إضعاف معسكر أعدائنا . وهكذا وقّعنا اتفاقاً مع المصريين على بناء سد اسوان . وفي أثناء المفاوضات ، اقترح المصريون علينا أن نتخذ دور المقاول المتعهد بتنفيذ المشروع . وكنا قد رفضنا مثل هذا الاجراء في الماضي مع بلدان اخرى ، كما رفضنا الآن مع مصر . وما ذلك إلا لاننا نضطر عندئذ إلى استخدام اليد العاملة المصرية بالاجرة ، مما قد يؤدي إلى علاقة صاحب العمل بالعامل ، بيننا وبين الشعب المصري ، وكان من شأن ذلك أن يجعلهم يبدأون بالامتعاض منا كأننا نسعى إلى استغلالهم . ورغبة في تفادي أي نزاع مع السكان المحليين اتبعنا سياسة عدم التعامل على الاطلاق كمقاولين أو متعهدين في البلدان التي نقدّم لها القروض .

لذلك قلنا للمصريين «اننا نقدم لكم كل المعدات والتصاميم ووسائل الصيانة

(1) قارنوا هذا بملاحظات خروشوف السابقة حيث قال : لم نكن في الحقيقة نحتاج إلى أي شيء نستطيع الحصول عليه من مصر .

والإشراف الفني الذي تحتاجون اليه ، غير ان الاخصائيين الذين نوفدهم اليكم يأخذون موافقتكم على جميع القضايا ، وانتم تعتنون باستئجار العمال بانفسكم » .

وكان توقيع معاهدة سد أسوان نقطة تحول اخرى في علاقاتنا مع المصريين ، اذ أعطتهم صورة صحيحة مفيدة عن نيّاتنا بالنسبة إلى البلدان التي كانت تتخلص من نير الاستعمار .

وبدأ مهندسونا وعلماؤنا في درس خرائط السد التي كان قد وضعها وقدمها المهندسون الغربيون . واعتقد رجالنا ان باستطاعتهم أن يجدوا طريقة أكثر تقدماً وأكثر حذقاً وأكثر كفاءة للسيطرة على موارد النهر لاقامة محطّة توليد القوى الكهربائية . واني أعتقد انه لتقدير واقعي للحقائق لا مجرد تفاخر ، ان أقول ان رجالنا الاخصائيين هم أكثر اقرانهم في العالم خبرة في بناء المحطات المائية لتوليد القوى الكهربائية . وقبل بدء العمل ، اقترح الزعماء المصريون أن يذهب إلى أسوان وفد سوفياتي للتعرف عن كثب إلى المشروع الذي سيتم به التعاون السوفياتي المصري . وقد اهتم المصريون بدعوتي شخصياً لرئاسة الوفد ، وأدركت لماذا أرادوا أن ينشئوا علاقات أفضل ، بالذهاب إلى القمة والتحدث معي شخصياً .

ولا أنكر أنني كنت أرغب كثيراً في زيارة مصر ، لأرى بام عيني تلك البلاد الاسطورية وثقافتها القديمة ، ولاحضر حفلة وضع الحجر الأساسي لمشروع سد أسوان ، غير انني لم أتمكن من تلبية الدعوة .

ومر بعض الزمن خطا فيه العمل خطوة واسعة في بناء سد أسوان وفي مشاريع اخرى كذلك . فقد بنينا أو بالأحرى مولّنا مصنعاً للفولاذ ، وآخر للادوية ، وعدداً من المصانع الاخرى ، وقرّب بناء سد أسوان بيننا وبين الشعب المصري والحكومة المصرية . وكان اخصائيونا يعملون جنباً إلى جنب على بعض الالات الميكانيكية مع المهندسين والفلاحين المصريين ، وتولّد قدر عظيم من الثقة والاحترام المتبادلين في ما بيننا .

ومع اقتراب المشروع من مرحلته الأخيرة — اغلاق أقنية النهر وتركيب التوربينات المائية — أصر المصريون على أن احضر تلك المناسبة الظافرة . وطلب إلي عبد الناصر أن امضي بعض الوقت في مصر . وقال ان ذلك يتيح لنا فرصة لتبادل الاراء في جو هادىء بعيد عن كل المشاغل . ولاغرائي على القبول ، أشار المصريون إلى ان هنالك عدداً قليلا من الشيوعيين لا يزال في السجن في مصر وانهم يعدون باخلاء سبيلهم احتفاء بزيارتي لمصر .

واتفقنا على قيامي بالرحلة ، فسافرنا في أيار ١٩٦٤ ، يرافقني وزير خارجيتنا أندريه اندريفيتش غروميكو ،ونائب وزير الدفاع غريشكو . وقد اضفنا هذا الاخير

إلى وفدنا لاننا أردناه أن يتولى المفاوضات مع الرفاق العسكريين في الجمهورية العربية . أما غروميكو فقد كانت معرفته الواسعة في الشؤون الخارجية لا غنى لنا عنها .

وحين وصلنا إلى أسوان، شعرنا كأننا دخلنا فرناً .كنت قد حذرت بأن الحر سيكون مذيباً في مصر ، وان السماء تمطر مرة واحدة كل بضع سنين . واذا كان مثل هذا المناخ مفيداً جداً للقضاء على بعض الأمراض ، إلا أنه كاد يكون غير محتمل بالنسبة لنا . ولحسن الحظ كان محل إقامتنا مكيفاً ، ولكن الوقوف تحت الماء البارد كان متعذراً لأن الماء البارد كان بارداً، نوعاً، بحيث انه لم يكن مغلياً على النار .

وقد لقينا استقبالاً لائقاً يتناسب مع مقامي الرفيع وعلاقاتنا الطيبة مع مصر .

وعندما أزفت الساعة الظافرة لسد النهر ، التفت الي الرئيس عبد الناصر وقال : «هذا السد سدنا ، ولكن انتم الذين بنيتموه بأموالكم وصممتموه بخبرائكم . ولولا مساعدتكم هذه لما كنا استطعنا أن نباشر العمل فيه . لذلك فاني أطلب اليك ان تتفضل وتشترك معي في تحريك المفتاح الذي يحول ماء النيل عن مجراه التمديم.» كان هذا شرفاً عظيماً ، فكيف أرفضه ولا أقبله شاكراً . وتقدمت مع الرئيس نحرك المفتاح ، فاذا بانفجار هز بدويه الفضاء وتدفقت المياه إلى المجرى الجديد .

وكانت هنالك جموع غفيرة احتشدت لمشاهدة هذا الاحتفال . واني لاعجز عن ان اصف كم كان عظيماً أن يرى المرء تلك الوجوه تشرق بنور البشر والفرح ، والعيون تلمع بنظرات النصر عندما بدأت مياه النيل العظيم تحرك التوربينات التي ستعطي مصر حياة جديدة . وقيل لي بعد ذلك ان رجلين سقطا في الأقنية فجرفتهما المياه . وكان هذا الحادث ، دون ريب ، نتيجة أهمال وقصر نظر .

واقيمت على شرفنا بعد ظهر ذلك اليوم حفلة استقبال في ناد مخصص لرجالنا الاخصائيين ، فالقيت كلمة فيهم ، ففرحوا للانباء السارة التي نقلتها اليهم عن سير الأمور في بلادنا .

وفي ذلك المساء ، عقد اجتماع كبير خطب فيه الرئيس عبد الناصر ، فدعينا لحضوره . وفيه قال الرئيس عبد الناصر لاول مرة ، على ما أظن ، ان مصر ستتبع النظام الاشتراكي . وفي الواقع قال ان الشعب المصري سينشىء مجتمعه على أساس «الاشتراكية العلمية» التي فهمنا انها تعني الماركسية ، وهو لم يذكر ماركس ولا لينين بالاسم لعدد من الأسباب . الاول لانه لا يزال يواجه بعض الصعوبة في التوفيق بين أفكاره وبين الماركسية ، والثاني لانه كان عليه أن يحسب حساباً لموقف بعض خصومه منه . ولكن الاهم من هذا كله ان أنصاره انفسهم لم يكونوا بعد

قد أدركوا تماماً فائدة الماركسية وما الذي تستطيع أن توفره لهم ، لذلك كان اختياره عبارة «الاشتراكية العلمية» ارضاء لتلك العناصر المختلفة ومسايرة لتلك الاعتبارات .
ومع ذلك ، فقد كان موقفه هذا ، في الوقت ذاته ، خطوة كبيرة إلى الأمام .
وخلاصة القول انني سررت من الكلمة التي القاها .

وكنت قد أعددت كلمة مختصرة قابلها جمهور الحاضرين استقبالاً حسناً .

وتكلم بن بيلا (الجزائري) الذي كان له أكثر الذين لقيتهم في مصر أثراً في نفسي ، اذ رأيت فيه رجل ثقافة وعلم ، يدرك حقيقة القضايا التي يتطلبها بناء الاشتراكية .
وقد القى كلمة ممتازة . ثم جاء دور عارف (العراقي) فكانت خطبته مليئة بالكلام عن الشعوب العربية ومصالحها وما إلى ذلك . وبينما كان يلقي كلمته ، كان بن بيلا يوجه نظره الي باستمرار . وكان يبتسم ، لعلمه بأنني اشاطره الرأي في عدم الموافقة على ما كان يقال . وعندما انتهى عارف من كلامه ، حاول بن بيلا أن يقنعني بالرد عليه . فقلت له انني تكلمت مرة وليس من اللائق ، بصفتي ضيفاً ، أن احول الاجتماع إلى مناقشة ، كما قد لا يرضي عبد الناصر . على ان عبد الناصر تدخل شخصياً وقال لي: « أود أن أطلب اليك أن تقوم على الفور وترد على عارف ، فانت بذلك لا تفتح جدلاً ولا حاجة بك إلى أن تذكر عارف باسمه . هيا ، اعرب عن وجهة نظرك في الموضوع ، فقد يكون ذلك مفيداً لعارف ولنا نحن.»

فوافقت ووقفت على المنصة وقلت فيما قلته ما يأتي : «كأني بعارف أراد أن يقول بأن للعرب جميعاً المصالح ذاتها، وبأنهم ليسوا منقسمين إلى طبقات ، وبأن على زعمائهم واجبات نحوهم . وهذا حسن. لقد كان لي نزاع مع عبد الناصر حول هذا الموضوع بالذات قبل بضع سنوات . غير ان عبد الناصر تخطى تلك المرحلة من مراحل تطوره الفكري . والظاهر أن عارف لا يزال بحاجة إلى التغلب على الخطأ الشائع في ادراك نوع المجتمع العربي وفهمه ، وهو ان ننظر إلى الشعب العربي كأنه كيان واحد موحد . فالمجتمع العربي له كيان اجتماعي معقد ، ككل مجتمع آخر ، والعالم العربي ليس كتلة واحدة . فهنالك عرب مستعبدون وعرب رأسماليون ، وهنالك عرب فلاحون وعرب ملاكون ، وهنالك عرب من الطبقة العاملة وبورجوازيون . وانه يجدر بنا أن نسأل زعيماً عربياً عمن كان يتكلم عندما كان يتحدث عن «الشعب العربي » و«المصالح العربية» ؟ فالفلاح العربي يريد أن يعمل في أرض هي ملكه الخاص ، في حين ان الملاك العربي لا يريد أن يتخلى عن أرضه بل يريد أن يستغل الفلاح . والعامل العربي يريد أن تكون ساعات العمل أقصر ، والأجور أعلى ، في حين أن الرأسمالي صاحب العمل يريد من العامل أن يعمل ساعات أكثر وبأجور أدنى . وعلى هذا ، فمن أي عرب كنت تتحدث ؟

هل عن العرب العمال ام عن العرب الرأسماليين ؟ »

وبدا جلياً للجميع انني كنت أرد على عارف واناقشه ، ولكن لم يظهر أن أحداً قد استاء وكنت راضياً عما قلته . وشعرت انني بذرت بذور الفهم الصحيح للبنية الطبقية .

على انني قدرت الاسباب التي جعلت عارف يتحدث كما تحدث عن «الاشتراكية العربية» . فمنذ سنين طويلة ، والشعب العربي يرزح تحت نير الاستعمار الانكليزي ، ثم اضطر ان يخوض الحرب ضد اسرائيل التي استولت على بعض أراضيه . فكان معنى الاشتراكية العربية عنده الوحدة العربية ضد عدو خارجي مشترك . وعلمت ان عارف عندما دافع عن الاشتراكية العربية ، بدل التنويه بالاشتراكية العلمية ، لم يكن يقصد إلى معارضة عبد الناصر الذي كان يمثل بالنسبة له مرجعاً مطلق السلطة . واظن أن عارف لم يتعمق في تفكيره ، وان ثمار الشعور الطبقي لم ينضج في صدره ، نتيجة الدخول في ميدان النضال الطبقي .

وقد سر بن بيلا وعبد الناصر كثيراً بكلمتي ، وخصوصاً بن بيلا ، لأنه كان أول من شجعني على الكلام . فاقترب مني في مابعد — ولاحظت انه كان الآن يدعوني باسم الرفيق — وقال : « ايها الرفيق خروشوف ، انك وان كنت على حق في انتقادك لموقف عارف ، تدرك ان علينا مع ذلك أن نتعامل معه ، وأن نؤيده إلى النهاية . فعارف يسير معنا في الطريق ذاتها ولن ينحرف أبداً . وهو في الوقت الحاضر يعمل في سبيل الوحدة العربية ، كما يفهمها . ولكن سوف يأتي يوم يدرك فيه هذا الذي قلته في كلمتك . »

وبعد ذلك أبلغني رجالنا الذين كانوا يفهمون اللغة العربية ان كلمتي استقبلت استقبالاً حسناً من العرب الذين سمعوها . وقال لي أحد الاخصائيين من رجالنا ان سائق سيارته العربي أخبره ان كلمتي فتحت العيون على معنى جديد للوحدة العربية . وقال ذلك السائق : «انني لم ادرك ذلك من قبل ، اما الآن فانني أدركت ان لنا ، نحن العرب مصالح طبقية مختلفة في ما بيننا ! »

كانت إقامتي في مصر ممتعة جداً . فقد زرنا دلتا النيل ، وانتقلنا بالقطار على طريق قناة السويس ، وأمضينا يومين أو ثلاثة أيام على ظهر سفينة في البحر الأحمر . وانطلق بعض الرفاق إلى السباحة في البحر ، أما أنا فقد تجاوزت تلك الهواية . وقد ذكرتني مناظر شاطيء البحر الأحمر بما لدينا من مناظر شبيهة على شاطيء بحر قزوين . ودارت بيننا أحاديث عديدة غير رسمية أثناء الرحلة بالسفينة ولكنها مفيدة جداً . وكان التنفس أسهل كثيراً هنا منه في الصحراء حول اسوان .

وزرنا الاقصر عاصمة مملكة قدماء المصريين ، بما فيها من الآثار والانصاب التاريخية الثمينة التي كان علينا ان ننقذها من الغرق في الفيضان الذي نجم عن سد اسوان(١). وزرنا ايضاً المصانع التي اقيمت بمساعدتنا وبعضها كان في طور العمل. واني لااذكر طوافي في مصنع الادوية الطبية الذي كنا قد قدمنا الاعتمادات لتمويله . فمن قبل كان المصريون ، وهم شعب فقير ، يدفعون مبالغ باهظة ثمناً للادوية المستوردة من انكلترا . أما الآن فصار باستطاعتهم أن ينتجوها باسعار أرخص كثيراً .

وكنت أعرف من الجغرافيا ما يكفي لأن أدرك ان الأرض على جانبي وادي النيل هي صحراء قاحلة غير اني مع ذلك دهشت عندما حلقت بنا الطائرة فوق المنطقة فرأيت من الجو ان الاطار الأخضر الذي معناه الحياة قد اتصل بفضاء الصحراء الخالي . اني لا استطيع أن انافس الذين يملكون المقدرة على الوصف المزوق ، غير انني مع ذلك أود أن اتناول ما تركته مصر من الانطباعات في نفسي . فبالرغم من المناخ الذي يصعب التعود عليه فان مصر بلاد غنية جميلة . فعندما كنت فتى صغيراً ، درست الكتاب المقدس . وكان الكاهن يرينا الصور ويروي لنا قصصاً عن الفردوس . وقد ذكرني وادي النيل كثيراً بما كنت اتخيله عنه في عهد طفولتي .

ومن الأمور المثيرة للاهتمام حول مضيفينا المصريين انهم يمتنعون عن تناول المشروبات الروحية . كنت أعرف من قبل ان الاسلام يحرم على المسلمين شرب الخمر . على ان المسلمين لا يتقيدون جميعاً بتعاليم دينهم . ومع ذلك فاني وجدت ان مضيفينا لا يقدمون في المآدب التي اقيمت في مصر سوى عصير الفاكهة ، وكان هذا العصير لذيذاً مطفئاً للعطش . وقد دلني اختياري هذا ان عصير الفاكهة المصرية أفضل وسيلة للراحة ، والانتعاش في جو من الحر المضني . واني أود أن اعبر عن امتناني الشخصي للحكمة التي أبداها النبي العربي ، عندما أوصى المسلمين ان لا يشربوا الخمور .

وترك في نفسي أبلغ أثر المقام الرفيع الذي يتمتع به عبد الناصر ، كزعيم لدى الشعب المصري . فحيثما اتجهنا كان يقابل بالهتافات الحماسية : ناصر ! ناصر ! ناصر . على اني شعرت ببعض القلق على صحته . ففي أثناء احدى رحلاتنا خارج الاسكندرية ، على ما اظن ، شعر فجأة بالاغماء فاوقف السيارة . وبدأت عيناه

---

(١) كان انقاذ الآثار والتماثيل المصرية القديمة من الغرق إلى الأبد تحت مياه السد عملاً دولياً على نطاق واسع جداً .

تدوران في حجريهما. واستلقى على المقعد معتذراً، ثم نقل إلى الاسكندرية . غير انه اصر علينا لمواصلة رحلتنا. وكان عامر يكاد لا يفارقنا . وكان هو وعبد الناصر صديقين ودودين ، يسكنان منزلين متجاورين . وكانت عائلتاهما تعيشان كأنهما شبه عائلة واحدة . وسرني ان أرى مثل هذين الصديقين المتلازمين ، وهما من الرجال الاذكياء أصحاب الرأي السديد ، يعملان معاً لرفع مصر من حالتها البدائية البائسة إلى حالة تصبح فيها مجتمعاً تقدمياً ذا اقتصاد مزدهر .

وعندما أخذني ناصر وعامر في رحلة إلى المناطق الريفية رأيت الفلاحين يحاولون بكل قواهم أن يستغلوا الأرض التي لهم ، أفضل استغلال ، وان الحكومة تحاول أن توفر الأحوال اللائقة .غير ان نظرتي العامة كانت ان الاصلاح الزراعي الذي كان يجري العمل على تنفيذه ، لم يوضع على اسس تقدميةثورية . على اني ، طبعاً ، تركت ملاحظاتي هذه في صدري ، فبصفتي ضيفاً ، كان ينبغي أن انظر واسمع ، لا أن ابدي اية مشورة لم تطلب مني . ومع ذلك ، فلم يكن بوسعي الا أن اقارن بين المتاعب التي يعانيها المصريون وبين النجاح الزراعي العظيم الذي كنا نصادفه ، مثلا ، في جمهوريات اوزبكستان وتركمانستان وتاذكستان من آسيا الوسطى . وبصفتي من أوائل العاملين في الاصلاح الزراعي ، شعرت برغبة ملحة في أن اخبر عبد الناصر بما كان يجول في خاطري .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، كنت مع عبد الناصر نتناول طعام العشاء وحدنا في فيلته بالاسكندرية ، فاثرت الموضوع بمنتهى الحذر . ونسيت ما إذا كنت قد دعوته الرفيق عبد الناصر أو حضرة الرئيس ، غير اني أذكر خلاصة ما قلته وهو : «لدي بعض الافكار التي أود أن اتبادل الرأي فيها ، رغم ترددي.»

ـ هيا ، قل لي ما يجول في خاطرك.

ـ افكر في الأراضي التي ستستغلونها للزراعة ، بعد الانتهاء من السد .

ـ من أية ناحية؟ اننا نصلح الأرض بتقسيمها وتوزيعها على أفراد الشعب ، فهنالك الآن نقص في الاراضي المخصصة للفلاحين.

لم يكن هذا جديداً علي ، فرأيت أن أذهب إلى أبعد من ذلك قليلاً ، فقلت : «نعم ، انكم تقومون بتنفيذ مشروع كبير جداً ، وأنا أعلم أنه سيعود عليكم بفوائد عظيمة . غير اني أرجو أن تسمح لي بأن ابدي بعض الملاحظات ، على ان لا تستاء . فانا أدرك انه لا يليق بي ، بصفتي ضيفك ، أن استغل تسامحك ولطفك هكذا ، وانما هي أرائي ، وانت غير ملزم بها .» فقال : «أرجوك ، قل ما تشاء . فكلي آذان صاغية .»

فقلت : «لو كنت مكانك لما قسمت الاراضي ووزعتها قطعاً على الفلاحين ، بل أنشأت ، بدلاً من ذلك مزارع حكومية ــ مما نسميه نحن «مشاريع الدولة السوفياتية الزراعية» . وقد اكتسبنا من هذه الطريقة خبرة واسعة في جمهوريات آسيا الوسطى ، حيث المناخ والتربة شبيهة بمناخ وتربة مصر . اننا نعمل على تنفيذ مشاريع كبيرة لتحسين الاراضي في السهول القاحلة . وقد قررنا ان لا ننشىء مزارع جماعية هناك ، بل بالاحرى ان نؤسس متحدات شبيهة بالمدن ، فيها كل شيء ، ابتداء بالمدارس وانتهاء بدكاكين الحلاقة . وهذا ، طبعاً ، يتطلب نفقات باهظة . غير ان الاختبار دلنا على ان ثلاثة أو أربعة مواسم جيدة تكفي لتسديد الاموال التي نستثمرها في المزرعة الحكومية . واني أضمن ان نظام المزارع الحكومية ، يجلب لكم أموالاً وفيرة جداً . وآمل ان لا تستاء اذا أنا قلت لك شيئاً آخر . عندما كنت في المدرسة ، قبل الثورة ، كنا نشاهد صوراً لطرق الري التي كانت مستعملة في مصر في زمان رمسيس الأول . واني استطيع ان أقول على أساس ما رأيته أن مصر تستعمل الطرق ذاتها اليوم ، في عهد عبد الناصر الأول ، مع ان الوف السنين مرت على ذلك. كيف نصلح هذا ؟ الجواب هو ان رجلاً يعمل في قطعة صغيرة لا يمكن ان تتوفر له امكانات إقامة مضخة على بئره ، كما انه لا يستطيع أن يستعمل آلة لزرع البذور أو لاعداد القطن. فآلات كبيرة كهذه ، حتى لو امكنه شراؤها ، لا يمكن أن تدور على رقعة صغيرة من الأرض . اني ادرك انك إذا قسمت الأرض ، فان الفلاحين يقبلون ذلك ويؤلهونك من اجل تقدميتك وسخائك . ويمكنك مع ذلك ان تتمكن من ادخال الاساليب الفنية في اصلاحاتك الزراعية . صدقني إذا قلت انك إذا وزعت الأرض قطعاً صغيرة على الفلاحين ، فان الفلاح المصري سوف يبقى تماماً كما هو الآن ، مستعبد لارضه كما كان لقرون كثيرة خلت .»

وانصت عبد الناصر إلى ما قلته باهتمام وانتباه ، ثم قال : «اني اخشى ان الذي تقترحه لا يمكن تطبيقه هنا . فليس لدينا الاخصائيون والمشرفون المتوجب وجودهم لانشاء نظام المزارع الحكومية . ثم ان هنالك مشكلة الفساد و الرشوة ، فاننا بالاختصار لن نتمكن ان نقيم رقابة كافية لمنع الاختلاس والسوق السوداء، مما يؤدي إلى ان المزارع الحكومية تتعرض لخسائر فادحة.»

فقلت له : «حسناً ، من شأنك أن تقرر ما تراه مناسباً ، لقد أبديت رأيي في الامر . وأنت تعرف شعبك أكثر من معرفتي له ، وتعرف مشاكلك وامكاناتك الاقتصادية أفضل مما اعرفها أنا . أما بشأن مسألة الفساد ، فباستطاعتي ان اخبرك اننا اضطررنا لمواجهتها نحن أيضاً ، ولكننا تمكنا من القضاء عليها . وأما بشأن

الاخصائيين ، فانك تستطيع ان تختارهم من بين ضباط جيشك وتبعث بهم الينا ، إلى الاتحاد السوفياتي ، لمدة سنة واحدة للتدرب في مزارعنا الحكومية ، بينما نحن نتمم العمل في سد اسوان . وبهذه الطريقة تكون على استعداد لاصلاح الأرض إلى أقصى إمكانياتها ، بدون إضاعة وقت.»

ثم انني ، في اثناء الحديث عن مسألة الرأي ،اخبرته عن مزرعة فرنسيّة زرتها مرة بدعوة من ديغول ، على مقربة من حدود اسبانيا ، فدهشت مما رأيته فيها من خصب ومن الطريقة المتبعة في ريها . كانت المياه تسيل في أقنية من الاسمنت المسلح انحدرت في شكل زوايا تسيطر على مستوى المياه . وكان هذا كله يدار بالآلات الميكانيكية . ومن شدة اعجابي بهذه الطريقة أرسلت بعثة من مهندسينا إلى فرنسا لدرسها (١) . ثم قلت لعبد الناصر ان طريقة الري الفرنسية قد تكون فعالة جداً في مصر ، ومن السهل العمل بها ، وكان قد بدأ ينصت باهتمام أكثر ويلقي بعض الاسئلة .

وبعد حين ، كنا منطلقين في السيارة من القصر الذي كنت مقيماً فيه إلى فيلا عبد الناصر ، واذا به يلتفت نحوي ويبتسم قائلا : «اتعلم أيها الرفيق خروشوف ؟ كنت افكر في حديثك ذلك اليوم ، وقد اخبرت عامر به . كان ما اقترحته مغرياً جداً ، وأرى الآن ان من المفيد جداً لنا أن نطالبك بتنفيذه ، وقد يكون من ورائه فائدة لكم أيضاً.»

فاجبته قائلا : «اذا كنت ترى ان ما اقترحته قد يكون خطة تقدمية يحسن بكم اتباعها ، فعندئذ تكون رحلتي الى بلادكم قد حققت أكثر مما كنت اتوقعه وأحلم به.» ثم قلت له ان على القيادة المصرية ان تجمع الفلاحين جميعاً ، ممن يحاولون استغلال مزارعهم الصغيرة بمعداتهم البدائية ، في وحدات إدارية كبيرة . وبعبارة أخرى تحويلهم إلى جماعات زراعية . وأضفت الى قولي انني اقدر تماماً مبلغ صعوبة هذا العمل ، اذ أننا عانينا مثل هذه الصعوبة عندما تبنى الاتحاد السوفياتي النظام الجماعي .

ثم انني بعد ذلك الحديث بزمن ، قرأت في الصحف ان عبد الناصر تبنى فكرتي تلك . وجاء فعلاً إلى الاتحاد السوفياتي وفد مصري لدرس طريقة المزارع

(١) هنا يظهر خروشوف أروع وألطف جانب من مزاياه ، مما لا يتوفر كثيراً في هذا الرد .

الحكومية . وسرني ذلك كثيراً ، خصوصاً لأن مشورتي لم يزل معمولاً بها حتى بعد أن تقاعدت من المنصب الذي كنت اتقلده ، اذ دل ذلك على ان عبد الناصر لم يكن فقط يراعي مركزي عندما أعرب عن اهتمامه بما عرضته عليه ، بل انه كان مقتنعاً بصوابه .

وبالاجمال ، أظن ان سياستنا نحو مصر كانت سياسة سليمة لا غبار عليها . وقد عادت علينا فعلا بكل فائدة . واني لا أزال على يقين من أن آرائي كانت صحيحة على الرغم من تذمر اولئك الحقيرين وهرائهم — اولئك الادنياء ، الضيقي العقول ، القذرين ، الذين أثاروا تلك الرائحة الكريهة وحاولوا أن يسمموا مياه علاقاتنا مع مصر . (١)

ان مصر الآن في ضيق . واني أذكر حديثي الأخير مع الرئيس عبد الناصر في أثناء زيارتي لمصر في ١٩٦٤ . فقد قال لي انه يواجه حالة متعبة في داخل بلاده وفي داخل العالم العربي ، وقال ان الجراح التي اصيبت بها الشعوب العربية من جراء قيام دولة اسرائيل لن تندمل أبداً ، لأن العرب طردوا من أراضيهم ، وان هؤلاء العرب يجدون انفسهم الآن في متاعب قاسية اقتصادياً وسياسياً .

وكنت قبل تقاعدي قد القيت خطباً من وقت إلى وقت ضد سياسة اسرائيل العدوانية ، واني ، بكل تأكيد ، مع عبد الناصر في موقفه .

وليس عندي ، أدنى شك ، في أن اسرائيل هي التي بدأت الحرب ضد مصر في عام ١٩٦٧. واني اعتقد انها ليست سوى لعبة دعائية عندما تقول اسرائيل انها مستعدة للدخول في مفاوضات مباشرة مع مصر للتوصل عن طريقة المفاوضة إلى تسوية للنزاع . اذ الواقع هو ان اسرائيل اتخذت ، منذ الحرب ، خطة عدوانية أكثر من أي وقت سابق ، وانها تترقب الفرصة لتستخدم القوة الحربية لتحطم قوات مصر المسلحة وترغم مصر على توقيع معاهدة الصلح على الشروط التي تريدها .

غير ان هنالك مسألتين لا استطيع فهمهما وقعتا قبل هجوم اسرائيل على مصر . اولهما ان ليس واضحاً على الاطلاق لماذا طلبت مصر ان يسحب يوثانت قوات الامم المتحدة من الحدود بين مصر واسرائيل ، فتلك القوات كانت رادعة ضد الاسرائيليين كما انها كانت تساعد على تفادي الاصطدام على الحدود . واني

(١) هذا الانفجار الفجائي اللاذع يشير إلى بعض الخصومات التي وقعت في داخل الكرملين حول أمور لا نعرف شيئاً منها .

أذكر اننا كنا قد اقترعنا إلى جانب قرار ارسال قوة من الامم المتحدة للمحافظة على السلام في الشرق الأدنى ومنع نشوب الحرب بين الدولتين المتعاديتين ، مصر واسرائيل . وانه لمما يتعذر علي ادراكه لماذا طلبت مصر سحب تلك القوات .

كما انني لا استطيع ان أدرك أي هدف كانت مصر تريد بلوغه ، عندما أقفلت قناة السويس في وجه اسرائيل وهي الطريق المائية الرئيسية التي كانت تسلكها اسرائيل بين البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر .

لقد استغلت اسرائيل هذه التصرفات التي قامت بها مصر ، فاستولى المعتدون الاسرائيليون على أراض مصرية . ولا تزال اسرائيل تستغل ذلك لتعقيد الامور أكثر فأكثر على مصر .

وهنالك شيء آخر : إذا كانت مصر مستعدة للحرب مع إسرائيل ، فلماذا تمكنت اسرائيل من سحق الجيش المصري في ستة أيام ؟

ان جميع هذه المسائل تستدعي حيرتي . وليس لدي أي تفسير لها ، لانني كنت قد تقاعدت عندما وقعت هذه الحوادث . وكل ما أعرفه هو اننا ، في المدة التي عنينا فيها بشؤون الشرق الأدنى ، تمشينا على سياسة لينينية صحيحة في روحها وهكذا جنت سياستنا ، فعلاً ، ثمارها ، لصالح شعبنا السوفياتي ولشعوب بقية بلدان العالم التي تؤمن بالتعايش السلمي وبحق تقرير المصير .

١٧
أزمة برلين

هنا وجهة نظر من موسكو مألوفة جداً في النزاع على المانيا. ومن المفيد ، بصورة خاصة ، وصف المواجهة المسلحة بين القوات السوفياتية والاميركية حين بني جدار برلين الذي يشير اليه خروشوف. ويعطي خروشوف هنا صورة مصغرة عن توالي الاحداث في ازمتي برلين : الاولى في تشرين الثاني ١٩٥٨ حين اعطت موسكو الدول الغربية ستة اشهر للجلاء عن برلين ، والثانية في ١٩٦١ على اثر اجتماع فيينا بين خروشوف والرئيس كينيدي اذ خرج خروشوف بفكرة خاطئة وهي ان بامكانه الاستئساد على الرئيس الجديد .

بعد سحق هتلر اختارت كل من المانيا الغربية والشرقية نظاماً سياسياً مختلفاً . فالمانيا الشرقية اختارت الاشتراكية ، بينما اتجهت المانيا الغربية نحو الرأسمالية (١) حين أخذنا نواجه مشكلة برلين الغربية بعد موت ستالين ، أدركنا ان الاتفاقية بصدد حصار برلين الغربية (١٩٤٨—١٩٤٩) لم تكن عادلة.(٢) فقد استغل الغرب التوتر الذي أوجده الحصار ليفرض على المانيا الشرقية شروطاً مجحفة ومخوفة عن اتفاقية بوتسدام ، وكانت الحالة الدولية في اوروبا كلّها غير ثابتة .

---

(١) لم يكن لالمانيا الشرقية خيار . فقد فصلتها عن الغرب القوات السوفياتية وحكمها شيوعيون مدربون في موسكو (اوتوغروتويل ويلهلم بك ووالتر اولبرخت) وقد اخمدت الدبابات السوفياتية بقوة انتفاضة شعبية في المانيا الشرقية بعد موت ستالين بثلاثة اشهر .

(٢) ان الحصار الجوي الذي فكه الجسر الجوي الحليف ، فرضه الروس لشل غرب برلين بمنع الوصول اليها . وان التوترات المشار اليها هنا سببها ستالين .

ان المانيا تشكل نوعاً من الباروميتر ، فادنى تبدل في الجو العالمي السياسي يسجل اضطراباً في ميزان قوى الجانبين المتواجهين .

كنا نرغب في تصفية التوتر الذي أخذ بالتفاقم بصورة خطرة حول برلين الغربية . وكنا على يقين من ان الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها تحقيق ذلك انما هي في عقد معاهدة صلح مع الغرب . وهنا نشأت مشكلة أخرى : ما هي الاسس التي بالامكان اعتمادها للتوصل إلى اتفاق مع الدول الغربيّة ؟ وكان قد بات متأخراً البحث في اتفاقية تؤول إلى توحيد المانيا، نظراً لأن لا المانيا الشرقية ولا المانيا الغربية كانت ترغب في قبول النظام الاجتماعي السياسي الذي تعتمده الدولة الأخرى . وهذا أمر فهمناه وقبلناه ، الا أننا رغبنا بصدق في التوصل إلى شروط عملية أكثر تعود بالنفع المتبادل ، والاستقرار وتعزيز قضية السلام ، وصيانة حقوق جميع الأطراف المعنيّة . وكان من الواضح ان الحالة الراهنة كانت عصيبة ، كما ان كلا من الجانبين كان حريصاً على تجنّب المجابهة العسكرية .

من هنا رأينا أن علينا السعي لوضع معاهدة سلام تثبّت الاوضاع الالمانية كما عيّنتها اتفاقية بوتسدام . وكانت اتفاقية بوتسدام تعتبر حلاً موقتاً بانتظار توصل الحلفاء إلى معاهدة سلام مع المانيا . كان اقتراحنا يرمي إلى اضفاء الصفة المشروعة والدائمة على حالة «دي‌فاكتو» موقتة . وكان أقصى ما نطلبه من الطرف الآخر ان يعترف بوجود نظامين اجتماعيين سياسيين مختلفين في المانيا : الاشتراكية في المانيا الشرقية والرأسمالية في المانيا الغربية . وبموجب اقتراحنا يكون لبرلين الغربية وضع خاص كمدينة حرة(١) . وكان من الجلي ان بعض بنود اتفاقية بوتسدام قد مر عليه الزمن ، فكان يقتضي على الأقل ادخال تعديلات على المعاهدة تتعلق باستخدام أرض المانيا الشرقية للوصول إلى برلين الغربيّة . وكان على الغرب ، حصراً لمصلحة التمسك بالقانون الدولي ، التوصل إلى تفاهم معنا حول هذا الموضوع . أما واقع الحال فكان ان الغرب أخذ يطرح تفسيره الخاص المتحيّز لمسألة حق المانيا الشرقية في السيطرة على حدودها ، ولم تستشرف اتفاقية بوتسدام امكان قيام هذه المشكلة — وهو نقص في الاتفاقية كان الغرب يحاول الافادة منه لاغراضه الخاصة(٢). وهذا

(١) هذا يشير الى ازمة ١٩٥٨ . كان الروس يطلبون ما هو أبعد من الاعتراف الرسمي بالتقسيمات في المانيا . كانوا يطلبون جلاء القوات الحليفة عن برلين الغربية .

(٢) ان اتفاقية بوتسدام لم تدعو الى التقسيم القسري والدائم لالمانيا .

كان سبباً آخر للمطالبة بمعاهدة سلم دائم . وهكذا كانت الحقوق المشروعة للجمهورية الالمانية الديمقراطية في خطر .

ورفضت الدول الغربية اقتراحنا القاضي بالاعتراف بجمهوريتين المانيتين . فواجهنا هذا الرفض بتحذيرها اننا قد نجد أنفسنا مضطرين للمبادرة منفردين إلى عقد معاهدة صلح . واقترحنا موعداً لعقد اجتماع بين البلدان التي ترغب في توقيع تلك المعاهدة ، وحذرنا من انه اذا رفضت بعض الدول التوقيع ، فان البقية منّا ستمضي وتوقع المعاهدة مع الجمهورية الالمانية الديمقراطية . وسنجد أنفسنا ملزمين عندها بالتصرف وفق بنود الاتفاقية الجديدة بصدد عدد من القضايا ، بما فيها قضية الوصول إلى برلين الغربية .

وفي الوقت نفسه كان والتراولبرخت وسواه من رفاقنا في الجمهورية الالمانية الديمقراطية يجابهون مشكلات خطيرة مصدرها الحالة الغامضة في برلين الغربيّة . فقد كانت برلين مدينة مفتوحة وتطرح على أساس هذا الوضع مشكلتين : أولاً ، مشكلة عبور الناس من برلين الشرقية إلى برلين الغربية . وهذا جعل الجمهورية الالمانية الديمقراطية تواجه عدواً متفوقاً عليها اقتصادياً ، وبالتالي ذا جاذبية كبرى لمواطني الجمهورية الديمقراطية . وكانت المانيا الغربية كلها موضع جاذبية للالمان الشرقيين ، لأن الطرفين يتكلمان اللغة نفسها . وكان الالماني في الشرق من ذوي المؤهلات الشخصية ، لا يواجه أية صعوبات في الحصول على عمل اذا ما انتقل إلى المانيا الغربية . وأخذت المانيا الشرقية على الأثر تعاني من نقص خطير في اليد العاملة — فضلاً عن المهارة — بسبب الهجرة .

ولو ان الامور استمرت على هذا المنوال ، لصعب التكهن بالنتائج . وقد صرفت قسماً غير قليل من الوقت وانا أبحث في ما عسانا نفعل ، ما هي الحوافز التي يحسن ادخالها في المانيا الديمقراطية لمواجهة القوة الكامنة وراء نزوح شباب المانيا الشرقية إلى المانيا الغربية . هاكم مشكلة خطيرة — مشكلة الحوافز . كيف نقيم أوضاعاً في المانيا الديمقراطية تمكن الدولة من ايقاف النزيف المستمر لقوتها العاملة (١)
أما المشكلة الثانية فكانت سهولة وصول البرلينيين الغربيين إلى برلين الشرقية . فقد كان بامكان المقيمين في برلين الغربيّة الانتقال بحرية إلى برلين الشرقية ، حيث

(١) انتقل خروشوف هنا الى نشوء ازمة ١٩٦١ . وفي تموز كان سيل النازحين من المانيا الشرقية الى المانيا الغربية قد أخذ يتعاظم (عشرة الا ف كل اسبوع) وترك ذلك آثاره الرهيبة في اقتصاد المانيا الشرقية .

يستفيدون من جميع الخدمات الاجتماعية ، كدكاكين الحلاقة وغيرها . ونظراً لانخفاض الاسعار في برلين الشرقية ، كان سكان برلين الغربية يبتاعون منها جميع المنتوجات الرائجة ، كاللحم والزيوت الحيوانية وما إلى ذلك من أنواع الطعام . وكانت المانيا الديمقراطية تفقد بالنتيجة ملايين الماركات .

من المؤكد ان معاهدة السلام لا تستطيع أن تحل جميع هذه المشاكل لأن وضع برلين كمدينة حرة كان مضموناً في المعاهدة وكانت الابواب ستبقى مشرعة . وقد بحثت الحالة مع الرفيق أولبرخت وقادة بقية الاحزاب الملتزمة بميثاق فرصوفيا، وشددت على ان أولبرخت حمل على منكبيه حملاً ثقيلاً جداً ، وان جميع البلدان لها قوانينها ، وحقوقها الاقليمية الخاصة بها ، وحريتها في تقرير السياسة المحليّة والخارجيّة . غير ان الجمهورية الالمانية الديمقراطية لم يكن لها ذلك كله ، مما عزز المشكلات الاقتصادية التي كانت تعاني منها المانيا الديمقراطية (١). وأخبرني الرفيق أولبرخت بنفسه ان اقتصاد المانيا الديمقراطية أخذ فوراً بالتحسن بعد السيطرة على الحدود ، وتدنّى الطلب على منتوجات الطعام في غربي برلين بعد أن حيل بين سكان برلين الغربية والتسويق هنا . وهذا يعني أن الكميات المحدودة من منتوجات الاستهلاك باتت متوفرة لمواطني برلين الشرقية .

وفضلاً عن ذلك فقد كان للسيطرة على الحدود في برلين تأثير إيجابي على السكان . فقد قوتهم هذه السيطرة وذكرتهم بأن مهمة بناء الاشتراكية كان تحدياً ذا أهمية ثابتة وخطيرة. وقد سرّ الالمان الشرقيون ، إذ رأوا حكومتهم قد استعادت السيطرة على حدودها ،مما حصن دولتهم ووطد اركانها .

ومما لا ريب فيه ان بعض الصعوبات وقفت في وجوهنا ، فقد وجد البرلينيون الشرقيون ، الذين كانوا يعملون في برلين الغربية أنفسهم فجأة بلا عمل. على انه لم تنشأ مشكلة بطالة لأن الذين فقدوا اعمالهم في الغرب كانوا من البنائين الذين كانت المانيا الديمقراطية بحاجة اليهم .

وجرت محاولات غير مشروعة للعبور إلى الغرب نتجت عنها بعض الحوادث على الحدود ، مما اجبر حرس الحدود على استخدام الوسائل الموضوعة تحت تصرفهم للحيلولة دون خرق الحدود (٢) . وقد استغل الغرب هذه الحوادث وضخمها حتى

(١) ان عبارة «السيطرة على الحدود» تشير الى جدار برلين الذي انشئ في ١٣ آب ١٩٦١.

(٢) ان حرس الحدود في معظم البلدان عادة يستخدم للحيلولة دون تسرب العناصر الغريبة الى الداخل لا لحصر المواطنين داخل حدود البلاد .

تخطت حجمها الطبيعي . انني أعرف أن ثمة نقاداً لاسيما في المجتمعات البورجوازية يزعمون باننا قد تجاهلنا ارادة المواطنين الالمان الشرقيين عندما عززنا سيادة الجمهورية الديمقراطية الالمانية بقفل حدودها ، كما أعرف أن ثمة من يزعم ان الالمان الشرقيين يؤسرون في الجنة وان أبواب الفردوس الاشتراكي تحرسها قوات مسلحة . انني أعي وجود خلل ، ولكنه خلل ضروري وموقت . كان مبتغانا دوماً أن نوجد في المانيا الديمقراطية الظروف التي يرغب فيها المواطنون . ولو ان الجمهورية الديمقراطية الالمانية بلورت بصورة كاملة الامكانات المعنوية المادية التي ستسخر يوماً لديكتاتورية البروليتاريا لكان المرور قد تحرر من كل قيد بين شرقي برلين وغربيّها .

ولكن من سوء الحظ ان على الجمهورية الديمقراطية الالمانية — وهي ليست وحدها في ذلك — أن تسعى للوصول إلى مستوى من النمو الخلقي والمادي يمكنها من التنافس مع الغرب . ان السبب هو بكل بساطة ان المانيا الغربيّة تملك امكانات مادية أفضل وبالتالي لديها سلع ماديّة أكثر من الجمهورية الديمقراطية . ولا ريب ان بعض الشيوعيين المتحذلقين سيحتجون «كلا ، انك تقلّل من انجازاتنا» وهكذا دواليك . ولكن دعونا ننظر إلى الأمر من زاوية واقعية. لو انه كان بتصرّفنا امكانات ماديّة أفضل وقدرة على سدّ حاجاتنا الماديّة ، لما كان من داع لشعبنا الا أن يرضى باحواله فلا يحاول بعض ابنائه العبور إلى الغرب بكثرة هددت كيان دولة مثل الجمهورية الالمانية الديمقراطيّة. (١)

وكان حلمي ان انشىء مثل هذه الظروف في المانيا حتى تصبح الجمهورية الديمقراطية واجهة الانجازات المعنوية والسياسية والماديّة فتجذب أنظار العالم الغربي وتحوز على تقديره . ومن الدوافع التي حملتنا على اقناع حلفائنا السابقين بتوقيع معاهدة السلام ، وبالتالي إعادة العلاقات بين دولنا إلى وضعها الطبيعي ، افساح المجال أمام التبادل التجاري والثقافي والسياحي .

غير اننا حتى لو استطعنا ايجاد الظروف التي يريدها مواطنو الجمهورية الالمانية الديمقراطية ، فان علينا الدفاع عن الحدود . وكنا سنفسح من الحرية القدر الذي تتيحه الظروف الماديّة . ولكن من الطبيعي انه في ظل ديكتاتورية البروليتاريا لا يمكن أن يتوفر شيء كالحرية المطلقة . أما البلدان التي تتبجح بحريّاتها ، فلو درسنا أوضاع

(١) ان صراحة هذه الاعترافات تسجل لمصلحة خروشوف وهي لهجة جديدة في تصريحات الساسة السوفيات .

مجتمعاتها بدقة لوجدنا انه ينتفي منها هي كذلك وجود الحرية المطلقة . وعلى المرء حتّى يتحسّس الروادع الخلقية أو القهر المعنوي أو العبودية المعنوية ، ان يملك مفهوماً نامياً ومصقولاً لكل معاني الحريّة . ان أكثر الناس ما زالوا يقيسون مدى حريتهم أو فقدانهم للحريّة على أساس مقدار اللحم أو البطاطا أو نوعية الاحذية التي يستطيعون الحصول عليها لقاء روبل واحد .

عندما أقمنا السيطرة على حدود الجمهورية الالمانية الديمقراطية اعتمدنا اعتماداً كثيفاً على قواتنا المسلحة المتمركزة في المانيا بعد الحرب . ولكننا حتّى ونحن نتخذ التدابير لحماية مصالح رفاقنا الالمان ، لم نسحب اقتراحنا الذي كان من شأنه اضفاء المشروعية على الحدود القائمة وضمان حياد مدينة برلين الغربيّة وحقها في تقرير المصير كمدينة حرّة . غير ان الغرب كرّر رفضه لمقترحاتنا وأخذ الآن يطالب بازالة الحدود التي أقمناها . وهددت الدول الغربية باللجوء إلى القوة . وقالوا بأنهم سيستخدمون الجرافات لهدم ولرفع الحواجز التي اقيمت . وقالوا أيضاً انه إذا اقتضت الضرورة فسيدعمون هذه التدابير بالقوة العسكريّة ، وانهم سيأخذون الأمر على عاتقهم لاعادة الاحوال التي تتيح تنقلاً لا تعترضه العوائق ، ذهاباً واياباً بين برلين الشرقية والغربيّة .

لقد أقمنا ما اعتبرناه حاجزاً صلباً على الحدود ، ولكن بعض التراكتورات صدمتها واخترقتها مندفعة بسرعة فائقة نحو برلين الغربيّة . فاقمنا على الأثر حواجز أصلب في تلك الاماكن حتّى لا يتكرر الامر نفسه ثانية .

وكان بوسع الدول الغربية ، لو شاءت ، ان تستمر في اتخاذ الاجراءات الاستفزازية . غير ان مثل هذا العمل لو تم من جانبها لأدى إلى مضاعفات خطيرة . ولكن لحسن الحظ أخذت تظهر مقالات فيها قدر من التفهم في الصحافة الاميركية حول ما يشتمل عليه من مجازفة استخدام الوسائل العسكرية لتصفية الحالة التي يمكن أن تنشأ .

لقد قدرنا أن الغرب لا يريد ان يكون البادىء باندلاع شرارة الحرب ، وكان تقديرنا هذا في محله . ان اشعال حرب من أجل برلين كان عملاً غبياً لو حصل . لم يكن من سبب موجب لذلك . ان إقامتنا المسيطرة على الحدود في الجمهورية الالمانية الديمقراطية لم يكن ليعطي الغرب لا الحق ولا الذريعة في حسم نزاعنا بالحرب. وفي ذلك الحين كان كيندي قد أصبح في البيت الأبيض . وكنت قد اجتمعت اليه في فيينا قبيل أحداث برلين ، فترك في نفسي انطباعاً بأنه ، كرجل دولة ، يتفوق على ايزنهاور . فهو ، خلافاً لايزنهاور ، له رأي واضح ودقيق حول كل مسألة . وقد مازحته قائلاً بأننا أعطيناه الأصوات التي رجّحت كفته ضد منافسه للرئاسة ،

أعني ذلك النزل ريتشارد نيكسون . وعندما سألني ماذا أعني ، أوضحت له اننا بتأخيرنا الافراج عن ربان طائرة يو ٢ ، غاري باوزر إلى ما بعد الانتخابات الأميركية حرمنا نيكسون من الزعم أنه يستطيع التعامل مع الروس ، وان هذا أدى إلى فارق لا يقل عن مليون صوت لمصلحة كيندي ، وهو الفارق الذي ظهر في نتيجة الانتخاب .

وكنت قبلاً قد قابلت كيندي قبل سنتين ، ابان زيارتي لاميركا . وذلك عندما قدّمني ليندون جونسون إلى شيخ شاب في حفلة الاستقبال التي أقامتها لجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجية تكريماً لي . وقد ترك كيندي يومها انطباعاً في نفسي. وأذكر انني أحببت وجهه القاسي الذي يفتر بين الحين والحين عن ابتسامة فيها كل معاني الطيبة . أما نيكسون فقد الفته جيداً في الماضي . كان العوبة في يد ماكارثي (جوزيف) . ولما أخذ نجم ماكارثي بالافول أدار له نيكسون ظهره متجاهلاً . هكذا ، اذن ، كان العوبة ودون مبدأ ، وهذا أخطر أنواع الرجال .

وكنت شديد السرور من ان كيندي قد فاز بالانتخاب . وكان لقاؤنا ، على العموم ، ممتعاً في فيينا . ورغم اننا لم نتوصل إلى اتفاق حاسم ، فقد لمست انه مهتم بايجاد حل سلمي للمشكلات العالمية وبتجنب النزاع مع الاتحاد السوفياتي . كان رجلاً موزوناً ، واعتقد أنه كان يعرف ان لا مبرر لاشعال حرب حول مسألة برلين . على أي حال ، فقد قرر كيندي التظاهر بقوته . فعزّز الحامية الاميركية وعيّن جنرالاً يدعى كلاي بقيادة القوات الغربيّة في برلين . وبدا ان كيندي يعيد عقارب الساعة إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية(١) .

وأخذت الصحافة البورجوازية تهدد . وفي تلك الاثناء كنّا نعدّ العدة للمؤتمر الحزبي الثاني والعشرين . فقررنا قبول التحديّ الذي شرع به كيندي . وكانت استخباراتنا قد زودتنا بحقيقة الخطوات التي شرع الغرب باتخاذها تصعيداً لتمركز قواته في برلين ، فأخذنا نضاعف من قوة حاميتنا بما يناسب ذلك ، وعيّنا المارشال كونيف قائداً لقواتنا في برلين . وهكذا رمينا القفاز طلباً للنزال .

ولا بد لي أن اوضح ان تعيين المارشال كونيف قائداً لم يكن بالفعل سوى تدبير «اداري» لنظهر للغرب اننا نعتبر الحالة بالخطورة التي يعتبرونها . (٢) وقد

(١) الجنرال لوقس كلاي كان قائداً للقطاع الاميركي في برلين ابان الحصار .
(٢) كان المارشال أ. س. كونيف قد تخلى عن قيادة قوات حلف فرصوفيا.

بقي القائد العادي المسؤول عن برلين ، وهو أدنى رتبة من كونيف ، في مركزه بينما كانت صلة كونيف مباشرة بنا بموسكو ، فكان يرفع الينا تقاريره . وان واقعة بقاء كونيف أكثر الأوقات في موسكو لدليل على اننا لم نكن نتوقّع المواجهة ان تصعّد إلى نزاع عسكري شامل .

ورفع كونيف تقريراً مفاده أنه علم عبر استخباراتنا بموعد شروع الغرب بعملياته ضدنا محدداً اليوم والساعة .

كانوا يهيئون التراكتورات المعدّة لشق الطرقات لتهدّم ما اقمنا على الحدود من منشآت ، ثم تتبعها الدبابات فموجات متتالية من سيارات الجيب المحملة بالمشاة . وقد وقتت هذه العملية لتطابق زمنياً افتتاح المؤتمر الحزبي الثاني والعشرين . وتنادينا إلى التشاور وتدارسنا خطة ردّنا مسبقاً . فجمّعنا وحدات مشاتنا في الشوارع الجانبيّة في مراكز التفتيش على محاذاة الحدود . وجلبنا دباباتنا كذلك في الليل ومركزناها قريباً . ولم يكن أمامنا سوى الترقب وانتظار الخطوة التالية التي سوف يقدم عليها الغرب .

ثم رفع كونيف تقريراً مفاده أن التراكتورات والدبابات وسيارات الجيب الأميركية قد تحركت باتجاه مراكز التفتيش على حدودنا . وكان رجالنا ينتظرون بهدوء ، ولم يتحركوا حتى بعد أن اصبحت التراكتورات على محاذاة حدودنا . ثم فجأة تحركت دباباتنا من الشوارع الجانبيّة وتقدمت لتلاقي الدبابات الأميركيّة .

هنا توقفت الدبابات والتراكتورات الاميركيّة . أما سيارات الجيب فقد تجاوزتها وعبرت الحدود باتجاه برلين الشرقية ، فلم نحاول اعتراضها . ذلك انه حسب فقرات خاصة من اتفاقية بوتسدام ، كان مباحاً للسيارات العسكرية الحليفة ان تعبر من قطاع إلى آخر في برلين . لذلك فتحنا البوابات وافسحنا لسيارات الجيب الأميركية المرور . ولكنها بعد أن قطعت مسافة قصيرة شاهد الأميركيون قواتنا متمركزة في الشوارع الجانبيّة وكانت دباباتنا تتقدم باتجاههم . فادار الاميركيون فوراً سيارات الجيب عائدين إلى برلين الغربيّة .

وانقضى الليل ودبابات الطرفين متواجهة على الحدود . كان الوقت في اواخر اكتوبر وكان الليل بارداً . ولا ريب ان سائقي دباباتنا شعروا بانتعاش كبير بقضائهم الليل في حجر معدنيّة باردة . وأعلمنا المارشال كونيف في الصباح التالي ان سائقي دباباتنا والدبابات الأميركية نزلوا دورياً من دباباتهم لتدفئة أنفسهم ، الا أن مداخلهم بقيت محشوة وموجهة على الطرف الآخر عبر الحدود الفاصلة .

وحين تلقينا تقرير المارشال كونيف اقترحت سحب دباباتنا عن الحدود واعادة تمركزها في الشوارع الجانبيّة . وهناك نستطيع الانتظار وترقب ما يحدث . وأكدت

لرفاقي أنه ما ان نسحب دباباتنا حتى يبادر الاميركيون إلى سحب دباباتهم . فهم أخذوا المبادرة في التوجه نحو الحدود ، ولذلك يجدون انفسهم في وضع معنوي صعب اذا أرغمناهم على التراجع تحت وطأة مدافعنا المصوبة اليهم . لذلك قررنا أنه في هذه المرحلة علينا أخذ المبادرة فنفسح للاميركيين فرصة الانسحاب من الحدود ووافق رفاقي معي . وقلت بانني اعتقد ان الاميركيين سيسحبون دباباتهم خلال عشرين دقيقة بعد أن نسحب دباباتنا . وهذه هي الفترة التي تنقضي على رفع قائد دباباتهم الامر إلى قيادته وتلقي الاوامر الجديدة .

ولهذا أمر كونيف دباباتنا بالانسحاب عن الحدود . ثم رفع تقريراً يفيد بأنه حسب توقعاتي حصل انسحاب الاميركيين بعد عشرين دقيقة من انسحابنا .

وهكذا امتحن الغرب قدرة أعصابنا على المواجهة بتوجيه مدافعه نحونا ، فوجدنا مستعدين لقبول التحدي. وتعلم الغربيون انهم أعجز من ارهابنا ، واعتقد ان ذلك كان انتصاراً كبيراً لنا ربحناه دون اطلاق رصاصة واحدة (١) . وانه برفضنا التراجع أمام تهديد الغرب ووعيده ، ضمنّا حق الجمهورية الالمانية الديمقراطية في السيطرة على أرضها وحدودها . فكان من حقنا الاحتفاء بهذا الانتصار المعنوي والمادي لأننا قد ارغمنا الغرب على الاعتراف بحقوق الجمهورية الالمانية الديمقراطية غير المكتوبة .

(١) تراجع الغربيون عن الجدار ، ولكن قواتهم بقيت في غربي برلين .

١٨

ماوتسي تونغ والانشقاق

ليس في سرد خروشوف المفعم بالطابع الشخصي والنوادر لعلاقاته وعلاقات ستالين بماوتسي تونغ ، ما يتناقض والرواية الغربية المعتمدة لبذور الانشقاق الصيني – السوفياتي وتطوره ، بل ان فيه الكثير مما يثبت تلك الرواية ويؤكدها . ان خروشوف لا يضيف الى القصة بل يزخرفها (وهو بالتأكيد يحذف في سرده الكثير مما نعرفه) . ويركز على الجوانب الشخصية من الانشقاق الكبير (سواء اعتبرناه في الاساس نزاعاً ايديولوجياً ، او نزاع مصالح بين دولتين كبيرتين) واثاره على الحركة الشيوعية العالمية . الا انه يقدم لنا ، على اي حال ، رؤى جديدة وثمينة الى مرارة النزاع ، وفوق ذلك كله ، معالجته العاطفية للموضوع كله .

ومن الواضح ، انه كمعظم الروس قد وجد ، ولا يزال يجد ، الطابع الصيني بالغ الغموض ويمجه الذوق . وانه بجهد ملحوظ يضغط على نفسه حتى يميز بين ماو واعوانه ، والشعب الصيني الذي يعلن بفتور انه «بشر مثلنا تماماً» .

هنا نجد صدى يرجعه خروشوف العجوز وهو يجهر عالياً بافكاره وهو صدى يزخر بكل ما في نفسه من احتقار لا ساليب الحياة الصينية .

السياسة لعبة ، وقد لعبها ماوتسي تونغ بمكر أسيوي حسب قواعده في الزلفى والخيانة والتوحش والانتقام والخداع . لقد خدعنا سنوات عديدة قبل ان ننفذ ببصائرنا عبر خداعه . قال تالليران ان الديبلوماسي اعطي لسانا ليخفي أفكاره ، وهذا نفسه ينطبق على السياسي . ولقد كان ماوتسي تونغ دوماً سيداً في اخفاء حقيقة أفكاره ومقاصده ، لماذا ؟ انني أذكر بعد المؤتمر العشرين قوله : لقد فتح الرفيق خروشوف أعيننا وأعطانا النور حتى نرى . أخيراً أخبرنا الحقيقة . علينا أن نقوم بالاصلاح . الا انني كنت دوماً حذراً . اذ كنت أعرف متى يتملق الينا .

بعد انقضاء سنوات على تقاعدي شاع انني أنا الذي بدأت الخلاف بين الاتحاد السوفياتي والصين . انني لن آبه حتى لدحض الافتراء . فالتاريخ قد سخر من هذا الزعم .

منذ مقابلتي الاولى لماو ، عرفت – وقلت لرفاقي – بان ماو لن يستطيع الاتفاق مع أي حزب شيوعي ضمن الحركة الشيوعية العالمية لأنه يريد حزبه ان يكون متفوقاً على الاحزاب الآخري. ولو ان ستالين عاش أكثر قليلاً ، لكان نزاعنا مع الصين خرج إلى العلانية أبكر قليلاً ، ومن المرجح أن يكون قد اتخذ طابع قطع العلاقات كلياً بين البلدين(١) .

كان ستالين دوماً ينقد ماوتسي تونغ عن حق . وكان يطلق على ماو نعتاً يصفه بدقة من زاوية ماركسية صافية ، حتى كان يقول ان ماو هو «ماركسي السمن النباتي !» (ماركسي المارغرين) .

ذلك انه عندما كان جيش ماو الثوري المظفر يقترب من شنغهاي ، أوقف زحفه ورفض الاستيلاء على المدينة . فسأله ستالين «لماذا لاتأخذ شنغهاي؟» فأجاب ماو «عدد سكانها ستة ملايين . فاذا استولينا عليها اضطررنا إلى اطعام شعبها . فمن أين نأتي بالطعام ؟»

الآن أسألكم هل هذا كلام ماركسي ؟ .

لقد اعتمد دوماً على الفلاحين لا على الطبقة العاملة . ولذلك لم يستول على شنغهاي . لأنه لم يكن يريد ان يتحمل مسؤولية العمال .

لقد انتقد ستالين ماو ، بحق ، لانحرافه عن الماركسية الحقيقية ، إلا ان الحقيقة تبقى أن ماو ، باعتماده على الفلاحين واهماله الطبقة العاملة ، حقق الانتصار . ولا يعني ان انتصاره كان له طابع المعجزة الا انه كان تحريفاً جديداً للفلسفة الماركسية نظراً لتحققه بدون البروليتاريا . وخلاصة القول ان ماوتسي تونغ

(١) هذه نظرية مشكوك فيها . فصحيح ان الود كان مفقوداً بين ستالين وماو وان ستالين قد حقر ماو ، اذ دعم شان كاي شك ودعا ماو قبل زحفه الظافر في ١٩٤٨ الى وقف الثورة لأن فكرتها لم تنضج بعد في الصين ، الا ان ماو كان برغم ذلك كله ، يحترم ستالين على نحو لم يحلم ان يبادل خروشوف مثله . وان ستالين لم يكن يسمح لنفسه ان تجتاحه موجة عاطفية من الغضب كتلك التي اجتاحت خروشوف . ولو ان ستالين عاش اكثر ، لكان عاجلا ام آجلا سيصطدم مع ماو ، ولكن من المرجح ان يتم ذلك آجلا.

هو بورجوازي صغير ، مصالحه كانت ، ولم تزل ، غريبة عن مصالح الطبقة العاملة .

ما ان وصل ماو إلى السلطة حتى توترت علاقاته بستالين سواء على مستوى التعاون التجاري والصناعي او المستوى الايديولوجي . في إحدى المراحل عقد ستالين اتفاقية مع الصين لاستثمار مشترك للموارد المعدنية في سنكيانغ . وكانت الاتفاقية من اخطاء ستالين . بل انني اذهب إلى وصفها مهينة بحق الشعب الصيني . ذلك انه لقرون ، كان الفرنسيون والانكليز والاميركيون يستغلون الصين والان أخذ الاتحاد السوفياتي يدلي بدلوه . وان هذا الاستغلال لأمر مسيء ولكن له سوابق : فقد أقام ستالين شركات مشابهة في كل من بولونيا والمانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا . وقد صفّينا ، لاحقاً ، هذه الشركات كلّها .

وكان ثمة حادثة أخرى . فذات يوم دعانا ستالين اليه وسأل ان كان أحدنا يعرف شيئاً عن موقع مناجم الذهب والماس في الصين . من الطبيعي ان احداً لم يعرف . ولم تكن لدينا طريقة للمعرفة . كنّا نتضاحك بيننا عن هذا السؤال همساً . وقال بيريا : «أتدرون من يعرف ؟ كوزلوفسكي هو الذي يعرف(١) . انه دائماً ينشد : لا تستطيع ان تحصي حبّات الماس ...» (مقطع من اوبرا «صيادي الياقوت لبيزي») . وكان بيريا مولعاً بتحريض ستالين فيقول له ان في الصين غنى وافراً يخفيه عنا ماوتسي تونغ ، واننا اذا اعطينا ماو قرضاً فعليه أن يعطينا شيئاً بالمقابل .

وفي أحد الأيام ، بينما نحن جلوس حول ستالين نحاول أن نجد طريقة لسد حاجات صناعة المطاط دون أن نضطر لشراء المطاط الخام من الرأسماليين إقترحت اقناع ماو بالسماح لنا بأن نقيم زراعة المطاط في الصين مقابل قروض ومساعدات تقنية . فارسلنا إلى ماو برقية نقترح فيها ذلك ، وأجاب الصينيون انهم اذا منحناهم قروضاً فسيسمحون لنا باستخدام جزيرة هينان لهذا الغرض . فعقدنا اتفاقية معهم ، الا ان المساحة التي اعطيت لنا في هينان ، كانت أصغر كثيراً مماتتطلب مزرعة مطاط مقبولة ، فتخلينا عن الفكرة .

وفجأة افتتن ستالين بتعليب الأناناس . فأملى فوراً على مالنكوف الذي كان كاتباً مطواعاً : ارسل إلى الصينيين خبراً بأنني أرغب في أن يمنحونا مساحة لمصنع

(١) أ. س. كوزلوفسكي ، المغني الروسي الشهير في اوبرا البولشوي ، رغم انه لم يكن معروفاً في الغرب الا انه من اعظم المغنين الرجال منذ كاروزو .

تعليب الأناناس » . فقلت : «أيها الرفيق ستالين ، ان الشيوعيين قد تسلموا زمام السلطة مؤخراً ، وفي بلادهم مصانع كثيرة أجنبيّة . والآن ينوي الاتحاد السوفياتي ، البلد الاشتراكي الشقيق ، ان يقيم مصنعاً له في الصين ! ان هذا ، بكل تأكيد ، سيسيء إلى ماوتسي تونغ .»

فرد عليّ ستالين بغضب فسكتّ . وارسلت البرقية . وبعد يومين أو أكثر تلقيّنا : «اننا نقبل اقتراحكم . اذا كنتم ترغبون في تعليب الاناناس اعطونا قرضاً فنبني نحن مصنع التعليب بأنفسنا ، ثم نسدّدكم قرضكم بمحصول هذا المصنع ». ولذت بالصمت ، بينما كان ستالين يرغي ويزبد شاتماً .

وفي عهد حكومتي لم نرسل إلى ماو برقية واحدة ، لا بتوقيعي ولا بتوقيع الحكومة ، تقترح اجراء يشتم منه اننا نحاول استغلال الصين . وحرصنا حرصاً شديداً على أن لا نسيء إلى الصين إلى أن بدأ الصينيون فعلاً يصلبوننا . وعندما بدأوا يصلبوننا ، لم أدر خدّي الآخر لهم ، لانني لست السيد المسيح .

وحين سرت الشائعة الخبيثة عن انني كنت مسؤولا عن خلاف الاتحاد السوفياتي مع الصين ، أصابتني الدهشة واعتصرني الاسى . وقد ثرت غاضباً لأن يودين بالذات كان بين الذين اطلقوا هذه الشائعة . حسناً ، لو ان يودين قال ذلك لي شخصياً لكنت واجهته بأدلة وثائقية تثبت انه هو الذي كان أول من صعّد نزاعنا مع ماوتسي تونغ إلى ذروته . فقد كان سفيرنا في الصين في بداية الشجار . واذا كان يودين يريد ارغامي على الشروع في تبادل الاتهامات معه ، فلامندوحة لي عندها من الملاحظة ، ولدي ما يبرر ذلك ، اننا كنا متأكدين من ان خلافاً سيقع بيننا وبين أي بلاد يكون يودين سفيرنا اليها . فقد ارسل يودين إلى يوغوسلافيا فوقع خلافنا مع تيتو . وذهب إلى الصين فنشب الخلاف مع الصين . ولم يكن ذلك كله محض صدفة .

كنت في مرحلة ما أكنّ ليودين الاحترام . لماذا ارسل إلى الصين ، في المرتبة الأولى ؟ حدث ذلك الأمر كما يأتي : كتب ماوتسي تونغ رسالة إلى ستالين يسأله فيها أن يسمّي له فيلسوفاً ماركسياً سوفياتياً يكون بامكانه المجيء إلى الصين لتنقيح كتابات ماو وأقواله من وجهة النظر الماركسية . فاختير يودين لهذه المهمة .(١)

(١) ب. ف. يودين كان لبرهة رئيس تحرير مجلة الكومنفورم ذات العنوان الشهير «في سبيل سلام دائم ، في سبيل ديمقراطية الشعب» التي كانت تنشر في بلغراد حتى=

وعمل يودين ، لأمد ، بانسجام كلّي مع ماو . وكان ماو يذهب لمقابلة يودين أكثر من ذهاب الأخير لمقابلته . وقد انتاب ستالين بعض القلق ان لا يكون يودين يتوجه إلى ماو بالاحترام اللائق ، نظراً لأن ماو يكثر من مجيئه اليه بدل أن يجيء هو إلى ماو . ولكن الامور كانت تسير في مجاريها الطبيعيّة سيراً حسناً .

ولكن فجأة هطلت علينا من السماء الصافية رسالة شيفرة من يودين تنذر بالعواصف تضمّنت كلّ ما لا يمكن تصديقه من اقوال معزوة إلى ماوتسي تونغ عن الاتحاد السوفياتي ، وعن حزبنا الشيوعي ، وعن يودين نفسه . فلم يعد يهمّنا تودّد ماو ليودين .

واتضح الآن ان ماو لا يحترم يودين البتة . فقررنا ان من الانسب سحب هذا الاخير من الصين . وقد كان يودين ، كسفير ، إدارياً ضعيفاً ، ودبلوماسياً رديئاً . ولكن نفعه كان ينحصر في أن تستمر علاقات الصداقة والودّ بينه وبين ماو فليذهب عمله كسفير إلى جهنم ، ما دام ان بامكاننا دوماً الاعتماد على موظفي السفارة في بكين ليتدبّروا الأمر . فعندما اصطدم يودين بماو لاسباب فلسفية ، لم يعد نافعاً بالنسبة الينا ، لا سفيراً ولا صلة ودّ بماو . لذلك استدعيناه .

والآن يحاول هذا الفيلسوف ان ينحى باللائمة عليّ . أما بصدد علاقاتي أنا مع ماو ، فقد كنت دوماً خلافاً لستالين أحاول ملاطفته والحفاظ على صلات الو د معه . ولم أعمد إلى استغلاله . وفي الواقع فقد حاول الصينيون استغلالنا . مثال على ذلك ما جرى في ١٩٥٤ ، عندما كانت بلادنا لم تزل تتضور جوعاً والفقر يخيّم عليها بسبب الحرب . كنا في بكين فسألني شوان لاي قائلاً « ليتكم تقدمون لنا جامعة على سبيل الاهداء ؟» فأجبته : «ولكننا نحن أيضاً فقراء كما تعرف . قد نكون أغنى منكم ولكن الحرب انتهت موخراً ، ولم نستطع بعد أن نستعيد قوّتنا.» ورغم اننا كنا نعاني من مشاكلنا ، إلاّ اننا تنازلنا عن بورت ارثر ودالني إلى الصينيين دون مقابل، ووظفنا مبالغ طائلة من الاموال في الصين . وقد بنينا كذلك

= نشوب خلاف ستالين – تيتو . كان مشهوراً لجمعه بين المذلة ازاء من هم اعلى منه والاغترار ازاء من هم دونه . ويبدو انه تصرف ازاء اليوغوسلافيين والصينيين على اساس الموقف الثاني فاحرجهم وأخرجهم . وفي موسكو كان معروفاً بانه افضل فيلسوف في التشيكا (البوليس السري) او افضل التشيكا بين الفلاسفة . وكانت فلسفته عبارة عن ايجاد الذرائع لخط الكرملين بجعجعة مبهمة . وكان خروشوف على حق في احتقاره له، ولكن خروشوف يتحمل خطأ الاحتفاظ به سفيراً الى بكين منذ ١٩٥٣ حتى نشوب الخلاف مع الصين .

الطريق من اولان باتور إلى بكين . وفي ١٩٥٧ عندما قال ماو(١)«ان الطريق من اولان باتور لا تعود علينا بجليل فائدة . ان ما نحتاجه في الواقع ، هو الطريق من بكين عبر جبال كازاخستان . » اجبته « انكم تعرفون أرضكم افضل مما نعرفها نحن . لقد اعتقدنا أن الطريق من اولان باتور تكون طريقاً مباشرة أكثر لكم ، ولكننا نرغب في فتح طريق إلى الصين عبر كازاخستان أيضاً . فلماذا لا تبنون الطريق على أرضكم ونحن نبنيها على أرضنا ، وهكذا نتلاقى على الحدود ؟»

ثم أعاد شوان لاي ، فيما بعد ، بحث موضوع هذه الطريق طالباً منا ان نبني أيضاً الجزء الواقع في أرضهم. ولكن حين تفحّصنا الخريطة وجدنا ان ذلك قد يعني اختراق جبال وبناء جسور على الأنهر . فأجبناه « كلا ، ليبني كل فريق القسم من الطريق الواقع في أرضه ، وفق اتفاقنا الأصلي » .

وشرعنا في تنفيذ قسطنا من العمل . وفيما نحن كذلك جاءنا الصينيّون ثانية يطلبون منّا تنفيذ حصتهم من العمل . وعندما وصلنا أخيراً إلى الحدود ، كان الصينيون قد اختفوا تماماً .

واذكر انه عندما عدت من الصين في ١٩٥٤ قلت لرفاقي : «ان النزاع مع الصين واقع حتماً .» وقد توصلت إلى هذه النتيجة ، بناء على ملاحظات عديدة كان قد ابداها ماو . فعند زيارتي لبكين كان الجو شرقياً نموذجياً . وكان الناس جميعاً مفرطين في التهذيب والتملّق، ولكنني كنت استطيع أن انفذ من خلال نفاقهم إلى سرائرهم . صحيح اننا ، عند وصولي ، تعانقنا أنا وماو بحرارة ، وكنا نضطجع حول المسبح في بكين ، ونتسامر كاخلص الاصدقاء حول مختلف الشؤون . ولكن نيته لم تكن صافية . يضاف إلى ذلك ان بعض ما قاله ماو أيقظ حذري . والحقيقة انني لم أكن واثقاً البتة من انني فهمت ما يعني . حينئذ اعتقدت ان الامر قد يكون ناجماً عن خصائص ينفرد فيها الخلق الصيني أو طريقة التفكير الصينية . فمن أقواله ما كان مفرطاً في التبسيط ، ومنها ما كان مفرطاً في التعقيد .

اذكر مثلاً ان ماو سألني مرة « ايها الرفيق خروشوف ، ما رأيك بشعارنا :

(١) الاشارة هنا الى تسليم الروس للصينيين بورت ارثر ودالني (دارين) في ايار ١٩٥٥ بعد تاريخ طويل غير مستقر تورطت فيه الصين واليابان وروسيا . اما السلف والقروض السوفياتية فلم تكن أكثر من نقطة في بحر احتياجات الصين .

«دع مئة زهرة تتفتح ؟»(١)

فاجبت «أيها الرفيق ماو تسي تونغ ، اننا بكل بساطة لا نفهم ما يعنيه هذا الشعار . فثمة أنواع متعددة من الأزهار — أزهار جميلة ، ومقرفة ، بل حتى مميتة .» فوافقني على ان هذا الشعار قد لا يكون صالحاً للروس . وكنا حرصنا على ان لا ننشر شيئاً في صحافتنا عن شعار «المئة زهرة» . ولم يكن ماو ساذجاً ، اذ ان شعار «دع مئة زهرة تتفتح» يعني توفير جو من الحرية لنمو اتجاهات مختلفة في الفن والثقافة . ولكن بات واضحاً الآن ان القصد من هذا الشعار كان الاستفزاز . فقد أعلن هذا الشعار حتى يشجع الناس على التعبير عن أنفسهم بحرية أوسع فيتسنى قطف أية زهرة تفوح منها رائحة غير مرغوب فيها ، ورميها في الاقذار .

ثم كان هناك شعار ماو الآخر الشهير : «الامبريالية هي نمر من ورق» . ولم أصدق ان ماو يعتبر الامبريالية الاميركية مجرد نمر ورق ، بينما هي في الحقيقة نمر مفترس ! وقد أعلن شعار «نمر ورق» عندما كانت لم تزل علاقاتنا مع الصين حسنة ، فسبب لنا بعض الاحراج ، نظراً لصدوره عن صديقنا ماوتسي تونغ ، زعيم الشعب الصيني .

أما الآن فيبدو أن الصينيين قد سكتوا موقتاً «عن هذا النمر من الورق» ، ولم تعد هتافاتهم ترتفع منشدة هذا الشعار ، كما من قبل .

كنا مرة في بكين . وكنت أنا وماو مستلقيين بجوار المسبح بثياب الحمام ، نبحث في الحرب والسلم ، فقال لي «ايها الرفيق خروشوف ، ما رأيك ؟ لو قارنا قوة المعسكر الرأسمالي العسكرية بقوة المعسكر الاشتراكي ، ألا تجد أننا نتفوق على أعدائنا ؟ فكر بعدد الفرق التي يستطيع ان يعبئها كل من الصين والاتحاد السوفياتي وسائر البلدان الاشتراكية» . فقلت « أيها الرفيق ماو . ان مثل هذا قد انتفى في تفكير زمننا . فليس بامكانك الآن أن تعتبر عدد الجنود أساساً للقوة العسكرية . في الزمن الغابر ، كانت قبضات الأيدي والحراب تقرر مصير القتال . ثم ظهر المدفع والرشاش ، فلم يعد هذا صحيحاً . فكيف بعد القنبلة الذرية ؟ »

فأجابني ماو محاولا اقناعي بأن القنبلة الذرية ذاتها ليست سوى «نمر من ورق». وقال : « اسمع ايها الرفيق خروشوف ، كل ما عليك أن تفعله هو ان تستفز الاميركيين للقيام بعمل عسكري ، وانا اعطيك عدد الفرق التي تحتاج اليها لسحقهم

(١) «دع مئة زهرة تتفتح ومئة مدرسة تتبارى» . طرح ماو هذا الشعار لمدة قصيرة في ١٩٥٧ ، كما اثار نقمة خروشوف كثيراً .

— مئة ، مائتي أو الف فرقة ! » وعبثاً أوضحت له أن صاروخاً أو صاروخين يحولان كل هذه الفرق إلى غبار . ولعله اعتبرني جباناً .(١)

لقد بدل ماو نبرته في ١٩٥٧ ، عندما جاء إلى مؤتمر موسكو للاحزاب الشيوعية والعمالية وقال بلهجة ودية خلال حديث صريح : « أيها الرفيق خروشوف ، وجدت في الصحف ان وزير دفاعكم جوكوف يقول انه إذا ما هوجم أي بلد اشتراكي من قبل قوات امبريالية ، فستردون على الهجوم بسرعة . ان هذا لخطأ . » فقلت : أيها الرفيق ماوتسي تونغ ان جوكوف لم يكن ينطق باسمه الشخصي بل باسم اللجنة المركزية ، وهو يعلن قرارنا الجماعي . وانا قد قلت الشيء نفسه . » لم نكن عندها نتشاجر ، بل نتحدث حديثاً ودياً .

فأجاب ماو : « اعتقد انه اذا ما هاجم الامبرياليون الصين ، فليس عليكم أن تحركوا ساكناً . فنحن نقاتلهم بانفسنا . وواجبكم عندئذ ان تصمدوا . دعونا نعالج الامر بانفسنا ، وأكثر من ذلك ، أرى انه اذا ما هوجمتم انتم ، فليس عليكم أيضاً ان تردوا بالمثل ».

— ولكن ماذا نفعل اذن ؟

— تراجعوا .

— إلى أين ؟

— لقد تراجعتم في السابق . تراجعتم حتى ستالينغراد في الحرب العالمية الثانية . فاذا ما هوجمتم ثانية تستطيعون التراجع إلى الاورال وتصمدون هناك لمدة سنتين أو ثلاث . وتكون الصين وراءكم تحمي ظهركم .

— أيها الرفيق ماو ، ولكن اذا ما اندلعت حرب الان ، كم تعتقد انها تستمر ؟ انها لن تكون مثل الحرب الأخيرة . تلك كانت حرب أسلحة طيران ودبابات أما الان فالحرب حرب صواريخ وقنابل ذرية . ما الذي يحملك على الاعتقاد ان علينا الانتظار ثلاث سنوات حتى نتراجع إلى جبال الاورال ؟ الأرجح ان المهلة لا تتجاوز بضعة أيام ، وبعدها لن يبقى منا سوى الخراب في طول البلاد وعرضها . ونحن اذا قلنا للعدو اننا لن نرد بالمثل نكون كمن يدعوه إلى شن هجومه علينا . لذلك علينا ان نقول العكس لكي نردعه .

(١) في هذا التصوير الموجز القيم لزعيمي الشيوعية العالمية وهما يسترخيان في مسبح في بكين ، نجد بداية المشادة بين خروشوف والرجل الذي سيقول لاحقاً انه حتى في حال نشوب الحرب الذرية ، سيبقى ثلاثمائة مليون صيني على قيد الحياة .

كان جلياً ان ثمة اختلافاً أساسياً بيننا . ولكن خلافنا مع الصين كان أعمق من هذا . فقد أدرك الصينيون انهم في موقع خطر في الحركة الشيوعية العالمية بعد المؤتمر العشرين لحزبنا . اذ فهموا مضامين المؤتمر لجهة رفض عبادة الشخصية ، والحكم الاوتوقراطي وما إلى ذلك من الأشكال المنافية للديمقراطية وللحزب . ولقد فضح أمر ستالين وادين في المؤتمر لأنه أعدم مئات الالوف من البشر واستغل سلطته . وكان ماوتسي تونغ يقتفي آثاره .

ان عبادة الشخصية عند ماو ظاهرة معقّدة ، انه بمثابة مذهب ديني . فلعدة قرون كان الناس يرددون : « يا الله ارحمنا . احمنا واعنا . » فهل نفعت كل هذه الصلوات ؟ بالتأكيد لم تنفع . ولكن الناس الفوا هذه الأساليب ، وهم يستمرون على الاعتقاد بالله رغم كل الادلة المناقضة . وقد ترددت أصداء عبادة الشخصية الماهرة حتى في بلادنا . ففي ١٩٦٢ اكتشفت ان رجالنا العسكريين يطبعون مؤلفات ماوتسي تونغ في الحقل الحربي . فبادرت فوراً إلى استدعاء وزير الدفاع وقلت له «أيها الرفيق مالينوفسكي ، فهمت ان دائرتكم تنشر أقوال ماو ، ان هذا لأمر مستهجن ! فالجيش السوفياتي سحق قوات الجيش الالماني وهشّمها بينما رجال ماوتسي تونغ أمضوا بين العشرين والخمس والعشرين سنة يطعن بعضهم البعض الآخر في خواصره بالخناجر والحراب . وها أنتم الآن تنشرون نظريات ماو في الشؤون الحربيّة لماذا ، ولاي غرض ؟ هل لتتعلموا منه كيف تشنون الحرب في المستقبل ؟ ماذا دهاكم حين اتخذتم مثل هذا القرار ؟»

كان مالينوفسكي وغيره من الرفاق العسكريين رجالاً أذكياء الا ان نشر أقوال ماوتسي تونغ في الشؤون الحربية كان مضيعة للوقت . ولست أعرف مصير النسخ التي طبعوها ومن المرجح أن تكون مكومة الآن في مستودع أو انها حرقت .

واذكر جيداً كيف رفض ماو جهودنا للتعاون في القضايا العسكريّة في ١٩٥٨ . كان على طائراتنا ، وفق معاهدة بيننا ، ان تستخدم مطارات الصين للتزود بالوقود وللهبوط . ثم عندما بدأنا نستخدم غواصاتنا ذات المدى البعيد احتجنا إلى محطة راديو في الصين ، حتى يكون اسطولنا على صلة معها . وكان الصينيّون ، بالمناسبة ، قد طلبوا ان نحول اليهم مخططاتنا لبناء الغواصات ونعلّمهم كيف يشرعون هم في بناء الغواصات . لذلك وجدنا ما يبرّر بناء محطة راديو على أرضهم . فجاء جوابهم سلبياً . ولم يمض وقت طويل على هذا الأمر حتى تلقينا رسالة من يودين بالشيفرة عن موقف القيادة الصينيّة المعادي للسوفيات . وقلت لرفاقي «حسب البروتوكول ، جاء دور ماو ليقوم بزيارتنا زيارة رسمية ، قبل أن نقوم نحن بزيارة ثانية . ولكن في ضوء الحالة الراهنة ، لعل الأفضل أن نذهب

اليه ونحادثه . ومن الأفضل أيضاً أن يكون لقاؤنا لقاء شخصياً ، وبذلك نتلمّس طريقنا مع الرفاق الصينيين . »

وهكذا تمت رحلتنا الأخيرة إلى الصين . حدث ذلك في ١٩٥٩ . (١) وقد اتسمت مباحثاتنا بطابع الود ، إلا أنها لم تثمر عن أي نتيجة . وبين المواضع التي بحثناها موضوع محطة الراديو . قلت : «أيها الرفيق ماوتسي تونغ ، سنعطيك المال المتوجب لبناء المحطة . ولا فارق عندنا من يملك المحطة ، ما دام اننا نستطيع الانتفاع منها لتأمين الاتصال بغواصاتنا . بل اننا نذهب إلى حد اعطائكم المحطة ، ولكننا نرغب في ان نعمل على بنائها سريعاً . ان اسطولنا يعمل الآن في المحيط الهادي ، وقاعدتنا الرئيسية في فلاديفوستوك . أيها الرفيق ماوتسي تونغ ، ألا نستطيع أن نتوصل إلى نوع من الاتفاق حين يتسنى لغواصاتنا أن تكون لها قاعدة في بلادكم تزودها بالوقود وما إلى ذلك ؟»

— للمرة الاخيرة اقول لكم لا . ولا اريد ان اسمع بهذه القضية مرة اخرى .

— أيها الرفيق ماو ، ان بلدان الحلف الأطلسي لا تعاني من أية مشكلة بصدد التعاون فيما بينها ودعم احداها للاخرى ، بينما نحن هنا لا نستطيع التوصل إلى اتفاق حول أمر بسيط مثل هذا !

— كلاّ !

ولم أعرف لماذا اشتاط غضباً . وحاولت أن أقوم بمسعى معقول أخير فقلت : «إذا شئت ، فانك تستطيع استخدام مورمنسك كقاعدة لغواصاتكم . » فاجاب : « كلا ! لانريد أن يكون لنا أية صلة بمورمنسك . كما اننا لانريدكم انتم هنا . كان البريطانيون وغيرهم من الأجانب في أرضنا سنوات طويلة ، واننا لن نسمح الآن لأي كان أن يستخدم أرضنا لاغراضه مرة اخرى . » وهكذا لم نحصل منه على الترخيص لنا باستخدام قاعدة لغواصاتنا .(٢)

وعندما أخذ ماو يطرح فكرة اللحاق باميركا خلال خمس سنوات ، اتخذ

(١) انعقد هذا الاجتماع فور عودة خروشوف من زيارته الاولى لاميركا ، وكان يومها لم يزل ممتلئاً من روح «كامب دايفس» فاثار غضب ماو بامتداحه مزايا رجل الدولة التي يتحلى بها الرئيس ايزنهاور . وادى النفور الذي ولده هذا اللقاء العاثر الى سحب التقنيين السوفيات المفاجئ بعد ان كانوا منهمكين في بناء عدد من المصانع . وقد اخذوا تصاميمهم معهم الى موسكو وتركوا المصانع دون انجاز .

(٢) طلب الصينيون من طرفهم معلومات عن القنبلة الذرية ، ورفض الروس اعطاءهم اياها .

ازاءنا موقف الهجوم علناً . ثم أخذ ينظم الكومونات ويبني أفران صهر المعادن . (١) وبناء لاوامر ماو ، أخذ الصينيون يزعمون ان ما يقوم به السوفيات من توزيع السلع المادية حسب كمية ونوعية العمل المبذول هو مفهوم بورجوازي . وأخذت التصريحات والبيانات تظهر في الصين ، وهي كلها تتهم الاتحاد السوفياتي بأنه معلق بذيل البورجوازية . فنشأت عندها مسائل مبدئية أساسية حول مستقبل حركتنا ووصلنا إلى حد الانفصال عن الصين. وأعلن ماوتسي تونغ أيضاً ان التعايش السلمي هو فكرة بورجوازية . ومنذ ذلك الحين أخذت الصين تفتري على الحزب الشيوعي السوفياتي وتندد بسياسته في التعايش السلمي . ولكن كما قلت ، انه من الصعب معرفة حقيقة تفكير الصينيّين . هل هم حقاً مع أو ضد التعايش السلمي .

اذكر انني عندما تقاعدت سمعت في الراديو ان ماو ، في حديث له مع كاتب أميركي ، أجاب عن سؤال « هل حقاً تنوون شن حرب على العالم ؟» بقوله : «كلا ، فالصينيون لا يريدون الحرب . اننا لا نخوض الحرب الا اذا هوجمت أراضينا . » وهكذا نجد ماو ، تحت ضغط أسئلة الصحافيين البورجوازيين ، يجيب بأن الصين تقف مع التعايش السلمي . ان شعوري هو ان اعلان ماوتسي تونغ المعروف هو من تأليف شوآن لاي . انني لم أعرف بالتأكيد ما هو موقف ماو الحقيقي .

إلا ان ثمة امراً واحداً ، أعرفه على وجه التأكيد عن ماو وهو انه قومي . فعندما عرفته كان يفجر رغبته في ان يسيطر على العالم . وكانت خطته تبدأ بحكم الصين أولاً ، ثم آسيا ، ثم ... ماذا ؟ ان في الصين سبعمئة مليون انسان ، وفي بلدان أخرى مثل ماليزيا يشكل الصينيون نصف سكانها تقريباً .

ان المحادثة البريئة التالية التي جرت بيني وبين ماو حول مائدة شاي ، مفيدة جداً في ما تلقيه من ضوء على مفهوم ماو الخاص للقومية الصينيّة . سألني : «كم من الغزاة قد فتحوا الصين ؟ » ثم أجاب بنفسه «لقد عانت الصين مراراً من الفتوحات ، ولكن الصينيين تقمصوا جميع الغزاة. » والقى بابصاره على المستقبل فقال : « فكّر بالامر ، عندكم مئتا مليون بشري وعندنا سبعمائة مليون . »

---

(١) الاشارة هنا الى القفزة الشهيرة الكبرى الى الامام في ١٩٥٨ . وهي التي حاولت الصين فيها تحويل الفلاحين الى بروليتاريا ببناء افران صهر المعادن ومصانع الفولاذ على الطريقة الريفية ، وتنظيم عمال المزارع في كومونات . وقد اعتبر الأمر كله زندقة ومروقاً عند الروس .

ثم أخذ يتحدث عن مزايا الصين ، فذكر على سبيل المثال ان ليس في اللغة الصينيّة أية كلمات أجنبيّة . « ان العالم يستخدم كلمة الكهرباء المستعارة من الانكليزية ، بينما نحن الصينيين لنا كلمتنا الخاصة بنا . »

ان نزعته الشوفينية واغتراره بعثا القشعريرة في عظامي .

ثم اقتدت الصحافة الصينية بماو ، فأخذت تزعم ان فلاديفوستوك تقع في الارض الصينية . وكتبوا ان الروس سرقوها من الصين . صحيح ان الصينيين في منعطف من التاريخ حكموا ذلك الجزء من سيبيريا ، قبل ان يوسع قياصرتنا حدودنا إلى تلك الأرض . ووافقنا ان نعقد مفاوضات مع الصينيّين حول الحدود . فارسلوا لنا صيغتهم للخريطة المعدّلة . وما ان القينا نظرة عليها حتى أثارت غضبنا واشمئزازنا ، فرميناها بعيداً .(١)

قد يكون ماو قومياً ، ولكنه ليس ساذجاً. فعندما بدأت الصين باصلاحاتها التي تزعم انها تستهدف المساواة ، وصلت الينا ، عبر الحدود ، كتابات حول الموضوع أخذت توزع بوفرة في سيبيريا السوفياتية . واذ اطلعت على ما يحدث قلت لرفاقي : «يجب وقف هذا الأمر فوراً . ان شعارات الاصلاحات الصينيّة مغرية جداً . وانكم على خطأ اذا كنتم لا تعتقدون ان بذور هذه الأفكار ستلقى تربة خصبة في بلادنا . »

وكان علينا ان نرد على افتراضات ماو واقتراحاته . واذا شئنا استعمال تعبير ملطّف ، أقول باننا لم نوافقه على موقفه . وفي الحقيقة كان قد نفد صبري عليه . ولو أعدتم قراءة تقريري إلى المؤتمر الثاني والعشرين تجدون انني خصصت العديد من ملاحظاتي لمشكلات الصين ، رغم انني لم اذكر الصين اسمياً . ففي المؤتمر الثاني والعشرين ، رفضنا مبادىء ماو الأساسية . (٢) على أي حال ، فانا اوٴيد

---

(١) هذا يشير الى نزاع الحدود الذي استمر حتى يومنا هذا ، تارة يخمد وتارة يثور . ففي القرن التاسع عشر ارغمت روسيا الصين الضعيفة على تسليم الارض التي شملت فلاديفوستوك وما يعرف اليوم بالمقاطعة السوفياتية البحرية . وفي اوج المشادة السوفياتية – الصينية اصر ماو على وجوب اعادة النظر في الاتفاقات «غير المتكافئة» التي اضفت طابعاً رسمياً على عمليات اعادة السلخ تلك . وهكذا طرح على بساط البحث كل موضوع الحدود .

(٢) في المؤتمر الثاني والعشرين المنعقد في اكتوبر ١٩٦١ إماط خروشوف لاول مرة اللثام عن الخلاف المتحكم، بهجوم عنيف شنه على البانيا (خليفة الصين) ودون ذكر الصين اسمياً .

احد اصلاحات ماو المساواتية (المستهدفة المساواة) ذلك انه كان على حق في ازالة النسيج المقصب عن البزات العسكريّة الصينيّة الرسميّة . انني اعتقد ان ذلك كان شيئاً معقولاً ، وعلى الاساس نفسه اعتقد ان اعادتنا النسيج المقصب والشرائط المزركشة إلى بزاتنا العسكريّة كان خطأ وقعنا فيه . فمن يحتاج مثل هذه الشارات الشرائط ؟ لقد ربحنا الحرب الأهليّة ولم أكن أحمل أي شرائط أو شارات مقصبة ، رغم انني كنت من رتبة مفوّض . ولم يكن الجنود بحاجة إلى مشاهدة الشرائط حتى يعرفوا مفوّضهم أو قائدهم . في ذلك الزمن كنّا نستطيع سحق اعدائنا دون شرائط ومقصبات . أما اليوم فرجالنا العسكريّون يرفلون بالاشكال حتى لكأنهم طيور الكناري .

ابان مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد في الكرملين في ١٩٦٠ ، عارضنا الوفد الصيني برئاسة ليوشاوشي على خطّ مستقيم . وتكلّم الالبانيّون ضدنا مؤيدين الصين(١) وكان تصرف عميل ماوتسي تونغ ، انور خوجة معيباً جداً . فقد أخذ يلوح بمخالبه في وجهنا بلؤم فاق لؤم الصينيّين انفسهم . وكان ان نهض الرفيق دولوريس اباروري ، وهو ثوري قديم وعامل مخلص في الحركة الشيوعية وقال بغضب ، ان خوجة هو مثل كلب يعضّ اليد التي تطعمه . وكنّا نرغب في عمل أيّ شيء حتى نحول دون حصول انشقاق بيننا وبين الالبانيين ، ولكن جهودنا كلها ذهبت أدراج الريح . وتطور خلافنا معهم بعد ان عرفنا انهم يتواطأون مع الصينيين في مؤامرة ضدنا . وتلقينا معلومات عن خيانتهم عندما مرّت بعثة البانية عبر موسكو عائدة من الصين . فقد جاءتنا احدى الالبانيات ، وكانت

(١) ان هجوم خروشوف الرئيسي الأول على الصين حدث في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الروماني في حزيران ١٩٦٠ والمنعقد في بوخارست ، وذلك مباشرة بعد فشل مؤتمر القمة في باريس (الذي حطمته مسألة طائرة اليو ٢) . وقد فوجىء جميع قادة الاحزاب الاجنبية الحاضرين بهذا الهجوم ، ولكن الأمر بقي مكتوماً . وجاءت المرحلة التالية من الهجوم في مؤتمر موسكو للاحزاب الشيوعية العالمية المنعقد في نوفمبر من العام نفسه . وفي المناسبتين هاجم خروشوف ماو بصراحة ، ان لم نقل بوقاحة ، وبتعابير متطرفة عاطفياً نجدها في هذا الفصل . ورد الصينيون بالكيل نفسه . والقى الزعيم الالباني انور خوجة اردأ تلك الخطب وأعنفها . وفيها وجه اتهاماً لخروشوف انه توعد البانيا وحاول تجويعها لاخضاعها وانه خان ستالين . ولكن بقي الخلاف مكتوماً عن العالم الخارجي. انظر «الحرب الباردة الجديدة : «موسكو ضد بكين» بقلم ادوارد كرانشكو وفيه وصف لهذه الاجتماعات العاصفة ولتطور الخلاف بصورة عامة .

امرأة شريفة صادقة ، واخبرتنا حقيقة ما يجري . مسكينة تلك المرأة ، فقد شنقت بعد وقت قصير ، ولم يشنقها الغستابو بل «اخوانها» ورفاقها . أقول ذلك لأنها شيوعية وكانوا هم أيضاً شيوعيين . لقد شنقوها لأنها ، وهي الشيوعية ، جاءت الينا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي واعلمتنا بلقاءات الالبانيين السريّة مع الصينيين .

يا لسذاجتنا ، فقد كان محمد شيكو يستشفي في احدى دور الصحة في الاتحاد السوفياتي . وعندما واجهناه باننا قد علمنا بالمحادثات التي تجري بين بلاده والصين ، قفز من فراشه في المستشفى وطار عائداً إلى البانيا .

ان انور خوجة ومحمد شيكو وباللاتو جاءوا إلى السلطة في البانيا على أثر انتفاضة خلعوا فيها السكرتير الأول الأصيل للحزب الالباني الذي كان رفيقاً صالحاً طالما امتدحه تيتو وأيّده اليوغوسلافيون . وقد تحدّر هذا الرفيق من اسرة عمالية صلبة وكان موسس الحزب الشيوعي في البانيا . وأخبرني تيتو ان محمد شيكو بنفسه شنقه . وهذا الثلاثي — خوجة وشيكو وباللاتو — كانوا يأتون بالناس إلى المحاكمة ويصدرون بحقهم الأحكام دون تدوين ما يجري ، ثم يتحيّنون الفرص لاغتيال ضحاياهم سراً . كان نظامهم يقتفي آثار نظام ستالين وبيريا (١) .

ان الخلاف الذي نشب بين الاتحاد السوفياتي والبانيا نبع اساساً من هلع البانيا من عملية الاخذ بالديمقراطية ، رغم انه مرت لحظات كنت افكّر فيها ان ثمة مجالا لتسوية الامور . الا انني الآن اعتبر ان الخلاف كان محتّماً . وقد حصل الانفصال النهائي مع الالبان في مؤتمر الحزب الشيوعي الروماني في بوخارست في

(١٣) ان انور خوجة سكرتير الحزب الالباني الشيوعي ارتفع الى السلطة كعضو في المقاومة الالبانية باستخدامه السلاح الذي زوده به الحلفاء واليوغوسلافيون ضد منافسيه القوميين فضلا عن الالمان . ومن الواضح ان خروشوف يشير هنا الى تصفية خوجة لكوسي كوكسي ، نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية في ١٩٤٩ . وحصل ذلك بعد مقاطعة ستالين لتيتو . وكان كوكسي صديقاً ليوغوسلافيا . وقد نسي خروشوف ، ام لعله لم يعرف ذلك ، أن ستالين هو الذي حرض خوجة على التخلص من كوكسي . وكان محمد شيكو، اعنف الشيوعيين الالبانيين واقساهم، وزيراً للداخلية الذي خلف كوكسي وعرف بتطهيراته التي لا ترحم . ثم اصبح رئيساً للوزراء . اما بيكوير باللاتو ، وزير الدفاع الالباني وعضو المكتب السياسي فقد حضر دورة دراسية في اكاديمية موسكو العسكرية في ٥٢ — ١٩٥٣ . ان وصف خروشوف لتصرفات هذا الثلاثي قريبة من الواقع .

تموز ١٩٦٠ ، حيث اجتمعنا لتبادل وجهات النظر في القضايا الدولية ، ولاسيما القضايا المختصة بالعلاقات بين الأحزاب الشيوعية الشقيقة من جهة ، والحزب الشيوعي الصيني في الجهة الثانية . والآن وقد أصبح الانفصال مكرساً بيننا وبين الالبانيين ، فانني أقف بثبات أشدّ إلى جانب مبادىء القيادة الديمقراطية التي لم يستطع الالبانيون القبول بها .

ان الديمقراطية أمر مرغوب فيه دون ريب ، ولكن في البلاد الديمقراطية يصعب على الحاكم ان يبقى في الحكم ، اذا لم يحرص على التشاور مع أتباعه . وعلى الحاكم الديمقراطي أن يكون ذا عقل راجح ويستطيع التشاور مع رفاقه . وعليه ان يدرك ان مركز زعامته يتوقف على ارادة الناس في أن يكون زعيمهم ،وليس على ارادته هو في ان يقود الناس . والناس يقبلون بالزعيم اذا ما اظهر نفسه دوماً من صلب الحزب . وعلى الزعيم ان تكون حوافزه نابعة من مصالح الناس لا من الجشع أو الغرور . وعليه ان يتزود بالمعرفة والتواضع والقدرة على الانسجام مع الجماعة . وانني أكرر انه يجب ان يتولى مسؤولياته بارادة الحزب . بكلام آخر ، يجب ان لا يعلو على الحزب بل ان يظل خادمه . وهو يستطيع الاحتفاظ بمركزه ما دام يتمتع برضى الحزب ودعمه . وفي سياق عملهم الحزبي لم يكن انور خوجه ومحمد شيكو وباللاتو قد عاشوا ومارسوا هذه المبادىء ، ولا ماوتسي تونغ كذلك .

على أية حال ، فاذا كان ماوتسي تونغ قد اساء استخدام السلطة وقيادة الحزب ، إلا انه ليس — كما يزعم البعض — انساناً معتوهاً . فبعض الناس أخذ بالزعم القائل ان ماو شخص مخبول وانه مختل القوى العقليّة . هذا ليس صحيحاً ، فماو انسان ذكي جداً وداهية . وانني اذكر كيف انه لسنوات قليلة خلت كان الناس يتنبأون بأن ماوتسي تونغ لن يفوز في الصراع حول السلطة الذي كان دائراً في الصين . كنت أقول هذا هراء ، فمن المؤكد ان ماو سيفوز . وكنت على صواب في توقّعي . اذ يبدو ان ماو هو صاحب السلطة العليا في الصين الآن ، ولكن ماذا يعني ذلك ؟ ان الصينيين لا يعرفون أي قانون الا قانون القوة والسلطان . فاذا لم تطع أطاحوا برأسك ، ويفعلون ذلك بمهارة فنيّة : يشنقونك وسط ساحة على مرأى الوف البشر . فأي نوع من « السياسة » هي هذه ؟ كاد يخجل منها البرابرة ، انها لافظع من ذلك ، السنا نعيش بالنتيجة ، في القرن العشرين ؟

ولكن رغم تفوق ماو في الصين ، فان ليوشاوشي لم يستسلم بعد . انه ضد سياسات ماو وهو لم يزل يكافح . ان ليوشاوشي رجل ذكي جداً ، وحوله مؤيدون كثيرون ، ولكن ليس عندهم سلطان حقيقي . ان الذي حفظ حياة ليوشاوشي

هو شعبيّته . ان بامكان ماو شنق ليو دون كبير عناء . الا ان قتله يثير غضب الجماهير . وان ماوتسي تونغ يعرف ذلك . فهو لا يحارب ليو كفرد ، بل كمدافع عن نظام سياسي معين ، وبمعنى آخر ، يسعى ماو إلى الانتصار على ليو بعزله سياسياً (١) .

ان كلامنا عن ماوتسي تونغ هو أمر مختلف جداً عن كلامنا عن الصين ككل ، ذلك انه اذا شرعنا في شتم الشعب الصيني كله ، نكون قد تجاوزنا الخط الفاصل بين التحليل الموضوعي والتحيّز القومي المسبق . اننا نصبح قوميين عندما نؤمن ان لامّة معينة حقوقاً خاصة ومزايا متفوقة على سائر الامم . وهكذا بدأت النازية ، لذلك علينا ان ندرك ان الصينيين هم اخوتنا ، وانهم بشر مثلنا . وانه اذا هاجم الشباب الصيني سفارتنا في بكين فهذا لا يعني ان علينا ان نكره الشعب الصيني كلّه . فشباب الامّة ليسوا الامّة كلها ، يضاف إلى ذلك ان الشباب على أنواع مختلفة . فلم يكن الصينيون جميعاً في تلك الساحة يرجمون سفارتنا ، كما ان ليس كل من كان آنذاك في الساحة كان يهتف مؤيداً ماوتسي تونغ . تصوّروا كم من الصينيين يتحسرون الآن على ما حل ببلادهم ، ان في الصين اليوم كفاحاً عظيماً ، والناس يقتل بعضهم البعض الآخر .

اعتقد ان كل جهودنا يجب ان تبذل لحسم النزاع القائم الآن بين الحزب الشيوعي السوفياتي والأحزاب الشيوعية الأخرى من جهة وبين الحزب الشيوعي الصيني من الجهة المقابلة . علينا بذل كل ما في وسعنا حتى نرى الحركة الشيوعية مرة ثانية متحدة وذات اتجاه واحد . علينا انجاز هذا الهدف ! انه هدف يخدم مصالح الشعب السوفياتي ، والشعب الصيني ، وجميع الشعوب المحبّة للسلام في العالم .

ليحي الكفاح من أجل السلام ، وليحي التعايش السلمي .

(١) ليوشاوشي ، شخص معتدل وكان لفترة طويلة وريث ماو الظاهر . وقد رئس الوفد الصيني الى مؤتمر موسكو في ١٩٦٠ ، ولكنه لم يكن منسجماً مع زميله العنيف بينغ شين . وفي نزاعه الاخير مع ماو ، كان ليو محظوظاً في انه نجا بحياته .

١٩

هوشي منه وحرب فيتنام

يومي‌ء خروشوف ، السياسي العجوز ، الى مأساة فيتنام دون التركيز على بربرية الحرب ، وهو ، اذ يفعل ذلك ، يقدم لمحة عن النزاع كما يشاهد من «الجانب الاخر» . وان وجهة نظره ، يشاركه في بعضها على الاقل ، الكثيرون من ذلك الجانب .

عندما ارغم المعتدون الأميركيون على وقف غاراتهم الجويّة على أرض فيتنام الشمالية عانوا هزيمة خطيرة . ومن الواضح الآن ، كما تذكر الصحافة ، ان الولايات المتحدة لا تلتزم التزاماً صارماً بتعهداتها بوقف الغارات . ولكن مجرد وقف الغارات يشهد على المقاومة والشجاعة التي أبداها الشعب الفيتنامي . ان مقاومته نظمّت بقيادة الرئيس الراحل ، ذلك الانسان الرائع ، الرفيق هوشي منه .

لقد قابلت العديدين خلال حياتي السياسيّة ، الا ان هوشي منه ترك في نفسي انطباعاً متميزاً ، كان ذوو التقوى الدينيّة يتحدثون عن الرسل القديسين : ان هوشي منه في نمط حياته التي عاشها ، وفي ما يترك في نفوس الناس من انطباعات هو واحد من هؤلاء «الرسل القديسين» . كان رسولاً للثورة . انا لا أستطيع ان انسى النظرة المتألقة في عينيه ، يشعّ منها بريق خاص من الخلاص والطهارة . كان اخلاص شيوعي لا يرقى اليه فساد ، وطهارة رجل وقف نفسه بالفكر والممارسة على خدمة القضية . كان يربح أي انسان بصدقه وباعتقاده الراسخ الذي لا يتزعزع بأن القضية الشيوعية هي القضية الحق لشعبه ولبقية الشعوب . ان كل كلمة كان يقولها اشتملت على اعتقاده الراسخ باخوة الشيوعيين الطبقيّة جميعاً ، وبالتالي ان على جميع الشيوعيين أن يكونوا مخلصين وصادقين في تعاملهم فيما بينهم . كان هو شي منه عن حق واحداً من «قدّيسي» الشيوعية .

قابلته للمرة الأولى عندما كان ستالين على قيد الحياة . كان قد طار من ادغال فيتنام مباشرة إلى موسكو . فأخبرنا كيف تلمّس طريقه عبر الادغال ، طيلة أيام ، مشياً على الاقدام حتى وصل إلى الحدود الصينيّة ، وكيف سافر من هناك إلى الاتحاد السوفياتي .

وفي أثناء حديثنا استمرّ هو شي منه يرقب ستالين بعينيه غير العاديّتين . وأكاد أقول ان سذاجة الطفل كانت تكمن في نظراته. واذكر انه بحث في محفظته الجلديّة عن نسخة من مجلة سوفياتية اعتقد انها «الاتحاد السوفياتي تحت البناء» — ثم قدمها إلى ستالين طالباً منه توقيعها مع كلمة منه . ففي فرنسا تشيع مسألة أخذ كلمات مع تواقيع من الأصدقاء والمعارف المشهورين . ويبدو ان هوشي منه كان متأثراً بهذه العادة . فقد اعجبته فكرة اظهار كلمة ستالين الموقّعة للناس في فيتنام . وقد كتب ستالين كلمته الموقّعة ، لكنه بعد قليل دبّر سرقة المجلة من «هو» لأنه كان قلقاً على كيفية استخدام «هو» للمجلة .

اخبرنا «هو» عن كفاح شعبه ضد قوات الاحتلال الفرنسي وطلب منا العون المادي ، لاسيما السلاح والذخائر . وبعد مغادرته موسكو ارسل يطلب «الكينا» لأن شعبه كان يعاني من الملاريا . وكانت صناعتنا الكيميائية تنتج كميات هائلة من الكينا ، فتصرّف ستالين باريحيّة وأمر بارسال نصف طن من الكينا .

ثم قابلت هوشي منه مراراً بعد ذلك ، واذكر تعاوننا أبان انعقاد مؤتمر جنيف (في ١٩٥٤) (١) . في ذلك الزمن كانت علاقاتنا لم تزل حسنة مع الحزب الشيوعي الصيني . وسبق انعقاد مؤتمر جنيف اجتماع تمهيدي في موسكو ، مثل فيه الصين شوآن لاي ، وفيتنام هوشي منه ورئيس الوزراء فام فان دونغ .

وقد عملنا على بلورة الموقف الذي سنتخذه في جنيف ، اعتماداً على الحالة الخطرة

(١) كان هذا هو المؤتمر التاريخي الذي عقد في الربيع ومطلع الصيف في ١٩٥٤ وانهى القتال بين الفرنسيين والشيوعيين الفيتناميين ، شاطراً فيتنام على الخط ١٧ ، في العشرين من تموز .وكانت ديان بيان فو قد سقطت في ٧ ايار ، بينما كان المؤتمر منعقداً. وبدا ان ليس ما يحول دون سقوط فيتنام كلها في قبضة الشيوعيين . وقد ناقش الاميركيون التدخل على اساس الانطلاق جواً من حاملات الطائرات ، ولكن ايزنهاور كان ضد هذه الفكرة . ولم يكن خروشوف نفسه في جنيف. في تلك المناسبة كان المفاوضون الرئيسيون هم انتوني ايدن ممثلا لبريطانيا ، ومنديس فرانس عن فرنسا ، وشو آن لاي عن الصين وهو شي منه عن حركته التي كان يتزعمها .

في فيتنام ، اذ كانت المقاومة على وشك الانهيار . وكان رجال المقاومة يعوّلون على مؤتمر جنيف للتوصل إلى اتفاقية تمكنهم من الاحتفاظ بما استولوا عليه في كفاحهم ضد الاحتلال الفرنسي . وكانت هانوي لم تزل تحت نير الاحتلال الفرنسي . ولو القيت نظرة على الخريطة التي تضمّنت مطاليبنا للتسوية ، لاتضح ان معظم فيتنام كانت في أيدي الفرنسيين .

بعد احدى الجلسات التي كنا نعقدها في قاعة كاترين في الكرملين ، انتحى بي شوآن لي جانباً وقال : « أخبرني الرفيق هوشي منه ان الحالة في فيتنام لا يرجى منها أي أمل ، واننا اذا لم نحصل على اتفاق وقف اطلاق النار سريعاً ، فلن يكون بامكان الفيتناميين الصمود في وجه الفرنسيين . لذلك قرّروا التراجع حتى الحدود الصينيّة اذا اقتضت الضرورة . وهم يريدون من الصين ان تحرّك القوات إلى فيتنام كما فعلنا في كوريا الشمالية .وبكلام آخر، يطلب الينا الفيتناميون مساعدتهم على طرد الفرنسيين . وقد خسرنا كثيراً في كوريا — كلّفتنا تلك الحرب غالياً ، ولسنا في حالة تسمح لنا التورط في حرب أخرى في هذا الوقت .»(١)

فأجبت الرفيق شوآن لاي قائلاً : « ان كفاحاً خطيراً تدور رحاه ، والفيتناميون يقاتلون ببسالة ، والفرنسيون يتكبدون خسائر فادحة ، فليس ما يدعو إلى ان تخبروا هوشي منه بانكم ترفضون مساعدته اذا ما تراجعت قواه إلى الحدود الصينيّة تحت وطأة ضربات الفرنسيين . فلماذا لا تكذبون عليه كذبة بيضاء ؟ دعوا الفيتناميين يعتقدون انكم سوف تساعدونهم اذا اقتضت الضرورة ، فيحثهم ذلك على المقاومة والصمود في وجه الفرنسيين ؟» فوافق شوآن لاي على عدم اعلام الرفيق هوشي منه بأن الصين لن تدخل الحرب ضد الفرنسيين على أرض فيتنام . ثم حدثت اعجوبة . اذ ما ان وصلت الوفود إلى جنيف لحضور المؤتمر حتى ربح الثوار الفيتناميون انتصاراً عظيماً واستولوا على حصن ديان بيان فو . وفي الجلسة الاولى من المؤتمر اقترح رئيس الدولة الفرنسية ، منديس فرانس ، اعتبار الحد الأقصى الذي تصل اليه القوات الفرنسيّة خط العرض ١٧ . وعندما بلغنا هذا النبأ من جنيف ، شهقنا اندهاشاً وفرحاً . لم نكن نتوقّع شيئاً كهذا . كان الخط ١٧ اقصى ما كنّا نتوقّع المطالبة به ، فاصدرنا إلى ممثلينا في جنيف تعليمات بان يطلبوا التوغل جنوباً حتى الخط ١٥ ، وذلك فقط لاظهار التشدد في المساومة . وبعد قليل من التردد ،

(١) لم يعرف أحد في الغرب ان الحالة كانت في فيتنام ميؤوساً منها الى هذا الحد .

قبلنا عرض منديس فرانس ، ووقعت الاتفاقية . وهكذا نجحنا في تكريس مكاسب الشيوعيين الفيتناميين. (١)

وانني اغتنم هذه الفرصة لاعطي منديس فرانس حقّه . اذ أنّه قيّم الحالة التي يواجهها برصانة ودقة . فعلى افتراض ان رجال المقاومة كانوا يعانون الصعوبات في فيتنام ، الا انّهم لا يعانونها أكثر مما كان يعانيها الجيش الفرنسي . لقد اتخذ منديس فرانس الخطوة الوحيدة المعقولة عندما انهى الحرب التي كان يشنّها الفرنسيون في فيتنام ، وهكذا انسحبت فرنسا من الحرب وأجلت قوآتها .

كل شيء كان قد سار على أفضل ما يرام لو ان جميع الفرقاء التزموا باحكام اتفاقية جنيف . فبموجبها كان يجب ان تجري انتخابات عامة بعد سنتين . ولم يكن يخامرنا شك في أن هوشي منه — أي الشيوعيين والقوى التقدمية في فيتنام — سيخرج منها منتصراً . ولكن الذي حدث ان ذلك الرجل الشرير دالاس دفع الولايات المتحدة على التدخل وشن حرباً دامية على الشعب الفيتنامي لم تزل مندلعة حتى اليوم .

لن اتطرق إلى الحرب بحد ذاتها لأن احداثها وردت بالتفصيل في الصحف . الا انني ، أرغب في قول شيء حول الصعوبات التي تواجه الفيتناميين بسبب خلاف الاتحاد السوفياتي مع الصين .

ابان المرحلة الختامية لمؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية في ١٩٦٠ (٢) ، وافق الجميع على توقيع الاعلان الصادر عن المؤتمر باستثناء الصينيين الذين رفضوا بعناد القبول باحد بنود تلك الوثيقة ، وكان ذلك بنداً مهماً ، بحيث ان اشتمال الوثيقة عليه كان أمراً اساسياً ، لذلك لم نقبل بملاقاة الصينيين في منتصف الطريق .

وجاءني هوشي منه قائلاً : «ايها الرفيق خروشوف ، عليك ان تتساهل مع الصينيين حول هذا البند .» فأجبته : «كيف بامكاننا التنازل والتساهل ؟ انها مسألة مبدئية » فقال : « ولكن أيها الرفيق خروشوف ، ان الصين بلاد كبيرة جداً ، وحزبها الشيوعي كبير جداً أيضاً ، فلا يجوز السماح بوقوع انشقاق في

(١) قابل البريطانيون والفرنسيون اتفاقية الخط ١٧ بسرور بالغ . ومن الخير ان نعرف ان هوشي منه وخروشوف كانا هما الاخران مسرورين منها . غير ان دالاس لم يكن راضياً عن ذلك .

(٢) كان ذلك مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية (حضر منها ٨١ حزباً) الذي اشير اليه في الفصل السابق . وكان قبول الصينيين التوقيع على صيغة تسوية يحفظ فيها ماء وجه الشيوعية العالمية لفترة تلت .

الحركة . يجب ان يوافق الصينيون معنا جميعاً على توقيع هذه الوثيقة ، فهذا الاعلان يكتسب قيمته الدولية ، اذا تم الاجماع على توقيعه وتأييده . »

فاجبته : «أيها الرفيق هوشي منه ، ان وفدنا يبذل كل جهوده للحفاظ على وحدة الحركة الشيوعية ، فلا تظنّوا اننا نقلّل من مكانة الحزب الشيوعي الصيني وقوته . ولكنكم لا شك تفهمون استحالة المساومة على المبادىء . ان موقفهم يناقض نظرتنا الشيوعية الامميّة بكاملها . انك تقول ان الصين بلاد كبيرة وان الحزب الصيني حزب كبير . على انكم توافقون على ان بلادنا ليست بلاداً صغيرة ولا حزبنا بالحزب الصغير . ولكن هذا كله خارج عن الموضوع ، ان كل الاحزاب الشيوعية متساوية ومفروض ان تتمتع بحقوق متساوية وفرص متساوية . وما دامت الحال كذلك ، فلا بد من إخضاع كل مطامحنا لهدف واحد هو انتصار الحركة الشيوعية . »

ووافقني هوشي منه ، ولكنه قال : « بالنسبة لنا اننا نواجه صعوبة مزدوجة . فالصين جارتنا . » ثم بدا جلياً أنه ذهب ليتحدث إلى الصينيين . وبالنتيجة ، بعد جهود مضنية وطويلة من جانب ممثلينا لمفاوضة الصينيين ، وجدنا صيغة مقبولة من الطرفين ، فوافقت الصين على توقيع الاعلان . لقد حزنت عندما قطعت الصين ، عملياً ، كل العلاقات السياسية معنا . وحين بدا الخلاف بين الحزبين الشيوعيين السوفياتي والصيني للعيان ، أخذت الصين تقود حزب العمال الفيتنامي بالرسن . ذلك ان قطاعاً واسعاً ، من سكان فيتنام ، وبالتالي من أعضاء الحزب هم صينيون . فأخذت الصين تستخدم نفوذها الواسع لبذر الشقاق بين فيتنام والاتحاد السوفياتي ، والعمل على تحويل الحزب الفيتنامي ضدنا . والآن يحتل بعض المناصب الرئيسية في زعامة الحزب الفيتنامي رفاق منحازون للصين . وحين كنّا نبذل أقصى جهودنا لمساعدة فيتنام ، كان الرفاق المنحازون للصين في فيتنام يبذلون هم أيضاً أقصى جهودهم لاسترضاء الصين . وبكلام آخر ، كانوا يعملون لا ضدنا فحسب ، بل ضد مصالح فيتنام الحيوية نفسها . انه لأمر يدعو إلى الاسى .

وكنّا مخلصين ، لا نوفّر جهداً الا بذلناه في معاونة فيتنام . وكانت العداوة التي بادرتنا بها العناصر الصينيّة في فيتنام كأساً مرّة يصعب تجرّعها . لماذا اثير هذا الموضوع الآن ؟ انني أفعل ذلك ، نظراً لصلته بالمستقبل ، بعد موت هوشي منه .

ما أقرأه في الصحف ، يدل ان كل شيء يسير سيراً حسناً في العلاقات السوفياتية — الفيتنامية . فالبعثات الفيتنامية تزور الاتحاد السوفياتي ، ومراسلونا يذهبون إلى فيتنام ليكتبوا التقارير الصحفية عن كفاح الشعب الفيتنامي فتنشر

بانتظام في الصحافة وتذاع على التلفزيون وفي الراديو .

الا ان بعض المعلومات التي تلقيتها تشير إلى ان الامور ، في الواقع ، لا تسير بالانسجام الذي صورته تلك التقارير . فالفيتناميون يبدون بعض التحفّظ الذي لا مبرر له ازاء الحكومة والحزب السوفياتيين . ان هذا يعني ان قوات موالية للصين لم تزل في الحكم والقيادة الحزبية الفيتنامية . في ظاهر الامور يبدو ان العلاقات بين فيتنام والاتحاد السوفياتي هي علاقات صداقة وثقة متبادلة . من الممكن أن يكون هذا المظهر ليس الاّ واجهة كاذبة تطل به القيادة الفيتنامية — بموافقة وبركة الصينيين — حتى لا تخسر عون الاتحاد السوفياتي وبقية الأحزاب الشيوعية الشقيقة .

انني اتمنى صادقاً ان لا يكون الحال كذلك ، رغم انني لا انفي امكان وجودها . واود ان اعتقد ان فيتنام تريد حقاً قيام علاقات حسنة مع الاتحاد السوفياتي ، ولكنني اشك في ان تطلق الصين فيتنام من مخالبها . والعناصر المنحازة للصين ستبقى قويّة في فيتنام . وستبذل هذه العناصر قصارى جهدها حتى تجعل فيتنام خاضعة لتوجيه الصين .

والآن ، بعد وفاة الرفيق هوشي منه ، سيكون بمقدور النفوذ الصيني ان يكبر بسرعة أكثر من ذي قبل . واذا ما حدث هذا فيكون مما يدعو إلى الاسف ، ومما يشوه ذكرى الرفيق هو شي منه الذي وقف الكثير من فكره وطاقته على تعزيز علاقات الصداقة بين بلاده والاتحاد السوفياتي .

وبعد موت الرفيق هوشي منه ، القيت خطباً عديدة ودبجت مقالات بقلم أشخاص من مختلف الاتجاهات السياسيّة ، وجميعها تحاول الاجابة عن الاسئلة التي تقلق الجميع : كيف ستتطور علاقات فيتنام بالاتحاد السوفياتي ، بالبلدان الرأسمالية ، وبالاحزاب الشيوعية التي تختلف وجهات نظرها عن وجهة نظر ماوتسي تونغ ؟ وكيف ستتطور علاقات فيتنام مع قيادة الحزب الصيني ؟ ماذا سيطرأ من تغيير في سياسة فيتنام ؟ واود الآن أن اشارك في الرد على هذه الاسئلة ، وخصوصاً ما يتصل بالعلاقات السوفياتية الفيتنامية .

ليس بامكان أحد ، على وجه التأكيد ، التكهن بما سيحدث . ثمة دلائل عما يمكن توقعه ، ولكن علينا الحذر من الاغراق في التكهنات . ذلك لأن ليس هنالك من أساس ثابت . ان كل شيء هو في حالة تغيير . والامور عرضة للتبدل في أية لحظة . ومثال على ذلك انه مضى وقت كانت العلاقات حسنة بين الاتحاد السوفياتي والجمهورية الشعبية الصينية . ولكن الامور تبدلت الآن . وهذا يمكن ان يحصل

مع فيتنام . كانت علاقاتنا في الاصل جيّدة جداً ، فاذا كانت قد تدهورت فيما بعد ، فذلك لم يكن ناتجاً عن خطأ ارتكبه الحزب الشيوعي السوفياتي ، بل كان ناتجاً في رأيي عن موقف مارتسي تونغ ونفوذه في فيتنام .

ان الوثائق التي اجعلها أساساً لتكهّناتي ، أو على الأقل لتخميني للمجرى الذي ستتبعه فيتنام ، هي ما سمّي «بوصية» هوشي منه وبيان لي دوان الشهير . (١) لقد قرأت الوثيقتين مرتين ، وقرأتهما بانتباه حتى استطيع تفسيرهما تفسيراً صحيحاً .

ففي وصية هوشي منه لا يرد شيء عن المعونة الضخمة المجرّدة عن كل غرض ذاتي التي قدّمها الاتحاد السوفياتي لفيتنام . ان معونتنا كانت حاسمة ، نظراً لأنه بدون تلك المعونة الماديّة من الاتحاد السوفياتي كان يتعذّر على فيتنام ان تصمد في خوض حرب حديثة ضد عدو يملك من القوى والطاقات ما تملكه الولايات المتحدة . ولم يكن أمام فيتنام ، حتى تتلقى السلاح والعتاد الصالحين ، الاّ ان تعتمد على الاتحاد السوفياتي . وبدون ذلك كان لا أمل لها بالصمود ولا بالنصر . وليس بامكان الصين مدّ الفيتناميين بما يحتاجون اليه . ان الصحافة العالمية ، بما فيها المعادية للشيوعية ، تعترف اليوم بان فيتنام كانت أعجز من ان تقاوم عسكرياً العدوان الأميركي لولا المعونة الاقتصادية والعسكرية التي زودها بها الاتحاد السوفياتي . ومثال على ذلك ، اننا لو أخذنا بلاغاً يعلن ان جيش التحرير الفيتنامي الشمالي قد شن هجوماً بالصواريخ على قاعدة جوية أميركية ، لتبادر فوراً إلى الاذهان ان هذه الصواريخ ليست من صنع الفيتنام، بل من صنع الاتحاد السوفياتي . وان الاتحاد السوفياتي ، دون ان تكون له أغراض نفعية ، قد وقف نفسه على مساعدة كل القوى والشعوب المكافحة في سبيل استقلالها ، وفي سبيل حريّتها الاقتصادية والسياسيّة ضد العدوان الامبريالي .

وقد أخذت ، حتى العناصر الموالية للصين في فيتنام تفهم ، آخر الأمر ، ضرورة الصداقة مع الاتحاد السوفياتي . فقد تصرّف الفيتناميون بحكمة عندما كيّفوا سياساتهم . أقول كيّفوها ، لأنهم لم يبدّلوها تبديلاً أساسياً ، بل اكتفوا بتكييفها مع واقع الحال . فأخذوا بعين الاعتبار ضرورة استمرار الحرب في المستقبل ، مدركين ان الاتحاد السوفياتي وحده ، لا الصين ، هو الذي يستطيع مدّهم بما يحتاجون اليه .

---

(١) لي دوان هو العضو الاهم في القادة الفيتنامية الشمالية بعد موت هو .

سيحتدم الكفاح الوحشي الآن والنصر لما يزل بعيداً . غير ان تباشير انتصار فيتنام على الامبريالية الاميركية يتراءى في الافق البعيد . من هنا ، ان جهودنا لا يجوز ان تكل وتمل ، وانما يجب ان تتضاعف في سبيل تعبئة كل شيء للوصول بكفاح الشعب الفيتنامي إلى نهايته الظافرة . ان الفيتناميين يسفحون دمهم ويقدمون حياتهم في سبيل الحركة الشيوعية العالمية ، فهل سيبدي خلفاء هوشي منه الحكمة الكافية للفوز في هذا الكفاح ؟ ان الوقت وحده يملك الخبر اليقين !.

٢٠

فيدل كاسترو وازمة الكاريبي

ربما كانت رواية خروشوف عن ازمة الصواريخ في كوبا في تشرين الاول ١٩٦٢ هي الأكثر صراحة وانسجاماً وتوافقاً مع الظروف والاحداث في كل هذه الذكريات . ان حذف بعض التفاصيل من قصة مألوفة الى هذا الحد يكاد لا يؤثر البتة . ولقد كان واضحاً في تاريخ مسبق لدى معظم المراقبين الواعين أن حوافز خروشوف كانت الى حد ما ، كما يصفها هنا . وفي الغرب ضخم كثيراً (باستثناء الرئيس كينيدي) أمر اذلال خروشوف بارغامه على سحب صواريخه . واستغل الصينيون ذلك الى الحد الاقصى وكذلك فعل خصوم خروشوف في الوطن . الا ان الحقيقة تبقى انه احرز ما اراد تحقيقه ولو بطريقة مختلفة عما قصد اصلا : اعطى لكوبا كاسترو ضمانة ضد خطر الغزو المسيطر ، كما انه حقق تفاهماً مع الرئيس كينيدي الذي كان اغتياله بالنسبة لخروشوف كارثة شخصية وعميقة الاثر .

سأوضح حقيقة أزمة الكاريبي التي حصلت في اكتوبر ١٩٦٢ . لقد نشبت الازمة على النحو التالي :

عندما قاد فيدل كاسترو ثورته إلى النصر ودخل هافانا بقواته ، لم تكن لدينا فكرة عن الخط السياسي الذي سيتبعه نظامه . كنا نعرف ان عدداً من الأفراد الشيوعيين يشتركون في الحركة التي يقودها كاسترو . الا ان الحزب الشيوعي في كوبا لم يكن على صلة به ، حتى ان سكرتير اللجنة المركزيّة للحزب الكوبي استقال من الحزب ليلتحق بكاسترو في الجبال . وعندما استولى رجال كاسترو على هافانا ، كان اتكالنا كلياً على تقارير الصحف والاذاعات ، سواء من كوبا نفسها أو من البلدان الاخرى لمعرفة حقيقة ما يحدث . وكانت الحالة اجمالاً تبدو غامضة . وكان الرجل الذي عيّنه فيدل رئيساً ، نكرة لم يسبق لنا ان سمعنا به من قبل . وفضلاً

عن ذلك فان كوبا لم تكن قد اعترفت بحكومتنا لذلك بقينا فترة طويلة من دون علاقات دبلوماسية مع النظام الجديد .

غير ان رجالنا الذين يعالجون شؤون أميركا اللاتينية والذين كانوا يسافرون في المنطقة ، تعرّفوا إلى بعض الزعماء الكوبيين . وكانوا يعرفون راول كاسترو بصورة خاصة . ويبدو انه صدف ان احد رفاقنا كان على سفينة مبحرة إلى مكسيكو مع راول كاسترو . وأخبرني هذا الرفيق انه التقى راول وتحادثا معاً ، وانه شهد بام عينه ، عندما وصلا إلى مكسيكو ، راول يعتقل على مرأى منه . واستناداً إلى معلومات تلقيناها من مصادر متعدّدة عرفنا ان راول شيوعي حقيقي ، الاّ انه بدا انه اخفى قناعاته الحقيقية عن شقيقه فيدل . وتشي غيفارا كان أيضاً شيوعياً ، وكذلك عدد من الآخرين — أوهكذا اعتقدنا . ولم يكن متوافراً لدينا في غياب الاتصالات الرسمية مع القادة الكوبيين الاّ الشائعات .

وأخذت الأحداث تتوالى بسرعة . وقررنا ان نرسل ميكويان إلى أميركا لاجراء اتصالات غير رسمية مع رجال الاعمال الاميركيين . وكان سيحل ضيفاً على سفيرنا أناتولي دوبرينين . وأردنا ان نكشف ما هي إمكانات تنمية التجارة مع أميركا . وكان انستاس إيفانوفيتش الرجل الذي يفرضه المنطق ليقود هذه البعثة . فقد زار أميركا قبل الحرب ولا يزال لديه بعض الاتصالات القديمة . وكان اعتقادنا انه ما ان يظهر في واشنطون حتى يحتك به رجال الاعمال ممّن يرغبون في البحث عن مصادر جديدة للربح .

وعندما كان ميكويان في الولايات المتحدة دعاه فيدل كاسترو إلى زيارة كوبا ، حيث قام بجولة وتفقد الامور وتحدث إلى الناس . ولم تكن بيننا وبين كوبا بعد علاقات ديبلوماسية . وكان كاسترو يتبع سياسة حذرة جداً ازاءنا . وثمة نادرة كانت تروى عن الحالة في كوبا ودور كاسترو في ذلك الوقت : يصعد قادة الثورة الكوبية إلى السماء ، فيخرج القديس بطرس لملاقاتهم باعتباره ممثل الله الرسمي ، ويأمرهم جميعاً بأن يقفوا في الصف . ثم يقول : جميع الشيوعيين ، تقدموا ثلاث خطوات إلى الأمام . فتقدّم غيفارا ، فراول ، فواحد ثالث . أمّا الباقون بما فيهم فيدل فيبقون في الصف . فيحمّلق بطرس في فيدل ويصيح به : « ها ، أنت ، أيها الطويل ، ذو اللحية ، ما الأمر ، ألم تسمع ما قلته ؟ ليتقدم جميع الشيوعيين ثلاث خطوات إلى الأمام ! »

وعقدة القصة انه بينما كان القديس بطرس وجميع الناس يعتبرون فيدل شيوعياً لم يكن يعتبر هو نفسه كذلك . ولذلك ظن ان أمر بطرس لايعنيه هو .

وبعد زيارة ميكويان بقليل أنشأنا علاقات دبلوماسية مع كوبا . وكان

الاميركيون قد قطعوا النفط عن كوبا ، وهو مورد طاقتهم الرئيسي . فاضطر الكوبيون ان يتحولوا الينا طلباً للمساعدة . وكانت الحياة في خطر التوقف على الجزيرة . فكان من الضروري الملح ان ننظم عملية عاجلة لتزويد كوبا بالنفط على نطاق واسع . ولكن ذلك كان سهلاً من الناحية النظرية فقط . ولما لم يكن تحت تصرّفنا عدد كاف من ناقلات النفط العابرة للقارات ، فان الجهد الذي بذلناه لتزويد كوبا بالمنتوّجات النفطية كان عبئاً ثقيلاً على سفننا ، مما حملنا على طلب ناقلات جديدة من إيطاليا .

وعندما وافقت ايطاليا على بيعنا الناقلات ، ادى ذلك إلى نزاع حاد بين ايطاليا وأميركا . فقد اتهم الاميركيون الطليان بخرق روح التضامن مع اقرانهم من الرأسماليين . وقد تعلّمنا من ذلك انه اذا سنحت الفرصة أمام بلد رأسمالي لربح أموال اضافية ، فانه يرمي مسألة التضامن الاقتصادي جانباً .

وما ان أقمنا العلاقات الدبلوماسية مع كوبا حتى ارسلنا دبلوماسياً عريقاً ليكون سفيرنا . كما كان عندنا اليكسييف، وهو صحافي مقرب جداً من فيدل وبصورة أكثر من راول . وعندما كان القادة الكوبيون يريدون منّا شيئاً كانوا يطلبونه ، في الاغلب ، من اليكسييف ، لا من سفيرنا . فيهرع اليكسييف إلى الاتصال فوراً بموسكو .

ومن حسن حظّنا ان اليكسييف كان هناك ، لأنه تبيّن ان سفيرنا لم يكن موٌهلا للعمل في بلد خارج لتوه من الثورة . فمن مشاكله انه وقع بسرعة أسير البيروقراطية . ومشكلة ثانية انه عندما احتدم الأمر وبدأ اطلاق النار ، طلب من الكوبيين ان يزودوه بحرس شخصي . وقد أثار ذلك هول الزعماء الكوبيين وتذمرهم لأنهم جميعاً كانوا من قواد العصابات الذين عادوا موٌخراً من الجبال . فبينما كانوا هم يعرضون صدورهم لنيران اعداء الثورة ، فيتجولون من دون حرس على الاطلاق ، يأتي هذا الشيوعي الارستقراطي ويبدأ بالمطالبة بنوع خاص من الحماية .

وبعد أن تبين لنا ان سفيرنا يتصرّف على نحو يسيء إلى علاقاتنا مع كوبا ، استدعيناه وعيّنا اليكسييف مكانه . وتبيّن ان ذلك كان اختياراً عظيماً ، اذ كان الكوبيون قد خبروا اليكسييف ووثقوا به ، كما كان هو من نمط الدبلوماسيين الذي يرضيهم .

وفي أثناء ذلك كانت المؤامرة تنعقد خيوطها جيداً . ولم يعد كاسترو جالساً على السياج يتفرّج ، بل أخذ يتصرّف كشيوعي كامل رغم انه لم يسم نفسه شيوعياً . وأخذ يضم الشيوعيين إلى حكومته .

وأخذت سياسات كاسترو تكثّر من عدد خصومه . فالرئيس الذي عيّنه عندما تسلّم السلطة هرب إلى أميركا . والعديدون ممن حاربوا إلى جانبه أيام الكفاح من أجل الاستقلال بدأوا يتركونه . والسبب الكامن وراء هذا التحول هو أن العديد منهم لم يكن يريد الاصلاحات الاشتراكية . كان كيل صبرهم قد طفح بالنسبة لباتيستا ، وتاقوا إلى اسقاط النظام الفاسد القديم ، ولكنهم كانوا ضد تأميمات كاسترو كذلك ، وضد القيود التي فرضها على الملاكين ، وضد مصادرته أملاك الاميركيين الأثرياء .

وفي غضون ذلك كان الاميركيون يراقبون كاسترو عن كثب . في البداية اعتقدوا ان الدعامات الرأسمالية للاقتصاد الكوبي لن تُمسس . ولذلك فعندما أعلن كاسترو انه سيضع كوبا على طريق الاشتراكية فقد الاميركيون أملهم فيه وبضبط تصرفاته ، مما لم يترك أمامهم إلا خياراً وحيداً : الغزو .

طلب الكوبيون منا السلاح ، فاعطيناهم الدبابات والمدافع المضادة للطائرات وبعض الطائرات المقاتلة . وأرسلنا اليهم المدربين والموجهين . ونتيجة مساعدتنا أصبحت كوبا مسلحة تسليحاً جيداً . وكان الجيش الكوبي يفتقر في الأساس للخبرة ، اذ ان الكوبيين لم يكونوا تعودوا القتال سوى بالاسلحة الخفيفة ، كالبنادق الاتوماتيكية والقنابل والمسدسات . على انهم تعلّموا بسرعة ، وبمساعدة مدربينا ، استخدام الأسلحة الحديثة التي زودناهم بها .

وسمعنا أول الأمر من الاذاعة ان غزواً مضاداً للثورة قد شن ضد كوبا (١) ، ولم نكن نعرف حتى هوية الغزاة : هل هم كوبيون متآمرون أم أميركيون ، إلاّ اننا عرفنا بعدئذ ان الغزو يتمتع بدعم الاميركيين .

تحركت قوات فيدل كاسترو بسرعة وقضت على الغزاة . وكان الاميركيون قد وضعوا ثقة كبيرة في المتآمرين ، وافترضوا ان الكوبيين سيؤيدون الغزو ، وان الغزاة سيتمكنون من الاطاحة بكاسترو اذا قدم الاميركيون لهم الدعم الكافي .

بعد انتصار كاسترو الساحق على اعداء الثورة، ضاعفنا مساعدتنا لكوبا . اعطيناهم من الأسلحة بقدر ما يستطيع الجيش الكوبي ان يستوعب . **لكن المشكلة الحقيقيّة لم تكن في كمية أو نوعية الاسلحة ، بل في عدم توفر الاشخاص الذين يستطيعون استعمال الاسلحة الحديثة .**

قبل ان يقمع الغزو نهائياً ، أذاع كاسترو ان كوبا **ستتبع طريقاً اشتراكياً .**

(١) كان ذلك في خليج الخنازير في نيسان ١٩٦١ .

ولقينا صعوبة في فهم توقيت هذا التصريح . اذ كان الاثر الفوري لاعلان كاسترو ، توسيع الهوة بينه وبين الناس الذين كانوا ضد الاشتراكية ، وضيق دائرة اولئك الذين يستطيع الاعتماد عليهم . كان موقف كاسترو هذا ، من حيث الشجاعة ، صحيحاً ومثيراً للاعجاب ، الا انه من ناحية تكتيكية لم يكن صحيحاً .(١)

لكن كاسترو انتصر على أي حال . لقد هزم رجال الثورة المضادة وسقط العديد منهم في قبضته أسرى . رحبّنا بانتصار كاسترو ، على اننا كنا واثقين من ان الاميركيين لن يتركوا كوبا وشأنها . وكانت الولايات المتحدة قد وضعت ثقتها في المهاجرين الكوبيين وستكرر المحاولة. وقد تعلم هؤلاء امثولة من هزيمتهم وهم لن يرفضوا الفرصة لتكرار اعتدائهم .

ان موقع كوبا الجغرافي جعلها معرّضة جداً لاعدائها . وكان الشاطىء الكوبي لا يبعد إلا أميالاً قليلة عن الشاطىء الاميركي، وكان يمتد على شكل يتيح للمهاجرين سهولة الوصول كما انه يقدم في الوقت نفسه صعوبات مذهلة للمدافعين عنه ، مما جعل فرص غزوه لا تحد ، لاسيما اذا كان للغازي مدافع بحرية ودعم جوي .

وكنّا واثقين من ان الاميركيين لن يكيفوا انفسهم مطلقاً مع كوبا كاسترو . كانوا يخشون ، بقدر ما كنّا نأمل ، أن يصبح وجود كوبا ذات نظام اشتراكي ، يجتذب كالمغناطيس دولاً أميركية لاتينية أخرى إلى هذا النظام .

في ضوء هذا التدخل الأميركي في الكاريبي ، ما عساها تكون سياستنا ؟ هذا السؤال كان يشغل بالي بصورة مستديمة وغالباً ما كنت ابحثه مع أعضاء البريزيديوم .

ووافقني الجميع على ان أميركا لن تدع كوبا وشأنها ما لم نقم بخطوة ما . وكنّا ملزمين أن نفعل كل ما بوسعنا فعله لحماية وجود كوبا كبلد اشتراكي وكممثل حي لسائر بلدان أميركا اللاتينية . وكان واضحاً بالنسبة لي اننا قد نخسر كوبا اذا لم نقم بخطوات حاسمة في الدفاع عنها .

ان مصير كوبا والحفاظ على الهيبة السوفياتية في ذلك الجزء من العالم قد شغلني حتى عندما كنت منهمكاً في إدارة شؤون الدولة في موسكو والسفر إلى بلدان شقيقة أخرى . وعندما كنت في زيارة رسمية لبلغاريا ظلت فكرة واحدة تنخر دماغي : ماذا يحدث اذا خسرنا كوبا ؟ كنت أعرف ان ذلك سيكون ضربة رهيبة للماركسية اللينينية وان مركزنا في العالم سيصاب بنكسة كبرى وبصورة خاصة

---

(١) ناقض كاسترو باعلانه الصريح عن مبادئه الاشتراكية تعاليم لينين عن التكتيك الثوري الذي يعطي قيمة كبرى لعامل الخداع .

في أميركا اللاتينية . فاذا سقطت كوبا ، فان الدول الاميركية اللاتينية الاخرى سترفضنا ، مدعية انه برغم قدرة الاتحاد السوفياتي فانه لم يستطع أن يفعل شيئاً لكوبا باستثناء الاحتجاجات الفارغة في الأمم المتحدة . كان علينا ان نفكر في طريقة لمواجهة أميركا أكثر من الكلمات . كان علينا البحث عن انشاء عائق ملموس لنقف في وجه التدخل الاميركي في الكاريبي . ولكن ماذا على وجه التحديد ؟ الجواب المنطقي كان الصواريخ .

ان الولايات المتحدة كان قد سبق لها وأحاطت الاتحاد السوفياتي بقواعد قاذفاتها وصواريخها . كنّا نعرف ان الصواريخ الاميركية موجّهة ضدنا في تركيا وايطاليا ، ناهيك بالمانيا الغربيّة . كانت مراكزنا الصناعية الحيوية مهددة بالطائرات حاملات القنابل الذريّة والموجّهة بالصواريخ ذات الرؤوس النووية . وبوصفي رئيساً لمجلس الوزراء ، وجدت نفسي في وضع صعب ، اذ كان عليّ تقرير مواجهة التهديد الاميركي ، شرط ان نتجنب في الوقت نفسه الحرب . ان باستطاعة أي أبله أن يولع نار الحرب ، ولكن ما ان يفعل ذلك حتى يتعذّر اخمادها — لاسيما اذا كانت حرباً نووية .

وخلال زيارتي تلك لبلغاريا خطرت لي فكرة تركيب صواريخ ذات رؤوس نووية في كوبا ، من دون ان تكشف أميركا ذلك الا بعدما يكون الاوان قد فات .

كنت أعرف أن علينا قبل كل شيء التحدث إلى كاسترو وشرح استراتيجيتنا له في سبيل الحصول على موافقة الحكومة الكوبيّة . وكان تفكيري هو الآتي : اذا ركزنا الصواريخ سراً ، ثم اكتشفت الولايات المتحدة ذلك بعدما تكون الصواريخ جاهزة للانطلاق ، فانها ستفكر مرتين قبل ان تحاول تصفية منشآتنا بالوسائل العسكريّة . وكنت أعرف انه سيكون بمقدور الولايات المتحدة تصفية بعض منشآتنا لكن ليس كلّها . فاذا بقي ربع أو عشر أو حتى مجرد صاروخ أو صاروخين كبيرين فانه سيظل بامكاننا ضرب نيويورك ، ويؤدي ذلك إلى إبادة عدد كبير جداً من الناس — لا أعرف العدد بالضبط ، طبعاً ليس كل سكان نيويورك . هذه مسألة اترك لعلمائنا وعسكريينا أن يحددوها . فهم يختصون في الحرب النووية ويعرفون كيفية حساب نتائج ضربة صاروخية ضد مدينة في حجم نيويورك ، ولكن هذا كله خارج الموضوع .

كان الأمر الأساسي أن تركيب صواريخنا في كوبا سوف يمنع الولايات المتحدة من القيام بعمل عسكري متهور . وفضلاً عن ذلك فانه يجعلنا على قدم المساواة في ما يطلق عليه الغربيون «توازن القوى .» اذ ان الاميركيين كانوا قد طوقوا بلدنا نحن بالقواعد العسكرية وهددونا باسلحتهم النووية ، والآن سيعرفون تماماً

ماذا يعني ذلك . لن نفعل أكثر من اعطائهم جرعة من دواءهم يستخدمونه ضد الآخرين . لقد آن الاوان لكي تعرف أميركا معنى ان تكون أرضها وشعبها مهددين .

نحن الروس قد عانينا من حروب ثلاث جرت في نصف قرن على أرضنا : الحرب العالمية الأولى ، والحرب الأهلية ، والحرب العالمية الثانية . ان أميركا لم تضطر قط إلى خوض حرب على أرضها – بالاقل ليس في السنوات الخمسين الماضية . لقد أرسلت قواتها إلى الخارج للقتال في حربين عالميتين وجنت ثروة نتيجة ذلك . وأراقت أميركا نقاطاً قليلة من دمها ، في حين كانت تجني المليارات من استنزاف دماء سائر البشر .

كل هذه الأفكار بقيت تدور في رأسي وأنا في بلغاريا . كنت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً أفكّر في الامر . لم اخبر أحداً بما كنت افكر فيه ، بل أبقيت عذابي العقلي لنفسي ، لكنني لم استطع ابعاد فكرة تركيب الصواريخ في كوبا التي أخذت تنضج في فكري .

وبعدما عدت إلى موسكو عقدت اجتماعاً وقلت ان لدي بعض المقترحات بشأن كوبا . وقدمت فكرتي مع كل الاعتبارات التي ذكرت وفي اطار الغزو المضاد للثورة الذي كان كاسترو سحقه قبل قليل ، وقلت انه سيكون من الغباء الاعتقاد ان الغزو المقبل والذي لا مفرّ منه ، سيكون سيء التخطيط والتنفيذ كالاول . وحذرت من ان فيدل قد يسحق ، وقلت اننا الوحيدون القادرون على الحؤول دون وقوع مثل هذه الكارثة .

وخلال المباحثات داخل الحكومة قررنا ان نركز صواريخ متوسطة المدى وأجهزة للاطلاق وقاذفات قنابل (اليوشن – ٢٨) في كوبا . ورغم ان هذه لا تنفع كثيراً كقاذفات الا انها نافعة ضد قوة انزال عدوة . ذلك ان الاليوشن ٢٨ كانت بطيئة جداً في الطيران فوق أرض العدو مما يسهّل اسقاطها ، الا انها ذات مؤهلات جيدة للدفاع عن الشواطىء .

كانت اليوشن ٢٨ اولى قاذفاتنا النفاثة ، وفي زمنها كانت سيدة الاجواء ، ولكن عندما قررنا مد كوبا بالمعونة العسكريّة ، كانت اليوشن ٢٨ قد أصبحت خارج انتاجنا الحربي المقرّر .

وبعد فترة قصيرة من شروعنا في شحن الصواريخ ، بدأ الاميركيون يشتبهون بالامر . فقد أخبرتهم استخباراتهم بان عدد السفن الذاهبة إلى كوبا قد تزايد فجأة وان رجالنا يفرغون السفن من حمولتها حالما تصل الموانىء الكوبية . لم نكن نسمح للكوبيين لا في تفريغ السفن ولا في إقامة الصواريخ بانفسهم . ورغم انه لم يكن لدى الاميركيين معلومات مباشرة عما نسلّم للكوبيين ، الا انهم عرفوا ان

ما نفعله انما نفعله بأيدينا نحن . ولم يمض وقت طويل حتى استنتجوا على أساس الصور الاستطلاعية ، اننا نقيم قواعد للصواريخ . كما عرفوا أيضاً بامر طائرات اليوشن ٢٨ التي طارت إلى كوبا .

واصيب الاميركيون برعب وزدنا في عدد الشحنات . كنا قد أوصلنا كل شيء تقريباً في الوقت الذي بلغت الأزمة نقطة الانفجار .

بعض الناس يقول انه كان علينا ان نركّز الصواريخ المضادة للطائرات قبل الصواريخ العابرة للقارات ، من أجل اغلاق المجال الجوي فوق كوبا . ان هذا ليس منطقياً . اذ كم من صواريخ أرض – جو تستطيع ان توضع على جزيرة صغيرة ومستطيلة ؟ . ان ثمة حداً للمنشات الصاروخية التي تستطيع اقامتها على جزيرة صغيرة مثل كوبا ، ثم انك بعد أن تكون قد أطلقت صواريخك كلّها تصبح مكشوفاً . وفضلاً عن ذلك فللصواريخ المضادة للطائرات مدى قصير جداً . فبالامكان بسهولة تعطيلها من الجو والبحر .

اريد أن اوضح هذا الأمر : عندما وضعنا الصواريخ العابرة للقارات في كوبا لم تكن لدينا أية رغبة في اشعال حرب . بل العكس ، كان هدفنا الرئيسي هو ردع أميركا من بدء حرب . كنّا نعي جيداً ان أي حرب تبدأ حول كوبا ستتحول إلى حرب عالمية . وان أي غبي كان يمكن ان يشعل حرباً بين أميركا وكوبا .

كانت كوبا تبعد ١١ ألف كيلو متر عنا ، والمجنون وحده يمكن أن يفكر في اننا نريد غزو القارة الأميركية من كوبا . على العكس من ذلك ، اردنا ان نمنع الاميركيين من غزو كوبا وأردنا أن نجعلهم يفكرون مرتين قبل الإقدام على أي أمر ، فواجهناهم بصواريخنا . وقد حققنا هذا الهدف ، لكن ليس دون المرور بفترة توتر خطيرة . وعندما أدرك الاميركيون قصدنا في كوبا ، شنّوا حملة صحفية ضخمة ضدنا ، فزعموا باننا نهدّد سلامة الولايات المتحدة وما إلى ذلك .

وباختصار ، أخذت العداوة تكبر ، واشعلت الصحافة الاميركية اللهيب .

ثم ذات يوم من تشرين اول أصدر الرئيس كينيدي بياناً حذر فيه من ان الولايات المتحدة ستتخذ أية اجراءات تراها ضرورية لابعاد ما وصفه «بتهديد» الصواريخ الروسية في كوبا . وبدأ الأميركيون يقومون بعرض قوة عدائي مطوقين الجزيرة ببحريّتهم .

وكان الأميركيون حسب تقديرنا يحاولون تخويفنا ، لكنهم لم يكونوا أقل منا خوفاً من حرب ذرية . لم يكن قد افسح امامنا الوقت الكافي لتسليم الشحنات إلى كوبا ولكن كنّا قد أنشأنا صواريخ تكفي لتدمير نيويورك وشيكاغو وغيرهما

من المدن الصناعية، ناهيك بقرية صغيرة مثل واشنطن . ولا اعتقد ان أميركا واجهت خطراً حقيقياً بالدمار كما واجهت في تلك اللحظة .

في أثناء ذلك مضينا في عملنا . لم نترك انفسنا عرضة للتخويف والارهاب . وأبحرت سفننا وسط البحرية الأميركية . لكن الأميركيين لم يحاولوا توقيفها أو حتى تفتيشها . وكان في ذهننا انه ما دامت الولايات المتحدة تكتفي ببوادر التهديد فان في امكاننا التظاهر بتجاهل المضايقة . كنّا نتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الاميركيون . كان سلوكنا في الحلبة الدولية خاضعاً للقواعد والحدود ذاتها .

كدنا ننجز شحناتنا عندما اقتربت الأزمة من نقطة الانفجار . وبدأت الصحافة الغربية تغلي بالغضب والقلق . فأجبناها ، ولكن دون الوقوع في الهستيريا التي كانت فريستها الصحافة الأميركية . وقد أبلغنا شعبنا بالوضع الخطر ، رغم اننا حرصنا على تقديم الحقائق بشكل لا يثير الذعر .

انني أذكر فترة الأيام الستة اوالسبعة التي كان فيها الخطر مستطيراً . وسعياً مني في تخفيف حرارة الوضع بشكل ما ، اقترحت على الأعضاء الاخرين في الحكومة : أيها الرفاق ، فلنذهب إلى مسرح البولشوي هذا المساء . أن شعبنا والأجانب ، سيلاحظون ذلك ، وربما هدأ هذا التصرف من روعهم ، فيقولون لانفسهم : اذا كان خروشوف والزعماء الآخرون يستطيعون الذهاب إلى الاوبرا في مثل هذا الوقت العصيب ، اذن نستطيع الليلة أن نذهب نحن إلى فراشنا آمنين »(١). كنا نحاول أن نغطي قلقنا الذي كان بليغاً .

ثم بدأ تبادل المذكرات . كنت أملي الرسائل من جانبنا . وقد أمضيت واحدة من أكثر الليالي خطراً في الكرملين . نمت على مقعد دون أن أخلع ثيابي . لم أكن اريد أن يصيبني ما أصاب ذاك الوزير الغربي الذي داهمته أحداث السويس في ١٩٥٦ وهو غاف ، فكان عليه أن يركض وهو يلبس الشورت حتى انتهت حالة الطوارىء . كنتُ مستعداً لتلقي أنباء مقلقة في أية لحظة ، وأردت أن أكون مستعداً كذلك للرد فوراً . ووجه الرئيس كينيدي انذاراً ، طالباً أن ننقل صواريخنا وقاذفاتنا من كوبا . اذكر تلك الأيام تماماً . واذكر بصورة خاصة تبادل الرسائل مع الرئيس الاميركي لانني أنا الذي بدأ هذا الاتصال وانني اتحمل المسؤولية كاملة

(١) عندما يذهب رجال الكرملين الى مسرح البولشوي جماعة وهم يبتسمون ، غالباً ما تكون ازمة ما في الافق. ومن المناسبات المذكورة بهذا الصدد ليلة اعتقال بيريا . وكان بيريا معهم ايضاً .

لواقع كوننا ، الرئيس الاميركي وأنا ، دخلنا في اتصال مباشر في أكثر مراحل الأزمة دقة وخطراً .

وصلت الامور إلى ذروتها بعد ٥ أو ٦ أيام عندما قال سفيرنا في واشنطن ، أناتولي دوبرنين ان شقيق الرئيس ، روبرت كينيدي ، ذهب لمقابلته في زيارة غير رسميّة . وجاء في تقرير دوبرنين ما يأتي : كان روبرت كينيدي يبدو متعباً ، وكان واضحاً من عينيه انه لم ينم منذ أيام . وقد قال هونفسه انه لم يذهب إلى البيت منذ ٦ أيام . وقال لي ان الرئيس في وضع خطر، وهو لا يعرف كيف يخرج منه. وقال : «ان عسكريين يضغطون علينا لاستخدام القوة ضد كوبا . وربما يكون الرئيس في هذه اللحظة يكتب رسالة إلى الرئيس خروشوف . اننا نريد أن نطلب اليكم يا مستر دوبرنين ، نقل رسالة الرئيس كينيدي إلى الرئيس خروشوف عبر طريق غير رسميّة . الرئيس كينيدي يرجو الرئيس خروشوف أن يقبل عرضه وان يأخذ بعين الاعتبار خصائص النظام الاميركي . وبرغم ان الرئيس نفسه يعارض بشدة شن حرب ضد كوبا ، فان سلسلة من الأحداث قد تتم ضد ارادته . ولهذا السبب فان الرئيس كينيدي يناشد الرئيس خروشوف مباشرة مساعدته في تصفية هذا النزاع . فاذا استمر الوضع على ما هو عليه مدة أطول ، فان الرئيس ليس واثقاً من ان العسكريين لن يطيحوا به ويستولوا على السلطة . ان من الممكن ان يشق الجيش الاميركي عصا الطاعة (١).» لم اتجاهل هذا الامكان ، كنا نعرف ان كينيدي شاب وان أمن الولايات المتحدة مهدّد فعلاً . وشعرنا لبعض الوقت ان الرئيس قد يفقد السيطرة على عسكرييه . وها هو الآن يعترف بنفسه بهذه الامكانية .

ورددت رسالة كينيدي بالحاح الطلب الاميركي بسحب الصواريخ والقاذفات من كوبا . وشعرنا من خلال لهجة الرسالة ان الولايات المتحدة كادت تصل فعلاً إلى نقطة حرجة .وكتبنا رداً إلى كينيدي قلنا فيه اننا انشأنا الصواريخ بهدف الدفاع عن كوبا ، واننا لا نسعى إلى أي هدف سوى منع قيام غزو كوبا والتأكد من أن كوبا ستكون قادرة على اتباع طريق اختارها شعبها ولم يخترها فريق ثالث .

وبينما كان هذا التبادل يتم بالطرق الرسمية كان شقيق الرئيس ينقل الينا الرسائل الأكثر سرّية وخصوصية . وذات مرة عندما كان يتحدث روبرت كينيدي إلى دوبرنين كاد يبكي : «لم أر أطفالي منذ أيام ، والرئيس لم يرَ أطفاله أيضاً . اننا

(١) من الواضح ان هذا تفسير خروشوف لما وصله . لأنه لم يقم دليل على ان الرئيس كينيدي كان يعمل تحت وطأة الخوف من انقلاب عسكري .

نصرف الليل والنهار هنا في البيت الأبيض ، لا أعرف كم لا يزال بامكاننا ان نصمد في وجه جنرالاتنا . » ورأينا ان علينا تغيير موقفنا بسرعة . وقلت : « أيها الرفاق . علينا ان نبحث عن طريقة كريمة للخروج من هذا النزاع . وفي الوقت نفسه علينا ان نتأكد من اننا لا نضحيّ بكوبا . » وبعثنا إلى الاميركيين برسالة نقول فيها اننا نوافق على نقل صواريخنا وقاذفاتنا من كوبا ، شرط ان يعطي الرئيس وعداً بأن لا القوات الاميركية ولا أية قوات اخرى تقوم بغزو كوبا . وأخيراً رضخ كينيدي ووافق على الادلاء بتصريح يعطينا مثل هذا الضمان . وعليّ أن اذكر ان سياستنا كانت من الأساس واضحة في القيادة الجماعية . فنحن لم نقدم على المجازفة بارسال الصواريخ إلى كوبا الا بعد جلستين أو ثلاث جلسات من المناقشات المطولة التي توصلنا بنتيجتها إلى ذلك التدبير . كنت أحس بان لا المبادرة بالاقتراح ولا القرار الصادر بالنتيجة يجوز فرضهما على أحد . وحزمت على اعطاء القيادة الجماعية الوقت الكافي حتى يتبلور الموضوع في ذهن كل من أفرادها . كنت اريد ان يقبلوا ويدعموا القرار بوجدان حي وبفهم كامل لنتائج وضع الصواريخ في كوبا — ومنها امكان الحرب مع الولايات المتحدة . فكانت كل خطوة نقدم عليها تزان جيداً في القيادة الجماعية .

وما أن أعلنا على الناس اننا مستعدّون لنقل صواريخنا حتى تحول الاميركيون إلى التعجرف وأصروا على ارسال فريق تفتيش إلى الجزيرة . وكان ردنا على ذلك ان عليهم الحصول على موافقة الحكومة الكوبية . ثم بدأت الصحافة الصينية والأميركية تطلق شتى الاوصاف عن تراجع خروشوف وجبنه . لا أنكر اننا أرغمنا على اعطاء تنازلات ضخمة من أجل السلام . بل اننا رضينا حتى بتفتيش سفننا ، ولو من الجو فقط . ولم نسمح للاميركيين قط بأن يطأوا ظهور السفن .

ما ان بدأ الجلاء حتى خطر في ذهننا اذا كان الاميركيون يسحبون قوتهم البحرية التي تطوق الجزيرة . كنا نخشى انه ما ان ننسحب حتى يبادر الاميركيون فيشنون هجومهم على الجزيرة . ولكن كلا ، فحسن الادراك هو الذي سيطر . وأخذت سفنهم تغادر المياه الاقليمية الكوبيّة ، بينما استمرت طائراتهم تحلق فوق الجزيرة . فاعطى كاسترو الاوامر باطلاق النار ، واسقط الكوبيون طائرة استكشاف من طراز يو ٢ . وهكذا اسقطت صواريخنا جاسوساً اميركياً آخر من نوع غاري باورز (١).وسببت الحادثة ضجة كبرى .كان همنا الأول ان يستطيع

(١) اسم الطيار الضابط رودلف اندرسون ، وقد قتل عند اسقاط طائرته يو ٢ في ٢٧ اكتوبر ١٩٦٢ .

الرئيس كينيدي هضم هذا الاذلال . ولكن لم ينجم عن ذلك سوى ان الاميركيين لسوء الحظ ، ازدادوا لوماً في دعاوتهم . فحاولوا اقصى جهدهم طعن كرامتنا واظهار كينيدي بالمظهر الامثل . ولكن لم يكن ذلك يؤثر كثيراً ما دام انهم سحبوا قواتهم وطيرانهم .

وأخذت الحالة تعود الى الاستقرار . بعد تبادل المذكرات بيني وبين الرئيس الاميركي في ذروة الازمة ، بدأت علاقاتنا مع الولايات المتحدة تعود الى وضعها الطبيعي. ومن جهة أخرى تحولت علاقاتنا مع كوبا نحو الاسوأ . لقد توقف كاسترو عن استقبال سفيرنا . وبدا انه بنقلنا للصواريخ تعرضنا لهزيمة معنوية في أعين الكوبيين ، ولذا فان اسهمنا في كوبا هبطت بدل ان ترتفع . وقررنا ارسال ميكويان الى كوبا ، اذ ليس عندنا دبلوماسي افضل منه لهذه المهمة . وهو سيبحث الوضع مع الكوبيين بهدوء . صحيح ان كلام ميكويان لا يفهمه كل الناس ، لكنه رجل معقول . وقد لعب عبر السنوات دوراً خطيراً في تطوير تجارتنا الخارجية واثبت انه مفاوض بارع . ثم طلع علينا كاسترو بشروطه الاربعة او الخمسة لاعادة العلاقات الطبيعية مع الولايات المتحدة . وايدناه من صميم القلب في مطلبه الداعي الى تخلّي الاميركيين عن قاعدتهم البحرية في خليج غوانتانامو . واننا لم نزل حتى اليوم نؤيده في مطلبه هذا . ولكن الاميركيين ما زالوا هناك ولا نعرف متى سيجلون .

وكان الاميركيون ، ولاسيما روبرت كينيدي خلال مفاوضتنا معهم ابان الازمة ، بصورة عامة ،صريحين معنا اذ عرف الاميركيون انه اذا سفكت دماء روسية في كوبا فان دماء اميركية ستسفك حتماً في المانيا . ان تلك كانت ، اذا صح التعبير ، حالة مثيرة تتميز بالتحدي . لقد اتخذت أكبر دولتين في العالم موقف المقاتل ويد كل منهما على الزناد . لكن الجانبين اظهرا انه اذا كانت الرغبة في تجنب الحرب قوية كفاية فانه يمكن حل أكثر المشاكل تعقيداً بالتسوية ، وقد تم العثور على تسوية في كوبا وانتهت الازمة بانتصار التعقّل .

سأذكر دوماً الرئيس الراحل باحترام عميق ، لأنه اظهر بالتأكيد رجاحة عقل وعزماً على تجنب الحرب . وهو لم يبالغ في تقدير قوة اميركا : فلا هو سمح لنفسه بان يخاف ولا اصبح طائشاً متهوراً مغتراً بجبروته ، وانما ترك لنفسه بالنتيجة منفرجاً يخرج عبره من الازمة . وقد اظهر حكمة حقيقية ودراية سياسية عندما ادار ظهره للجناح اليميني في الولايات المتحدة الذي كان يحاول حمله على القيام بعمل عسكري . وكان انتصاراً كبيراً لنا ايضاً أننا استطعنا انتزاع وعد من كينيدي بان لا اميركا، ولا حلفاءاميركا، سيغزون كوبا. لكن كاسترو لم ير الامور على

هذه الصورة . كان غاضباً ، وكان الصينيون يطنون في اذنه : « تذكر انه ليس بالامكان الثقة بالامبرياليين لانهم لا يفون باية وعود يقطعونها » . وبكلام آخر كان الصينيون يعملون على استغلال الحادثة ليقضوا على ثقة الكوبيين بنا .

بعد التشاور مع ميكويان اثر عودته من هافانا قررت ان أكتب رسالة الى كاسترو أعرب فيها عن آرائي بصراحة . قلت في رسالتي : «ان اهم مسألة في ازمة الكاريبي هي انها ضمنت وجود كوبا اشتراكية . ولو ان كوبا لم تمر بهذه المحنة لكان من المحتمل جداً ان ينظم الاميركيون غزوة لتصفية النظام الاشتراكي في كوبا . والان بعد ان عبرنا ذروة الازمة وتبادلنا الالتزامات مع الاميركيين على انلا يتدخلوا في كوبا فقد اصبح للاتحاد السوفياتي الحق ، اذا ما قامت الولايات المتحدة بغزوكم ، ان يشن هجومه عليها . وهكذا ضمنّا وجود كوبا اشتراكية لمدة سنتين على الاقل ما دام كينيدي في البيت الابيض . ولدينا من الاسباب ما يجعلنا نعتقد ان كينيدي سينتخب لدورة أخرى . ان الاستمرار ٦ سنوات فيهذه الايام وهذا العصر ليس شيئاً قليلاً . وبعد ست سنوات من الان سيكون ميزان القوى في العالم قد تحوّل على الارجح — وتحول في مصلحتنا اي في مصلحة الاشتراكية .»

وكانت رسالتي الى كاسترو خاتمة فصل من التاريخ وصل العالم فيه الى حافة الحرب الذرية . لقد ربحنا كوبا اشتراكية . وانها لتعزية شخصية لي ان اعرف بان جهتنا تصرفت التصرف السليم ، واننا حققنا انجازاً ثورياً كبيراً بقطع الطريق على الاميركيين ومنعهم من ان يرهبونا . كانت ازمة الكاريبي انتصاراً للسياسة الخارجية السوفياتية وانتصاراً شخصياً لي في عملي كرجل دولة وكعضو في القيادة الجماعية . وانني اميل الى القول اننا حققنا نجاحاً ضخماً من دون الاضطرار الى اطلاق رصاصة واحدة !

مرت سنوات منذ تلك الازمة ، ولكن حكومة فيدل كاسترو الثورية لم تزل باقية ونامية . وحتى الان التزمت الولايات المتحدة بتعهدها ، فلا هي تدخلت في كوبا ولا سمحت لغيرها ان يتدخل .

انني اذكر محادثتي الاخيرة مع الرفيق فيدل كاسترو . كنّا في بيتسوندا وهو منتجع في القوقاس . وفي فناء منزل الحكومة الريفي كنا نبحث موسم السكر الكوبي . كانت عيون كاسترو تلتهب بالرغبة في الشروع بتطوير الزراعة الكوبيّة . وكان يعرف انها الطريقة الواقعية الوحيدة لزيادة الانتاج . وتحقيقاً لذلك كان بحاجة الى التراكتورات ، والى معامل تكرير السكر الحديثة . وخلال محادثتنا قال كاسترو ان هدفه كان السيطرة على سوق السكر العالمي .

فبيّنت له ان اسعار السكر العالمية التي تضخمت تضخماً حاداً بعد الحصار على السكر الكوبي ، ستعود دون ريب الى الوضع الطبيعي عندما توسّع البلدان الأخرى انتاجها من السكّر لتسدّ الطلب العالمي . وظهر انني كنت على حق : فاسعار السكّر المتضخمة ، التي كانت ستدر على كوبا ارباحاً طائلة ، لو أن حالة السوق الانتقالية التي سببتها استمرت فترة اطول ، لم تلبث ان هبطت الى مستواها الطبيعي .

الا ان الحقيقة تبقى ان كوبا انجزت أعمالا باهرة . وقد قرأت في الصحف ان كوبا عيّنت لنفسها هدفاً لانتاج عشرة ملايين طن من السكر لعام ١٩٧٠ ، وهي سنة ذات مغزى لكل الانسانية التقدميّة لأنها تحمل الذكرى المئوية لميلاد لينين العظيم .

ان كوبا اليوم موجودة كبلد اشتراكي مستقل امام فك الامبريالية الاميركية الضاري والمفترس . وان مجرد وجود كوبا هو دعاية حسنة لبلدان اميركا اللاتينية تشجعها على اقتفاء اثرها ، واختيار طريق الاشتراكية . وان الشعوب الأخرى في اميركا اللاتينية بدأت تعرف اية خطوات تستطيع اتخاذها لتحرير نفسها من الامبرياليين الاميركيين والاحتكاريين . واننا نأمل في ان يستمر النمط الكوبي في بثّ اشعاعه واستقطاب الناس .

كانت وفاة كينيدي خسارة كبرى ، لقد كان موهوباً في حل المشاكل الدولية عن طريق التفاوض، كما اظهرت «الازمة الكوبية» . وبصرف النظر عن شبابه، فانه كان رجل دولة حقيقياً . وانني اعتقد انه لو عاش ، فالعلاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة كانت ستصبح افضل بكثير مما هي عليه . لماذا اقول ذلك ؟ لأن كينيدي لم يكن ليترك بلاده تغوص في فيتنام .

وقد أكد لنا خليفة كينيدي ، ليندون جونسون ، انه سيبقى على وعد كينيدي بعدم غزو كوبا . وحتى الان لم ينكث الاميركيون بوعدهم . امّا اذا نكثوا بالوعد ، فاننا لا نزال قادرين على تنفيذ التزامنا تجاه كاسترو والدفاع عن كوبا .

٢١

دفاعا عن الفردوس الاشتراكي

هذا الفصل يقدم صورة رائعة في وضوحها عن محدودية خرشوف من جهة ، ومن جهة ثانية عن فضائله البارزة كرجل دولة .

يستهل خروشوف هذا الفصل بروئية للمسرح الدولي ، الى جانب ما يكتنفها من غموض فردي في النظر ، تبدو محجوبة كذلك بالافكار الشيوعية المسبقة ، الا انها في تحركها تظهر اتساعاً في الفهم وعمقاً في المشاهدة يندر توفرهما في السياسيين من اي لون كانوا .

ان الشيء الفذ في خروشوف ، رغم كل اخطائه التي لازمته دائماً ، هو استمرار نموه وتطوره . فالفلاح الآتي من كالينوفكا ، الفظ ، المستبد ، العنيف ، المنتقم احياناً ، المتباهي ، المليء بمكر الفلاحين ، غير المثقف اطلاقاً بالمعنى التقليدي للتعبير ، وذو العقل الذي لم يصقله تدريب كاف – هذا الفلاح على نقائصه العديدة المشار اليها اعلاه ، اشتمل خلقه على اي حال ، على بعض مزايا منها ما يعود الى خصاله الخلقية ، ومنها خياله المتسع ، ومنها تواضعه الجم . فكان ان دفعته هذه المزايا الى اعلى من اقرانه وجعلته احياناً منفرداً عنهم .

وصحيح انه لم يستطع الهروب من سجن ماضيه كلياً ، ولا من نقائص طباعه ، ولكنه في هذه الصفحات يبرز كما اظهر نفسه بتزايد في سنوات نشاطه الاخيرة ، رجل دولة شجاعاً ، ذا لمعات من الحكمة العميقة . وقد كان بالامكان في ظروف مختلفة ان يصبح شخصية عالمية بارزة تحاط بالاحترام الواسع .

ليس بالشيء القليل اننا عشنا الى يوم رأينا فيه الاتحاد السوفياتي يعتبر ثاني بلاد في العالم من الناحية الاقتصادية . قال لي ماكميلان ذات مرة : «ما هي انكلترا اليوم ؟ انها لم تعد الدولة التي تحكم الامواج وذات الصوت المسموع في السياسة

العالمية . اليوم انتم والولايات المتحدة تقررون كلّ شيء» . والسيد ديغول رئيس فرنسا اخبرني الشيء نفسه ، بالكلمات نفسها تقريباً . قال الرجل ذو العقل الرصين : «حسناً ايها السيد خروشوف ، اليوم الولايات المتحدة وانتم هما الدولتان العظيمتان . ان فرنسا لم تعد تملك لا المكانة ولا النفوذ اللذين كانا لها .» .

وهكذا اعترف ماكميلان وديغول باهميتنا .

ان الاتحاد السوفياتي قد كسب عبر السنين هيبة في نظر الشعوب التي تحارب في سبيل السلام والتقدم والتحرر من الاستعمار . ان هدف سياستنا الخارجية لم يكن اغناء دولتنا على حساب الدول الاخرى . اننا لم نؤمن ولا لحظة قط باستغلال الانسان للانسان. على نقيض ذلك، فسواء عن طريق سياساتنا المعلنة او افعالنا عملنا على تشجيع بلدان اخرى على التمتع بثمرات عملها . ولم يقتصر عوننا لتلك البلدان على مشورتنا بل منحناها مساعدات مادية مجانية او بعناها السلع والتجهيزات باسعار مخفضة . ان سياستنا الخارجية تجد جذورها في اعتقادنا الراسخان الطريق التي ارشدنا اليها لينين هي طريق المستقبل ليس للاتحاد السوفياتي فحسب بل لجميع البلدان والشعوب . ولنضرب على سياستنا مثل افغانستان . فقد ذهبت الى هناك مع بولغانين الذي كان يرئس وفدنا العائد من الهند (١٩٥٥) . وكان ملك افغانستان قد دعانا الى التوقف في كابول . وبنتيجة المباحثات مع الملك ووزرائه تكونت لدينا فكرة جلية نوعاً عن اوضاع افغانستان ، البلد المتخلف .

وكان بامكاننا ان نتلمس ان الافغانيين يبحثون عن مخرج لهم من مشاكلهم .

وكان من الواضح ايضاً ان اميركا تتودد الى افغانستان . ان اميركا بدافع رغبتها في تطويقنا ، تلقي بنفسها على بلد مثل افغانستان وتتظاهر بانها تعطيه العون الاقتصادي ، غير ان همها عملياً ينصبّ على التملق اليه سياسياً .

كان الاميركيون من جهة يقومون بمختلف انواع المشاريع على حسابهم : بناء الطرق ، ومنح القروض ، وما الى هنالك . ولكنهم ما كانوا يتصدقون بمساعداتهم لوجه الله . كلا ، لأن ما يسمى برنامج اميركا للمساعدات الخارجية هو عملياً جزء من حملة استغلال الصعوبات الاقتصادية الحادة التي تتخبط فيها بلاد مثل افغانستان .

وان الاميركيين لا يذهبون الى حد اخفاء مقاصدهم الحقيقية ، اذ انهم لا يأبهون كثيراً لوضع ورقة التين على حوافزهم الانانية العسكرية . لقد سبق لنا ورأينا ماذا حدث عندما جاء الرأسماليون والامبرياليون والاحتكاريون والعسكريون الاميركيون الى البلدان الاسيوية الاخرى يحشرون انوفهم في شؤونها

الداخلية . كانوا يدخلونها عارضين مختلف انواع المساعدات الاقتصادية ويخرجون وقد انتزعوا منها توقيعها على اتفاقية حلف السنتو .

لقد انضمت باكستان الى السنتو وحاولت اميركا حمل الهند على الانضمام ايضاً . ولكن الهند ، بفضل قيادة نهرو التقدمية ، رفضت الانضمام ووقفت بثبات كبلد مستقل عن مختلف الكتل العسكرية .

وخلال زيارتنا وضح لنا أن الاميركيين كانوا يتغلغلون في افغانستان ، يحدوهم حافز واضح هو اقامة قاعدة عسكريّة .

اما من جهتنا فقد بنينا فرناً ، وسكة حديد ، ومعاهد تربوية واخذنا على انفسنا شق طريق على مدى مئات عديدة من الكيلومترات ، وقد اصبحت هذه الطريق الان ذات أهمية سياسية — اقتصادية فائقة نظراً لمرورها قرب الحدود الافغانية — الايرانية . ان احساسي القوي هو ان الرأسمال الذي وظفناه في افغانستان لم يهدر . يكفي اننا ربحنا ثقة الافغانيين وصداقتهم ، وان افغانستان لم تسقط في الاحبولة الاميركية . انها لم تعلق على السنارة التي طعمها الاموال الاميركية .

ولو لم يصبح الافغانيون اصدقاءنا لكان الاميركيون ، دون ريب ، قد رتّبوا الامر لينالوا حظوة عندهم عن طريق «مساعداتهم الانسانية» على حد التعبير الاميركي . ان الاموال التي انفقناها في مساعداتنا المجانية لافغانستان ان هي الا نقطة في محيط ، اذا قورنت بالثمن الذي كان مقدراً ان ندفعه لمواجهة تهديد قاعدة اميركية في الارض الافغانية . ولنفكر بالرأسمال الضخم الذي كان علينا رصده لتمويل وضع قوتنا العسكريّة على مدى الجانب المحاذي من ارضنا للحدود الافغانية ، وهو رأسمال من شأنه ان يمتصّ دم شعبنا دون زيادة وسائل انتاجنا مثقال ذرة .

انني اعتقد ان سياستنا الخارجية يجب ان تبنى جزئياً على عادة شعبية قديمة معروفة في بلادنا وما زلت اذكرها منذ ايام طفولتي : اذا ذهبت ربة بيت الى قرية أخرى لزيارة اصدقاء او أقارب ، لا تذهب ابداً من دون أن تأخذ معها بعض الحلوى ، او دزينة من البيض كما هي العادة عندنا في اقليم كورسك ، هدية لمضيفها . اعتقد انه يحسن اقتباس هذا التقليد من قبل الدول في تعاملها بعضها مع البعض الآخر . وان هذه العادة يحسن ممارستها بتعقّل وتواضع . ان الامر لا يحتاج الى رجاحة في العقل او براعة حتّى يستحق واحدنا صيت العم المسرف الذي يبدد امواله على هدايا يقدمها للعائلات الأخرى دون ان يترك ما يكفي لشراء حاجيات عائلته . ان هذا تطرّف يحسن تجنبه . ان سياسة تقديم «الهدايا البيتية» الى البلدان الأخرى

يحسن ان تمارس بذكاء ، بحيث نجد دائماً مكافأة اقتصادية اوسياسية لقاء ما نقدّمه .(١)

لا يجوز ان ننسى ان اعداءنا يعملون بدأب ضدنا ، وهم يتحينون الفرص ليستغلوا هفوة من قبلنا . وثمة معركة تدور في العالم : هل تسود الطبقة العاملة ام البورجوازية ؟ ان الطبقة العاملة مقتنعة بان البورجوازية قد استنفدت نفسها ، بينما يعتقد البورجوازيون ان بوسعهم الاستمرار في الحكم الى الأبد . ان كل امرئ حسن التفكير يستطيع ان يرى بوضوح ان القضايا الايديولوجية الاساسية لا تحسم الا بالصراع وبانتصار عقيدة على أخرى .

ونحن الشيوعيين ، نحن الماركسيين اللينينيين ، نعتقد ان التقدم الى جانبنا ، وان الانتصار سيكون حتماً لنا . ومع هذا فان الرأسماليين لن يتنازلوا عن بوصة واحدة وانهم سيتقاتلون حتى النهاية المريرة . كيف ، اذن ، نستطيع التحدث عن التعايش السلمي مع الايديولوجية الرأسمالية ؟ ان التعايش السلمي مع انظمة حكومية مختلفة أمر ممكن ، لكن التعايش السلمي بين ايديولوجيات مختلفة ليس ممكناً . نكون قد ارتكبنا الخيانة بحق مبادئ حزبنا الاولى اذا ما اعتقدنا بامكان التعايش السلمي بين الايديولوجية الماركسية — اللينينية من جهة والايديولوجية البورجوازية من جهة ثانية .

لقد رددنا ذلك مراراً . وكنت عندما أتحدث عن هذا الموضوع في المؤتمرات الصحفية ، وخلال السنين التي كنت فيها من المسؤولين عن توجيه سياستنا ، كنت اردد ان ليس ثمة شيء اسمه التعايش السلمي الايديولوجي . كنت اؤكد دوماً اننا سنكافح حتّى النهاية ، ونحن واثقون من النصر .

ولذلك سمحت لنفسي في احدى المراحل ان استخدم عبارة «سوف ندفن اعداء الثورة» . كنت اشير بالطبع الى اميركا . وسارعت دعاوة العدو الى التقاط هذا الشعار ونفخه حتّى تخطّى حجمه الطبيعي : «ان خروشوف يقول ان الشعب السوفياتي يريد ان يدفن شعب الولايات المتحدة الاميركية!» وانا لم أقل مثل هذا القول . ان اعداءنا كانوا يحرّفون عبارتي ويستغلّونها .

وكان انني اوضحت في مؤتمر صحفي لاحق ما عنيت : نحن ، الاتحاد السوفياتي ، لن ندفن احداً . ان الطبقة العاملة في الولايات المتحدة ستدفن عدوها ، الطبقة البورجوازية الاميركية . ان شعاري قد أشار الى مشكلة داخلية تقرر بصددها

---

(١) حتّى في عرض خروشوف هنا لا نجد كبير فارق بين الحوافز السوفياتية وتلك المنسوبة الى الولايات المتحدة في اعطاء المساعدة للبلدان المتخلفة .

كل بلاد بنفسها : بالاتجاه والاساليب التي تعتمدها كل طبقة عاملة في بلد معين تحقيقاً لنصرها على البورجوازية . ان الأمر الرئيسي الذي لاحظته عن الغرب الرأسمالي عندما كنت في نيويورك ، المدينة التي وصفها غوركي بمدينة الشيطان الاصفر ، هو أن القول فيها ليس للانسان بل للدولار . فالكل هنا مهتم بكيف يحصل على مزيد من المال ، على مزيد من الدولارات . ان مركز الاهتمام ليس الانسان ، بل الارباح ، وطلب الرأسمال . وتذهب الاوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الى وصف الطريقة الاميركية للحياة على انها نموذج «العالم الحر» . ولكن اي نوع من الحرية هو هذا ؟ انها حرية الاستغلال والنهب ، وحرية الموت جوعاً بينما فائض المواد والسلع متوفر ، وحرية البطالة بينما تقف وسائل الانتاج دون عمل . الحرية في الولايات المتحدة هي حرية الاحتكار لقمع الطبقة العاملة وخداع الشعب بنظام الحزبين ، وفرض ارادته على شركائه في التكتلات العسكرية.

مثل هذا المجتمع يصنع الاساس لقيام الحروب بين البلدان . لأن الاتجاه نحو الرجعة داخل البلاد ونحو التوسع والعدوان خارجها هو من معالم الرأسمالية الاحتكارية والامبريالية .

ان تصفية النظام الرأسمالي هو الموضوع الرئيسي في تطور المجتمع . بعد انتصار الطبقة العاملة وطبقتي الفلاحين والانتلجنسيا الكادحتين تنتفي الاسباب الاجتماعية والقومية وشتى اسباب تفجير الحروب من اي بلد . ولكن هذا لا يتحقق الا في العالم كله . عندها تتوحد البشرية في متحد حقيقي من الامم المتساوية . ان هذا قد قيل منذ أمد بعيد واثبته علمياً مؤسسو الماركسية اللينينية .

ان الكفاح الرئيسي اذن ، هو الكفاح الذي يدور ضمن كل بلد بين بورجوازيته وبروليتاريته . وان هذه الحقيقة لها اتصال بمسألة حجم الجيش الدائم الذي على الاتحاد السوفياتي الاحتفاظ به على ارضه وعلى اراضي البلدان الاشتراكية الشقيقة . ان تفكيري حول هذا الموضوع قد تطور تطوراً واسعاً خلال السنين .

بعد انقضاء فترة غير طويلة على موت ستالين كان لي حديث مع وزير الحربية الروماني الرفيق بودناراس (١) . وكان صديقاً طيباً للاتحاد السوفياتي

(١) ا. بودناراس بدأ حياته في مدفعية الجيش الروماني ، ثم اصبح شيوعياً وهجر بلاده الى الاتحاد السوفياتي في ١٩٣٢ . وبعد ان تجنس بالجنسية السوفياتية ومر بتدريب خاص في مدرسة البوليس السري في موسكو ، عاد الى رومانيا بعد الحرب ونشط في معاونة الشيوعيين المدعومين بالقوات السوفياتية، لتحطيم =

وبلشفياً قديماً قضى بعض الوقت في السجن برومانيا وكان يتمتع بكامل ثقتنا واحترامنا . وقد فاجأني دونما سابق انذار بالموضوع التالي : «ما رأيكم بسحب قواتكم من رومانيا ؟» .

لا بد لي ان اعترف ان رد فعلي الفوري لسؤاله لم يكن يتصف بالحكمة والرصانة بل انني اذهب الى حد القول بانني خرجت عن طوري : «ماذا تقول ؟ كيف تستطيع طرح هذا السؤال ؟» فاجاب : «حسناً ، ان رومانيا لا تشارك حدودها أحداً الا البلدان الاشتراكية ، وعبر البحر الاسود لا يوجد الا الاتراك» .

– وماذا عن الاتراك ؟

– على اي حال ، فانتم جيراننا ، واذا اقتضت الضرورة تهرعون الى مساعدتنا .

– انا لا افكر بالاتراك وحدهم . انهم يسيطرون على البوسفور والدردانيل . من هنا يمكن لأي العدو ان يغزو رومانيا بانزال قواته في البحر الاسود .

وهنا تبادل الرومانيون النظرات . وبدا واضحاً انهم بحثوا هذه المسألة من قبل فيما بينهم . وقالوا : حسناً ، ما دمت تفكر بالامر من هذه الزاوية فنحن نسحب الاقتراح . كل ما في الامر اننا ما اردناكم ان تعتقدوا اننا كنا نقف موقفاً حازماً في مواقفنا الاشتراكية لمجرد وجود قواتكم في ارضنا . اننا نقف موقفاً حازماً انطلاقاً من ايماننا بالاشتراكية وباتباع السياسات الماركسية – اللينينية ، ولأن شعبنا يعترف بزعامتنا ويؤيدنا التأييد المطلق .

وكان رضاي يفوق كل حدّ من هذا الايضاح للحافز الذي جعلهم يطلبون سحب القوات السوفياتية من اراضيهم . وأمنت ان الرفاق الرومانيين كانوا مخلصين في توكيد عزمهم التام على بناء الاشتراكية .

وبعد انقضاء بضع سنوات أخذنا نخفف من حجم الجيش السوفياتي ، فانزلناه الى نصف ما كان عليه ايام ستالين . وكنا قد تبادلنا الآراء في قيادة اللجنة المركزية ووصلنا الى نتيجة تقول بامكان سحب القوات من بولونيا والمجر ورومانيا . ولم تكن لدينا اية قوات في تشيكوسلوفاكيا أو بلغاريا (١) . تركنا قواتنا في المانيا

= جميع الاحزاب غير الشيوعية . ثم اصبح وزيراً للدفاع الوطني في وزارة غروزا في كانون الاول ١٩٤٧ فاخضع الجيش للسيطرة الشيوعية عندما اصبحت روسيا جمهورية شعبية . ثم أخذ نجمه بالصعود .

(١) خفض الجيش السوفياتي كثيراً في ظل خروشوف . وحتى ستالين لم ير من الضرورة وضع قوات في تشيكوسلوفاكيا . لقد ترك الامر لبريجنيف فعالج هذه الثغرة على النحو المعروف . ولكن القوات السوفياتية باقية في المجر وبولونيا ورومانيا .

فقط . وكان جلياً للجميع اننا سنحتفظ بقواتنا في المانيا الشرقية حتى يبادر الغربيون — الذين نظموا الناتو — الى توقيع اتفاقية السلام .

وكانت لدينا اسباب عديدة للوصول الى قرار بسحب قواتنا من البلدان الاشتراكية ، احدها كان سياسياً . كنا لا نريد ان يتبادر الى ذهن أحد باننا لا نثق بالبولونيين والمجريين والرومانيين . كان هؤلاء حلفاءنا ، وكانوا يبنون الاشتراكية في بلدانهم لأن مصلحتهم اقتضت ذلك ، وليس بسبب تمركز القوات السوفياتية في ارضهم . ان الماركسية اللينينية الاممية كانت هي الجاذب الرئيسي والقوة الموحّدة لشعوب البلدان الاشتراكية الأخرى . انك لا تستطيع دفع الناس كالقطيع الى الفردوس تحت طائلة الوعيد ثم تضع الجنود على البوابات . بل على الناس ان يختاروا بملء ارادتهم الحياة الفضلى التي يرغبون بها ، وان تمنح لهم الفرص التي يريدون . لذلك كنا نريد ان ننتزع من يد العدو حجة يستند اليها . اردنا فضح اكذوبته ، وهي ان الشعوب المجرية والبولونية والرومانية تجرّ على طريق الاشتراكية بحراب القوات السوفياتية .

ثم كان هناك سبب اقتصادي فضلاً عن السبب السياسي لسحب قواتنا من البلدان الشقيقة . ذلك ان الاحتفاظ بفرقة في الخارج ، على ارض بلد اشتراكي آخر ، يكلف ضعفي النفقات التي نتكبدها لو بقيت الفرقة نفسها على ارضنا . وكان علينا اختصار نفقات جيشنا الدائم في الوطن ، فضلاً عن نفقاته في الخارج . وهكذا عصرنا النفقات العسكرية ، خصوصاً فيما تعلّق بالملاك الشخصي الى حد بعيد . وبعد ان تركت منصب السكرتير الاول للحزب ورئيس مجلس الوزراء ، سمعت انتقادات من البعض الذين عزوا اليّ القرار القاضي بخفض رواتب الجيش السوفياتي . انا لا انكر ان الرواتب العسكرية خفضت اثناء حكمي ، ولكن الفكرة كانت فكرة المارشال جوكوف . وانا دون ريب ، ايّدته في فكرته ، لأنه كان بادياً ان افراطات عديدة قد حصلت ، ولا بد من وضع حد لها . وهذه التدابير اتخذها وزير الدفاع جوكوف ، واكملها بعده خلفه مالينوفسكي . ولا بد لي هنا من ان اعطي جوكوف حقه من التقدير . فقد ادرك ضرورة خفض النفقات في الجيش ، واخذ المبادرة في تشذيب الملاك الشخصي المتوسع من هيئة الاركان وأمر بخفض الرواتب لبعض فئات الضباط .

واني اعرف الآن ، ان بالامكان وجود اشخاص ، لا سيما بين العسكريين يقولون ان خفض قوات الاتحاد السوفياتي المسلحة كان خطأ . ويقولون ان المعسكر الامبريالي يحلم منذ سنوات بابادة الاتحاد السوفياتي ، وان قوتنا العسكرية كانت الحائل الوحيد دون ذلك . ان الذين يقولون هذا القول مخطئون .

كان مهماً في زمن ما ان يعرف العدد الذي تملكه بلاد ما من القوات والبنادق والحراب . ولكننا اليوم نعيش في عصر مختلف تماماً ، فبات الشيء المهم ، نوعية وكمية ، هو طاقتنا النووية من الصواريخ . ان الدفاع عن بلادنا وقدرتنا في ردع الاعتداء الامبريالي يتوقفان على قوة دفاعنا النووية .

حتى القوم الصادقون الذين يريدون تجنّب استخدام الاسلحة الذريّة والهدروجينية لا يستطيعون تجاهل مسألة عدد الاسلحة المتوفرة لدينا في حال نشوب حرب كونية . من هنا كان واجباً ان نقرّر واقعيّاً على اولويات توزيع اعتماداتنا .

عندما كنت زعيم الحزب والحكومة ، قررت وجوب التزام الاقتصاد بقدر واسع في بناء البيوت وانشاء الخدمات الاجتماعية ، وحتى في انماء الزراعة ، لكي يتسنى لنا بناء دفاعنا . بل انني ذهبت الى ايقاف شق الطرق تحت الارض في كييف وباكو وتبليس حتى نستطيع انفاق هذه الاموال على تعزيز قواتنا الدفاعية والهجومية . وبيننا عدداً اقل من الملاعب الرياضية ، والمسابح والكليات الثقافية . واعتقد انني كنت محقّاً في التركيز على الانفاق العسكري ، حتى ولو على حساب بعض الاستثمارات الاساسية في مجالات أخرى . فلو اننا لم نؤكد هذه الاولويات لحاجاتنا العسكرية لما كنّا استطعنا البقاء . لقد وقفت كل قوتي على اعادة تسليح الاتحاد السوفياتي . كانت تلك مرحلة خطيرة من حياتنا مليئة بالتحديات .

الان ، وانا اعيش مع ذكرياتي والقليل غيرها ، يعود بي التفكير الى تلك المرحلة التي اعدنا فيها تسليح الجيش السوفياتي وتعزيزه . وانني فخور بالاشراف على مرحلة انتقال جيشنا الى التزود باحدث وسائل الحرب والاسلحة .

ان عدونا الكامن — عدونا الرئيسي ، أخطر واقوى اعدائنا — هو على بعد شاسع منّا بحيث كان يتعذّر الوصول اليه بسلام بطيراننا ، بل ببنائنا قوة صاروخية نووية نستطيع ان نردعه عن شن الحرب ضدنا . ولو اننا اتحنا في المجال للغرب لكانت الحرب اعلنت في زمن دالاس . ولكننا كنّا السباقين الى اطلاق الصواريخ الفضائية ، وفجرنا اقوى الاسلحة النووية . وقد حققت هذه الانجازات اثراً مهدئاً على قوات العدوان في الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ، وبالتأكيد ، في حكومة بون . فقد عرفوا انهم فقدوا فرصتهم في الانقضاض علينا ونحن ضعفاء . اما الان وقد أصبحت الاهمية لحجم تسلّحنا النووي وليس لحجم جيشنا فاني اعتقد انه يجب خفض جيشنا الى الحد الادنى . ولا ريب عندي اننا وصلنا الى المرحلة التي يغدو فيها ذلك ممكناً .

وعندما كنت على رأس الحكومة وكانت لي السلطة النهائية في توزيع طاقاتنا

٣٢

العسكرية ، كان اصحاب النظريات عندنا يحسبون ان عندنا طاقة نووية تسحق اعداءنا وتذريهم غباراً . ومنذ ذلك الوقت تضاعفت قوتنا النووية بمقادير كبرى . وخلال قيادتي جمعنا اسلحة كافية لهدم المدن الرئيسية في الولايات المتحدة ، ناهيك بمدن اعدائنا المفترضين في اوروبا .

اذكر ان الرئيس كينيدي قال مرة في خطاب او مؤتمر صحفي بان لدى الولايات المتحدة الطاقة النووية الصاروخية لمسح الاتحاد السوفياتي من وجه الارض مرتين ، بينما ليس للاتحاد السوفياتي سوى طاقة مسح الولايات المتحدة مرة واحدة . وعندما سألني الصحافيون ان اجيب على تصريح كينيدي ، قلت مازحاً : «أجل ، انني أعرف مزاعم كينيدي ، وهو محقّ تماماً . ولكن ليس عندي ما اشكو منه ما دام الرئيس الاميركي يدرك انه حتى ولو استطاع هدمنا مرتين ، فنحن قادرون على مسح الولايات المتحدة ولو مرة واحدة . انني ممتن للرئيس على اعترافه بهذا القدر . فنحن لسنا من الشعوب التي تعيش على امتصاص دم الناس . يكفينا ان نكون قادرين على مسح الولايات المتحدة مرة واحدة . ومرة واحدة كافية . اذ ما الفائدة من ابادة بلاد مرتين ؟»

وكانت هذه الملاحظات تنتزع ابتسامات الحضور .

وفي هذا المجال لا بد لي من اعطاء عدونا الراحل ايديناور حقه من التقدير لما كان يتحلى به من عقل راجح رصين . فكلما هاجمه الصحفيون واتهموا المانيا الغربية بانها قد تتجه الى شن حرب عالمية أخرى ، كان يتظاهر ايديناور بانه مسيح كامل صغير ويقول «انني لا اعرف عما تتحدثون . فلو أن حرباً ثالثة شنت ، ستكون المانيا الغربية اول بلد يفنى» . كنت مسروراً ان اسمع ذلك وقد كان ايديناور على حق في ما ذهب اليه وان يصرح علنا بهذه الامور. كان انجازاً كبيراً حققناه نحن .

لقد كنت دوماً ضد الحرب ، ولكنني كنت في الوقت نفسه اعتبر انه اذا اصيب رئيس بلاد بالهلع من الحرب النووية فانه يشلّ قدرة البلاد الدفاعية . واذا ما شلت هذه القدرة عندها تصبح الحرب محتّمة . ذلك ان العدو ، اذ يدرك هلعك ، يحاول ان يستثمره . فكنت دوماً اعمل في ضوء مبدأ يقول بالوقوف دوماً ضد الحرب ولكن بلا خوف منها . ففي بعض الاحيان يكون التراجع ضرورياً ، ولكن التراجع قد يصبح بداية نهاية مقاومتنا . وعندما يراقب العدو تحركك ، يصبح الموت نفسه أمراً يجب مجابهته بشجاعة . واذا ما بدأ العدو حرباً ضدك ، فعندها يتحتم عليك ان تبذل كل جهدك للبقاء في المعركة وتحقيق النصر في الاخير .

يجب ان لا نخفف من خدرنا ، ففي اي حال لا يجوز ان نخفض قدرتنا الصاروخية عن المستوى الضروري . ثمة اسلحة أخرى لا غنى عنها ايضاً ، لا سيما الاسلحة الكيميائية والجرثومية . ومن حسن الحظ ان الحرب العالمية الثانية مرت دون استخدام هذه الاسلحة ، ولكنها استخدمت في الحرب العالمية الأولى .

وكم تكون حالة جيشنا بائسة لو ان العدو استخدم ضدنا هذه الاسلحة ووقفنا ازاءه عاجزين . فما دام ان هنالك نظامين متناقضين ، لا بد من الاحتفاظ بكل انواع الاسلحة . انني اؤكد على هذه الامور لأنني اريد ان تترسخ نظرتي وهي وجوب الحذر وتوفر الردع الفعال ضد العدوان الامبريالي .

يجب ان نبقي في اذهاننا الطابع الحقيقي للامبرياليين والرأسماليين والاحتكاريين والعسكريتاريين الذين يهمهم ان يجنوا الاموال من التوتر السياسي بين الأمم .

يجب ان نحرص على عدم الوقوع في تنافس عقيم مع الغرب على الانفاق الحربي . ذلك اننا اذا خضنا مثل هذا السباق مع اميركا ، الا في المجالات الضيقة والضرورية جداً ، عندها نعود على انفسنا بالاذى . اولاً ، نكون قد اسهمنا في زيادة غنى الاوساط الرأسمالية في الولايات المتحدة التي تستخدم الاستعداد الحربي لارهاق موازنات التسلح في بلادها . ثانياً ، نكون قد استنزفنا مواردنا المادية دون ان نرفع مستوى المعيشة لشعبنا . ولنذكر انه كلما قل عدد المجنّدين في الجيش ، ازداد عدد الذين بالامكان صرفهم لاعمال اكثر انتاجية . وان ادراك هذه الحقيقة يكون نقطة جيّدة لانطلاق القوى التقدمية في العالم في كفاحها من أجل التعايش السلمي . ذلك انه اذا بادر طرف الى عصر نفقات التسلح ، يصبح من الاسهل على الطرف الثاني ان يحذو حذوه . علينا ان نعد انفسنا لرد ضربة عدونا ، ولكن علينا ان نتساءل ايضاً «اما لهذا التنافس من نهاية ؟» .

اعرف من الاختبار ان قادة القوات المسلحة يكونون ملحاحين في طلب حصتهم من الموازنة عندما يشرع في توزيع الاعتمادات . ولدى كل قائد كل الحجج المقنعة للحصول على ذلك . فمن المؤسف ان ثمة اتجاهاً عند الذين يقودون القوات المسلحة ان يكونوا جشعين وانانيين . وهم على استعداد دائم لأن يلقوا في وجهك الشعار القائل اذا حاولت ان تقتصد في دفاع البلاد اليوم فستدفع من دماء ابنائها عندما تندلع الحرب . انا لا ابغي التقليل من المسؤولية الضخمة الملقاة على هؤلاء ولست اقصد النيل من مزاياهم المناقبيّة ، ولكن الحقيقة تبقى ان مستوى المعيشة في البلاد يعاني عندما ترهق الموازنة باعتمادات توزع على قطاعات من الاستهلاك غير منتجة . وما اقرب اليوم من البارحة ، اذ يبقى أكثر النفقات غير المنتجة هي تلك التي تخصص للقوات المسلحة . من هنا انه يتعذر غالباً تذكير القادة العسكريين

بان الحكومة هي التي توزع الاعتمادات ، وانما هي التي تقرر مقدار المبلغ الذي تفقة القوات المسلحة ، فمن الجلي ان الاشراف على الانفاق العسكري مشكلة عالمية . واني اذكر محادثة جرت بيني وبين الرئيس ايزنهاور في منزله الريفي في كامب ديفيد . كنا نذهب الى النزهة معاً فتجري بيننا محادثات غير رسمية ومجدية . وفي احدى هذه المحادثات سألني : « قل لي يا سيد خروشوف ، كيف تتخذون القرارات بشأن موازنات النفقات العسكرية ؟ » وقبل ان يتسنى لي التفوه بكلمة واحدة قال : «ربما يجب ان اقول لك قبل ، كيف يجري الامر عندنا » . فقلت : « حسناً كيف يجري الامر عندكم » ؟ فابتسم ، وابتسمت بدوري ، كنت اعرف ما سيقول . وهذا ما قاله : «ان الامر يجري على هذا النحو : يأتي القادة العسكريون اليّ ويقولون : سيدي الرئيس ، اننا نحتاج الى هذا المبلغ من أجل هذا البرنامج . فأقول : آسف ، لا نملك الاعتمادات اللازمة لذلك . فيقولون : لدينا معلومات موثوقة ان الاتحاد السوفياتي خصص الاعتمادات اللازمة لبرنامج مشابه . لذلك اذا لم نحصل على الاعتمادات التي نحتاج اليها ، سنتخلف عن الاتحاد السوفياتي . وهكذا استسلم .

«انهم بهذه الطريقة يحصلون مني على المال . ويستمرون في طلب المزيد وأستمر انا في عطائي . والان كيف يجري الامر عندكم ؟»

اجبت : « هكذا تقريباً . يقول بعض رجالنا في الدائرة العسكرية : ايها الرفيق خروشوف انظر الى ماذا يحدث . ان الاميركيين يطورون هذا الجهاز او ذاك . وبامكاننا تطوير الجهاز نفسه ولكننا نفتقر الى الاعتمادات . فاقول لهم ليست لدينا الاعتمادات اللازمة ، فقد خصصناها لامور أخرى . فيقولون : اذا لم نحصل على المال المطلوب واندلعت الحرب ، سيكون العدو متفوقاً علينا . ثم نبحث في الامر قليلاً ، فننتهي من بحثنا هذا الى اعطائهم الاموال التي يطلبونها » . فقال ايزنهاور : «نعم هذا ما فكرت فيه . اتعرف ؟ يجب ان نتوصل حقاً الى نوع من الاتفاق لايقاف هذا التنافس . » فاجبت : «انني احبّ ان افعل هذا . ان بعض اسباب مجيئي الى هنا كان سعياً وراء اتفاق نتوصل اليه من هذه الاجتماعات والمحادثات » .

ولكن لم يكن بامكاننا ان نتفق آنذاك ، ولا نستطيع ان نتفق الان . وربما من المستحيل علينا ان نتفق . ففي ضوء خبرتي اقول ان ذلك ، بكل تأكيد ، لأمر صعب . ولكن حتى لو تعذر التوصل الى اتفاق سوفياتي — اميركي ثنائي على خفض الانفاق العسكري ، الا انني اعود الى مسألة طرقتها مراراً ، وهي ضرورة قيام كل دولة منفردة بخفض نفقاتها العسكرية . واذا كان عدونا يريد

ان يستمر في تضخيم موازنته العسكرية ، مبذراً امواله يساراً ويميناً على اشياء لا معنى لها ، فانه بالتأكيد سيخفض مستوى معيشة شعبه . وهذا بدوره يعزز مواقع القوى الشيوعية والتقدمية العاملة في وسطه ويتيح لها ان ترفع صوتها أكثر ضد القوى الرجعية والرأسمال الاحتكاري .

والان وقد اصبحت ارائي كلها عندكم واعتقد ان فيها بعض الفائدة . لم يعد بامكاني ان افعل شيئاً الا اشراك الاخرين في خبرتي اذا ارتأوا الاصغاء والانتباه . ان الوقت قد فات الذي كان بامكاني فيه ان اصنع شيئاً . وملاحظاتي التي ابديها هنا تصدر عن رجل لم يعد في حومة العمل والانجاز . ولكن من موقعي كمتقاعد ، لا استطيع الا ان الحظ ما بدأناه من اتجاه نحو الاقتصاد قد عكس ، وبات المال اليوم يهدر على اشياء غير ضرورية . وان هذا الاتجاه الجديد في الافراط في النفقات العسكرية يعرقل انطلاقة بعض المجالات المهمة في حياتنا التي تفتقر الى الاعتمادات اللازمة .

عندما كنت رئيساً للحكومة ، تزوج عازف البيانو الشاب اشكينازي من امرأة انكليزية كانت تدرس في احد معاهدنا الفنية . ورزقا بطفل وذهبا الى انكلترا لزيارة ذوي الزوجة . بعد فترة قصيرة رفع اليّ غروميكو ان سفيرنا في لندن قد ابرق بالقصة التالية : اشكينازي جاء الى سفارتنا في لندن واعلمه ان زوجته ترفض العودة الى الاتحاد السوفياتي ، وهو يحبها كثيراً وجاء يسأل سفارتنا ماذا تنصحه ان يفعل . وهنا لا بد لي ان اذكر انه سبق لي ان سمعت عزف اشكينازي وهنأته عندما ربح جائزة تشايكوفسكي . انه عازف رائع ولطالما سمعته على الراديو. وبعد التشاور مع رفاقي قلت: لنعط اشكينازي الاذن بالعيش في انكلترا للفترة التي يختارها . بهذه الطريقة يكون بمقدوره العودة ساعة يشاء الى الاتحاد السوفياتي . في الحقيقة لم نجد بديلاً آخر . فاذا اصررنا عليه ان يترك زوجته ويعود الى الوطن ، فسيرفض . هو ليس معادياً للسوفيات ، ولكن قد ندفعه الى هذا السلوك اذا وضعناه في موقف صعب يجبره على ان يختار بين العيش مع زوجته او طاعة حكومته . عندها يسقط في مخالب المهاجرين الروس وغيرهم من البشر الذين يشرعون بالتأثير عليه بمختلف الافكار المعادية للسوفيات . اننا لا نريد ذلك ان يحدث. ماذا يضيرنا اذا عاش في لندن واحتفظ بمواطنته السوفياتية وفسحنا له في مجال العودة الى موسكو في اي وقت لاحياء الحفلات الموسيقية . وبالنتيجة اليس هو موسيقياً وتلك مهنة حرّة ؟

فوافق الجميع وقبلوا اقتراحي .

وفي هذه الايام غالباً ما استمع الى الراديو . ان جهاز الراديو عندي هو

مؤنسي الدائم عندما اذهب الى النزهة . فمنه استقي المعلومات والمتعة . واني احبّ الموسيقى والاغاني الشعبية . كما انني احبّ بعض الموسيقى المعاصرة ، ولكنني اعترف ان امرءاً في عمري يميل أكثر الى الاشياء التي كانت جزءاً من شبابه . ان معظم برامج الراديو هي جيدة ولكن ثمة نفايات تسمّم الجو . لذلك اجد متعة خاصة عندما يطالعني على الراديو اعلان بان اشكينازي جاء الى موسكو ليقيم حفلة موسيقية . كم انا مسرور اننا حمينا اسم عازف سوفياتي عظيم وانقذنا حياته العائلية من خلال ذلك . لعل الوقت الذي يرغب فيه اشكينازي وزوجته في العودة الى موسكو سيأتي للاستقرار فيها. ولربما يستقران في لندن . انني لا انفي هذه الامكانية . ولكن ماذا في الأمر لو حصل . فليعيشا حيث يرغبان . اعتقد ان الاوان قد حان لمنح كل مواطن سوفياتي حق الخيار . فاذا رغب في ترك بلادنا واراد ان يعيش في مكان آخر لبعض الوقت ، فلا بأس . فلنعطه الفرصة لذلك . انه امر لا استطيع تصديقه اننا بعد خمسين سنة من الحكم السوفياتي يبقى فردوسنا تحت القفل والمفتاح (١) .

نحن الشيوعيين نعتقد ان الرأسمالية جهنم حكم فيها على الناس العاملين بالعبودية . اننا نبني الاشتراكية . وقد نجحنا في مجالات عديدة وسنحقق نجاحات اكبر في المستقبل . وان طريقة حياتنا هي دون ريب الأكثر تقدماً في العالم في المرحلة الحالية من تطور البشريّة . وبتعبير الانجيل ، اذا شئنا استخدام لغته ثانية ، فطريقتنا في الحياة هي فردوس البشرية . وهي ليست فردوساً بمعنى ان وعاء الرخاء يطفح فيه وان كل ما على المرء هو ان يفتح فمه فيملأ بطنه فوراً . كلا ، ليس عندنا مثل هذا الفردوس — او على الاقل ليس عندنا بعد مثل هذا . ولا اعرف اذ ا كنا سنحقق ذلك على الاطلاق . ولكن ، كما يقال ، كل شيء نسبي ، وبالمقارنة مع العالم الرأسمالي ، فحياتنا انجاز عظيم . لقد حققنا اشياء كثيرة وأنشأنا الشروط الضرورية لنجاحات اعظم .

اذن ، لماذا نناقض انفسنا ؟ لماذا نبني حياة سعيدة ونبقي حدودنا مغلقة بالاقفال السبعة ؟ احياناً يعترض مواطنونا السوفيات قائلين : «إذن ، انتم تدفعوننا

(١) في آب ١٩٦٩ اشار الدبلوماسيون السوفيات الى اشيكينازي كمثل على الفنان السوفياتي الذي يسافر بحرية من الاتحاد السوفياتي والى خارجه . وقد وصف اشكينازي ذلك الزعم بانه غير صحيح . وقال : «عندما يقول ناطق سوفياتي رسمي انني اتحرك بحرية بين روسيا والغرب ، كما اتمنى ان يكون ذلك ، فان ما يقوله تشويه فاضح للحقيقة » .

الى الفردوس بالتهديد بالعصا ، اليس كذلك ؟ » كان الناس يهمسون بهذه الشكوى عندما كان التجميع الزراعي القسري والحملات الأخرى تجري على قدم وساق . اعتقد ان الوقت حان لكي نظهر للعالم ان شعبنا حرّ . انه يعمل برضاه ، وهو يبني الاشتراكية انطلاقاً من اقتناعاته ، وليس لأنه لا يملك خياراً آخر .

انني لا أشك في ان من الملائم عملياً ونظرياً على حد سواء ، فتح حدودنا . واذا كان ذلك ليس معقولا ولا ملائماً ، فاي نوع من الحريات عندنا ؟ حسناً ، اعرف ان البعض يجادل «ان لدينا بنية طبقية لمجتمعنا ، ولا نستطيع ان نأذن لاعداء البروليتاريا الطبقيين بالمجيء والذهاب حسب رغائبهم» . أما بالنسبة لاصحاب التفكير السليم ، فان هذه المرحلة من وجودنا مختلفة. فقد قضينا على الطبقات المعادية قبل خمسين سنة ، وكل جدل يرفع خطر الاعداء الطبقيين داخل الاتحاد السوفياتي هو جدل مخبول !

انني اتذكر حادثة أخرى من أيام رئاستي تظهر كيف بامكاننا التخلص من هذا الارث المحط من الحدود المغلقة التي تثقل وجدان الدولة السوفياتية بعبئها . كانت راقصة الباليه الاولى عندنا ، مايا بليستسكايا — التي لم تكن افضل راقصة في الاتحاد السوفياتي فحسب بل في العالم كله — تستثنى من رحلات مسرح بولشوي الى الخارج . وقد رفع تقرير إليّ بانها غير موثوق بها لجهة رجوعها الى الوطن . لم أكن اعرفها شخصياً ، ولا صدف ان تحدثت اليها . فلم تكن لديّ فكرة عن مواقفها . وان هجران فنانة في مستواها الاتحاد السوفياتي كان دون ريب أمراً مسيئاً جداً . وكان الغرب سيفيد من ذلك ، لو حصل ، في دعايته المعادية للسوفيات.

ثم في يوم من الايام ، بينما كانت فرقة الباليه تعد نفسها للسفر الى الخارج ، تلقيت رسالة من مايا بليستسكايا ، بصفتي سكرتيراً للجنة المركزية تقول فيها انها تحب وطنها وانها تشعر بالمهانة والتحقير عندما نبادلها بالشك وانعدام الثقة . فأمرت بطبع عدة نسخ من رسالتها ووزعتها على اعضاء البريزيديوم ، وطلبت ان نقرر ما عسانا ان نفعل . اما توصيتي فكانت بالسماح لها بالذهاب في الرحلة . وانعقدت شكوك حول امكان عدم عودتها . وقلت «ربما هذا أمر من الممكن حدوثه ، ولكنني اثق بها رغم انني لا اعرفها . لا نستطيع ان نعيش دون ثقة بالناس . ولو انها كتبت هذه الرسالة لتخدعنا حتى نتيح لها الذهاب ، عندئذ تكون خسارتنا بها كبيرة ، ولكننا نستطيع البقاء من دونها . » .

وذهبت مايا بليستسكايا في رحلتها ، وكافأتنا اضعافاً بانجازها الرائع في الخارج . لقد عززت شهرة الباليه السوفياتي والثقافة السوفياتية . وبعد ان انتهت رحلتها عادت الى الوطن . وكان هذا جزاء العمل الذي بذلناه في بناء مجتمع اشتراكي

اعتزت بليستسكايا بانتمائها اليه كمواطنة .

ولكن ماذا يحدث لو استمرينا بسياسة «لا اذن خروج» ؟ ماذا لو استمرينا في ابقاء مايا بليستسكايا حبيسة مقفلا عليها ؟ كان الارجح ان نقلبها الى مخلوق انساني اشلّ ومعادٍ للسوفيات في الوقت نفسه . ان الشخص الانساني مرهق جداً . ولا بد من التعاملً معه بمنتهى الاحترام . ان خطوة واحدة لامبالية قد تخرجه عن توازنه . انني فخور بالسماح لمايا في السفر الى الخارج ، كما انني مسرور بمقابلتها لبادرة الثقة فيها بالتقدير المناسب .

لو فتحنا حدودنا ، هل من الممكن ان تخان ثقتنا في الافراد ؟ بكل تأكيد سيحصل ذلك . فبين المئتين والاربعين مليوناً ، لا بد من ان تجد بعض العناصر غير الطاهرة . وستطفو تلك العناصر الى السطح ، كما يحصل للاجسام الخفيفة في السائل . اذن فلتطف قمامة المجتمع واقذاره على السطح ولتحملها الامواج بعيداً عن شواطئنا . ان ما اقوله هنا ينسجم كلياً مع سياسة لينين في السنوات الاولى بعد الثورة ، عندما كنا نرسل اعداء الاتحاد السوفياتي الى النفي في الخارج . وكان جميع الذين يريدون مغادرة الوطن لا تنصب في وجوههم العوائق. «هل تريدون الهجرة ؟» كنّا نقول لهم : «حسناً ، احزموا امتعتكم وتفضلوا الى الخارج» . وكانوا يغادرون ارضنا .

والان بعد خمسين عاماً ، علينا ان نكف عن البحث عن هارب في كل مواطن . يجب علينا ان نكف عن اغلاق حدودنا بحيث نبقى الحثالة والتفل داخل الحدود . يجب ان نبدأ التفكير باولئك الذين لا يستحقون ان ندعوهم حثالة — وهم اناس قد يمرون بفترة تعفّن موقوتة في معتقداتهم ، او يرغبون في تجربة جحيم الرأسمالية ، فقد تروقهم بعض عناصره المستقرة الجذابة . لا نستطيع ابقاء الناس ضمن السياج . علينا ان نفسح لهم في مجال اختبار العالم بانفسهم .

اننا اذا لم نبدل موقفنا بهذا الصدد ، اخشى ان نسيء الى المثل الماركسية اللينينية التي تقوم عليها طريقة حياتنا السوفياتية .

ملاحق

الملحق ١

التتابع التاريخي لسيرة خروشوف

١٨٩٤	١٧ نيسان . ولد في كالينوفكا ، مقاطعة كورسك قرب الحدود الاوكرانية .	اعتلاء القيصر نقولا الثاني العرش .
١٩٠٣		لينين يشق حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الى جناحين : بولشفيك ومنشفيك في المؤتمر الثاني للحزب في لندن .
١٩٠٤–٥		الحرب الروسية – اليابانية .
١٩٠٥		ثورة ١٩٠٥ .
١٩٠٦		الدوما الأول (البرلمان) .
١٩٠٩	ينتقل الى يوزوفكا (ستالينو فيما بعد ، والان دونتسك) في اقليم دونباس من اوكرانيا حيث يعمل والده في منجم .	
١٩٠٩–١٢	يتعلم صنعة تلحيم المعادن في مصنع بوس في يوزوفكا .	
١٩١٢–١٨	يعمل لحاماً للمعادن في مصانع توليد الكهرباء في مناجم روشينكوف وباستوكوف التي كان يملكها فرنسيون.	
١٩١٤		اندلاع الحرب العالمية الاولى .
١٩١٥	يصبح «قارئاً نهماً» للبرافدا .	
١٩١٧	يمثل عمال المناجم في الاجتماعات والتظاهرات السياسية ويقابل لازار كاغانوفيتش .	ثورة شباط . تنازل القيصر . تشكيل الحكومة الموقتة . ثورة اكتوبر . لينين يطيح بالحكومة الموقتة ويقيم الحكم

		السوفياتي .
١٩١٨	يصبح بلشفياً .	
١٩١٩	ينضم الى الجيش الأحمر .	
١٩١٩–٢١	جندي وعامل حزبي في صفوف فرقة الرماية التاسعة الملحقة حينئذ بجيش بوديوني الاول للخيالة في الهجوم نحو البحر الاسود .	الحرب الاهلية وتدخل الحلفاء .
١٩٢١	موت زوجته الاولى في المجاعة .	المجاعة . تقديم السياسة الاقتصادية الجديدة .
١٩٢٢	العودة الى يوزوفكا من الجبهة . يعين من قبل منظمة الحزب في يوزوفكا نائباً لمدير مناجم روشينكوف . تعرض عليه ادارة مناجم باستوكوف. يطلب اذناً للدرس في معهد عمال يوزوفكا .	
١٩٢٣	قائد طلابي وسياسي في معهد عمال يوزوفكا .	
١٩٢٤	يتسلم وظائف مختلفة في منظمة الحزب بيوزوفكا . يتزوج نينا بتروفنا .	موت لينين .
١٩٢٥	يعين سكرتير الحزب لمقاطعة بتروفسكو–مارينسك لاقليم ستالينو (سابقاً يوزوفكا) . يحضر المؤتمر التاسع للحزب الاوكراني برئاسة كاغانوفيتش . عضو استشاري (اي لا ينتخب) الى المؤتمر الحزبي الرابع عشر للاتحاد كله المنعقد في موسكو : اول مقابلة مع ستالين .	ستالين يتحرك ضد زينوفيف وكامنيف .
١٩٢٦	اول خطاب عام مسجل في مؤتمر الحزب الاوكراني في خاركوف .	
١٩٢٧	مندوب الى المؤتمر الحزبي الخامس عشر للاتحاد كله في موسكو . يرقى من جهاز منطقة ستالينو الى الجهاز الاقليمي .	هزيمة زينوفيف وكامنيف .
١٩٢٨	يرقيه كاغانوفيتش الى نائب رئيس القسم التنظيمي في اللجنة الاوكرانية المركزية في خاركوف . يرقيه كاغانوفيتش الى رئيس القسم التنظيمي في الجهاز الحزبي في كييف .	الخطة الخمسية الاولى : بداية التجميع الزراعي .
١٩٢٩	بلغ الخامسة والثلاثين ، يطلب اذناً لدرس علم التعدين في اكاديمية ستالين الصناعية في موسكو .	كاغانوفيتش ينقل الى موسكو.
١٩٢٩–٣٠	عامل سياسي وطالب في الاكاديمية الصناعية .	تروتسكي ينفى .

	سقط في انتخاب المندوبية عن الاكاديمية للمؤتمر الحزبي السادس عشر ، وحيل بينه وبين الترشيح لمكتب الخلية الحزبية . «يقود النضال في سبيل الخط الحزبي ضد اليمينيين والطفيليين والحرس القديم في الاكاديمية» . يزامل ناديزدا الليلوييفا زوجة ستالين ويقوم بتنظيم الجماعة في الاكاديمية . ارسل لتفتيش مزرعة ستالين الجماعية في اقليم سامارا ، اول لمحة عن الاحوال التي يسببها التجميع الزراعي . مخليس يعده لقيادة القوى الموالية لستالين في الاكاديمية : جلسات لاستدعاء «اليمينيين» من المندوبين الى مؤتمر مقاطعة بومان الحزبي . يقود الوفد الجديد الى المؤتمر .	
١٩٣١	انتخب سكرتيراً اول لمقاطعة بومان . ورقي بعد ستة اشهر الى سكرتير اول لمقاطعة برسنيا.	
١٩٣٢	يترك الاكاديمية قبل التخرج ، يرقى الى سكرتير ثان للجنة مدينة موسكو الحزبية بقيادة كاغانوفيتش. يزامل ناديزدا كروبيسكايا ، ارملة لينين في ادارة مدينة موسكو .	موت ناديزدا الليلوييفا زوجة ستالين .
١٩٣٣	يصبح سكرتيراً ثانياً للجنة الاقليمية في موسكو . ينشط بقيادة كاغانوفيتش في اعادة تعمير موسكو وبناء المترو .	
١٩٣٤	ينتخب للجنة المركزية في المؤتمر الحزبي السابع عشر («مؤتمر المنتصرين») .	اغتيال كيروف .
١٩٣٥	يحل محل كاغانوفيتش كسكرتير اول للجان مدينة موسكو واقليمها .	سنوات التطهيرات الدموية والارهاب الكبير والمحاكمات الاستعراضية .
١٩٣٦		زينوفيف وكامنيف يحاكمان ويعدمان (اب). يزهوف يحل محل ياغودا رئيساً للبوليس السري (ايلول) .
١٩٣٧		مقتل اردزونيكيدز (شباط) . اعدام توخاشفسكي والجنرالات (حزيران) .

السنة	الأحداث	الأحداث العامة
١٩٣٨	عين سكرتيراً اول للجنة المركزية الاوكرانية .	محاكمة بوخارين وريكوف (اذار)
١٩٣٩	يحضر اجتماع كامل هيئة اللجنة المركزية الذي يندد فيه كامينسكي ببيريا . ثم يختفي كامينسكي. يصبح عضواً كاملا في المكتب السياسي (اذار) . ينتقل بوصفه سكرتيراً اول لاوكرانيا والعضو المدني في مجلس كييف العسكري الى غربي اوكرانيا (بولونيا المحتلة) .	اتفاقية روبنتروب—مولوتوف.
١٩٣٩—٤٠		(آب) حرب الشتاء مع فنلندا (تشرين الثاني – اذار)
١٩٤٠	يشرف على «سفوتة» اوكرانيا الغربية .	
١٩٤١—٤٣	بوصفه عضواً في المجلس العسكري وممثل المكتب السياسي ، يخدم على عدة جبهات مفوضاً برتبة لفتننت جنرال .	المانيا تغزو روسيا (حزيران ٤١) . عملية بربروسا . سقوط كييف (ايلول ٤١) . معركة موسكو (شتاء ٤١—٤٢) . كارثة خاركوف (ايار ١٩٤٢) . معركة ستالينغراد (تموز ٤٢ – شتاء ٤٣) . معركة كورسك (صيف ١٩٤٣) . تحرير كييف (تشرين الثاني ١٩٤٣) . مؤتمر طهران (تشرين الثاني ١٩٤٣) .
	يبدأ باعادة بناء الاقتصاد الاوكراني والحزب .	
١٩٤٤	يعين رئيس مجلس وزراء اوكرانيا ويظل محتفظاً بمركزه كسكرتير اول للحزب الاوكراني .	الهجوم السوفياتي باتجاه برلين (الربيع) الغزو الحليف لفرنسا (حزيران) .
١٩٤٥	يقابل ايزنهاور في موسكو .	القوات السوفياتية تستولي على برلين (ايار) . عرض النصر العسكري فيموسكو (حزيران) .
	يرئس لجنة خبراء لمعاونة البولونيين في اعادة	

السنة	الأحداث	الأحداث العامة
	تعمير فرصوفيا .	
١٩٤٦—٤٧	خسوف موقت وانخفاض في المسؤوليات. يحل محله كاغانوفيتش سكرتيراً اول لاوكرانيا. اصابة حادة بالنزلة الصدرية .	مجاعة في اوكرانيا .
١٩٤٨	يستعيد كامل سلطته في اوكرانيا .	ستالين يقاطع تيتو .
١٩٤٩	يستدعيه ستالين ويعينه رئيساً لمنطقة الحزب في موسكو (كانون اول)	قضية لينينغراد .
١٩٥٠	عين مشرفاً مطلقاً على الزراعة . يدمج المزارع الجماعية ويدفع مشروع المزرعة – المدينة .	ستالين ينشر رسالة عن علم اللغات في البرافدا . انفجار الحرب الكورية .
١٩٥٢	يلقي تقريراً عن تعديلات في نظام الحزب في المؤتمر الحزبي التاسع عشر .	ستالين يكلف مالنكوف بالقاء التقرير العام نيابة عنه في المؤتمر التاسع عشر . مؤامرة الاطباء (كانون الثاني شباط) .
١٩٥٣	يصنف في التسلسل الحزبي بعد مالنكوف ، مولوتوف ، بيريا ، وكاغانوفيتش . يحل محل مالنكوف في السكرتيرية الاولى للحزب (ايلول).	ستالين يموت ؛ مالنكوف يصبح رئيساً للوزراء وسكرتيراً اول (اذار) .
١٩٥٤	يزور بكين بصحبة بولغانين. يشرع في حملة الارض البكر .	
١٩٥٥	يزور يوغوسلافيا (يحسم النزاع مع تيتو) . يحضر مؤتمر القمة في جنيف . يزور افغانستان والهند . (شعاره «سندفنكم»)	بولغانين يحل محل مالنكوف في رئاسة الوزارة .
١٩٥٦	يلقي الخطبة السرية حول جرائم ستالين في المؤتمر العشرين للحزب (شباط) . يزور لندن (نيسان) .	تمرد بولونيا (حزيران) . ازمة السويس (تشرين اول تشرين ثان) . الثورة المجرية (تشرين اول).
١٩٥٧	يبدأ بادخال اللامركزية على الصناعة (ايار) . يحطم معارضة «الفئة المضادة للحزب» – مالنكوف مولوتوف ، كاغانوفيتش وشبيلوف وسواهم (تموز) . يقيل المارشال جوكوف من منصب وزير الدفاع (تشرين أول)	اطلق سبوتنيك الاول (تشرين اول) . اجتماع موسكو للاحزاب الشيوعية يحضره ماوتسي تونغ (تشرين ثان) .

١٩٥٨	يتسلم رئاسة الوزارة من بولغانين (اذار) .	ازمة الشرق الاوسط (تموز – آب) . ازمة برلين الاولى (الخريف).
١٩٥٩	يرفض اعطاء الصين معلومات عن الاسلحة الذرية . زيارته الاولى للولايات المتحدة . مشاورات مع ايزنهاور في كامب دافيد (ايلول) .	
١٩٦٠	يعلن اسقاط طائرة يو ٢ الاستكشافية وأسر غاري باورز (ايار) . يحطم اجتماع القمة في باريس. يهاجم الصين في اجتماع مغلق ابان انعقاد مؤتمر الحزب الروماني في بوخارست (حزيران) وفي مؤتمر موسكو للاحزاب الشيوعية العالمية (تشرين الثاني) .	
١٩٦١	يقابل كينيدي في فيينا يشن هجوماً مداوراً على الصين عبر الهجوم المباشر على البانيا وذلك في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب (تشرين الثاني) . يأمر بنقل جثمان ستالين .	الماجور يوري غاغارين اول انسان في الفضاء (نيسان) . ازمة برلين الثانية (حزيران)
١٩٦٢	يصل الى شفير الحرب حول مسألة الصواريخ في كوبا ثم يتراجع (تشرين الثاني) .	
١٩٦٣	يلاحق الكتاب والفنانين .	اتفاقية تحريم التجارب النووية (آب) . كارثة الحصاد .
١٩٦٤	يعد لصدام علني مع الصين في مؤتمر الحزب العالمي المقرر عقده في كانون الاول . يستقيل من كل مسؤولياته . يخلفه بريجنيف في السكرتيرية الاولى وكوسيغين في رئاسة الوزارة (تشرين اول) .	

الملحق ٢

المؤسسات والمصطلحات السوفياتية

يتألف الاتحاد السوفياتي من خمس عشرة جمهورية (الاتحاد الفدرالي الروسي واوكرانيا هما من جمهورياته) وتشكل كل منها ، على الصعيد الرسمي ، دولة سيدة لها حق الانسلاخ .

ان مؤسسات الحزب والدولة التي لها ما يقابلها على مستويات كل جمهورية والاتحاد ككل" ، هي نظرياً منفصلة ولكن متساوية . الا ان السلطان الحقيقي ، في الواقع ، يمارسه الحزب .

الحزب

يضم الحزب في عضويته نحو خمسة بالمئة من مجموع السكان السوفيات . وتديره لجان حسب الهرم التسلسلي . وان الوحدة التنظيمية الادنى هي التي يجري تشكيلها في مشروع اقتصادي كمصنع او منجم او مزرعة جماعية، او في السرية العسكريّة ، او المؤسسة التربوية . وقد اطلق على المنظمة الحزبية الدنيا ، لعدد من السنوات ، مصطلح «الخليّة» . ومثال على ذلك خليّة الاكاديمية الصناعية . وينهض الهرم الحزبي على اساس تداخل وحدات اقليمية لكل منها لجنتها التوجيهية التي تدعى «بالمكتب» وجناحها التنفيذي الذي يعرف بالسكرتيرية . وان اللجان الحزبية حسب نطاق الصلاحيات والسلطان ، هي المقاطعة والمدينة والاقليم واللجنة المركزية للجمهورية ، وفي القمة اللجنة المركزية للاتحاد كله . تضبط الأجراءات الحزبية مجموعة قواعد تعرف بقوانين الحزب التي جمعت وصنفت قبل الثورة ويجري تعديلها بانتظام .

وان «المؤتمر الحزبي»، حسب قوانين الحزب، هو «الجهاز الاعلى» في الحزب

الشيوعي . وهو عبارة عن اجتماع مندوبين من كل الجمهوريات ينتخبون لجنة الاتحاد المركزية . وتنص قوانين الحزب انه يتوجب انعقاد المؤتمر كل ثلاث سنوات مرة على الاقل . وللدلالة على مقدار ما يتمتع به المؤتمر الحزبي ، وبالتالي القوانين الحزبية ذاتها التي تنص على ذلك ، نستشهد بواقعة ان ستالين لم يدع الى المؤتمر الحزبي التاسع عشر الا بعد مرور ثلاث عشرة سنة على انعقاد المؤتمر الحزبي الثامن عشر .

ان الاعمال تصرف على مستويات المقاطعة والمدينة والاقاليم والجمهورية في مؤتمر الحزب . وتجتمع اللجنة المركزية للاتحاد كله دورياً كل نصف سنة بكامل هيئتها . وبين اجتماعات الهيئة الكاملة تصرّف اعمال اللجنة المركزية من قبل جهازها الاداري : سكرتيرية اللجنة المركزية التي تقوم بتنفيذ اوامر الحلقة الداخلية في قيادة الحزب ، «المكتب السياسي» (الذي اعيدت تسميته بريزيديوم قبيل موت ستالين ثم بدلت التسمية مرة ثانية الى مكتب سياسي بعد سقوط خروشوف) . ورغم ان المكتب السياسي هو تقنياً منتخب من اللجنة المركزية ومسؤول امامها ، فهو عملياً يستمد سلطانه من ذاته وهو مركز السلطان الحقيقي في بيروقراطية الحزب . ويشغل السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب دائماً رئاسة المكتب السياسي او البريزيديوم ويكون بمقدوره ان يحشر انصاره في جهاز الحزب كلّه .

الدولة

تنقسم الدولة الى فروع تنفيذية وتشريعية ، ومفروض ان تكون الاولى تابعة للاخيرة ، ولكنهما معاً في الواقع يخضعان للحزب .

ويقوم الوزراء بالوظائف التنفيذية على مستوى الجمهورية والاتحاد (الذين كانوا حتى بعد الحرب العالمية الثانية بقليل يسمّون بالمفوضين) ، كما يقوم بهذه الوظائف على مستويات المقاطعة والمدينة والاقاليم اللجان التنفيذية . وفي كل من المستوى الجمهوري والاتحادي يشرف على مختلف حقول الادارة (النقل والكهرباء والتعدين والزراعة والصناعة والى ما ذلك) مجلس الوزراء (سابقا مجلس مفوضي الشعب) .

ويشار الى رئيس مجلس الوزراء عادة ، في الاتحاد السوفياتي ، على انه الوزير الأول للاتحاد السوفياتي. وهو دوماً عضو في المكتب السياسي او البريزيديوم .

امّا بنية الجهاز التشريعي فتطابق التقسيمات الجغرافية لتنظيم الحزبي . فالوحدة التمثيلية الاساسية هي السوفيات او المجلس ، تتراوح من سوفيات المقاطعة او الريف في المستوى الادنى الى السوفيات الاعلى على المستويين الجمهوري

والاتحادي . وان رئيس سوفيات المدينة هو ، عملياً ، محافظ المدينة ، كما ان رئيس بريزيديوم السوفيات الاعلى في الاتحاد السوفياتي هو رئيس الدولة .

يعلن دستور ستالين الصادر في ١٩٣٦ أن مجلس السوفيات الاعلى هو الهيئة العليا لسلطة الدولة في الاتحاد السوفياتي ويوليها سلطان التشريع الذي يتمتع به البرلمان الديمقراطي . اما في الواقع ، فالسوفيات الاعلى هو خاتم المطاط (اي الذي يوافق روتينياً ودون تفكير) على قرارات الدولة ، وحاله كحال اللجنة المركزية بالنسبة للحزب . فالمكتب السياسي هو الذي يسيطر على الهيئتين : السوفيات الاعلى واللجنة المركزية ويشرف عليهما بقبضة قوية .

البوليس السري

مرت مؤسسة البوليس السوفياتي في مراحل مركبة من التطور وعرفت بعشرات الاسماء وفقاً لمرحلة النشاط (اي الدولة والحزب والجيش) . في هذا الكتاب تظهر اولا باسم NKVD او مفوضية الشعب للشؤون الداخلية ابّان سنوات التطهير . وخلال الحرب اصبحت المديرية السياسية للقوات المسلحة . وبعد الحرب قسمت مؤسسة البوليس موقتاً الى قسمين: وزارة الشؤون الداخلية ووزارة أمن الدولة التي غالباً ما اشير اليها «بسكرتيرية الدولة» .

وكما يبدو من عشوائية استخدام خروشوف لهذه التعابير ، يتضح انه يستحيل الحفاظ على هذه التسميات ، بحيث يطغى اللقب الاساسي «تشيكا» (وهو تعبير من زمن لينين اطلق على «اللجنة فوق العادة لمكافحة النشاط المضاد للثورة والاستغلال والتخريب ») على ما عداه من تسميات في وصف البوليس السري ، كما ان مصطلح «التشيكي» يستخدم لموظف من جهاز الأمن .

وقد بقيت «التشيكا» حتى موت ستالين جهازاً عملاقاً متوحشاً يمارس الرقابة والقمع ويتغلغل في كل مستويات واجهزة الدولة والحزب والحياة العامة والخاصة للمواطنين . وكان بتصرفها بيروقراطية اداريّة واسعة ، وقوات مسلحة خاصة بها، واجراءات مختصرة تتجاوز القواعد القانونية ولا يحدّها سلطان ، فضلاً عن تسهيلات لاعتقال ضحاياها ، والتحقيق معهم عادة يجري تحت وطأة التعذيب) ومحاكمتهم واعدامهم . ووصلت منظمة البوليس السري الى شبه حكومة في ظل لافرنتي بيريا ، عندما أخذت السجون ومعسكرات الاعتقال تزود الدولة بجيش كبير من عمّال السخرة .

وحتى ستالين لم يكن في حكمه الاوتوقراطي اميناً على نفسه من تضخم سلطان

جهاز أمن الدولة ـ المباحث NKVD . فعندما قرر أن تطهيرات يزهوف وتصفياته أخذت تتفاقم تفاقماً خطيراً ، ضحى بيزهوف على مذبح التطهير ودعاه « القزم المتعطش للدماء » في محاولة لايقاف اندفاع هذه القوة الماحقة .

يقول خروشوف ان ستالين أخذ يخاف بيريا ولكنه لم يكن يعرف كيف يتخلص منه. ان ضرورة التخلص من بيريا هي، كما يبدو الأمر الذي استطاع خروشوف وسائر المتنافسين على عرش ستالين ان يتفقوا عليه . وبعد وقت قصير على استئصال بيريا خفضت اجهزة أمن الدولة من وضعها السابق كوزارة وامبراطورية الى لجنة KGB تخضع لمجلس الوزراء ورقابته الصارمة .

الملحق ٣

زملاء خروتشوف في الكرملين

لافرنتي ب . بيريا

رقاه ستالين ، لاعتماده عليه كابن بلده وأحد افراد حاشيته ، الى السيد المطلق على دولة المباحث . ثم قام ورثة ستالين بتصفيته باعتباره عبقرياً شريراً وخائناً . ان بيريا يستحق كلياً الصيت الذي لازمه : يد ستالين اليمنى الدامية . الا ان دوره في الارهاب الستاليني يبقى على اي حال موضع جدل . فباشرافه ، وبمبادرته جزئياً ، وضع حد لتطهيرات يزهوف في اواخر الثلاثينات (انظر الملحق رقم ٢) . يضاف الى ذلك ان بيريا قد يكون استهدف كضحية ، وبالتالي لم يكن محرضاً على تطهيرات سيئة الصيت في الفترة التي أعقبت الحرب : قضية القرم ، ومؤامرة الاطباء .

ان اصول بيريا غامضة ، ويعتقد انه يتحدّر من الطبقة الوسطى . وكانت مهمة بيريا، الى ان جاء به ستالين الى موسكو ليخلف يزهوف ، محصورة بجورجيا ، اولا في التشيكا ثم في الجهاز الحزبي . ثم مهّد لنفسه كي يصبح المخبر الاول للكرملين والمحقق الذي لا يستغنى عنه في القوقاس ، بتآمره المخطط عند جورجيين امثال اردزونيكيدز وينوكيدز . وفي ١٩٣٥ القى في المؤتمر التاسع للحزب الجورجي خطاباً استغرق يومين «حول كتابات ستالين ونشاطاته الاولى» فثبّت نفسه كاحد واضعي سيرة ستالين الرسميين .

ويعتبر بيريا متخلفاً عن اقرانه في الالتحاق بحلقة ستالين الداخلية من امثال مالنكوف وفوروشيلوف ومولوتوف وكاغانوفيتش وبولغانين وميكويان وخروشوف . الا انه ما ان نقل الى موسكو في تموز ١٩٣٨ حتى عمل على التعويض عن الوقت الذي مضى .

فقد تمكن من الاندماج بحلقة ستالين ، وفي الوقت نفسه تلاعب بشكوك ستالين بالآخرين لمصلحته . وقبل الحرب اصبح نائب رئيس مجلس مفوضي الشعب والمنسق القومي لعمليات الأمن . وقد كان ، قطعاً ، الجاني الرئيسي في مذبحة ما يقارب اربعة الاف ضابط بولوني في غابة كاتين قرب سمولنسك . وقد عينه ستالين ، عندما بدأ الغزو الالماني ، عضواً في لجنة دفاع الدولة (مع مولوتوف وفوروشيلوف ومالنكوف) وجعله المسؤول عن السياسة المحلية فلعب دوراً خطيراً في اجلاء الصناعة ابان التقدم الالماني ثم اعادة تركيزها في مناطق آمنة . وابان التراجع الالماني بعد سنتين عين عضواً في لجنة مالنكوف لاعادة المناطق المحررة . ووجد نفسه خلال المسؤوليتين المشار اليهما ، على احتكاك دائم وغير منسجم مع خروشوف . وقد عينه ستالين في اليوم التالي لالقاء الاميركيين قنبلتهم الذرية على هيوريشما للاشراف على مشروع سوفياتي على غرار مشروع مانهاتن . واسفرت جهوده عن تفجير نووي في صحراء اوست — اورت بين بحري قزوين واورال في تموز ١٩٤٩ .

وكان بيريا يعارض خروشوف بصورة خاصة في قضايا السياسة الزراعية وقاد بالاشتراك مع مالنكوف الحملة على خطة خروشوف المدينة — الزراعية في ١٩٥١ .

وقد يكون بيريا من اسياد الدسائس والتآمر الا ان زلته الكبرى في انه سمح لغروره ان يدفع به الى التبجح بسلطانه وطموحه في وجه رفاقه . وان ستالين نفسه في سنواته الاخيرة بدأ يخشى بيريا ، ولكن تصفية بيريا كانت من نصيب خلفاء ستالين الذين جمعوا صفوفهم المنقسمة، اصلاً، ضده واعدموه بعد مرور اشهر على موت ستالين في ١٩٥٣ .

نيقولاي ي. بولغانين

ابن موظف مكتبي . قضى بولغانين حياته الحزبية الاولى في صفوف التشيكا وهو يحارب « الثورة المضادة » في الاتحاد الروسي الفدرالي وتركستان . وانتخب رئيساً لسوفيات مدينة موسكو في ١٩٣١ . وهي وظيفة وضعته في احتكاك حميم مع خروشوف . واستفاد بولغانين من التطهيرات فعين رئيساً لمجلس مفوضي الاتحاد الفدرالي الروسي في ١٩٣٧ وعضواً كاملا في اللجنة المركزية لكل الاتحاد في ١٩٣٩ . وابان الحرب كان يقوم بوظيفة مشابهة لوظيفة خروشوف على الجبهة الاوكرانية اذ كان مفوضاً على جبهات موسكو وغربي البلطيق وبلوروسيا برتبة لفتننت جنرال . وفي ١٩٤٤ رقي الى

رتبة جنرال وعيّن عضواً في وزارة ستالين الحربية . وفي نهاية الحرب خلف ستالين كوزير للقوات المسلّحة واصبح مارشالاً للاتحاد السوفياتي . وفي ١٩٤٨ اصبح عضواً كاملاً في المكتب السياسي .

كان رصيد بولغانين الاعظم انه نسبيّاً ارحب صدراً من اقرانه الذين كان واحدهم يمسك بخناق الاخر في مشادات لا آخر لها . وعلى هذا الاساس قبل من الجميع كمرشح تسوية وكان المرشح «الواجهة» الذي طرحه خروشوف . وهكذا اصبح وزيراً للدفاع بعد فترة قصيرة من موت ستالين ثم خلف مالنكوف في رئاسة الوزارة بعد ١٩٥٥. وان بولغانين القليل الظلال وهوذو اللحية الصغيرة المشذبة كان لخروشوف الأكثر حيوية ودهاء نعم الرفيق في رحلاتهما الى بكين ودلهي وبلغراد وجنيف ولندن .

وعندما اصبح خروشوف بفضل مناوراته في موقع يتيح له الاستيلاء على رئاسة الوزارة اسقط بولغانين بقفا كفّه ، مضيفاً اسمه في آخر لحظة الى لائحة الفئة المضادة للحزب السوداء . وكان ان اطاع بولغانين الأمر وانسحب من مسرح النشاط العام في اجتماع لكامل هيئة اللجنة المركزية عقد في ١٩٥٨ واعلن اعترافه بذنبه وندد بالمتآمرين المزعومين مولوتوف ومالنكوف وكاغانوفيتش . فوفّرت له اسباب الراحة في تقاعده وقدّم له منزل ريفي في ضواحي موسكو .

لازار م . كاغانوفيتش

في ذكرياته يصوره خروشوف كثالث الاشرار الذي لا يفوقه في هذا المضمار الا ستالين وبيريا . وقد لا يدرك القارىء ان خروشوف مدين بتقدمه لكاغانوفيتش . فمنذ ان التقى به خروشوف في ثورة شباط ١٩١٧ غدا من محاسيبه بل يده اليمنى . وقد تمسك باذيال كاغانوفيتش في الاغلب وهو يصعد سلّم التسلسل الحزبي في المنظمة الاوكرانية ابّان العشرينات . كما انه ، بصرف النظر عن زعم خروشوف غير القابل للتصديق ، من ان زوجة ستالين كانت هي التي ساعدته في موسكو ، فقد كان كاغانوفيتش هو الذي رقّاه بسرعة حتى اوصله الى اللجنة المركزية والمكتب السياسي .

وكان كاغانوفيتش الذي لا يكلّ ، المعروف بقسوته في العمل وبحيويته ومراسه يعتبر افضل اداري في الاتحاد السوفياتي . وقد بلغ الذروة ابّان اعادة تعمير موسكو في الثلاثينات . وتوج امجاده بمد خطوط المترو في موسكو التي كان يشرف عليها والتي حملت لعدة سنوات اسمه . وكان ، بوصفه عضواً في لجنة الاشراف على الحزب ، أحد رجال ستالين المعتمدين في حملة التشريك الزراعي .

وقد ارسل الى اوكرانيا وسيبريا لتصعيد حملة «تصفية الكولاك الطبقية» كما اطلقت يده ابان التطهيرات ضد «عناصر المعارضة» في النقابات .

ويرجح بان عداوة خروشوف لكاغانوفيتش تعود الى ١٩٤٧ عندما حل معلمه السابق محلّه في السكرتيرية الاولى للحزب الاوكراني ابّان الفترة القصيرة التي سقط فيها خروشوف من الحظوة . كان كاغانوفيتش النائب الاول لرئيس مجلس الوزراء بعد موت ستالين . واذ اعتبر من «رجال مالنكوف» في مرحلة التنافس بين خلفاء ستالين العتيدين ، فقد صنّف من الجماعة المضادة للحزب وطرد من البريزيديوم في ١٩٥٧ بعد انقضاء سبع وعشرين سنة على انتخابه عضواً كاملا في تلك الهيئة المهيبة . وقد وجه خروشوف الى كاغانوفيتش ، وهو اليهودي الاوكراني ، تهمة العداوة لاوكرانيا وللسامية فضلاً عن «المبالغة في تضخيم قسطه من الاسهام في تطور النقل والبناء . » وصفه «بكلب» ستالين .

وقد عين كاغانوفيتش بعد ان مرغ بالخزي ، مديراً لمصانع الاسمنت في سفيردلوفسك . وشوهد مؤخراً في المكتبات يستعرض الكتب، ويحضر حفلات المسارح ، ويزجي النصائح للطلبة في منتزهات موسكو .

جورجي م. مالنكوف

بعيداً عما يصوره خروشوف من انه كاتب بنصف عقل لدى ستالين وتيس ماعز خنوع عند بيريا،فان «يغور» مالنكوف كان امرءاً هائلاً في ذكائه وقدرته وصلابته وطموحه . واذ كان أكثر صقلا في اصله واساليبه من خروشوف فقد كان ينظر ، على الارجح ، الى هذا الاخير نظرته الى ريفي مهذار كثير الكلام .

بموت اندريه جدانوف في ١٩٤٨ (الذي يتجاهله خروشوف هنا كلياً) اصبح مالنكوف الشخص الثاني في القيادة السوفياتية من حيث الاهمية والنفوذ . وكان يعتبر على نطاق واسع وريث ستالين الظاهر . وقد عزز هذا الانطباع تسمية ستالين لمالنكوف ليلقي التقرير العام بالنيابة عنه في المؤتمر التاسع عشر في ١٩٥٢ .

ولفترة قصيرة بعد موت ستالين جمع مالنكوف بين وظيفتي سكرتير اول للحزب ورئيس للوزارة . وخلال هذه الفترة الانتقالية ، وبينما كان خروشوف يوطد قوته ، قاد مالنكوف المبادرة في تكييف السياسة السوفياتية الخارجية والمحلية لتصبح ملائمة وحقائق عالم ما بعد الحرب . وكان مالنكوف أول من اقترح علناً بان الاعتقاد اللينيني حول حتمية الحرب الكلية بين الشيوعية والرأسمالية

قد فقد صحته في العصر النووي ، وهو موقف هاجمه خروشوف ووصفه بانه بدعة تحريفية ، ولكنه لم يلبث فيما بعد ان جعله عقيدته الجديدة في «التعايش السلمي» . وكان مالنكوف ايضاً اول من دعا الى رفع مستوى الحياة للشعب واعطاء اولويات لانتاج سلع الاستهلاك — وذلك قبل وقت طويل من بدء خروشوف بمهاجمة «ملهمي الفولاذ» اي رجال الصناعات العسكرية الذين يلتهمون موارد الدولة على حساب مصالح الناس المادية . وقد اعتبرت مؤامرة الاطباء في ظل مالنكوف اكذوبة ملفقة واعيد الاعتبار لضحاياها — وهو عمل يمكن اعتباره مقدمة لما جرى من تنديد المؤتمر العشرين للحزب باساليب ستالين واعادته الاعتبار لضحاياه .

وباحتدام التنافس بين مالنكوف وخروشوف ، حاول مالنكوف ان يحول الوزارات وجهاز الدولة وطبقة التقنوقراطيين الى قاعدة قوة يستخدمها للحد من سلطان خروشوف وطبقة البيروقراطية الحزبية .

ولكن مالنكوف لم يجار منافسه في المناورة ، فتغلب عليه بالاصوات واضطر الى التخلي عن رئاسة الحكومة على اساس «عدم الخبرة» لصنيعة خروشوف وصديه الموثوق بولغانين في ١٩٥٥ . وبعد محاولته اقامة ائتلاف مهلهل لهذا الغرض من الستالينيين القدامى في محاولة لاسقاط خروشوف من قمة الحزب ، خسف نجم مالنكوف الى الابد في ١٩٥٧ . وبعد سنة وجه خروشوف الى مالنكوف مجموعة اتّهامات تراوح بين عدم الجدارة ابّان الحرب الى المسؤولية عن تطهيرات لينينغراد في ١٩٤٩ الى اعتماد سياسات لا لينينيّة في الاقتصاد والزراعة الى الاشتراك في مؤامرة « ضد الحزب » . وأبعد مالنكوف ، اذ عين مديراً لمحطة توليد الكهرباء في الجزء القصي من كازاخستان . ولفترة بدا انه غاب عن النظر كلياً ، ولكنه شوهد مؤخراً حياً وبصحة جيدة في موسكو .

روديون ي . مالينوفسكي

هو القائد الصارم، القوي البنية، الصريح والمحبوب من انفار القوات المسلحة والمفوضين على حد سواء . وكما تكشف هذه الذكريات فان نيكيتا خروشوف كان من المعجبين به . ولد مالينوفسكي في وسط فلاحي في اوديسا ثم التحق بالجيش القيصري وهو بعد في السادسة عشرة وخدم في المدفعية في الحملة الروسية الى فرنسا . وبعدها قاد في الحرب الاهلية كتيبة من الجيش الأحمر ضد قوات البيض بقيادة الاميرال كولشاك في سيبريا . وانضم الى الحزب في ١٩٢٦ . وما خلا انزال رتبته اثر الهزيمة السوفياتية في روستوف ، فان

مالينوفسكي قد سطع نجمه ابّان الحرب العالمية الثانية . وخلال الحرب ، كان
على علاقة ود وثيقة وظاهرة مع خروشوف : اولاً كمخطط للحد من
التقدم الالماني في سارابيا واوكرانيا ، ثم كاحد القواد العاملين بقيادة
جوكوف الذي اوقف التقدم الالماني في ستالينغراد ، واخيراً كمدير لعملية طرد الألمان
من اقليم دونباس ، موطن خروشوف ، ومن جنوبي اوكرانيا المشتملة على
مسقط رأس مالينوفسكي نفسه : اوديسا .

في ١٩٤٤ قبل الاستسلام الالماني في رومانيا كان رأس حربة الاختراق
السوفياتي للجبهة من بودابست الى فيينا . وما ان وضعت الحرب اوزارها حتى
كان يحارب اليابانيين (وينزل الدمار بالصينيين كذلك) في منشوريا . وبقي
في الشرق الاقصى الى ان استدعي الى موسكو ليصبح نائباً اول لوزير الدفاع في
١٩٥٦ عندما أصبح عضواً كاملاً في اللجنة المركزية . وبعد سنة حلّ كوزير
دفاع محل قائده القديم في ايام ستالينغراد ، المارشال جوكوف .

مالينوفسكي كان ساعد خروشوف الأيمن ابان مؤتمر القمة الجهيض في باريس
في ١٩٦٠ . وقد تفوّه بكلام قاس عند عودته من باريس الى موسكو ، اذ حذّر الغرب
انه من الان فصاعداً ستتخذ تدابير فوريّة ضد القواعد التي تنطلق منها اية طائرة
تخترق المدى الجوي السوفياتي . وخلف مالينوفسكي نائبه المارشال غريشكو
الذي كانت تربطه بخروشوف صلات صداقة ابّان الحرب . وتوفي مالينوفسكي
في ١٩٦٧ .

انستاس أ . ميكويان

الارمني العنيد الماكر ، والمعروف في الغرب بالبائع السوفياتي المتجول
رقم واحد . وهو يمثل حالة كلاسيكية ولكنها في الوقت ذاته فريدة من
نوعها في البقاء . ان سيرة حياته وصعوده السياسي تجعله قريباً جداً من ستالين.
فهو مثل ستالين قوقاسي وكان لفترة خادماً في الكنيسة ، ثم انضم الى البلاشفة
في ١٩١٥ ، اي في السنة نفسها التي تلقّى فيها شهادته في اللاهوت .

وقد كان بارزاً في منظمتي الحزب في باكو وتفليس . ونجا باعجوبة من الاعدام
على ايدي قوات المنشفيك والبيض ، والالمان والاتراك والبريطانيين ، التي كانت
تتنازع مع الحمر السيطرة على القوقاس بعد الثورة. كان مع سيرجو اردزونيكيدز
من حلفاء ستالين الاوائل ضد تروتسكي . الا ان اردزونيكيدز كان اقل مرونة
من ميكويان . وأصبح ميكويان عضواً مرشحاً للمكتب السياسي في ١٩٢٦ عندما
عين مفوضاً للشعب في التجارة الداخلية ثم للتجارة الخارجية . وغدت التجارة

الخارجية اختصاصه منذ ذلك الحين فطاف الولايات المتحدة في ١٩٣٦ دارساً اساليب
انتاج المواد الغذائية ، ثم في ١٩٥٩ داعياً الى التجارة بين ما وصفه «باعظم دولتين» .

وسقط ، حسب ما يقول خروشوف ، هو ومولوتوف من الحظوة لدى ستالين
خلال سنوات الديكتاتور الاخيرة ، فابعدهما عن الدائرة الحاكمة وأخذ يتحين
الفرص للقضاء عليهما . ويشك خروشوف في امكان نجاة اي من سيدي السياسة
الخارجية المذكورين من مصيره المحتوم لو امتد العمر بستالين بعض الوقت .

ان دور ميكويان في حياة خروشوف السياسية غامض : فقد
دافع كما يبدو ، عن لافرنتي بيريا ضد المحكمة الصورية التي عقدها زملاؤه
والتي يزعم خروشوف انه هو الذي نظمها في ١٩٥٣ ، ثم نرى «انستاس
افانوفيتش» (ميكويان) يمهد في المؤتمر العشرين لخطبة خروشوف السرية بفتح
نار الانتقاد على ستالين في الجلسة العادية للمؤتمر .

كان ميكويان يتحلى بشخصية جذابة فاتنة وبروح مرحة متأصلة في طباعه
الرضية عندما كان يسافر وحيداً . ولكنه عندما يكون ملحقاً بخروشوف في
رحلات الى الخارج كان يضطر الى مكافحة تصرفات رئيسه الفاضحة في افتقارها الى
التروي والحكمة. وكان ميكويان العضو الوحيد من الحرس القديم (مالنكوف ،
مولوتوف ، كاغانوفيتش الخ...) الذي سلم من هجوم خروشوف . وبعد ان
قضى فترة مارس فيها الرئاسة الاسمية للاتحاد السوفياتي اختفى عن المسرح العلني
بعد مرور سنة على سقوط خروشوف . وقد تقاعد في المؤتمر الحزبي الثالث
والعشرين وهو يعيش الان بهدوء في موسكو .

فياشيسلاف م . مولوتوف

كان ابن أخت المؤلف الموسيقي الروسي الذي يحمل هذا الاسم ، وابن
معاون مدير أحد المخازن ، وأحد القلائل بين البلاشفة المتحدر من وسط بورجوازي .
ارتبط بستالين منذ الايام المبكرة الأولى . وعندما كان شاباً ناشئاً في
العشرين من عمره حافظ على وحدة الحزب في بطروغراد (لينينغراد فيما بعد)
والحزب بعد جنين هناك ، وذلك في اعسر الظروف اذ كان لينين وتروتسكي
وزينوفيف وآخرون في المنفى خارج البلاد ، كما كان ستالين وكامنيف
في سيبيريا . وصفه لينين «بافضل كاتب سجلات في روسيا» ، بينما كان تروتسكي
أبخل في تقديره له . عندما اسقطت ثورة شباط النظام القيصري كان في السابعة
والعشرين من عمره ، شديد التلعثم ، يضع نظارة على انفه وشديد الغرور بنفسه
وقد لازمته هذه الخصال طيلة عمره . وكان كذلك من كبار قادة البلاشفة في

بطروغراد .

وتكنى مولوتوف «بالمطرقة» كما تكنّى ستالين «بالفولاذ» والحقيقة ان ستالين عاد فاستخدم فعلاً مولوتوف مطرقة يحطم بها اعداءه ويضطرهم الى الخضوع لسلطانه . فقد قاد مولوتوف نيابة عن ستالين ، عملية تصفية المنشفيك ثم ذهب بصحبة فوروشيلوف الى لينتغراد في ١٩٢٦ لسحق المعارضة الموالية لزينوفيف.

تولى قبل كاغانوفيتش وخروشوف قيادة (مجلس مفوضي الشعب يومها) المنظمة الحزبية في موسكو . وفي ١٩٣١ رقي الى منصب رئيس مجلس الوزراء وكانت وزارة شكلية ، اذ خلف فيه ريكوف الذي اقيل بسبب «يمينيته». وفي ١٩٣٩ سلم رئاسة الوزراء الى ستالين واصبح وزير خارجيته ، خلفاً لمكسيم ليتفينوف الذي كانت قد فشلت سياسته في الأمن الجماعي ، فجرى التخلّي عنها تمهيداً للميثاق بين ستالين وهتلر . وكانت باكورة اعمال مولوتوف الرئيسية كوزير خارجية ميثاق صداقة وعدم اعتداء مع فون روبنتروب .

يقول خروشوف ، ان مولوتوف فقد ثقة ستالين به في سنواته الاخيرة. وكان الديكتاتور العجوز الكثير الشكوك قد أخذ يرتاب بأكثر اعوانه ولاء على انّه عميل للحكومة الاميركية .

وكان مولوتوف ستالينياً متأصلا . وقد حاز على سمعة عالميّة على انه الممثل الرئيسي لسياسة التشدد في الحقل الخارجي في الايام الاولى الكالحة من الحرب الباردة .

بعد موت ستالين عارض مولوتوف خروشوف في كل منعطف رئيسي : وقف ضد عملية التنديد بستالين ، وضد المصالحة مع تيتو ، وضد الرد المتزن على التمرد البولوني في ١٩٥٦ . وقد اعتبره خروشوف في ١٩٥٧ ، مع مالنكوف وكاغانوفيتش عدواً للشعب . ثم ارسله سفيراً الى أولان باتور ، المركز المجهول من مراكز الخدمة في السياسة الخارجية . فخلفه شبيلوف وزيراً للخارجية الذي لم يلبث ان أصبح هو الآخر أحد ضحايا انتقام خروشوف ضد الفئة المضادة للحزب ، فاستبدل شبيلوف بنائبه ، الوزير الحالي للخارجية السوفياتية ، اندريه غروميكو . وفي ١٩٦٠ عاد مولوتوف فبرز من مطاوي النسيان في مونغوليا الخارجية . وعين الممثل السوفياتي لدى الوكالة الدولية للطاقة الذرية ومركزها فيينا . الا ان اية فكرة لاعادة الاعتبار لمولوتوف استبعدت في المؤتمر الثاني والعشرين عندما اتهم بمشاركته ستالين في جرائمه ولاسيما وضع لوائح الموت ابّان التطهيرات. وقد شوهد مولوتوف مؤخراً في موسكو وهو يحضر مأتم زوجته زيمشوزينا في ١٩٧٠ .

كلمنت أ . فوروشيلوف

جنرال سياسي أكثر منه عسكرياً محترفاً . تميزت سيرته الطويلة بادعاءات فارغة للمجد ، ورافقه والحظ الباسم أمداً طويلا . بعد ان حطم حصار الجيش الابيض لتساريتسين (ستالينغراد فيما بعد) ابّان الحرب الاهلية وقمعه عصيان كرنستادت في ١٩٢١ ، ارتفع فوروشيلوف ، بسرعة ، الى مفوضية الشعب للدفاع واصبح مارشالاً للاتحاد السوفياتي ورجل ستالين العسكري الاول . وقد استمتع فوروشيلوف بالاضواء تسلط عليه فقضى معظم وقته ، كما يقول خروشوف ، بحضور الاوبرا وعرض اوسمته للمصورين . وطول الوقت الذي كان يعد هتلر للحرب ، كان فوروشيلوف يترك الجيش الأحمر ، وهو المسؤول عنه ، للخراب . من هنا كان ستالين على بعض الحق عندما حمّل فوروشيلوف مسؤولية مانزل بالاتحاد السوفياتي على ايدي الفنلنديين في حرب الشتاء في ١٩٣٩ — ١٩٤٠ . وقد عزل ستالين فوروشيلوف وابقاه حياً حتى يسخره لمآربه .

وبعد ان ارتفع الى هذا السمو ثم انحدر الى الحضيض ، احتفظ رغم انسحاقه ، لنفسه بمركز الصديق القديم الوقور لستالين واحد اعضاء حكومته الحربية . وكان ستالين ، على ما يبدو ، متردداً في معاقبته كما عاقب مرؤوسيه «لخيانتهم» . وقد استطاع فوروشيلوف ان يتجنب شكوك ستالين الرهيبة وعداوة خلفائه . ويخبرنا خروشوف كيف كان ستالين يردد في ايام خرفه الاخيرة قوله ان فوروشيلوف كان جاسوساً انكليزياً ، لكن ذلك لم يمنعه من السماح له بقضاء عطلته بالقرب منه في سوخي .

انتخب فوروشيلوف على اثر موت ستالين في ١٩٥٣ رئيساً لبريزيديوم السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي . وبقي رئيساً اسمياً للاتحاد السوفياتي حتى ١٩٦٠ عندما عزي تقاعده الى سوء صحته. ولكن بعد سنة ونصف السنة من تقاعده، ندد به فجأة في المؤتمر الثاني والعشرين بتهمة الاشتراك في نشاطات الفئة المضادة للحزب في اواسط الخمسينات . اعترف فوروشيلوف بخطاياه ، فطلب له خروشوف الرحمة . وحدثت المفاجأة ، اذ انتخب ثانية لبريزيديوم السوفيات الاعلى في نيسان ١٩٦٢ . ثم مات في سن التاسعة والثمانين ، في ١٩٧٠ .

جورجي ك . جوكوف

كان المارشال جوكوف ابرز قادة ستالين العسكريين في انتصار الاتحاد السوفياتي على المانيا . كما كان أهم حلفاء خروشوف في انتصاره الصعب على

الجماعة المضادة للحزب . بدأ حياته العسكرية ملازماً في فرقة الخيالة القوقاسية في الجيش القيصري ابّان الحرب العالمية الاولى . وقد انضم الى الجيش الأحمر في ١٩١٨ والى الحزب في السنة التالية .

في ١٩٣٦ كان جوكوف المراقب السوفياتي الرئيسي في الحرب الاسبانية الاهلية . ولم يصبه ما اصاب العديدين من اعضاء الحملة الاسبانية الذين صفّاهم ستالين في تطهيره لقيادة الجيش الأحمر .

بعد سنوات ثلاث قاد هجوماً مضاداً فذّاً ضد اليابانيين في مونغوليا الخارجية قرب نهر هالكين غول . وحتّى صيف ١٩٦٩ كانت الدعاوة السوفياتية تذكر العالم—والصين بصورة خاصة—بمعركة هالكين غول كدليل تاريخي على استعداد الاتحاد السوفياتي وقدرته على حماية حدوده في الشرق الاقصى .

ابّان الحرب العالمية الثانية قاد اولى الانتصارات السوفياتية الرئيسية في الدفاع عن موسكو ، واوقف المد الالماني في معركة ستالينغراد ، ورفع الحصار عن لينينغراد وقاد الزحف الروسي من صوفيا الى برلين. ان الشهرة الكبيرة التي اكتسبها جوكوف في الحرب وتزايد شعبيته استفزت ستالين الذي نقم عليه فأبعده الى عدد من القيادات الثانوية .

ويعود الى خروشوف الفضل في اخراج جوكوف من ظلام النسيان الذي القاه فيه ستالين ، فاصبح النائب الاول لوزير الدفاع في ١٩٥٣ ثم حل محلّ بولغانين بعد سنتين — وكانت هذه المرة الاولى التي يحلّ فيها في التاريخ السوفياتي ، جندي محترف محل مفوض او «جنرال سياسي» في الاشراف على القوات المسلحة . واستمر نجمه يصعد ، فأصبح عضواً كاملاً في البريزيديوم مكافأة له للمعونة التي اسداها لخروشوف للفوز بتأييد اللجنة المركزية ضد الجماعة المضادة للحزب في حزيران ١٩٥٧ . وبعد انقضاء اشهر اربعة ارسل جوكوف الى بلغراد في زيارة رسمية . فما ان عاد حتّى وجد انه قد اقيل من وزارة الدفاع وجرد من عضوية اللجنة المركزية والبريزيديوم ، واهين باتّهامه «بروح المغامرة» «والبونابرتية». وكان امكر الاتّهامات التي وجهها اليه خروشوف اعتباره شريكاً لستالين في الاهمال عند بداية الحرب. وتقاعد جوكوف وكتب مذكراته الحربية التي نشرت في الغرب. ويمكن اعتبار جوكوف ، مثالاً فريداً للقائد العسكري الذي تسلم سلطاناً سياسياً. فمن بعده لم يتح لخلفائه مالينوفسكي وغريشكو الوصول الى عضوية بريزيديوم الحزب او المكتب السياسي .

الملحق ٤

خطبة خروتشوف السرية في الموتمر العشرين

ايها الرفاق ، في تقرير اللجنة المركزية للحزب في اجتماعه العشرين ، وفي عدد من الخطب التي ألقاها المندوبون ، كما سبق في الجلسات العامة التي عقدها الحزبّ من قبل ، قيل الكثير عن عبادة الشخصية وما تجر اليه من عواقب وخيمة .

بعد وفاة ستالين ، أخذت اللجنة المركزية للحزب تنهج سياسة تحدد بوضوح وبصورة مستمرة أنه لا يجوز للماركسية—اللينينية ، وانه مخالف لمبادئها ، رفع شخصية ما وتحويلها الى سوبرمان يتحلّى بصفات ومناقب فائقة الطبيعة وشبيهة بمناقب الآلهة . إن شخصية من هذا النوع يفترض فيها ان تتحلى بالعلم الشامل ، والاطلاع على كل شيء ، والتفكير بالنيابة عن كل انسان ، وبالقدرة على كل شيء . هي شخصية معصومة من الزلل في كل تصرفاتها .

إن القول بوجود مثل هذه الشخصية ، خصوصاً في ستالين نفسه ، كثيراً ما سمعناه وتردد على مسامعنا في السنين الماضية .

والغرض من هذا التقرير ليس تقييم حياة ستالين ونشاطه اذ صدر عنه العديد من الكتب والنشرات والأبحاث وهو حيّ يرزق . فالدور الذي لعبه ستالين والذي مثله في اعداد الثورة الاشتراكية وتنفيذها ، وفي الحرب الأهلية وفي الجهاد الذي خاضه في سبيل توطيد الاشتراكية في بلادنا ، أمر لا يجهله أحد . كل منا يعرف هذا الامر حق المعرفة . أما ما يهمنا الآن ، فقضية ذات أهمية كبيرة للحزب اليوم وللمستقبل ، إذ من الأهمية بمكان أن نعرف كيف نشأت عبادة شخصية ستالين وتطورت مع الزمن ، هذه العبادة التي أصبحت في فترة معينة مصدراً لافساد الحزب في سلسلة متلاحقة الحلقات من التضليل والاغواء ذات نتائج خطيرة ، كما ألحقت الضرر بديمقراطية الحزب وبشرعية الثورة .

ولما كان معظم الناس لا يقدرون للآن النتائج العملية الناجمة عن عبادة الشخصية ولا الضرر الكبير الحاصل من تجاوز مبادئ التوجيه الجماعي الذي يقول به الحزب ، ناهيك عن حصر العديد من السلطات والصلاحيات التي لا حدّ لها في يد شخص واحد ، فقد ردت اللجنة المركزية للحزب انه من الضروري عرض هذه القضية بالذات على المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

إسمحوا لي ، بادئ الأمر ، أن اذكركم كيف أن روّاد الماركسية اللينينية شجبوا بشدة كل مظاهر عبادة الشخصية . ففي رسالة الى الزعيم العمالي الالماني ، وليم بلوس ، قال ماركس : «من كراهيتي لأية عبادة للشخصية استنكفت دوماً عن أن أنشر على الملأ ، مدة قيام الاممية الأولى ، الرسائل العديدة التي تلقيتها من بلدان كثيرة والتي تعترف عالياً بالخدمات التي أديتها للحزب والتي كانت تسبب لي انزعاجاً حتى أني لم أرد على واحدة منها إلا عندما أردت أحياناً أن اوبخ مرسليها . فقد انضممت ، انا وأنْجلز ، الى الحزب الشيوعي السري ، شريطة أن نطرح جانباً من قانون الجمعية كل ما من شأنه أن يمهد لأسطورة عبادة الشخصية . وقد تصرف لاسال ، فيما بعد ، نقيض ذلك .» .

وقد كتب أنْجلز فيما بعد : «وقفْتُ أنا وماركس ، معارضين كل مظهر من مظاهر عبادة الشخصية ، الا في الحالات التي ترمي الى هدف مهم ، وعارضنا بشدة كل المحاولات التي استهدفتنا في حياتنا .» .

جميعاً تعرفون مقدار التواضع الذي تحلّى به نابغة الثورة الكبير فلاديمير لينين الذي شدّد دوماً وابرز عالياً الدور الذي يلعبه الشعب في خلق التاريخ ، كما سجل الدور الموجّه والمنظم الذي لعبه الحزب ولجنته المركزية .

فالماركسية لا تتجاهل قط دور القادة في الطبقة العماليّة ، الذين يوجّهون الحركة الثورية التحررية . ففي الوقت الذي يشيد فيه لينين عالياً بدور القادة وتوجيههم للجماهير ، يشجب بشدة كل مظاهر عبادة الشخصية ويهاجم ، بلا هوادة ، النظريات المضادة للماركسية التي تفرض وجود «بطل» و «جماهير». كما عارض كل محاولة لاقامة «بطل» في وجه الجماهير والشعب .

ويعلم لينين بان قوة الحزب وبأسه تقومان قبل كل شيء في وحدته مع الجماهير غير المنفصمة ، وعلى حقيقة ان الشعب بعماله وفلاحيه والانتلجنسيا يتبع الحزب . «وحده يفوز ويحتفظ بالسلطان» على حد تعبير لينين «من يؤمن بالشعب ويغوص في ينبوعه الدفّاق الخلاّق» .

ويتحدث لينين عن الحزب الشيوعي البلشفي بوصفه قائداً ومعلماً للشعب ، وهو يطلب ان تعرض أهم القضايا على العمال المستنيرين ، لأخذ رأيهم ، رأي

حزبهم ، اذ يقول : «نحن نؤمن به ونرى فيه حكمة هذا العصر وشرفه ووجدانه » .

وقف لينين بحزم في وجه كل محاولة رَمَتْ للأنتقاص من ، أو لإضعاف ، قيادة الحزب في تشييد وبناء الاتحاد السوفياتي . فقد وضع المبادئ البلشفية لقيادة الحزب والمناهج التي يجب أن يسير عليها ، مشدداً على القول بأن المبدأ الاساسي لقيادة الحزب يقوم على المشاركة . ففي السنين السابقة للثورة رأى لينين أن اللجنة المركزية للحزب هي مجموعة من القادة يتولون الحفاظ على مبادئ الحزب وشرحها وقد اشار الى ذلك بقوله : «ففي الفترات الواقعة بين مؤتمرات الحزب ، تتولى اللجنة المركزية صيانة مبادئ الحزب وتفسيرها .» .

ويشدد لينين على دور اللجنة المركزية في الحزب والسلطة التي تنعم بها فيزيد قائلا : «ان لجنتنا المركزية جعلت من نفسها هيئة مركزية وصاحبة السلطة العليا ...»

وكانت اللجنة المركزية للحزب في حياة لينين عبارة عن قيادة جماعية للحزب وللأمة أجمع . ولما كان لينين ثورياً ماركسياً مجاهداً لا يرضى بمسّ مبادئ الثورة ، لم نره يفرض بالقوة وجهة نظره على العاملين معه ، بل حاول دوماً إقناعهم بالحجة ، اذ كان يعرض آراءه على الآخرين ويشرحها لهم . فقد حرص لينين باستمرار على تحقيق مبادئ الحزب وعلى الوقوف بجانب تطبيق الدستور ، كما همه كثيراً أن تجتمع مؤتمرات الحزب والجمعيات العامة للجنة المركزية في اوقاتها المعينة .

فبالاضافة الى الانجازات التي حققها لينين والتي أمنت فوز الطبقة الكادحة والطبقة العمالية ، والى تأمين النصر النهائي للحزب وتطبيق الافكار العلمية التي نادت بها الشيوعية ، فقد رأى ، اذ ذاك في نظرته الثاقبة تلك الصفات السلبية التي تميز بها ستالين والتي أدت فيما بعد الى نتائج وخيمة . واذ خشي على مصير الحزب ومستقبل الاتحاد السوفياتي ، فقد أعطى صورة واضحة عن خصال ستالين وطرح على بساط البحث ضرورة النظر في أمر نقله من سكرتيرية الحزب العامة لما هو عليه من فظاظة الطباع والمسلك ، ولعدم انسجامه مع باقي الرفاق ولانه متقلب ويسيء استعمال السلطة .

ففي كانون الاول ١٩٢٢ جاء في رسالة للينين الى مؤتمر الحزب ما يلي :
«بعد أن تولى الرفيق ستالين السكرتيرية العامة جمع بين يديه سلطات لا تحد ، وأنا لست متأكداً بأن في استطاعته دوماً أن يستعمل هذه السلطة كما يجب» .

وهذه الرسالة ، التي تكوّن وثيقة سياسية ذات أهمية قصوى والتي تعرف في تاريخ الحزب «بوصية لينين» ، وزعت على المندوبين في المؤتمر العشرين للحزب .

ولما كان معظم الناس لا يقدرون للآن النتائج العملية الناجمة عن عبادة الشخصية ولا الضرر الكبير الحاصل من تجاوز مبادئ التوجيه الجماعي الذي يقول به الحزب ، ناهيك عن حصر العديد من السلطات والصلاحيات التي لا حدّ لها في يد شخص واحد ، فقد ردت اللجنة المركزية للحزب انه من الضروري عرض هذه القضية بالذات على المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

إسمحوا لي ، بادئ الأمر ، أن اذكركم كيف أن روّاد الماركسية اللينينية شجبوا بشدة كل مظاهر عبادة الشخصية . ففي رسالة الى الزعيم العمالي الالماني ، وليم بلوس ، قال ماركس : «من كراهيتي لأية عبادة للشخصية استنكفت دوماً عن أن أنشر على الملأ ، مدة قيام الاممية الأولى ، الرسائل العديدة التي تلقيتها من بلدان كثيرة والتي تعترف عالياً بالخدمات التي أديتها للحزب والتي كانت تسبب لي انزعاجاً حتى أني لم أرد على واحدة منها إلا عندما أردت أحياناً أن اوبخ مرسليها . فقد انضممت ، انا وأنْجلز ، الى الحزب الشيوعي السري ، شريطة أن نطرح جانباً من قانون الجمعية كل ما من شأنه أن يمهد لأسطورة عبادة الشخصية . وقد تصرف لاسال ، فيما بعد ، نقيض ذلك . » .

وقد كتب أنْجلز فيما بعد : «وقفْتُ أنا وماركس ، معارضين كل مظهر من مظاهر عبادة الشخصية ، الا في الحالات التي ترمي الى هدف مهم ، وعارضنا بشدة كل المحاولات التي استهدفتنا في حياتنا . »

جميعاً تعرفون مقدار التواضع الذي تحلّى به نابغة الثورة الكبير فلاديمير لينين الذي شدّد دوماً وابرز عالياً الدور الذي يلعبه الشعب في خلق التاريخ ، كما سجل الدور الموجّه والمنظم الذي لعبه الحزب ولجنته المركزية .

فالماركسية لا تتجاهل قط دور القادة في الطبقة العماليّة ، الذين يوجّهون الحركة الثورية التحررية . ففي الوقت الذي يشيد فيه لينين عالياً بدور القادة وتوجيههم للجماهير ، يشجب بشدة كل مظاهر عبادة الشخصية ويهاجم ، بلا هوادة ، النظريات المضادة للماركسية التي تفرض وجود «بطل» و «جماهير». كما عارض كل محاولة لاقامة «بطل» في وجه الجماهير والشعب .

ويعلم لينين بان قوة الحزب وبأسه تقومان قبل كل شيء في وحدته مع الجماهير غير المنفصمة ، وعلى حقيقة ان الشعب بعماله وفلاحيه والانتلجنسيا يتبع الحزب . «وحده يفوز ويحتفظ بالسلطان» على حد تعبير لينين «من يؤمن بالشعب ويغوص في ينبوعه الدفّاق الخلاّق» .

ويتحدث لينين عن الحزب الشيوعي البلشفي بوصفه قائداً ومعلماً للشعب ، وهو يطلب ان تعرض أهم القضايا على العمال المستنيرين ، لأخذ رأيهم ، رأي

حزبهم ، اذ يقول : «نحن نؤمن به ونرى فيه حكمة هذا العصر وشرفه ووجدانه » .

وقف لينين بحزم في وجه كل محاولة رَمَتْ للأنتقاص من ، أو لإضعاف ، قيادة الحزب في تشييد وبناء الاتحاد السوفياتي . فقد وضع المبادئ البلشفية لقيادة الحزب والمناهج التي يجب أن يسير عليها ، مشدداً على القول بأن المبدأ الاساسي لقيادة الحزب يقوم على المشاركة . ففي السنين السابقة للثورة رأى لينين أن اللجنة المركزية للحزب هي مجموعة من القادة يتولون الحفاظ على مبادئ الحزب وشرحها وقد اشار الى ذلك بقوله : «ففي الفترات الواقعة بين مؤتمرات الحزب ، تتولى اللجنة المركزية صيانة مبادئ الحزب وتفسيرها .»

ويشدد لينين على دور اللجنة المركزية في الحزب والسلطة التي تنعم بها فيزيد قائلا : «ان لجنتنا المركزية جعلت من نفسها هيئة مركزية وصاحبة السلطة العليا ...»

وكانت اللجنة المركزية للحزب في حياة لينين عبارة عن قيادة جماعية للحزب وللأمة أجمع . ولما كان لينين ثورياً ماركسياً مجاهداً لا يرضى بمسّ مبادئ الثورة ، لم نره يفرض بالقوة وجهة نظره على العاملين معه ، بل حاول دوماً إقناعهم بالحجة ، اذ كان يعرض آراءه على الآخرين ويشرحها لهم . فقد حرص لينين باستمرار على تحقيق مبادئ الحزب وعلى الوقوف بجانب تطبيق الدستور ، كما همه كثيراً أن تجتمع مؤتمرات الحزب والجمعيات العامة للجنة المركزية في اوقاتها المعينة .

فبالاضافة الى الانجازات التي حققها لينين والتي أمنت فوز الطبقة الكادحة والطبقة العمالية ، والى تأمين النصر النهائي للحزب وتطبيق الافكار العلمية التي نادت بها الشيوعية ، فقد رأى ، اذ ذاك في نظرته الثاقبة تلك الصفات السلبية التي تميز بها ستالين والتي أدت فيما بعد الى نتائج وخيمة . واذ خشي على مصير الحزب ومستقبل الاتحاد السوفياتي ، فقد أعطى صورة واضحة عن خصال ستالين وطرح على بساط البحث ضرورة النظر في أمر نقله من سكرتيرية الحزب العامة لما هو عليه من فظاظة الطباع والمسلك ، ولعدم انسجامه مع باقي الرفاق ولانه متقلب ويسيء استعمال السلطة .

ففي كانون الاول ١٩٢٢ جاء في رسالة للينين الى مؤتمر الحزب ما يلي :

«بعد أن تولى الرفيق ستالين السكرتيرية العامة جمع بين يديه سلطات لا تحد ، وأنا لست متأكداً بأن في استطاعته دوماً أن يستعمل هذه السلطة كما يجب» .

وهذه الرسالة ، التي تكوّن وثيقة سياسية ذات أهمية قصوى والتي تعرف في تاريخ الحزب «بوصية لينين» ، وزعت على المندوبين في المؤتمر العشرين للحزب .

فقد قرأتموها ، وستقرأونها من جديد أكثر من مرة . وستعلقون على ما في هذه الكلمات من صراحة والتي تعبر جلياً عن إهتمام لينين بمصير الحزب والشعب والدولة وعن سياسة الحزب وقيادته في المستقبل .

وعلق لينين قائلاً : «ان ستالين في منتهى الصلف . وان مثل هذه النقيصة التي يمكن غض النظر عنها بيننا كشيوعيين تصبح امراً لا يطاق في شخص يتولى مركزاً رفيعاً كالسكرتيرية العامة للحزب . ولذلك أقترح على الرفاق أن ينظروا في الوسائل التي تؤول الى ازاحة ستالين من هذا المركز ، وان ينتخبوا بدلاً منه من الرفاق شخصاً يتمتع على الأخص بتسامحٍ أكبر وبولاء أعظم وبكياسةٍ أبرز وبموقف متزن ، ويكون أقل تقلباً منه» .

وهذه الوثيقة عرف بها المندوبون لمؤتمر الحزب الثالث عشر الذين بحثوا قضية نقل ستالين من السكرتيرية العامة للحزب . الا ان المندوبين فضلوا يومئذ بقاء ستالين في هذا المركز ، آملين أن يأخذ بعين الإعتبار ملاحظات لينين وأن يصلح العيب الذي أثار هواجسه .

ايها الرفاق ، على مؤتمر الحزب أن يطّلع على وثيقتين جديدتين تفضحان خصال ستالين كما أوضحها لينين في وصيته ، وهما رسالة وجهتها كروبسكايا (ارملة لينين) الى كامينيف رئيس المكتب السياسي اذ ذاك ، ورسالة شخصية مرسلة من لينين الى ستالين .

وإليكم نص الوثيقتين بالحرف الواحد :

«حضرة الرئيس :

« في أثر رسالة بعثت بها الى ستالين أملاها عليّ فلاديمير لينين باذن من الاطباء ، إنفجر ستالين بصورة غريبة في وجهي . لم أكن جديدة في الحزب . ففي الثلاثين سنة التي قضيتها في عضوية الحزب لم يأخذني أحدٌ من الرفاق بمثل هذه الخشونة الفظة . ان امور الحزب ولينين عزيزة على قلبي كما هي على قلب ستالين . فانا بحاجة الآن الى السيطرة على النفس . أنا اعرف اكثر من اي طبيب ، الأمور التي يمكن او لا يمكن بحثها مع لينين ، اذ انني ادرى الناس بما يثيره . ومهما يكن فانا أعرف به من ستالين . إني أتجه اليك والى غريغوري بصفتكما من اقرب المقربين الى لينين ، راجياً اليكما حمايتي من التدخل الفظ بشؤوني الخاصة ومن الشتائم الخسيسة والتهديد . لا اشك قط في ما سيكون عليه قرار لجنة المراقبة الاجماعي الذي يهددني به ستالين ومع ذلك فليس في استطاعتي وليس لدي الوقت كي أهدره في مثل هذه المشاحنات التافهة . فانا انسان مرهف

الاحساس واعصابي متوترة الى الحد الاقصى» .

كروبسكايا

وجهت نادزدا كروبسكايا هذه الرسالة في ٢٣ كانون الاول ١٩٢٢ . وبعد ذلك بشهرين ونصف الشهروجه لينين الى ستالين رسالة مؤرخة في ٥ اذار ١٩٢٣ وبعث بنسخة منها الى كل من كامينيف وزينوفيف ، وهذا نصها :

«عزيزي الرفيق ستالين ،

«سوّلت لك نفسك التوجه على التلفون الى زوجتي بتأنيب وقح . ورغم أنّها كانت قد أعلمتك بموافقتها على تناسي الأمر ، فان زينوفيف وكامينيف علما به منها . وانا ليس بنيّتي تناسي ذلك بسهولة ، لأنّني اعتبر ما يوجّه الى زوجتي موجّهاً اليّ بالذات . ولذا فاني اطلب اليك ان تفكّر ملياً اذا كنت على استعداد لسحب كلامك والاعتذار عما بدر منك ، او انك تفضل قطع العلاقات بيننا . »

المخلص لينين

ايها الرفاق ، لن أعلّق على هاتين الوثيقتين ، فهما يفصحان عن نفسيهما . فاذا كان يمكن لستالين أن يتصرف على هذا النحو بوجود لينين ويستعمل التصرف نفسه مع نادزدا كونستنتنوفنا كروبسكايا ، التي يعرفها الحزب حق المعرفة ويقدرها حق قدرها ، كصديقة موالية للينين ومناضلة نشيطة في حركة الحزب منذ نشأته ، يمكننا أن نتصور ، اذ ذاك ، بسهولة كيف أن ستالين كان يعامل سائر الناس . إن هذه الخصال السلبية الخاصة به تطورت باستمرار واكتسبت في السنوات الأخيرة طابعاً لا يطاق ابداً .

وكما اثبتت الوقائع الأخيرة فان قلّق لينين كان له ما يبرره . ففي الفترة التي عقبت وفاة لينين حرص ستالين من جهته على أن يهتم بنصيحته إلاّ أنه أخذ في نهاية الأمر لا يعير تأنيب فلاديمير له أي إهتمام . وعندما نعمم النظر في تصرفات ستالين تجاه قيادة الحزب وتجاه الوطن ، وعندما نملّي النظر في كل مآتي ستالين وأفعاله نرى أن خوف لينين كان في محله . إن صفات ستالين السلبية التي لم تكن في عهد لينين إلا في بدء ظهورها، تحولت في السنوات الأخيرة الى سوء استعمال ضخم للسلطة جر على الحزب ويلات لا يمكن وصفها .

علينا أن ننظر باهتمام وأن نحلّل بدقة هذا الأمر ، بحيث نتمكن من تجنب إحتمال تكرار ما وقع في عهد ستالين الذي لم يقبل قط بالتعاون الجماعي في القيادة ، من استعمال العنف الشديد ليس ضد خصومه فحسب ، بل أيضاً ضد

كل ما تراءى للرجل انه يخالف افكاره ونظرياته .

لم يستعن ستالين يوماً بالإقناع والشرح والتعاون الدائب مع الآخرين ، بل فرض نظرياته وطلب التسليم التام بآرائه . فكل من سوّلت له نفسه معارضته أو حاول إثبات صحة نظره وصواب موقفه المعين ، كان هدفاً للنقل من الهيئة الجماعية ، ثم لتأديبات معنويّة وجسدية . كل هذه الحوادث وقعت في الفترة التي عقبت المؤتمر السابع عشر للحزب ، عندما ذهب ضحية لطغيان ستالين واستبداده فريق من قادة الحزب ومن صغار العاملين فيه ، المعروفين بنزاهتهم وبولائهم التام للشيوعية .

يتوجب علينا أن نؤكد هنا أن الحزب أبلى البلاء الحسن وحارب دون ما هوادة أنصار تروتسكي وأحزاب اليمين والقوميين البورجوازيين ، وبذلك تم له القضاء على خصوم اللينينية ومناهضيها . وهذه الحرب الفكرية تمت بنجاح وكان من بعض نتائجها أن اشتدّ ساعد الحزب . فقد لعب ستالين هنا دوراً ايجابياً .

وقام الحزب بحرب فكرية سياسية ضد بعض أعضائه الذين جاؤوا بآراء مناهضة للينينية والذين اقترحوا نهجاً سياسياً معادياً للحزب ولقضية الاشتراكية وكان هذا النضال مريراً قاسياً ولكنه نضال لا بدّ منه ، إذ ان النهج السياسي الذي سارت عليه كتلة أنصار تروتسكي وزينوفيف والبوخارينيّون ، كان سيؤدي الى اعادة الرأسمالية والى الخضوع للعالم البورجوازي . لنقف برهة وننظر ما عسى أن يكون حدث لو أن التحول الى اليمين تحقق بعد ١٩٢٨ — ١٩٢٩ . فهل كنا ننعم اليوم بما ننعم به من صناعة ثقيلة قوية ، قبل انشاء المزارع الجماعية ، بل ربما وجدنا أنفسنا لا حول لنا ولا طول وسط التطويق الرأسمالي .

ولهذه الأسباب مجتمعة قام الحزب بنضال فكري لا هوادة فيه وأخذ يشرح لأعضاء الحزب وللجماهير خارج الحزب ، الضرر والخطر الكامن في الاقتراحات المعادية للينينية والتي قالت بها المعارضة التروتسكية والانتهازيون من أحزاب اليمين . وقد أتت هذه السياسة نتائجها المرجوة ، فتم عزل أنصار تروتسكي والإنتهازيين من أحزاب اليمين عزلاً سياسياً . وقد دعمت الاكثرية الساحقة من اعضاء الحزب النهج اللينيني وبذلك إستطاع الحزب أن يوقظ الوعي القومي بين الطبقات الكادحة وينظمها ويشيد صرح الاشتراكية .

وجدير بنا أن نشير هنا إلى انه خلال تطور النضال الفكري ضد أنصار تروتسكي وزينوفيف وبوخارين وغيرهم ، لم يبدُ من الضروري قط اتخاذ تدابير صارمة ضد هذه الفئات . فالحرب كانت حرباً عقائدية . إلا انه بعد

بضع سنوات ، عندما استقر النظام الاشتراكي في البلاد وتوطد ، وعندما تم نهائياً تصفية طبقة المستغلين للشعب ، وعندما تطور البناء الاجتماعي السوفياتي تطوراً جذرياً ، وعندما ضاق المجال السياسي أمام الحركات السياسية والهيئات المعادية للحزب ، وعندما تمت هزيمة مناهضي عقيدة الحزب سياسياً ، إبتدأت آنذاك حركة القمع الموجهة ضدهم .

ففي الفترة الواقعة بين **١٩٣٥ — ١٩٣٧ — ١٩٣٩** وقعت حركة التصفية الجماعية على ايدي أجهزة الدولة ، فتناولت بالتتابع خصوم اللينينية التروتسكيين والزينوفيفيين والبوخارنيين الذين تمت هزيمتهم على يد الحزب منذ عهد بعيد . وأصابت بالتالي العديد من الشيوعيين الشرفاء وأصاب رذاذها ملاكات الحزب التي تحملت طويلاً عبء الحرب الأهلية ونهضت بالبلاد خلال سنوات قاسية بسياسة التصنيع ونشر التشريك الجماعي .

طلع ستالين علينا بنظرية «عدو الشعب» . وهذه العبارة جعلت بصورة آلية من غير الضروري قط الإتيان بالدليل على النشوز العقائدي لرجل أو فريق من الرجال يتناقشون أو يتحاورون . وقد أمكن اتخاذ هذا الاصطلاح ذريعة لاستعمال أشد وسائل القمع شدة ضد كل من يختلف بالرأي مع ستالين ، وضد كل من يرتاب في نواياهم المعادية ، وضد الذين لا يتمتعون بسمعة طيبة . ونظرية «عدو الشعب» قضت قضاء تاماً على إمكانية قيام اي نضال عقائدي ، ومنعت أياً كان من الاعراب عن وجهة نظره المعينة في هذا الموضوع او ذاك ، حتى ولو كان لها طابع عملي . في الأساس ، وفي الشكل ، كان الدليل الوحيد لإدانة المجرم هو اعتراف المتهم نفسه ، تحت التعذيب وغير ذلك من وسائل الاكراه .

وقد ادى هذا كله الى مخالفات صارخة للشرعية الثورية وذهب بجريرته عدد كبير من الابرياء ، من اعضاء الحزب الذين جاهدوا في سبيله من قبل وأبلوا البلاء الحسن .

ولا بد ان نعترف عالياً هنا ان بين الذين جرت تصفيتهم نهائياً ممن عارضوا الحزب او وقفوا في وجهه لم تقم دلائل قوية تثبت إدانتهم . فالشعار «عدو الشعب» انما اتخذ لتصفيتهم .

من الثابت بالفعل ان عدداً كبيراً من هؤلاء الذين جرى تطهيرهم باعتبارهم اعداءً للحزب وللشعب ، تعاونوا مع لينين وعملوا بمعيته وهو حي يرزق .

ولا مراء في ان بعضهم إشتط وضل السبيل في عهد لينين ، ومع ذلك وبالرغم من ذلك ، فقد عرف لينين ان يفيد من معاونتهم له . وقد تمكن من إصلاحهم والقيام بالمستحيل للاحتفاظ بهم في صفوف الحزب وحملهم على السير معه .

واستطراداً في الموضوع ، على اعضاء الحزب ان يطلعوا على مذكرة وجهها لينين الى اللجنة المركزية للمكتب السياسي في تشرين الاول ١٩٢٠ ، لم تُنشر للان ، يشدد فيها على واجبات لجنة المراقبة ، ويقترح بان تتحول اللجنة لتصبح جهازاً فعّالاً يمثل «وجدان الحزب والبروليتاريا .»

فمن واجبات لجنة المراقبة ، في نظره ، ان تنمي علاقات فردية عميقة مع ممثلي ما يعرف بالمعارضة وان تحاول إصلاحهم . يجب بذل كل ما يمكن لتهدئة خواطرهم ولتقريب الامور الى عقولهم كما يليق بين الرفاق واسناد عمل لهم يتفق ومؤهلاتهم دون اخذهم بالشدة . فعلى اللجنة التنظيمية في المكتب السياسي ان تتخذ التدابير وتضع القوانين الخاصة بهذا الشأن .

كل منا يعرف معرفة اليقين تشدد لينين مع اعداء الماركسية العقائديين الذين ذهبوا بعيداً وخرجوا عن طاعة الحزب وخطه السوي . ومع ذلك يوصي لينين كما يظهر بوضوح من نص هذه الوثيقة ، باعتباره قائداً للحزب وموجهاً له ، باوثق العلاقات مع هذا الفريق من الاعضاء الذين عرفوا بترددهم وبعدم امتثالهم لنهج الحزب ، على امل إعادتهم الى حظيرة الحزب . ويوصي لينين بوجوب تدريب هذا الفريق وتهذيبه بصبر وأناة باستخدام طرق عملية .

وتبدو حكمة لينين في سلوكه مع الناس على أتم وجه من خلال معاملته وتصرفه مع ملاكات الحزب .

اما ستالين فقد اختلفت تماماً معاملته للاخرين عن طريقة لينين التي تميزت بالعمل الدؤوب مع الناس وتهذيبهم مهما كلفه من جهد وعناء ، وبقدرته على حمل الناس للسير معه دونما اكراه او استعمال الشدة معهم ، بل عن طريق الاقناع العقائدي والتأثير الجماعي . وكلها امور غريبة عن ستالين . وقد أعرض ستالين عن نهجية لينين وضرب بها عرض الحائط ، ولم يبال قط بما اوصى به لينين وعلّم ، مؤثراً عليها العنف والقسر الاداري ، وعمليات التطهير بالجملةوزرع الهلع في القلوب . فقد اختط لنفسه نهجاً اوسع واتخذ تدابير زجرية غاية في القسوة والصرامة ومستعيناً ببعض الاجهزة التأديبية ، مخالفاً ، في اكثر الاحيان ابسط المبادئ الخلقية والشرائع السوفياتية .

وهذا التعسف من قبل شخص مسؤول كان له نتائج وخيمة ، اذ حمل البعض على احتذاء حذوه والنسج على منواله . فتكاثرت حوادث التوقيف والنفي والإبعاد وذهب ضحية لها الوف من الناس . وقد تمت تصفيتهم دون اي محاكمة او دون اي تحقيق عدلي بشأنهم ، مما اقلق الخواطر ، وزرع الخوف واليأس في النفوس .

ولم يساعد هذا التصرف بالطبع على رص صفوف الحزب وتأمين الوحدة والوئام بين الطبقات العاملة ، بل أدى الى تصفية عدد كبير من اعضاء الحزب او طردهم من عضويته بالرغم من ولائهم له .

ان حزبنا ناضل نضالاً مريراً لتحقيق البرنامج الذي وضعه لينين لبناء الاشتراكية. وقاد في هذا السبيل حرباً عقائدية طويلة . فلو روعيت خلال هذا النضال المباديء التي قال بها لينين وعلّم ، ولو عرفوا ان يوفقوا بدقة بين ولاء الحزب لهذه المبادئ وبين الاهتمام الصادق بامور الشعب وشؤونه، لما كنا شهدنا ما شهدنا من خروج وحشي على القوانين الثورية . ولا كان الوف الناس ذهبوا فريسة ابشع اساليب الارهاب . ولكانت وسائل الشدة والعنف اقتصرت على بعض افراد اقترفوا اعمالاً عدائية ضد النظام السوفياتي .

واسمحوا لي ان نذكر هنا بعض الوقائع التاريخية .

ففي الايام القليلة التي سبقت ثورة تشرين الاول ، اعلن عضوان من اعضاء اللجنة المركزية للحزب البلشفيكي ، هما كامينيف وزينوفيف معارضتهما لخطة لينين في الثورة المسلحة . ومما هو أدهى من ذلك وأحزّ في النفس ، انهما نشرا بتاريخ ١٨ تشرين الاول ، في الصحيفة «نوفايا سزن» لسان حزب المنشفيك بياناً يتّهم الحزب البلشفي باعداد انقلاب مسلح واعربا عن مخاوفهما بهذا الشأن . فقد أفشى كامينيف وزينوفيف السر واطلعا العدو على تدابير اللجنة المركزية والخطة الموضوعة للانقلاب الثوري الذي كانت ستنفذه بعد وقت قصير .

فقد كان الامر خيانة للحزب وللثورة معاً . وكتب لينين : «انّ كامينيف وزينوفيف قد فضحا خطة اللجنة المركزية لرودزنكو وكيرنسكي» واقترح على اللجنة المركزية طرد الرجلين من عضوية الحزب .

ومع ذلك ، وبعد ان استتب الامر لثورة اكتوبر الاشتراكية ، أسندت الى كل من زينوفيف وكامينيف كما هو معروف لدى الجميع ، مراكز قيادية في الحزب . فقد عهد اليهما لينين بوظائف حساسة تحملا فيها اكبر مسؤوليات الحزب،وساهما على نطاق واسع باعمال الحزب القيادية وباجهزة السوفييت العليا . وليس من يجهل قط ان زينوفيف وكامينيف اقترفا عدداً من الاخطاء في حياة لينين وقيادته للحزب . واشار لينين في «وصيته» الى ان ما فعله زينوفيف وكامينيف في تشرين لم يكن مجرد حادث عارض . الا انه لم يقترح قط القاء القبض عليهما ورميهما بالرصاص .

ولنأخذ الآن قضية تروتسكي وانصاره . باستطاعتنا اليوم ، بعد ان مر على هذه القضية وقت طويل من الزمن ، ان نتكلم عنها بحرية وطمأنينة تامة ، كما

انه في مقدورنا ان نحلل الوقائع بروح واقعية . فقد التفّ حول تروتسكي فريق من الطبقة المثقفة كما جاء البعض الاخر من صفوف العمال . وبمقدورنا ان نسمي الان بعض الاشخاص الذين التفوا حول تروتسكي باسمائهم . وساهم هؤلاء الاشخاص بالذات ، مساهمة فعّالة ، بالحركة العمّالية قبل اندلاع الثورة ، وخلال ثورة تشرين الاشتراكية نفسها،وفي ما بعد في ترسيخ دعائم هذه الثورة التي تُعد اهم الثورات واخطرها . وقد قطع ، فيما بعد ، عدد منهم كل علاقة لهم بالحزب التروتسكي وأيدوا موقف لينين وحزبه . فهل كان من الواجب القضاء على هذه الجماعة وتصفيتها . ونحب ان نعتقد انه لو قيّض للينين البقاء على قيد الحياة ، لما كان الكثيرون بينهم تعرضوا لمثل ما تعرضوا له من بؤس ومهانة .

هذه امثلة تاريخية قليلة رأينا ان نستشهد بها ونعرض لها . ولكن الا يمكن التأكيد ان لينين لا يتورّع قط عن اتخاذ اقسى الاجراءات واشدها ضد اعداء الثورة عندما يرى ذلك امراً لا بد منه ولا ندحة عنه ؟ لا . ليس من يجرؤ على قول ذلك او الظن به ، فقد لجأ لينين الى تدابير واجراءات لا هوادة فيها ولا رحمة، ضد اعداء الثورة وطبقة الكادحين عندما بدا له ذلك ضرورياً واتخذ ضدهم أقسى الاجراءات . ويمكنكم ان تعودوا بالذاكرة الى كفاحه مع قادة الثورة الاشتراكية ضد القائمين بالانقلاب المناهض للثورة السوفياتية ، وضد الكولاك عام ١٩١٨ وغيرهم ممن تصدّوا للثورة ووقفوا في وجهها ، وكيف انه لم يتردد لحظة في اتخاذ اقسى الاجراءات ضد اعداء الثورة فقط ، وليس ضد الذين يضعفون فيخطئون او يشتطون ويستطيعون الرجوع عن غيّهم اذا ما عرفت يد رفيقه كيف تعيدهم الى صدق العقيدة وتعطيهم دوراً قيادياً .

لجأ لينين الى وسائل الشدة في الحالات القصوى ، عندما كانت الطبقات المستغلة ماضية في غيها وتتصدى للثورة بعناد ، وعندما كان النضال في سبيل البقاء يقتضي التذرع باقسى الاجراءات واشدها حتى الحرب الاهلية .

غير ان ستالين استعمل ابشع الطرق واشدها قسوة بعد ان انتصرت الثورة ومكنتَ اصولها في الأرض ، وتمت للدولة السوفياتية القوة والسطوة ، وعندما تم منذ عهد بعيد القضاء على القوى الغاشمة الممتصة لدماء الشعب ، وتوطدت العلاقات الاشتراكية في كل نواحي الحياة الاقتصادية ، وعندما رسخت قواعد الحزب الشيوعي في البلاد واشتد ساعده ان من جهة العدد وان من جهة العقيدة الشيوعية . فقد كشف ستالين ، في سلسلة متصلة من الحوادث ، عما انطوت عليه نفسه من التعصب والقسوة وسوء استعمال السلطة . فبدلاً من ان يبرهن

عن سياسة رشيدة حكيمة في تحرك الجماهير ، فقد آثر الاعتماد على التطهير والتصفية مستعملاً هذا السلاح الرهيب ليس ضد اعداء النظام فحسب ، بل ايضاً ضد اناس لم يقترفوا اي ذنب ضد الحزب او ضد الحكومة . وعبثاً نحاول هنا البحث عن الحكمة وسداد الرأي في تصرفات ستالين هذه ، بل نشاهد على النقيض من هذا كله قوة ضارية اهتزت لها جوانح لينين يوماً واضطربت لها احشاؤه .

وعندما كشف النقاب ، بعد ذلك ، عن عصابة بيريا ، اخذت اللجنة المركزية تدقق في عدد من القضايا هي من نسيج خيال هذه العصابة ومستنبطاتها . وكشف التحقيق عن صورة بشعة من الامور المدبرة بتعمد كلي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسلك ستالين وتصرفاته الشاذة . وقد جاء الدليل تلو الدليل يثبت بان ستالين استعمل ما له من سلطة لا حد لها، ليسيء استعمال الوظيفة، متصرفاً باسم اللجنة المركزية دون الاخذ برأي الاعضاء ، حتى ولا برأي اعضاء المكتب السياسي للجنة المركزية ، حتى انه كثيراً ما كان لا يطلعهم على ما يتخذ من قرارات هامة لها علاقة بالحزب وبامور الحكم في البلاد .

ولما كنا في معرض التكلم عن عبادة الشخصية ، يترتب علينا ، قبل كل شيء إطلاع كل من يهمه الأمر ، على الضرر الذي لحق بالحزب ومصلحته .

فقد حرص فلاديمير لينين من جهته دوماً على التشديد على ما للحزب من دور ومن شأن في قيادة حكومة العمال والفلاحين الاشتراكية ، جاعلا من هذا الدور القيادي شرطاً اساسياً لتوطيد دعائم الاشتراكية في البلاد . وعندما يؤكد لينين المسؤولية الملقاة على الحزب البلشفيكي باعتباره الحزب الحاكم في الاتحاد السوفياتي يطالب بتحقيق مبادئ المشاركة الجماعية في توجيه الحزب والدولة .

فالمشاركة في القيادة تنبع من صميم طبيعة حزبنا ، هذا الحزب القائم على مبادئ المركزية الديمقراطية . ومعنى هذا ، في نظر لينين ، ان كل قرارات الحزب تتخذ من قبل كل اعضاء الحزب مباشرة او بواسطة ممثليه الذين يخضعون ، دونما استثناء ، للقواعد ذاتها ، بقطع النظر عن ان القائمين بالوظائف الادارية من اعضاء الحزب والهيئات الموجهة واصحاب المركز في الحزب ، كلهم منتخبون . ويجب بالتالي ان يؤدّوا حساباً عن اعمالهم ، كما انهم يخضعون للعزل .

ليس من يجهل بعد ان لينين نفسه كان خير مثال يُحتذى في تطبيقه لهذه المبادئ ، فما من قضية او امر هام بت فيه لينين قبل ان يستشير فيه معظم الاعضاء في اللجنة المركزية او اعضاء المكتب السياسي .

ففي أدقّ مراحل تاريخ الحزب والبلاد رأى لينين من الضرورة بمكان ان

يدعو المؤتمرات العامة ، واعضاء الحزب لعقد الاجتماعات العامة وكذلك اعضاء اللجنة المركزية ، بحيث يتداول الجميع الرأي في القضايا المعروضة على بساط البحث للخروج بقرارات مدروسة اشترك في اعدادها واتخاذها جميع قادة البلاد .

ويمكن ان نستشهد على هذا كله بالوضع الذي سيطر على البلاد عام ١٩١٨ ، عندما كان يتهددها خطر الدول الامبريالية . وقد دُعي مؤتمر الحزب السابع للبحث في اتخاذ موقف حاسم لايتحمل التأجيل والتسويف ، هو السلم .

وبينما كانت رياح الحرب الاهلية تهب بشدة على البلاد عام ١٩١٩ انعقد المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي ووضع برنامجاً جديداً للبلاد واتخذ قرارات هامة منها تنمية الاتصالات بالجماهير الشعبية وتشكيل الجيش الاحمر وتوضيح الدور القيادي للحزب في عمل مجالس السوفييت ، واجراء تعديلات في تنظيم الحزب الداخلي ، وغير ذلك من الاجراءات الهامة . وانعقد المؤتمر التاسع للحزب ، عام ١٩٢٠ وحدد المبادئ الأساسية التي على القيادة ان تعتمدها في عملية الانماء الاقتصادي .

وتبنى مؤتمر الحزب في انعقاده عام ١٩٢١ السياسة التي رسمها لينين للنهوض باقتصاديات البلاد والحل التاريخي المشهور «حول وحدة الحزب» .

وكانت مؤتمرات الحزب تعقد بصورة منتظمة ، في عهد لينين ، لا سيما عندما كان من الضروري اتخاذ قرار مبدئي يتعلق بتطوير الحزب ومصير البلاد .

ومن رأي لينين انه يتوجب على الحزب النظر ملياً في كل القضايا التي تعود لسياسة البلاد في الداخل وفي الخارج والمشكلات التي تنهض بتطور الحزب والبلاد .

ومن بين الامور التي امتاز بها لينين انه كان يوجه لمؤتمرات الحزب ، باعتباره السلطة العليا في البلاد ، والجهاز الاول المشرف على سياستها ، كل المواد والرسائل والملاحظات . وفي الفترات التي كانت تفصل بين مؤتمرات الحزب ، دأبت اللجنة المركزية باعتبارها الهيئة القيادية العليا المسؤولة ، على عقد اجتماعاتها محافظة منها على مبادئ الحزب والنهوض بالسياسة التي يتولى هو تحديدها .

على هذا النحو سار لينين طوال حياته .

فهل لقيت المبادئ التي وضعها لينين للحزب الرعاية والاحترام اللازمين بعد موته ؟

ففي السنوات الاخيرة التي تلت وفاة لينين ، كانت مؤتمرات الحزب العامة وجلسات اللجنة المركزية تتم بشكل يفتقر الى النظام . ثم اخذ ستالين بعد ان اساء استعمال سلطته يهمل هذه المبادئ ويطرحها جانباً دونما اكتراث . وقد تجلى هذا المسلك في سنواته الخمس عشرة الاخيرة . فهل يصح وصف الوضع بانه نظامي وسليم عندما تمر ١٣ سنة دون ان يدعى مؤتمر الحزب للانعقاد منذ

المؤتمرين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهي سنوات واجه خلالها الحزب والبلاد حوادث جسيمة ومشكلات هامة ؟ وهذه المشكلات والقضايا كانت تتطلب ، ولا شك ، ان يتخذ الحزب بشأنها قرارات وتوصيات تتصل في الصميم بشؤون الدفاع عن البلاد خلال الحرب الوطنية ، كما تتصل بتعمير البلاد بعد ان وضعت الحرب اوزارها . وبعد ان انتهت الحرب ، مرّ على البلاد سبع سنوات دون ان يعقد الحزب اي مؤتمر له .

وقلما دعيت اللجنة المركزية لعقد اجتماعات عامة . وحري بنا أن ننوه عالياً هنا ان هذه اللجنة لم تعقد اي اجتماع عام بكامل اعضائها ، طوال الحرب القومية . صحيح انه جرت محاولة في تشرين الاول ١٩٤١ ، لعقد جلسة للجنة المركزية في موسكو. ولكن كان على الاعضاء ان ينتظروا عبثاً يومين لعقد تلك الجلسة العامة . الا ان ستالين لم يكن قط راغباً في هذا الاجتماع او متحمساً له كما لم يكن على استعداد للتباحث وتبادل الرأي مع اعضاء اللجنة المركزية . فان دلّ هذا الحادث بعينه على شيء فعلى مبلغ ما اصيب به ستالين من انحطاط في الاشهر الاولى من الحرب . كما فيه الدليل على التعالي والازدراء الذي قابل به اعضاء اللجنة المركزية .

فقد تجاهل ستالين في النهج الذي اختطه لنفسه المبادئ التي نظمت حياة الحزب ونشاطه ، وداس باحتقار مبدأ قيادة الحزب الجماعية التي قال بها لينين وعلم.

وقد كشف ستالين عن صغر نفسه وسوء نيته وخبث مقاصده نحو الحزب واللجنة المركزية منذ انعقاد المؤتمر السابع عشر للحزب عام ١٩٣٤ .

وعندما توفرت للجنة المركزية الادلة القاطعة على ما يبيّت لها ستالين ولملاكاتها من سوء القصد عمدت الى تشكيل لجنة تعمل تحت اشراف رئاسة اللجنة المركزية ، وعهد اليها النظر في الاسباب والدوافع التي ادت الى عمليات التطهير بالجملة التي تعرض لها اعضاء اللجنة المركزية واولئك الذين جرى انتخابهم في المؤتمر السابع عشر من بين اعضاء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

وتوصلت اللجنة المذكورة لجمع قدر كبير من القضايا والحوادث ، وذلك بالرجوع الى وثائق الأمن السرية (N K V D) ، وغيرها من الوثائق الرسمية ، حول بعض الوقائع المتعلقة بافتعال الحوادث ضد الشيوعيين والاتهامات الباطلة ، وسوء استعمال فاضح للعدالة الاشتراكية ، مما ادى لاعدام وقتل عدد من الابرياء . وظهر بوضوح للملأ اجمع ان بعض اعضاء الحزب ومجالس السوفييت والناشطين في الحقل الاقتصادي ممن وصموا في عمليات التطهير التي وقعت عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ «باعداء البلاد» لم يكونوا قط اعداءً

للبلاد ولا عيوناً عليها ولا من المخربين فيها وغير ذلك من التهم التي لصقت بهم . بل على العكس كانوا شيوعيين شرفاء . فقد اتهموا ابناء للاعترافات التي انتزعوها منهم تحت الضغط والتعذيب اللذين تعرضوا لهما بامر من قضاة التحقيق ، كما تعرضوا لابشع الاتهامات واحقرها وهي اتهامات لا صحة لها على الاطلاق كما اتضح الان . ورفعت لجنة التحقيق هذه لرئاسة اللجنة المركزية تقريراً مسهباً مؤيداً بالوثائق والادلة التي لا تُدحض ، حول عمليات التطهير بالجملة التي تعرض لها المندوبون لمؤتمر الحزب السابع عشر وبعض اعضاء اللجنة المركزية الذين تم انتخابهم خلال انعقاد المؤتمر المذكور . وقد درست رئاسة اللجنة المركزية هذه التقارير والحوادث التي جاءت فيها بكل عناية ودقة .

واتضح الان ان من بين الـ ١٣٩ عضواً او مرشحاً من اعضاء الحزب الذين جرى انتخابهم في المؤتمر السابع عشر تم توقيف ٩٨ شخصاً واعدامهم اي ٧٠ ٪ من الاعضاء . (استنكار في القاعة) .

فما هو قوام المندوبين لمؤتمر الحزب السابع عشر وكيف كانوا يقسمون ؟ من الثابت ان ٨٠ ٪ من اعضاء المؤتمر السابع عشر الذين يحق لهم الاقتراع ، انضموا للحزب في سنوات المؤامرة قبل نشوب الثورة وانطلاق الحرب الاهلية ، وبعبارة اخرى قبل عام ١٩٢١ . فاكثرية اعضاء المؤتمر هم حسب اصولهم الطبقية وتصنيفهم الاجتماعي من العمّال (٦٠ ٪ من الاعضاء المقترعين في المؤتمر).

ولهذا السبب ، لم يكن من المعقول قط ان مؤتمراً تشكل على هذا النحو ينتخب لجنة مركزية غالبية اعضائها متهمون بالعداء للحزب . والسبب الحقيقي الذي من اجله وصف ٧٠ ٪ من اعضاء اللجنة المركزية ومن الاعضاء الآخرين الذين جرى انتخابهم في المؤتمر السابع عشر بكونهم اعداء الحزب والوطن هو الافتراء على الشيوعيين الشرفاء وسحقهم بالتهم المدسوسة الباطلة.

ولم يصب المصير ذاته اعضاء اللجنة المركزية فحسب ، بل ايضاً غالبية المندوبين الذين حضروا المؤتمر السابع عشر . فمن اصل الـ ١٩٦٦ مندوباً الذين يتمتعون بحق التصويت او بصوت استشاري جرى توقيف ١١٠٨ مندوبين منهم بحجة جرائم اقترفوها ضد الثورة ، اي ما يزيد بالفعل عن الاكثرية . وهذا الحادث بعينه ان دل على شيء فعلى ما في هذه الجرائم الباطلة التي رُموا بها والتهم التي الصقت جزافاً بهم كاعداء للثورة ، من سخافة مضحكة وتضارب مع العقل السليم . تصوروا ان ذلك كله عزي لاكثرية الاعضاء الذين اشتركوا في المؤتمر السابع عشر (هياج في القاعة) .

وعلينا ان نذكر هنا ان مؤتمر الحزب السابع عشر يعرف في التاريخ بمؤتمر الانتصارات . فاعضاء الوفود الى المؤتمر ساهموا جميعاً في بناء الدولة الاشتراكية كما ان العديد من بينهم استهدفوا للعذابات والآلام ، وجاهدوا جهاداً مريراً في سبيل نصرة الحزب وتأمين فوزه في السنوات التي سبقت الثورة ، وعلى جبهات مختلفة من الحرب الاهلية التي اخذت البلاد بتلافيفها ، اذ وقفوا بشجاعة نادرة في وجه العدو وواجهوا خطر الموت برباطة جأش . فكيف يمكن ان نقتنع ان افراداً من هذا النوع يمكن وصمهم بالازدواجية : ان لهم وجهين مختلفين ، او انهم كانوا على اتصال باعداء الاشتراكية في هذه الحقبة بالذات التي عقبت تصفية زينوفيف وانصاره ، وتروتسكي واتباعه اليمينين .

كل هذا وما اليه هو نتيجة محتومة لسوء استعمال ستالين السلطة وهو يحاول ن ينزل الخوف ويوقع الهلع في ملاكات الحزب .

ما هي الاسباب التي دعت الى تصفية اعضاء الحزب النشيطين بعد ان عقد الحزب مؤتمره السابع عشر ؟ . ذلك يعود لسبب واحد هو ان ستالين تعالى فوق الحزب ولم يعد يحسب له حساباً . فبينما كان ستالين يقيم وزناً للرأي الجماعي قبل انقضاء المؤتمر السابع عشر للحزب ، اذ كانت تمت تصفية التروتسكيين والزينوفيفيين والبوخارنيين وانتهى النضال وسجل الحزب انتصاراته الصارخة وتمت له الوحدة المنشودة ، تراه الان يصاب بجنون العظمة فيتعالى اكثر فاكثر بحيث لم يعد ليرى امامه لا لجنة الحزب المركزية ولا اعضاء المكتب السياسي . وزينت النفس الامارة بالسوء لستالين ان في مقدوره الآن ان يقرر كل شيء وحده ، وان كل ما يحتاج اليه هو فريق من رجال الاحصاء ، وجماعة اخرى ترفع المباخر امامه وتعمل على مدحه وتقريظه.

فبعد مقتل س. م. كيروف ، الإجرامي ، وقعت في البلاد حركة تطهير جماعية عاتية لا ترحم ولا تلين انتهكت فيها ابسط قواعد العدالة الاشتراكية .

وفي عشية واحد كانون الاول ١٩٣٤ وبناء على اقتراح ستالين نفسه (دون الرجوع الى موافقة المكتب السياسي الذي كان عقد جلسة عامة قبل ذلك بيومين) اصدر سكرتير بريزيديوم اللجنة المركزية المذكرة التالية :

١ – صدرت الاوامر الى هيئات التحقيق للنظر بسرعة في قضايا المتهمين باعداد او بتنفيذ الحوادث الإرهابية التي تنشر الرعب في البلاد .

٢ – على الهيئات القضائية ان لا تعيق بوجه من الوجوه تنفيذ حكم الاعدام الصادر بحق الجرائم من هذا النوع ، بحجة النظر في امكانية العفو عن هؤلاء المجرمين ، اذ ان رئيس اللجنة التنفيذية المركزية (في الاتحاد السوفياتي) لا يرى ضرورة للنظر في طلبات الاسترحام المرفوعة اليه .

٣ – ان اجهزة مفوضية الشؤون الداخلية (NKVD) مكلفة من جهتها تنفيذ احكام الاعدام الصادرة بحق المجرمين من الفئة المذكورة اعلاه بالسرعة اللازمة بعد صدور الحكم .

وهذه المذكرة اصبحت ، في ما بعد ، القاعدة التي اعتمدوها للاساءة للعدالة الاشتراكية . ففي العديد من هذه القضايا المزيفة المدسوسة ، كانوا ينسبون إلى المتهم « القيام باعمال ارهابية » . ومثل هذه التهمة تسقط عن المتهم اي امل اواي حق بالمطالبة باعادة النظر في دعواه ، حتى ولو ادعى بان «اعترافاته » تمت تحت الضرب والتعذيب او ادلى بالحجة القاطعة على بطلان التهم الموجهة اليه .

يجب ان نؤكد هنا ان الظروف التي احاطت بمقتل كيروف تخفي وراءها اموراً كثيرة غامضة لايمكن للان شرحها او تعليلها . يقتضي لها المزيد من التحري والتحقيق وتوجيه الانوار الكاشفة عليها . هنالك ما يؤيد الظن ان القاتل نيقولاييف نفذ فعلته بمعاونةشخص من الفريق المكلف بحراسة كيروف. فقبل الجريمة بشهر ونصف الشهر تقريباً اوقف نيقولاييف بعد ان حامت الشبهات حوله. ولكن اطلق سراحه دون ان يخضع لاية مراقبة . ومن غرائب الظروف التي تثير الشك في الوجدان وتبعث على الارتياب هو ان « التشيكي » المكلف بحراسة كيروف ، دعي للاستنطاق في الثاني من ديسمبر ١٩٣٤ ، ثم قتل في « حادث » سيارة لم يصب احد سواه من ركابها باي اذى . وبعد مقتل كيروف ، تعرض كبار رجال الامن في لينغراد لاحكام تأديبية خفيفة ، الا انه جرى اعدامهم في ١٩٣٧ . فليس في وسعنا ان نؤكد هنا انهم قتلوا لتكليفهم الكشف عن منظمي مقتل كيروف (ضجيج في القاعة) .

واحتدمت اعمال التطهير والتصفية الجماعية في اواخر ١٩٣٦ ، اثر برقية ارسلها ستالين وجدانوف ، صادرة عن سوخي بتاريخ ٢٥ ايلول ١٩٣٦ ، موجهة إلى كاغانوفيتش ومولوتوف وسواهما من اعضاء المكتب السياسي ، واليكم نصها :

« يبدو لنا من الضروري جداً ان يعين الرفيق يزهوف في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية بعد ان برهن ياغودا عن عجزه التام في الكشف عن عصبة تروتسكي – زينوفيف . فدوائر أمن الدولة (OGPU) متخلفة اربع سنوات ، على الاقل ، عن هذه القضية كما يرى جميع العاملين في الحزب وغالبية ممثلي المباحث (NKVD)». وبصريح العبارة ، علينا ان نؤكد هنا ان ستالين لم يجتمع قط بعمال الحزب . ولم يطلع بالتالي على آرائهم في الموضوع .

ان ادعاءات ستالين بان دوائر أمن الدولة متخلفة اربع سنوات في تطبيق

عمليات التطهير الجماعية ، وان المصلحة تقضي باستدراك ما فات والتعويض عن العمل الذي أهمل امره ، حفز المسؤولين في ادارة أمن الدولة على حث الخطى في عملية القاء القبض الجماعية وتنفيذ الاعدام باصحابها .

ولا بد ان نعلن عالياً هنا ان هذه الحجة التي تذرع بها ستالين انما جرى فرضها فرضاً على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في اجتماعاتها العامة التي عقدتها في شباط – آذار عام ١٩٣٧ . والتوصية الاجماعية انما اتخذت بناء على تقرير يزهوف بعنوان « العبر والدروس الناجمة عن النشاط الهدام وعملية الالهاء والتجسس التي يقوم بها العملاء التروتسكيون لحساب الجاسوسية الالمانية–اليابانية ». وتقول التوصية :

« ترى الجمعية العامة للجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) في الاتحاد كله ان كل الوقائع التي كشف عنها التحقيق في اعمال المركز التروتسكي المعادية للاتحاد السوفياتي وما يقوم به انصاره في الولايات والملحقات تثبت أن مفوضية الشعب للشؤون الداخلية تأتي متأخرة اربع سنوات عن محاولة الكشف عن هذه الجرائم التي يقترفها اعداء الشعب » .

فموجة التطهير الجماعية التي تمت هذه المرة إنما تمت تحت شعار النضال ضد التروتسكيين . فهل كان التروتسكيون آنذاك يشكلون خطراً يهدد الحزب ودولة الاتحاد السوفياتي ؟ يتوجب علينا ان نذكر هنا انه قبل اجتماع المؤتمر الخامس عشر للحزب عام ١٩٢٧ لم يزد عدد الذين صوتوا للمعارضة في صفوف التروتسكيين الزينوفيفيين على ٤٠٠٠ ، بينما صوت إلى جانب الحزب ٧٢٤,٠٠٠ . ففي السنوات العشر التي مرت بين مؤتمر الحزب الخامس عشر وبين الاجتماع العام للجنة المركزية في شباط –آذار ، كانت التروتسكية قد اصبحت في وضع لا يخشى معه شرها . اذ ان العديد من التروتسكيين عدلوا مواقفهم وبدلوا من آرائهم واخذوا يعملون في مختلف قطاعات النظام الاشتراكي . وهكذا يتضح للجميع ان على ضوء النجاح الذي حققه الواقع الاشتراكي في البلاد ، لم يكن فيها ما يبرر سياسة الارهاب الجماعي تلك .

ففي التقرير الذي رفعه ستالين في شباط – آذار للجمعية المركزية في اجتماعها العام ، سنة ١٩٣٧ ، بعنوان : « النقص في عمل الحزب والوسائل المتبعة لتصفية التروتسكية وذوي الوجوه المزدوجة » محاولة لتبرير سياسة الخوف والهلع التي اسسها في البلاد ، من الناحية العقائدية . بحجة اننا ما دمنا نسير قدماً نحو الاشتراكية فلا بد من المضي في الحرب الطبقية ، كما يدعي . ويؤكد ستالين ان هذا هو ما يوصي به التاريخ ولينين نفسه .

والحقيقة ان لينين يوصي بوجوب الاخذ بالعنف واسباب الضغط الثورية عند استمرار الطبقات المستغلة في استغلالها للشعب ، وهي وصية طبقت على العهد الذي كانت الطبقات المستثمرة ماضية في بطشها واستغلالها . فما ان تحسن وضع البلاد من الوجهة السياسية ، وما ان استعاد الجيش الأحمر مدينة روستوف في كانون الثاني عام ١٩٢٠ وحقق بذلك نصراً مبيناً على دنيكن ، حتى اصدر لينين اوامره إلى الجنرال دزدزنسكي بالكف عن سياسة التخويف والامتناع عن الحكم بالاعدام . وقد برر لينين هذا التعديل في سياسة الاتحاد السوفياتي بهذا الشكل ، في التقرير الذي تلاه في الاجتماع العام للجنة المركزية للاتحاد في الثاني من شباط ١٩٢٠ :

« اضطررنا لانتهاج سياسة الارهاب لكي نقاوم « دول الاتفاق » بسلاحها بعد ان انقضت الدول الكبرى في العالم علينا وزحفت بجحافلها تبغي احتلال البلاد مستعملة لهذا الغرض كل الوسائل التي لديها . ولم يكن في مقدورنا الصمود يومين في وجه هذا الهجوم الغاشم لو لم نقابل محاولات قواد هذه الجيوش والجيش الأبيض بشكل لا هوادة فيه ولا رحمة ، اي بسلاح الارهاب والتخويف ، وهو السلاح الذي فرضته علينا دول الاتفاق .

«الا انه ما ان حققنا نصراً حاسماً،وقبل ان تضع الحرب اوزارها، وعندما تم استرجاع مدينة روستوف ، امرنا بالكف عن عقوبة الموت ، وهكذا اثبتنا للملأ اننا نقوى على تحقيق برنامجنا والخطة التي وضعنا وفقاً لما تعهدنا بتحقيقه. نحن نزعم ان الاخذ بسياسة العنف اساسها تصميمنا على خنق فئة المستثمرين وكبار الملاكين والرأسماليين ، حتى اذا ما تم لنا ذلك توقفنا عن استعمال الوسائل غير العادية وقد اثبتنا ذلك بصورة عملية » .

لقد خرج ستالين عن هذه المفاهيم الواضحة وتجاوز الحد الذي رسمه لنا لينين . فقد استخدم ستالين الحزب ودوائر أمن الدولة في البلاد لتطبيق سياسة الارهاب الجماعي بعد ان تمت تصفية الطبقات المستغلة في بلادنا .

وسياسة التخويف هذه التي اخذ ستالين بها لم تستهدف قط القضاء على ما تبقى من فلول الطبقات المهزومة ، بل استهدفت على الأخص ، عمال الحزب الشرفاء وخدام الدولة السوفياتية ، فرماهم بتهم مخجلة ووصفهم بذوي الوجهين وبالجاسوسية واتهمهم بالتخريب والدس وحبك المؤامرات وغير ذلك من الافتراءات الاثيمة .

ففي اجتماع اللجنة المركزية العام في شباط — آذار ١٩٣٧ ، استوضح عدد من الاعضاء الاسباب والمبررات التي تدعو للجوء إلى عمليات التطهير بالجملة بحجة محاربة ذوي الوجهين . وعبر الرفيق بوستيتشيف بلباقة عن هذه الشكوك التي

كانت تراود بعض الاعضاء عندما قال :

« اوضحت باسهاب كيف ان سني الحرب المريرة مضت وانقضت . فاعضاء الحزب الذين قصمت ظهورهم رزحوا عاجزين او التحقوا بمعسكرات العدو ، بينما راحت العناصر السليمة تناضل في سبيل الوطن وسلامته ، وذلك في السنين التي خضعت فيها البلاد لسياسة التصنيع ونشر مبادىء الجماعية . ولم يدر في خلدي قط اننا بعد انقضاء هذه المرحلة العصيبة سنجد شخصاً من عيار كاربوف وامثاله في صفوف العدو (كان كاربوف عاملا وعضواً في اللجنة المركزية الاوكرانية ومن اصدقاء بوستيشيف) . والآن ، وبالاعتماد على هذه الشهادة ، يبدو ان كاربوف حسب في ١٩٣٤ في صفوف التروتسكيين . فانا لا استطيع ان اصدق ان رجلا ابلى البلاء الحسن مناضلا في الحرب ضد العدو دونما هوادة ، وجاهد في سبيل الحزب وفي سبيل اقامة النظام الاشتراكي وترسيخه في البلاد يمكن ان ينتهي به المطاف إلى صفوف العدو . لا ، لا يمكن لي ان اصدق ذلك ... ولا يمكن لي ان اتصور او اتخيل كيف امكنه السير إلى جانب الحزب ومعه خلال السنوات العصيبة ، لينضم فجأة ، عام ١٩٣٤ إلى صفوف التروتسكيين . فالأمر يبدو غريباً ومستهجناً جداً » (هيجان في القاعة) .

فاذا ما اخذنا بادعاء ستالين ولاسيما عندما يؤكد بانه كلما دنونا من الاشتراكية كلما تكاثر عدد اعدائنا ، واذا ما سلمنا بالتوصية المتخذة في الجلسة العامة التي عقدتها اللجنة المركزية في شباط — آذار بناء على تقدير يزهوف ، فالمحرضون والمخربون الذين تغلغلوا في صفوف اجهزة أمن الدولة ، والمحترفون الانتهازيون المجردون من الوجدان اخذوا كلهم يدعمون باسم الحزب ، عمليات التطهير الجماعية في صفوف الحزب وملاكاته ، وملاكات الدولة السوفياتية ، والمواطنين السوفياتيين العاديين . كل هذا يدعونا للتأكيد هنا ان عدد الذين جرى توقيفهم بناء على اتهامهم بارتكاب جرائم مناهضة للثورة ، ارتفع إلى عشرة اضعاف ما كان عليه بين ١٩٣٦ و ١٩٣٧ .

من الثابت ، اليوم ، ان سوء النية المبيتة كانت وراء المعاملة الوحشية التي تعرض لها عمال الحزب واعضاؤه . فالقانون الاساسي الذي اقره الحزب في مؤتمره العام السابع عشر ، قام على المبادىء التي اذاعها لينين في مؤتمر الحزب العاشر . وهي تنص على انه اذا تقرر اتخاذ اجراءات قاسية كالطرد مثلا من عضوية الحزب ضد عضو ما من اعضاء اللجنة المركزية او ضد احد المرشحين لعضوية اللجنة المركزية او ضد اي عضو من اعضاء لجنة المراقبة التابعة للحزب ، « فلا بد من دعوة اللجنة المركزية لاجتماع عام بكامل اعضائها يشترك فيه ويدعى

اليه كل المرشحين لعضوية اللجنة وكل اعضاء لجنة المراقبة . فاذا ما صوت ثلثا اعضاء الجمعية العامة المسؤولين عن قيادة الحزب على اقتراح بطرد العضو المقترح يتم طرده بموجب الشرط المنصوص عنه لطرد العضو او المرشح لعضوية الحزب » .

ان غالبية اعضاء اللجنة المركزية والمرشحين الذين قبل ترشيحهم لعضوية الحزب في المؤتمر السابع عشر الذي عقده الحزب ، والذي جرى توقيفهم عام ١٩٣٧ – ١٩٣٨ ، طردوا من الحزب بصورة غير شرعية بعد اساءة استعمال دستور الحزب . اذ ان قضية طرد هؤلاء الاعضاء من الحزب ، لم تطرح يوماً على المناقشة في اي اجتماع من اجتماعات اللجنة المركزية بكامل اعضائها .

وعندما جرى التدقيق من جديد في تهم « التجسس » و « التخريب » المعزوة لهؤلاء الاعضاء ، ظهر بوضوح ان هذه التهم مزيفة ، لا اساس لها من الصحة . فاعترافات المتهمين والموقوفين ، والافتراء عليهم بالتعامل مع العدو ، تمت كلها تحت الضرب والتعذيب البربري .

وفي الوقت ذاته ، لم يعرض ستالين على اعضاء المكتب السياسي اذ ذاك ، كما يشهد اولئك الاعضاء ، اقوال وتصاريح العديد من المتهمين بنشاط سياسي ضد البلاد عندما رجعوا عن اعترافاتهم السابقة امام المحكمة العسكرية وطلبوا اعادة النظر في قضيتهم . فقد تقدم كثيرون بمثل هذه المطالب ، ومما لا شك فيه ان ستالين بلغه امرها .

ومن الضرورة بمكان ، في رأي اللجنة المركزية ، إطلاع المؤتمر على العديد من هذه الدعاوى الملفقة التي اتهم بها اعضاء اللجنة المركزية للحزب الذين تم انتخابهم في المؤتمر السابع عشر للحزب .

من اشنع وافظع التحديات التي شهدناها ، ومن التلفيقات البغيضة والمخالفات الوحشية للعدالة الثورية قضية العضو المرشح لعضوية المكتب السياسي واحد اعضاء الحزب البارزين الرفيق إيخ الذي انضم إلى عضوية الحزب في ١٩٠٥ . (هيجان في القاعة) .

جرى توقيف الرفيق إيخ يوم ٢٩ نيسان ١٩٣٨ بتهمة حيازة مواد متفجرة ، وذلك دون موافقة النيابة العامة . صدرت هذه الموافقة بعد مضي ١٥ شهراً على توقيفه .

والتحقيق الذي جرى انما جرى بمخالفة تعتبر اقذر وابشع مخالفة للعدالة في الاتحاد السوفياتي ، بعد الكثير من سوء النية والتزوير .

وقد اجبر ايخ على توقيع نسخة من الاعترافات التي اشرف على وضعها

القضاة المحققون ووقعها تحت الضرب والتعذيب الوحشي ، تتهمه مع عدد من اعضاء الحزب ، بقيامه بنشاطات معادية للاتحاد السوفياتي .

وفي تشرين الأول ١٩٣٩ ، بعث ايخ إلى ستالين ببيان ينفي فيه نفياً قاطعاً التهم المنسوبة اليه ويطالب باعادة النظر في قضيته . وقد جاء في هذا التصريح قوله : « ليس أحز في النفس وأقتل للمروءة من ان يتسكع المرء في سجن حكومة ناضلت في سبيل الدفاع عنها والحفاظ على سلامتها ، طول حياتي » .

وقد عثرنا على بيان آخر ارسله ايخ إلى ستالين بتاريخ ٢٧ اكتوبر ١٩٣٩ ، ذكر فيه وقائع لا تدحض وجاء بأدلة دامغة قاطعة على هراء التهم المنسوبة اليه ، مدللا على ان هذه التهم هي من اختراع التروتسكيين الذين وافق على توقيفهم بوصفه السكرتير الأول للجنة الحزب في سيبيريا الغربية والذين دسوا عليه هذه التهم ليثأروا لانفسهم منه . كما انها من جهة اخرى ، تلفيقات دنيئة اساسها وثائق مزورة اعدها قضاة التحقيق . وقد جاء في بيان ايخ بالحرف الواحد :

« بلغني في ٢٥ اكتوبر من هذه السنة ان التحقيقات التي استهدفت لها قد انتهت وانني اطلعت عليها بنفسي . فلو فعلت واحداً في المائة من الجرائم المنسوبة إلي ، لما كنت تجرأت على ان ابعث اليك بهذا البيان . ومع ذلك ، فانا لم اذنب واحداً في المائة من التهم المعزوة الي وصفحة قلبي انقى من ان يلطخها ظل الدناءة والخفايا . فلم ألق اليك يوماً بكلمة زور او بهتان ، والآن وانا ارى نفسي على حافة القبر ، فانني لا اكذب بل انطق بالحق . ان قضيتي هي مثال صارخ على الاستفزاز والتحريض ، وعلى الافتراء الذميم ، وعلى انتهاك ابسط قواعد العدالة ...ان الاعترافات الواردة في ملفي لا تصدم المنطق السليم بما فيها من هراء وسخف فحسب ، بل تنبض بالافتراء الذميم على اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد كله (البلشفيك) ومجلس مفوضي الشعب ، لأن الاقتراحات التي اتخذتها اللجنة المركزية ومجلس مفوضي الشعب والتي لم تتخذ بناء على اقتراحي ولا ساهمت انا باعدادها ، وصفت بانها اعمال مناهضة للثورة ولمنظماتها ، وانها اتخذت بناء على اقتراحي ... اني المح الان إلى ابشع قسم من حياتي وإلى الذنب الذي اقترفته حقاً ضد الحزب وضدك شخصياً . هذا هو اعترافي بنشاطي الموجه ضد الحزب ... فالقضية وردت على هذا النحو : لما كنت عاجزاً عن احتمال ما تعرضت له من عذابات مبرحة على يد اوشاكوف ونيقولاييف ، ولاسيما الأول منهما ، الذي كان واقفاً على حقيقة وضعي الصحي وعارفاً جيداً ان اضلعي التي تكسرت من قبل لم تلتئم بعد تماماً ، وسببت لي آلاماً مبرحة ، أجبرت على اتهام نفسي وبعض الرفاق الآخرين .

« والقسم الأكبر من اعترافاتي اقترح علي واملي علي إملاء من قبل اوسناكوف ، وما تبقى منها يعود لوثائق المحفوظات التابعة لأمن الدولة في سيبيريا الغربية التي كنت مسؤولا عنها . وان هذا القسم الخاص بهذه الرواية الذي نسجه خيال اوشاكوف وأجبرت انا على تذييله بتوقيعي ، اذ لم يعد متماسكاً مع الاقسام الاخرى ، فقد أجبرت على توقيع اعتراف ثان . والشيء ذاته وقع لروخيموفتش الذي عين في بادىء الأمر عضواً في الاحتياطي فحذف اسمه فيها لأسباب أجهلها . والشيء ذاته حدث لقائد شبكة الاحتياطي التي انشأها بوخارين عام ١٩٣٥ ... فقد وضعت اسمي اولا ثم صدرت الأوامر باضافة اسم مزهلوك . وحدثت كذلك اشياء اخرى مشابهة .

« ... فاني اطلب اليك متوسلا ان تعيد النظر في قضيتي ، ليس شفقة علي وحفاظاً على حياتي بل لازيح الستار عن هذا التحريض الذي اصبح كحية رقطاء تلتف على نفسها ثم تنساب إلى عدة اشخاص كانوا إلى حد بعيد ضحايا خساستي وافتراءاتي المجرمة ... فانا لم اخنك قط ، كما اني لم أخن الحزب ابداً . انا اعرف جيداً انني اموت واقضي نحبي فريسة لدسائس اعداء الحزب واعداء الشعب الذين حبكوا حولي هذه الافتراءات » .

من الواضح ان بياناً من هذا النوع كان يستحق النظر فيه من قبل اللجنة المركزية . وهو امر لم يحصل ، وانما رفعوه إلى بيريا ، بينما مضوا في تعذيب الرفيق إيخ المرشح لعضوية المكتب السياسي .

وبتاريخ ٢ شباط ١٩٤٠ وقف إيخ امام المحكمة ، فلم يعترف امامها بأي ذنب او جريمة نسبت اليه، وقال : « فمن هذه الاعترافات المنسوبة إلي ، ليس من حرف واحد بخط يدي باستثناء توقيعي الذي ارغمت على رسمه تحت الضغط والتعذيب . فقد اعترفت بما اعترفت تحت التعذيب والتنكيل من قبل مأمور التحقيق الذي اخذ يسيمني العذاب منذ الدقيقة الأولى التي جرى فيها توقيفي . وبعد ذلك اخذت اكتب كل هذه السخافات والخزعبلات ... اهم ما يتوجب علي قوله هنا هو ان اطلع هيئة المحكمة والحزب وستالين نفسه على اني لست مذنباً ولا مجرماً . فلم اشترك يوماً في اي مؤامرة او دسيسة. وسأغادر هذه الدنيا وانا وطيد الثقة والايمان بسياسة الحزب كما كان شأني في كل حياتي » .

وفي الرابع من شباط تم تنفيذ الاعدام بإيخ رمياً بالرصاص (امتعاض وهياج في القاعة) . وقد اتضح الان ان قضية ايخ قضية مصطنعة لا اساس لها من الصحة قط . وقد اعيد اليه اعتباره بعد الوفاة .

اما الرفيق رودزوتاك المرشح لعضوية المكتب السياسي ، وعضو الحزب

منذ عام ١٩٠٥ ، والذي قضى عشر سنوات في احد المعتقلات في العهد القيصري ، فقد عاد عن اعترافاته التي انتزعت منه بالقوة تحت التعذيب والضرب . ونجد في سجل المحكمة العسكرية العليا تسجيلا لبيان رودزوتاك واليكم بعض ما جاء فيه :

« ... فالقضية الوحيدة التي يضعها امام انظار المحكمة هي ان يطلع اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي على انه لايزال يقوم في دوائر أمن الدولة (NKVD) مركز خاص ، مهمته الأولى اختلاق القضايا وتزويرها ، وايضاً ارغام الاشخاص من الابرياء على الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها . فليس من فرصة تتاح للمتهم لاثبات عدم اشتراكه بهذه الجرائم التي يعترف باقترافها اشخاص يدلون باعترافاتهم . ووسائل التحقيق تهدف في الدرجة الأولى إلى حمل الناس على الكذب وعلى الافتراء والتشنيع على الآخرين بقطع النظر عن الاشخاص الذين جرى اتهامهم » . وقد طلب من المحكمة ان تأذن له باطلاع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي كتابة على كل هذه الامور . « وأكد امام المحكمة انه لم يخطر له يوماً على بال ان يقوم بأي عمل يسيء إلى سياسة حزبنا ، لأنه كان دائماً متفقاً معها بالرأي في اي مجال من المجالات الاقتصادية او الثقافية في البلاد » .

وقد ابقي هذا التصريح الصادر عن رودزوتاك طي الكتمان ، بالرغم من انه كان في فترة ما رئيساً للجنة المراقبة الرئيسية ، هذه اللجنة التي تم انشاؤها وفقاً لرغبة لينين ونصائحه ، وذلك دفاعاً عن وحدة الحزب ... وبهذه الطريقة سقط عضو كبير من اعضاء احد اجهزة الدولة العليا صاحبة الشأن ، وراح ضحية سوء نية شريرة مبيتة ولم يستدع قط للمثول امام المكتب السياسي للجنة المركزية لاستماع شهادته ، وذلك لان ستالين لم يكن يرغب في التحدث اليه . وصدر الحكم عليه ، في اقل من عشرين دقيقة ، ونفذ فيه حكم الاعدام رمياً بالرصاص . (هيجان واستهجان في القاعة) .

وبعد التحقيق في هذه القضية عام ١٩٥٥ ، تبين ان التهم الموجهة إلى رودزوتاك كانت كلها مزورة ولا اساس لها من الصحة ، واستندت إلى مجرد افتراءات وتهم زور . ولذلك اعيدت اليه كرامته بعد الوفاة .

والطريقة التي كان يلجأ اليها عملاء أمن الدولة (NKVD) في اختلاق « مراكز وهمية معادية للاتحاد السوفياتي » و« تكتلات » تعتمد طرقاً استفزازية ، تظهر بوضوح في اعترافات الرفيق روزنبلوم ، احد اعضاء الحزب منذ ١٩٠٦ ، الذي جرى توقيفه في ١٩٣٧ ، على يد اجهزة الأمن في لينينغراد .

وفي اعادة النظر ، عام ١٩٥٥ في قضية كوماروف ، فضح روزنبلوم الحادثة التالية التي وقعت له ، وهي انه عندما جرى توقيفه عام ١٩٣٧ ،

تعرض لعذابات اليمة رهيبة وصدرت اليه الأوامر بالاعتراف بصحة تهم موجهة اليه ولغيره من الافراد . فاحضروه إلى مكتب زاكوفسكي الذي عرض عليه إطلاق سبيله ، اذا ما اعترف زوراً وبهتاناً امام المحكمة بتهم نسج خيالها مكتب الأمن العام حول قيامه باعمال التخريب والتجسس والانحراف في احد المراكز الارهابية في لينينغراد . (حركة في القاعة) . وبصفاقة لا يمكن لانسان ان يتصورها ، راح زاكوفسكي يصف الدور الخسيس الذي يقوم به جهاز خاص مهمته تلفيق التهم وتزوير الدسائس المعادية للاتحاد السوفياتي ، وذلك ، كما يقول روزنبلوم « ليعطيني صورة صحيحة عن هذا الجهاز » .

وقد اسهب زاكوفسكي في شرح الأساليب المتنوعة التي يبتدعها هذا المركز والفروع الاخرى التابعة له ... وبعد ان بسط له تشكيلات هذا المركز واجهزته ، راح زاكوفسكي يخبره ان باستطاعة البوليس السري ان يعين له قضية ضد المركز ، مشيراً إلى ان المحاكمة ستكون علانية . ويقول روزنبلوم :

« ومن الامور المرتبة مسبقاً ان يحضر إلى هذا المركز ٤ إلى ٥ اشخاص هم شودوف واوغاروف وسمورودين وبوزرن وشابوشنيكوفا (زوجة شودوف) وغيرهم مع اثنين او ثلاثة اعضاء من الفروع التابعة لهذا المركز .

« .. وكان من الضروري اعداد قضية مركز لينينغراد بكل دقة بحيث تأتي متماسكة متلاحمة ، ولذا كان من اللازم تهيئة شهود الاثبات . وكان لنشأة الشاهد الاجتماعية (في الزمن الماضي بالطبع) ومركزه ومرتبته في الحزب دور كبير في القضية لا يتوفر مثله لصغار الشهود من اصل وضيع .

« وحدق بي زاكوفسكي قائلا : انت لا تحتاج إلى اختلاق شيء من عندك . فجهاز الأمن السري سيهيء لك نبذة عن كل فرع من فروع هذا المركز ، ومهمتك انت ان تنظر بدقة في هذا كله وان تتذكر جيداً كل الاسئلة والاجوبة التي يمكن للمحكمة توجيهها . وستكون هذه القضية جاهزة في غضون ٤ — ٥ اشهر او نصف سنة بالاكثر . فعليك ان تهيء نفسك وتعد ذاتك بحيث لا يلحقك في التحقيق اي ازعاج . ومصيرك يتوقف على سير المحاكمة ونتائجها النهائية . فاذا ما رحت تكذب وتشهد بالزور فاللوم عليك وحدك . فاذا ما تدبرت الأمر بمعرفتك وخرجت من هذا كله بنجاح تكون انقذت حياتك ، ونحن نأخذ على عهدتنا رعاية الحكومة لك حتى ساعتك الاخيرة ، فنضمن لك اسباب العيش والرزق. »

هذه مسطرة او نموذج عن الامور الخسيسة التي كانت تجري آنذاك . (حركة في القاعة) .

اما التلفيقات التي كانت توضع في الملحقات ، فقد كانت على نطاق اوسع واكبر . فالادارة المركزية لمكتب الأمن في جمهورية سفردلوف عثرت على « المكتب الثوري للاورال » ، وهو الجهاز المزعوم لاحزاب اليمين وللتروتسكيين والثوريين الاشتراكيين ورؤساء الكنائس . وكان رئيسه المزعوم امين سر لجنة الحزب الشيوعي في جمهورية سفردلوف وعضو اللجنة المركزية للاتحادات الشيوعية (البلشفيك) المدعو كاباكوف الذي دخل عضوية الحزب عام ١٩٢٤ . فالوثائق التحقيقية التي تعود إلى ذلك العهد تقول بقيام مراكز للتروتسكيين ومنظمات لاعمال التجسس والتخريب والالهاء في كل مقاطعة او ولاية او جمهورية من الجمهوريات السوفياتية ، وان رئيس هذا المركز المزعوم يجب ان ان يكون لاسباب نجهلها ، امين سر الحزب الشيوعي في المحافظة او في الجمهورية . (حركة في القاعة) .

وقد راح ضحية هذه الاتهامات المزيفة الوف مؤلفة من الشيوعيين الابرياء ، نتيجة هذه الاعترافات المحشوة بالافتراءات الكاذبة المدسوسة تنتزع من اصحابها بالقسر والعنف والتنكيل فتستعمل ضد اصحابها وضد الآخرين . وعلى الوتيرة ذاتها والاسلوب ذاته زوروا قضايا اتهامية ضد اعضاء بارزين في الحزب الشيوعي وضد كبار موظفي الدولة امثال كوسيور وشوبار وبوستيشيف وكوساريف وغيرهم عديدين .

وكانت اعمال التصفية وعمليات التطهير تجري في تلك السنين على نطاق واسع ، فتجرف في تيارها الوف الضحايا يذهبون فريسة لاتهامات خاوية زئبقية مختلقة من الاساس اودت بحياة الكثيرين من كبار الاعضاء في مختلف ملاكات الحزب .

وكانت الطريقة المتبعة في هذا كله هي ان تعد دوائر الأمن (NKVD) قوائم باشخاص يتولى محاكمتهم القضاء العسكري ، وكانت الاحكام ضدهم تهيأ وتعد سلفاً . وكانت العادة ان يبعث يزهوف بهذه القوائم إلى ستالين شخصياً للموافقة على الاحكام المقترح اصدارها بشأنهم .

فقد تلقى ستالين خلال عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ نحواً من ٣٨٣ قائمة تضم اسماء الألوف من الموظفين العاملين في خدمة الحزب ومجالس السوفييت والكومسومول والجيش والدوائر الاقتصادية ، حازت كلها على موافقة ستالين .

ويجري النظر الآن من جديد في معظم هذه القضايا . فوضعنا جانباً عدداً منها لبطلان الاتهام . ويكفي ان نشير هنا إلى انه منذ عام ١٩٥٤ حتى الآن ، اعادت المحكمة العسكرية العليا بكامل هيئتها الاعتبار لأكثر من ٧٦٧٩ شخصاً ،

بينهم عدد كبير اعيد اليهم الاعتبار بعد الوفاة .

وعمليات التوقيف بالجملة لاعضاء الحزب ومجالس السوفييت او في المصالح التابعة للاقتصاد او للجيش الحقت اذى لا يقدر بالبلاد واخرت كثيراً قضية تطور الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي .

وعمليات التصفية والتطهير الجماعي كان لها تأثير سلبي عميق من الوجهة الخلقية والسياسية في نفوس اعضاء الحزب ، اذ سببت لهم قلقاً وشعوراً بعدم الاطمئنان ، وساعدت على نشر بذور الشك والظن واضعفت الثقة بين اعضاء الحزب ، بعد ان نشط في المجتمع الروسي النمامون والمفترون والدساسون .

والتوصيات التي اقترحتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في اجتماعها العام المعقود سنة ١٩٣٨ ادت إلى تحسين الاوضاع ، في اجهزة الحزب ، بعض الشيء بالرغم من وقوع بعض عمليات التطهير الواسعة عام ١٩٣٨ .

وبفضل ما تجيش به نفوس اعضاء الحزب من روح معنوية وسياسية عالية استطاع الحزب ان يتحمل الصدمات التي تلقاها والحوادث الدامية التي تعرض لها عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ وان يدرب ملاكات جديدة له . ومما لا شك فيه قط ان تطورنا نحو الاشتراكية وتهيئة وسائل الدفاع عن البلاد كانت لتلاقي نجاحاً اكبر وتأتي بفوائد اعظم لو لم تفقد ملاكات الحزب ما فقدت من خيرة الاعضاء العاملين في خدمة الحزب والدولة ، فراحوا فريسة الاتهامات السافلة وعمليات التطهير والتصفية التي وقعت عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ .

نحن الآن نتهم يزهوف بحق ، لما اقترفت يداه من مظالم عام ١٩٣٧ . الا انه يترتب علينا ان نؤدي جواباً عن هذه الاسئلة : هل كان باستطاعة يزهوف ان يأمر بتوقيف كوسيور مثلا بدون علم ستالين ومعرفته ؟ وهل جرى بشأن هذا التوقيف اي نقاش او صدر اي قرار من قبل المكتب السياسي ؟ لا ، لم يتم شيء من ذلك قط ، كما لم يجر شيء من هذا في القضايا الاخرى المماثلة لها . هل باستطاعة يزهوف ان يتخذ وحده مثل هذه القرارات المسؤولة ويفتي وحده بمصير كبار الشخصيات في الحزب؟ كلا . فمن السخافة الظن ان هذه الافعال اقترفها يزهوف وحده . ولا يخامر احدكم الشك في ان ستالين هو الذي امر بها ، ولولا الاوامر التي صدرت عنه وموافقتهلهذه التدابير الاجرامية لما كان اقدم يزهوف على تنفيذها .

فقد اعدنا التحقيق بهذه القضايا واعدنا الاعتبار إلى كوسيور وإلى رودزوتاك وبوستيشيف وغيرهم. فما هي الاسباب التي ادت إلى القبض عليهم وتوقيفهم والحكم عليهم بالاعدام ؟ فقد جاءت الادلة تثبت بوضوح كلي انه لم يكن من

سبب لهذا كله . فقد جرى توقيفهم كما جرى توقيف غيرهم ، بغير علم النائب العام . اذا كان ستالين وحده اعطى الأوامر وامر باتخاذ الاجراءات فهو وحده النائب العام الذي يفتي في هذه القضايا وفي مثل هذه الامور . وعلينا ان نقول هذا كله ليتمكن المندوبون إلى هذا المؤتمر بانفسهم ، من اتخاذ المبادرة في تقييم هذه الامور فيخرجون بالاستنتاجات اللازمة .

والواقع يثبت بما لا يترك مجالا للشك انه كثيراً ما أسيء استعمال السلطة ، بناء على اوامر صادرة عن ستالين نفسه ، دون ان يحسب اي حساب لمبادىء الحزب وللعدالة السوفياتية . كان ستالين رجلا لا يمكن الوثوق به ، مصاباً بمرض الشك والارتياب ، وهو امر نعرفه حق المعرفة لاتصالنا المباشر به . كان باستطاعته ان ينظر إلى اي شخص ويوجه اليه مثل هذا السؤال : « لماذا تشع نظراتك اليوم دهاء ومكراً ، ولماذا اراك اليوم كثير اللف والدوران وتتجنب التطلع إلي وتتفادى النظر إلي مباشرة ؟ » وهذا الارتياب المتأصل فيه والذي لا يمكن ازالته ، خلف فيه شيئاً من عدم الثقة حتى في اكثر اعضاء الحزب شهامة ، اولئك الذين تعاون معهم منذ عهد بعيد . فهو يرى « اعداء » في كل مكان وفي كل شيء كما يتصور وجود « الجواسيس ومزدوجي الوجوه » اينما وقع نظره .

ولما كان يجمع بين يديه سلطة لاحد لها، فقد اضمر للغير سوء القصد وسوء النية، مما كان له أثر بعيد ادبياً وجسمانياً في جميع الناس .

وعندما يصرح ستالين ان هذا الانسان او ذاك يجب توقيفه والقاء القبض عليه ، وجب على الناس ان يعتقدوا ويؤمنوا دون مراجعة او تردد ، ان هذا الرجل المطلوب توقيفه هو « عدو للشعب » . ابلت ، العصابة التي كانت تأتمر بأمر بيريا وتتحكم بدوائر الأمن العام بلاء حسناً في اثبات الاتهامات التي تنسب للموقوف ، استناداً إلى وثائق مزورة من الاساس . وما هي تلك الوثائق التي كانوا يقدمونها ؟ انها رسائل اعترافات الموقوف بالطبع ، وعلى قضاة التحقيق ان يأخذوا بها ويعتمدوا عليها . وكيف يمكن لانسان ان يعترف بجرائم لم يرتكبها قط ؟ بطريقة وحيدة لا غير ، باخضاعه للتنكيل والتعذيب الجسماني بحيث تتراخى قواه ويفقد كل شعور وكل قدرة عقلية فيتجرد تماماً من كل كرامة بشرية . وهكذا كانوا يحصلون على « الاعترافات » المطلوبة .

وعندما اخذت موجة التطهير الجماعي بالانحسار ، في ١٩٣٩ ، واخذ قادة المنظمات التابعة للحزب تتهم دوائر الأمن العام وتتذمر من موظفيها لاستعمالهم وسائل الاكراه والضغط المادية والجسدية على الموقوفين ، وجه ستالين برقية

بالشيفرة إلى جميع السكرتيريين في اللجان القائمة في المحافظات والجمهوريات وإلى اللجان المركزية التابعة للحزب الشيوعي في الجمهوريات السوفياتية وإلى مفوضي الشعب للشؤون الداخلية وإلى رؤساء دوائر امن الدولة ، هذا نصها :

« توضح اللجنة المركزية العامة للحزب الشيوعي بان استعمال وسائل الاكراه والضغط المادية الجاري استخدامها في مراكز أمن الدولة ودوائره المختلفة سمح باستعمالها والركون اليها ، منذ سنة ١٩٣٧ وما بعد ، وفقاً للاذن الصادر عن اللجنة المركزية العامة للحزب الشيوعي ... من الثابت ان جميع دوائر الاستخبارات في الدول البورجوازية تستعمل وسائل الضغط والاكراه المادية هذه للتأثير على ممثلي البروليتارية الاشتراكية ولا تتورع قط من استعمالها بافظع الاساليب. والسؤال يفرض نفسه هنا لماذا يترتب على دوائر الاستخبارات في الانظمة الاشتراكية ان تكون اكثر شعوراً انسانياً من عملاء الاستخبارات البلهاء في الدول البورجوازية ، ومن اعداء الطبقات الكادحة الالداء وعمال التعاونيات الزراعية . فاللجنة المركزية العامة للحزب الشيوعي ترى من الضروري المضي في استعمال وسائل الاكراه المادية ، كتدبير استثنائي يتخذ ضد اعداء الشعب المصرين على عدائهم والمفضوح امرهم ، باعتبارها وسائل لها ما يبررها ويزكيها » .

وهكذا راح ستالين يكرس باسم اللجنة المركزية العامة للحزب الشيوعي ، اقذر انتهاك وحشي للعدالة الاشتراكية عن طريق السماح بالتنكيل والتعذيب ، وهي وسائل ادت إلى السعاية والوشاية والافتراء على الابرياء والاعتراف القسري بالاجرام .

ومنذ حين ، اي قبل بضعة ايام من انعقاد مؤتمركم هذا ، دعونا اللجنة المركزية لاجتماع عام بجميع اعضائها ووجهنا الاسئلة إلى القاضي المحقق رودوس الذي حقق في قضية كوسيور وشوبار وكوساريف وهو شخصية معروفة بلؤمها وخساستها ، ويكاد دماغه لا يزيد بشيء عن دماغ العصفور وهو فاسد السيرة والسريرة . ان شخصية كهذه هي التي كانت تقرر مصير اعضاء الحزب البارزين ، وكثيراً ما افتى وقضى في المسائل السياسية المتعلقة بهؤلاء الاعضاء في الحزب لانه اتى بالدليل على « إجرامهم » وابرز للمحكمة وثائق وادلة يمكن ان تفضي إلى نتائج سياسية خطيرة .

والسؤال الذي خرج من جميع الافواه هو هل باستطاعة رجل بمثل هذا المستوى العقلي ان يتولى وحده التحقيق بشكل يؤول إلى ادانة شخصيات كبيرة امثال كوسيور ؟ لقد اقر هذا الرجل امام جلسة اللجنة المركزية بجميع اعضائها قائلا : « أخبرت ان كوسيور وشوبار هما من اعداء الشعب ، ولذا يترتب ، علي

بوصفي قاضي التحقيق ، ان ارغمهما على الاعتراف بانهما من الاعداء .

(سخط في القاعة) .

وقد تمكن من ذلك عن طريق التعذيب والتنكيل الطويلين ، متلقياً تعليمات اضافية من بيريا .وعلينا ان نعترف ونشهد عالياً انه صرح ، بكل صفاقة ، ودونما حياء او خجل في اجتماع اللجنة المركزية : «اعتقدت اني انفذ اوامر الحزب » .

وهكذا نرى كيف ان اوامر ستالين بشأن استعمال وسائل التنكيل المادية والتعذيب ضد الموقوفين كانت توضع بالفعل موضع التنفيذ .

هذه الحادثة تثبت كغيرها من حوادث التجريم ان كل القواعد الرشيدة التي اعتمدها الحزب لحل القضايا المعقدة كانت تنتهك وتخالف ، كما ان وراء كل هذه الامور سوء قصد من جانب فرد واحد .

فالسلطات التي حصرها ستالين في شخصه ، ادت إلى نتائج خطيرة خلال الحرب الوطنية العظمى .

وعندما ننعم النظر ملياً في قصصنا ، وافلامنا السينمائية و « ابحاثنا العلمية » التاريخية ، يتبين لنا ان الدور الذي لعبه ستالين في هذه الحرب الوطنية مشوب بالشك والارتياب . فقد قيل ان ستالين اتخذ لجميع الامور التدابير اللازمة المسبقة واستعمل سياسة الكر والفر التي يقتضيها « الدفاع الناشط » ، اي هذه السياسة التي اتاحت للالمان الوصول إلى موسكو وستالينغراد . وباستعمال الجيش الروسي لهذا التكتيك ، بفضل ستالين وعبقريته الحربية ، استطاع اخذ المبادرة بالهجوم وارغام العدو على التسليم ! والنصر المبين الذي سجله الجيش الروسي، الذي لا يغلب ، على ارض روسيا عن طريق بطولة شعبنا ونضاله المستميت ، كما سجلته رواياتنا وافلامنا وابحاثنا العلمية ، كل ذلك نحن مدينون به لنبوغ ستالين وعبقريته العسكرية !

علينا ان ننظر في هذا الأمر بكل عناية ودقة لما يترتب عليه من اهمية عظيمة ليس تاريخية فحسب ، بل ايضاً سياسية وتربوية وعملية .

ما هي لعمري وقائع هذه القضية ؟

كانت صحافتنا واجهزتنا التربوية السياسية تتبجح قبل الحرب وتردد متباهية معتدة متهددة متوعدة كل من تسول له نفسه ان يحتل اي جزء من الاراضي الروسية . لقاء كل ضربة يوجهها ثلاث ضربات واكثر ! كما ان باستطاعة جيشنا ان يرده على اعقابه ومحاربته في ارضه ! وان في مقدورنا ان نربح الحرب باقل اذى او ضرر ممكن . وقد تبين فيما بعد ان كل هذه التبجحات لم تكن لتقوم على اساس من الحقائق الحسية التي من شأنها ان تحمي حدودنا وتصون عصمتنا .

واخذ ستالين ، اثناء الحرب وبعدها ، يفلسف المأساة التي مرت بها امتنا في الشطر الأول من الحرب ويردها إلى الهجوم « غير المتوقع » الذي شنه الالمان ضد الاتحاد السوفياتي : انكم تدركون تماماً ، ايها الرفاق ان كل هذا لم يكن صحيحاً قط. فمنذ ان وصل هتلر إلى سدة الحكم اخذ على نفسه تصفية الشيوعية . واخذ الفاشيون يرددون هذا علنا ، ولم يخفوا قط خططهم ومقاصدهم . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ابرموا كل ما يمكن ابرامه من عقود واتفاقات ، والغوا ما ألغوه من تكتلات ومحاور ، كالمحور المعروف بمحور برلين — روما — طوكيو . وتدل وقائع كثيرة سبقت الحرب بوضوح كلي على ان هتلر عمل كل شيء لشن حرب ضد الاتحاد السوفياتي ، وحشد لهذا الغرض مقادير هائلة من الوحدات المسلحة ، اقام بعضها على حدود الاتحاد السوفياتي .

والوثائق التي تم نشرها حتى الآن تثبت بوضوح كيف ان تشرشل عهد إلى سفيره لدى الاتحاد السوفياتي السير كريبس ، في ٣ نيسان ١٩٤١ ، بان يحذر ستالين شخصياً من ان الالمان يعيدون تنظيم وحداتهم المسلحة بقصد مهاجمة الاتحاد السوفياتي . ومن الاكيد ان تشرشل لم يفعل ذلك بعاطفة المحبة للاتحاد السوفياتي ، بل لمصلحة شخصية ، ولغايات امبريالية ، وذلك لحمل الالمان والروس على دخول غمار حرب ضروس لا تبقي ولا تذر ، ينجم عنها تعزيز الامبراطورية البريطانية . ويؤكد تشرشل في مذكراته هذا الأمر ، بقوله انه دعا ستالين إلى الحيطة والحذر ، ولفته الى الخطر الذي يتهدده . واخذ تشرشل يشدد على هذا الامر في الرسائل التي بعث بها في ١٨ نيسان والايام التالية . ومع ذلك ، فلم يعبأ ستالين بهذه التحذيرات . بل على العكس أمر بعدم الاهتمام بمثل هذا التحذير ، لئلا يستفز الالمان ويدفعهم إلى القيام بعمليات حربية .

وعلينا ان نؤكد هنا ان معلومات خاصة حول هجوم الماني وشيك على الاتحاد السوفياتي جاءتنا من مصادرنا العسكرية والدبلوماسية ايضاً ، لان القيادة كانت تتحفظ كثيراً تجاه هذه المعلومات . فكانت الوقائع ترسل بكل حذر وتؤخذ بتحفظ كلي .

من ذلك ، مثلا ، المعلومات الواردة من برلين بتاريخ ٦ ايار ١٩٤١ ، من الملحق العسكري السوفياتي ، الضابط فورونتسوف . وقد جاء فيها بالحرف الواحد : « المواطن السوفياتي بوزر أبلغ نائب الملحق البحري انه بناء على تصريح صادر عن ضابط الماني يعمل في اركان هتلر العامة ، ان المانيا تستعد لغزو الاتحاد السوفياتي في الرابع عشر من شهر ايار عن طريق فنلندا ومقاطعات البلطيق ولاتفيا . وفي الوقت ذاته تتعرض موسكو ولينينغراد لقصف جوي كثيف كما

سيجري هبوط المظليين بالقرب من المدن الواقعة على الحدود »

وجاء في برقية واردة من سفارتنا في لندن ، بتاريخ ١٨ حزيران ١٩٤١ : « ان السير كريبس مقتنع الآن تمام الاقتناع بانه لا مفر من وقوع اشتباك مسلح بين المانيا والاتحاد السوفياتي يبدأ في اواسط حزيران . وفي رأي كريبس ان الالمان انتهوا من حشد ١٤٧ فرقة ، بما فيها وحدات الطيران ووحدات الخدمة ، على طول الحدود الروسية ... »

وبالرغم من هذا التحذير الخطير ، لم تتخذ الخطوات اللازمة لتهيئة البلاد واعدادها كما يجب للدفاع ، لكي لا تؤخذ البلاد على حين غرة .

هل كان لدينا الوقت الكافي وعندنا القدرة لاتخاذ الاحتياطات اللازمة ؟ نعم كان لدينا الوقت وعندنا القدرة . اذ بلغت صناعتنا حداً عالياً من التطور والنمو بحيث تستطيع ان تسد كل حاجات الجيش السوفياتي وتمده بكل ما يحتاج اليه من عدة وعتاد . ومما يثبت ذلك انه بالرغم من فقداننا لنصف صناعتنا في الحرب ولقطاع كبير من نتاجنا الصناعي ومحاصيلنا الزراعية بعد احتلال العدو لاوكرانيا ولشمالي مقاطعة القوقاز واجزاء اخرى من البلاد تقع إلى الغرب ، كان في مقدور الشعب السوفياتي ان ينظم ، بكفاءة ، انتاج المواد والاعتدة الحربية اللازمة في القسم الشرقي من البلاد ، ويركز فيها المصانع والتجهيزات التي تم له نقلها من المناطق الواقعة إلى الغرب من البلاد ، ومد قواتنا المسلحة بكل ما تحتاج اليه لقهر العدو .

فلو تم لصناعتنا ان تنتقل كما يجب وفي الوقت الملائم لتموين الجيش بالمواد الحربية اللازمة ، لجاءت خسائرنا في الحرب اقل بكثير مما كانت عليه . وقد بدا لنا في الايام الأولى من الحرب ان جيشنا كان سيء التجهيز والتسليح ، وكنا نفتقر جداً للمدفعية وللعربات المدرعة وللطيران لرد العدو على اعقابه .

فالعلوم السوفياتية والتكنولوجيا انتجت انواعاً ممتازة من العربات المدرعة وقطع المدفعية قبل الحرب . الا اننا كنا نفتقر كثيراً للتنظيم لتأمين الانتاج بالجملة . والحق يقال اننا اخذنا بتحديث وسائل دفاعنا الحربية عشية الحرب . وعندما ابتدأ الهجوم الالماني على الاتحاد السوفياتي لم يكن لدى الجيش الكميات الكافية ، سواء منها في المصانع القديمة التي لم تعد صالحة للانتاج او في المصانع الحديثة التي كنا بحثنا خطة تبنيها لتأمين انتاج العتاد الحربي .. وكان سلاحنا المضاد للطائرات في وضع سيء جداً ، ولم نكن اخذنا كذلك العدة لانتاج اسلحة مضادة للدبابات والعربات المدرعة . وقد تبين لنا الآن ان عدة مناطق محصنة لم تكن قادرة على الرد والدفاع عندما تمت مهاجمتها ، لسبب وحيد هو ان

الاسلحة القديمة نزعت منها ، بينما الحديثة لم تكن ركبت بعد في اماكنها .

وهذا النقص لم يواجه سلاح الدبابات والمدفعية والطائرات فقط . فعند انطلاق شرارة الحرب الأولى لم يكن لدينا من البنادق الآلية ما يكفي لتسليح المجندين . واذكر جيداً انه عندما تلفنت من كييف للرفيق مالنكوف واخبرته « ان الشعب اقبل على التطوع في الجيش ، ولذا فاننا نحتاج إلى اسلحة . عليكم ان ترسلوا لنا اسلحة على وجه السرعة » . رد علي مالنكوف قائلا : « ليس في وسعنا ان نرسل اليكم سلاحاً. فقد ارسلنا كل ما نملك من بنادق إلى لينينغراد ، وعليكم ان تهتموا انتم بتسليح انفسكم » . (حركة في القاعة) .

هكذا كان وضع تسلحنا .

ليس في الامكان ان ننسى في هذا المجال ، الحادثة التالية : قبل ان يغزو الجيش الهتلري الاتحاد السوفياتي ، كان كيربونوس (الذي قتل في ما بعد) رئيساً لقطاع كييف الحربي ، فكتب إلى ستالين يعلمه ان الجيش الالماني بلغ نهر البوغ وهو يستعد للقيام بهجوم . ولذا اقترح كيربونوس تنظيم دفاع قوي، كما اقترح اجلاء ٣٠٠,٠٠٠ مدني من المناطق المتاخمة واقامة بعض مراكز خاصة للمقاومة ، والحفر لمنع سير الدبابات والعربات المدرعة وبناء الخنادق لوقاية افراد الجيش ، وغير ذلك من التدابير .

وردت موسكو على هذا الاقتراح بان مثل هذه الاجراءات تشكل تحدياً فلا لزوم لاقامة خط دفاع وقائي على الحدود لئلا يصبح عند الالمان حجة للهجوم. وهكذا نرى كيف ان مناطق الحدود لم تكن محمية كما يجب لصد العدوان .

وعندما اخذت الجيوش الفاشية تغزو ارض الاتحاد السوفياتي وبدأت اعمالها الحربية ، اصدرت موسكو اوامرها بعدم الرد على النار . لماذا ؟ لان ستالين لم يصدق ، بالرغم من كل الدلائل ، ان الحرب ابتدأت ، واعتقد ان هذه الاعمال انما هي اعمال استفزازية من قبل قطاعات المانية غير نظامية ، فاذا رددنا عليها نحن ، نعطي الالمان عذراً لشن الحرب .

والكل يعرف جيداً الحادث التالي : في عشية غزو الجيش الهتلري للاتحاد السوفياتي اجتاز الماني حدودنا واخبرنا ان الجيش الالماني تلقى اوامر صريحة لبدء الهجوم ضد الاتحاد السوفياتي في ليل ٢٢ حزيران ، عند الساعة الثالثة صباحاً . وارسل الخبر لستالين في الحال ، الا انه تجاهل هذا التحذير كما تجاهل غيره من قبل .

لقد أهمل كل شيء : تحذيرات بعض قادة الجيش ، وتصريحات الهاربين من جيش العدو ، بل حتى قيام العدو بالهجوم المكشوف . فهل في ذلك كله ما يدل

على يقظة رئيس الحزب ورئيس الدولة في مثل ذلك الظرف التاريخي الهام ؟

وماذا كانت النتائج التي ادى اليها موقف اللامبالاة هذا وازدراء الوقائع الناطقة ؟ النتيجة كانت ان العدو تمكن في الساعات والايام الأولى من هجومه ان يدك الحصون القائمة في منطقة الحدود ، وان يعطل قسماً كبيراً من قواتنا الجوية ، ومن مدفعيتنا وعتادنا الحربي ، كما انه قضى تماماً على قسم كبير من ملاكاتنا الحربية وخلخل قيادتنا العسكرية، فعجزنا بالتالي عن صد العدو في تغلغله عميقاً داخل البلاد .

كلها نتائج خطيرة جداً وقعت في مطلع الحرب ، وجاءت بعد ان اعدم ستالين عدداً من كبار قادتنا العسكريين ومن كبارساستنا عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ، قضوا ضحية الوشايات والافتراء الشنيع. وقد جرت خلال هذه السنوات موجات تطهير وتصفية ذهبت بصفوة من كبار الضباط في ملاكاتنا العسكرية انطلاقاً من الكتيبة ، إلى الطابور ، إلى الفرقة لتبلغ كبار ضباط الجيش ممن لهم خبرات واسعة في حرب اسبانيا وفي حرب الشرق الاقصى .

واعمال تصفية كبار الضباط في ملاكات الجيش على نطاق واسع كان من بعض نتائجها الحاق الاذى بالروح النظامية في الجيش ، بعد ان حرص الضباط ، سنين طوالا ، بناء على الاوامر والتعليمات التي تلقوها « للكشف » عن رؤسائهم باعتبارهم اعداء متخفين (هياج في القاعة) . ومن الطبيعي ، ان يعود ذلك كله على البلاد بتأثير سلبي ينعكس على النظام العسكري في المرحلة الأولى من مراحل الحرب .

كلكم يعرف تماماً حق المعرفة ما تمتع به الجيش ، قبل الحرب ، من ملاكات عسكرية ممتازة لم يكن ليشك احد بولائها للحزب وللوطن . ولنا الدليل القاطع على ذلك في ان هذا الفريق من القادة الذين نجوا من موجات التطهير التي تعرضوا لها ، والذين حقروا وسجنوا وعذبوا ، ما ان انطلقت شرارة الحرب الأولى حتى هبوا منذ اللحظة الأولى للدفاع عن الوطن ، والذود عن حياضه . وتعود بي الذاكرة الى روكوسوفسكي (الذي زج به في غياهب السجن ، كما تعرفون) ، وغورباتوف ومرتسكوف (احد المندوبين الى هذا المؤتمر) وبودلاس (هذا القائد الممتاز الذي سقط شهيداًفي ساحة الوغى) وغيرهم . الا ان عدداً من كبار الضباط والقادةامثالهم ، قضوا حتفهم في المعتقلات والسجون فخسرهم جيشنا إلى الأبد .

كل هذا يعود بنا إلى الوضع الذي سيطر على البلاد عند انطلاق الحرب وتمخض عن خطر ماحق يهدد الاتحاد السوفياتي وسلامة اراضيه .

من غير اللائق قط ان نجهل اونتجاهل البلاء العظيم والانكسارات الاولى التي لحقت بنا على الجبهة وقد تغلب اليأس على ستالين وظن ان هذا بدء النهاية والمصير المحتوم. فقد جاء في احد الخطب التي القاها في احد الايام: « تغافلنا عن كل ما علمنا اياه لينين » .

وبعد هذا انقطع ستالين عن قيادة الاعمال الحربية وامتنع عن التدخل في اي شيء فيها ولم يعد يخصص كل نشاطه لاعمال القيادة الا عندما قام فريق من اعضاء المكتب السياسي بزيارته وابلغوه ضرورة اتخاذ بعض التدابير في الحال لتحسين الاوضاع القائمة في الجبهة .

ولذا ، فالخطر الماحق الذي هدد الوطن الأم في المرحلة الأولى من الحرب يكمن ، إلى حد بعيد ، في هذه الاساليب الخاطئة التي طبقتها قيادة ستالين للامة والحزب معاً .

لا نتناول بحديثنا فقط الفترة التي انطلقت فيها شرارة الحرب والتي ادت إلى خلخلة نظام جيشنا وتكبدنا فيها خسائر جسيمة . فالعصبية والهستيريا التي اعترت ستالين في المرحلة الثانية وتملكت منه ، بالاضافة إلى العمليات الحربية الجارية ، سببت لجيشنا اذى كبيراً .

كان ستالين ابعد ما يكون عن الوضع القائم والتطور الحاصل في الجبهة ، وهذا شيء طبيعي لانه لم يقم يوماً طيلة هذه الحرب الوطنية ، بزيارة تفقدية لأي قطاع من قطاعات الجبهة ولم يقم بزيارة اية مدينة تم تحريرها، الا زيارة قصيرة في سيارته على اوتوستراد موزهايسك عندما استقر الوضع على الجبهة . وقام بعض الكتاب يخلدون هذا الحادث ويصفونه باوصاف ونعوت غريبة ، كما خلدوا ذكراه برسوم وصور عديدة . وتدخل ستالين بشؤون العمليات الحربية واصدر الاوامر والتعليمات التي لم تكن لتراعي الاوضاع المستبدة ببعض القطاعات على الجبهة ، والتي لم تكن لتساعد بشيء في تحسين الوضع بل تتسبب بخسائر جسيمة في الأرواح .

وإني اسمح لنفسي ان اذكر امامكم في معرض الحديث حادثاً مميزاً يبين لكم كيف كان ستالين يتدخل بالعمليات الحربية على الجبهات . يحضر هذا الاجتماع الآن المارشال بغراميان الذي كان يوماً رئيساً للاعمال الحربية في الجبهة الجنوبية الغربية والذي في امكانه ان يؤيد ما ارويه لكم :

عندما تأزم الوضع واصبح ينذر بالخطر على جيشنا في منطقة خاركوف ، قررنا حسب الاصول الغاء عملية كان من اهدافها تطويق خاركوف لان الوضع السائد آنذاك على تلك الجبهة لا يخلو من خطر على جيشنا ، مما يجر إلى

نتائج وخيمة جداً اذا ما مضينا في العملية .

واطلعنا ستالين على هذا الترتيب . واعلمناه ان الوضع يقتضي تعديل خطة العمليات حتى لا تتوفر للعدو فرصة تطويق قسم كبير من الجيش وتسميره في مواقعه .

وخلافاً للمنطق ولكل مقتضيات العقل السليم ، رفض ستالين الاخذ باقتراحنا واصدر الاوامر بتنفيذ العملية بالرغم من ان بعض حشوداتنا كانت مهددة بخطر التطويق وبالفناء .

وتلفنت آنذاك إلى فاسيلفسكي ورجوته بان يتناول الكسندر ميخائيلوفتش خريطة (ان فاسيلفسكي حاضر هنا) ويشرح للرفيق ستالين تطور الأوضاع على الجبهة المذكورة . ولا بد من التنويه هنا ان ستالين كان يضع خططه للعمليات الحربية على كرة (حركة في القاعة) ويرسم عليها حدود الجبهة . نعم ايها الرفاق كان يستعمل كرة ويرسم عليها الحدود . فقلت للرفيق فاسيلفسكي ان يشرح الوضع لستالين على خريطة ، اذ ليس بامكاننا في الظروف الحاضرة متابعة العملية المخطط لها . فالقرار القديم يجب تعديله .

واجابني فاسيلفسكي بان ستالين سبق له ودرس الوضع والمشكلة الناجمة ، وبأنه اي فاسيلفسكي لن يتمكن من البحث مع ستالين بهذا الخصوص ، لان هذا الاخير لا يحب ان يستمع إلى براهين جديدة حول موضوع العملية الحربية .

وبعد مكالمتي مع فاسيلفسكي ، اتصلت بستالين في دارته الا انه لم يرد على التلفون بينما كان مالنكوف على السماعة . وابلغت الرفيق مالنكوف انني اتكلم من الجبهة ، واني ارغب في التحدث شخصياً إلى ستالين الذي أبلغني بلسان مالنكوف بان علي ان أبحث الأمر مع مالنكوف . فاخبرته للمرة الثانية انني اود ان ابلغ ستالين شخصياً حقيقة الوضع الحرج على الجبهة ، فلم ير ستالين في الأمر ما يوجب تناول سماعة التلفون ، بل ردد مرة اخرى ان علي ان ابحث القضية معه بواسطة مالنكوف ، مع انه لم يكن يبعد عن التلفون الا بضع خطوات .

فبعد ان استمع ستالين إلى حججنا وبراهيننا قال : « اتركوا كل شيء على ما هو . »

وماذا كانت النتيجة ، بعد هذا كله ؟ اسوأ مما كنا نتوقع . فقد طوق الالمان حشود جيشنا وخسرنا في نهاية الامر مئات الألوف من جنودنا البواسل . هذه هي عبقرية ستالين الحربية ، وهذا ما دفعنا ثمنه (حركة في القاعة) .

وفي مناسبة اخرى وقعت بعد الحرب ، خلال اجتماع ستالين مع فريق من اعضاء المكتب السياسي ، ذكر انستاس ايفانوفتش ميكويان ان الحق كان إلى

جانب خروشوف عندما بحث على التلفون عملية خاركوف الحربية ومن المؤسف جداً ان يكون رفض اقتراحه .

واخذت ستالين نوبة من الهياج الشديد . كيف يمكن القول او التسليم بان ستالين لم يكن على حق . ألم يكن نابغة وعبقرياً ولا يمكن للعبقري الا ان يكون على حق . فلم يعترف يوماً لاحد انه اشتط او غلط في صغيرة او كبيرة بالرغم مما بدر عنه من اغلاط في الآراء والنظريات التي ابداها وفي مختلف النشاطات العملية التي قام بها . ومما يترتب علينا بعد الفراغ من مؤتمر الحزب ان نعيد تقييم العديد من العمليات العسكرية خلال الحرب وان نسلط عليها ما يلزم من الانوار الكاشفة .

والتكتيك الذي اصر ستالين بعناد على التقيد به دون ان يفقه شيئاً من قيادة العمليات الحربية كلفنا سيلا من الدماء الزكية لم ينقطع نزيفها حتى الساعة التي تمكنا فيها من صد العدو واستئناف الهجوم من جديد .

يعرف العسكريون ان في اواخر عام ١٩٤١ بدلا من ان يقوم جيشنا بمناورات تأخذ العدو المهاجم من جوانبه وتتغلغل وراءه ، تمسك ستالين بالقيام بهجمات جبهية واستعادة القرى المحتلة الواحدة تلو الاخرى . ولهذا السبب تكبدنا خسائر فادحة إلى ان تمكن قوادنا الذين حملوا على كواهلهم اعباء العمليات الحربية وتحملوا ثقل الحرب ومعاركها ، من تغيير الوضع على الجبهة واعتمدوا خطة التناور في الحرب التي ادت في الحال إلى تغييرات جذرية في الجبهة لصالحنا .

والمخجل في هذا كله هو ان ما ان تم لنا هذا النصر على العدو الذي كلفنا غالياً ، حتى راح ستالين ينتقص من قدر العديد من قوادنا الذين ساهموا في النصر على احسن وجه ويحط من شأنهم ، لان ستالين لم يكن ليرضى بوجه من الوجوه ، ان يعترف بالفضل لاحد سواه . وقد اهتم ستالين كثيراً بتقييم الرفيق جوكوف كقائد حرب. وكثيراً ما سألني رأيي فيه ،فكنت اجيبه : « اني اعرف جوكوف منذ عهد بعيد ، فهو من خيرة قادتنا ومن افضل قادة الجيوش »

وبعد الحرب اخذ ستالين يروي عن جوكوف الحكايات السخيفة ، منها الرواية التالية . « انك تطري جوكوف وانا ارى انه لا يستحق كل هذا الاطراء . فهو قبل كل عملية حربية تقوم على الجبهة كان يتناول بيده حفنة من التراب ويشمها ويقول : في وسعنا الشروع في الهجوم ، او يقول عكس ذلك ، اي ان العملية المخطط لها لايمكن تنفيذها » . فقلت اذ ذاك : « ايها الرفيق ستالين لا ادري قط من اخترع هذه القصة ، الا انها ليست واقعية » .

من المعقول جداً ان يكون ستالين اخترع هذه القصص للحط من شأن الدور

الحربي الذي لعبه جوكوف ، والانتقاص من عبقريته كمارشال حرب .

وفي هذا المجال عمل ستالين بنشاط محموم على ابراز نفسه كقائد عظيم ، فقد حاول بمختلف الوسائل ان يدخل في روع الناس ان كل الانتصارات الحربية التي سجلها الاتحاد السوفياتي خلال الحرب القومية الاخيرة ، يعود الفضل فيها الى شجاعة ستالين واقدامه وعبقريته لا لأحد غيره . (حركة في القاعة) .

وما دمنا في هذا الموضوع ، لنأخذ مثلا افلامنا التاريخية والحربية وبعض الآثار الادبية. ففيها ما يضحك وما يبكي. ذلك ان هدفها الوحيد الترويج لستالين والاطراء عليه والتعريف به كنابغة حرب . لنستعرض هنا الفيلم السينمائي «سقوط برلين» حيث يبرز ستالين رهويقوم بنشاط كبير: فهو يصدر الاوامر في قاعة تكثر فيها المقاعد الشاغرة ، حتى يقترب منه رجل واحد ويخبره شيئاً ما . هو مرافقه وحارسه الأمين بوسكر بيتشف (ضحك في القاعة) .

ولكن اين القيادة العسكرية ؟ واين المكتب السياسي ؟ واين الحكومة في المشهد ؟ ماذا يعملون وبما يهتمون ؟ الفيلم لا يذكر شيئاً عنهم . فستالين يقوم بالعمل بالنيابة عن الجميع ولا يحسب حساباً لاحد ، ولا يطلب رأياً من أحد . كل شيء يعرض على الشعب في انوار مصطنعة . ولماذا ؟ لسبب واحد لا غير ، لاحاطة ستالين بهالة من المجد خلافاً للحقيقة التي تشهد بعكس ذلك ، وخلافاً للحقيقة التاريخية .

ليس ستالين وحده ، بل الحزب بمجموعه ، والحكومة السوفياتية ، وجيشنا الباسل ، وقوادنا النوابغ وجنودنا الشجعان — كل الشعب السوفياتي — هؤلاء هم الذين أمنوا الفوز وجلبوا النصر في هذه الحرب الوطنية (تصفيق حاد). فاعضاء اللجنة المركزية والوزراء وقادة اقتصادنا وقادة الثقافة السوفياتية والفنيون — كل واحد من هؤلاء بذل ، وهو في مركزه ، بسخاء من روحه وقوته وعلمه لضمان النصر وهزيمة العدو .

وقد قدمت طبقة الكادحين في البلاد بطولة خارقة . والفخر ملء وفاض الطبقة العاملة يجلل تعاونيات المزارعين وطبقة الانتليجنسيا . فبتوجيه الحزب الشيوعي ومنظماته كرسوا جميعاً قواهم وجميع ما فيهم من طاقات للدفاع عن الوطن الأم .

والمرأة السوفياتية قامت بالمعجزات في الحرب ، فنهضت في المؤخرة بعبء العمل في المصانع وتأمين الانتاج في المزارع ، في جميع مرافق البلاد الاقتصادية والثقافية والفكرية ، وساهم عدد كبير من نساء البلاد بالمجهود الحربي مباشرة على الجبهات المختلفة ، وقام جيل فتياننا سواء على الجبهة او في داخل البلاد بمساهمة لا تقدر في الدفاع عن الوطن السوفياتي ، وفي العمليات التي ادت إلى

سحق العدو .

والاعمال التي قام بها الجندي السوفياتي والقادة والموظفون السياسيون من مختلف الرتب تخلدهم إلى الأبد . فبعد ان فقد الجيش قسماً كبيراً من وحداته في الاشهر الأولى من هذه الحرب الضروس ، لم يفقدوا وعيهم ورشدهم وتمكنوا من اعادة تنظيمهم والمعارك دائرة ، كما تمكن قوادنا من تشكيل جيش باسل قوي متماسك الوحدات ، أثناء تطور سير الحرب ، فاستطاع ان يصمد امام العدو وقواه الضاغطة وحيله الماكرة . بل ايضاً تمكن من سحقه .

وهذه الاعمال البطولية الخالدة التي قام بها مئات الملايين من افراد شعبنا في الشرق والغرب على السواء ، خلال هذه الحرب التي هددتنا جميعاً بافظع اشكال العبودية والخضوع للفاشيين ستبقى مشعة براقة امام عيوننا كما ستخلد في ضمير الانسانية جمعاء (تصفيق حاد في القاعة) .

فالدور الأول ، والفضل الاكبر يجب ان يعود ، في تحقيق النصر في هذه الحرب لحزبنا ، الحزب الشيوعي ، وللقوى المسلحة في الاتحاد السوفياتي ولعشرات الملايين من افراد الشعب السوفياتي الذين ترعرعوا في كنف الحزب ورعايته (تصفيق حاد متواصل) .

لننتقل ايها الرفاق إلى امور اخرى . ينظر إلى الاتحاد السوفياتي كمثال يحتذى لدولة متعددة القوميات ، اذ عرفنا ان نؤمن لافراد هذه الدولة المساواة والعلاقات الودية بين جميع القوميات التي تتعايش بسلام تحت سماء الوطن الأم .

ولعل افظع المآسي وارهب الاعمال هي التي بدرت عن ستالين فتمثلت على اتمها في انتهاكات وحشية للمبادىء الاساسية التي قال بها لينين وعلم ، مما يتعلق بالسياسة القومية في الاتحاد السوفياتي . ونحن في كلامنا هذا ، انما نشير إلى حوادث الاجلاء بالجملة لقوميات بكاملها ونقلها من اماكن سكنها ، بمن فيها من شيوعيين وفرق الكومسومول ، دونما تمييز او استثناء . وهي حوادث لم تتطلبها قط الاعتبارات الحربية ولا اقتضت القيام بها .

وهكذا وفي اواخر عام ١٩٤٣ ، والجيش السوفياتي يخترق جبهات العدو ، جرى تنفيذ الأمر الصادر والقاضي باجلاء اقوام الكراكاي جميعاً من الاراضي التي يقيمون عليها . وفي الوقت ذاته ، اي في اواخر كانون الاول ١٩٤٣، اصاب المصير نفسه سكان جمهورية كلميك التي تنعم باستقلالها الداخلي . وفي آذار ١٩٤٤ ، تم ترحيل قوميات التشتشن والانغوش وجرت تصفية جمهورية تشتشن انغوش شبه المستقلة . وفي نيسان ١٩٤٤ ، تم ترحيل اقوام البلغار إلى اماكن بعيدة ونقلوا امن جمهورية كاباردينو بلغار شبه المستقلة ، ثم الغيت هذه الجمهورية

نفسها لتعرف فيما بعد تحت اسم جمهورية كاباردين المستقلة. وتفادى الاوكرانيون مثل هذا المصير لكثرة عددهم ولعدم وجود محل لاستيعابهم ، والا لكان امر ستالين بنقلهم (ضحك وهيجان في القاعة) .

فالماركسي اللينيني لا يعجز وحده ، بل ايضاً صاحب العقل السليم ، عن الفهم كيف يمكن أخذ أمم وقوميات برمتها بجريرة بعض النشاطات المعادية ليضرب بمثل هذا الجلاء الاولاد والنساء والشيوخ واعضاء الحزب الشيوعي فيستهدفون جميعاً على السواء لعمليات تأديبية جماعية ويتعرضون للبؤس والشقاء والعذاب اتقاماً من بعض الافراد او الجماعات الذين قاموا بنشاطات عدائية .

فبعد ان وضعت الحرب الوطنية اوزارها ، راح الشعب السوفياتي يشيد والفخر ملء بردتيه ، بهذه الانتصارات المدوية التي سجلها بتضحياته العظيمة والجهود الجبارة التي بذلها بسخاء . فعاشت البلاد حقبة جاشت بالحماسة والابتهاج . وخرج الحزب من الحرب اكثر اتحاداً وترابطاً . ففي مثل هذه الظروف من يستطيع ان يفكر بان يحيك الدسائس على الحزب والتآمر عليه ؟

ومع ذلك وقع في هذا الوقت بالذات ، الحادث المعروف « بقضية لينينغراد » .

وقد سبق لنا ان اثبتنا ان هذه القضية كلها من نسيج الخيال ومختلقة من الاساس .

فمن بين الابرياء الذين كلفتهم هذه القضية حياتهم الرفاق فوزنسنسكي ، وكوزنتسوف ، وروديانوف ، وبوبكوف ، وآخرون عديدون .

يعرف الجميع ان فوزنسنسكي وكوزنتسوف كانا من اصحاب المواهب العالية والقادة البارزين . وكانا في وقت ما من اقرب المقربين إلى ستالين .

ويكفي ان نشير هنا إلى ما كانا عليه من منزلة رفيعة ، وذلك بتعيين فوزنسنسكي نائباً اول لرئيس مجلس الوزراء كما انتخب كوزنتسوف سكرتيراً للجنة المركزية .

ومجرد التنويه بان ستالين وضع ثقته الكاملة بكوزنتسوف وولاه الاشراف على اجهزة الأمن في الدولة دليل قاطع على الثقة التي كان يتمتع بها عند ستالين .

فماذا جرى حتى افتري على هذين الرجلين ووجهت اليهما تهمة « اعداء الشعب » وجرت تصفيتهما ؟

الوقائع تؤيد بوضوح ان « قضية لينينغراد » ليست في الحقيقة الا نتيجة النية الشريرة التي كان ستالين يبيتها ضد ملاكات الحزب .

فلو كانت اوضاع لجنة الحزب المركزية واللجنة المركزية في المكتب السياسي طبيعية لكانت قضايا من هذا النوع تستدعي طرحها على هذه الهيئات ودرسها بدقة وفقاً للعرف المتبع في الحزب ، والتأكد من صحة جميع الوقائع والوثائق الثبوتية . ولا شك عندنا قط ان هذه الحادثة كغيرها من الحوادث الاخرى ، لم تكن لتقع لو عرضت على هذه الهيئات .

يجب ان نشير هنا الى ان الوضع اخذ بالتردي والتأزم في اعقاب الحرب. فستالين اصبح اكثر تقلباً من اي وقت مضى ، واكثر تهيجاً ووحشية ، كما طغت عليه الروح التشككية التي جاشت بها نفسه . وهوس الاضطهاد تجاوز حدود المعقول . فصار يرى الاعداء والخصوم في كل من يقع عليه نظره . وعزل ستالين نفسه اكثر فاكثر عن الجماعة . فهو وحده يقرر كل شيء دون استشارة اي كان او الاعتماد على اي شيء .

وهذه الريبة والروح التشككية التي لا يمكن لاحد ان يتصورها ، عرف ان يستغلها واش لئيم ونفاث ذميم هو بيريا الذي في ذمته الوف الضحايا من الشيوعيين وافراد الشعب الاوفياء . فالترفيع الذي اصاب فوزنسنسكي وكوزنتسوف أقض مضجع بيريا . وكما سبق واثبتنا فقد اتضح لدينا ان بيريا هو الذي « اقترح » على ستالين القيام ، بالتعاون مع بعض من يضع فيهم ثقته ، بتزويد الادلة الثبوتية والاعترافات الشخصية والرسائل المغفلة ونشر الشائعات الملفقة والاحاديث المزعومة .

اعادت اللجنة المركزية للحزب النظر والتدقيق في هذه القضية المعروفة «بقضية لينينغراد» . وقد جرى رد الاعتبار الآن لجميع الابرياء الذين تضرروا بهذه القضية وذهبوا ضحية لها ، واعيد الشرف والكرامة إلى منظمة الحزب المجيدة في لينينغراد . والاشخاص الذين لفقوا هذه القضية مثل اباكوموف وغيره احيلوا للمحاكمة امام محكمة لينينغراد ونالوا جزاء ما صنعت ايديهم .

ولعل من يسأل قائلا لماذا نوجه الانوار على هذه القضية الآن ونكشف خفاياها ، بينما لم يتم شيء من هذا من قبل ، في عهد ستالين بالذات ، انقاذاً للابرياء ؟ والسبب هو ان ستالين نفسه اشرف على إعداد « قضية لينينغراد » بينما غالبية اعضاء المكتب السياسي ، كانوا يجهلون اذ ذاك ، الظروف التي احاطت بهذه الوقائع . وهكذا ، فلم يكن في وسعهم ان يفعلوا شيئاً .

وعندما تسلم ستالين بعض المواد من بيريا واباكوموف دون ان يقوم بأي تدقيق في هذه الاوراق المدسوسة والحوادث المختلقة ، امر باجراء التحقيق في الأمور المتهم بها فوزنسنسكي وكوزنتسوف ، وبذلك قرر القدر مصيرهم .

ولا تقل عبرة عن هذه ، القضية المتعلقة « بالحركة الانفصالية » المزعوم وجودها في جورجيا . والثابت الآن ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي اتخذت في الاجتماعات التي عقدتها في تشرين الأول ١٩٥١ وآذار ١٩٥٢ ، توصيات معينة بهذا الشأن . اتخذت هذه التوصيات دون سابق عرضها على المكتب السياسي ومناقشتها فيه . وستالين نفسه هو الذي وضع النص بنفسه . وتتضمن هذه التوصيات تهماً خطيرة ضد بعض اعضاء الحزب المعروفين

بولائهم . وعلى اساس هذه الوثائق الملفقة والمزورة من الاساس تبين انه تنشط بالعمل في جورجيا هيئة وطنية مفترضة ومن اهدافها القضاء على السيطرة السوفياتية في تلك الجمهورية بمساعدة الدول الامبريالية .

وعلى هذا الاساس جرى اعتقال عدد من اعضاء الحزب الشيوعي ومن رجال الادارة فيها .

نعرف جيداً انه قامت في جورجيا ، في وقت من الأوقات ، مظاهرات نظمها وطنيون بورجوازيون في تلك البلاد كما قام مثلها في عدد من الجمهوريات الاخرى . وهنا لا بد من التساؤل ، هل كان بالامكان في الوقت الذي وضعت فيه هذه التوصيات المشار اليها اعلاه ظهور نزعات وطنية في جورجيا لها من قوة الشأن والحول والطول ما يدعوها للمطالبة بانسحاب هذه الجمهورية من الاتحاد السوفياتي والانضمام إلى تركيا ؟ (حركة في القاعة وضحك) .

هذا قول هراء لا معنى له على الاطلاق . من المستحيل ان يتصور المرء كيف ان افتراضات من هذا الشكل يمكن ان يصدقها العقل او تخطر له على بال . والكل يعرف جيداً التطور العظيم الذي سجلته جورجيا في المجالات الاقتصادية والثقافية تحت الحكم السوفياتي .

فالانتاج الصناعي في جورجيا نما ٢٧ ضعفاً عما كان عليه قبل الثورة ، وظهرت فيها منذ ذلك الحين صناعات عديدة جديدة لم يسبق وجودها في البلاد قبل الثورة ، كصناعة صهر الحديد ، وصناعة الزيت ومشتقاته ، وصناعة الاجهزة الآلية ، وغير ذلك . اما الامية فيها فقد قضي عليها من عهد بعيد ، بينما كانت نسبتها في تلك البلاد ٧٨٪ من مجموع السكان .

هل في مقدور الجورجيين ، وهم يقارنون الوضع المزدهر الذي تم لبلادهم بالوضع العصيب الذي تتردى فيه طبقة العمال في تركيا ، ان يطلبوا او يقترحوا الانضمام إلى تركيا ؟ ففي ١٩٥٥ كان الفرد في جورجيا ينتج من الفولاذ ما يعادل ١٨ مرة انتاج الفرد في تركيا ، والطاقة الكهربائية في جورجيا يزيد معدلها بالنسبة للفرد الواحد ٩ اضعاف معدل الفرد في تركيا . واعتماداً على نتائج الاحصاء العام لسنة ١٩٥٠ ، ان ٦٥ بالمائة من سكان تركيا يتسكعون في مهاوي الجهل والجهالة . بينما تتفشى الأمية بين النساء بشكل مريع ، اذ يبلغ معدلها ٨٠ ٪ . اما في جورجيا فهناك ١٩ معهداً للتعليم العالي تضم معاً ٣٩,٠٠٠ طالب وطالبة وهذا يزيد ٨ اضعاف عما هو عليه الوضع في تركيا . اما الازدهار الذي ينعم به العمال في جورجيا فقد بلغ حداً هائلا في ظل الحكم السوفياتي .

يتضح من هذا كله انه كلما تطورت جورجيا في المجالين الاقتصادي

والحضاري وازداد الوعي الاشتراكي عند الطبقات العاملة، اضمحلت بالمقابل الينابيع التي تغذي الحركة القومية البورجوازية .

ويتضح ايضاً مما تقدم انه لم يكن من وجود لمنظمة وطنية انفصالية في جورجيا . فألوف الابرياء ذهبوا ضحية النوايا الشريرة وعدم التقيد بالقانون . كل هذا حصل ووقع في ظل قيادة ستالين « وعبقريته » وهو « سليل الامة الجورجية العظيم » كما يحلو للجورجيين ان يلقبوه ، معتزين فخورين . (حركة في القاعة) .

تبرز نوايا ستالين الشريرة بوضوح وجلاء ليس في هذه القرارات التي اتخذها مما يتصل بحياة البلاد في الداخل ، بل ايضاً في علاقات الاتحاد السوفياتي الدولية .

فالاجتماع العام الذي عقدته اللجنة المركزية بكامل اعضائها في تموز دار حول الاسباب التي من اجلها تسممت العلاقات مع يوغوسلافيا. فقد لعب ستالين هنا دوراً مخجلا بالفعل . « فالقضية اليوغوسلافية » لا تحوي مشاكل يستعصى حلها اذا ما تولاها الرفاق في الحزب بالبحث والنقاش الموضوعي . وهذا القول لا يعني قط ان القادة اليوغوسلاف لم يقترفوا اغلاطاً او ان ليس عندهم مواطن ضعف . ولكن هذه الاغلاط ومواطن الضعف تلك ضخمها ستالين إلى حد غريب كان من بعض نتائجه قطع العلاقات بين دولتين صديقتين .

اذكر يوم اخذ يصطنع تضخيم الخلاف بين الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا في الايام الأولى . وذات مرة عندما جئت من كييف إلى موسكو دعيت لزيارة ستالين الذي اشار إلى نسخة رسالة بعثت مؤخراً إلى تيتو وسأني : « هل قرأت هذه ؟ » ولم ينتظر جوابي بل بادر إلى القول : « سأهز اصبعي الصغيرة ويزول تيتو من الوجود . يتداعى ويسقط ! »

وكم دفعنا غالياً من أجل هزة الاصبع الصغيرة هذه. ان هذا التصريح عكس عقدة جنون العظمة عند ستالين. ولكنه تصرف على هذا النحو: « اهز اصبعي الصغيرة فيزول كوسيور من الوجود » ، « واهز اصبعي الصغيرة فيزول بوستيشيف وشوبار ، وفوزنسنسكي وكوزنتسوف وسواهم عديدون » !

ولكن ذلك لم يحصل لتيتو . مهما هز ستالين لا اصبعه فحسب ، بل كل ما يستطيع هزه، فان تيتو لم يسقط. لماذا ؟ ان السبب كامن في انه في حال الخلاف مع الرفاق اليوغوسلافيين، فقد كان وراء تيتو دولة بل وشعب خبر الكفاح في سبيل الحرية والاستقلال .

اترون إلى اين قاد جنون العظمة ستالين ؟ لقد اضاع كلياً وعيه بالحقائق . فأخذ يمارس شكوكه وتعاليه ليس ازاء افراد من الاتحاد السوفياتي فحسب ، بل ازاء

احزاب وامم باسرها .

لقد فحصنا قضية يوغوسلافيا بدقة فوجدنا حلا ملائماً وافق عليه شعبا الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا فضلا عن الجماهير العاملة في الديمقراطيات الشعبية وسائر الانسانية التقدمية. ان تصفية العلاقات غير الطبيعية مع يوغوسلافيا أمر تم لمصلحة معسكر الاشتراكية كله ، ولمصلحة تعزيز السلام في العالم كله .

اود ان اعيد إلى اذهانكم كذلك قضية « الاطباء المتآمرين » . (تحمس في القاعة) . ليس هنالك « قضية » خارج التصريح الذي ادلت به الدكتورة تيماشوك التي قد تكون أمرت او وقعت تحت تأثير أحدهم (لم تكن بعد هذا كله، سوى مساعدة غير رسمية لاجهزة أمن الدولة) لتنظيم رسالة إلى ستالين تعلمه فيها ان الاطباء يستعملون — كما هو مظنون — في طبابتهم للناس اساليب غير مشروعة .

وكانت هذه الرسالة حافزاً لستالين للظن بوجود اطباء يتآمرون في الاتحاد السوفياتي ، فاصدر على الأثر اوامره بالقاء القبض على نخبة الاطباء في الاتحاد ومشاهير الاخصائيين فيه . واعطى تعليماته حول توجيه التحقيق وكيفية القيام به مع الاشخاص الموقوفين. واوصى ان يكبل الاكاديمي فينوغرادوف بالحديد كما اوصى بجلد طبيب آخر . وبين حضور هذا المؤتمر الآن المندوب والوزير السابق الذي يشرف على دوائر أمن الدولة الرفيق اغناتيف . وقد اوعز اليه ستالين بطريقة هي في منتهى الفظاظة قائلا : « اذا لم تتمكن من انتزاع اعترافات من هؤلاء الاطباء ساضطر إلى تقصيرك من العنق ! » (ضجة في القاعة) . واستدعى ستالين بنفسه قاضي التحقيق واصدر اليه تعليماته الخاصة واوصاه بانتهاج نوع معين واسلوب خاص في التحقيق الذي سيقوم به ، وهي وسائل في غاية البساطة : الضرب والضرب والضرب ايضاً وايضاً !

وبعد وقت وجيز من توقيف الاطباء ، عرضت علينا نحن اعضاء المكتب السياسي محاضر ممهورة بتواقيع الاطباء يعترفون فيها بذنوبهم وجرائمهم . وعلى اثر توزيع هذه المحاضر نظر الينا ستالين قائلا : « انكم عميان كالهررة الصغيرة . لولاي لما عرفتم ماذا سيكون المصير ، كان سيؤول الأمر بالبلاد إلى الدمار ، لانكم لا تحسنون الكشف عن اعدائها » .

عرضت القضية على هذا النحو الذي يتعذر معه التدقيق في الوقائع التي استند اليها التحقيق لاسيما لجهة اعترافات المتهمين .

وشعرنا مع ذلك ان قضية الاطباء مشكوك فيها وتحتمل الظن . اذ كنا نعرف شخصياً بعض هؤلاء الاشخاص . وعندما دققنا في هذه القضيةبعد وفاة ستالين وجدنا انها مختلقة وملفقة من الألف إلى الياء .

حاك ستالين نفسه خيوط هذه « القضية » المخجلة ، الا انه لم يتسع لديه الوقت لاجادة حبكها (ليصل بها إلى النتيجة المتوخاة) . ولهذا السبب سلم الاطباء وبقوا على قيد الحياة . وقد اعيد اليهم جميعاً اعتبارهم الان ، وهم لا يزالون يشغلون المراكز التي كانوا يشغلونها من قبل ويعالجون كبار الموظفين بمن فيهم اعضاء الحكومة ، شأنهم اليوم كما كان في الماضي .

وقد تدخل بيريا في تنظيم هذه القضايا القذرة والمخجلة معاً وساعد في حبكها ولعب في تنفيذها دوراً سافلا للغاية . بيريا هذا هو عدو الحزب المسعور ، العميل في دوائر الاستخبارات الاجنبية الذي فاز بثقة ستالين اكثر من اي شخص آخر . وبأي طريقة يستطيع هذا الواشي النمام المحرض ان يحتل مثل هذا المركز المرموق في الحزب وفي الدولة بحيث اصبح النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي وعضواً في مكتب اللجنة المركزية السياسي ؟ فقد ثبت لدينا الآن ان هذا اللئيم الحقير تسلق سلم الادارة في الحكومة فوق عدد من جثث الضحايا يفوق الحصر .

هل هناك اي قرينة او دليل على ان بيريا هو عدو الحزب ؟ نعم ، هنالك اكثر من دليل وبرهان . ففي الاجتماع العام لاعضاء اللجنة المركزية المعقود عام ١٩٣٧ اعلن كامنسكي مفوض الشعب لشؤون الصحة ، ان بيريا يعمل في خدمة استخبارات موسافات . ولكن ما كاد الاجتماع العام للجنة المركزية يختتم حتى اعتقل كامنسكي وأعدم باطلاق الرصاص عليه . هل دقق ستالين في تصريح كامنسكي يا ترى ؟ لا ، فستالين يثق بكلام بيريا وهذا يكفي وحده . وعندما يثق ستالين باحد او يؤمن بشيء لا يمكن لاحد ان يقول شيئاً يتعارض ورأيه إذ ان من يجرؤ على التعبير عن معارضته لهذا الرأي يلقى المصير الذي لقيه كامنسكي .

هنالك دلائل وقرائن اخرى ايضاً . فالتصريح الذي ادلى به الرفيق سنغوف في اجتماع اللجنة المركزية هو من الاهمية بمكان (اعيد اليه اعتباره منذ عهد قريب بعد ان قضى ١٧ عاماً في المعتقلات) . وجاء في هذا التصريح :

« بالاستناد إلى اعادة الاعتبار للعضو السابق في اللجنة المركزية كارتفليشفيلي لافرنتيف ، سلمت باليد ممثل لجنة أمن الدولة شهادة مفصلة حول الدور الذي لعبه بيريا في الشهادة ضد قضية كارتفليشفيلي وحول الاسباب التي تدين بيريا .

« يبدو لي من الضروري ان أنوه هنا بحادثة تتعلق بهذه القضية والفت اليها نظر اللجنة المركزية لاني رأيت انه ليس من المناسب ان اضمها إلى وثائق التحقيق. ففي الثلاثين من اكتوبر عام ١٩٣١ ، وخلال الدورة التنظيمية لمكتب اللجنة المركزية لاعضاء الحزب الشيوعي (البلشفيك) ، وضع كارتفليشفيلي سكرتير

لجنة ما وراء القوقاس تقريراً وحضر الدورة المذكورة جميع اعضاء المكتب التنفيذي للجنة المقاطعة المذكورة التي تألفت من الاشخاص الواردة اسماؤهم : السكرتير الأول كارتفليشفيلي ، والسكرتير الثاني بيريا (وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الحزب يرد فيها اسم بيريا لمركز في الحزب) . واجاب كارتفليشفيلي بانه يعرف بيريا معرفة تامة ولهذا السبب فهو يرفض رفضاً باتاً ان يعمل معه . وراح ستالين يقترح اذ ذاك ان يترك القضية معلقة بحيث يجري حلها اثناء العمل نفسه . وبعد ذلك بيومين ، اتخذ قرار باعطاء هذا المركز في الحزب لبيريا وبنقل كارتفليشفيلي من مقاطعة ما وراء القوقاس » .

هذه الحادثة نفسها باستطاعة كل من ميكويان وكاغانوفتش تأييدها لانهما كانا حاضرين . والعلاقات غير الودية التي استمرت طويلا بين بيريا وكارتفليشفيلي يعرف امرها الكثيرون . فهي تعود إلى العهد الذي كان فيه الرفيق (اوردزونيكيدز) يعمل وينشط في مقاطعة ما وراء القوقاس . وكان كارتفليشفيلي معاون سرج المقرب . وهذه العلاقات غير الودية حملت بيريا على تلفيق « قضية » ضد كارتفليشفيلي .

من الاشياء التي لا تخلو من مغزى في هذه « القضية » ، اتهام كارتفليشفيلي بالقيام باعمال ارهابية ضد بيريا .

فدعوى الاتهام الموجهة ضد بيريا تضم مناقشة حول الجرائم التي ارتكبها . هنا لا بد من ذكر حادث خاص اذ من الممكن جداً الا يكون قرأ جميع المندوبين إلى هذا المؤتمر هذه الوثيقة . أود ان اشير هنا إلى نزعة بيريا الوحشية في قضايا كدروف وغولوبيف وباتورينا والدة غولوبيف بالتبني . هؤلاء الاشخاص ارادوا إطلاع اعضاء اللجنة المركزية على النشاط الماكر الذي يقوم به بيريا فقتلوا جميعاً رمياً بالرصاص دون اي محاكمة وصدر الحكم حالا بعد تنفيذ الإعدام .

هذا ما كتبه الشيوعي القديم الرفيق كدروف ورفعه إلى اللجنة المركزية عن طريق الرفيق اندرييف (كان الرفيق اندرييف آنذاك سكرتيراً للجنة المركزية) :

« اكتب اليكم طالباً النجدة والمساعدة من خلية مظلمة في سجن ليفورتوسكي . ليبلغ صراخي الملهوف آذانكم فلا تصموها . خذوني تحت حمايتكم . استحلفكم ان تزيلوا عن صدري كابوس التحقيقات واعتبروا الامر كله خطأ .

« أنا بريء اتضور واتقلى في عذاب اليم . ارجوكم ان تأخذوا كلامي صادقاً . فالزمن سيشهد للحقيقة . فانا لست عاملا محرضاً في خدمة اوكرانيا القيصرية . لا لست جاسوساً ، ولا عضواً في جمعية تعمل ضد النظام السوفياتي كما يتهمونني على اساس من الوشايات الكاذبة ، ولا اتيت اي ذنب او جريمة ضد الحزب ولا

ضد الحكومة . انا بلشفي عتيق ليس ما يلطخني او يدنس شرفي . فقد كافحت في صفوف الحزب اكثر من اربعين سنة لخير امتنا وازدهارها ...

« ... انا اليوم ابن ٦٢ سنة ويهددني قضاة التحقيق بان يستعملوا معي اشد الاساليب الجسمانية قسوة وتنكيلا . لقد فقد مأمورو التحقيق وعيهم ورشدهم وغشي على عقولهم وقلوبهم فكابروا عن الاعتراف بان قضيتي لا تقوم على اساس قانوني وبالتالي لا يجوز مطلقاً النظر فيها . يحاولون تبرير تصرفاتهم باتهامي بالعناد والاصرار على الانكار ، وباني عدو مكابر مفترس ، ولهذا تراهم يجدون في طلب المزيد من وسائل الارهاق والتعذيب . ليعرف الحزب اني بريء وان ما من شيء يستطيع ان يحول ابناً باراً للحزب إلى عدو مفترس حتى لو كلفه ذلك اخر نسمة من حياته .

«ولكن اين المهرب وكيف الخلاص؟ لا استطيع ان اتفادى ولا ان أبعد عن نظري الضربات الشديدة التي اراها ستنهال علي بعد قليل .

«ولكن لكل شيء حد. فعذاباتي بلغت اقصى حد ، وصحتي تحطمت وخارت مني القوى وفارقتني قوة الاحتمال والصبر . فالنهاية تقترب مني حثيثاً . يصعب علي ويحز في نفسي حزاً ان اقضي نحبي في سجن سوفياتي وانا مثقل بتهمة الخيانة والعقوق لوطني الأم . هل هنالك ما هو افظع واكثر هولا على قلب رجل شريف ؟ كم هو فظيع هذا كله . فالقلب مني يختنق مرارة والآلام تغمر وجودي وتلفه بالسواد . لا ، لا . هذا لن يحدث ، ولن يكون . انا استغيث صارخاً . فلا الحزب يسمع ولا الحكومة الاشتراكية ، ولا مفوض الشعب ل. ب. بيريا ، يسمع مثل هذه المظالم التي لا علاج لها . انا على يقين تام انه اذا ما فحصت قضيتي بعدل سانصف دونما ضجة او ضجيج ، ودونما حقد او غضب ، ودون هذه العذابات المبرحة . كان من اليسير جداً ومن ابسط الامور اثبات بطلان هذه الاتهامات الجوفاء . اني اؤمن بقوة ان الحقيقة والعدالة ستنتصران ، نعم أؤمن ، اؤمن » .

هذا البلشفي العتيق الرفيق كدروف ، اظهرت براءته المحكمة العسكرية ، وبالرغم من ذلك فقد أعدم رمياً بالرصاص بناء لأوامر بيريا (احتجاج في القاعة واستنكار) .

عامل بيريا بقسوة ووحشية اسرة الرفيق اردزونيكيدز . ولاي سبب يا ترى ؟ لسبب بسيط هو ان اردزونيكيدز حاول منع بيريا من تنفيذ مقاصده الشريرة المخجلة . فقد ازاح بيريا من طريقه كل من يمكن ان يعترض عمله او يتدخل بشؤونه . كان اردزونيكيدز دوماً خصماً معارضاً لبيريا فشكاه هذا لستالين . فبدلا من ان يدقق ستالين في هذه القضية ويتخذ التدابير اللازمة امر بتصفية شقيق

اردزونيكيدز واحرج اردزونيكيدز إلى درجة اضطر عندها للانتحار (استنكار في القاعة) . هذا هو بيريا .

لقد رفعت اللجنة المركزية للحزب القناع عن بيريا بعد وفاة ستالين بقليل وتبين للجميع بعد التحقيقات القانونية المسهبة ان بيريا اقترف جنايات وجرائم مخيفة وحكم عليه بالموت رمياً بالرصاص .

والسؤال يقفز الآن من الشفاه مستغرباً كيف ان بيريا الذي قضى على عشرات الألوف من اعضاء الحزب وموظفي الدولة لم يكشف عن حقيقة امره في عهد ستالين نفسه . لم يرفع القناع عنه من قبل لانه عرف كيف يستغل بمهارة نادرة ضعف ستالين ، وحقنه بالشكوك والريبة . فقد ساعد ستالين في كل شيء وعمل تحت رعايته وحمايته وبموآزرته .

ايها الرفاق ، ان عبادة الشخصية تجاوزت كل حد ، وذلك لسبب واحد ، هو ان ستالين استعمل كل الاساليب التي يتصورها العقل ، ودعم عملية تمجيد اسمه بكل قواه . هذا كله تؤيده الوقائع العديدة . ومن الامثلة البارزة التي تمثل تمجيد ستالين نفسه وافتقاره إلى ابسط مظاهر التواضع والاحتشام ، نشره «سيرة حياته الوجيزة التي ظهرت مطبوعة عام ١٩٤٨ .

هذا الكتاب هو ابرز شاهد على ما ينحدر اليه الملق والتدليس من خسة وضعة ، وهو خير مثال لرفع الانسان إلى مصاف الالهة ، وإلى جعله من حكماء البشر المعصومين عن الزلل ، هو « الزعيم الاكبر » ، « ونابغة الحروب الاسمى في كل زمان ولدى كل الشعوب » . ولا اخالني استطيع ان اجد كلمة او تعبيراً يرفع ستالين إلى السماء السابعة .

لا حاجة لنا إلى سرد الامثلة والشواهد التي ينبض بهاهذا الكتاب ، عن الامور الرخيصة التي تعافها النفوس الابية . وكل ما نريد التشديد عليه هنا ان هذا التدليس لقي الحظوة والرضى من ستالين شخصياً ، وان بعض المقاطع زيدت على مسودات الكتاب بخط يده .

فما الذي رأى ستالين اثباته ووضعه في هذا الكتاب ؟ هل اراد ، يا ترى ، ان يخفف من غلواء وحرارة عبارات التدليس التي تعمر بها سيرة حياته ؟ كلا لقد وضع اشارة على المواضع والعبارات التي لم تشدد ما فيه الكفاية او لم تنوه عالياً بخدماته . واليكم بعض الامثلة والشواهد عن النشاط الذي قام به ستالين ، وقد كتبها هو بخط يده :

« ففي نضاله ضد المتشككين وضد الانهزاميين امثال التروتسكيين والزينوفيفيين والبوخارنيين والكامينيفيين ، حرص على افراغهم جميعاً في قالب واحد بعد

موت لينين ، وغدا هو المحور والقطب القيادي للحزب الشيوعي ، وهو الذي يحمل عالياً العلم حسب وصية لينين ويجمع الحزب حوله ويقود الشعب السوفياتي إلى جادة التصنيع العريضة ، وهو الذي ينظم الاقتصاد الريفي وفقاً للمبادىء الجماعية. انه زعيم النخبة، والقوة الموجهة للحزب وللدولة، هذا هو الرفيق ستالين. »

أهكذا يكتب ستالين عن نفسه ؟ اسمعوا اذاً المزيد منه :

« ومع ان ستالين قام باعباء قيادة الحزب وقاد الشعب بمنتهى المهارة ولقي التأييد التام من جميع شعوب الاتحاد السوفياتي ، فلم تحدثه نفسه يوماً باية مباهاة او تفاخر او إطراء ذاتي » .

انى لنا ان نرى زعيماً يمدح نفسه على هذا النحو ؟ وهل هذا خليق بقائد من النمط الماركسي اللينيني ؟ لا ، ابداً . ان مثل هذه المواقف هي التي شجبها كل من ماركس وانغلز . وان لينين نفسه قد ادان من يسلك مثل هذا الموقف .

ثم نقرأ في المخطوطة الأم ، هذه العبارة : « ستالين هو لينين هذا الجيل ... » وقد وجد ستالين ان هذه العبارة ركيكة ولا تؤدي المعنى المطلوب فعدلها بخطه بحيث نقرأ بالحرف الواحد : « ان ستالين هو المكمل الكفء لعمل لينين ولرسالته ، او كما هو مألوف ترداده في الحزب ، ستالين هو لينين اليوم » .
وهكذا نرى كيف جرى وصفه ، ليس بلسان الشعب ، بل بلسانه هو .

بالامكان ايراد العديد من هذه الاستشهادات يمدح فيها ستالين نفسه بنفسه في مسودة الكتاب وقد زادها ستالين على النص الاصلي بيده . وكثيراً ما نراه يضفي على نفسه الثناء والتقريظ والمديح لنبوغه العسكري ولعبقريته في الستراتيجية الحربية.

ولن اذكر اكثر من اضافة واحدة زادها ستالين على مسودة الكتاب بخط يده حول عبقريته الحربية ، وهي هذه : « سجل فن الحرب السوفياتي تطوراً جديداً على يد ستالين ...» ثم : « وضع الرفيق ستالين نظرية العوامل المتفاعلة باستمرار التي وجهت الحرب نحو مصيرها المحتوم ، ونظرية الدفاع الشديد ، والقوانين التي تنهض بالهجوم والهجوم المضاد ، ووجوب تعاون كل المصالح والاسلحة ومشاركتها المتزامنة في سير الحرب ، والدور الحاسم الذي تلعبه المصفحات المدرعة المتداخلة بكثافة وقوى الطيران في الحرب العصرية ، والمدفعية باعتبارها أفعل الادوات الحربية . فقد وجدت عبقرية ستالين الحربية الحلول المطلوبة التي اقتضاها تطور الحرب أخذاً بعين الاعتبار كل الظروف المتحكمة بالوضع القائم » (حركة في القاعة) . ويضيف ستالين بعد ذلك : « برهن ستالين عن استاذيته الحربية في كلا الدورين الدفاع والهجوم . فالنبوغ العسكري والعبقرية الحربية التي تمت لستالين مكنته من الوقوف على اسرار

استراتيجية العدو والتغلب عليه . فالمعارك التي قاد فيها الرفيق ستالين الجيوش الروسية المظفرة هي شواهد ساطعة وامثلة رائعة على مهارته في العمليات الحربية . »

هكذا كان ستالين يمتدح كقائد حرب. فمن هو صاحب هذا الثناء العاطر؟هو ستالين نفسه ، ليس بوصفه استراتيجياً مجرباً ، بل بصفته مؤلفاً ناشراً ، والواضع الرئيسي لمسودة سيرة حياته العابقة بالثناء والتقريظ .

هذه هي الوقائع ايها الرفاق ، وحري بنا ان ننعتها بوقائع مخجلة .

واليكم واقعة اخرى مأخوذة من سيرة حياة ستالين المقتضبة .

معروف لدى الجميع ان التاريخ الموجز للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي هو من تصميم لجنة خاصة مؤلفة من بين اعضاء اللجنة المركزية للحزب . وهذا الكتاب ، ينبض بعبادة الشخصية ، وقد تولى وضعه فريق معين من الكتاب . وقد انعكست هذه الحادثة بالذات في التعبير التالي الذي جاء في مسودة المخطوطة لسيرة حياة ستالين المقتضبة ، اذ نقرأ فيها ما يلي :

« اعدت لجنة منبثقة عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تحت ادارة الرفيق ستالين وبمساهمته الشخصية الناشطة ، تاريخاً موجزاً للحزب الشيوعي في جميع انحاء الاتحاد السوفياتي » .

ولكن هذه العبارة نفسها لم تشبع رغبة ستالين ، فاستبدلها في تصحيح الصيغ النهائية لسيرة حياته المختصرة كما يلي :

« عام ١٩٣٨ ، ظهر تاريخ الحزب الشيوعي بعنوان التاريخ الموجز الذي حرره الرفيق ستالين واقرته لجنة خاصة عينتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . »
فهل بامكان احد ان يزيد على ذلك ؟ (هياج في القاعة) .

وهكذا ترون ان عملية تقمص مدهشة حولت الكتاب الذي وضعه فريق من الكتاب إلى كتاب ألفه ستالين نفسه . ليس من الضروري قط ان نضيف هنا كيف تم هذا التقمص ولماذا تم على هذا النحو .

يرتسم على اللسان سؤال له صلة بالموضوع : اذا ما كان ستالين هو واضع هذا الكتاب ومؤلفه ، فلماذا يرى نفسه بحاجة إلى امتداح نفسه على هذا النحو ويحول الفترة التاريخية التي تلت تشرين الأول والمتعلقة بالحزب الشيوعي المجيد إلى عمل فردي يقوم به « العبقري ستالين ؟ »

هل هذا الكتاب يعكس تماماً جهد الحزب في بناء المجتمع الاشتراكي ، وفي تصنيع البلاد واقامة النظام الجماعي فيها ، وغير ذلك من الخطوات التي اتخذها الحزب الذي لم يحد قط عن الخط الذي رسمه له لينين ؟ هذا الكتاب يحدثنا عن ستالين وخطبه وتقاريره . كل شيء مربوط باسمه ومنسوب

اليه حتى صغائر الامور منها .

وعندما يؤكد ستالين انه هو نفسه كتب موجز تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، يثير هذا الادعاء الدهشة والاستغراب . أبستطاعة كاتب ماركسي لينيني ان يكتب عن نفسه مثل هذه الكتابة ويمتدح نفسه على هذا الشكل ويرفعها إلى اعلى .

لننعم النظر ملياً في هذه المدائح يكيلها ستالين لنفسه (حركة في القاعة) . فالقياصرة انفسهم لم ينشئوا الجوائز التي تعطى باسمهم .

ويعترف ستالين بان النشيد الوطني الروسي من اذكى واطيب النصوص التي عرفها الاتحاد السوفياتي في اناشيده المختلفة . على ان لا كلمة فيه عن الحزب الشيوعي ، ومع ذلك ففيه مدح لستالين لم نر له مثيلا :

غرس فينا ستالين الولاء للشعب

واعدنا للاعمال والمآتي المجيدة

في هذين السطرين من النشيد نرى بشيء من الدهشة ان العمل التربوي والقيادي والايحائي الذي تم على يد لينين يعزى كله لستالين .

نلاحظ هنا بوضوح انحرافاً ظاهراً عن خط الماركسية اللينينية ، وتنكراً فاضحاً وانتقاصاً للدور الذي قام به الحزب . وتنويراً لكم ، وعلى سبيل المعلومات ، اقول ان رئاسة اللجنة المركزية اتخذت توصية بوجوب وضع نشيد وطني جديد يبرز للملأ دور الشعب ودور الحزب (تصفيق حاد طويل) .

ثم هل ان عملية اطلاق اسم ستالين على العديد من المنشآت والمدن السوفياتية تمت بمعزل عن ستالين ودون اخذ رأيه في الأمر وعلمه ؟ وهل انشيء ما انشيء من المباني التي تحمل اسم ستالين بغير علم منه يا ترى ؟ لقد شيدت له وهو حي يرزق ، وهنالك من الوقائع الثابتة ما يدل على ان ستالين وقع هو نفسه بامضائه الشخصي توصية اتخذت في جلسة لمجلس الوزراء لتشييد بناء تذكاري ضخم على قناة الفولغا الدون ، يحمل اسم ستالين . وفي ٤ ايلول من السنة ذاتها اصدر امراً بتخصيص ٣٣ طناً من النحاس لهذا البناء الضخم . وكل من زار منطقة ستالينغراد وقعت عيناه ولاشك على تمثال ضخم يجري رفعه في نقطة ندر من لا يمر امامها . وقد انفق في هذا السبيل مبلغ ضخم في وقت كان فيه سكان المنطقة لا يزالون يسكنون الاكواخ. احكموا انتم بانفسكم هل كان ستالين منصفاً عندما خط بيده ، في سيرة حياته انه : « لا يسمح لنفسه ... حتى ولو في المنام او في الخيال ، ان يراوده اي احساس بالمباهاة والفخر وعبادة الذات ؟ »

وفي الوقت ذاته جاء ستالين بالدليل على انه ينقصه الاحترام لذكرى لينين .

فليس من باب الصدف او الاتفاق انه بالرغم من القرار المتخذ منذ ٣٠ سنة بتشييد قصر لمجلس السوفييت يخلد اسم فلاديمير لينين لم يرتفع ولم يشيد هذا القصر ، وكان ذلك يتأجل سنة بعد سنة حتى كاد المشروع نفسه يهمل تماماً .

يجب الا يفوتنا هنا التنويه بتوصية الحكومة السوفياتية الصادرة في ١٤ آب ١٩٢٥ ، القاضية « بانشاء جائزة باسم لينين تعطى للمبرزين في الحقل التربوي . » وقد نشرت هذه التوصية في الصحف ، في حينه ، وللآن لم تنشأ جائزة لينين . وهذه من الأمور التي يجب تصحيحها (تصفيق عاصف متصل في القاعة) .

عندما كان ستالين على قيد الحياة ، وعلى ضوء الاساليب التي اتيت على ذكرها والوقائع الثابتة التي سردتها واخذتها من سيرة حياة ستالين الوجيزة ، نرى ان الاحداث والوقائع المشروحة تبدو وكأن لينين لعب فيها الدور الثاني ، حتى في ثورة اكتوبر الاشتراكية . ففي العديد من الافلام ومن الكتب الادبية التي نشرت نرى صورة لينين تشوهها الظلال ويبخس فيها حقه بصورة لا يمكن لاحد ان يقبلها .

كان من بين المباهج واسباب التسلية المفضلة عند ستالين مشاهدة الفيلم « سنة ١٩١٩ التي لا تنسى » ، ففيه يظهر واقفاً على عربة سكة حديد مصفحة وكأنه يجندل العدو بخنجره . لندع كليمانت يفروفتش صديقنا العزيز يستعيد شجاعته المعروفة ويسجل لنا الحقيقة حول ستالين . فهو اخبر الناس واكثرهم اطلاعاً على الطريقة التي كان ستالين يحارب بها . وانه من الصعب على الرفيق فوروشيلوف ان يقوم بهذا الأمر ، فلو فعل لأدى عملا جميلا ينال رضى الجميع وموافقتهم ، من الشعب والحزب ، حتى احفاده يكونون له من الشاكرين (تصفيق طويل) .

في الحديث عن وقائع ثورة اكتوبر وحوادث الحرب الاهلية هنالك الانطباع السائد لدى الجميع ان ستالين لعب دوماً الدور الأول فيها ، ولستالين كل الفضل دوماً وفي كل مكان باقتراحه على لينين ما يجب عمله وكيف يجب عمله . هذا هو الافتراء بعينه على لينين (تصفيق متواصل) .

لن اتجنى على الحقيقة ، على ما ارجو ، عندما اقول ان ٩٩٪ من الاشخاص الحاضرين هنا سمعوا وعرفوا القليل عن ستالين قبل سنة ١٩٢٤ . بينما كان لينين معروفاً لدى الجميع ، ولدى الحزب على الاخص ، ولدى الامة جمعاء ، من الفتيان إلى الشيوخ (تصفيق متواصل صاخب) .

يجب اعادة النظر في كل هذه الامور وتعديلها بحيث يعكس التاريخ والأدب والفن عندنا دور لينين الحقيقي والانجازات العظيمة التي حققها الحزب الشيوعي والشعب السوفياتي الخلاق (تصفيق) .

ايها الرفاق ان عبادة الشخصية كانت حافزاً لاستعمال مبادىء خاطئة في عمل الحزب وتصرفاته وفي مجال النشاط الاقتصادي . فقد ارتكبت انتهاكات صارخة لديمقراطية الحزب وديمقراطية الشعب السوفياتي . وزرعت العقم في الادارة وسببت الانحرافات العديدة على اختلاف انواعها وزيفت الحقيقة وغيرت معالمها . فقد ظهر عندنا عدد كبير من المدلسين والاخصائيين بالتفاؤل الكذاب والخداع الماكر .

ويجب ان نذكر جيداً هنا انه بسبب القاء القبض على العديد من قادة الحزب ورجال الاقتصاد ، اخذ عدد من العمال يعملون على غير هدى ، ويفرطون في حذرهم وتحسبهم يحسبون حساباً لكل ما هو جديد ، ويخافون حتى من ظلهم ، بعد ان ماتت فيهم روح الاقدام والمبادرة .

خذوا مثلا على ذلك توصيات الحزب وتوصيات مجلس السوفييت . فكثيراً ما جرى اعدادها واقرارها دونما اكتراث بالاوضاع القائمة . واستفحل الامر حتى ان اعضاء الحزب والعاملين فيه اخذوا يتلون خطبهم حتى في الجلسات الصغيرة . كل هذا وما اليه ولد عندنا روح الشكليات والروتين الخطر في الحزب وفي اعمال السوفييت ، بحيث وقعت جميع اجهزة الدولة في قبضة البيروقراطية .

ان نفور ستالين من النظر إلى الحياة الواقعية وجهله المطبق لحقيقة الاوضاع السائدة في الولايات لا يضاهيها الا ادارته الخرقاء للزراعة .

كل من يهتمون ولو من بعيد ، بوضع الوطن لا بد لهم ان يلاحظوا الأوضاع الحرجة المحيطة بمرافق الزراعة عندنا ، بينما لم يستطع ستالين ان يتبين شيئاً من هذا كله . هل اطلعنا ستالين على هذا كله ، نعم اطلعناه ، الا انه لم يعضدنا قط . لماذا ؟ لان ستالين لم يسافر إلى اي مكان ولم يجتمع قط بالعمال في المدن وفي المزارع الريفية التعاونية ، كما ان لا فكرة عنده عن الوضع القائم في الملحقات .

عرف ستالين البلاد واوضاع الزراعة من خلال الافلام التي اعتاد مشاهدتها . وقد ابرزت هذه الافلام وجملت كثيراً ، حتى الزيف ، الوضع السائد في هذا المجال .

وكم من فيلم صور الحياة في المزارع الريفية ومائدة المزارعين مثقلة باطباق الاوز والديك الرومي ! وبالطبع ، اخذ ستالين الخيال حقيقة والظل واقعاً .

نظر لينين إلى الحياة نظرة تختلف تماماً عن نظرة ستالين اليها ، اذ كان اكثر منه اتصالا بالشعب وحياة الريف بعد ان ألف استقبال مندوبين عن الفلاحين وسكان الارياف . وكان يحادث المزارعين ، ويتحدث إلى تجمعات العمال في المصانع .

اما ستالين فقد عزل نفسه تماماً عن الشعب ولم يخرج قط من المدينة ولم يزر أي منطقة من مناطق البلاد ونواحيها ، وبقي على هذه الوتيرة عشرات السنين . ولعل آخر مرة زار فيها قرية كانت في كانون الثاني ١٩٢٨ ، عندما زار سيبيريا بحثاً عن طريقة لتأمين وصول المحاصيل . فكيف بالاطلاع على الأوضاع في الملحقات ؟

وعندما بلغه يوماً ، ابان البحث عن الوضع الحرج في الريف والصعوبات التي يعاني منها ، من حيث تربية البقر وتأمين اللحم للاستهلاك ، امر بتشكيل لجنة للتحقيق في هذا الوضع وتهيئة توصية بهذا الشأن تحت عنوان « الوسائل الكفيلة بتطوير تربية الماشية في المزارع والتعاونيات» .

وغني عن القول ان الاقتراحات التي قدمتها اللجنة المذكورة لم تستنفد كل الامكانات الا اننا فصلنا على ضوء الخرائط والرسوم الاساليب التي يجب اعتمادها لتطوير اساليب تربية الماشية . واقترحنا فيما اقترحناه رفع اسعار هذه المحاصيل تنشيطاً للمنافسة بين المزارعين في مجال تربية الماشية . غير ان مشروعنا رفض ولم يعمل به ، ووضع جانباً للحفظ في شباط ١٩٥٣ .

ولعل ما هو انكى من هذا كله وادمى للقلب ، ان ستالين اقترح ، وهو يتفحص هذا المشروع ويقلب فيه النظر ، رفع الرسوم التي يدفعها المزارعون وعمال التعاونيات بحيث تصل في رأيه إلى ٤٠ مليار من الروبلات ، ففي رأيه ان وضع الفلاحين المادي جيد ولا يحتاج العامل في هذه التعاونيات إلى دفع الرسم الجديد المفروض عليه سوى بيع فراخ معدودة من الدجاج وينتهي الأمر .

تصوروا هذا الهراء . فالاربعون مليار روبل هو مبلغ لا يمكن للعمال المزارعين ان يؤمنوه حتى لو باعوا من الحكومة كل المحاصيل التي ينتجونها . ففي ١٩٥٢ مثلا تلقى عمال المزارع والتعاونيات ٢٦،٢٨٠ مليون روبل ثمناً للمحاصيل التي باعوها من الحكومة . هل كان ستالين يعتمد اذ ذاك على اية معطيات من اي نوع ؟ بالطبع لا .

فمن تكون هذه حاله لا يكترث بالطبع للوقائع او للارقام . فاذا ما نطق ستالين بشيء وجب اعتبار هذا الشيء حقيقة : أفلم يكن عبقرياً ؟ والعبقري لا يحتاج لعد او حساب ! فنظرة واحدة منه تكفي ، وسرعان ما يحضر الحل المنتظر . وعندما يعبر العبقري عن آرائه ويفصح عن خواطره ، فعلى الكل ان يصدقوه ويؤمنوا به ويطروا حكمته .

ولكن كم من الحكمة يخفي اقتراحه بزيادة ٤٠ مليار روبل على الرسوم الزراعية ؟ لا شيء ، قطعاً . لا شيء لان الاقتراح لم ينهض قط على تقييم صحيح

للوضع القائم ، بل على افكار سديمية او خيالية تخطر لرجل بينه وبين الحقيقة ما بين الثريا والثرى . لقد اخذنا الآن نسير بتؤدة للخروج من الوضع الزراعي الحرج ، والخطب التي القاها الموفدون إلى المؤتمر العشرين شرحت صدورنا وشنفت آذاننا عندما راح الخطباء يعلنون ويصرحون عالياً ان هنالك امكانيات لتحقيق خطة السنوات الست لتحسين اوضاع تربية الماشية ، ليس في فترة خمس سنوات ، بل خلال سنتين او ثلاث سنوات . نحن على يقين تام ان اهداف الخطة الخمسية ستحقق بنجاح كامل (تصفيق متصل) .

ايها الرفاق ، حين نندد اليوم بعبادة الشخصية نقداً شديداً ، هذه العبادة التي استفحل امرها في عهد ستالين واستشرى ، وحين نستعرض هنا الظواهر السلبية العديدة التي جاءت بها هذه العبادة الغريبة عن الروح الماركسية اللينينية ، فلا بد من ان يهب بعضهم ويسأل : « هل يمكن ان يحدث ذلك ؟ كان ستالين على رأس الحزب والدولة مدة ثلاثين سنة وتحققت في عهده نجاحات كثيرة ، فهل من ينكر ذلك عليه ؟ » وفي رأيي ان سؤالا من هذا النوع لا يصدر الا عن من أصيبوا بالعمى المطبق او اخذوا ، دون اي امل بشفائهم ، بسحر عبادة الشخصية ، او عن جماعة فاتها الكثير من جوهر الثورة والدولة السوفياتية ، او عن اولئك الذين لا يدركون ، من وجهة النظر اللينينية ، الدور المترتب على الحزب وعلى الأمة في العمل الدائب لتطوير المجتمع السوفياتي .

ان الثورة الاشتراكية حققتها الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين الفقراء ، مع شيء من مساهمة الطبقة الوسطى من المزارعين . حققها الشعب تحت قيادة الحزب البلشفي . والخدمة الكبرى التي اسهم بها لينين واداها للحركة تقوم اصلا بانشائه حزباً مناضلا ركيزته الأولى الطبقة العاملة . وكانت عدته الكبرى في هذا كله التفهم الصادق للتطور الاجتماعي وفقاً للمبادىء التي وضعتها الماركسية ، وادراكه التام للانتصارات التي حققتها البروليتاريا على الرأسمالية ، فارسى قواعد هذا الحزب في احرج الأوقات التي عرفتها الجماهير الشعبية في نضالها الثوري . وخلال هذا النضال حرص الحزب على الدفاع بثبات عن مصالح الشعب واصبح قائده المحنك . ورفع الطبقات الكادحة إلى الحكم ، وذلك بتأسيسه اول دولة اشتراكية .

كلكم يذكر جيداً كلمات لينين الرشيدة عندما يؤكد ان الدولة السوفياتية منيعة الجانب ، وما عليه شعبها من وعي وتفتح ، وان التاريخ تصنعه الملايين وتسجله عشرات الملايين من الناس .

حققنا ما حققناه من انتصارات خالدة عبر الاجيال بفضل العمل التنظيمي الذي

قام به الحزب ، وبفضل المنظمات العديدة التي قامت في الملحقات وبالتضحيات الغالية التي بذلتها بسخاء امتنا العظيمة . جاءت هذه الانتصارات نتيجة محتومة للاندفاع العظيم وللنشاط البناء، تقوم بهما الأمة والحزب كوحدة متكاملة . فهي ليست حصيلة قيادة ستالين ، كما صوروا لنا الوضع في الفترة التي استشرت فيها عبادة الشخصية .

فاذا ما اردنا ان ننظر إلى هذا الأمر نظرة الماركسيين واللينينيين إلى الأشياء ، كان علينا ان نقرر ، دونما لبس او غموض ، ان ممارسة القيادة على الشكل وبالطريقة التي نهض بها ستالين في السنوات الاخيرة من حياته كانت حائلا كبيراً في سبيل التطور الاجتماعي في الاتحاد السوفياتي .

كثيراً ما كان ستالين يرجىء إلى بضعة اشهر معالجة قضايا هامة طرأت بصورة غير متوقعة ، تتعلق بحياة الحزب ومصير الدولة ولا يجوز التسويف بحلها . ففي عهد ستالين ، كثيراً ما تعرضت علاقاتنا السلمية مع الدول الاخرى للخطر ، لان القرارات الصادرة عن فرد واحد قد تجر ، وكثيراً ما جرت إلى ، تعقيدات محرجة .

ففي السنوات الاخيرة ، عندما اخذنا الاجراءات للتحرر من عبادة الشخص الضارة وخطونا خطوات صادقة في تركيز سياستنا في الداخل والخارج ، على السواء ، رأى كل واحد منكم وشاهد كيف دب النشاط في المرافق العامة ، وكيف كان لهذا كله تأثير ظاهر على تطوير الحركة الاقتصادية والفكرية عندنا (تصفيق) .

قد يوجه بعض الرفاق اسئلة الينا قائلين : اين كان اعضاء المكتب السياسي في اللجنة المركزية ؟ لماذا لم يثبتوا وجودهم ويقفوا في وجه عبادة الشخصية ؟ ولماذا لم يتم هذا كله الا الآن ؟

علينا بادىء الأمر ان نتفهم جيداً هذا الواقع ، وهو ان اعضاء المكتب السياسي نظروا إلى هذه الموضوعات نظرة مختلفة في ظروف مختلفة . وقف العديد منهم ، في اول الامر إلى جانب ستالين وعضدوه ، لان ستالين كان اكثر الماركسيين قوة وله من شدة البأس والارادة الصلبة ما يؤثر عميقاً على ملاكات الدولة ونشاط الحزب .

من الثابت ان ستالين ناضل بنشاط ، بعد موت لينين ، ولاسيما في السنوات الأولى التي عقبت هذه الوفاة ، ضد معارضي نظريات لينين وضد الذين انحرفوا وابتعدوا عنها . فبالنظر للمبادىء والنظريات التي قال بها لينين وعلم ، اخذ الحزب ولجنته المركزية في تطبيق سياسة تصنيع البلاد تصنيعاً اشتراكياً على نطاق واسع ،

وتطبيق النظام الجماعي في مجالات الزراعة والثورة الفكرية . وفي الوقت ذاته ازداد ستالين شعبية وتعاطفاً كما اشتدت معاضدة الشعب له . فكان على الحزب ان يكافح ضد هؤلاء الذين يحاولون جر البلاد خارج الخط الذي وضعه لها لينين وان يناضلوا دونما هوادة ، ضد التروتسكيين والزينوفيفيين وانصار اليمين والوطنيين البورجوازيين . لم يكن بد من هذا الكفاح . وبعد ذلك ، راح ستالين ، عندما اخذ يسيء اكثر فأكثر استعمال السلطة وتجاوزها ، يقضي على اعضاء الحزب البارزين وقادة البلاد في الحكم ، ويستعمل وسائل الارهاب والتخويف ضد الشرفاء من افراد الشعب السوفياتي . وقد صفى ستالين ، كما سبق لنا ان قلنا ، اشخاصاً بارزين في البلاد ، كانوا من اعضاء الحزب او من القادة في الحكم والادارة ، امثال كوسيور وروذزوتاك ، وايخ ، وبوستيشيف ، وغيرهم .

وكان من نتائج المحاولات التي بذلت للتصدي لهذه الشكوك التي لا اساس لها والتي كانت تنتاب ستالين ، وقوع المعارضين والمناهضين فريسة سائغة للتعذيب والتنكيل . وخير مثال على ذلك القضاء على الرفيق بوستيشيف .

ففي احد خطبه ، اعرب ستالين عن عدم رضاه على بوستيشيف وسأله قائلا : « ماذا انت فعلا ؟ »

فأجابه بوستيشيف على الفور : « انا بلشفي ، ايها الرفيق ستالين ... بلشفي ».

يبدو لاول وهلة ان الجواب ينضح بعدم الاحترام لستالين ، ثم اعتبر فيما بعد كبادرة مسيئة ، مما ادى إلى تصفية بوستيشيف وارهاقه بالاتهامات الباطلة وابرازه للجميع « عدواً للشعب » .

ففي الاوضاع التي استقرت عليها الأمور اذ ذاك ، تباحثت مع نيقولاي الكسندروفيتش بولغانين مراراً . وذات مرة ونحن مسافرون معاً في سيارة واحدة ، قال : « اتفق مراراً ان يجتمع احدهم بستالين بناء على دعوة منه كصديق . وكان عندما يجلس في حضرته ، يجهل تمام الجهل هل تكون الخطوة التالية البيت او السجن ! »

من الواضح ان وضعاً كهذا كان يجعل كل عضو من اعضاء المكتب السياسي في موقف حرج جداً . وعندما لاحظنا ان اللجنة المركزية لم تعقد في السنوات الاخيرة اي اجتماع عام لها ، وان جلسات المكتب السياسي لا تعقد الا لماماً من وقت لآخر ، ادركنا فعلا الصعوبة التي يلاقيها كل عضو من اعضاء المكتب المذكور عند اتخاذه موقفاً معيناً من هذه القضية او تلك وبقطع النظر ما اذا كان الاجراء المتخذ ظالماً او غير ملائم ، او ضد الاغلاط التي بدرت ، والشوائب التي تلازم تصرفات القيادة .

وكما قلت سابقاً ، كانت القرارات تؤخذ من قبل فرد واحد او بطريقة غير مباشرة ، بعيداً عن كل مناقشة عامة . والمصير المشؤوم الذي صار اليه عضو المكتب السياسي ، الرفيق فوزنسنسكي الذي ذهب ضحية عمليات ستالين التطهيرية ، امر يعرفه الجميع . والشيء الثابت الذي يطبع هذه القضية ويميزها ان المكتب السياسي لم يبحث قط مسألة فصله من عضويته ، بل ان القرار اتخذ بطريقة ملتوية. وعلى هذا الشكل تم اقصاء كوزنتسوف وروديونوف عن مناصبهم .

وانتقص شأن المكتب السياسي إلى حد بعيد ، واختل نظامه وتخلخل عمله بعد تأليف لجان مختلفة من اعضائه عرفت « بالخماسية او السداسية او السباعية او التساعية » . واليكم مثلا ، احدى توصيات المكتب السياسي اتخذها في ٣ تشرين الأول ١٩٤٦ :

اقترح ستالين :

١ — اللجنة السداسية للشؤون الخارجية في المكتب السياسي ، يعهد اليها في المستقبل ، الاهتمام ، إلى جانب الشؤون السياسية ، بالنظر في القضايا المتعلقة بالبناء الداخلي والسياسة الداخلية .

٢ — على اللجنة السداسية ان تضيف إلى هيئة مكتبها ، رئيس لجنة الدولة للتخطيط الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي الرفيق فوزنسنسكي ويجب ان تسمى ، اذ ذاك اللجنة السباعية .

التوقيع : سكرتير اللجنة المركزية ، ج . ستالين

يا لها من مصطلحات ومسميات هي اقرب إلى مصطلحات لاعبي البريدج (ضحك في القاعة) . فمن الواضح ان ايجاد مثل هذه اللجان داخل المكتب السياسي كالخماسية والسداسية والسباعية والتساعية ، يناقض تماماً مبادىء القيادة الجماعية .

وبهذه الطريقة ، كان بعض اعضاء المكتب السياسي يجدون انفسهم محرومين من المشاركة في بحث ومناقشة اهم القضايا المتعلقة بالدولة .

فقد وجد اقدم عضو من اعضاء المكتب السياسي ، هو الرفيق كليمانت فوروشيلوف ، نفسه في وضع لا يطاق . اذ اصبح ، لعدة سنوات ، محروماً من حقه المشروع في حضور جلسات المكتب السياسي ومناقشة القضايا الهامة المعروضة على بساط البحث . فقد منعه ستالين من حضور جلسات المكتب ومن الاطلاع على اي وثيقة او على اوراق اي معاملة . وعندما كان يصله خبر انعقاد جلسات المكتب ، كان يتلفن في كل مرة ويسأل ما اذا كان يسمح له بالحضور . وكان ستالين يسمح له بذلك احياناً ، الا انه كثيراً ما كان يبدي امتعاضه منه وعدم استمزاج رأيه في شيء . ولما كان ستالين شديد الشكوك والارتياب بالناس ، فقد

زين له الوهم ان فوروشيلوف قد يكون جاسوساً انكليزياً (امتعاض في القاعة) . نعم ، جاسوس انكليزي ، وذلك لوجود جهاز خاص في منزله يسمع به كل ما يقال هناك .

وبقرار اتخذه وحده ، استطاع ستالين ان يحول دون مشاركة احد اعضاء المكتب السياسي الرفيق اندريه اندرييف في اعمال المكتب ومناقشاته . هذا مثل على ما بلغه سوء مقاصده الشريرة من فجور وشذوذ .

لننظر ملياً في الجلسة العامة التي عقدتها اللجنة المركزية في إثر مؤتمر الحزب التاسع عشر . فقد راح ستالين في الخطاب الذي افتتح به الاجتماع يتحدث عن ميخائيلوفتش مولوتوف ، وانستاس ميكويان ، وافترض ان هذين العضويين القديمين من اعضاء الحزب ارتكبا مخالفات وبدرت عنهما اخطاء وذنوب لا تنهض على اساس . وليس من المستبعد قط انه لو بقي ستالين ماسكاً بالدفة لبضعة اشهر اخرى ، لما كان في مقدور الرفيقين مولوتوف وميكويان القاء كلمة في هذا المؤتمر !

كان ستالين على ما يبدو قد اتخذ قراراً بوضع حد لعضوية الاعضاء القدامى في المكتب السياسي ، اذ كان يصرح دوماً بوجوب حلول اعضاء جدد محل الاعضاء القدامى .

والاقتراح الخاص الذي تقدم به ، بعد المؤتمر التاسع عشر لانتقاء ٢٥ عضواً جديداً للهيئة العامة للجنة المركزية ، انما كان يرمي ، في الأصل لاستبدال القدامى من اعضاء المكتب السياسي باعضاء دونهم حنكة وخبرة وتمرساً بالامور ، بحيث يطرون الاعمال التي يأتيها .

وباستطاعتنا ان نؤكد هنا انه وضع خطة لاسقاط عضوية قدامى الاعضاء في المكتب السياسي في المستقبل الطالع ، وبذلك يغطي الاعمال الشائنة والمخجلة التي نحن في صدد النظر فيها .

ايها الرفاق ، تفادياً لاغلاط الماضي القريب ، اعلنت اللجنة المركزية بحزم انها ضد عبادة الشخصية . ونحن على يقين وطيد ان ستالين أطري اكثر من اللازم بكثير . الا ان ستالين سجل ، فيما مضى ، مآتي عظيمة ، وادى للبلاد وللحزب خدمات جلى ، وللطبقة العاملة وللحركة العمالية الدولية كذلك .

ومما يزيد في تعقيد هذا الوضع ان جميع هذه القضايا التي نظرنا فيها واشبعناها بحثاً ، تمت كلها في عهد ستالين ، وتحت قيادته وبمساندته ، اعتقاداً منه بضرورة سلوك هذا المسلك ، دفاعاً عن مصالح الطبقات الكادحة ضد اعدائها الذين يتآمرون عليها ، ودرءاً منه لهجمات المعسكر الامبريالي . نظر إلى هذه

الأمور من خلال مصلحة الطبقة العاملة ، واتى ما أتاه لخير الشعب العامل ولتأمين الفوز النهائي امام الاشتراكية والشيوعية . ولا يحق لنا قط ان نصف هذه الاعمال باعمال رجل مستبد ثمل . فهو رأى ان يفعل وان يسلك هذا السبيل لخير الحزب وخير الجماهير الكادحة بحجة الدفاع عن مكاسب الثورة والنجاحات التي حققتها . هنا تكمن المأساة كلها !

كثيراً ما شدد لينين مؤكداً ان التواضع يجب ان يكون من الزم صفات البلشفي .

فقد كان لينين في حياته واعماله خير من جسد عظمة الاحتشام والتواضع . هل يمكن القول وهل يصح الادعاء باننا سرنا في اثر لينين من جميع الوجوه . ويكفي ان نشير هنا الى ان العديد من المدن والمصانع والمنشآت الصناعية، ومؤسسات الكولخوز، وغيرها من المؤسسات السوفياتية والثقافية اصبح يشار اليها كأنها — اذا صح التعبير — املاك خاصة لهذا او ذاك من قادة الحكومة او الحزب الذين كانوا لا يزالون على نشاطهم وبصحة جيدة . كثيرون بيننا ساهموا بربط اسمائهم ببعض المدن ، وببعض المشاريع ، وببعض الكولخوزات . والآن علينا ان نصحح هذا كله . (تصفيق) . وعملية التصحيح هذه يجب ان تتم بهدوء وعلى مهل . وستدرس اللجنة المركزية هذا الأمر وتنظر فيه بكل دقة واعتناء تفادياً للغلط والشطط او للافراط والتفريط . تحضرني الذكرى الآن كيف تلقت اوكرانيا خبر توقيف كوسيور . فقد اعتادت محطة اذاعة كييف افتتاح برنامجها الاذاعي هكذا : « هنا اذاعة كوسيور » وعندما ابتدأت المحطة اذاعتها دون ان تسمي كوسيور ، عرف الجميع ان شيئاً ما وقع لكوسيور ، وانه زج به في غياهب السجن .

فاذا ما اخذنا نزيل من اليوم هذه المعالم او الاشارات في كل مكان ، بادر الناس إلى التقول ان هؤلاء الرفاق الذين شيدت هذه المباني على شرفهم ، من كولخوزات ومدن تحمل اسماءهم ، حل بهم القضاء المحتوم وصدرت الأوامر بتوقيفهم (حماسة في القاعة) .

وكيف كانت تقدر سلطة هذا الزعيم او ذاك وقيمته ؟ كانت تقدر بالنسبة لعدد المدن والمنشآت الصناعية والمصانع والتعاونيات الزراعية التي تحمل اسمه ؟ اليس في سبيل الزمن نلغي هذا « العقار الخاص » ونؤمم هذه المصانع ، وهذه المشروعات الصناعية والتعاونيات الزراعية والكولخوزات ؟ (ضحك وتصفيق وارتفاع الهتافات قائلة : « هذا صح »). من شأن هذا كله ان يعود بالخير على قضيتنا . فعبادة الشخصية تتجلى بهذه الطريقة ايضاً .

علينا ان ننظر باهتمام كلي إلى قضية عبادة الشخصية . لن نترك هذه القضية تفلت من يد الحزب لتتولاها الصحافة على الاخص . ولهذا السبب عينه ندرس

الامر هنا ، في جلسة سرية لهذا المؤتمر . علينا ان نراقب الحدود ، كما علينا ان لا نمد الاعداء بالذخيرة ، ولا ان نغسل ثيابنا القذرة امام عيونهم . وعلى ظني ان الوفود إلى هذا المؤتمر تفهمني جيداً وتقر كل هذه الاقتراحات بصورة ملائمة (تصفيق داو) .

ايها الرفاق علينا ان نلغي عبادة الشخصية بحزم ولمرة واحدة كما علينا اتخاذ التوصيات الملائمة بصدد كافة اعمالنا الايديولوجية — النظرية والتطبيقية على حد سواء .

ان هذا الأمر ضروري جداً للاسباب الآتية :

اولا : على الطريقة البلشفية ، ان نشجب ونلغي عبادة الشخصية باعتبارها غريبة عن الماركسية اللينينية ، ولا تتفق بشيء مع مبادىء قيادة الحزب والقواعد التي نهض عليها حزبنا. ولنحارب دونما هوادة كل المحاولات لاحياء هذه العبادة بشكل او بآخر.

لنعد ولنمارس فعلا في نشاطنا الفكري ، أهم المبادىء التي توصي بها الماركسية اللينينية حول الشعب بوصفه صانع التاريخ ، وخالق كل ما هو صالح للجنس البشري مادياً وروحياً ، وحول الدور الحاسم الذي يلعبه الحزب الشيوعي في النضال الثوري ، في سبيل انتصار وقولبة المجتمع الشيوعي .

يترتب علينا ان نبذل جهداً اكبر في هذا المجال لنتمكن من النظر في المبادىء الفاسدة الخاصة بعبادة الشخصية الواسعة الانتشار بيننا وفحصها من وجهة نظر الماركسية اللينينية واصلاحها . كل ذلك في اطار التاريخ والفلسفة والاقتصاد والعلوم الاخرى ، وفي اطار الادب والفنون الجميلة . ومن الضرورة القصوى بمكان ان نأخذ العدة في المستقبل القريب ، لوضع كتاب رصين يسجل تاريخ الحزب — وينشر وفقاً للموضوعية الماركسية العلمية ، كتاب يورخ للمجتمع السوفياتي ، كتاب يروي للاجيال الطالعة ، حوادث الحرب الاهلية ، والحرب القومية الكبرى .

ثانياً : للمضي ، بمنهجية واتساق ، في العمل الذي حققته اللجنة المركزية للحزب ، خلال السنوات الاخيرة ، وهو عمل تميز بدقة الملاحظة في منظمات الحزب ، صعوداً ، من القاعدة إلى القيادة ، وفي المبادىء اللينينية التي تفهمها قيادة الحزب والتي تتميز قبل كل شيء وفوق كل شيء بالمبدأ الاساسي الذي يقول بالقيادة الجماعية ، كما يتميز بتطبيق القواعد التي نهض عليها نشاط الحزب وفقاً لدستور الحزب ، ويتميز اخيراً بالنقد الدقيق العميق وعلى الاخص بالنقد الذاتي.

ثالثاً : احياء المبادىء اللينينية احياء كاملا . هذه المبادىء التي قامت عليها الديمقراطية الاشتراكية السوفياتية ، كما هو منصوص عليها في دستور الاتحاد

السوفياتي ، والتصدي للمقاصد الشريرة ومكافحة سوء استعمال الافراد لسلطاتهم وصلاحياتهم . وهذه الشرور التي نجمت عن انتهاك العدالة الاشتراكية الثورية ، والتي تجمعت وتراكمت بعضها فوق بعض منذ عهد بعيد نتيجة سلبية لعبادة الشخصية ، يترتب علينا تصحيحها وازالتها. ايها الرفاق ، اتى المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بالدليل القاطع وبكل قوة ، على وحدة الحزب التي لا تتزعزع وبرهن عن تماسكه مع اللجنة المركزية ، وعن ارادته الحازمة في تشييد صرح الشيوعية العظيم (تصفيق حاد) . ان وجودنا هنا لدرس المشاكل الناتجة عن عبادة الشخصية في شتى تشعباتها ، هذه العبادة الغريبة عن الماركسية اللينينية ولتصفية نتائجها المرزحة . كل هذا برهان ساطع على ما لحزبنا من قوة مناقبية وسياسية (تصفيق متواصل) .

نحن على يقين تام بان حزبنا الذي تدرع بالتوصيات التاريخية التي طلع بها المؤتمر العشرون للحزب ، سيقود الشعب السوفياتي في الطريق التي عبدها له لينين ليحقق له نجاحات جديدة وانتصارات جديدة (تصفيق حاد متواصل) .

ليعش إلى الأبد علم حزبنا المظفر : اللينينية . (تصفيق حاد متصل وهيجان ، وهتاف . الكل وقوف) .



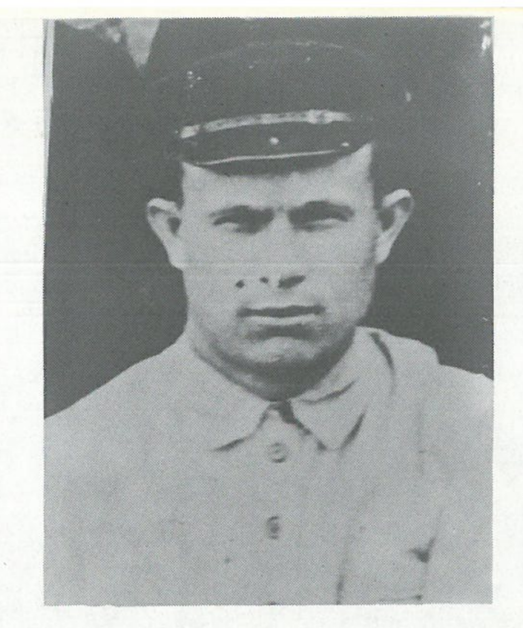
خروشوف الفتى



كراسين ، مولوتوف ، ويانوكيدز الى جانب تمثال نصفي للينين (كانون الاول ١٩٢٤)



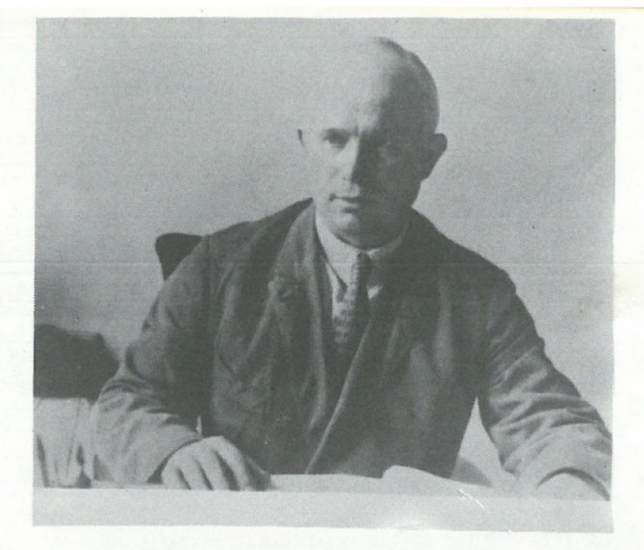
خروشوف مع زملائه في معهد عمال يوزفكا في مطلع ١٩٢٠ (وهو الثالث من اليسار في الصف الامامي)



مع زملائه العمال في دونباس



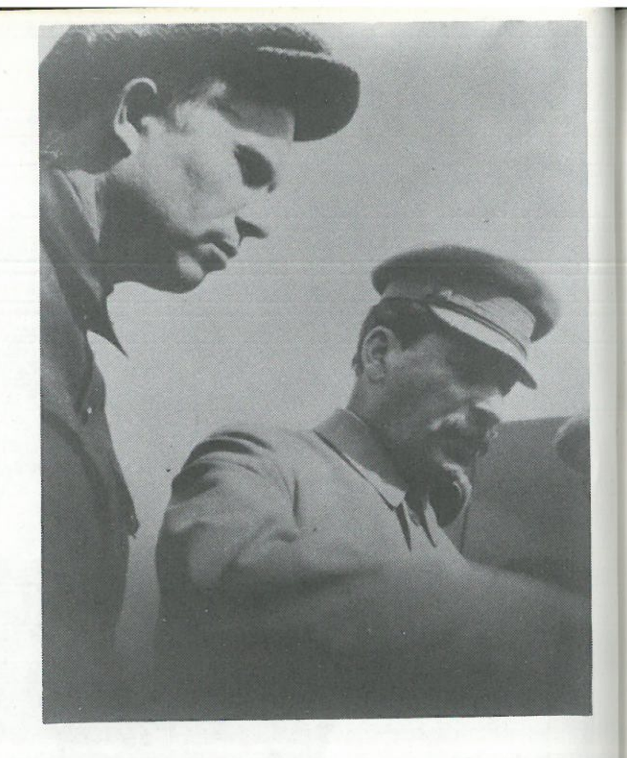
ستالين سنة ١٩٣١



خروشوف في مطلع ١٩٣٠ عندما بدأ نجمه يتألق .

في موسكو مع مندوبي مقاطعة برسنيا الحمراء (١٩٣١)

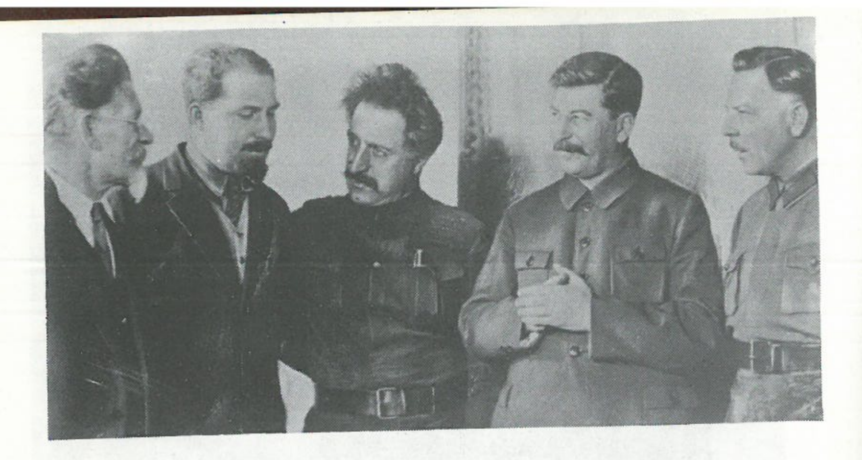




مع ستالين في اول ايار ١٩٣٢

سيرجو اوردزنيكيدز (الى اليسار) وستالين الى اليمين





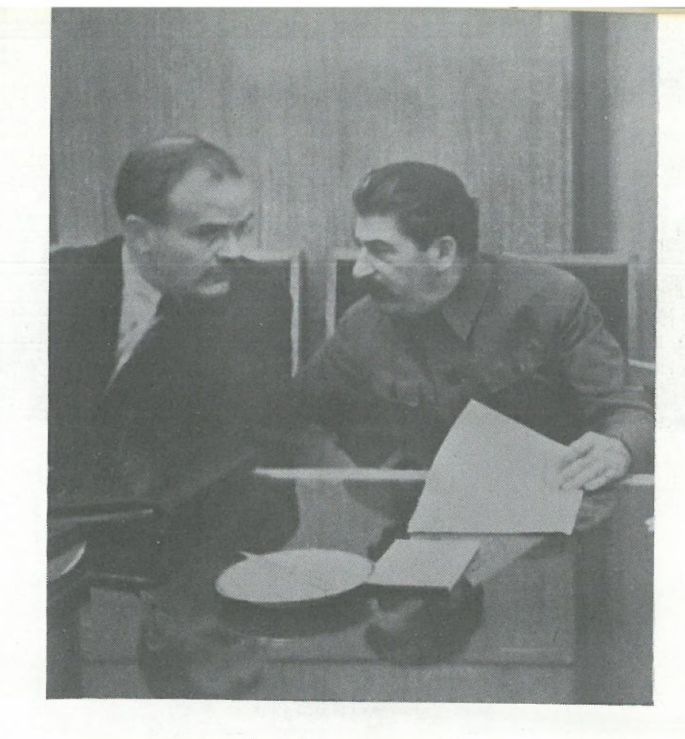
كالينين ، كاغانوفيتش ، اوردزنيكيدز ، ستالين ، فوروشيلوف

فوروشيلوف مع ستالين



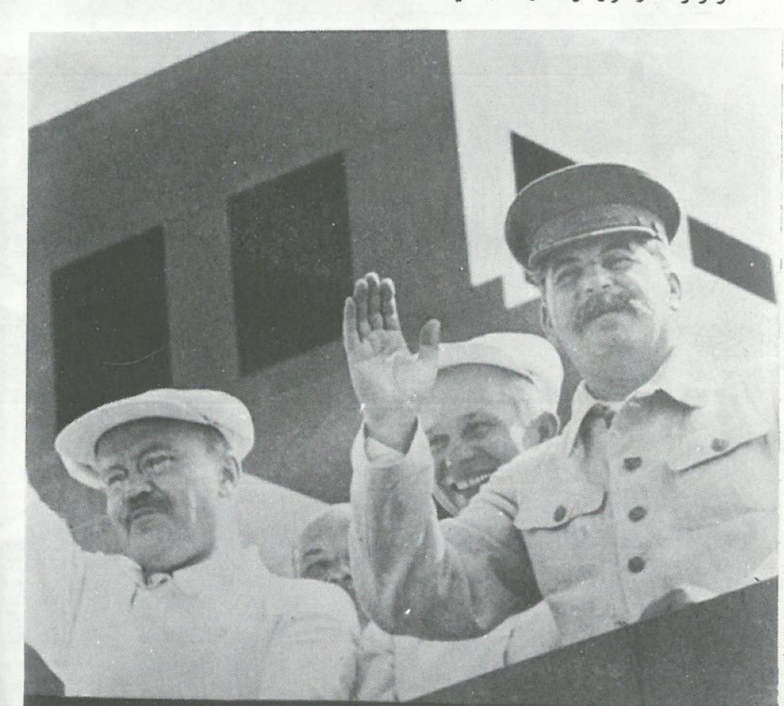


ستالين ، مولوتوف ، كاغانوفيتش ، واوردزنيكيدز



مولوتوف مع ستالين

مولوتوف وخروشوف وستالين في احد استعراضات اول ايار (ربما سنة ١٩٣٤)

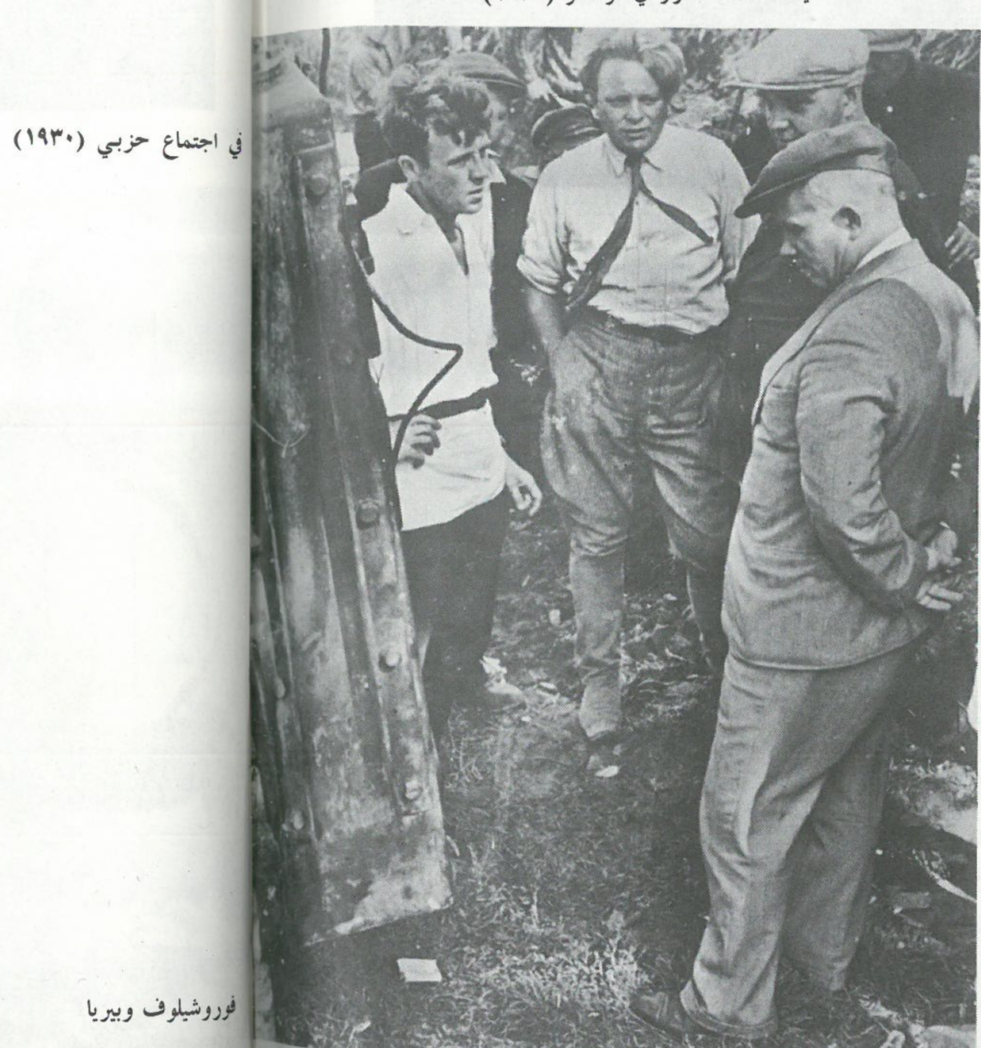


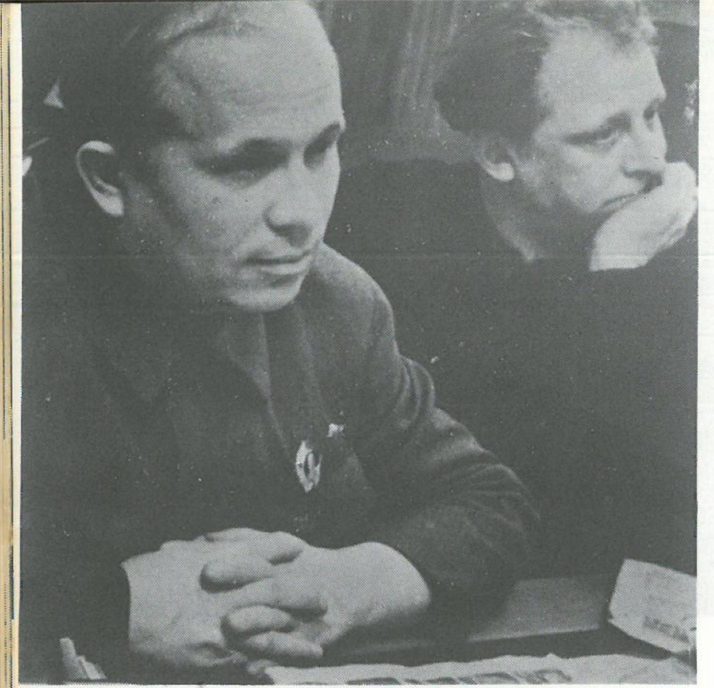


محيياً الناس

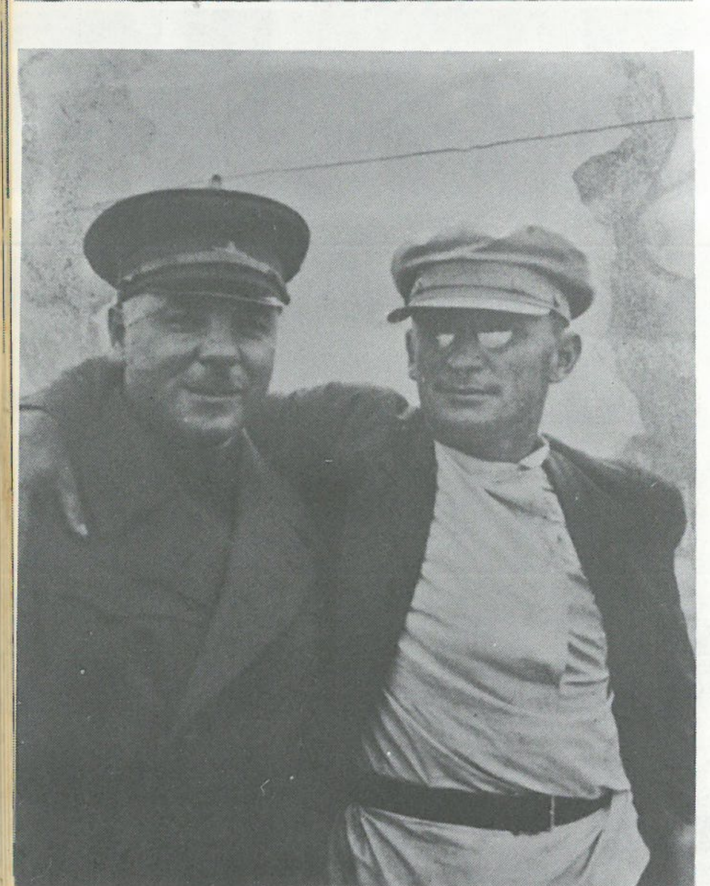


يتفقد اعمال المترو في موسكو (١٩٣٠)



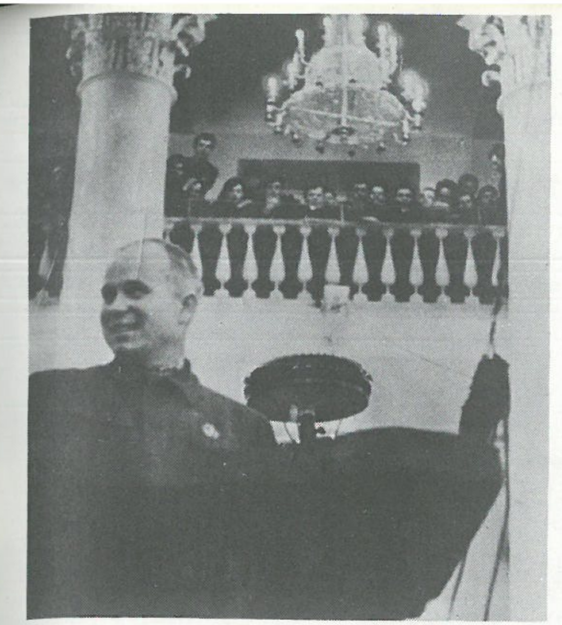


في اجتماع حزبي (١٩٣٠)

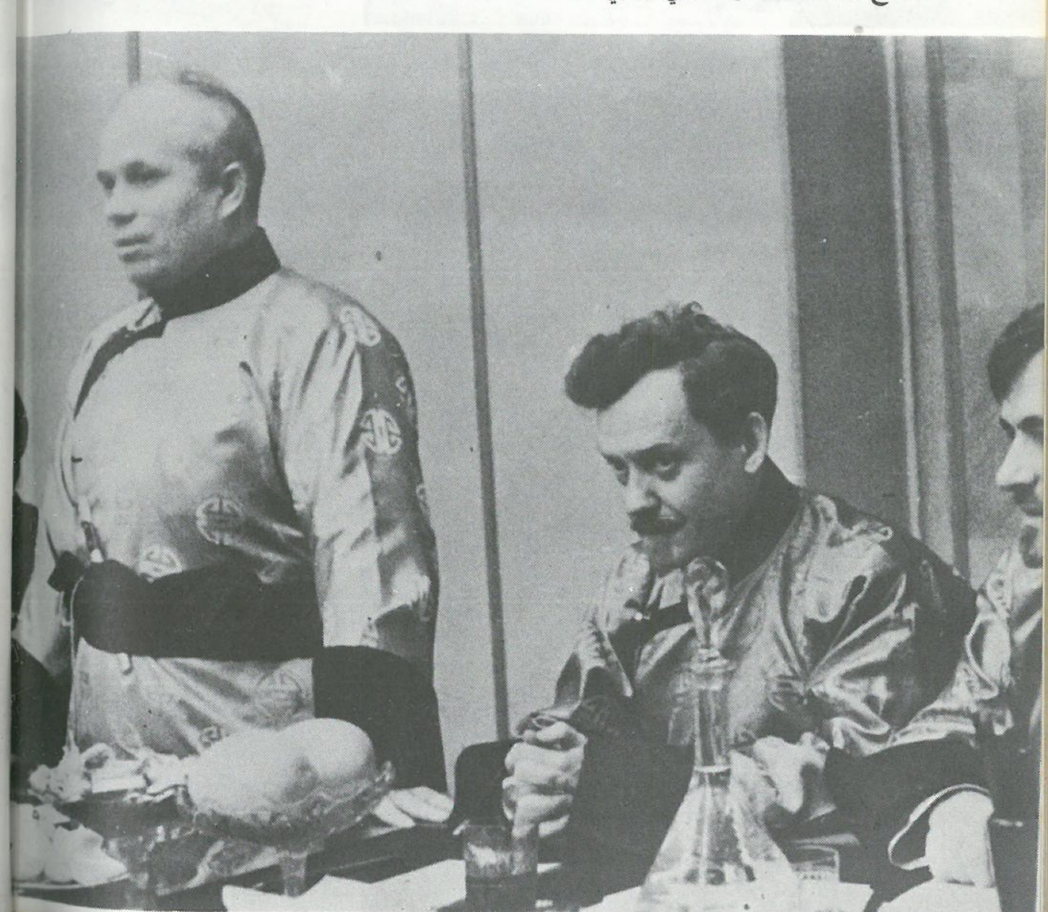


فوروشيلوف وبيريا

في قاعة الاعمدة في موسكو



مع بولغانين باللباس المنغولي الوطني





في اوكرانيا ١٩٣٠

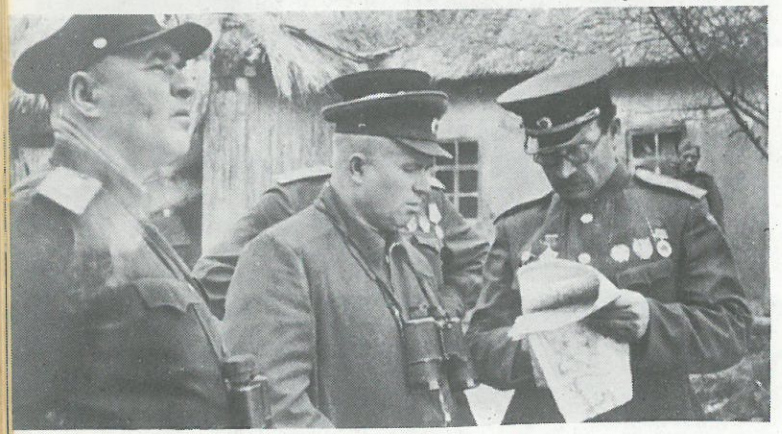
عندما كان عضو لجنة مدينة موسكو قبل سنة ١٩٣٨



فوروشيلوف



مع الجنرالين يابيشف وموسكالنكو .



فورونيزيه في ١٤ تموز ١٩٤٣ مع الجنرال اباناسنكو (الى اليسار) روتمستروف (الى اليمين)

فورونيزيه في ٧ تشرين الثاني ١٩٤١ : الجنرال تيموشنكو والكولونيل بغراميان الى يمين خروشوف .





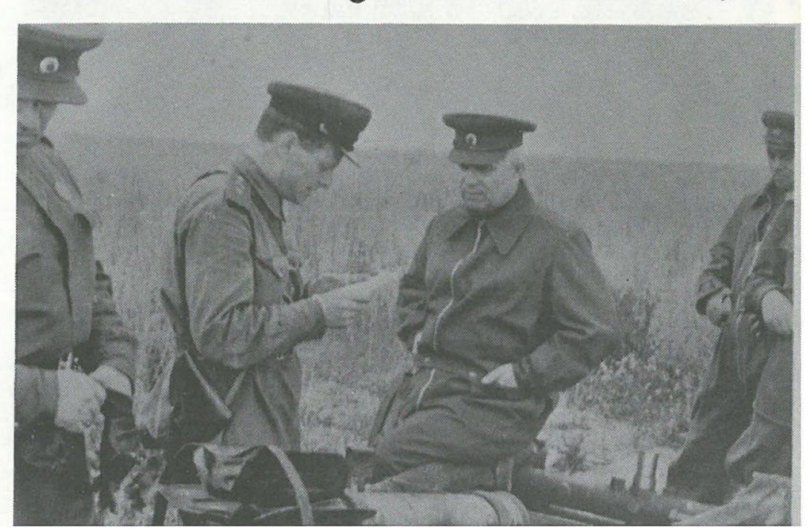
على جبهة فورونيزيه (تموز ١٩٤٣)



مع فاسيلي ستالين سنة ١٩٤١
(او ربما ١٩٤٢)



على جبهة ستالينغراد في تشرين الاول ١٩٤٣ مع الجنرال يريمنكو واركان حربه



في مشاورات مع
مجموعة من الضباط .



مع الجنرال مالينوفسكي سنة ١٩٤٣ (او ربما ١٩٤٤)



مع مجموعة من كبار الضباط في كانون الثاني ١٩٤٤



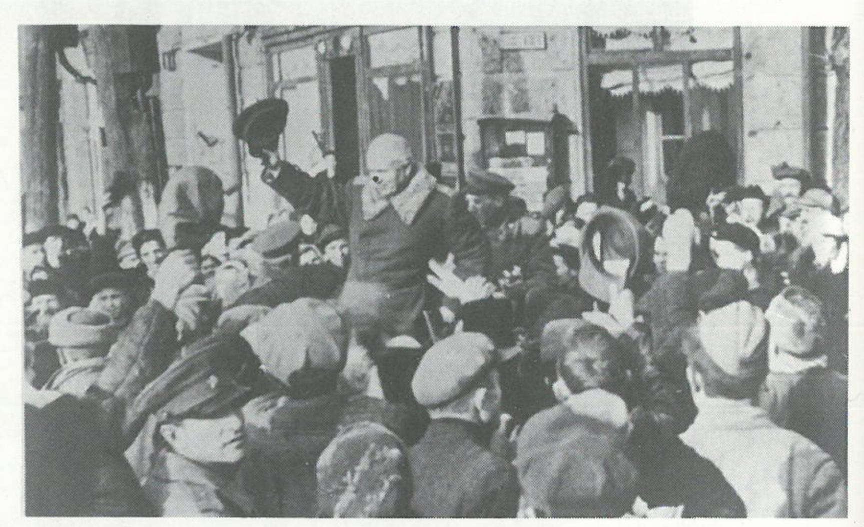
قرب كييف في تشرين الاول ١٩٤٣



في روستوف يوم حررت في ١٨ شباط ١٩٤٣



يوم حررت خاركوف آب ١٩٤٣



- كييف في تشرين الثاني ١٩٤٣



مع كاغانوفيتش (الوسط) ومانيولسكي وزير خارجية اوكرانيا .
اخذت الصورة في اوكرانيا بين ١٩٤٦ و ١٩٤٧



مع ابنته الصغرى هيلين في بارك غوركي في موسكو ١٩٤٥



مع زوجته نينا بتروفنا في كييف سنة ١٩٤٤ .



في اوكرانيا بعد تحريرها سنة ١٩٤٣



التعمير بعد الحرب (١٩٤٦)

ستالين وابنته سفتلانا .

في حفلة ازاحة الستار عن تمثال للينين قرب موسكو سنة ١٩٥٠



عائلة خروشوف سنة ١٩٤٧ . في الصف الخلفي جوليا (ابنة خروشوف من زوجته الاولى غالينا) وردا
في الصف الثاني جوليا ابنة ليونيد ابن خروشوف الذي قتل اثناء الحرب . وسيرجي ثم نينا بتروفنا
وخروشوف . في الصف الاول : هيلين ومعها رفيقة غير معروفة هويتها .



خروشوف وزوجته مع اولادهما هيلين وسيرجي وجوليا وردا وزوجها (الصورة في اوكرانيا) .



في الصين سنة ١٩٥٤ . خروشوف وبولغانين على مطار كانتون .



ماوتسي تونغ وخروشوف وميكو يان .



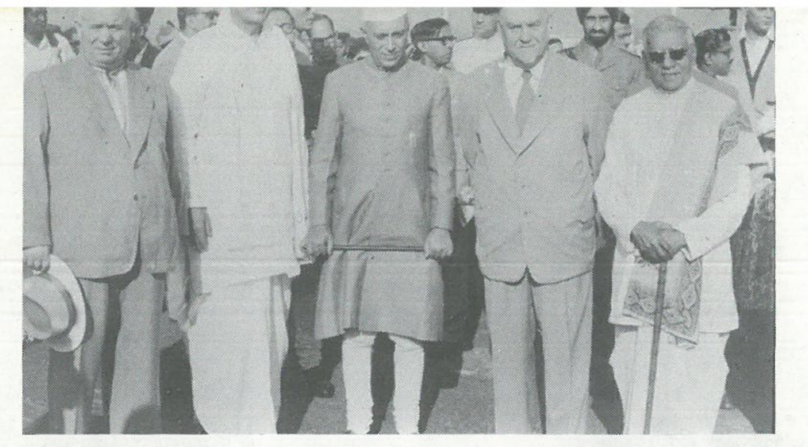
خروشوف وغومولكا
بولونيا سنة ١٩٦٠



يوغوسلافيا سنة ١٩٦٣
السيدتان تيتو وخروشوف .



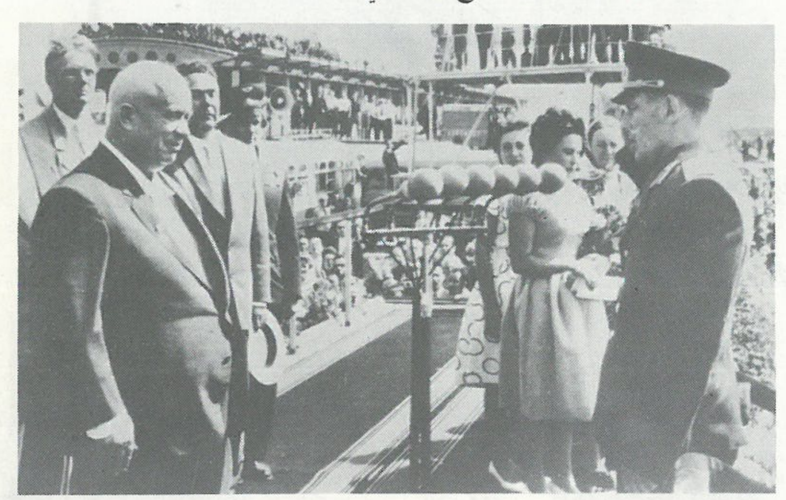
السيدة خروشوف
مع كادار في المجر



خروشوف وبولغانين في الهند مع نهرو والزعماء الهنود سنة ١٩٥٥



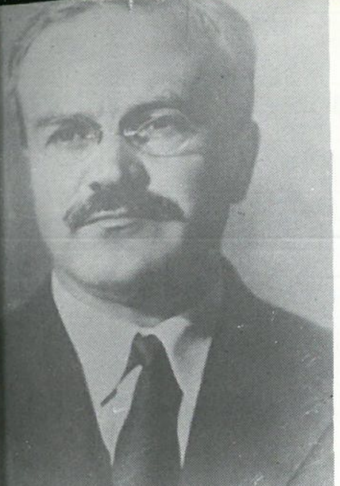
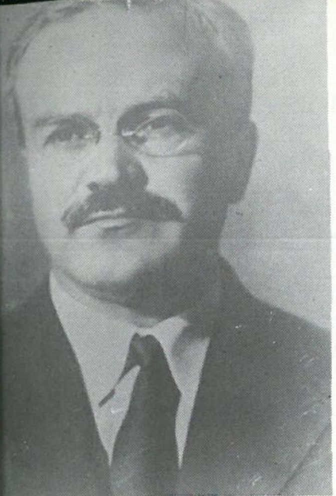
اثناء حفلة صيد قرب كييف : مع بودغورني وغومولكا (٢٢ كانون الاول ١٩٦٢)



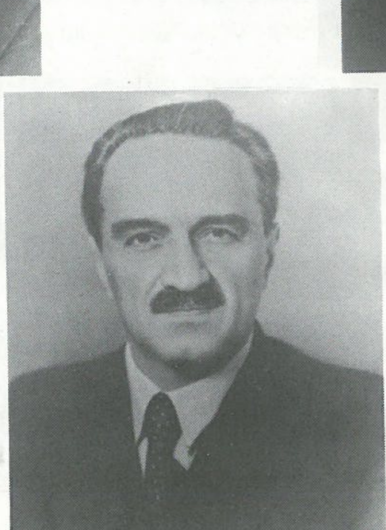
خروشوف يرحب برائد الفضاء تيتوف في آب ١٩٦١ على مطار فنوكوفو



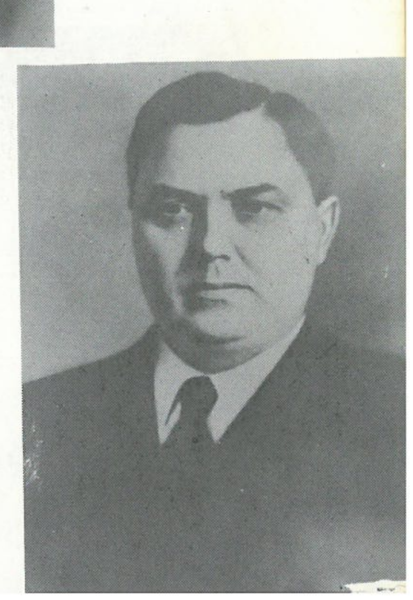
بيريا

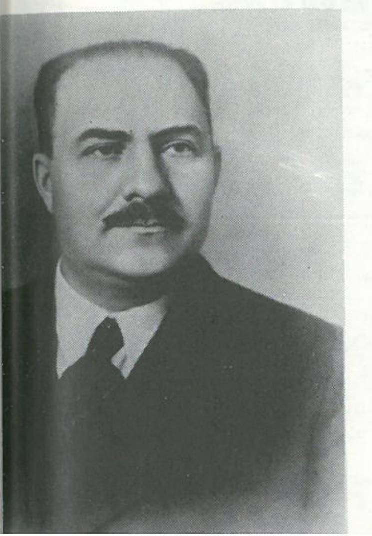
مولوتوف



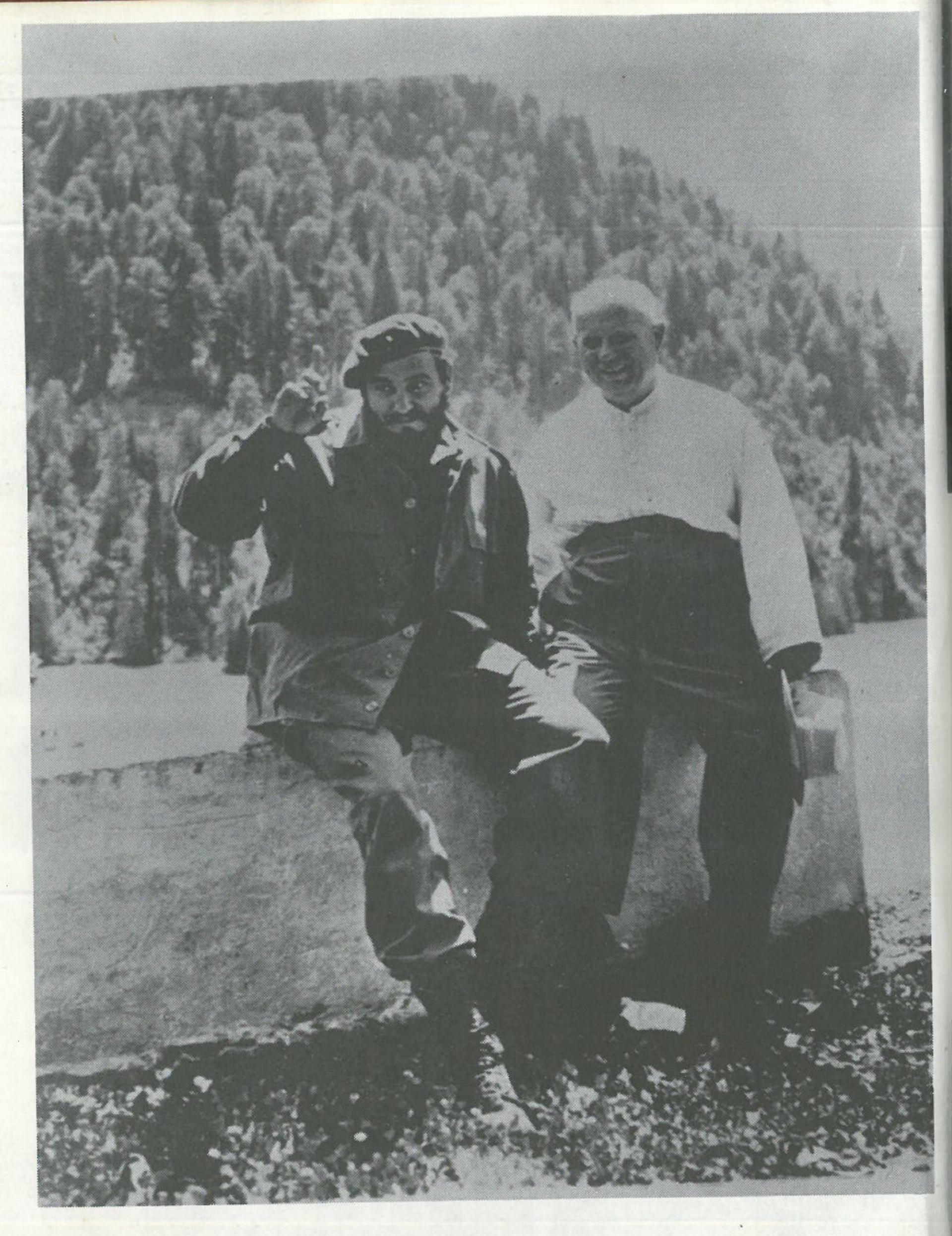
ميكو يان



مالنكوف



كاغانوفيتش



خروشوف وكاسترو بعد ازمة الصواريخ سنة ١٩٦٢



الصورة الرسمية ١٩٦٣